يطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح

إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق

أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه

عثمان أيوب البوريني

محمد سميح الشيخ حسين

2024

المجلد الثاني والعشرون وفيه كتابا ذم الغرور والتوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب ذم الغرور

- بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته
- بيان أصناف المغترِّين وأقسام فِرَق كل صنف

٣٠ - كتاب ذم الغرور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

الله ناصر كل صابر.

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطَوْله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأذل[١]، أحمدُه علىٰ عواطف كرمه وسوابغ نعمه، ونؤمن به أولاً باديًا، وأستهديه قريبًا هاديًا، وأستعينه قادرًا قاهرًا، وأتوكل عليه كافيًا ناصرًا. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، الذي أرسله لإنفاذ أمره وإنهاء عذره وتقديم نذره، فبلَّغ الرسالة صادعًا بها، وحمل علىٰ المَحَجَّة دالاً عليها، وأقام أعلام الاهتداء ومنار الضياء، وجعل أمراس الإسلام متينة، وعُرَىٰ الإيمان به وثيقة. صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الأئمة الأطهار وأصحابه الأنجاب الأخيار والتابعين لهم بإحسان إلىٰ ما بعد القرار وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فهذا شرح كتاب ذم الغرور، وهو العاشر من الربع الثالث من كتاب الإحياء للإمام أبي حامد الغزالي، قدَّس الله سره، وواصَلَ إلينا فتوحَه وبِره، أوضحت فيه سبل النجاة للسالكين، ونبَّهت فيه علىٰ جُمَل من فوائد توقظ المغترِّين، وكشفت فيه عن رموز عجب الخفا، وأوردت فيه من زُبَد إشارات القوم

---

(١) أي: يسرها بعد صعوبتها.

مما رقَّ وصفا، سالكًا مسلك الإيجاز المفيد، معرضًا عن التطويل المملِّ للمريد، سائلاً من الله الإعانة والتوفيق والهداية إلىٰ ابتهاج الطريق[1]، إنه وليُّ كل مأمول والحريُّ بإجابة السُّول.

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور**) أي[2] مفاتيحها، جمع إقليد بالكسر، معرَّب كليد، وهذا كما قالوا: ملامح ومشابه ومحاسن ومذاكير. أو جمع مقليد أو مِقلاد، وبه فسَّر مجاهد قوله تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الزمر: ٦٣، الشورىٰ: ١٢] فقال: أي مفاتيحها[3]. وقال السُّدِّي: أي خزائنها. فهذا قد فسَّر المقاليد بالخزائن، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] وأحسن ما فُسِّر القرآن بالقرآن. وشاهد الإقليد قول تُبَّع:

وأقمنا به من الدهر سبتًا ... وجعلنا لبابه إقليدا[4]

(**وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور**) فما من خير أو شر إلا ومفتاحه في قبضة قدرته وحيطة قهره؛ إذ هو القادر المطلق، أي[5] لا يملكها ولا يتمكَّن من التصرُّف فيها غيره، وهو كناية عن كمال قدرته وحفظه للأمور، وفي الجملتين

---

(١) أي: تحسينه. وانظر: تاج العروس ٥/ ٤٣١.

(٢) تهذيب اللغة للأزهري ٩/ ٣٢. بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤/ ٢٩٤. وفي التهذيب أن الإقليد هو المفتاح بلغة أهل اليمن.

(٣) وهكذا فسره أيضا ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن زيد، كما في جامع البيان للطبري ٢٠/ ٢٤٢، ٤٧٨، ٤٧٩. وفيه أيضا تفسير السدي المقاليد بالخزائن، وفيه قول مجاهد أن المقاليد هي المفاتيح بالفارسية.

(٤) هذا البيت ضمن قصيدة طويلة أنشأها تبع أبي كرب ملك اليمن حين كسا الكعبة، أوردها ابن هشام في كتاب التيجان في ملوك حمير ص ٤٧١ - ٤٧٣. والشطر الأول فيه:

وأقمنا به من الشهر سبعا

(٥) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٤٧.

مزيد دلالة علىٰ الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرَّف فيها إلا مَن بيده مفاتيحها (**مُخرِج أوليائه**) بهدايته وتوفيقه (**من الظلمات**) ظلمات[١] الجهل واتِّباع الهوىٰ وقبول الوساوس والشُّبَه المؤدية إلىٰ الكفر (**إلىٰ النور**) أي الهدىٰ الموصل للإيمان (**ومُورِد أعدائه**) ممَّن ثبت في علمه أنه لا يؤمن (**ورطات الغرور**) والشبهات، وذلك لفساد استعدادهم وانهماكهم في الشهوات. وأصل الغرور: الغفلة وسكون النفس إلىٰ ما يوافق الهوىٰ ويميل إليه الطبع[٢] (**والصلاة علىٰ**) سيدنا (**محمد مُخرِج الخلائق من الديجور**) أي من ظلمة الشكوك والشبهات إلىٰ نور اليقين والبيِّنات. وأصل الديجور: ظلمة الليل وشدة سواده، والجمع: دياجير[٣]، ويُستعار لظلمات الكفر والجحود وفساد العقائد (**وعلىٰ آله وأصحابه الذين لم تغرَّهم الحياة الدنيا**) أي لم تأخذهم غِرَّة بالكسر[٤] وهي الخصلة التي يُغترُّ بها ظاهرها حسن ومآلها قبيح (**ولم يغرَّهم بالله الغَرُور**) كصبور، كل[٥] ما يغرُّك من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسِّر بالشيطان وبالدنيا لأنها تغُر وتضر وتمر، وأما الشيطان فهو أقوىٰ الغارِّين وأخبثهم. وإغراره بالإنسان بأن يرقبه التوبة والمغفرة فيجسره علىٰ المعاصي (**صلاة تتوالىٰ**) أي تتضاعف وتتكرَّر (**علىٰ ممرِّ الدهور**) علىٰ مرور أزمان بعد أزمان بحيث لا تنقطع (**ومَكَرِّ الساعات والشهور**) والمَكَرُّ بمعنىٰ الممر، أي علىٰ مرور كل ساعة من الساعات في ضمن الأيام والليالي من الشهور الكارَّة (**أما بعد، فمفتاح السعادة**) التي هي[٦] معاونة الأمور الإلهية

---

(١) السابق ١/ ١٥٥.

(٢) لو قال: وهو سكون النفس... إلخ؛ لكان أجمل وأسد.

(٣) انظر: تاج العروس ١١/ ٢٧٥.

(٤) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٢٥١.

(٥) من هنا إلىٰ قوله (وأخبثهم) عن كتاب بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤/ ١٢٩ الذي نقله عن المفردات للراغب ص ٣٥٩.

(٦) المفردات للراغب ص ٢٣٢.

للإنسان علىٰ نيل الخير (**التيقُّظ**) أي الانتباه (**والفِطنة**) وهي[١] سرعة هجوم النفس علىٰ حقائق معانىٰ ما توردە الحواس عليها (**ومنبع الشقاوة**) وهي ضد السعادة، ومنبع كل شيء: أصله (**الغرور والغفلة**) تقدم معنىٰ الغرور قريبًا. والغفلة عبارة عن فقد الشعور بما حقُّه أن يشعر به[٢]. أو هي الذهول عن الشيء[٣]. وقال بعضهم[٤]: هي سهو يعتري [الإنسان] من قلة التحفُّظ والتيقُّظ. وقيل: بل هي متابعة النفس علىٰ ما تشتهيه[٥] (**فلا نعمة لله علىٰ عباده أعظم من الإيمان**) به وحده (**والمعرفة**) وبها تكمُل لذةُ الإيمان (**ولا وسيلة إليه**) أي إلىٰ الإيمان المستكمَل بالمعرفة (**سوىٰ انشراح الصدر بنور البصيرة**) بأن ينفسح لقبوله (**ولا نقمة أعظم من الكفر**) بالله (**والمعصية، ولا داعي إليهما**) أي إلىٰ ارتكابهما (**سوىٰ عمىٰ القلب بظلمة الجهالة**) بأن يغلب عليه الجهل فيظلمه فيعميه عن درك الحقائق ويدعوه إلىٰ عدم الانقياد للحق (**فالأكياس**) أي العقلاء (**وأرباب البصائر**) المضيئة (**قلوبهم كمِشْكاة**) أي[٦] بمثابة كوَّة في الحائط غير نافذة (**فيها مصباح**) أي سراج ضخم ثاقب، وقيل: المشكاة: الأنبوبة في وسط القنديل، والمصباح: الفتيلة المشتعلة (**المصباح في زجاجة**) أي في قنديل من الزجاج (**الزجاجة كأنَّها كوكب دُرِّيٌّ**) مضيء متلألئ (**يوقَد من شجرة مباركة زيتونة**) أي ابتداء ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رُويت ذُبالته بزيتها (**لا شرقية ولا غربية**) تقع الشمس عليها حينًا دون حين، بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي تكون علىٰ قلة جبل أو صحراء واسعة، فإن ثمرتها تكون أجود[٧] وزيتها أصفىٰ (**يكاد زيتها**

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٢٦٢.

(٢) أورده البقاعي في نظم الدرر ١/ ٤٨٣.

(٣) هذا التعريف نسبه المناوي في التوقيف ص ٢٥٢ لأبي البقاء العكبري.

(٤) هو الراغب في المفردات ص ٣٦٢.

(٥) ذكره الجرجاني في التعريفات ص ١٦٨.

(٦) أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ١٠٧ - ١٠٨.

(٧) في أنوار التنزيل: أنضج.

يضيء) أي يكاد يضيء بنفسه **(ولو لم تمسسه نارٌ)** لتلألئه وفرط وبيصه **(نور علىٰ نور)** أي نور متضاعف، فإنَّ نور المصباح زاد في إنارته صفاءُ الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعَّته، وقد ذُكر في معنىٰ التمثيل وجوه، والأوفق للسياق أنه تمثيل لِما نوَّر اللهُ به قلوب أوليائه من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثِّ فيها من مصباحها، وتؤيِّده قراءة أبيٍّ بن كعب «مَثَل نور المؤمن». وقيل: بل هو تمثيل لِما منح الله به عباده من القوىٰ الداركة الخمس وهي: الحسَّاسة التي تُدرَك بها المحسوسات بالحواس الخمس، والخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها علىٰ القوة العقلية متىٰ شاءت، والعلمية[1] التي تدرك الحقائق الكلية، والمفكِّرة وهي التي تؤلِّف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم تعلم، والقوة القدسية التي تتجلَّىٰ فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصَّة بالأنبياء والأولياء المعنيَّة بقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت، فإن الحسَّاسة كالمشكاة؛ لأن محلها كالكوَّة، ووجهها إلىٰ الظاهر، ويُدرَك ما وراءها، وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات. والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدرَكات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشتمل عليه من المعقولات. والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية. والمفكِّرة كالشجرة المباركة؛ لتأدِّيها إلىٰ ثمرات لا نهاية لها، والزيتونة المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصباح التي لا تكون شرقية ولا غربية؛ لتجرُّدها عن اللواحق الجسمية. والقوة القُدسية كالزيت [فإنها] لصفائها وشدة ذكائها تكاد تضيء بالمعارف من غير تعلُّم [ولا تفكُّر].

وقد أوسع الكلامَ علىٰ هذا المقام المصنفُ في كتابه مشكاة الأنوار، وتقدم شيء من ذلك في كتاب عجائب القلب.

---

(١) في أنوار التنزيل: والعاقلة.

(والمغترُّون) بأعمالهم[1] التي يحسبون أنها صالحة نافعة عند الله فإذا هي لاغية عند الله في العاقبة فهؤلاء **(قلوبهم)** خالية عن نور الحق **(كظلمات)** متراكمة **(في بحر لُجِّي)** أي عميق **(يغشاه)** أي البحر **(موج من فوقه موج)** أي أمواج مترادفة **(من فوقه)** أي الموج الثاني **(سحاب)** غطىٰ النجوم وحجب أنوارها **(ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده)** وهي أقرب ما يرىٰ إليه **(لم يكدْ يراها)** أي لم يقرُب أن يراها فضلاً عن أن يراها **(ومَن لم يجعل الله له نورًا)** أي مَن لم يقدِّر له الهداية ولم يوفِّقه لأسبابها **(فما له من نور)** بخلاف الموفَّق الذي له نور علىٰ نور. وقد تقدم الكلام علىٰ هذه الآية في آخر كتاب عجائب القلب **(والأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم)** أي[2] يعرِّفهم طريق الحق ويوفِّقهم لأسباب الهداية **(فشرح صدورهم للإسلام والهدىٰ)** أي اتسعت وانفسحت لقبولهما، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهيَّأة لحلوله فيها، مصفَّاة عمَّا يمنعه وينافيه. وإليه أشار ﷺ حين سُئل عنه فقال: «نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح». فقالوا: هل لذلك من أمارة يُعرَف بها؟ فقال: «نعم، الإنابة إلىٰ دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله» **(والمغترُّون هم الذين أراد الله أن يضلَّهم فجعل صدورهم ضيقة حرجة)** أي شديدة الضيق بحيث تنبو عن قبول الحق فلا يدخلها الإيمان **(كأنما يصَّعَّدون في السماء)** شُبِّهَ مبالغةً في ضيق صدورهم بمَن يزاول ما لا يقدر عليه، فإنَّ صعود السماء مَثَل فيما يبعُد عن الاستطاعة، وتنبيه علىٰ أن الإيمان يمتنع عنه كما تمتنع صفة الصعود. وقد أشار بذلك إلىٰ قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥] **(والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته)** أي

(١) السابق ٤/ ١٠٩.

(٢) السابق ٢/ ١٨١.

عين بصيرته (**ليكون بهداية نفسه كفيلاً**) أي متكفِّلاً بضبطها ومراعاتها (**وبقي في العمىٰ**) أي ظلمة جهله (**فاتخذ الهوىٰ قائدًا**) يقوده حيث شاء (**والشيطان دليلاً**) وقرينًا ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨].

ومن كان الغراب له دليلاً يكون مآله جيف الكلاب[١]

(﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾) أي دار الدنيا (﴿أَعْمَىٰ﴾) لم يهتدِ لنور إيمانه (﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾) أي أكثر عمًىٰ (﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾) [الإسراء: ٧٢] وقيل: المراد بالعمىٰ الأول عمىٰ القلب، وبالثاني عمىٰ البصر، بدليل قوله عَزَّوَجَلَّ حكايةً عنه: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ فيأتيه النداء بالجواب: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٥ - ١٢٦] (**وإذا عُرف أن الغرور هو أم الشقاوات**) أي أصلها (**ومنبع المهلكات**) منه تتفرَّع (**فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثُر وقوعُ الغرور فيه؛ ليحذره المريد**) السالك في طريق الحق (**بعد معرفته فيتَّقيه**) ويتجنَّبه (**فالموفَّق من العِباد مَن عرف مداخل الآفات والفساد**) في أعماله (**فأخذ منها حذره**) واتَّقاها (**وبنىٰ علىٰ الحزم والبصيرة أمره**) ومَن لا يعرف الشر يقع فيه وهو لا يشعر (**ونحن**) بحمد الله تعالىٰ (**نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترِّين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغترُّوا بمبادئ الأمور**) وأوائلها (**الجميلة ظواهرها، القبيحة سرائرها**) أي بواطنها (**ونشير إلىٰ وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإنَّ ذلك وإن كان أكثر ممَّا يُحصَىٰ ولكن يمكن التنبيه علىٰ أمثلة تغني عن الاستقصاء**) أي عن طلب النهاية فيه (**وفِرَق**

---

(١) البيت في حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري ٢/ ٢٤٤ بلا نسبة، وفيه:

يمر به علىٰ جيف الكلاب

ولأبي الشيص الخزاعي:

ومن يكن الغراب له دليلا فناووس المجوس له مصير

وهو في ديوانه ص ٥٩ (ط - المكتب الإسلامي).

المغترين كثيرة، لكن تجمعهم أربعة أصناف: الصنف الأول من العلماء، الصنف الثاني من العُبَّاد، الصنف الثالث من المتصوفة، الصنف الرابع من أرباب الأموال) هكذا علىٰ هذا الترتيب، فالعلم هو الأصل، والعبادة تنشأ عنه، والتصوف ينشأ عنهما (والمغترُّ من كل صنف فِرَق كثيرة، وجهات غرورهم مختلفة، فمنهم مَن رأىٰ المنكر معروفًا كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميِّز بين ما يسعىٰ فيه لنفسه وبين ما يسعىٰ فيه لله تعالىٰ كالواعظ الذي غرضه) من وعظه (القبول والجاه) فقط (ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب) وهو المخ الخالص من الثمرة (ويشتغل بالقشر) الذي يكون من فوق اللب (كالذي يكون همُّه في الصلاة مقصورًا علىٰ تصحيح مخارج الحروف) وكيفية النطق بها (إلىٰ غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفِرَق وضرب الأمثلة، ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحدِّه).

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾) أي لا توقعنَّكم في الغرور (﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾) [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] تقدم أنه فُسِّر بالشيطان؛ لأنه أكبر الغارِّين، وبالدنيا فإنها تغر وتضر وتمر (وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾) أي تأخَّرتم عن نصرة الرسول (﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾) أي شككتم (﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾) [الحديد: ١٤] أي أوقعتكم في الغرور (**الآية**) إلىٰ آخرها (**كافٍ في ذم الغرور، وقد قال رسول الله ﷺ: حبَّذا نوم الأكياس وفِطرهم كيف يغبنون سهر الحمقىٰ واجتهادهم، ولَمثقالُ ذرَّة من صاحب تقوىٰ ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترِّين**) قال العراقي[(١)]: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين[(٢)] من قول أبي الدرداء بنحوه، وفيه انقطاع. وفي بعض الروايات: أبي الورد، بدل: أبي الدرداء، ولم أجده مرفوعًا.

قلت: ورواه أيضًا أبو نعيم في الحلية[(٣)] من قول أبي الدرداء، قال: حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يزيد، حدثنا أبو سعيد الكِندي، عمَّن أخبره عن أبي الدرداء أنه قال: يا حبَّذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يعيبون سهر الحمقىٰ وصيامهم؟! ومثقال ذرَّة من بِر صاحب تقوىٰ ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين». والانقطاع الذي أشار إليه العراقي هو ما بين أبي سعيد الكندي وبين أبي الدرداء.

---

(١) المغني ٢/ ٩٧٣.

(٢) اليقين ص ٢١.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢١١.

(**وقال ﷺ: الكيِّس**) كسيد، هو الظريف الفَطِن، وقد كاسَ كَيْسًا (**مَن دان نفسَه**) أي[١] استعبدها وقهرها بأن جعلها مطيعة منقادة لأوامر ربها. قال الشيخ الأكبر قُدِّس سره[٢]: كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم علىٰ ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيِّدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم من قول وعمل وقابلوا كُلاًّ بما يستحقه: إن استحق استغفارًا استغفروا، أو توبة تابوا، أو شكرًا شكروا، ثم ينامون، فزدنا عليهم في محاسبة الخواطر، فكنا نقيِّد ما تحدثنا به نفوسنا وتهمُّ به ونحاسبها عليه (**وعمل لِما بعد الموت**) قبل نزوله؛ ليصير علىٰ نور من ربه، فالموت عاقبة أمور الدنيا، فالكيِّس مَن أبصر العاقبة (**والأحمق**) وفي رواية «العاجز» بالعين المهملة والزاي، ورواية العسكري في الأمثال «الفاجر» بالفاء (**مَن أتبع نفسه هواها**) فلم يكفَّها عن الشهوات ولم يمنعها عن مقارفة المحرَّمات واللذَّات (**وتمنَّىٰ علىٰ الله**) زاد في رواية: الأمانيَّ، بتشديد الياء، جمع الأمنية وهي طلب ما لا طمع فيه أو ما فيه عسرٌ[٣]، أي فهو علىٰ تقصيره في طاعة ربه واتِّباع شهوات نفسه لا يستعد ولا يعتذر ولا يرجع، بل يتمنىٰ علىٰ الله العفوَ والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار.

قال العراقي[٤]: رواه الترمذي[٥] وحسَّنه وابن ماجه[٦] من حديث شداد بن أوس.

---

(١) فيض القدير ٥/ ٦٧ - ٦٨.

(٢) الفتوحات المكية ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) هذا التعريف ذكره ابن هشام الأنصاري في كتاب أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك ١/ ٣٢٨ (ط - المكتبة العصرية).

(٤) المغني ٢/ ٩٧٣.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٤٧.

قلت: ورواه أيضًا أبو داود الطيالسي[١] وأحمد[٢] وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس[٣] والحارث بن أبي أسامة والبيهقي[٤] والعسكري في الأمثال والقضاعي[٥] والطبراني[٦] والحاكم[٧] من حديث ابن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس به مرفوعًا. وأخرجه أبو نعيم في الحلية[٨] من طريق ابن المبارك ثم من طريق أبي داود الطيالسي والحارث بن أبي أسامة فقال: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، يعني الطيالسي. ح. وحدثنا أبو بكر بن خَلاَّد، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا أبو النضر، قالا: حدثنا عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ ... فذكره، ثم قال: هذا حديث مشهور بابن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم، رواه عنه المتقدمون، ورواه عمرو بن بِشر بن السرح عن أبي بكر بن أبي مريم مثله، ورواه ثور بن يزيد وغالب عن مكحول عن ابن غُنم عن شداد عن النبي ﷺ مثله، حدثناه سليمان بن أحمد، حدثنا مكحول البيروتي، حدثنا إبراهيم بن بكر بن عمرو قال: سمعت أبي يحدِّث عن ثور وغالب بإسناده. ا.هـ. كلام أبي نعيم. وكأنَّه نظر إلىٰ هذا الحاكمُ فصحَّحه، وتعقَّبه الذهبي بأن ابن أبي مريم واهٍ. وكذا قال ابن طاهر: إن مَداره علىٰ أبي بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف جدًّا[٩]. وكأنهم لم يروا ما توبع عليه، فتأملْ.

---

(١) مسند الطيالسي ٢/ ٤٤٥.

(٢) مسند أحمد ٢٨/ ٣٥٠.

(٣) محاسبة النفس ص ١٩.

(٤) السنن الكبرىٰ ٣/ ٥١٧.

(٥) مسند الشهاب ١/ ١٤١.

(٦) المعجم الكبير ٧/ ٣٣٨، ٣٤١.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٥، ٤/ ٣٨٢.

(٨) حلية الأولياء ١/ ٢٦٧.

(٩) في ذخيرة الحفاظ لابن طاهر ٤/ ٩٦: «رواه أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب =

والله أعلم. وقال العسكري: هذا الحديث فيه ردٌّ علىٰ المرجئة وإثبات للوعيد.

وروىٰ البيهقي[١] من طريق عون بن عمارة، عن هشام بن حسان، عن ثابت، عن أنس رفعه: «الكيِّس مَن عمل لِما بعد الموت، والعاري العاري عن الدين، اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة».

(**وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل علىٰ ذم الغرور؛ لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل؛ إذ الجهل**) في[٢] الأصل: خلوُّ النفس عن العلم. وقد جعله بعض [المتكلمين] معنًىٰ مقتضيًا للأفعال الجارية علىٰ [غير] النظام، ثم هو نوعان: الأول: (**هو أن يعتقد الشيءَ ويراه علىٰ خلاف ما هو به**) وعليه. والثاني: فعلُ الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعَل، اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أم فاسدًا كتارك الصلاة عمدًا. ومن أنواع الجهل: الجهل بمعنىٰ الذم، ومن أنواعه البسيط والمركَّب (**والغرور هو جهل، إلا أن كل جهل ليس بغرور، بل يستدعي الغرورُ مغرورًا فيه مخصوصًا ومغرورًا به وهو الذي يغره، فمهما كان الجهول المعتقد شيئًا يوافق الهوىٰ وكان السبب الموجِب للجهل عن شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً**) في الحقيقة (**سُمِّي الجهل الحاصل به غرورًا**) فهو أخصُّ من الجهل (**فالغرور هو سكون النفس إلىٰ ما يوافق الهوىٰ ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان**) أشار إليه الراغب في المفردات وصاحب القاموس في البصائر (**فمَن اعتقد أنه علىٰ خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور**) قد غرَّه الشيطان بتلك الشبهة حين ألقاها في مخيلاته، وتدرَّج في تمكينها

= عن شداد بن أوس، وأبو بكر ضعيف».

(١) شعب الإيمان ١٣/ ١٢٨ - ١٢٩، ولفظه: «جاءت بي أم سليم إلىٰ النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، خادمك أنس فادع له وهو كيس وهو عارٍ يا رسول الله، فإن رأيت أن تكسوه إزارين يستتر بهما. فقال رسول الله ﷺ: الكيس من عمل لما بعد الموت، والعاري العاري من الدين، اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم اغفر للأنصار والمهاجرة».

(٢) من هنا إلىٰ قوله (بمعنىٰ الذم) عن المفردات للراغب ص ١٠٢.

منه فيها حتىٰ رسخت فأورثت اعتقاد الخيرية **(وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه)** وسبب خطئهم قيام تلك الشبهة في ضمائرهم وعدُّها دليلاً **(فأكثر الناس إذا مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم)** وتنوَّعت **(واختلفت درجاتهم)** فيه **(حتىٰ كان غرور بعضهم أظهر وأشد من)** غرور **(بعض، وأظهرُها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفسَّاق، فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور)** بها تتضح تلك الحقيقة، فنقول:

(المثال الأول: غرور الكفار) وهم[1] المحجوبون بمحض الظُّلمة، وهم أقسام:

الأول: الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويستحبُّون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، وهؤلاء صنفان: صنف تشوَّف إلىٰ طلب سبب لهذا العالَم فأحاله علىٰ الطبع، والطبع عبارة عن صفة مركوزة في الأجسام حالَّة فيها، وهي مظلمة؛ إذ ليس لها معرفة وإدراك، ولا خبر لها من نفسها ولا ممَّا يصدر منها، وليس لها نور يُدرَك بالبصر الظاهر أيضًا. الصنف الثاني: هم الذين شُغلوا بأنفسهم ولم يتفرَّغوا لطلب السبب أيضًا، بل عاشوا عيش البهائم، فكان حجابهم أنفسهم المكدَّرة وشهواتهم المظلمة، فلا ظلمة أشد من الهوىٰ والنفس. وهؤلاء ينقسمون فِرقًا، الأولىٰ زعمت أن غاية الطلب في الدنيا هي [قضاء] الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذَّات البهيمية، فهؤلاء عبيد اللذَّات يعبدونها ويطلبونها، ويعتقدون أن نيلها غاية السعادة، رضوا لأنفسهم أن يكونوا بمنزلة البهائم بل أخس حالاً منها، فأيُّ ظلمة أشد من ذلك؟ فقد حُجب هؤلاء بمحض الظلمة. والثانية رأت أن غاية السعادات هي الغلبة والاستيلاء والفتك والسبي والقتل والأسر، وهم محجوبون بظلمة الصفات السبعية؛ لغلبتها عليهم. والثالثة رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار؛ لأن المال هو آلة قضاء الشهوات كلها، وبه يحصل للإنسان الاقتدار علىٰ قضاء

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٩٠ - ٩٤.

الأوطار، فهؤلاء همَّتهم جمع الأموال والاستكثار منها واكتساب الضِّياع والعقار والخيل والأنعام والحرث بركوب الأخطار في البوادي والبحار. والرابعة ترقَّت عن جهالة هؤلاء وتعاقلت وزعمت أن أعظم السعادات اتساع الجاه والصيت وانتشار الذِّكر وكثرة الأتباع ونفوذ الأمر المطاع، فتراها لا همَّ لها إلا المراءاة وعمارة مطارح أبصار الناظرين، حتىٰ إن الواحد قد يجوع في بيته ويتحمَّل الضر ويصرف ماله إلىٰ ثياب يتجمَّل بها عند خروجه كيلا ينظر إليه الناس بعين الحقارة، وأصناف هؤلاء لا يُحصَون، وكلهم محجوبون عن الله بمحض الظلمة وهي نفوسهم المظلمة (**فمنهم مَن غرَّتهم الحياة الدنيا، ومنهم مَن غرَّهم بالله الغَرُور**) ويدخل في جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم «لا إله إلا الله»، ولكن [ربما] حملهم علىٰ ذلك خوفٌ أو استظهار بالمسلمين وتجمُّل بهم واستمداد من مالهم أو لأجل التعصُّب لنصرة مذهب الآباء، وهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة علىٰ العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمة إلىٰ النور، بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات، أما مَن أثَّرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته وسرَّته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية.

القسم الثاني: طائفة حُجبوا بنور مقرون بظلمة، وهم ثلاثة أصناف: صنف منشأ ظلمتهم من الحس، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة. وتحت كل صنف طوائف، فمن طوائف الصنف الأول: عَبَدة الأوثان، وعبدة الجمال المطلق، وعبدة النار، وعبدة الكواكب، والثنوية.

(**أما الذين غرَّتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا: النقد**) وهو الحاضر المعجَّل في الحال (**خير من النسيئة**) وهو الغائب المقدَّر بالأجل، فعيلة من نسأ الأمرَ: إذا أخَّره (**والدنيا نقد والآخرة نسيئة، فإذًا هي خير، فلا بد من إيثارها**) علىٰ الآخرة (**وقالوا**) أيضًا: (**اليقين خير من الشك، ولذَّات الدنيا يقين**) أي متيقَّن بها؛ لحصولها في الحال (**ولذات الآخرة شكٌّ**) إذ هي غير مرئيَّة وإنما يُحكىٰ عنها (**فلا نترك اليقين**

بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياسَ إبليس حيث قال) في معرض تفضيل نفسه علىٰ آدم عليه السلام: **(أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين)** والنار خير من الطين؛ إذ هي جوهر نوراني، والطين جوهر ظلماني **(وإلىٰ هؤلاء الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾)** أي استبدلوها بها **(﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾)** يوم القيامة **(﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾)** [البقرة: ٨٦] في الدنيا، أو لا يُغاثون في الآخرة **(وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان. أما التصديق بمجرد الإيمان فأن يصدِّق الله تعالىٰ في قوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾)** أي يفنىٰ **(﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾)** [النحل: ٩٦] **لا نفاد له (وفي قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾** [القصص: ٦٠، الشورىٰ: ٣٦] **وفي قوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾** [الأعلىٰ: ١٧] **وفي قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾** [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠] **وفي قوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾)** [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] **فإذا صدَّق الله** تعالىٰ في هذه الأقوال انمحت ظلمة الكفر عن قلبه وارتسم نور ذلك التصديق فيه، فهذا مبدأ الأنوار **(وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك طوائف الكفار)** من عبدة الأوثان والكواكب **(فقلَّدوه وصدَّقوه وآمنوا ولم يطالبوه بالبرهان)** قال العراقي[١]: المشهور في السِّيَر من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم، وهي عند أحمد[٢] بإسناد جيد من حديث جابر، وفيه: حتىٰ بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدَّقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلىٰ أهله فيسلمون بإسلامه ... الحديث.

(ومنهم من قال: نشدتك الله) أي حلَّفتك به **(أبعثك الله رسولاً؟ فكان يقول: نعم، فيصدِّق)** قال العراقي[٣]: متفق عليه[٤] من حديث أنس في قصة ضمام بن

---

(١) المغني ٢/ ٩٧٣.
(٢) مسند أحمد ٢٢/ ٣٤٦ - ٣٤٨، ٢٣/ ٢٢ - ٢٤.
(٣) المغني ٢/ ٩٧٣ - ٩٧٤.
(٤) صحيح البخاري ١/ ٣٩. صحيح مسلم ١/ ٢٦.

ثعلبة وقوله للنبي ﷺ: آلله أرسلك إلىٰ الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم». وفي آخره: فقال الرجل: آمنتُ بما جئتَ به. وللطبراني[1] من حديث ابن عباس في قصة ضمام: قال: نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبُك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن نَدَع اللات والعزَّىٰ؟ قال: «نعم ...» الحديث. انتهىٰ.

قلت: حديث[2] ضمام في الصحيحين من رواية أنس قال: بينما نحن عند النبي ﷺ إذ جاء أعرابي فقال: أيُّكم ابن عبد المطلب؟ ... الحديث، وفيه أنه أسلم وقال: أنا رسول مَن ورائي من قومي، وأنا ضِمام بن ثعلبة. ومَداره عند البخاري علىٰ الليث عن سعيد المقبري عن شريك عن أنس، وعلَّقه البخاري أيضًا ووصله [مسلم] من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس. وأخرجه النسائي[3] والبغوي[4] من طريق عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة، وعدُّوه وهمًا في السند، وفي آخر المتن قبل قوله «وأنا ضمام بن ثعلبة» قال: فأما هذه الهنات - يعني الفواحش - فوالله إنَّا كنا نتنزَّه عنها في الجاهلية. فلما أن ولَّىٰ قال رسول الله ﷺ: «فقهَ الرجلُ». وكان عمر رضي الله عنه يقول: ما رأيت أحدًا أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة». وروىٰ أبو داود من طريق [ابن] إسحاق عن سلمة بن كُهَيل وغيره عن كُرَيب عن ابن عباس قال: بعث بنو سعد ضمامَ ابن ثعلبة إلىٰ النبي ﷺ ... فذكره مطوَّلاً، وفي آخره: فما سمعنا بوافد قوم قط كان أفضل من ضمام[5]. قال

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ١٩٣ - ١٩٤.

(٣) سنن النسائي ص ٣٣٤.

(٤) معجم الصحابة ٣/ ٤٠١ - ٤٠٢.

(٥) اقتصر أبو داود في سننه ١/ ٣٨١ - ٣٨٢ علىٰ أول الحديث فقط. والمقصود بالغير الذي روىٰ عنه ابن إسحاق هو محمد بن الوليد بن نويفع. وقد رواه بهذا اللفظ أحمد في مسنده ٤/ ٢٠٩ - ٢١١، والدارمي في سننه ١/ ١٧٢ - ١٧٣، والحاكم في المستدرك ٣/ ٥٩ - ٦٠.

البغوي: كان يسكن الكوفة[١]. وكان قدومه سنة تسع.

(وهذا إيمان العامة، وهو مُخرِج من الغرور، وينزل هذا منزلة تصديق الصبي) الغِر **(والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب، مع أنه لا يدري وجه كونه خيرًا)**[٢].

(وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان) ورتَّبه وحسَّنه إياه **(فإنَّ كل مغرور فلغروره سبب)** لولاه لَما وُجد **(وذلك السبب هو دليل)** أي بمنزلته **(وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكونَ إليه)** في الجملة **(وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر علىٰ نظمه بألفاظ العلماء)** كما جرت به العادة من تقسيمه إلىٰ لفظيٍّ ووضعيٍّ، وتقسيم الوضعي إلىٰ مطابقة وتضمُّن والتزام **(فالقياس الذي نظمه الشيطان)** في قلبه **(فيه أصلان، أحدهما: أن الدنيا نقد)** معجَّل **(والآخرة نسيئة، وهذا)** أصل **(صحيح)** لصدق الموضوع والمحمول فيهما **(والآخر: قوله: إن النقد خير من النسيئة. وهذا)** باطل علىٰ عمومه، وهو **(محل التلبيس، فليس الأمر كذلك، بل)** فيه تفصيل، وذلك **(إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود)** بأن يتساويا فيهما بحيث لا يزيد أحدهما علىٰ الآخر **(فهو)** حينئذٍ **(خير)** من النسيئة؛ لأن عند التساوي يرجَّح ما هو الحاضر؛ لسرعة الانتفاع به **(وإن كان أقل منها فالنسيئة خير)** منه. وأما قولهم «عصفور في الكف خير من كركي في الجو» فهو إشارة إلىٰ تمني ما يعسر عليه الوصول إليه مع إمكانه، فحينئذٍ الكثرة في الطرف الثاني غير معتبَرة، وكلامنا في النقد والنسيئة إذا كانا متيسِّرين علىٰ حدٍّ واحد **(فإن)** هذا **(الكافر)** المحجوب بظلمة الطبع **(المغرور)** في حاله **(يبذل في تجارته درهمًا ليأخذ عشرة نسيئة، ولا يقول: النقد خير من النسيئة فلا أتركه. وإذا حذَّره الطبيب الفواكه)**

---

(١) الذي في معجم البغوي: «كان ينزل البادية».

(٢) انظر: الاقتصاد للإمام الغزالي ص١٠٦، ١٠٧.

الرطبة (**ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفًا من ألم المرض في المستقبل، وقد**) تراه (**ترك النقد ورضي بالنسيئة. و**) أيضًا فإن (**التجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار**) في البراري والقِفار (**نقدًا لأجل**) حصول (**الراحة والربح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيرًا من واحد في الحال فانسِبْ لذة الدنيا من حيث مدَّتها إلىٰ مدة الآخرة، فإن أقصىٰ عمر الإنسان مائة سنة**) وهو المقارب للعمر الطبيعي في الغالب (**وليس هو عُشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة، فكأنه ترك واحدًا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حد، وإن نظر من حيث النوع رأىٰ لذات الدنيا**) كلها (**مكدَّرة**) ممرَّرة (**مشوبة بأنواع المنغِّصات**) أي المكدِّرات (**ولذات الآخرة**) بأسرها (**صافية غير مكدَّرة**) ولا منغَّصة، وأيضًا فلذات الدنيا إلىٰ نفاد، ولذات الآخرة إلىٰ ازدياد (**فإذًا قد غلط في قوله: النقد خير من النسيئة**) علىٰ الإطلاق (**فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور**) وُضع وضعًا واحدًا لكثير غير محصور، مستغرِق لجميع ما يصلُح له (**أُطلِقَ وأريدَ به**) معنىٰ (**خاص**) معلوم علىٰ الانفراد، وإنما قيَّدنا بالانفراد ليتميَّز عن المشترَك[1] (**فغفل به المغرور عن خصوص معناه، فإنَّ من قال: النقد خير من النسيئة، أراد به من نسيئة هي مثله**) في المقدار والمقصود (**وإن لم يصرِّح به، وعند هذا يفزع الشيطان إلىٰ القياس الآخر**) لما يرىٰ نفسه منهزمًا من الأول (**وهو: أن اليقين خير من الشك**) والدنيا يقين حاضر (**والآخرة شكٌّ**) غائب (**وهذا القياس أكثر فسادًا من الأول؛ لأن كِلا أصليه باطل؛ إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله**) ومساويه في الرتبة (**وإلا فالتاجر في التعب علىٰ يقين، وفي ربحه علىٰ شك. والفقيه في اجتهاده علىٰ يقين، وفي إدراكه رتبة العلم علىٰ شك. و**) كذلك (**الصياد في تردُّده إلىٰ المقتنَص**) أي موضع الصيد (**علىٰ يقين، وفي الظفر بما يصيد علىٰ شك. وكذلك الحزم**) وهو الأخذ بالتحرِّي والضبط (**دأب العقلاء بالاتفاق، وكل ذلك تركٌ لليقين بالشك، ولكن التاجر يقول: إن لم أتجر بقيتُ جائعًا وعظُم ضرري، وإن اتجرت كان تعبي قليلاً**

---

(١) التعريفات للجرجاني ص١٢٨.

وربحي كثيرًا. وكذلك المريض يشرب الدواء البشع) المر (الكريه وهو من الشفاء علىٰ شك، ومن مرارة الدواء علىٰ يقين، ولكن يقول: ضرر مرارة الدواء قريب) وفي نسخة: قليل (بالإضافة إلىٰ ما أخافه من المرض والموت. وكذلك مَن شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل[1]، وهو منتهَىٰ العمر،) وباقيه (قريب) وفي نسخة: قليل (بالإضافة إلىٰ ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذبًا فما يفوتني إلا التنعُّم أيام حياتي، وقد كنت في العدم من الآزال إلىٰ الآن لا أتنعَّم، فأحسب أني بقيت في العدم) كما كنت أولاً (وإن كان ما قيل صدقًا فأبقىٰ في النار أبد الآباد، وهذا لا يطاق، ولذلك قال علي كرَّم الله وجهه لبعض الملحدين) من منكري الآخرة وقد سأله عن أشياء فأجاب ثم قال: (إن كان ما قلتَه حقًّا) أي في أمر الآخرة والعذاب (فقد تخلَّصتَ وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقًّا فقد تخلصنا وهلكتَ) أورده الشريف في نهج البلاغة (وليس هذا) الجواب (عن شك منه) رَضِوَٱللَّهُعَنهُ (في) أمور (الآخرة ولكن) سجل بذلك إذ (كلَّم الملحدَ علىٰ قدر عقله، وبيَّن له أنه وإن لم يكن متيقنًا فهو مغرور.

وأما الأصل الثاني من كلامه وهو أن الآخرة شك، فهو أيضًا خطأ، بل ذلك يقين عند المؤمنين، وليقينه مَدركان:

أحدهما: الإيمان والتصديق تقليدًا للأنبياء والعلماء، وذلك أيضًا يزيل الغرور، وهو مَدرك ليقين العوام وأكثر الخواص، ومثاله مثال مريض لا يعرف دواء علَّته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم) أي جميعًا (علىٰ أن دواءه النبت الفلاني) مثلاً (فإنه تطمئن نفس المريض إلىٰ تصديقهم، ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به، ولو بقي سواديٌّ) منسوب إلىٰ سواد الأرض، والمراد به الغافل المشتغل بحراثة الأرض، البعيد عن الجماعة (أو معتوه) فاسد العقل (يكذِّبهم في ذلك) القول (وهو يعلم بالتواتر

---

(١) في أ، وط المنهاج ٦/ ٦١٤: الصبرُ أيامًا قلائل.

وقرائن الأحوال أنهم) أي الأطباء وأهل الصناعة **(أكثر منه عددًا وأغزر منه فضلاً وأعلم بالطب منه، لا بل لا علم له)** أي لذلك السوادي والمعتوه **(بالطب)** أصلاً **(فيعلم كذبه بقولهم، ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغترُّ في علمه بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهًا مغرورًا)** مخطئًا في عمله **(فكذلك مَن نظر إلىٰ المقرِّين بالآخرة والمخبرين عنها)** وما فيها من المخاوف والأهوال والسعادة والإقبال **(والقائلين بأن التقوىٰ هي الدواء النافع في الوصول إلىٰ سعادتها وجدهم خير خلق الله)** وخلاصتهم **(وأعلاهم رتبةً في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء، واتَّبعهم عليه الخلق علىٰ أصنافهم)** حينًا بعد حين **(وشذَّ منهم آحاد من البطَّالين)** الذين قد **(غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلىٰ التمتع)** بالأعراض الفانية **(فعظُم عليهم تركُ الشهوات)** وقد أَلِفوا بها **(وعظُم عليهم الاعترافُ بأنهم من أهل النار)** استنكافًا منهم **(فجحدوا الآخرة)** رأسًا **(وكذَّبوا الأنبياء)** والرسل عليهم السلام، ولم يصغوا لأقوال العلماء **(وكما أن قول الصبي)** والمعتوه **(وقول السوادي لا يزيل طمأنينةَ القلب إلىٰ ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغبي)** الفدم **(الذي استرقَّته الشهواتُ)** وغلب عليه حبُّ اللذات **(لا يشكِّك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء، وهذا القدر من الإيمان كافٍ لجملة الخلق، وهو يقين جازم يستحثُّ علىٰ العمل لا محالة، والغرور يزول به.**

وأما المَدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء) خاصةً **(والإلهام)** لهم و**(للأولياء)** وقد تقدم ذِكر مراتب الوحي وأقسامه وما خُص به كلٌّ من الأنبياء والأولياء **(ولا تظنن أن معرفة النبي لأمر الآخرة ولأمر الدين)** فيما يوحَىٰ إليه **(تقليد لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسماع منه كما أن معرفتك تقليد للنبي ﷺ حتىٰ تكون معرفتك كمعرفته، وإنما يختلف المقلَّد)** بفتح اللام **(فقط، وهيهات)** هيهات! **(فإن التقليد ليس بمعرفة، بل هو اعتقاد صحيح)** في اتِّباعه غيره من غير نظر وتأمُّل في دليل

(والأنبياء) عليهم السلام **(عارفون)** لا مقلِّدون **(ومعنىٰ معرفتهم: أنه كُشفت لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها)** عند الله تعالىٰ **(فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون)** ما أخبروا **(عن مشاهدة)** صحيحة **(لا عن سماع وتقليد)** للغير **(وذلك بأن يُكشَف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله،** وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذي يقابل النهيَ؛ لأن ذلك الأمر كلام، والروح ليس بكلام. وليس المراد بالأمر الشأن حتىٰ يكون المراد به أنه من خلق الله فقط؛ لأن ذلك عامٌّ في جميع المخلوقات، **بل العالَم عالمانِ: عالم الأمر وعالم الخلق، ولله الخلق والأمر)** كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] فعالم[١] الأمر: ما وُجد عن الحق من غير سبب، ويطلق بإزاء الملكوت، وعالم الخلق: ما وُجد عن سبب، ويطلق بإزاء عالم الشهادة **(فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق؛ إذ الخلق عبارة عن التقدير)** المستقيم **(في وضع اللسان)** ويُستعمَل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء[٢] **(وكل موجود منزَّه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر)** والكمية منسوب إلىٰ الكم وهو العَرَض الذي يقتضي الانقسامَ لذاته[٣] **(وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة في ذكره؛ لاستضرار أكثر الخلق بسماعه)** وحيث[٤] أمسك ﷺ عن الإخبار عنه وعن ماهيَّته بإذن الله ووحيه وهو ﷺ معدن العلم وينبوع الحكمة كيف يسوغ لغيره الخوضُ فيه والإشارة إليه، لا جَرَم لمَّا تقاضت النفس الإنسانية المتطلِّعة إلىٰ الفضول المتشوِّفة إلىٰ المعقول المتحركة بوضعها إلىٰ كل ما أُمِرت بالسكون فيه والمتسوِّرة بحرصها إلىٰ كل تحقيق وكل تمويه فأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر، وخاضت غمرات [معرفة] ماهيَّة الروح تاهت في التيه، وتنوَّعت

---

(١) اصطلاحات ابن عربي ص ٢٩٦ [مطبوع في آخر التعريفات للجرجاني].

(٢) ذكره الراغب في المفردات ص ١٥٧.

(٣) ذكره الجرجاني في التعريفات ص ١٩٦ وزاد: «وهو إما متصل أو منفصل».

(٤) عوارف المعارف ص ٣٠٨.

آراؤها فيه، ولو لزمت النفوس حدَّها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولىٰ. وذلك (كسرِّ القدَر الذي مُنع من إفشائه) والخوض في مشكلاته (**فمَن عرف سر الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربَّه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر ربانيٌّ بطبعه وفطرته، وأنه في العالَم الجسماني غريب، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضَىٰ طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته**) وتحقيقه: أن[1] الروح الإنساني العلوي السماوي من عالم الأمر، والروح الحيواني البشري من عالم الخلق، والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي ومورده، ولورود الروح الإنساني العلوي تجنَّسَ الروحُ الحيواني وبايَنَ أرواح الحيوانات واكتسب صفة أخرىٰ، فصار نفسًا محلاً للنطق والإلهام، فتكوَّنت النفس بتكوين الله تعالىٰ من الروح العلوي [وصار تكوُّن النفس التي هي الروح الحيواني من الآدمي من الروح العلوي] في عالم الأمر كتكوُّن حواء من آدم في عالم الخلق، وصار بينهما من التآلف والتعاشُق كما بين آدم وحواء، فسكن الروح الآدمي الإنساني العلوي إلىٰ الروح الحيواني وصيَّره نفسًا، وتكوَّنَ من سكون الروح إلىٰ النفسِ القلبُ، والمراد به اللطيفة التي محلها المضغة اللحمية، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق، وهذه اللطيفة من عالم الأمر، وكان تكوُّن القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكوُّن الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق (**وذلك العارض الغريب ورد علىٰ آدم** عليه السلام **وعُبِّر عنه بالمعصية، وهي التىٰ حطَّته من الجنة التي هي أليق به بمقتضَىٰ ذاته، فإنها في جوار الرب تعالىٰ، وأنه أمر ربانيٌّ، وحنينه إلىٰ جوار الرب تعالىٰ طبعيٌّ ذاتيٌّ، إلا أن تصرفه عن مقتضَىٰ طبعه عوارضُ العالَم الغريب عن ذاته فينسىٰ عند ذلك نفسه وربه، ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه؛ إذ قيل له:** ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾) أي تركوا معرفته ولم يذكروه (﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾) أي جعلهم ناسين لها فلم يعرفوها، ففيه أن نسيان النفس من ثمرات نسيان الرب، كما أن نسيان النفس

---

(١) السابق ص ٣١٢ - ٣١٣.

يورث نسيانَ الرب، والمطلوب معرفتهما جميعًا، فتضمحل النفس ويبقىٰ الرب. أو المعنىٰ: أنهم لما نسوا الله أراهم من أهوال الحجاب ما أنساهم أنفسهم، أي حجبهم عن نور المعرفة بالظلمة المتراكمة علىٰ القلوب (﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر: ١٩] **أي الخارجون عن مقتضىٰ طبعهم ومَظنّة استحقاقهم**) وهذا معنىٰ صحيح مطابق لوضع اللغة (**يقال: فسقت الرُّطَبة من كِمامها: إذا خرجت من معدنها الفطري**) ولفظ الصحاح[١]: من قشرها (**وهذه إشارة إلىٰ أسرار**) مخزونة (**يهتز**) أي يتحرك طربًا (**لاستنشاق روائحها**) الطيبة بآنافهم (**العارفون**) الكاملون (**ويشمئزُّ**) أي ينقبض (**من سماع ألفاظها**) الغريبة (**القاصرون**) عن درجة المعرفة (**فإنها**) أي تلك الروائح الزكية (**تضربهم**) فيحيدون عنها (**كما تضرُّ رياح الورد بالجُعَل[٢]**) بضم الجيم وفتح العين المهملة: حيوان شِبه الخنفساء، تدحرج العَذِرة برجليها وتشمُّها بآنافها، ومن شأنها [أنها] إذا شمَّت الرائحة الطيبة حصلت لها حالة مثل السُّبات، وربما تهلك. وهو نصف مِصراع بيت (**وتبهر أعينَهم الضعيفة**) أي تغلبها (**كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش**) جمع خُفَّاش، وهو حيوان معروف، لا يقدر أن يفتح عينه في مقابلة الشمس، ولا يستطيع النظر إلىٰ النور (**وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلىٰ عالم الملكوت يسمَّىٰ معرفة وولاية**) وبه يقوم العبد بالحق عند الفناء عن نفسه[٣] (**ويسمَّىٰ صاحبه وليًّا وعارفًا، وهي مبادئ مقامات الأنبياء**) ثم يترقَّون إلىٰ معارج الكمال (**وآخر مقامات الأولياء**) الذي ينتهون إليه في سيرهم (**أول مقامات الأنبياء**) وقول أبي يزيد البسطامي قُدِّس سره «خضتُ بحرًا وقف الأنبياء بساحله» إشارة إلىٰ الولاية الخاصة.

---

(١) الصحاح للجوهري ٤/ ١٥٤٣.

(٢) هذا عجز بيت، صدره:

بذي الغباوة من إنشادها ضرر

وهو للمتنبي في ديوانه ص ٢٧٥.

(٣) معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ٧٩.

(**ولنرجع إلىٰ الغرض المطلوب، فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شكٌّ يُدفَع إما بيقين تقليديٍّ**) يسلِّم الأمر إلىٰ المقلد له ولا يفاتحه ببرهان ولا دليل (**وإما ببصيرة**) نافذة (**ومشاهدة**) حاصلة (**من جهة الباطن**) ثم إن ذلك الحَجْب الحاصل لهم من الغرور الشيطاني لا يختص به الكفار المحجوبون بمجرد الظُّلمة بل قد يحصل أيضًا لجماعة ظاهرهم الإسلام وباطنهم ملوَّث بالعقائد الفاسدة ولهم أعمال سيئة. وإليه أشار المصنف بقوله: (**والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيَّعوا أوامر الله تعالىٰ**) ولم يقوموا بها كما أُمِروا تهاونًا بها (**وهجروا الأعمال الصالحة ولابَسوا الشهواتَ**) النفسية، وآثروا اللذات الحسِّية (**و**) ارتكبوا (**المعاصي**) والدناءات (**فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور**) ومحجوبون بمحض الظلمة كما حُجبوا (**لأنهم آثروا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة**) فكان حجابهم أنفسهم الكدرة وشهواتهم المظلمة، فلا ظلمة أشد من الهوىٰ والنفس (**نعم، أمرهم أخفُّ**) من أمر الكفار (**لأن أصل الإيمان يعصمهم من عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين**) لِما روىٰ الترمذي - وقال: حسن صحيح - من حديث أبي سعيد: «يخرج من النار مَن كان في قلبه مثقال ذرَّة من الإيمان». وروىٰ أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث أنس: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرةً، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرَّةً»[١]. وللبخاري[٢] من حديثه: «يخرج من النار قوم بعدما احترقوا فيدخلون الجنة، فيسمِّيهم أهل الجنة الجُهَنَّميين» (**ولكنهم أيضًا من المغرورين، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا، ولكنهم مالوا إلىٰ الدنيا وآثروها**) وانهمكوا في شهواتها ولذَّاتها (**ومجرد الإيمان**) عن صالح العمل (**لا**

---

(١) تقدم هذان الحديثان في كتاب قواعد العقائد وفي كتاب عجائب القلب.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢٠١.

يكفي للفوز، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾) عن[1] الشرك (﴿وَءَامَنَ﴾) بما يجب الإيمان به (﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾) [طه: ٨٢] ثم استقام على الهدىٰ المذكور (**وقال تعالىٰ:** ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦] **ثم قال النبي ﷺ: الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه)** فإن لم تكن تراه فإنه يراك. رواه أحمد[2] والشيخان[3] وابن ماجه[4] من حديث أبي هريرة. ورواه النسائي[5] من حديث أبي هريرة وأبي ذر معًا. ورواه مسلم[6] وأبو داود[7] والترمذي[8] والنسائي[9] من حديث عمر. ويُروىٰ: «الإحسان أن تعمل لله كأنَّك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإذا فعلت ذلك فقد أحسنتَ». هكذا رواه أحمد[10] والبزار[11] من حديث ابن عباس. ورواه ابن حبان[12] من حديث ابن عمر. ورواه أحمد[13] أيضًا من حديث أبي عامر أو أبي مالك. ورواه البزار[14] أيضًا من حديث أنس. وهو في تاريخ ابن عساكر[15] من حديث عبد الرحمن بن غُنْم، وقد اختُلف في صحبته.

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ٣٥.

(٢) مسند أحمد ١٥/ ٣٠٤.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٣، ٣/ ٢٧٥. صحيح مسلم ١/ ٢٤.

(٤) سنن ابن ماجه ١/ ٨٩، ٥/ ٥٠٧.

(٥) سنن النسائي ص ٧٥٨.

(٦) صحيح مسلم ١/ ٢٣.

(٧) سنن أبي داود ٥/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٨) سنن الترمذي ٤/ ٣٥٥ - ٣٥٧.

(٩) سنن النسائي ص ٧٥٧.

(١٠) مسند أحمد ٥/ ٩٤ - ٩٥.

(١١) مسند البزار ١١/ ١١١ - ١١٢.

(١٢) صحيح ابن حبان ١/ ٣٩٠ - ٣٩١، ٣٩٧ - ٣٩٩ من حديث ابن عمر عن أبيه.

(١٣) مسند أحمد ٢٨/ ٤٠٠ - ٤٠٢، ٢٩/ ٤٥ - ٤٧.

(١٤) مسند البزار ١٣/ ٣٣٤ - ٣٣٥.

(١٥) تاريخ دمشق ٣٥/ ٣١٢.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾) التعريف[1] للجنس (﴿لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾) في مساعيهم وصرف أعمارهم في مطالبهم، والتنكير للتعظيم (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية (﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣] **فوعدُ المغفرة في جميع كتاب الله منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعًا لا بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضًا مغرورون، أعني المطمئنِّين إلىٰ الدنيا**) المائلين إليها (**الفرحين بها، المترفِّهين بنعيمها**) المتقلِّبين في لذَّاتها (**المحبِّين لها، الكارهين للموت خيفة فوات لذَّات الدنيا**) فقط (**دون الكارهين له خيفة مما بعده**) من الأهوال والشدائد والوقوف بين يدي الله تعالىٰ (**فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعًا**) ومن المؤمنين مَن حُجب بمحض الأنوار فاغترُّوا بها، وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ذكرناها، وهم كذلك أصناف شتىٰ، وقد دخلهم الغرور في عقائدهم ومذاهبهم، وإنما الواصل منهم صنف واحد وهم العارفون (**ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم: إنه لو كان لله من معاد**) كما يزعمون (**فنحن أحق به من غيرنا، ونحن أوفر حظًّا فيه**) من غيرنا (**وأسعد حالاً**) من غيرنا (**كما أخبر الله تعالىٰ عنه من قول الرجلين المتحاورين؛ إذ قال**) أي[2] الكافر، وهما أخوانِ من بني إسرائيل مؤمن وكافر، فالمؤمن اسمه يهوذا، والكافر اسمه فرطس، وقد ضرب الله لهم مثلاً في كتابه العزيز فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي يراجعه في الكلام (﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ

---

(١) أنوار التنزيل ٥/ ٣٣٦.

(٢) السابق ٣/ ٢٨٠ - ٢٨١.

أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾) أي كائنة (﴿وَلَئِن﴾) كانت قائمة ثم (﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾) بالبعث كما زعمتَ (﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾) أي من جنته (﴿مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾) [الكهف: ٣٢ - ٣٦] أي مرجعًا وعاقبة؛ لأنها فانية، وتلك باقية. وإنما أقسم علىٰ ذلك لاعتقاده أنه تعالىٰ إنما أولاه ما أولاه لاستئهاله له واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما يلقاه (**وجملة أمرهما - كما نُقل في التفسير - أن الكافر منهما**) واسمه فرطس كما تقدم، أو فرطوس أو أبو فرطس، قيل: ونهر أبي فرطس المشهور بفلسطين نُسب إليه[1] (**بنىٰ قصرًا بألف دينار، واشترىٰ بستانًا بألف دينار، وخدمًا بألف دينار، وتزوج امرأة علىٰ ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن**) أخوه وهو يهوذا (**ويقول**): يا أخي (**اشتريتَ قصرًا يخرب ويفنَىٰ، ألا اشتريت قصرًا في الجنة لا يفنىٰ؟ واشتريت بستانًا يخرب ويفنىٰ، ألا اشتريت بستانًا في الجنة لا يفنىٰ، وخدمًا لا يفنون ولا يموتون، وزوجة من الحور العين لا تموت؟ وفي كل ذلك يردُّ عليه**) أخوه (**الكافر ويقول: ما هناك شيء**) وكان منكرًا للبعث (**وما قيل من ذلك فهو أكاذيب**) وتهويلات (**فإن كان**) كما يزعمون وأُرَدُّ ثانيًا (**ليكونن لي في الآخرة**) وفي نسخة: الجنة (**خيرًا من هذا**) قال البيضاوي: وكانا قد ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار [فتشاطرا] فاشترىٰ الكافر بها ضياعًا وعقارًا، وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآلَ أمرُهما إلىٰ ما حكاه الله تعالىٰ. وقيل: الممثَّل بهما أخوانِ من بني مخزوم: كافر وهو الأسود ابن عبد الأسد، ومؤمن وهو أبو سلمة بن عبد الأسد وهو زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ.

(**وكذلك وصف الله تعالىٰ قول العاص بن وائل**) بن هاشم بن سُعَيد بن سهم بن عمرو بن هصيص [بن كعب] بن لؤي القرشي، والد عمرو وهشام،

---

(١) ولهذا النهر أسماء كثيرة، فهو يسمىٰ: نهر يافا، ونهر العوجاء، ونهر اليركون، ونهر الطواحين، ونهر الجريشة، ونهر الهدار. وهو ثاني أكبر أنهار فلسطين المحتلة بعد نهر الأردن. وانظر الكلام عن هذا النهر في معجم البلدان ٥/ ٣١٥ - ٣١٦.

وهما مؤمنان، وأبوهما المذكور كان هو من المتعنِّتين المنكرين للبعث **(إذ قال)** فيما حكىٰ الله تعالىٰ عنه في كتابه العزيز: (﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾) ولما[1] كانت الرؤية أقوىٰ سند الأخبار استعمل «أرأيت» بمعنىٰ الإخبار، والفاء علىٰ أصلها [في التعقيب] والمعنىٰ: أخبِرْ بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك **(فقال الله تعالىٰ ردًّا عليه:** ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾) أي أقد بلغ من عِظَم شأنه إلىٰ أن ارتقىٰ إلىٰ علم الغيب الذي توحَّد به الواحد القهار حتىٰ ادَّعىٰ أنه يقرر له في الآخرة مالاً وولدًا وتألَّىٰ عليه (﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾) أي: أوَ اتخذ من عالِم الغيب عهدًا بذلك، فإنه لا يتوصل إلىٰ العلم به إلا بأحد هذين الطريقين (﴿كَلَّا﴾) [مريم: ٧٧ - ٧٩] ردع وتنبيه علىٰ أنه مخطئ فيما تصوَّره لنفسه.

(ورُوي عن) أبي[2] عبد الله **(خَبَّاب بن الأرَتِّ)** بتشديد المثناة، ابن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مَناة بن تميم التميمي، حالَفَ بني زُهرة، وأسلم قديمًا، وكان من المعذَّبين في الله، وشهد المشاهد كلها، وكان يعمل السيوف في الجاهلية، توفي سنة سبع وثلاثين بالكوفة، وهو أول مَن دُفن بظهرها، وكان عمره ثلاثًا وستين سنة **(أنه قال: كان لي علىٰ العاص بن وائل)** المذكور قريبًا **(دَين)** وكان قد عمل له في السيوف في الجاهلية **(فجئت أتقاضاه)** أي أطالبه به **(فلم يقضِه لي)** أي امتنع من دفعه **(فقلت: إني آخذه في الآخرة. فقال)** مستهزئًا به: **(إذا صرتُ إلىٰ الآخرة فإنَّ لي هناك مالاً وولدًا فأقضيك منه. فأنزل الله قوله:** ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾) قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عمر، وقد تقدم[3].

---

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٨ - ١٩.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٧٦ - ٧٧.

(٣) كذا ذكره الشارح هنا، والذي في المغني ٢/ ٩٧٤: «رواه البخاري ومسلم» فقط. وقد تقدم الكلام المذكور في الحديث الذي قبله وهو (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) فكأن الشارح انتقل بصره من هذا الحديث إلىٰ ذاك.

قلت: ولفظ[١] البخاري[٢] ومسلم[٣] من رواية أبي هريرة عن خباب[٤] قال: كنت رجلا قَيْنًا، وكان لي علىٰ العاص بن وائل دَين، فأتيته أتقاضاه، فقال: واللهِ لا أقضيك حتىٰ تكفر بمحمد. فقلت: لا واللهِ لا أكفر بمحمد حتىٰ تموت وتُبعَث. قال: فإني إذا متُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثَم مال وولد فأعطيك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾ وهكذا رواه أيضًا أحمد[٥] وسعيد بن منصور والبزار[٦]، ورواه أيضًا ابن جرير[٧] وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي[٨] والبيهقي في الدلائل[٩] وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان[١٠] وابن مردويه من حديث خباب.

ورواه الطبراني[١١] بلفظ: عملت للعاص بن وائل عملًا، فأتيته أتقاضاه، فقال: إنكم تزعمون أنكم ترجعون إلىٰ مال وولد، وإني راجع إلىٰ مال وولد، فإذا رجعتُ إليه ثَم أعطيك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية.

وروىٰ ابن أبي حاتم وابن مردويه[١٢] عن ابن عباس أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل بدَين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم

(١) الدر المنثور ١٠/ ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٨٦، ١٣٥، ١٨٣، ٣/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢٨٧.

(٤) كذا قال الشارح، وهو خطأ، والصواب: من رواية مسروق عن خباب.

(٥) مسند أحمد ٣٤/ ٥٤٦، ٥٥٣، ٥٥٤.

(٦) مسند البزار ٦/ ٦٢.

(٧) جامع البيان ١٥/ ٦١٧ - ٦١٨.

(٨) سنن الترمذي ٥/ ٢٢٥.

(٩) دلائل النبوة ٢/ ٢٨١.

(١٠) صحيح ابن حبان ١١/ ٢٤٣، ٣٨٣.

(١١) المعجم الكبير ٤/ ٦٧.

(١٢) وكذلك الطبري في جامع البيان ١٥/ ٦١٨.

تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإن موعدكم الآخرة، واللهِ لأوتينَّ مالاً وولدًا، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به. فقال الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآيات.

وروىٰ سعيد بن منصور من مرسل الحسن قال: كان لرجل من أصحاب النبي ﷺ دَين علىٰ رجل من المشركين، فأتاه يتقاضاه، فقال: ألستَ مع هذا الرجل؟ قال: نعم. قال: أليس يزعم أن لكم فيه جنة ونارًا وأموالاً وبنين؟ قال: بلىٰ. قال: اذهب فلستُ بقاضيك [إلا ثَمة] فأُنزِلت الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

(وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾) بتفريجها[1] عنه (﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾) حقي أستحقه [لِما لي] من الفضل والعمل، أو لي دائمًا فلا يزول (﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾) أي تقوم كما يزعمون (**الآية**) وتمامها: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] (**وهذا كله من الغرور بالله**) والتمادي في الغفلة واعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاقه لا ينفكُّ عنه (**وسببه قياس من أقيسة إبليس، وذلك أنهم ينظرون مرة إلىٰ نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلىٰ تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال** عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ **فقال تعالىٰ جوابًا لقولهم**: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٨] **ومرة ينظرون إلىٰ المؤمنين وهم فقراء شُعْث**) الرؤوس (**غُبْر**) الألوان (**فيزدرون بهم ويستحقرونهم ويقولون**) كما أخبر الله تعالىٰ عنهم في قوله: (﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣] ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] **وترتيب القياس الذي نظمه**) الشيطان (**في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا**) وأغدقه

---

(١) أنوار التنزيل ٥/ ٧٤.

علينا (وكل محسن فهو محب، وكل محب فهو يُحسِن في المستقبل أيضًا، كما قال الشاعر[1]:

لقد أحسن الله فيما مضىٰ كذلك يُحسِن فيما بقي

وإنما يقيس المستقبل علىٰ الماضي بواسطة الكرامة) أي الإكرام الظاهر (والحب؛ إذ يقول: لولا أني كريم عند الله ومحبوب) لديه (لَما أحسن إليَّ. والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محبٌّ) ولا يلزم من الإحسان الحبُّ (لا، بل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغترَّ بالله؛ إذ ظن أنه كريم عند الله بدليل) إحسانه إليه، وهذا (لا يدل علىٰ الكرامة، بل عند ذوي البصائر يدل علىٰ الهوان) والبعد والمقت، ولقد هلك بهذا الغرور خلقٌ كثير لا يُحصَون، ولقد فاوضتُ مع جماعة أن أردَّهم عن هذا الظن الفاسد فلم يمكن ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان (ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدَهما ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويُلزِمه المكتبَ ويحبسه فيه ليعلِّمه الأدب، ويمنعه من الفواكه) الرطبة (ومَلاذِّ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية) المرَّة البشعة (التي تنفعه. والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب) طول نهاره مع الصبيان (ولا يدخل المكتب، ويأكل كل ما يشتهي) من ألوان الطعام والفواكه (فيظن هذا العبد المهمَل أنه عند سيده محبوب كريم؛ لأنه مكَّنه من شهواته ولذَّاته، وساعده علىٰ جميع أغراضه، ولم يمنعه) عنها (ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور) ونهاية الغفلة (وهكذا نعيم الدنيا ولذَّاتها فإنها مهلكات ومبعِدات من الله) تعالىٰ (فإنَّ الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضَه من الطعام والشراب وهو يحبه. هكذا ورد في الأخبار عن سيد البشر) قال العراقي[2]: رواه

(١) هو علي رضي الله عنه، والبيت في ديوانه ص ٧١.
(٢) المغني ٢/ ٩٧٤.

الترمذي[١] وحسَّنه والحاكم[٢] وصحَّحه من حديث قتادة بن النعمان.

قلت: ورُوي ذلك أيضًا من حديث محمود بن لبيد وأبي سعيد وأنس وحذيفة:

فلفظ حديث محمود بن لبيد: «إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه». هكذا رواه ابن عساكر[٣]، ورواه أحمد[٤] إلا أنه قال: من الدنيا.

ورواه الحاكم[٥] بهذا اللفظ من حديث أبي سعيد.

ولفظ حديث أنس: «إن الله تعالىٰ لَيحمي المؤمن من الدنيا نظرًا وشفقة عليه كما يحمي المريضَ أهلُه من الطعام». رواه الديلمي[٦].

ولفظ حديث حذيفة: «إن الله تعالىٰ يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مواقع الهلكة». رواه أبو الشيخ في الثواب[٧]. وفي رواية له بلفظ: «إن الله لَيتعاهدُ عبده [المؤمن] بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالخير، وإن الله لَيحمي عبده [المؤمن] من الدنيا كما يحمي المريضَ أهلُه الطعام». وقد رواه أيضًا الروياني والحسن بن سفيان وابن عساكر وابن النجار.

وروىٰ ابن النجار من حديث أنس: «أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ بن عمران عليه السلام:

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ٥٥٩.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٣٠، ٤٥١. ولفظ الحديث: «إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء».

(٣) تاريخ دمشق ٢٥/ ٢٧٥.

(٤) مسند أحمد ٣٩/ ٣٣، ٣٧، ٤١.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٣١.

(٦) كنز العمال ٣/ ٢٢٣.

(٧) وكذلك البيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٧١، وابن أبي الدنيا في الزهد ص ١٢٦.

يا موسىٰ، إن من عبادي مَن لو سألني الجنة بحذافيرها لأعطيته، ولو سألني علاقة سوط لم أعطِه، ليس ذلك من هوان له عليَّ، ولكن أريد أن أدَّخر له في الآخرة من كرامتي وأحميه من الدنيا كما يحمي الراعي غنمه من مراعي السوء»[١].

(وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عُجِّلت عقوبته. ورأوا ذلك أمارة المقت والإهمال. وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين) رواه الديلمي من حديث أبي الدرداء مرفوعًا قال: «أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ بن عمران ﷺ: يا موسىٰ، ارْضَ بكِسرة خبز من شعير تسدُّ بها جوعتك، وخرقة تواري بها عورتك، واصبر علىٰ المصيبات، وإذا رأيتَ الدنيا مقبلة فقلْ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، عقوبة عُجِّلت في الدنيا. وإذا رأيت الدنيا مدبرة والفقر مقبلاً فقلْ: مرحبًا بشعار الصالحين»[٢]. وروىٰ الصابوني في المائتين نحوه عن الفضيل بن عياض، وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا **(والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله)** أكرمه بها **(وإذا صُرفت عنه ظن أنه هوان)** به **(كما أخبر الله تعالىٰ عنه)** في كتابه العزيز **(إذ قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾)** وهو[٣] متصل بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [كأنَّه قيل: إنه لبالمرصاد] من الآخرة، فلا يريد إلا السعي لها، فأما الإنسان فلا يهمُّه إلا الدنيا ولذَّاتها (﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾) اختبره بالغِنىٰ واليسر (﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾) بالمال والجاه (﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥﴾) أي فضَّلني بما أعطاني (﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾) أي حبسه (﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾) لقصور نظره وسوء فكره؛ فإن التقتير قد يؤدي إلىٰ كرامة الدارين، والتوسعة قد تفضي إلىٰ قصد الأعداء والانهماك في حب الدنيا، فلذلك ذمَّه علىٰ قوله وردعَه عنه بقوله: (﴿كَلَّآ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧] **أي ليس كما قال، إنما هو ابتلاء،**

---

(١) كنز العمال ٦/ ٤٨٧.

(٢) السابق ٦/ ٤٨٤.

(٣) أنوار التنزيل ٥/ ٣١٠.

نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت، فبيَّن أن ذلك غرور) ولم يقل: فأهانه وقدر عليه، كما قال: فأكرمه ونعَّمه؛ لأن التوسعة تفضُّلٌ، والإخلال به لا يكون إهانة **(قال الحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ: **(كذَّبهما جميعًا بقوله «كلا»، يقول: هذا ليس بكرامتي، ولا هذا بهواني، ولكن الكريم مَن أكرمتُه بطاعتي غنيًّا كان أو فقيرًا، والمُهان من أهنتُه بمعصيتي غنيًّا كان أو فقيرًا)**[1] رواه[2] عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن مختصرًا بلفظ: كلاَّ، أكذبتُهما جميعًا، ما بالغِنىٰ أكرمك، ولا بالفقر أهانك. وروىٰ ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه قال: ظن كرامةَ الله في [كثرة] المال وهوانه في قلته، وكذب، إنما يكرم بطاعته مَن أكرم، ويهين بمعصيته من أهان.

(وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة) النافذة **(وإما بالتقليد)** المحض **(أما بالبصيرة)** النافذة **(فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلىٰ شهوات الدنيا مبعِدًا عن الله، ووجه كون التباعد عنها مقرِّبًا إلىٰ الله)** ضرورةً، فمَن أحب القرب من الله تباعد عن شهوات الدنيا، ومَن مال إليها بعُدَ عن قرب الله **(ويُدرَك ذلك بإلهام)** ربانيٍّ يُنفَث في رُوعه **(في منازل العارفين والأولياء)** ومقاماتهم وأحوالهم **(وشرحُه)** من حيث التفصيل يستدعي بسط مقدمات، وهو **(من جملة علوم المكاشفة، ولا يليق بعلم المعاملة. وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله ويصدِّق رسوله)** فيما بلَّغه **(وقد قال تعالىٰ)** في كتابه العزيز: (﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾) [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦] بما نريد بهم.

(وقال تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾**)** أي سنجرُّهم قليلاً قليلاً إلىٰ العذاب (﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢، القلم: ٤٤].

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٣٤٦.

(٢) الدر المنثور ١٥/ ٤١٨.

وقال تعالىٰ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي منقطعون في حُجَّتهم، أو محزونون لشدة ما عرض لهم.

(و) يُروىٰ (في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ أنهم كلما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورُهم)[١] وفي رواية: كلما جدَّدوا خطيئة جدَّدنا لهم نعمة وأنسيناهم شكر النعمة واستغفار الذنب[٢].

ويُروَىٰ عن سعيد بن جبير: الاغترار بالله المقام علىٰ الذنب ورجاء المغفرة[٣].

وروىٰ أحمد[٤] والطبراني[٥] والبيهقي[٦] من حديث عُقبة بن عامر: «إذا رأيت الله تعالىٰ يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم علىٰ معاصيه فإنما ذلك له منه استدراج».

وروىٰ ابن المبارك في الزهد[٧] من مرسَل شعيب بن أبي سعيد: «إذا رأيت كلما طلبتَ شيئًا من أمر الآخرة وابتغيتَه يُسِّرَ لك وإذا أردت شيئًا من أمر الدنيا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر ص ٥٠ ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ٤٤٣ عن عبد الله بن داود الخريبي عن سفيان الثوري في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ قال: نسبغ عليهم النعم ونمنعهم الشكر. قال: وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنبا أحدثت لهم نعمة. قال ابن داود: تُنسىٰ.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٨/ ٨٣ عن ابن عباس بلفظ: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار».

(٣) أورده السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٤) مسند أحمد ٢٨/ ٥٤٧.

(٥) المعجم الكبير ١٧/ ٣٣١.

(٦) شعب الإيمان ٦/ ٢٩٩.

(٧) الزهد والرقائق ص ٧٠. وأوله: قال رجل: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم كيف أنا؟ قال: «إذا رأيت كلما ...» الخ.

وابتغيتَه عسرَ عليك فاعلمْ أنك على حال حسنة، وإذا رأيت كلما طلبتَ شيئًا من أمر الآخرة وابتغيته عسرَ عليك وإذا طلبت شيئًا من أمر الدنيا وابتغيته يُسِّرَ لك فأنت على حال قبيحة». ورواه البيهقي[١] مرفوعًا من حديث عمر بن الخطاب.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾) [آل عمران: ١٧٨] أي نُكثِر جرائمَهم في مدة الإمهال.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ **الآية**) وتمامها: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣].

(**إلىٰ غير ذلك ممَّا ورد في كتاب الله وسنَّة رسوله**) ﷺ (**فمَن آمن به**) وصدَّقه بما فيه (**تخلَّص من هذا الغرور، فإنَّ** منشأ **هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإنَّ مَن عرفه لا يأمن مكره ولا يغترُّ بأمثال هذه الخيالات**) والأوهام (**الفاسدة وينظر إلىٰ فرعون وهامان وقارون**) وشداد وأشباههم (**وإلىٰ ملوك الأرض**) السالفين (**وما جرىٰ لهم كيف أحسن اللهُ إليهم ابتداءً**) وأسبغ عليهم نعمه (**ثم دمَّرهم تدميرًا**) واستأصل شأفتهم ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: ٥٢] (**فقال تعالىٰ**: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ **الآية** [مريم: ٩٨].

وقد حذَّر الله تعالىٰ من مكره واستدراجه) في مواضع من الكتاب العزيز (**فقال**: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩] **وقال تعالىٰ**: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠﴾ [النمل: ٥٠] **وقال تعالىٰ**: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾) [آل عمران: ٥٤] والمكر[٢] هو صرف الغير عمَّا يقصده بنوع من الحيلة، وهو ضربان: محمود وهو ما يُتحرَّىٰ

---

(١) شعب الإيمان ١٣/ ٧٢، وقال: فيه انقطاع.

(٢) المفردات للراغب ص ٤٧١.

به أمر جميل، وعلىٰ ذلك ما تقدم من الآيات، ومذموم وهو ما يُتحرَّىٰ به فعل ذميم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] قالوا: ومن مكر الله بالعبد إمهاله وتمكينه من أعراض الدنيا (**وقال تعالىٰ**: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾) في[1] إبطال القرآن وإطفاء نوره، والمراد بهم أهل مكة (﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾) أي أقابلهم بكيدي في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيث لا يحتسبون (﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾) أي فلا تشتغل بالانتقام منهم، أو لا تستعجل بإهلاكهم (﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾) [الطارق: ١٥ - ١٧] أي إمهالاً يسيرًا (**فكما لا يجوز للعبد المهمَل**) المتروك في لذّاته (**أن يستدل بإهمال السيد إياه**) وتركه له (**وتمكينه من التنعُّم**) في شهوات الدنيا (**علىٰ حب السيد**) وتقرُّبه منه (**بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرًا منه وكيدًا**) وحيلة (**مع أن السيد لم يحذِّره مكر نفسه**) ولم يُعلِمه به (**فبأن يجب ذلك في حق الله تعالىٰ مع تحذيره استدراجه**) وتخويفه منه وتنبيهه عليه (**أَولىٰ، فإذًا مَن أمنَ مكر الله فهو مغرور**) ولذا قال علي رضي الله عنه: مَن وُسِّع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مُكِرَ به فهو مخدوع عن عقله (**ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنِعم الدنيا علىٰ أنه كريم عند ذلك المنعِم**) محبوب لديه (**واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوىٰ، فالشيطان بواسطة الهوىٰ يميل بالقلب إلىٰ ما يوافقه وهو التصديق بدلالته علىٰ الكرامة، وهذا هو حدُّ الغرور**).

المثال الثاني: غرور العصاة من المؤمنين بالله بقولهم: إن الله كريم، وإنَّا نرجو عفوه. واتِّكالهم علىٰ ذلك وإهمالهم الأعمال) رأسًا (**وتحسين ذلك بتسمية تمنِّيهم واغترارهم رجاءً وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصي العِباد**) وإن كثرت (**في**) جنب (**بحار رحمته، وإنَّا موحِّدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الإيمان**) فهذا مستنَد كبير درجت عليه عامةُ العصاة وخاصتهم (**وربما كان مستنَد رجائهم التمسك بصلاح**

(١) أنوار التنزيل ٥/ ٣٠٤.

الآباء) والجدود **(وعلو رتبتهم)** عند الناس **(كاغترار العَلَوية)** أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم البيوت الخمسة **(بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم)** الطاهرين **(في الخوف والتقوىٰ والورع)** كما رُوي عن علي بن الحسين بن علي وولده محمد وحفيده جعفر وغيرهم، وهو ظاهر لمَن طالع مناقبهم وسبرَ سِيَرهم **(وظنهم أنهم أكرم علىٰ الله من آبائهم؛ إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوىٰ كانوا خائفين)** علىٰ أنفسهم **(وهم مع غاية الفجور والفسق آمنون، وذلك نهاية الاغترار بالله، فقياس الشيطان للعلوية أن مَن أحب إنسانًا أحب أولاده، وأن الله تعالىٰ قد أحب آباءكم فيحبكم)** لحبه إياهم **(فلا تحتاجون إلىٰ الطاعة. وينسىٰ المغرور أن نوحًا عليه السلام)** كما أُذِن له أن يعمل السفينة، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] ثم أمره أن يحمل فيها، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠] **(أراد أن يستصحب ولده)** كنعان **(معه في السفينة فلم يُرِدْ فكان من المغرَقين)** وذلك [قوله تعالىٰ]: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ [هود: ٤٢] فكان من امتناعه من الركوب ما قصَّ الله في كتابه بقوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: ٤٣] **(فقال)** نوح لما رآه كذلك: يا (﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾) [هود: ٤٥] وقد[١] وعدتني أن تنجي أهلي، فما حاله؟ أو فما له لم يَنْجُ؟ ويجوز أن يكون هذا [النداء] قبل غرقه. فردَّ الله تعالىٰ عليه **(فقال: يا نوح إنه ليس من أهلك)** لقطع الولاية بين المؤمن والكافر، وأشار إليه بقوله (﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾) [هود: ٤٦] أي ذو عمل فاسد، فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة، ثم أبدل الفاسد بغير الصالح تصريحًا بالمناقضة بين وصفيهما.

(وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه) آزر **(فلم ينفعه)** ذلك، وقد اعتذر الله

---

(١) السابق ٣/ ١٣٦.

سبحانه عنه في كتابه العزيز فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

(**وأن نبيَّنا ﷺ استأذن ربَّه في أن يزور قبر أمه**) آمنة بنت وهب، وذلك بالأبواء (**ويستغفر لها، فأُذِن له في الزيارة، ولم يؤذن له في الاستغفار، فجلس يبكي علىٰ قبر أمه لرقَّته لها بسبب القرابة حتىٰ أبكىٰ مَن حوله**) قال العراقي[١]: رواه مسلم[٢] من حديث أبي هريرة.

وفي الوسيط[٣] للواحدي عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة: ١١٩] قال: قرأ نافع بفتح التاء الفوقية وجزم اللام علىٰ النهي للنبي ﷺ، وذلك أنه سأل جبريل عليه السلام عن قبر أبيه وأمه، فدلَّه عليهما، فذهب إلىٰ القبرين ودعا [لهما] وتمنىٰ أن يعرف حال أبويه في الآخرة، فنزلت.

قلت: وروىٰ عبد الرزاق[٤] وابن جرير[٥] وابن المنذر عن محمد بن كعب القُرَظي قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شِعري ما فعل أبواي». فنزلت، فما ذكرهما حتىٰ توفاه الله.

وروىٰ ابن جرير عن داود بن أبي عاصم أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أين أبواي»؟ فنزلت.

وأما حديث إحيائهما حتىٰ آمنا به فأورده السهيلي في الروض[٦] من حديث عائشة، وكذا الخطيب في السابق واللاحق، وقال السهيلي: في إسناده مجاهيل.

---

(١) المغني ٢/ ٩٧٤ - ٩٧٥.
(٢) صحيح مسلم ١/ ٤٣٣ - ٤٣٤.
(٣) التفسير الوسيط ١/ ١٩٩.
(٤) تفسير عبد الرزاق ١/ ٥٩.
(٥) جامع البيان ٢/ ٤٨١.
(٦) الروض الأنف ٢/ ١٨٧.

وقال ابن كثير[١]: إنه حديث منكر جدًّا وإن كان ممكنًا بالنظر إلىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد ألَّف الحافظ السيوطي في نجاة الأبوين سبع رسائل[٢]، وردَّ عليه فيها غير واحد من علماء عصره ومَن بعدهم.

ولي في هذا الشأن جزء لطيف سمَّيته «الانتصار لوالدَي النبي المختار ﷺ»، والذي أراه الكف عن التعرُّض لهذا نفيًا وإثباتًا. والله أعلم.

(**فهذا أيضًا اغترار بالله** عَزَّوَجَلَّ**، وهذا لأن الله يحب المطيع ويبغض العاصي، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع**) لله تعالىٰ (**ببغضه للولد العاصي**) لله تعالىٰ (**فكذلك لا يحب الوالد العاصي**) لله تعالىٰ (**بحبه للولد المطيع**) لله تعالىٰ (**ولو كان الحب يسري من الأب إلىٰ الولد لأوشك أن يسري البغضُ أيضًا، بل الحق أنه لا تزر وازرةٌ وزر أخرىٰ**) وكل شاة معلَّقة برجلها (**ومَن ظن أنه ينجو بتقوىٰ أبيه**) وأنه ينفعه (**كمَن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروىٰ بشرب أبيه، ويصير عالمًا بتعلُّم أبيه، ويصل إلىٰ الكعبة ويراها بمشي أبيه**) إليها وبرؤيته إياها. هذا لا يكون (**والتقوىٰ فرض عين**) في حق كل أحد (**ولا يجزئ فيه والد عن ولده شيئًا، وكذا العكس، وعند الله جزاء التقوىٰ**) في يوم القيامة (**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه**) وصاحبته وبنيه (**إلا علىٰ سبيل الشفاعة لمَن لم يشتدَّ غضبُ الله عليه وأذنَ له في الشفاعة، كما سبق في كتاب الكبر والعجب**) غير أن صلاح الآباء قد يراعَىٰ في الأبناء وله نوع تأثير فيهم، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]

---

(١) ثم قال: لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه. البداية والنهاية ٣/ ٤٢٩.

(٢) وهي: «مسالك الحنفا في أبوي المصطفىٰ»، و «التعظيم والمنة في أن أبوي الرسول في الجنة»، و«الدرج المنيفة في الآباء الشريفة»، و«نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين»، و«السبل الجلية في الآباء العلية»، و«المقامة السندسية في النسبة المصطفوية»، و«إنباء الأذكياء في حياة الأنبياء».

فإنه نبَّه به علىٰ أن سعي الخضر عليه السلام كان لصلاحه. قال البيضاوي[١]: قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا به سبعة آباء.

وأخرج[٢] ابن أبي شيبة[٣] وأحمد في الزهد[٤] وابن أبي حاتم عن خيثمة قال: قال عيسىٰ عليه السلام: طوبىٰ لذرية المؤمن ثم طوبىٰ لهم، كيف يُحفَظون من بعده. وتلا خيثمة: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر[٥] عن وهب بن منبه قال: إن الله يحفظ بالعبد الصالح القبيلَ من الناس.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق بقية عن سليمان بن سليم أبي سلمة قال: مكتوب في التوراة: إن الله لَيحفظُ القرن إلىٰ القرن إلىٰ سبعة قرون.

وأخرج أحمد في الزهد[٦] عن وهب قال: إن الرب تبارك وتعالىٰ قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: إني إذا أُطِعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عُصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابعَ من الولد.

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب قال: يقول الله: اتقوا غضبي، فإن غضبي يدرك إلىٰ ثلاثة آباء، وأحِبوا رضاي، فإنَّ رضاي يدرك في الأمَّة.

(فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة والفجَّار: إن الله كريم وإنَّا نرجو

---

(١) أنوار التنزيل ٣/ ٢٩١.

(٢) الدر المنثور ٩/ ٦١٨ - ٦١٩.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٧٠ من كلام خيثمة غير منسوب إلىٰ عيسىٰ عليه السلام مختصرا بلفظ: «طوبىٰ للمؤمن كيف يحفظ في ذريته من بعده».

(٤) الزهد ص ٤٩ بلفظ: «طوبىٰ للمؤمن ثم طوبىٰ له كيف يحفظ الله ولده من بعده».

(٥) وكذلك أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٥٨، وابن حبان في روضة العقلاء ص ١٠٢.

(٦) الزهد ص ٤٧.

رحمته ومغفرته، وقد قال: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرًا. فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب؟ فاعلمْ أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر) أي يرى قبوله بحسب ما يرى من ظاهره **(مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لَما انخدعت به القلوب)** وأخذ فيها مأخذًا **(ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: الكيِّس مَن دان نفسَه وعمل لِما بعد الموت، والأحمق مَن أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله)** رواه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس، وتقدم قريبًا **(وهذا هو التمني علىٰ الله)** وإنما **(غيَّر الشيطان اسمه فسمَّاه رجاء حتىٰ خدع به الجهَّال)** والتمني[1]: طلبُ ما لا طمع فيه أو ما فيه عسرٌ، فالأول نحو قول الهَرِم:

* ألا ليت الشباب يعود يومًا[2] *

والثاني [نحو] قول المعدم: ليت لي مال فلان. فإن حصول المال ممكن لكن يعسر، والحاصل أن التمني يكون في الممتنع وفي الممكن **(وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾** [البقرة: ٢١٨] **يعني أن الرجاء بهم أليقُ)** فالرجاء[3] يكون علىٰ أصل، والتمني لا يكون علىٰ أصل، وقد أفاد الخبر أن التمني مذموم، وأفادت الآية أن الرجاء محمود، وذلك لأن التمني يفضي بصاحبه إلىٰ الكسل، وأما الرجاء فإنه تعلُّق القلب بمحبوب يحصل حالاً **(وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء علىٰ الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧﴾** [السجدة: ١٧، الأحقاف: ١٤، الواقعة: ٢٤] **وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾** [آل عمران: ١٨٥]

---

(١) شرح التصريح علىٰ التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري ١/ ٢٩٥ (ط - دار الكتب العلمية).

(٢) صدر بيت، عجزه:

فأخبره بما فعل المشيب

وهو لأبي العتاهية في ديوانه ص ٤٦.

(٣) فيض القدير ٥/ ٦٨.

أفترىٰ أن مَن استؤجر علىٰ إصلاح أوانٍ) جمع آنية، وهو جمع إناء **(وشُرط له أجرة عليها)** إذا أصلحها **(وكان الشارط كريمًا)** معروفًا بالكرم **(يفي بالوعد مهما وعد ولا يُخلِف)** ميعاده **(بل يزيد)** كما هو من شأن الكرام **(فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس)** ناحيةً **(ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم، أفتراه العقلاءُ في انتظاره متمنيًّا مغرورًا أو راجيًا؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغِرَّة)** ومن هنا لمَّا **(قيل للحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ: **(هنا قوم يقولون: نرجو الله ويضيعون العمل)** فما تقول فيهم؟ **(فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيهم يترجَّحون فيها، مَن رجا شيئًا طلبه، ومَن خاف شيئًا هرب منه)**[1] ويُروَىٰ عنه أيضًا أنه قال: إن أقوامًا ألهتهم أماني العفو حتىٰ خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة، يقول أحدهم: إني أُحسِنُ الظن بربي، وكذب، ولو أحسنَ الظنَّ بربه لأحسن العملَ له»[2].

وروىٰ الترمذي[3] من حديث أبي هريرة: «مَن خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزلَ».

(وقال مسلم بن يسار) البصري[4]، نزيل مكة، أبو عبد الله، الفقيه، ويقال له: مسلم سكرة ومسلم المصبح، ثقة، عابد، مات سنة مائة أو بعدها بقليل، روىٰ له أبو داود والنسائي وابن ماجه **(لقد سجدت البارحة حتىٰ سقطت ثنيَّاتي. فقال له رجل: إنَّا نرجو الله. فقال مسلم: هيهات هيهات! مَن رجا شيئًا طلبه، ومَن خاف شيئًا هرب منه)**[5] قلت: هما أثران مستقلاَّن بسندين مختلفين قد جعلهما المصنف واحدا، قال أبو نعيم في الحلية[6]: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر،

(١) الرعاية للمحاسبي ص٣٥٠.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الوجل والتوثق بالعمل ص ٢٨ (ط - دار الوطن).

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٤١. وقال: حسن غريب.

(٤) تقريب التهذيب ص ٩٤١.

(٥) الرعاية للمحاسبي ص٣٥٠.

(٦) حلية الأولياء ٢/ ٢٩١ - ٢٩٢.

حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا سفيان، عن رجل، عن مسلم بن يسار أنه سجد سجدة فوقعت ثنيتاه، فدخل عليه أبو إياس معاوية بن قُرَّة يعزِّيه ويهوِّن عليه، فذكر مسلم من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.

وحدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، عن خالد بن أبي يزيد، عن معاوية بن قُرَّة قال: دخلت علىٰ مسلم بن يسار فقال: دخلتَ عليَّ وأنا أدفن بعض جسدي. قال معاوية: وكان يطيل السجود، أراه قال: فوقع الدم في ثنيتيه فسقطتا فدفنهما.

وحدثنا أبو محمد ابن حيَّان، حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا الحسين بن الحسن، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا سفيان، عن رجل، عن مسلم بن يسار أنه قال: مَن رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه، وما أدري ما حسب رجاء امرئ عرض له بلاءٌ لم يصبر عليه لما يرجو، وما أدري ما حسب خوف امرئ عرضت له شهوة لم يدعها لِما يخشىٰ.

وحدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، عن خالد بن أبي يزيد، عن معاوية بن قُرَّة قال: دخلت علىٰ مسلم بن يسار، فقلت: ما عندي كبير عمل، إلا أني أرجو الله وأخاف منه. فقال: ما شاء الله، مَن خاف من شيء حذر منه، ومَن رجا شيئًا طلبه، وما أدري ما حسب خوف عبد عرضت له شهوةٌ فلم يَدَعها لِما يخاف، أو ابتُلي ببلاء فلم يصبر عليه لما يرجو. قال معاوية: فإذا أنا قد زكَّيت نفسي وأنا لا أعلم.

(وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدًا وهو بعدُ لم ينكح) أي لم يتزوج امرأة **(أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم يُنزِل)** بأن عزل منيَّه **(فهو معتوه)** أي قليل العقل **(فكذلك مَن رجا رحمة الله وهو لم يؤمن)** بالله **(أو آمن)** به **(ولم يعمل صالحًا أو عمل)** صالحًا **(ولم يترك المعاصي فهو مغرور. وكما أنه إذا نكح ووطئ وأنزل**

بقي مترددًا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلىٰ أن يتمَّ فهو كيِّس) أي عاقل فَطِن (فكذلك إذا آمن وعمل صالحًا وترك السيئات بقي مترددًا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يُقبَل منه وأن لا يدوم عليه وأن يُختَم له) في آخر نفسه (بالسوء ويرجو من فضل الله تعالىٰ أن يثبِّته بالقول الثابت) وهو قول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» (ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت) وأهواله (حتىٰ يموت علىٰ التوحيد) الخالص (ويحرس قلبه عن الميل إلىٰ الشهوات بقية عمره حتىٰ لا يميل إلىٰ المعاصي فهو كيِّس) فَطِن (ومَن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤٢] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨] وعند ذلك) أي عند معاينتهم العذاب (يقولون ما أخبر الله عنهم) في كتابه العزيز: (﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾) إلىٰ الدنيا (﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢] أي علمنا أنه كما لا يولَد ولدٌ إلا بوقاع ونكاح ولا ينبُت زرعٌ إلا بحراثة وبثِّ بذر) أي رميه في الأرض (فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح، فارجعْنا) ثانيًا وردَّنا إلىٰ ما كنا في الدنيا (نعمل صالحًا، فقد علمنا الآن صدقك في قولك) وأيقنَّا به ({وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ) وحصَّله في دنياه (﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١] ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾) أي في النار (﴿فَوْجٌ﴾) أي جماعة من الكفرة (سألهم خزَنتُها) أي الملائكة الموكَّلون بها (﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك: ٨] أي) ألم يخوِّفكم بهذا العذاب و(ألم يُسمِعكم سنَّةَ الله) التي قد خلت (في عباده وأنه ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾) [البقرة: ٢٨١، آل عمران: ١٦١] من خير أو شر (وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾) [المدثر: ٣٨] أي محبوسة، وهو توبيخ وتبكيت (فما الذي غرَّكم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟ قالوا) حينئذٍ في جواب الخَزَنة: (﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾) كلام[1] الرسل فنقبله جملةً من غير بحث اعتمادًا

---

(١) أنوار التنزيل ٥/ ٢٢٩.

علىٰ ما لاحَ من صدقهم بالمعجزات (﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾) فتفكَّر في حِكَمه ومعانيه تفكُّر المستبصرين (﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾) أي في عدادهم ومن جملتهم (﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾) حين لا ينفعهم، والاعتراف: إقرار عن معرفة. والمراد بالذنب: الكفر (﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾) [الملك: ١٠ - ١١] أي أسحقهم الله سحقًا، أي أبعدَهم من رحمة الله، والتغليب للإيجاز والمبالغة [والتعليل].

(فإن قلتَ: فأين مَظنَّة الرجاء وموضعه المحمود؟ فاعلمْ أنه محمود في موضعين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك) في المعاصي **(إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان)** موسوسًا إليه في قلبه: **(وأنَّىٰ تُقبَل توبتك؟ فيقنطه من رحمة الله، فيجب عند ذلك أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكَّر أن الله يغفر الذنوب جميعًا، وأن الله كريم)** جواد، ومقتضَىٰ كرمه وجوده قبول توبته، ويتذكَّر قوله تعالىٰ: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] **فإن التوبة طاعة تكفِّر الذنوب)** وتمحوها **(قال تعالىٰ:** ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾) أي بارتكاب المعاصي (﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾) [الزمر: ٥٣] وهي أرجَىٰ آيةٍ في كتاب الله **(وقال تعالىٰ:** ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر: ٥٤] **أمرهم بالإنابة)** وهي الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ بالتوبة **(وقال تعالىٰ:** ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾) [طه: ٨٢] وغير ذلك من الآيات الدالَّة علىٰ أن المغفرة منوطة بالتوبة **(فإذا توقَّع المغفرة مع التوبة فهو راجٍ)** وفعلُه رجاءٌ **(وإن توقع المغفرة مع الإصرار)** علىٰ الذنب **(فهو مغرور، كما أن مَن ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق)** مشغول في تجارته **(فخطر له أن يسعىٰ إلىٰ الجمعة)** رجاء أن يدرك الجمعة **(فقال له الشيطان: إنك لا تدرك الجمعة فأقِمْ في موضعك. فكذَّب الشيطانَ ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راجٍ، وإن استمر علىٰ التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة**

لأجله إلىٰ وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور) في كل ذلك.

(الثاني: أن يُفْتر[١] **نفسَه)** أي يكسلها **(عن فضائل الأعمال، ويقتصر**[٢] **علىٰ الفرائض فيرجِّي نفسه نعيم الله تعالىٰ وما وعد به الصالحين)** من صالح الجزاء **(حتىٰ ينبعث من الرجاء نشاطُ العبادة فيُقبِل علىٰ الفضائل ويتذكَّر قوله تعالىٰ:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾ **إلىٰ قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١ - ١١] **فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمُّر)** في الفضائل **(وكل توقُّع حثَّ علىٰ توبة أو علىٰ تشمُّر في العبادة فهو رجاء، وكل توقع أوجب فتورًا في العبادة وركونًا إلىٰ البطالة فهو غِرَّة)** بالكسر، وبه يظهر الفرق بينهما أيضًا **(كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل، فيقول له الشيطان)** موسوسًا في قلبه: **(ما لك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب غفور رحيم كريم؟ فيفتره بذلك)** أي يكسله **(عن التوبة والعبادة فهي الغرة، وعند هذا يجب علىٰ العبد أن يستعمل العمل)** ويستمر عليه **(ويخوِّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه)** جل وعز **(مع أنه غافر الذنب وقابل التوب)** يغفر ذنوب عباده ويقبل توبتهم **(شديد العقاب)** علىٰ مَن عصاه وخالفه، وقد قرنها في سياق واحد لأجل التنبيه علىٰ ذلك **(وأنه)** جل وعز **(مع أنه كريم)** عفوٌّ **(خلَّد الكفار في النار أبد الآباد مع أنه لم يضرَّه كفرُهم، بل سلَّط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع)** والعري **(علىٰ جملة من عباده في الدنيا وهو قادر علىٰ إزالتها، فمَن هذه سنَّته في عباده وقد خوَّفني عقابَه فكيف لا أخافه)** لئلاً يصيبني

---

(١) في ط المنهاج ٦/ ٦٣٠، والشعب ١١/ ٢٠١٩: تفتر.

(٢) في أ، وط المنهاج ٦/ ٦٣٠: تقتصر. وكأن الصواب في هذه وسابقتها بالتاء فيهما، فالعبارة ستكون هكذا: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال وتقتصر علىٰ الفرائض، فيُرجي نفسه نعيم الله ...إلخ. والله أعلم.

ما أصابهم (وكيف أغترُّ به. فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمنٍّ وغرور) وبهذا كذلك يتضح الفرق بين الرجاء والتمني (ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم) وكسلهم عن الأعمال (وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله عز وجل وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور، وقد أخبر النبي ﷺ وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمّة) وهو[1] حديث أبي ثعلبة الخشني في إعجاب كل ذي رأي برأيه، وقد تقدم في آخر ذم الكبر والعجب (وقد كان ما وعد به ﷺ) وتحقق وجدانُه (فقد كان الناس في الأعصار الأُوَل يواظبون على العبادات) مديمين عليها (و﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾) من الأعمال الصالحة (﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾) أي خائفة (﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٦٠] يخافون على أنفسهم) من عدم القبول (وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات) كما هو معروف من سيرتهم لمَن طالَعَ تراجمهم وأخبارهم (وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله) عز وجل (زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وفضله وراجون لعفوه ومغفرته، كأنَّهم يزعمون أنهم عرفوا من كرم الله وفضله ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون، فإن كان هذا الأمر يُدرَك بالمُنَىٰ ويُنال بالهُوينا) أي بالهداوة والسهولة (فعلى ماذا كان بكاء أولئك) القوم (وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء) كما سيأتي إن شاء الله تعالى (وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار) المُزَني[2]، رضي الله عنه، ممَّن بايع تحت الشجرة، وكنيته أبو علي، مات بعد الستين (يأتي على الناس زمان يخلق) أي يبلى (فيه القرآنُ في قلوب الرجال كما تخلق الثياب)

---

(١) المغني للعراقي ٢/ ٩٧٥.

(٢) تقريب التهذيب ص ٩٦٠.

أي تبلىٰ (**علىٰ الأبدان، يكون أمرهم كله طمعًا لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال: يُتقبَّل مني، وإن أساء قال: يُغفَر لي**) قال العراقي[1]: رواه الحارث بن أبي أسامة[2] ومن طريقه أبو نعيم[3] بسند ضعيف، ورواه الديلمي في مسند الفردوس[4] من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة (**فأخبر**) ﷺ (**أنهم يضعون الطمع موضع الخوف؛ لجهلهم بتخويفات القرآن**) وإنذاراته (**وما فيه، وبمثله أخبر**) الله تعالىٰ (**عن النصارىٰ؛ إذ قال تعالىٰ**: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾) أي تكفَّلوا بدراسته وتلقَّفوه (﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] **ومعناه أنهم ورثوا الكتاب، أي هم علماء**) بما فيه (**ويأخذون عرض هذا الأدنىٰ، أي شهواتهم من الدنيا حلالاً كان أو حرامًا. وقد قال تعالىٰ**: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾) [إبراهيم: ١٤] اسم من الإيعاد وهو الوعد بالعذاب (**والقرآن من أوله إلىٰ آخره تحذير وتخويف، لا يتفكَّر فيه متفكِّر إلا ويطول حزنه ويعظُم خوفُه إن كان مؤمنًا بما فيه**) مصدِّقًا له (**وترىٰ الناس يهذُّونه هذًّا**) الهَذُّ: سرعة القطع، وقد هذَّ قراءتَه هذًّا: إذا أسرع فيها (**يُخرِجون الحروفَ من مخارجها، ويتناظرون علىٰ رفعها وخفضها ونصبها، وكأنَّهم يقرأون شعرًا من أشعار العرب، لا يهمُّهم الالتفات إلىٰ معانيه والعمل بما فيه**) وقد روىٰ أبو نعيم من حديث ابن عباس: «يأتي علىٰ الناس زمان يتعلَّمون فيه القرآن فيجمعون حروفه ويضيعون حدوده، ويل لهم مما جمعوا وويل لهم ممَّا ضيَّعوا، إن أَولىٰ الناس بهذا القرآن مَن جمعه ولم يُرَ عليه أثره»[5]

---

(١) المغني ٢/ ٩٧٥.

(٢) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ٧٦٧ - ٧٦٨.

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٥٩.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٥) هكذا أورده المتقي الهندي في كنز العمال ١٠/ ٢١١ - ٢١٢، ولم أجده في كتب أبي نعيم. وقد أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٤٤٣ بهذا اللفظ.

(وهل في العالم غرور يزيد علىٰ هذا؟

فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور، ويقرُب منه غرورُ طوائف لهم طاعات ومعاصٍ، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم متوقِّعون المغفرة، ويظنون أنه تترجَّح كفة حسناتهم، مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل، فترىٰ الواحد يتصدَّق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدَّق به هو من أموال المسلمين، وهو يتَّكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدُّقُ بعشرة من الحلال أو الحرام، وما هو إلا كمَن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرىٰ ألفًا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة، وذلك غاية جهله، نعم. ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه؛ لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقَّد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتدَّ بها، كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبِّح الله تعالىٰ في اليوم) والليلة (مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزِّق أعراضهم) ويأكل لحومهم (ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلىٰ عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة، وغفل عن هَذَيانه) وهو الكلام الذي لا فائدة فيه (طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون) وهم الحَفَظة من الملائكة (وقد أوعده الله تعالىٰ بالعقاب علىٰ كل كلمة فقال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾)[ق:١٨] أي مراقب حاضر (فهو أبدًا يتأمَّل في فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفت إلىٰ ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمَّامين والمنافقين بذكر ما لا يضمرونه ... إلىٰ غير ذلك من آفات اللسان، وذلك محض الغرور، ولعَمْري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لِما يكتبونه من هَذَيانه الذي زاد علىٰ تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه) أي يمسكه (حتىٰ عن جملة من مهمَّاته وما نطق به في فتراته فكان يعدُّه ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته حتىٰ لا تفضُل عليه أجرة نسخه، فياعجبًا لمَن يحاسب نفسه

ويحتاط خوفًا علىٰ قيراط يفوته في الأجرة علىٰ النسخ ولا يحتاط خوفًا من فوت الفردوس الأعلىٰ ونعيمه، ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمَن تفكَّرَ فيها) وتأمل حق التأمل (فقد دُفِعنا إلىٰ أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين) عياذًا بالله من ذلك (وإن صدَّقنا به كنا من الحمقىٰ المغرورين، فما هذه أعمال من يصدِّق بما جاء به القرآن، وإنَّا نبرأ إلىٰ الله أن نكون من أهل الكفران) والجحود (فسبحان مَن صدَّنا عن التنبُّه واليقين مع هذا البيان) الواضح البرهان (وما أجدر مَن يقدر علىٰ تسليط مثل هذه الغفلة والغرور علىٰ القلوب أن يُخشَىٰ) ويُتَّقَىٰ مقامه (ولا يُغترُّ به اتِّكالا علىٰ أباطيل المنىٰ و) اعتمادًا علىٰ (تعاليل الشيطان والهوىٰ. والله الموفِّق).

بيان أصناف المغترِّين وأقسام فِرَق كل صنف

(وهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: أهل العلم، والمغترُّون منهم فرق) كثيرة:

(ففرقة) منهم (أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمَّقوا فيها) أي دخلوا في عمقها (واشتغلوا بها) ونُسبوا إليها، وقد كمُلوا في إتقان فنونها (وأهملوا تفقُّد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات) الإلهية (واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان) ومنزلة (وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغًا لا يعذِّب الله مثلهم) ولا يؤاخذهم بما عملوا (بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله) وشرفهم لديه (وهم) في الحقيقة (مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمانِ: علم معاملة وعلم مكاشفة، وهو) أي علم المكاشفة، كما سبق في كتاب العلم (العلم بالله وبصفاته المسمَّىٰ بالعادة: علم المعرفة، فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة) منها (والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تُراد إلا للعمل) لا لذواتها (ولولا الحاجة إلىٰ العمل لم تكن لهذه العلوم قيمة) ولا قدْر (وكل علم) لا (يُراد) إلا (للعمل فلا قيمة له دون العمل)[1] ويُفهَم ذلك بمثال (فمثال ذلك كمريض به علَّة لا يزيلها إلا دواء مركَّب من أخلاط كثيرة) أي أجزاء مفردة (لا يعرفها إلا حُذَّاق الأطباء) ومَهَرتهم (فسعىٰ في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه) وفارق مألوفَه (حتىٰ عثر علىٰ طبيب حاذق) فشكا

---

(١) انظر المقدمة الخامسة والسابعة من الموافقات للشاطبي ١/ ٩٠، ١٠٦ (ط الفضيلة)، فقد جلىٰ فيهما ما هاهنا ووضحه وبينه.

له حاله وذكر له العلة (**فعلَّمه الدواء**) لها (**وفصَّلَ له الأخلاط**) التي يركَّب منها ذلك الدواء (**وأنواعها ومقاديرها**) وموازينها (**ومعادنها التي منها تُجتلَب**) تلك الأخلاط (**وعلَّمه كيفية دقِّ كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه، فتعلَّم ذلك منه، وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن**) مقبول (**ورجع إلىٰ بيته وهو يكرِّرها ويقرأها ويعلِّمها المرضىٰ، ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترىٰ أن ذلك يغني عنه من مرضه شيئًا؟ هيهات! لو كتب منه ألف نسخة وعلَّمه ألف مريض حتىٰ شُفي جميعهم وكرَّره كل ليلة ألف مرة لم يغنِه ذلك من مرضه شيئًا إلا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه**) مع بعضه بعد الدق (**كما تعلَّم**) من الطبيب (**ويشربه**) بالمقدار الذي ذكره له (**ويصبر علىٰ مرارته، ويكون شربُه في وقته**) المناسب (**وبعد تقديم الاحتماء**) عن مناولة ما يضادُّه (**و**) تقديم (**جميع شروطه**) المعروفة (**وإذا فعل جميع ذلك فهو علىٰ خطر من شفائه**) هل يحصل له أم لا (**فكيف إذا لم يشربه أصلاً؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غرورُه**) وقد أشار إليه المصنِّف في رسالته التي أرسلها لبعض معتقديه من تلامذته المسمَّاة برسالة «أيها الولد» ومثَّل فيها بمثال آخر فقال: أرأيت مَن كالَ الخمرَ بالقناطير أيكون بكيله سكرانًا؟ هيهات! حتىٰ يذوق منها قطرة[1] (**وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكَّىٰ نفسه منها**) أي ما طهَّرها (**وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتَّصف بها، فهو مغرور؛ إذ قد قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾**) [الشمس: ٩] أي طهَّرها من الكفر والمعاصي والرذائل (**ولم يقل: قد أفلح مَن تعلَّم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلَّمه الناس، وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرَّنَّك هذا المثال، فإنَّ العلم بالدواء لا يزيل المرض، وإنما مطلبك القرب من الله تعالىٰ وثوابه، والعلم يجلب**)

---

(١) هذا لشارح رسالة «أيها الولد» التي سماها «أيها الأخ»، لا للإمام الغزالي، وشارحها هو الشيخ عبد الرحمن بن أحمد، وقيل إن شارحها هو البوصيري صاحب البردة، والله أعلم. انظر: أيها الأخ ق١٥ (الأزهرية برقم ٤٢٩٩٧)، وأيها الولد ص٤٠ (ط دار المنهاج).

الثوابَ) كيفما كان ويقرِّب إلىٰ الله **(ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضائل العلم)** ممَّا تقدم ذِكرها في أول كتاب العلم **(فإن كان المسكين معتوهًا مغرورًا وافق ذلك مرادَه وهواه فاطمأنَّ إليه وأهمل العمل)** رأسًا **(وإن كان كيِّسًا)** فَطِنًا حاذقًا **(فيقول للشيطان: أتذكِّرني فضائلَ العلم وتنسيني ما ورد في العالِم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه؟ كقوله** ﷻ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾**)** [الأعراف: ١٧٦] وهو بلعم بن باعوراء، كان أوتي بعض علم الآيات، فلما لم يعمل به وركن إلىٰ شهوات الدنيا مقته الله تعالىٰ وضرب له المثل المذكور، كما تقدم **(وكقوله تعالىٰ:** ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾**)** أي لم يعملوا بما فيها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] **فأيُّ خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار)** وهما من أخسِّ خلق الله تعالىٰ **(وقد قال** ﷺ**: مَن ازداد علمًا ولم يزدد هدًىٰ لم يزدد من الله إلا بعدًا)** رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بلفظ «ولم يزدد في الدنيا زهدًا» وقد تقدم في كتاب العلم.

(وقال) ﷺ **(أيضًا: يُلقَىٰ العالِم في النار فتندلق أقتابه)** أي مصارينه **(فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحىٰ)** رواه ابن النجار من حديث أبي أمامة بلفظ: «يؤتَىٰ بعلماء السوء يوم القيامة فيُقذَفون في نار جهنم، فيدور أحدهم في جهنم بقصبه كما يدور الحمار بالرحىٰ، فيقال له: ويلك! بك اهتدينا، فما بالك؟ قال: فإني كنت أخالف ما كنت أنهاكم عنه». وعند الشيخين من حديث أسامة بن زيد: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقَىٰ في النار فتندلق أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه ...» الحديث. ورواه أبو نعيم في الحلية بلفظ: «يُجاء بالأمير يوم القيامة فيُلقَىٰ في النار فيُطحَن فيها كما يُطحَن الحمار بطاحونته ...» الحديث. وكل ذلك قد تقدم مرارًا.

(وكقوله ﷺ**: شر الناس العلماء السوء)** تقدم في كتاب العلم.

(وقول أبي الدرداء) رضي الله عنه **(ويل للذي لايعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل**

للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات) رواه أبو نعيم[1] عن محمد بن أحمد ابن الحسن، حدثنا بشر بن موسىٰ، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن جعفر بن برقان، عن ميمون بن مهران قال: قال أبو الدرداء ... فذكره. ورُوي مثله من قول ابن مسعود، كذلك رواه أبو نعيم[2] من طريق معاوية بن صالح عن عدي بن عدي قال: قال ابن مسعود ... فذكره، وقد تقدم في كتاب العلم.

(أي إن العلم حُجة عليه؛ إذ يقال له: ماذا عملت فيما علمتَ؟ وكيف قضيت شكر الله.

وقال ﷺ: أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه) رواه الطبراني في الصغير وابن عدي والبيهقي من حديث أبي هريرة بلفظ «لم ينفعه علمُه»، وقد تقدم في كتاب العلم.

(فهذا وأمثاله ممَّا أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يُحصَىٰ، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوىٰ العالم الفاجر) فلا يرفع له رأسًا **(وما ورد في فضل العلم يوافقه، فيُميل الشيطانُ قلبَه إلىٰ ما يهواه، وذلك عين الغرور، فإنه إن نظر بالبصيرة)** الباطنة **(فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم أشد عند الله من حال الجهَّال، فبعد ذلك اعتقادُه أنه علىٰ خير مع تأكُّد حجة الله عليه غاية الغرور. وأما الذي يدَّعي علوم المكاشفة)** وأنه بإزائها **(كالعلم بالله وصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل)** ويتركه **(ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد، ومثاله مثال مَن أراد خدمة ملك)** من الملوك **(فعرف الملكَ وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه، ولم يتعرَّف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضىٰ به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو مُلابِس لجميع ما يغضب به وعليه، وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون، فورد**

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١١.

(٢) السابق ١/ ١٣١.

على الملك وهو يريد القرب منه والاختصاص به) حالة كونه (متلطِّخًا بجميع ما يكرهه الملك) ويغضب عليه (عاطلاً عن جميع ما يحبه) ويميل إليه (متوسِّلاً إليه بمعرفته له وبنسبه واسمه وبلده وشكله وصورته وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيَّته، فهذا مغرور جدًّا؛ إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يحبه ويكرهه لكان ذلك أقرب لنيله المراد من قربه والاختصاص به، بل تقصيره في التقوى واتِّباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني؛ إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيَه واتَّقاه) وآثر محبَّته على ما يهواه (فلا يُتصور أن يعرف الأسد عاقلٌ ثم لا يتَّقيه ولا يخافه. وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. نعم، مَن يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنَّه ما عرف الأسدَ. فمَن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يُهلِك العالَمين) بأسرهم (ولا يبالي، ويعلم أنه مسخَّر في قدرة مَن لو أهلك مثله آلافًا مؤلَّفة وأبَّد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثِّر ذلك فيه أثرًا، ولم تأخذه عليه رأفة، ولا اعتراه عليه جزعٌ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾) [فاطر: ٢٨] وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم (وفاتحة الزبور: رأس الحكمة خشية الله) هكذا رواه صاحب الحلية عن وهب بن منبه[١]. والمراد[٢] بالحكمة هنا: العلم بأحوال الموجودات على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية[٣]. أي أصلها وأُسُّها الخوف منه؛ لأن الحكمة تمنع النفس عن المنهيَّات والشهوات والشبهات، ولا

---

(١) لم أقف عليه في الحلية، ولكن رواه أحمد في الزهد ص ٦٢ وهناد في الزهد ١/ ٢٦٤ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٢ عن خالد بن ثابت الربعي قال: وجدت فاتحة الزبور الذي يقال له زبور داود عليه السلام أن: رأس الحكمة خشية الرب عز وجل، وعند البيهقي في الشعب ٢/ ٢٠١ عن ابن مسعود من قوله: «رأس الحكمة مخافة الله عز وجل»، قال البيهقي: هذا موقوف، وقد روي من وجه آخر ضعيف مرفوعا إلى النبي ﷺ.

(٢) فيض القدير ٣/ ٥٧٤.

(٣) عبارة الجرجاني في التعريفات ص ٩٦: «الحكمة: علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية».

يحمل على العمل بها إلا الخوف منه تعالى، فيحاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذّة، ولأن الخشية تدعوه إلى الزهد في الدنيا، وهو من آكد أسباب النجاة. وأخرج الحكيم في النوادر[1] وابن لال في مكارم الأخلاق ومن طريقه الديلمي[2] من طريق الحسن بن عمارة، عن عبد الرحمن بن عابس بن ربيعة، عن أبيه، عن ابن مسعود مرفوعًا: «رأس الحكمة مخافة الله». والحسن بن عمارة ضعيف. ورواه البيهقي[3] من طريق الثوري عن ابن عابس ووقفه، ولفظه: أنه كان يقول في خطبته: خير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل. وأعاده مقتصرًا على الجملة الأخيرة، ثم ساقه من جهة بقية حدثنا عثمان بن زفر عن أبي عمار الهذلي[4] عنه مرفوعًا وضعّفه. ورواه الطبراني والقضاعي[5] من حديث سعيدة ابنة حكامة عن أمها عن أبيها عن مالك بن دينار عن أنس رفعه: «خشية الله رأس كل حكمة، والورع سيد العمل». وروى البيهقي في الدلائل[6] والعسكري في الأمثال والديلمي من طريق عبد الله بن مصعب بن منظور بن جميل بن سنان عن أبيه عن عقبة بن عامر قال: خرجنا في غزوة تبوك ... فذكر حديثًا طويلاً فيه قول النبي ﷺ: «أما بعد، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله».

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه: **(كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلاً)**[7] وروى البيهقي في الشعب عن مسروق مرسلاً[8]: «كفى بالمرء علمًا أن

(١) نوادر الأصول ص ٨٦٢.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٧٠.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) في الشعب: الأسدي.

(٥) مسند الشهاب ١/ ٦٠.

(٦) دلائل النبوة ٥/ ٢٤١ - ٢٤٢.

(٧) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٦٠، وأحمد في الزهد ص ١٣٠، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ ٢١٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٠٤.

(٨) بل رواه ٢/ ٢٠٥ موقوفا على مسروق.

يخشىٰ الله، وكفىٰ بالمرء جهلاً أن يعجب بنفسه».

ورواه أبو نعيم[1] عنه عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «كفىٰ بالمرء فقهًا إذا عبدَ اللهَ، وكفىٰ بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه».

(واستُفتي الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ **(عن مسألة، فأجاب)** عنها **(فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك. فقال: وهل رأيتَ فقيهًا قط، الفقيه القائم لله ليله، الصائم نهاره، الزاهد في الدنيا)** نقله صاحب القوت، وقد تقدم في كتاب العلم[2].

(وقال مرةً: الفقيه لا يداري ولا يماري) أي لا يخاصم **(ينشر حكمة الله، فإن قُبلت منه حمدَ اللهَ، وإن رُدَّت عليه حمدَ الله)**[3].

فإذًا الفقيه مَن فقهَ عن الله أمره ونهيه، وعلمَ من صفاته ما أحبه وما كرهه) فائتمر بأوامره، وانتهىٰ بنواهيه، وأحب ما أحبه، وكره ما أبغضه **(وهذا العالِم الذي)** ورد **(فيه)** قول النبي ﷺ: **(مَن يُرِد الله به خيرًا يفقِّهه في الدين)**[4] رواه أحمد والشيخان وابن حبان من حديث معاوية. ورواه أحمد والدارمي والترمذي- وقال: حسن صحيح - من حديث ابن عباس. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عمر

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ١٧٣ - ١٧٤ من طريق رجاء بن حيوة عن عبد الله بن عمرو.

(٢) في الباب الثالث منه بلفظ: «سأل فرقد السبخي الحسن عن شيء، فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك. فقال الحسن: ثكلتك أمك فريقد، وهل رأيت فقيها بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم علىٰ عبادة ربه، الورع، الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم».

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٤٥ موصولا بالأثر الذي قبله. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٨٣ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٢٨٠ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ٥٢٨ من قول سفيان بن عيينة.

(٤) في الجميع هكذا: وعلمَ من صفاته ما أحبه وما كرهه، وهو العالم، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين.

ومن حديث أبي هريرة. وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم[1] **(وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين.**

وفرقة أخرىٰ) منهم **(أحكموا العلم والعمل فواظبوا علىٰ الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقَّدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنُّظَراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم، فهو مكبٌّ عليها، غير محترز عنها، ولا يلتفت إلىٰ قوله ﷺ: أدنىٰ الرياء شرك)** رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية والحاكم من حديث معاذ وابن عمر معًا بلفظ: «إن أدنىٰ الرياء شركٌ، وأحب العبيد إلىٰ الله الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدوا، وإذا شهدوا لم يُعرَفوا، أولئك أئمة الهدىٰ ومصابيح الظُّلَم». وقد تقدم في كتاب ذم الجاه والرياء.

(وإلىٰ قوله ﷺ: لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مِثقال ذرَّة من كبر) رواه مسلم من حديث ابن مسعود، وقد تقدم مِرارًا.

(وإلىٰ قوله ﷺ: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، وقال البخاري: لا يصح. ورواه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، ورواه الخطيب في التاريخ بإسناد حسن. وقد تقدم في كتاب العلم.

(وإلىٰ قوله ﷺ: حب الشرف والمال ينبتان النفاقَ في القلب كما يُنبِت

---

(١) ونذكر هنا ما لم يذكره الشارح هناك من العزو: أما حديث معاوية فرواه ابن حبان في صحيحه ١/ ٢٩١، ٢/ ٨، ٨/ ١٩٤. وأما حديث ابن عباس فرواه الدارمي ١/ ٨٥، ٢/ ٣٨٥. أما حديث أبي هريرة فرواه الطبراني في الأوسط ٥/ ٣١٩. أما حديث عمر فرواه الطحاوي في مشكل الآثار ٤/ ٣٩٤، وابن أبي عاصم في العلم، كما في تغليق التعليق للحافظ ابن حجر ٢/ ٧٩، وذكره ابن كثير في مسند الفاروق ٣/ ١٣ وقال: هذا حديث جيد. وحسنه الحافظ في الفتح ١/ ١٦١.

الماءُ البقلَ) رواه أبو نعيم ومن طريقه الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ: «حب الغِنىٰ ينبت النفاقَ في القلب كما ينبت الماء العشب». ورواه الديلمي من طريق مَسلمة بن علي عن عمر مولىٰ غفرة عن أنس بلفظ: «الغِنىٰ واللهو ينبتان النفاق في القلب كما يُنبِت الماءُ العشبَ ...» الحديث. وروىٰ البيهقي من حديث جابر: «الغِنىٰ ينبت النفاقَ في القلب كما ينبت الماء الزرع». ورواه هكذا ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي أيضًا من حديث ابن مسعود ولكن بلفظ «البقل» بدل: الزرع. وكل ذلك قد تقدم في كتاب الوجد والسماع وفي كتاب ذم الجاه[١].

(إلىٰ غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة. فهؤلاء زيَّنوا ظواهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أموالكم، وإنما ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم». ورواه أيضًا أبو بكر الشافعي في الغيلانيات وابن عساكر من حديث أبي أمامة. ورواه هنَّاد عن الحسن مرسلاً. وعند الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري: «إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ أحسابكم ولا إلىٰ أموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم، فمَن كان له قلب صالح تحنَّن الله عليه». ورواه الحكيم عن يحيىٰ بن أبي كثير مرسلاً نحوه[٢].

(فتعهَّدوا الأعمال ولم يتعهَّدوا القلوب، والقلب هو الأصل؛ إذ لا ينجو) غدًا يوم القيامة **(إلا مَن أتىٰ الله بقلب سليم)** أي سالم عن الغش والكدر **(ومثال هؤلاء كبئر الحُش)** كذا في النسخ، وفي بعضها: كبيت الحش. وهو الصواب[٣].

---

(١) وقد قدمنا أن لفظة «الغنىٰ» لفظة مصحفة، ولم ترد بحال.

(٢) تقدمت هذه الأحاديث كلها في أول كتاب ذم الجاه والرياء، عدا حديث أبي مالك الأشعري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٣٣٨.

(٣) وما جاء في النسخ صواب أيضًا، والحش: هنا مكان قضاء الحاجة، وبئره يحفر في الدار ضيق الرأس، ويتعهد بالتفريغ كلما امتلأ. ذكره محقق المنهاج هامش ٦/ ٦٤٣.

والحُش بالضم ويُفتَح[1]: بستان النخل، قال أبو حاتم: قولهم «بيت الحش» مجاز؛ لأن العرب كانوا يقضون حوائجهم في البساتين، فلما اتخذوا الكُنُف وجعلوها خلفًا عنها أطلقوا عليها ذلك الاسم (**ظاهرها جِص**) أي مبيَّض به (**وباطنها نتن. أو كقبور الموتىٰ، ظاهرها مزيَّن**) بالعمارة (**وباطنها جِيَف. أو كبيت مظلم باطنه، وُضع السراج علىٰ سطحه، فاستنار ظاهره، وباطنه مظلم**) وهذه الأمثلة الثلاثة في العلماء السوء لسيدنا عيسىٰ عليه السلام، نقلها صاحب القوت، وتقدم بعضها في كتاب العلم، وبعضها في كتاب ذم الدنيا (**أو كرجل قصد الملكُ ضيافتَه إلىٰ داره، فجصَّص بابَ داره وترك المزابل في صدر داره، ولا يخفَىٰ أن ذلك غرور، بل أقربُ مثال إليه: رجل زرع زرعًا فنبت، ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش**) المذكور (**بقلعه من أصله، فأخذ يجز رؤوسه**) أي يقطعها (**وأطرافه**) المتشعِّبة (**فلا يزال يقوَىٰ أصلُه وينبُت**) وإنما كان هذا أقرب مثال إليه (**لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق المذمومة في القلب، فمَن لا يطهِّر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة، بل هو كمريض ظهر به الجرب**) والحكَّة (**وقد أُمِر بالطلاء**) عليه من ظاهر البدن (**وشرب الدواء**) من الباطن (**فالطلاء يزيل ما علىٰ ظاهره، والدواء يقلع مادَّته من باطنه، فيَقنع بالطلاء ويترك الدواء، ويبقىٰ يتناول ما يزيد في المادة**) من داخل (**فلا يزال يطلي الظاهرَ**) فلا ينفعه (**والجرب به دائم يتفجَّر من المادة التي في الباطن.**

وفرقة أخرىٰ عَلِموا هذه الأخلاق الباطنة، وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكُّون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون مَن بلغ مبلغَهم في العلم، فأما هو فأعظم عند الله من أن يبتليه) وهذا من ثمرات العجب (**ثم إذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قال: ما هذا كبر، وإنما هذا طلبُ عز الدين،**

---

(١) في المصباح المنير ص ١٣٧: «الحش: البستان، والفتح أكثر من الضم».

وإظهار شرف العلم، ونصرة دين الله، وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين) والحاسدين (فإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس شمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك) ولو باطنًا (وكان ذلِّي ذلاً علىٰ الإسلام. ونسي المغرور أن عدوَّه الذي حذَّره منه مولاه) وذلك العدو (هو الشيطان، وأنه) من شأنه أنه (يفرح بما يفعله ويسخر به، وينسىٰ أن النبي ﷺ بماذا نصر الدين، وبماذا أرغم الكافرين. ونسي ما رُوي عن الصحابة) رضوان الله عليهم (من التواضع والتبذُّل والقناعة بالفقر والمسكنة، حتىٰ عوتِب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيِّه) أي رثاثة هيئته (عند قدومه الشام، فقال: إنَّا قوم أعزَّنا الله بالإسلام، فلا نطلب العز في غيره) رواه الأعمش عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب، وقد تقدَّم (ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والدَّبِيقي والإبريسم المحرَّم والخيول) المسوَّمة (والمراكب) الفاخرة (ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين) هيهات! لا يكون عز العلم وشرف الدين بهذا (وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه) ونُظَرائه (أو فيمَن ردَّ عليه شيئًا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال: إنما هذا غضب للحق وردٌّ علىٰ المبطل في عدوانه وظلمه. ولم يظنَّ بنفسه الحسدَ، حتىٰ يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسته وزوحِم فيها، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله، أم لا يغضب مهما طعن في عالِم آخر ومنع، بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من حيث باطنه، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه، فإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي) فيهما (ليهتدوا إلىٰ دين الله ويتخلَّصوا من عقاب الله. ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح هو باقتدائهم به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم علىٰ يد مَن كان) وهذا (كمَن له عبيد مرضىٰ يريد معالجتهم، فإنه لا يفرِّق بين أن يحصل شفاؤهم علىٰ يده أو علىٰ يد طبيب آخر، وربما يذكر هذا له فلا يخلِّيه الشيطان أيضًا ويقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب

لي، فإنما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق قولي. هذا ما يظنه بنفسه، والله مطَّلع من ضميره) أي باطنه (علىٰ أنه لو أخبره نبيٌّ بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار وحُبس مع ذلك في سجن وقُيِّد بالسلاسل) والأغلال (لاحتالَ في هدم السجن وحلِّ السلاسل حتىٰ يرجع إلىٰ موضعه الذي تظهر به رياستُه من تدريس أو وعظ أو غيرهما. وكذلك يدخل علىٰ السلطان ويتودَّد إليه ويثني عليه ويتواضع له، فإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظَّلمة حرام) وأن مَن تواضع لهم صار له كذا وكذا (قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمع في مالهم، فأما أنت فغرضك أن تتشفَّع للمسلمين فتدفع الضرر عنهم، وتدفع شر أعدائك عن نفسك. والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفِّعه) أي يقبل شفاعته (في كل مسلم حتىٰ دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقُلَ ذلك عليه، ولو قدر علىٰ أن يقبِّح حالَه عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل. وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلىٰ أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له) معيَّن (وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم، وبك قوام الدين، فلا يحل لك أن تترك قدْر حاجتك) وفي نسخة: أفلا يحلُّ لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ (فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور، أحدها: في أنه مال لا مالك له، فإنه يعرف أنه يأخذ الخَراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء [قيام](١)، وأولادهم وورثتهم أحياء، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم، ومَن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف في أنه مال حرام، ولا يقال: هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسَّم بين العشرة ويُرَدَّ إلىٰ كل واحد عشرة وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخَر. الثاني: في قوله: إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين، ولعل الذين فسد دينُهم واستحلُّوا) أخذ (أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال علىٰ الرياسة والإعراض

---

(١) زيادة من أ، وط المنهاج ٦/ ٦٤٦.

عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله، فهو على التحقيق دجَّال الدين وقوام مذهب الشياطين، لا إمام الدين؛ إذ الإمام هو الذي يُقتدَىٰ به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة) ﷺ (وعلماء السلف، والدجَّال هو الذي يُقتدَىٰ به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا، فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته، وهو يزعم أنه قوام الدين، ومَثَله كما قال عيسى عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع) نقله صاحب القوت، وقد تقدم في كتاب العلم (وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

وفرقة أخرى) منهم (أحكموا العلم، وطهَّروا الجوارح وزيَّنوها بالطاعات، واجتنبوا) وفي نسخة: وتركوا (المعاصي الظاهرة، وتفقَّدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبرِّي منها، وقلعوا من القلوب منابتها الجليَّة) أي الظاهرة (القوية، ولكنهم بعدُ مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دقَّ) منها (وغمضَ مَدركُه) ولم يتبيَّن سرُّه (فلم يفطنوا لها) لدقَّتها وغموضها (وأهملوها، وإنما مثاله مَن يريد تنقية الزرع من الحشيش، فدار عليه، وفتَّش عن كل حشيش رآه) مضرًّا للزرع (فقلعه، إلا أنه لم يفتِّش عمَّا لم يخرج رأسه بعدُ من تحت الأرض فظن أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبتت من أصول الحشيش شُعَب لِطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها) ولم يلتفت إليها (وهو يظن أنه قد قلعها) واستأصلها (فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويتْ فأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري) ولا يشعر بها (فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقُّد للدقائق، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها) وتركيب معانيها (وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أن باعثه

الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر) بين الناس (وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمَّات، وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذُّذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد) لكلامه (والتمتع بتحريك الرؤوس) والتمايُل يمينًا وشمالاً (على كلامه) حين يورده (والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين، والسرور بالتخصيص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكُّن به من إطلاق لسان الطعن في كافَّة المقبلين على الدنيا) المعرضين عن الله تعالى (لا عن تفجُّع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتميز واعتداد بالتخصيص، ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء) وطيب ذِكر (فلو تغيَّرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلافَ الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوَّش عليه قلبه) ويتكدَّر بذلك خاطرُه (وتختلط أوراده ووظائفه، وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه) يبديها (وربما يحتاج إلى تكذُّب) أي تكلُّف في الكذب (في تغطية عيبه، وعساه يؤثِر بالكرامة والمراعاة مَن اعتقد فيه الزهدَ والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره) الذي هو فيه (وينبو قلبُه عمَّن عرف حد فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله) ومساويًا لقدره (وعساه يؤثر بعضَ أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثر لتقدُّمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع وأتبعُ لمراده) أي أكثر طوعًا وتبعًا لهوى نفسه (وأكثر ثناءً عليه) عند الناس (وأشد إصغاء إليه) إذا تكلم (وأحرص على خدمته، ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه، فيحمد الله تعالى على ما يسَّر على لسانه) أي سهَّله (من منافع خلقه، ويرى أن ذلك مكفِّر لذنوبه، ولم يتفقَّد مع نفسه تصحيحَ النية فيه، وعساه لو وُعد بمثل ذلك الثواب في إيثار الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه؛ لفقدِه في العزلة والاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة،

ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان: مَن زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبائلي) أي أشراكي[١] **(وعساه يصنِّف ويجتهد فيه)** أي في تصنيفه **(ظانًّا أنه يجمع علم الله ليُنتفَع به، وإنما مراده استطارة اسمه بحسن التصنيف، ولو ادَّعىٰ أحد تصنيفَه ومحا عنه اسمه ونسبه إلىٰ نفسه ثقُلَ ذلك عليه)** وقامت قيامته، وشكاه بكل لسان، كما وقع ذلك لبعض العلماء **(مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف)** وأجر الانتفاع به **(إنما يرجع إلىٰ المصنِّف، والله يعلم بأنه هو المصنِّف لا مَن ادَّعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء علىٰ نفسه إما صريحًا بالدعاوىٰ الطويلة العريضة، وإما ضمنًا بالطعن في غيره)** من معاصريه أو ممَّن تقدَّم عليه **(ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممَّن طعن فيه وأعظم منه علمًا)** وأغزر منه فهمًا **(ولقد كان في غنية عن الطعن فيه، ولعله يحكي من الكلام المزيَّف ما يريد تزييفه)** أي توهينه **(فيعزيه)** أي ينسبه **(إلىٰ قائله)** ليحطَّ بذلك عن مقامه **(وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليُظَن أنه من كلامه)** فيرتفع قدره **(فينقله بعينه كالسارق له، أو يغيِّره أدنىٰ تغيير)** إما بقلب الألفاظ أو تقديم أو تأخير أو اختصار **(كالذي يسرق قميصًا فيتخذه قباء حتىٰ لا يُعرَف أنه مسروق، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه)** وسبكه في قالب البلاغة **(كي لا يُنسَب إلىٰ الركاكة)** أي ضعف العقل والفهم **(ويُرِي أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها؛ ليكون أقرب إلىٰ نفع الناس، وعساه غافلاً عمَّا رُوي أن بعض الحكماء)** من بني إسرائيل **(وضع ثلاثمائة مصحف في الحكمة)** لينتفع بها الناس **(فأوحىٰ الله إلىٰ نبي زمانه)**: أنْ **(قلْ له: قد ملأتَ الأرض بقباقًا)** وفي نسخة: بقاقًا. وهو الكلام الكثير **(وأنا لا أقبل من بقباقك شيئًا)** وفي نسخة: بقاقك. أورده أبو نعيم في الحلية في ترجمة الشعبي، وقد ذُكر في كتاب العلم وفي كتاب ذم الكبر **(ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترِّين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامةَ من عيوب القلب وخفاياه،**

---

(١) أي ما يصيد به قلوب الخلق، أو طرقه.

فلو افترقوا واتَّبع كلَّ واحد منهم فرقةٌ من أصحابه نظر كل واحد إلىٰ كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعًا أو غيره، فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علمَ أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه، ثم إذا تفرَّقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا) تغايُر التيوس في الزرب (وتحاسدوا، ولعل مَن يختلف إلىٰ واحد منهم إذا انقطع عنه إلىٰ غيره) فترك الحضور بين يديه (ثقُلَ علىٰ قلبه ووجد في نفسه نفرة منه، فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه) أي لا ينتشط (ولا يتشمَّر لقضاء حوائجه كما كان يتشمَّر من قبل، ولا يحرص علىٰ الثناء عليه كما أثنىٰ عليه من قبل، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة، ولعل التحيُّز منه إلىٰ فئة أخرىٰ أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته منها في تلك الفئة) وأصل التحيُّز هو الميل إلىٰ حيِّز جماعة، أي ناحيتهم، وكذلك الانحياز (ومع ذلك فلا تزول النفرة عن قلبه، ولعل واحدًا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر علىٰ إظهاره فيتعلَّل بالطعن فيه وفي دينه وفي ورعه) بكل ما أمكنه (ليُحمَل غضبه علىٰ ذلك، ويقول: إنما غضبت لدين الله لا لنفسي. ومهما ذُكرت عيوبه بين يديه ربما فرح به) وله (وإن أُثني عليه ربما ساءه وكرهه، وربما قطب وجهَه) أي عبسَه (إذا ذُكرت عيوبه) كأنه (يُظهِر) من نفسه (أنه كاره لغيبة المسلمين) وذلِّهم (وسرُّ قلبه) أي باطنه (راضٍ به ومريد له، والله مطَّلع عليه في ذلك. فهذا وأمثاله من خفايا العيوب) ودقائقها (لا يفطن له إلا الأكياس) المستبصرون (ولا يتنزَّه عنه إلا الأقوياء) الجلدون (ولا طمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويسوءه ذلك ويكرهه، ويحرص علىٰ إصلاحه، فإذا أراد الله بعبد خيرًا بصَّره بعيوب نفسه) روىٰ الدارقطني في الأفراد وابن عساكر في التاريخ[1] من حديث أنس: «إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا فقَّهَهم في الدين، ووقَّر صغيرُهم كبيرَهم، ورزقهم الرفق في معيشتهم والقصد في نفقاتهم، وبصَّرهم عيوبهم فيتوبوا منها، وإذا أراد بهم غير ذلك تركهم هملاً». قال الدارقطني: تفرَّد به موسىٰ بن محمد بن عطاء عن ابن المنكدر

---

(١) تاريخ دمشق ١٨/ ٧٨.

عن أبيه عن أنس، وهو متروك (**ومَن سرَّته حسنتُه وساءته سيئته فهو مرجوُّ الحال**) روىٰ الخطيب[1] من حديث جابر والطبراني[2] من حديث أبي موسىٰ: «مَن سرَّته حسنتُه وساءته سيئتُه فهو مؤمن» (**وأمرُه أقرب من المغرور المزكِّي نفسه، الممتنِّ علىٰ الله بعلمه وعمله، الظانِّ أنه من خيار خلقه. فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال.**

هذا غرور الذين حصَّلوا العلم المهم) وفي نسخة: العلوم المهمة (**وأهملوا العمل بالعلم**) وفي نسخة: ولكن قصَّروا في العمل بالعلم (**ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لا يهمُّهم وتركوا المهم**) منها (**وهم به**) أي بما حصَّلوه (**مغترُّون إمَّا لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه، فمنهم فرقة اقتصروا علىٰ علم الفتاوىٰ في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعاش، وخصَّصوا اسم «الفقه» بها وسمَّوه: علم الفقه وعلم المذهب، وربما ضيَّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقَّدوا الجوارح، ولم يحرسوا اللسان عن الغِيبة**) والكذب (**ولا البطن عن الحرام**) والشبهة (**ولا الرِّجل عن المشي إلىٰ السلاطين**) وأرباب الأموال (**وكذا سائر الجوارح، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرياء والحسد وسائر المهلكات**) التي ذُكرت (**فهؤلاء مغرورون من وجهين، أحدهما: من حيث العمل، والآخر: من حيث العلم. أما**) من حيث (**العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلَّم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه**) فلا ينفعه ذلك إلا إذا عمل بما فيها (**بل مثالهم مثال مَن به علة البواسير**) جمع باسور، وهو[3] ورم تدفعه الطبيعة إلىٰ كل موضع في البدن يقبل الرطوبة من المقعدة والأنثيين والأشفار وغير ذلك، فإن كان في المقعدة

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٥٢ - ٤٥٣.

(٢) وكذلك البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٢٣٣، والبزار في مسنده ٨/ ٧٢. ورواه أحمد في مسنده ٣٢/ ٣٣٤ بلفظ: «من عمل حسنة فسر بها وعمل سيئة فساءته فهو مؤمن».

(٣) المصباح المنير ص ٤٨.

لم يكن حدوثه دون انفتاح [أفواه] العروق (والبِرسام) وهو[١] ورم حار [يعرض] للحجاب الذي بين الكبد والمعىٰ ثم يتصل بالدماغ، قال ابن دريد: هو معرَّب[٢] (وهو مشرف علىٰ الهلاك ومحتاج إلىٰ تعلُّم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلُّم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهارًا، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول: ربما تقع علَّة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك) فأجيبها (وذلك غاية الغرور، فكذلك المتفقِّه المسكين قد يسلَّط عليه حب الدنيا واتِّباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي) أي التدارُك (فيلقىٰ اللهَ وهو عليه غضبان، فترك ذلك كلَّه واشتغل بعلم السَّلَم والإجارة والظِّهار واللِّعان وسائر الجراحات والديات والدعاوىٰ والبيِّنات وبكتاب الحيض، وهو لا يحتاج إلىٰ شيء من ذلك قط في عمره لنفسه، وإذا احتاج غيرُه كان في المفتين كثرة، فيشتغل بذلك ويحرص عليه؛ لِما فيه من الجاه والمال والرياسة، وقد دهاه الشيطان) وسوَّل له (وما يشعر) بذلك (إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية، هذا لو كانت نيَّته صحيحة كما قال، وقد كان قصدَ بالفقه وجهَ الله تعالىٰ، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به مُعرِض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه. فهذا غروره من حيث العمل.

فأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر علىٰ علم الفتاوىٰ وظن أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وربما طعن علىٰ المحدِّثين وقال: إنهم نَقَلة أخبار وحَمَلة أسفار لا يفقهون) أي لا يدركون فقه الحديث (وترك أيضًا علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن الله بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوفَ والهيبة والخشوع ويحمل علىٰ التقوىٰ، فتراه آمنًا من الله، مغترًّا به،

---

(١) السابق ص ٤١ - ٤٢.

(٢) في جمهرة اللغة لابن دريد ص ١١٢٠، ١٢٠٢: «فارسي معرب».

متكلاً على أنه لا بد وأن يرحمه، فإنه قوام دينه) وحامل شرع نبيِّه **(وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطَّل الحلال والحرام، فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما يسمع في الشرع من تعظيم الفقه)** كالخبر السابق: «مَن يُرِدُ اللهُ به خيرًا يفقِّهه في الدين» **(ولم يدرِ أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة؛ ليستشعر القلب الخوفَ ويلازم التقوى؛ إذ قال الله تعالى:** ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾) أي[1] فهلاَّ نفرَ من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعةٌ قليلة (﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾) أي يتكلَّفوا الفقاهة فيه، ويتجشَّموا مشاقَّ تحصيلها (﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾) [التوبة: ١٢٢] أي وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم **(والذي يحصل به الإنذار)** والإرشاد هو **(غير هذا العلم)** الذي يشتغلون به **(فإنَّ مقصود هذا العلم حفظُ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال أو بدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة، والبدن مركب)** والعبد مسافر **(وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله، وإذا مات ملوَّثًا بتلك الصفات كان محجوبًا عن الله)** مبعَدًا عن حضرته **(فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال مَن اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية)** أي خياطتها، يقال[2]: رَوَى البعيرُ [الماءَ] يرويه، من باب رمى: حمله، فهو راوية [والهاء فيه] للمبالغة، ثم أُطلقت الراوية على كل دابة يُستقَى الماء عليها، ثم أُطلقت على هذه الآلة من الجلود [التي] تحمل المياه، فهو من مجاز المجاز **(و)** علم خرز **(الخُف)** وهو ما يُلبَس في الرجل **(ولا شك في أنه لو لم يكن لتعطَّل الحج)** لأن كلاًّ منهما من لوازم المسافر في قطع البادية **(ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله، وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم)** فلا نعيده هنا

---

(١) أنوار التنزيل ٣/ ١٠٢.

(٢) من هنا إلى قوله (يستقى الماء عليها) عن المصباح المنير ص ٢٤٦.

(ومن هؤلاء مَن اقتصر من علم الفقه علىٰ الخلافيات) وهي المسائل المختلفة في المذاهب (ولم يهمَّه إلا تعلُّم طريق المجادلة والإلزام) والتبكيت والتسجيل (وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة) بين الأقران (فهو طول الليل والنهار في التفتيش) والبحث (عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقُّد لعيوب الأقران والتلقُّف لأنواع التسبيبات المؤذية، فهؤلاء هم سباع الإنس) وذئاب الطمع (طبعهم الإيذاء، وهمُّهم السفه) وغمص الحق (ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران) ومجادلتهم (وكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلىٰ الله بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستحقرونه ويسمُّونه: التزويق وكلام الوعَّاظ) ويسخرون بالذي يشتغل به ويجهِّلونه (وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل، وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوىٰ، ولكن زادوا) عليهم (إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضًا، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة) أُحدِثت (لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وفهم معانيهما، وأما حِيَل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فإنما أُبدعت لإظهار الغلبة) مع الخصوم (والإفحام وإقامة سوق الجدل بها، فغرور هؤلاء أشد كثيرًا وأقبح من غرور مَن قبلهم.

وفرقة أخرىٰ) منهم (اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد علىٰ المخالفين) من أصحاب المذاهب المخالفة (وتتبُّع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة) علىٰ كثرتها (واشتغلوا بتعلُّم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم) وإلزامهم (وافترقوا في ذلك فرقًا كثيرة) أوردها ابن أبي الدم في كتاب له قد جمعه في ذلك (واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عملٌ إلا بإيمان، ولا يصح إيمانٌ إلا بأن يتعلم جدلهم وما سمَّوه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف

بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمَن لا يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم) ولم يسلك علىٰ طريقتهم (ودعتْ كل فرقة منهم إلىٰ نفسها) وحسَّنت طريقتها (ثم هم فرقتان: ضالَّة ومحقَّة، فالضالة هي التي تدعو إلىٰ غير السنَّة، والمحقَّة هي التي تدعو إلىٰ السنة. والغرور شامل لجميعهم، أما الضالة فلغفلتها عن ضلالتها وظنِّها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة) أوردها أبو نصر التميمي في كتاب الأسماء (يكفِّر بعضُهم بعضًا، وإنما أُتيتْ من حيث إنها لم تتَّهم رأيها، ولم تُحكِم أولاً شروط الأدلة ومنهاجها، فرأىٰ أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة) فمن ههنا كان سبب ضلالتهم (وأما الفرقة المحقَّة فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينُه ما لم يفحص ويبحث، وأن مَن صدَّق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن) هذا قول أكثرهم (أو ليس بكامل الإيمان ولا مقرَّب عند الله تعالىٰ، فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلُّم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا نفوسهم وقلوبهم حتىٰ عميتْ عليهم ذنوبُهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة) وحُجب عنهم التفقُّد لها (وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أَولىٰ وأقربُ عند الله وأفضل) لزعمه أنه يوصِل إلىٰ معرفة الله (ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرياسة وعز الانتماء إلىٰ الذب عن دين الله عميت بصيرتُه) فحُجبت عن شهود ما وراء ذلك (فلم يلتفت إلىٰ القرون الأُوَل[1] وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق) وذلك فيما رواه أحمد[2] والطحاوي[3] وابن أبي عاصم[4] والروياني[5] والضياء من حديث بريدة: «خير هذه الأمَّة القرنُ

---

(١) في الجميع: القرن الأول.

(٢) مسند أحمد ٣٨/ ٥٧، ١٣٠.

(٣) شرح معاني الآثار ٤/ ١٥٢.

(٤) السنة ص ٦٢٨ - ٦٢٩.

(٥) مسند الروياني ١/ ٨٩.

الذي بُعثت أنا فيهم، ثم الذين يلونهم». وروى ابن أبي شيبة[١] من مرسل عمرو ابن شرحبيل: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». ورواه كذلك أحمد[٢] والشيخان[٣] والترمذي[٤] وابن ماجه[٥] من حديث ابن مسعود. وروى مسلم[٦] من حديث أبي هريرة: «خير أمتي القرن الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». ورواه الطبراني من حديث سمرة ومن حديث أبي برزة. ورواه الطبراني[٧] من حديث سعد بن تميم السكوني: «خير أمتي أنا وأقراني، ثم القرن الثاني، ثم القرن الثالث» **(وأنهم قد أدركوا كثيرًا من أهل البدع والأهواء فما جعلوا أعمارهم ودينهم عرضًا للخصومات والمجادلات، وما اشتغلوا بذلك عن تفقُّد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة)** اضطرتهم إلى الكلام فيه **(وتوسَّموا مخايل قبول)** ومَظانَّه **(فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضالَّ على ضلالته)** وينبِّهه عليها **(وإذا رأوا مصرًّا على ضلالته هجروه وأعرضوا عنه)** بالكلية **(وأبغضوه في الله، ولم يلزموا الملاحاة)** أي المخاصمة بشدة الإلحاح **(معه طول العمر، بل قالوا: إن الحق هو الدعوة إلى السنَّة، ومن السنة تركُ الجدل في الدعوة إلى السنة؛ إذ روى أبو أمامة)** صُدَيُّ بن عجلان **(الباهلي)** رضي الله عنه **(عن النبي ﷺ أنه قال: ما ضلَّ قوم قط بعد هدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)** رواه الترمذي وابن ماجه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وتقدم في كتاب العلم وفي آفات اللسان.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٨.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٧٦، ٧/ ٧٤، ١٩٩، ٢٣٥، ٢٦٣.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٢٥١، ٣/ ٦، ٤/ ١٧٨، ٢٢٠. صحيح مسلم ٢/ ١١٧٨.

(٤) سنن الترمذي ٦/ ١٦٧.

(٥) سنن ابن ماجه ٤/ ٣٩.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ١١٧٨.

(٧) المعجم الكبير ٦/ ٤٤.

(وخرج رسول الله ﷺ يومًا علىٰ أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون، فغضب عليهم حتىٰ كأنَّه فُقِئَ في وجهه حب الرمان حمرةً من الغضب فقال: أبهذا بُعثتم؟ أبهذا أُمِرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا إلىٰ ما أُمِرتم به فاعملوا، وما نُهيتم عنه فانتهوا) رواه نصر المقدسي في الحجة[1] من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «أبهذا أُمِرتم أو لهذا خُلقتم أن تضربوا كتاب الله بعضًا ببعض؟ انظروا ما أُمِرتم به فاتَّبِعوه، وما نُهيتم عنه فانتهوا».

ورُوي عن أنس أنه ﷺ سمع قومًا يتراجعون في القدر فقال: «أبهذا أُمِرتم أو بهذا عنيتم؟ إنما هلك الذين من قبلكم بأشباه هذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، أمركم الله بأمر فاتبِعوه، ونهاكم عن شيء فانتهوا». هكذا رواه الدارقطني في الأفراد والشيرازي في الألقاب وابن عساكر[2].

وروىٰ الترمذي[3] من حديث أبي هريرة بلفظ: «أبهذا أُمِرتم؟ أم بهذا أُرسلتُ إليكم؟ إنما هلك مَن كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم أن لا تنازعوا فيه».

وروىٰ البزار[4] والطبراني في الأوسط[5] وابن الضريس من حديث أبي سعيد بلفظ: «أبهذا بُعثتم؟ أم بهذا أُمِرتم؟ ألا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

(فقد زجرهم عن ذلك، وكانوا أَولىٰ خلق الله بالحِجاج والجدل، ثم إنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بُعث إلىٰ كافة أهل الملل) مع تبايُن أنواعها **(فلم)** يُذكَر أنه

---

(١) مختصر الحجة علىٰ تارك المحجة ص ٤٣٩ - ٤٤٠، وهو عند أحمد في مسنده ٦٨٤٥.

(٢) تاريخ دمشق ٥٦/ ٣٢٠.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ١١.

(٤) مسند البزار ١٨/ ٧٦ - ٧٧.

(٥) المعجم الأوسط ٨/ ٢٢٥.

كان (يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم، ولم يَزِدْ في المجادلة عليه) بل أُمِر فيه بأن يجادلهم فيه بالتي هي أحسن (لأن ذلك يشوِّش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشُّبَه، ثم لا يقدر علىٰ محوها من قلوبهم) إن رسخت فيها، ولهذا السبب كان هجران أحمد بن حنبل رحمه الله للحارث المحاسبي، كما تقدم في كتاب العلم (وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلِّم أصحابه كيفية الجدل والإلزام) للخصوم (ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتُهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرَّنا هلاكهم، وليس علينا في المجادلة أكثر ممَّا كان علىٰ الصحابة) رضوان الله عليهم (مع اليهود والنصارىٰ وأهل الملل) المختلفة (وما ضيَّعوا العمر بتحرير مجادلاتهم) وإلزاماتهم (فما لنا نضيع العمر) سبهللاً (ولا نصرفه إلىٰ ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا)؟ وهو يوم القيامة (ولِمَ نخوض فيما لا نأمن علىٰ أنفسنا الخطأ في تفاصيله ثم نرىٰ أن المبتدع ليس يترك بدعته بجدله) معه (بل يزيده التعصبُ والخصومة تشدُّدًا في بدعته، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجاهدتها ومجادلتها لتترك الدنيا للآخرة أَولىٰ. هذا لو كنت لم أُنْهَ عن الجدل والخصومة، فكيف وقد نُهيتُ عنه؟ وكيف أدعو إلىٰ السنَّة بترك السنة؟ فالأولىٰ أن أتفقَّد نفسي وأنظر من صفاتها) الباطنة فيها (ما يبغضه الله تعالىٰ وما يحبه؛ لأتنزَّه عمَّا يبغضه) أي أتباعد عنه (وأتمسَّك بما يحبه) وأستوثق به.

(وفرقة أخرىٰ) منهم (اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبةً من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات) قائمين بإزائها (وهم منفكُّون عنها عند الله) أي عارُون (إلا عن قدر يسير

لا ينفكُّ عنه عوامُّ المسلمين. وغرور هؤلاء أشد الغرور؛ لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب) وهو مُهلِك (ويظنون أنهم ما تبحَّروا في علم المحبة إلا وهم محبُّون لله، و) أنهم (ما قدروا علىٰ تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، و) أنهم (ما وقفوا علىٰ خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزَّهون، ولولا أنه مقرَّب عند الله لَما عرَّفه معنىٰ القرب والبعد وعلم السلوك إلىٰ الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله. فالمسكين بهذه الظنون يرىٰ أنه من الخائفين وهو آمِن من الله، ويرىٰ أنه من الراجين وهو من المغترِّين المضيِّعين) لحقوق الله (ويرىٰ أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين) علىٰ أفعال الله (ويرىٰ أنه من المتوكِّلين علىٰ الله وهو من المتَّكلين علىٰ العز والمال والجاه والأسباب) الدنيوية (ويرىٰ أنه من المخلصين وهو من المرائين) في أعماله (بل يصف الإخلاص) للناس (ويترك الإخلاص في الوصف) أي لا يتَّصف به بنفسه (ويصف الرياء ويذكره) وفي نسخة: ويذكر الرياء ويصفه (وهو يرائي بذكره؛ ليعتقدوا فيه أنه لولا أنه مخلص لَما اهتدىٰ لدقائق الرياء، ويصف الزهد في الدنيا) والتخلِّي عنها (لشدة حرصه علىٰ الدنيا وقوة رغبته فيها، فهو يُظهِر الدعاءَ إلىٰ الله وهو منه فارٌّ، ويخوِّف بالله وهو منه آمِن، ويذكِّر بالله وهو له ناسٍ، ويقرِّب إلىٰ الله وهو منه متباعد، ويحثُّ علىٰ الإخلاص وهو غير مخلص، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متَّصِف، ويصرف الناس عن الخلق) أي يحذِّر من الخلطة (وهو علىٰ الخلق أشد حرصًا) بحيث (لو مُنع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلىٰ الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت) أي ضاقت حظيرته (ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقرانه) وأشكاله (مَن أقبل الخلقُ عليه وصلحوا علىٰ يديه لمات غمًّا وحسدًا، ولو أثنىٰ أحد من المتردِّدين إليه علىٰ بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه. فهؤلاء أعظم الناس غرةً، وأبعدهم من التنبُّه والرجوع إلىٰ السداد) إلىٰ طريق الحق (لأن المرغِّب في الأخلاق المحمودة والمنفِّر عن) الأخلاق (المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علمَ ذلك ولم ينفعه، وشغله حبُّ دعوة الخلق عن العمل به، فبعد ذلك بماذا يعالَج؟ وكيف

سبيل تخويفه؟ وإنما المخوِّف ما يتلوه علىٰ عباد الله فيخافون، وهو ليس بخائف. نعم، إن ظن بنفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل علىٰ طريق الامتحان والتجربة وهو أن يدَّعي مثلاً حب الله، فما الذي تركه من مَحابِّ الدنيا) ومَلاذِّها (لأجله؟ ويدَّعي الخوفَ، فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدَّعي الزهد) في الدنيا (فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالىٰ؟ ويدَّعي الأنس بالله، فمتىٰ طابت له الخلوة؟ ومتىٰ استوحش من مشاهدة الخلق؟ لا، بل يرىٰ قلبه يمتلئ بالحلاوة إذا أحدق به المريدون) وهو يتكلم عليهم، وهم له ناظرون (وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالىٰ، فهل رأيت محبًّا آنسًا يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلىٰ غيره؟ فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة، ولا يَقنعون منها بالتزويق) الظاهر (بل بموثِق من الله غليظ) أي شديد (والمغترُّون يُحسِنون بأنفسهم الظنونَ فإذا كُشف الغطاء عنهم في الآخرة يُفتضحون) علىٰ رؤوس الأشهاد (بل يُطرَحون في النار فتندلق أقتابهم) أي مصارينهم (فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحىٰ، كما ورد به الخبر؛ لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه، وينهون عن الشر ويأتونه) وذلك فيما أخرجه أحمد والشيخان من حديث أسامة بن زيد: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقَىٰ في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برَحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلىٰ، قد كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». وقد تقدم قريبًا. ورواه ابن النجار من حديث أبي أمامة، وفيه: «قال: إني كنت أخالف ما كنت أنهاكم» وقد تقدم أيضًا (وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئًا ضعيفًا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك علىٰ وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما قدروا علىٰ وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناسَ بكلامهم فيها إلا لاتِّصافهم بها) وقيامهم بإزائها (وذهب عليهم أن القبول للكلام، والكلام للمعرفة، وجريان اللسان والمعرفة للتعلُّم، وأن

ذلك كله غير الاتِّصاف بتلك الصفة، فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف، بل في القدرة علىٰ الوصف، بل ربما زاد أمنُه وقلَّ خوفُه وظهر إلىٰ الخلق ميلُه وضعُف في قلبه حبُّ الله. وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض) بحقيقته (ويصف دواءه بفصاحته، ويصف الصحة والشفاء، وغيره من المرضىٰ لا يقدر بها علىٰ وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به، وإنما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب، فظنُّه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غايةُ الجهل) كما أن ظن الصحيح بحقيقة المرض أنه مريض ظاهر البطلان (فكذلك العلم بالخوف والتوكل والحب والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها، ومَن التبس عليه وصفُ الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور، فهذه حالة الوعَّاظ الذين لا عيب في كلامهم، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن و) وعظ (الأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله.

وفرقة أخرىٰ منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعَّاظ أهل هذا الزمان كافةً) في بلاد الإسلام (إلا مَن عصمه الله علىٰ الندور) والقلة (في بعض أطراف البلاد إن كان، ولسنا نعرفه) أي لم يبلغنا خبرُه (فاشتغلوا) في وعظهم (بالطامَّات) أي الدواهي والمصائب التي تطم علىٰ غيرها، أي تزيد، والمراد بها ما يؤدُّونه من الكلمات العقم (والشطح) وهو[1] كلام يعبِّر عنه اللسان مقرون بالدعوىٰ ولا يرتضيه أهل الطريق من قائله وإن كان محقًّا (وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبًا للإغراب) علىٰ الحاضرين (وطائفة) منهم (شُغفوا بطيارات النكت) وهي المسائل الدقيقة التي تتعب الخواطر في استنباطها من مكانها (وبتسجيع الألفاظ وتلفيقها) بأن يوردوها موزونة مقفَّاة مجموعة من مواضع شتىٰ (فأكثرُ هِمَمهم في الأسجاع) والأوزان (والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق) والرقيب والواشي (وغرضهم) من كل ذلك (أن تكثُر في مجالسهم الزعقات) أي

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٢٠٤.

الصيحات (والتواجُد ولو علىٰ أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس) وهم أشرُّ من شياطين الجن (ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فإن الأوَّلين وإن لم يُصلِحوا أنفسَهم) بأن لم يتَّصفوا بتلك الصفات التي يذكرونها (فقد أصلحوا غيرَهم) بكلامهم (وصحَّحوا كلامهم ووعظهم) إذ جعلوه علىٰ منهاج الكتاب والسنَّة (وأما هؤلاء فإنهم يصدُّون عن سبيل الله، ويجرُّون الخلق إلىٰ الغرور بالله بلفظ الرجاء، فيزيدهم كلامُهم جراءة علىٰ) ارتكاب (المعاصي ورغبة في الدنيا) وميلاً إلىٰ أعراضها (لا سيَّما إذا كان الواعظ متزيِّنًا بالثياب والخيل والمراكب فإنه يشهد فرقُه إلىٰ قدمه) وفي نسخة: تشهد هيئتُه من فرقه إلىٰ قدمه (بشدة حرصه علىٰ الدنيا، فما يُفسِده هذا المغرور أكثر ممَّا يُصلِح، بل لا يصلح أصلاً، ويُضِل خلقًا كثيرًا) بتغريره إياهم (ولا يخفَىٰ وجهُ كونه مغرورًا.

وفرقة أخرىٰ منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا) منظومًا ومنثورًا (فهم يحفظون الكلمات علىٰ وجوهها ويوردونها) علىٰ الناس (من غير إحاطة بمعانيها، فبعضهم يفعل ذلك علىٰ المنابر، وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكلٌّ منهم يظن أنه إذا تميَّز بهذا القدر عن السوقية) والعوامِّ (والجندية إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرضَ وصار مغفورًا له وأمنَ عقابَ الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن) ملابسة (الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه) في نجاته (وغرور هؤلاء أظهرُ من غرور مَن قبلهم.

وفرقة أخرىٰ استغرقوا أوقاتَهم في علم الحديث، أعني في سماعه) من الشيوخ (وجمع الروايات الكثيرة منه) للحديث الواحد (وطلب الأسانيد الغريبة العالية) وعلوُّها باعتبار قلة الوسائط في السند (فهمُّ أحدهم أن يدور في البلاد) القريبة والبعيدة (ويرىٰ الشيوخ) ويسمع منهم وعليهم (ليقول: أنا أروي عن فلان) ابن فلان (ولقد لقيت فلانًا) في بلد كذا في سنة كذا (ومعي من الأسانيد) الغريبة

العالية (ما ليس مع غيري. وغرورهم من وجوه، منها: أنهم كحَمَلة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلىٰ فهم معاني السنة، فعلمُهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم) ونقلُ الكلام من غير فهم معناه غير كافٍ (ومنها: أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها، وقد يفهمون بعضها أيضًا ولا يعملون به. ومنها: أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة معالجة) أمراض (القلب) الخفيَّة (ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها، ولا حاجة بهم إلىٰ شيء من ذلك) أي في معالجة أمراض القلب (ومنها وهو الذي أكبَّ عليه أهل الزمان: أنهم أيضًا لا يقومون بشرط السماع، فإن السماع بمجرَّده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهمٌّ في نفسه للوصول إلىٰ إثبات الحديث؛ إذ التفهُّم بعد الإثبات، والعمل بعد التفهم. فالأول السماع) وهو وصول لفظ الحديث إلىٰ سمعه (ثم التفهم) لمعناه (ثم الحفظ) إما في قلبه، أو في كتابه، أو فيهما جميعًا وهو أعلىٰ (ثم العمل) به (ثم النشر) لمَن تأهَّل له، وقد نُقل نحو من ذلك من قول كلٍّ من السفيانيين، كما تقدم ذلك في كتاب العلم (وهؤلاء اقتصروا من الجملة علىٰ السماع) وتركوا ما بعده من التفهم والحفظ والعمل (ثم) مع اقتصارهم (تركوا حقيقة السماع، فترىٰ الصبي) أي الصغير (يحضر في مجلس الشيخ) بنفسه أو يُحضِره والدُه (والحديث يُقرأ) بين يديه (والشيخ) تارةً (ينام) أي يغلب عليه النعاس (والصبي يلعب) كما هو من شأنه (ثم يُكتَب) في الطباق (اسم الصبي في السماع) أي يكتبه المستملي أو كاتب السماع (فإذا كبر) الصبي بعد البلوغ وقبله أيضًا (تصدَّىٰ ليسمع منه، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي) أي لا يلقي أذنه لِما يسمعه (ولا يضبط) في عقله ما يسمعه (وربما يشتغل بحديث) مع غيره (أو نسخ) لِما يسمعه أو لغيره (والشيخ الذي يُقرأ عليه لو صحَّف وغيَّر ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه) إما لثقل في سمعه، أو لكثرة ازدحام، أو لأمر آخر شغله (وكل ذلك جهل وغرور؛ إذ الأصل في الحديث أن تسمعه من رسول الله ﷺ فتحفظه كما سمعتَه، وترويه كما حفظته) كما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم (فتكون الرواية عن

الحفظ، والحفظ عن السماع. فإن عجزتَ عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعته) ممَّن بعده (من الصحابة أو التابعين) أو أتباعهم (وصار سماعك من الراوي كسماع من يسمع من رسول الله ﷺ، وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ، وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سمعت، بحيث لا تغيِّر منه حرفًا، ولو غيَّر غيرُك منه حرفًا وأخطأ علمتَ خطأه) فقد[1] أجمع أئمة الحديث والفقه والأصول علىٰ قبول ناقل الخبر المحتج به بانفراده بأن يكون ضابطًا معدَّلاً يقظًا بأن لم يكن مغفَّلاً لا يميِّز الصوابَ من الخطأ كالنائم والساهي؛ إذ المتَّصف بها لا يحصل الركون إليه، ولا تميل النفس إلىٰ الاعتماد عليه، وأن يكون يحفظ، أي يثبُت ما سمعه في حفظه بحيث يبعُد زوالُه عن القوة الحافظة ويتمكَّن من استحضاره متىٰ شاء إن حدَّث من حفظه أو من كتابه الذي يحتوي عليه بحيث يصونه عن تطرُّق التزوير والتغيير إليه من حين سمع فيه إلىٰ أن يؤدي. وهذه الشروط موجودة في كلام الشافعي في الرسالة[2] صريحًا إلا الأول فيؤخذ من قوله: أن يكون عاقلاً لِما يحدِّث به. لقول ابن حبان: هو أن يعقل من صناعة الحديث ما لا يرفع موقوفًا ولا يصل مرسلاً

(١) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوي ٢/ ٣ - ٨، ١٠٣ - ١٠٥، ١١١ - ١١٢، ٢٠٧ - ٢١٠، ١٣٨ - ١٥٦، ١٩٨ - ٢٠٢ (ط - مكتبة السنة).

(٢) الرسالة ص ٣٧٠ - ٣٧٢، ونصه: «لا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتىٰ يجمع أمورًا، منها: أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفًا بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالما بما يحيل معاني الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع، لا يحدث به علىٰ المعنىٰ؛ لأنه إذا حدث به علىٰ المعنىٰ وهو غير عالم بما يحيل به معناه لم يدرِ لعله يحيل الحلال إلىٰ الحرام، وإذا أداه بحروفه فلم يبقَ وجه يخاف فيه إحالته الحديث، حافظًا إن حدث به من حفظه، حافظًا لكتابه إن حدث من كتابه، إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم، بريئًا من أن يكون مدلسا، يحدث عمن لقي ما لم يسمع منه، ويحدث عن النبي ما يحدث الثقات خلافه عن النبي. ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه، حتىٰ يُنتهىٰ بالحديث موصولاً إلىٰ النبي أو إلىٰ من انتُهي به إليه دونه؛ لأن كل واحد منهم مثبت لمن حدثه، ومثبت علىٰ من حدث عنه، فلا يُستغنىٰ في كل واحد منهم عما وصفتُ».

أو يصحِّف اسمًا. وهذا كناية عن اليقظة (**ولحفظك طريقان، أحدهما: أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرىٰ علىٰ سمعك في مجاري الأحوال. والثاني: أن تكتب كما تسمع، وتصحِّح المكتوب وتحفظه حتىٰ لا تصل إليه يد مَن يغيِّره، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدَّت إليه يد غيرك ربما غيَّره**) كما وقع لابن وهب مع جاره (**وإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره، فيكون محفوظًا بقلبك أو بكتابتك، فيكون كتابك مذكِّرًا لِما سمعتَه، وتأمن فيه من التغيير**) والإزالة (**والتحريف، فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرىٰ علىٰ سمعك صوت غُفْلٌ**) بضم فسكون، أي مبهم لا يُدرَىٰ حقيقته (**وفارقتَ المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ**) الذي وقع السماع عليه للكتاب المذكور من غير تلك النسخة (**وجوَّزت أن يكون ما فيه مغيَّرًا**) مُزالاً عن جهة الصواب (**أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها**) بعينها (**لم يجُزْ لك أن تقول: سمعت هذا الكتاب**) علىٰ الشيخ الفلاني (**فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئًا يخالف ما فيه ولو في كلمة**) واحدة (**فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها**) وقت الأداء (**فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك؟ وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾**) [الإسراء: ٣٦] وقال ابن الأثير في مقدمة كتابه جامع الأصول[١]: الضبط عبارة عن احتياط في باب العلم، وله طرفان: [وقوع] العلم عند السماع، والحفظ بعد العلم عند التكلم. حتىٰ إذا سمع ولم يعلم لم يكن معتبرًا، كما لو سمع صياحًا لا معنىٰ له، وإذا لم يفهم اللفظ بمعناه لم يكن ضبطًا، وإذا شك في حفظه بعد العلم والسماع لم يكن ضبطًا. قال: ثم الضبط نوعان: ظاهر وباطن، فالظاهر ضبط معناه من حيث اللفظ[٢]، والباطن ضبط معناه من حيث تعلُّق الحكم الشرعي به وهو الفقه، ومطلَق الضبط الذي هو شرط في الراوي هو الضبط ظاهرًا عند الأكثر؛ لأنه يجوز نقلُ الخبر بالمعنىٰ، فتلحقه تهمة تبديل المعنىٰ بروايته قبل

---

(١) جامع الأصول ١/ ٧٢ - ٧٣.

(٢) في فتح المغيث وجامع الأصول: اللغة.

الحفظ أو قبل العلم حين سمع، ولهذا المعنىٰ قلَّت الرواية عن أكثر الصحابة لتعذُّر هذا المعنىٰ. قال: وهذا الشرط وإن كان علىٰ ما بيَّنَّا فإن أصحاب الحديث قلَّما يعتبرونه في حق الطفل دون المغفل، فإنه متىٰ صح عندهم سماع الطفل أو حضوره أجازوا روايته. والأول أحوط للدين وأولىٰ. اهـ. قال السخاوي: وحاصله اشتراط كون سماعه عند التحمل تامًّا، فيخرج مَن سمع صوتًا غُفْلاً، وكونه حين التأدية عارفًا بمدلولات الألفاظ، ولا انحصار له في الثاني عند الجمهور؛ لاكتفائهم بضبط كتابه، ولا في الأول عند المتأخرين خاصةً؛ لاعتدادهم [بسماع] مَن لا يفهم العربي أصلًا. وقوله «لتعذُّر هذا المعنىٰ» أي عند ذلك الصحابي نفسه؛ لخوفه من عدم حفظه وعدم تمكُّنه في الإتيان بكل المعنىٰ، وهذا منهم ﷺ تورُّعٌ واحتياط، ولقد كان بعضهم تأخذه الرعدة إذا روىٰ ويقول: أو نحو ذا، أو قريب من ذا، وما أشبهَ ذلك (**وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان**) وقبله وبعده: (**إنَّا سمعنا ما في هذا الكتاب، إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح**) إلا أن تكون لهم إجازة من المسمِع تصحب السماعَ فحينئذٍ يجوز لهم أن يقولوا قولهم ذلك، وما أحسن قول ابن الصلاح فيما وُجد بخطه لمَن سمع منه صحيح البخاري: وأجزت له روايته عني، مخصصًا منه بالإجازة ما زلَّ عن السمع لغفلة أو سقط عند السماع بسبب من الأسباب. وكذا كان ابن رافع يتلفَّظ بالإجازة بعد السماع قائلاً: أجزت لكم روايته عني سماعًا وإجازة لما خالف أصل السماع إن خالف. بل قال مفتي قرطبة أبو عبد الله ابن عَتَّاب: إنه لا غِنىٰ عن الإجازة مع السماع؛ لجواز السهو أو الغفلة أو الاشتباه علىٰ الطالب والشيخ معًا أو علىٰ أحدهما. وكلامه إلىٰ الوجوب أقرب. ويتعيَّن علىٰ كاتب الطبقة استحبابًا التنبيه علىٰ ما وقع من إجازة المسمع منها. وقال القاضي عياض(١): وقفت علىٰ تقييد سماع لبعض نبهاء الخراسانيين من أهل المشرق قال فيه: سمع هذا الجزء فلان وفلان علىٰ الشيخ أبي الفضل

---

(١) الإلماع إلىٰ معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ص ٩٢ - ٩٣.

عبد العزيز بن إسماعيل البخاري، وأجاز ما أُغفل وصُحِّف ولم يصغِ إليه أن يُروَىٰ عنه علىٰ الصحة. قال القاضي: وهذا مَنزع نبيل في الباب جدًّا (**وأقل شروط السماع أن يجري الجميع علىٰ السمع مع نوع من الحفظ يُشعَر معه بالتغيير**) إلا أن المتأخرين صرَّحوا باغتفار الكلمة والكلمتين، سواء أخلَّتا أو إحداهما بفهم الباقي أم لا؛ لأن فهم المعنىٰ لا يُشترط، وسواء كان يعرفهما أم لا، وظاهر هذا أنه بالنسبة إلىٰ الأزمان المتأخرة وإلا ففي غير موضع من كتاب النسائي يقول: وذكر كلمة معناها كذا وكذا؛ لكونه فيما يظهر لم يسمعها جيدًا وعلمها. وسأل صالح بن أحمد بن حنبل أباه فقال له: إن أدمج الشيخ أو القارئ لفظًا يسيرًا فلم يسمعه السامع مع معرفته أنه كذا وكذا أترىٰ له أن يرويه عنه؟ فأجاب: أرجو أنه يُعفَىٰ عن ذلك ولا يضيق الحال عنه. قال صالح: فقلت له: الكتاب قد طال عهدُه عن الإنسان، لا يعرف بعض حروفه فيخبره بعض أصحابه. قال: إن كان يعلم أنه كما في الكتاب فلا بأس به. هكذا رواه البيهقي في مناقب أحمد.

(**ولو جاز أن يُكتَب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ لجاز أن يُكتَب سماع المجنون والصبي في المهد ثم إذا بلغ الصبيُّ وأفاق المجنون يسمع عليه، ولا خلاف في عدم جوازه**) وسيأتي الكلام عليه بعد ذلك (**ولو جاز ذلك لجاز أن يُكتَب سماع الجنين في البطن، فإن كان لا يُكتَب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم**) اللفظ والمعنىٰ معًا (**ولا يحفظ فالصبي الذي يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم**) لأن الفهم تابع لسماع اللفظ (**ولا يحفظ، فإن استجرأ جاهل فقال: يُكتَب سماع الصبي في المهد، فليُكتَب سماع الجنين في البطن، فإن فرَّق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فماذا ينفع هذا؟ وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت، فليقتصر إذا صار شيخًا علىٰ أن يقول: سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلسًا يُروَىٰ فيه حديث كان يقرع سمعي صوتُه ولا أدري ما هو. ولا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح، وما**

زاد عليه فهو كذب صريح، ولو جاز إثبات سماع التركي) ومَن في معناه **(الذي لا يفهم العربية؛ لأنه سمع صوتًا غُفْلاً)** لا يهتدي لمعناه **(لجاز إثبات سماع صبي في المهد، وذلك غاية الجهل، ومن أين يؤخذ هذا؟ وهل للسماع مستنَد إلا قول رسول الله ﷺ: نضَّرَ اللهُ)** بضاد[١] معجمة مشدَّدة وتخفَّف، قال في البحر[٢]: وهو أفصح. وقال الصدر المناوي: أكثر الشيوخ يشدِّدون، وأكثر أهل الأدب يخفِّفون، وهو من النضارة: الحسن والرونق **(امرءًا)** أي رجلاً، والمعنىٰ: خصَّه الله بالبهجة والسرور، أو حسَّن وجهه عند الناس وحاله بينهم، أو أوصله نضرة النعيم، فهو يحتمل الخبر والدعاء، وعلىٰ كلٍّ فيحتمل كونه في الدنيا، وكونه في الآخرة، وكونه فيهما **(سمع مقالتي فوعاها)** أي حفظها وداوم علىٰ حفظها ولم ينسَها **(فأدَّاها)** إلىٰ غيره **(كما سمعها)** أي من غير زيادة ولا نقص، فمَن زاد أو نقص فهو مغيِّر لا مبلِّغ، فيكون الدعاء مصروفًا عنه. وقوله «كما سمعها» إما حال من فاعل «أدَّاها» أو مفعول مطلق، و«ما» موصولة أو مصدرية.

قال العراقي[٣]: رواه أصحاب السنن[٤] وابن حبان[٥] من حديث زيد بن ثابت، والترمذي[٦] وابن ماجه[٧] من حديث ابن مسعود، قال الترمذي: حديث [حسن] صحيح، وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس.

قلت: هذا الحديث رُوي عن عدَّة من الصحابة من طرق كثيرة، وفي ألفاظ

---

(١) فيض القدير للمناوي ٦/ ٢٨٣ - ٢٨٤. شرح مشكاة المصابيح للطيبي ٢/ ٦٨٣ - ٦٨٨.

(٢) بحر المذهب للروياني ١/ ٢٢ (ط - دار الكتب العلمية) وعبارته: «قوله: نضر الله، معناه الدعاء بالنضارة وهي النعمة والبهجة، ويقال: نضر الله، بالتخفيف والتثقيل، وأجودهما التخفيف».

(٣) المغني ٢/ ٩٧٧.

(٤) سنن أبي داود ٤/ ٢٤٤. سنن الترمذي ٤/ ٣٩٣. سنن ابن ماجه ١/ ٢١٩. السنن الكبرىٰ للنسائي ٥/ ٣٦٣.

(٥) صحيح ابن حبان ١/ ٢٧٠، ٢/ ٤٥٥.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٧) سنن ابن ماجه ١/ ٢٢١.

بعضها مغايرة وزيادة ونقص، وقد ذكر أبو القاسم ابن منده في تذكرته فيما نقله الحافظ في تخريج أحاديث المختصر[١] أنه رواه عن النبي ﷺ أربعة وعشرون صحابيًّا، ثم سرد أسماءهم. ا.هـ. والذي عرفت منهم الأربعة المذكورون في سياق العراقي، وأبو سعيد الخدري، وعائشة، وأبو هريرة، وعمير بن قتادة الليثي، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وربيعة بن عثمان التيمي، وأبو الدرداء، وأبو قرصافة، وجابر، وشيبة بن عثمان، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وبشير بن سعد الأنصاري والد النعمان:

أما حديث زيد بن ثابت فلفظه: «نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فحفظه حتىٰ يبلِّغه غيرَه، فرُبَّ حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه، ورُب حامل فقه وليس بفقيه». قال الحافظ في تخريج المختصر: هو صحيح، أخرجه أحمد[٢] والطيالسي[٣] وأبو داود والترمذي وابن حبان وابن أبي حاتم[٤] والخطيب[٥] وأبو نعيم[٦]. ويُروَىٰ بلفظ: «نضر الله عبدًا سمع مقالتي فحملها إلىٰ غيره، فرُب حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه، ورُب حامل فقه ليس بفقيه ...» الحديث. هكذا رواه أحمد والطبراني[٧] والبيهقي[٨] والضياء من حديث زيد بن ثابت.

ورواه ابن النجار بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة.

وأما حديث ابن مسعود فلفظه: «نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلَّغه كما

---

(١) موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر لابن حجر العسقلاني ١/ ٣٦٣ وما بعدها.

(٢) مسند أحمد ٣٥/ ٤٦٧.

(٣) مسند الطيالسي ١/ ٥٠٥.

(٤) الجرح والتعديل ٢/ ١١.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص ١٨.

(٦) المستخرج علىٰ صحيح مسلم ١/ ٤١.

(٧) المعجم الكبير ٥/ ١٤٣، ١٥٤.

(٨) شعب الإيمان ٣/ ٢٤٧.

سمعه، فرُب مبلِّغ أوعىٰ من سامع». رواه أحمد[١] والترمذي وحسَّنه وابن حبان[٢] والبيهقي[٣]. قال عبد الغني في الأدب: تذاكرت أنا والدارقطني طرق هذا الحديث، فقال: هذا أصح شيء رُوي فيه. وقال ابن القَطَّان[٤]: فيه سماك ابن حرب، يقبل التلقين. ورواه ابن النجار بلفظ: «نضر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وعقلها، فرُب حامل فقه ليس بفقيه».

ورواه الشيرازي في الألقاب من حديث أبي هريرة.

وأما حديث عائشة فلفظه: «نضر الله عبدًا سمع مقالتي هذه فحفظها ثم وعاها فبلَّغها [عني]». رواه الخطيب في المتفق والمفترق[٥].

وأما حديث جبير بن مطعم فلفظه: «نضر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثم أدَّاها إلىٰ مَن لم يسمعها، فرُب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه ...» الحديث، رواه أحمد[٦] وابن ماجه[٧] والدارمي[٨] وأبو يعلىٰ[٩] والطبراني[١٠] والحاكم[١١] وابن جرير والضياء عن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه رفعه. وفي رواية للطبراني: «ثم وعاها ثم حفظها، فرُب حامل فقه غير

---

(١) مسند أحمد ٧/ ٢٢١.

(٢) صحيح ابن حبان ١/ ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) شعب الإيمان ٣/ ٢٤٨.

(٤) بيان الوهم والإيهام ٤/ ٤٢ - ٥٨.

(٥) المتفق والمفترق ص ١٢١٤.

(٦) مسند أحمد ٢٧/ ٣٠١، ٣١٨.

(٧) سنن ابن ماجه ١/ ٢٢٠، ٤/ ٥٠٢.

(٨) سنن الدارمي ١/ ٨٦.

(٩) مسند أبي يعلىٰ ١٣/ ٤٠٨.

(١٠) المعجم الكبير ٢/ ١٢٧.

(١١) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٥٢ - ١٥٣.

فقيه». والباقي سواء. ورواه الطيالسي وأبو داود وابن ماجه وابن جرير والطبراني من حديث زيد بن ثابت. ورواه البزار[١] والدارقطني من حديث أبي سعيد. ورواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي في المعرفة[٢] من حديث ابن مسعود. ورواه ابن منده[٣] من حديث ربيعة بن عثمان التيمي. ورواه ابن النجار من حديث ابن عمر. ورواه الطبراني[٤] من حديث أبي الدرداء. ورواه الطبراني[٥] والضياء من حديث أبي قرصافة. ورواه الطبراني في الأوسط[٦] وابن جرير والضياء من حديث جابر. ورواه ابن قانع والطبراني من حديث شيبة بن عثمان[٧].

وأما حديث أنس فلفظه: «نضر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها ثم بلَّغها عني، فرُب حامل فقه غير فقيه، ورُب حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه». رواه أحمد[٨] وابن ماجه[٩] والضياء[١٠]. ورواه الخطيب[١١] من حديث أبي هريرة. وهو عند ابن عساكر[١٢] من حديث أنس: «نضر الله مَن سمع قولي ثم لم يزدْ فيه ...» الحديث. ورواه الطبراني[١٣] من حديث عمير بن قتادة الليثي. ورواه في الأوسط[١٤] من

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٨٥.

(٢) معرفة السنن والآثار ١/ ١٠٩.

(٣) معرفة الصحابة ص ٦١٢.

(٤) وكذلك الدارمي في سننه ١/ ٨٧.

(٥) المعجم الأوسط ٣/ ٢٥٦.

(٦) السابق ٥/ ٢٧٢.

(٧) الذي في المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٣٥٩ ومعجم الصحابة لابن قانع ١/ ٣٣٦ هو الشطر الثاني من الحديث فقط وهو قوله: ثلاث لا يغل ... الخ، وليس عندهما موضع الشاهد.

(٨) مسند أحمد ٢١/ ٦٠.

(٩) سنن ابن ماجه ١/ ٢٢٣.

(١٠) الأحاديث المختارة ٦/ ٣٠٨.

(١١) تاريخ بغداد ٥/ ٥٥٤.

(١٢) تاريخ دمشق ٣٤/ ١٥.

(١٣) المعجم الكبير ١٧/ ٤٩.

(١٤) المعجم الأوسط ٧/ ١١٧.

حديث سعد. ورواه الرافعي في التاريخ[١] من حديث ابن عمر. وعند الدارقطني في الأفراد وابن جرير وابن عساكر[٢] من حديث أنس: «نضر الله عبدًا سمع مقالتي ثم وعاها ثم حفظها، فرُب حامل فقه غير فقيه، ورُب حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه ...» الحديث.

وعند الخطيب[٣] من حديث ابن عمر: «نضر الله مَن سمع مقالتي فلم يزدْ فيها، ورُب حامل علم إلىٰ مَن هو أوعىٰ له منه».

وعند الطبراني[٤] وأبي نعيم في الحلية[٥] من حديث معاذ بن جبل: «نضر الله عبدًا سمع كلامي فلم يزدْ فيه، فرُب حامل كلمة إلىٰ مَن هو أوعىٰ لها منه ...» الحديث.

وأما حديث النعمان بن بشير فلفظه: «نضر الله وجه عبد سمع مقالتي فحملها، فرُب حامل فقه غير فقيه، ورُب حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه ...» الحديث. رواه الطبراني والحاكم[٦].

وأما حديث والده بشير بن سعد فلفظه: «رحم الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها، فرُب حامل فقه غير فقيه، ورُب حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه ...» الحديث. هكذا رواه الطبراني[٧] وابن قانع[٨] وأبو نعيم[٩] وابن عساكر[١٠] من رواية

---

(١) التدوين في أخبار قزوين ١/ ٢٣٣.
(٢) تاريخ دمشق ٢٧/ ٦٠، ٣٦/ ٤٧٠، ٣٧/ ٣٠٤.
(٣) تاريخ بغداد ٩/ ٢٨٥ - ٢٨٦.
(٤) المعجم الكبير ٢٠/ ٨٢.
(٥) حلية الأولياء ٩/ ٣٠٨.
(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٥٤.
(٧) المعجم الكبير ٢/ ٤١.
(٨) معجم الصحابة ١/ ٩٧.
(٩) معرفة الصحابة ١/ ٣٩٨.
(١٠) تاريخ دمشق ١٠/ ٢٨٣.

النعمان ابن بشير عن أبيه.

فصل: وإنما خُصَّ مبلِّغ سنَّته بالدعاء لكونه سعىٰ في نضارة العلم وتجديد السنة، فجوزيَ بما يليق بحاله. وقد رأىٰ بعض العلماء النبيَّ ﷺ في النوم فقال له: أنت قلت: نضر الله امرءًا ... الخ؟ قال: نعم - ووجهه يتهلَّل - أنا قلته. وكرَّره ثلاثًا. قالوا: ولذلك لا يزال في وجوه المحدِّثين نضارة ببركة دعائه. وفيه وجوب تبليغ العلم، وهو الميثاق المأخوذ علىٰ العلماء، وأنه يكون في آخر الزمان مَن له من الفهم والعلم ما ليس لمَن تقدَّمَه، لكنه قليل بدلالة «رُب»؛ ذكره بعضهم[1]، ومنعه ابن جماعة بمنع دلالته علىٰ المدَّعَىٰ، فإنَّ حامل السنة يجوز أن يؤخَذ عنه وإن كان جاهلاً بمعناها، فهو مأجور علىٰ نقلها وإن لم يفهمها. وسياق المصنف ينازعه، حيث قال: (**وكيف يؤدي كما سمع مَن لا يدري ما سمع**) ثم قال: (**فهذا أفحش أنواع الغرور**) وفي الحديث تنبيه علىٰ أن أساس كل خير حُسن الاستماع ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقد حقَّق العارفون أن كلام الله رسالة من الله لعبيده ومخاطبة لهم، وهو البحر المشتمل علىٰ جواهر العلم، المتضمِّن لظاهره وباطنه، ولهذا قاموا بأدب سماعه ورعوه حق رعايته، وقد تجلَّىٰ لخلقه في كلامه لو كانوا يعقلون، وكذا كلام رسوله ﷺ ممَّا يتعيَّن حسن الاستماع إليه؛ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ. وقال الخطابي[2]: فيه دليل علىٰ كراهة اختصار الحديث لمَن ليس بمُتناهٍ في الفقه؛ لأن فعله يقطع طريق الاستنباط علىٰ مَن بعده ممَّن هو أفقهُ منه.

(وقد بُليَ بهذا أهل الزمان، ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخًا إلا الذين سمعوهم في الصبا علىٰ هذا الوجه مع الغفلة، إلا أن للمحدِّثين في ذلك جاهًا وقبولاً، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقلُّ مَن يجتمع لذلك في حلقتهم

---

(١) المقصود به المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأندلسي، كما نقله عنه ابن بطال في شرح صحيح البخاري ١/ ١٥٠.

(٢) معالم السنن ٤/ ١٨٧، وانظر أيضًا: التلخيص في أصول الفقه للجويني ٢/ ٤٠١، ٤٠٢.

فينقص جاهُهم وتقلُّ أيضًا أحاديثهم التي سمعوها بهذا الشرط، بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا، فاصطلحوا على أنه ليس يُشترَط إلا أن تقرع سمعه دمدمةٌ وإن كان لا يدري ما يجري) كلاً واللهِ، إنما توسَّعوا في ذلك إبقاءً لسلسلة الإسناد التي هي خصيصة لهذه الأمَّة المحمدية شرفًا لنبيِّها ﷺ، وقد أعرضوا في الأعصُر المتأخرة عن اجتماع الشروط المتقدمة في الراوي وضبطه، فلم يتقيَّدوا بها في عملهم؛ لتعذُّر الوفاء بها، بل استقرَّ الحال عندهم على اعتبار بعضها، وأنه يُكتفىٰ في الرواية بالعاقل المسلم البالغ المستور الحال، وفي الضبط بأن يثبُت ما روىٰ بخط ثقة مؤتمَن من أصل موافق لأصل شيخه، وإليه ذهب البيهقي[1]، فإنه لمَّا ذكر توسُّع مَن توسَّع في السماع من بعض محدِّثي زمانه الذين لا يحفظون حديثهم ولا يحسنون قراءتَه من كتبهم ولا يعرفون ما يُقرأ عليهم بعد أن تكون القراءة [عليهم] من أصل سماعهم، وذلك لتدوين الأحاديث في الجوامع التي جمعها أئمة الحديث، قال: فمَن جاء اليوم بحديث واحد لا يوجد عند جميعهم لم يُقبَل منه - أي لأنه لا يجوز أن يذهب على جميعهم - ومَن جاء بحديث معروف عندهم فالذي يرويه لا ينفرد بروايته، والحجة قائمة برواية غيره. ا.هـ. قال السخاوي: والحاصل أنه لما كان الغرض أولاً معرفة التعديل والتجريح وتفاوت المقامات في الحفظ والإتقان ليُتوصل بذلك إلىٰ التصحيح والتحسين والتضعيف حصل التشديد بمجموع تلك الصفات، ولمَّا كان الغرض آخرًا الاقتصار في التحصيل علىٰ مجرد وجود السلسلة السندية اكتفوا بما ترىٰ، ولكن ذلك بالنظر إلىٰ الغالب في الموضعين، وإلا فقد يوجد في كلٍّ منهما من نمط الآخر، وإن كان التساهل إلىٰ هذا الحد في المتقدمين قليلاً، وقد حُكي نحوه عن الحافظ أبي طاهر السِّلفي، وهو الذي استقر عليه العمل، بل حصل فيه التوسُّع أيضًا إلىٰ ما وراء هذا كقراءة غير الماهر[2] في غير أصل مقابَل بحيث كان ذلك وسيلة لإنكار غير واحد من المحدِّثين فضلاً عن

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٣٢١.

(٢) في المطبوعة: (غير الأمي) والمثبت من فتح المغيث.

غيرهم عليهم.

ثم إن قول المصنف «وافتضحوا فاصطلحوا» يُعزَىٰ لمالك بن دينار بلفظ «اصطلحوا فافتضحوا»، رواه أبو نعيم في الحلية[1] في ترجمته من طريق سيَّار عن جعفر عنه.

(وصحة السماع لا تُعرَف من قول المحدِّثين؛ لأنه ليس من علمهم، بل من علم علماء أصول الفقه، وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه) إلا أن المحدِّثين شاركوهم في الكلام علىٰ هذه المسألة استطرادًا؛ لشدة احتياجهم إلىٰ معرفتها **(فهذا غرور هؤلاء)**.

ولنورد من كلامهم في مفردات هذه المسألة وفاقًا وخلافًا، ونجعل ذلك في فصول:

فصل: اختُلف في سماع الصغير في حال صغره حضورًا ثم روايته بعد البلوغ وكذا قبله علىٰ وجه وصفه البُلْقيني بالشذوذ، فمنعه قوم فلم يقبلوا قبل البلوغ وقالوا: لأن الصبي مَظَنَّة عدم الضبط، وهو وجه للشافعية، وعليه أبو منصور محمد بن المنذر بن محمد المراكشي الشافعي، فحكىٰ ابن النجار في ترجمته من تاريخه[2] أنه كان يمتنع من الرواية أشد الامتناع ويقول: مشايخنا سمعوا وهم صغار لا يفهمون، وكذلك مشايخهم، وأنا لا أرىٰ الرواية عمَّن هذه سبيله. وكذا كان ابن المبارك يتوقَّف في تحديث الصبي، فروينا من طريق الحسن بن عرفة قال: قدم ابنُ المبارك البصرة، فدخلت عليه، وسألته أن يحدثني، فأبىٰ وقال: أنت صبي. فأتيت حماد بن زيد وقلت: يا أبا إسماعيل، دخلت علىٰ ابن المبارك فأبىٰ أن يحدثني. فقال: يا جارية، هاتي خُفِّي وطيلساني. وخرج معي يتوكَّأ علىٰ يدي حتىٰ دخلنا علىٰ ابن المبارك، فجلس معه علىٰ السرير، وتحدَّثا ساعة، ثم قال له حماد: لِمَ

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٨١.

(٢) وذكره عنه أيضا الصفدي في الوافي بالوفيات ٥/ ٤٦.

لم تحدِّث هذا [الغلام] فقال: يا أبا إسماعيل، هو صبي لا يفقه ما يحمله. فقال له حماد: يا أبا عبد الرحمن، حدثْه، فلعله واللهِ أن يكون آخر مَن يحدِّث عنك في الدنيا. فحدَّثه، وكان كذلك. أخرجه الخطيب في التاريخ[١].

ونحوه ما رواه البيهقي في الشعب[٢] من طريق أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي قال: لما رحل بي أبي إلىٰ أبي المغيرة - يعني عبد القدوس ابن الحجاج الخولاني الحِمصي - وكان قد سمع منه أبي وأخي[٣] من قبلي، فلما رآني أبو المغيرة قال لأبي: مَن هذا؟ قال: ابني. قال: وما تريد به؟ قال: يسمع منك. قال: ويفهم؟ فقال لي أبي وكنا في مسجد: قمْ فصلِّ ركعتين، وارفع صوتك بالتكبير والاستفتاح والقراءة والتسبيح في الركوع والسجود والتشهد. ففعلت، فقال لي أبو المغيرة: أحسنتَ. ثم قال لي أبي: حدِّثْنا. فقلت: حدثني أبي وأخي عن أبي المغيرة عن أم عبد الله ابنة خالد بن معدان عن أبيها قال: من حق الولد علىٰ والده أن يُحسِن أدبه وتعليمه، فإذا بلغ اثنتي عشرة سنة فلا حق له [عليه] وقد وجب حقُّ الوالد علىٰ ولده، فإذا هو أرضاه فليتخذْه شريكًا، وإن لم يرضِه فليتخذه عدوًّا. فقال لي أبو المغيرة: اجلس بارك الله عليك. ثم حدثني به وقال: قد أغناك الله عن أبيك وأخيك، قلْ حدثني أبو المغيرة.

وقد رُدَّ علىٰ القائلين بعدم قبول رواية الصبي بإجماع الأئمة علىٰ قبول حديث جماعة من صغار الصحابة كالحسن والحسين والعبادلة ابن جعفر وابن الزبير وابن عباس والنعمان بن بشير والسائب بن يزيد والمسور بن مخرمة وأنس ومَسلمة بن مخلد وعمر بن أبي سلمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وأبي الطفيل وعائشة ﷺ، من غير فرق بين ما تحمَّلوه قبل البلوغ وبعده، مع إحضار أهل العلم

---

(١) لم أقف عليه في تاريخ بغداد، ولكن رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢/ ٤٣٨، وفي آخره: «قال الحسن بن عرفة: رحم الله حمادا، ما كان أحسن فراسته، أنا آخر من حدث عن ابن المبارك».

(٢) شعب الإيمان ١١/ ١٤٠.

(٣) في الشعب: أخي وأختي.

خلفًا وسلفًا من المحدِّثين وغيرهم صبيانهم مجالس أهل العلم، ثم قبولهم من الصبيان ما حدَّثوا به من ذلك بعد البلوغ، وقد رأىٰ أبو نعيم الفضل بن دُكَين أحدُ شيوخ البخاري أبا جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي وهو يلعب مع الصبيان وقد طيَّنوه، وكان بينه وبين والده مودة، فنظر إليه وقال: يا مطيَّن، قد آن لك أن تحضر مجلسَ السماع. وكان ذلك سببًا لتلقيبه مطيَّنًا[١]. ومات عبد الرزاق وللدَّبَري ست سنين أو سبع، ثم روىٰ عنه عامة كتبه، ونقلها الناس عنه. وكذا سمع القاضي أبو عمر الهاشمي السنن لأبي داود من اللؤلؤي وله خمس سنين، واعتدَّ الناس بسماعه وحملوه عنه. وقال يعقوب الدورقي: حدثنا أبو عاصم قال: ذهبت بابني إلىٰ ابن جريج وسنه أقل من ثلاث سنين، فحدثه[٢]. وكفىٰ ببعض هذا متمسَّكًا في الرد فضلاً عن مجموعه، بل قيل: إن مجرد إحضار العلماء للصبيان يستلزم اعتدادَهم بروايتهم بعد البلوغ. لكنه متعقَّب بأنه يمكن أن يكون الحضور لأجل التمرين والبركة. والله أعلم.

فصل: وأما اشتراط البلوغ في قبول الرواية فهو قول الجمهور، وقبل بعضُهم رواية الصبي المميِّز الموثوق به، وفي المسألة لأصحاب الشافعي وجهان، قيَّدهما الرافعي[٣] - وتبعه النووي[٤] - بالمراهق، مع وصف النووي للقبول بالشذوذ. وقال الرافعي في موضع آخر[٥]: وفي الصبي بعد التمييز وجهان كما في رواية أخبار الرسول. واختصره النووي بالصبي المميِّز[٦]. ولا تناقُض، فمَن قيَّد بالمراهق عنىٰ

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٠٠، والحاكم في معرفة علوم الحديث ص ٥٧٢. وفي آخره قول مطين: «ثم حُملت إليه بعد ذلك بأيام فإذا هو قد مات».

(٢) رواه الخطيب في الكفاية في علم الرواية ص ٦٤.

(٣) فتح العزيز ١/ ٢٢٠.

(٤) روضة الطالبين ١/ ١٠٣.

(٥) فتح العزيز ١/ ٤٤٦ أثناء الكلام عن تحديد القبلة.

(٦) في روضة الطالبين ١/ ٢١٧.

المميِّز. والصحيح عدم قبول غير البالغ، وهو الذي حكاه النووي عن الأكثرين. وحكىٰ في شرح المهذَّب[١] تبعًا للمتولي عن الجمهور قبول أخبار الصبي المميِّز فيما طريقه المشاهدة، بخلاف ما طريقه النقل كإفتاء ورواية [أخبار] ونحوه، وأما غير المميِّز فلا يُقبَل قطعًا.

فصل في الوقت الذي يسمَّىٰ فيه الصبي سامعًا: اعلمْ أنهم اختلفوا في تعيين وقت السماع، فقيل: إذا كان ابن خمس سنين، وهو قول الجمهور، وعزاه عياض في الإلماع[٢] لأهل الصنعة. قال ابن الصلاح[٣]: وعليه استقر عملُ أهل الحديث المتأخرين، فيكتبون لابن خمس فصاعدًا «سمع»، ولمَن لم يبلغها «حضر» أو «أُحضِر». وقد بوَّب البخاريُّ في كتابه[٤]: متىٰ يصح سماع الصغير. وأورد فيه قصة محمود بن الربيع وعقله المجَّة التي مجَّها رسولُ الله ﷺ [في وجهه] وكان ابن خمس إذ ذاك، وهكذا رواه الزبيدي عن الزهري عن محمود، وقيل: كان ابن أربعة، كما حكاه ابن عبد البر[٥]، ومال إليه عياض[٦] وغيره. وقد حكىٰ السِّلفي[٧] عن الأكثرين صحة سماع مَن بلغ أربع سنين لحديث محمود لكن بالنسبة لابن العربي خاصةً، أما ابن العجمي فإذا بلغ سبعًا. وقيَّده الإمام أحمد فيما رواه الحاكم

(١) المجموع شرح المهذب ٣/ ١٠٠.

(٢) الإلماع ص ٦٢.

(٣) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ص ١٣٠.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٤٤.

(٥) عبارة ابن عبد البر في الاستيعاب ٢/ ٢١٧: «عقل عن رسول الله ﷺ مجة مجها من دلو من بئرهم، وحُفظ ذلك عنه وهو ابن أربع سنين أو خمس سنين».

(٦) في الإلماع ص ٦٣ - ٦٤: «في غير رواية الزبيدي: وهو ابن أربع سنين، وتابع أبا مسهر علىٰ قوله «خمس سنين» ابن مصفىٰ وغيره، وخالفهم غيرهم فقال: ابن أربع. ولعلهم إنما رأوا أن هذا السن أقل ما يحصل به الضبط وعقل ما يسمع وحفظه، وإلا فمرجوع ذلك للعادة، ورب بليد الطبع غبي الفطرة لا يضبط شيئا فوق هذا السن، ونبيل الجبلة ذكي القريحة يعقل دون هذه السن».

(٧) الوجيز في ذكر المجاز والمجيز لأبي طاهر السلفي ص ٤١ - ٤٣ (ط - مكتبة دار الإيمان بالمدينة المنورة) وفيه: «وأن العجمي إذا بلغ ست سنين».

عن القطيعي قال: سمعت عبد الله بن أحمد يقول: سمعت أبي سُئل عن سماع الصبي، فقال: إن كان ابن عربي فابن سبع، وإن كان ابن عجمي فإلىٰ أن يفهم. وقيَّده بالسبع مطلقًا بعضُهم. ونحوه ما رواه السلفي عن الربيع بن سليمان أن الشافعي سُئل الإجازة لولد وقيل له: إنه ابن ست سنين، فقال: لا تجوز الإجازة لمثله حتىٰ يتم له سبع سنين. وإذا كان هذا في الإجازة ففي السماع أَولىٰ. فاجتمع أربعة أقوال في الوقت الذي يسمَّىٰ فيه الصغير سامعًا، والصواب المعتبَر في صحة سماعه قول خامس وهو أن يكون ممَّن يعقل فهم الخطاب ورد الجواب، فمَن لم يكن كذلك لم يصحَّ أن يكون سامعًا وإن كان ابن خمس سنين. وقال الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني: إذا بلغ الصبي المبلغَ الذي يفهم اللفظ بسماعه صح سماعُه، حتىٰ إنه لو سمع كلمة أدَّاها في الحال ثم كان مراعيًا لِما يقوله من تحديث أو لقراءة القارئ صح سماعه وإن لم يفهم معناه. بل عزا النوويُّ[١] عدمَ التقدير للمحققين، حيث قال: إن التقييد بالخمس أنكره المحقِّقون وقالوا: إن الصواب أن يُعتبر كل صبي بنفسه، فقد يميِّز لدون خمس، وقد يتجاوز الخمس ولا يميِّز. وقال ابن رُشَيد[٢]: والظاهر أنهم أرادوا بتحديد الخمس أنها مَظَنَّة لذلك لا أن بلوغها شرط لا بد من تحقُّقه. وممَّا يدل علىٰ أن المعتبَر التميز والفهم خاصةً دون التقييد بسن أنه قيل[٣] للإمام أحمد: إن رجلاً يقول: إن سن التحمُّل خمس عشرة سنة لا في دونها. فقال: بئس ما قال، بل إذا عقلَ الحديثَ وضبطه صح تحمُّله وسماعه ولو كان صبيًّا، كيف يعمل بوكيع وابن عيينة وغيرهما ممَّن سمع قبل هذا السن؟

(١) المجموع شرح المهذب ٤/ ٢٤٨.

(٢) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ١/ ٢٠٨.

(٣) القائل هو عبد الله بن أحمد بن حنبل، كما في مسائله لأبيه ص ٤٤٩، ونصه: «سألت أبي: متىٰ يجوز سماع الصبي في الحديث؟ قال: إذا عقل وضبط. قلت: فإنه بلغني عن رجل سميته له أنه قال: لا يجوز سماعه حتىٰ يكون له خمس عشرة سنة؛ لأن النبي ﷺ رد البراء وابن عمر استصغرهم يوم بدر. فأنكر قوله هذا وقال: لا، بئس القول هذا، يجوز سماعه إذا عقل، وكيف يصنع بسفيان بن عيينة ووكيع. وذكر أيضا قوما». والرجل المشار إليه هو يحيىٰ بن معين.

فقد رُوي عن ابن عيينة أنه قال: أتيت الزهري وفي أذني قرط ولي ذؤابة، فلما رآني جعل يقول: واسنينه واسنينه، ههنا ههنا، ما رأيت طالب علم أصغر من هذا. رواه الخطيب في الكفاية[1]. بل روىٰ[2] أيضًا من طريق أحمد بن النضر الهلالي قال: سمعت أبي يقول: كنت في مجلس ابن عيينة، فنظر إلىٰ صبي في المسجد، فكأنَّ أهل المجلس تهاونوا به لصغر سنِّه، فقال سفيان: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] ثم قال: [يا نضر] لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، أختلف إلىٰ علماء الأمصار، مثل الزهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلتُ المجلس قالوا: أوسِعوا للشيخ الصغير، أوسعوا للشيخ الصغير. ثم تبسَّم ابن عيينة وضحك. واتصل تسلسله بالضحك والتبسم إلىٰ الخطيب، مع مقال في السند، لكن القصد منه صحيح.

فصل: وممَّا يُستدل به لتمييز الصغير أن يعدَّ من واحد إلىٰ عشرين. ذكره شارح التنبيه[3]، وهو من منقول القاضي أبي الطيب الطبري. أو يُحسِن الوضوء والاستنجاء وما أشبههما، أو نحو ما اتفق لإمامنا الأعظم أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ حين دخل علىٰ جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، فإنه بينما هو جالس في دهليزه ينتظر الإذن إذ خرج عليه صبي خماسي من الدار، قال أبو حنيفة: فأردت أن أسبر عقله فقلت: أين يضع الغريب الغائط من بلدكم يا غلام؟ قال: فالتفت إليَّ مسرعًا وقال: تَوَقَّ شطوط الأنهار ومساقط الثمار وأفنية المساجد وقوارع الطرق،

---

(١) الكفاية ص ٦٠.

(٢) السابق ص ٦١.

(٣) كفاية النبيه في شرح التنبيه لابن الرفعة ٢/ ٣٠٤، قال: «وحُكي عن اليحصبي أنه إذا صار الصبي يعد من واحد إلىٰ عشرين فقد حصل مميزا».

وتَوارَ خلف الجدار، وأشلْ ثيابك، وسَمِّ باسم الله، وضعه حيث شئتَ. فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا موسىٰ بن جعفر. أوردها ابن النجار في تاريخه في ترجمة محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حمدان. أو بتبيين الدينار من الدرهم، كما روينا في ترجمة أبي الحسن محمد بن محمد بن عبيد الله بن أبي الرعد من تاريخ ابن النجار أيضًا أنه قال: وُلدت سنة اثنتين وعشرين، وأول ما سمعتُ من الحسن بن شهاب العكبري في سنة سبع وعشرين إلىٰ رجب سنة ثمان وعشرين. قال: وكان أصحاب الحديث لا يُثبِتون سماعي لصغري، وأبي يحثُّهم علىٰ ذلك، إلىٰ أن أجمعوا علىٰ أن يعطوني دينارًا ودرهمًا، فإن ميَّزتُ بينهما يثبتون سماعي حينئذٍ. قال: فأعطوني الدينار والدرهم وقالوا: ميِّزْ بينهما. فنظرت وقلت: أما الدينار فمغربي. فاستحسنوا فهمي وذكائي وقالوا: أخبر بالعين والنقد. وسُئل موسىٰ بن هارون الحمَّال: متىٰ يسمَّع للصبي؟ فقال: إذا فرَّق بين البقرة والحمار[1]. وجنح إلىٰ ذلك من المتأخرين الوليُّ العراقي، فكان يقول: أخبرني فلان وأنا في الثالثة سامع فَهِمٌ. ويحتجُّ بتمييزه بين بعيره الذي كان يركبه حين رحل به أبوه أول ما طعن في السنة المذكورة وبين غيره، وهو حجة. وكل هذه الأدلة قد يشملها فهم الخطاب وردُّ الجواب، فلا تَنافي بينهما. وروىٰ الخطيب في الكفاية[2] قال: سمعت القاضي أبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأصبهاني يقول: حفظت القرآن ولي خمس سنين، وحُملت إلىٰ أبي بكر ابن المقرئ لأسمع منه ولي أربع سنين، فقال بعض الحاضرين: لا تسمِّعوا له فيما قُرئ فإنه صغير. فقال لي ابن المقرئ: اقرأ سورة الكافرون. فقرأتها، فقال: اقرأ سورة التكوير. فقرأتها، فقال لي غيره: اقرأ والمرسلات. فقرأتها ولم أغلط فيها. فقال ابن المقرئ: سمِّعوا له والعهدة عليَّ. ثم قال: سمعت أبا صالح صاحب الحافظ أبي مسعود أحمد بن الفرات يقول: سمعت أبا مسعود يقول: أتعجَّب من إنسان يقرأ والمرسلات عن ظهر قلب ولا يغلط فيها. قال الخطيب: ومن أظرف

---

(١) رواه الخطيب في الكفاية ص ٦٥. وفي رواية له: بين الدابة والبقرة.

(٢) الكفاية ص ٦٤ - ٦٥.

شيء سمعناه في حفظ الصغير ما أخبرنا أبو العلاء محمد بن الحسن الوَرَّاق، حدثنا أبو بكر أحمد بن كامل القاضي، حدثني عليٰ بن الحسن النجار، حدثنا الصاغاني، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: رأيت صبيًّا ابن أربع سنين حُمل إلىٰ المأمون قد قرأ القرآن ونظر في الرأي، غير أنه إذا جاع يبكي. ا.هـ. قال العراقي في النكت[١]: والذي يغلب علىٰ الظن عدم صحتها، وأحمد بن كامل القاضي قال فيه الدارقطني: كان متساهلاً، ربما حدَّث من حفظه بما ليس عنده في كتابه. وقال صاحب الميزان[٢]: كان يعتمد علىٰ حفظه فيَهِمُ.

فصل: وهل المعتبَر في التمييز والفهم القوة أو الفعل؟ الظاهر الأول، ويشهد له أن الحافظ ابن حجر سُئل عمَّن لم يعرف بالعربية كلمة، فأمر بإثبات سماعه. وكذا حكاه ابن الجزري عن كلٍّ من ابن رافع وابن كثير وابن المحب. بل حكىٰ ابن كثير[٣] أن المزي كان يحضر عنده من يفهم ومَن لا يفهم - يعني من الرجال - ويكتب للكل السماعَ. وكأنَّهم حملوا قول ابن الصلاح[٤] «ومتىٰ لم يكن

(١) التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقي ص ١٤٠، ونصه: «أحسن ابن الصلاح في التعبير عن هذه الحكاية بقوله: بلغنا، ولم يجزم بنقلها، فقد رأيت بعض الأئمة من شيوخنا يستبعد صحتها ويقول: علىٰ تقدير وقوعها لم يكن ابن أربع سنين، وإنما كان ضئيل الخلقة فيظن صغره. والذي يغلب علىٰ الظن عدم صحتها، وقد رواها الخطيب بإسناده في الكفاية، وفي إسنادها أحمد بن كامل القاضي، قال فيه الدارقطني: كان متساهلا، ربما حدث من حفظه بما ليس عنده في كتابه، وأهلكه العجب، فإنه كان يختار ولا يضع لأحد من العلماء أصلا. وقال صاحب الميزان: كان يعتمد علىٰ حفظه فيهم».

(٢) ميزان الاعتدال ١/ ١٢٩.

(٣) الباعث الحثيث إلىٰ اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ١٦٤ - ١٦٥ (ط - مكتبة السنة) ونصه: «الواقع في زماننا اليوم أن يحضر مجلس السماع من يفهم ومن لا يفهم والبعيد من القارئ والناعس والمتحدث والصبيان الذين لا ينضبط أمرهم بل يلعبون غالبا ولا يشتغلون بمجرد السماع، وكل هؤلاء قد كان يُكتب لهم السماع بحضرة شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي».

(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ١٣٠.

يعقل فهم الخطاب ورد الجواب لم يصحَّ وإن كان ابن خمس بل ابن خمسين» علىٰ انتفاء القوة مع الفعل أيضًا.

بقي هنا شيء آخر، وهو أن الذهبي قال: إن الصغير إذا حضر إن أُجيزَ له صح التحملُ، وإلا فلا شيء إلا إن كان المسمع حافظًا فيكون تقريره لكتابة اسم الصغير بمنزلة الإذن منه في الرواية عنه(١).

فصل: ولا يضرُّ في كلٍّ من التحمل والأداء النعاسُ الخفيف الذي لا يختلُّ معه فهمُ الكلام لا سيَّما من الفَطِن، فقد كان الحافظ المزي ربما ينعس في حال إسماعه ويغلط القارئ أو يزلُّ فيبادر للرد عليه(٢). وكذلك كان يتفق للحافظ ابن حجر في بعض المرَّات في أثناء دروسه كما نقله تلميذه السخاوي عن مشاهدته له. وإنما يُرَدُّ مَن تساهل في النوم الكثير الواقع [منه أو من شيخه] مع عدم المبالاة به فلم يقبلوا روايته، وأما مَن كان فَطِنًا متيقظًا فلا، وما يوجد في الطباق من التنبيه علىٰ نعاس السامع أو المسمع فلعله فيمَن جُهل حاله أو عُلم بعدم الفهم، وأما امتناع ابن دقيق العيد من التحديث عن ابن المقير مع صحة سماعه عنه لكونه شك هل نعسَ حال السماع أم لا فلورعه، فلقد كان من الورع بمكان. ونحوه أنه قيل لعلي بن الحسين بن شقيق المروزي: أسمعتَ الكتاب الفلاني؟ فقال: نعم، ولكن نهق حمارٌ يومًا فاشتبه عليَّ حديثٌ ولم أعرف تعيينه فتركت الكتاب [كله] (٣).

فصل: واختلفوا في النسخ حال السماع هل يُرَدُّ به سماع الناسخ أم لا، فمنعه أبو إسحاق الأسفراييني وإبراهيم الحربي وابن عدي في آخرين؛ لأن الاشتغال

---

(١) فتح المغيث للسخاوي ٢/ ١٥٦.

(٢) ذكر ذلك ابن كثير في الباعث الحثيث ص ١٦٤.

(٣) رواه الخطيب في الكفاية ص ٢٣٤ عن الحسين بن حريث المروزي قال: سألت علي بن الحسن الشقيقي: هل سمعت كتاب الصلاة من أبي حمزة السكري؟ قال: الكتاب كله، إلا أنه نهق حمار يوما، فخفي عليَّ حديث أو بعض حديث، ثم نسيت أي حديث كان من الكتاب، فتركت الكتاب كله.

بالنسخ مخلٌّ بالسماع، وقد قيل: السمع للعين، والإصغاء للأذن، وقيل: إنه لا يسمَّىٰ سامعًا، إنما يقال له: جليس العالِم. وحُكي نحو ذلك عن أبي بكر الصِّبغي أحد أئمة الشافعية، فإنه قال: لا ترو أيها المحدِّث ما سمعتَه علىٰ شيخك في حال نسخه أو أنت تنسخ تحديثًا ولا إخبارًا. واختاره المصنف، كما يشير إليه سياقَه السابق. وأجازه أبو حاتم الرازي وابن المبارك، فقد رُوي عن أولهما أنه كان ينسخ حال تحمُّله عند كلٍّ من عارم وعمرو بن مرزوق، وأما ثانيهما ففي حال تحديثه[1]. وذلك منهما مقتضٍ للجواز. وتوسَّط بينهما ابن الصلاح[2] فقال: إن قارن النسخَ فهمٌ وتمييز صح السماع، وإلا فهو صوتٌ غفلٌ. وسبقه لذلك سعد الخير الأنصاري فقال: إذا لم تمنع الكتابةُ عن فهم ما قُرئ فالسماع صحيح[3]. ا.هـ. قال السخاوي: والعمل علىٰ هذا، فقد كان [شيخنا] ينسخ في مجلس سماعه ثم إسماعه، بل ويكتب علىٰ الفتاوىٰ ويصنِّف، ويرد مع ذلك علىٰ القارئ ردًّا مفيدًا. وكذا بلغنا عن الحافظ المزي و[غيره ممَّن] قبله وبعده، وقد جرىٰ للدارقطني ببغداد أن حضر في حداثته إملاء أبي علي إسماعيل الصفَّار، فرآه بعض الحاضرين ينسخ فقال له: لا يصح سماعك وأنت تنسخ. فاستظهر عليه الدارقطني بالصحة، فقال له المنكر عليه: كم أملىٰ حديثًا؟ فسرد ما أملىٰ وهو ثمانية عشر حديثًا وساقها علىٰ الولاء متنًا وإسنادًا. ذكر ذلك الخطيب في تاريخه[4]. ثم إن هذا كله فيما إذا وقع النسخ حال التحمُّل أو الأداء، فلو وقع ذلك فيهما معًا كان أشد، ووراء هذا قول بعضهم: الخلاف في المسألة لفظيٌّ، فإن المرء لو بلغ الغاية

---

(١) كل ذلك قد نقله الخطيب في الكفاية ص ٦٦ - ٦٧ بأسانيده.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٥، ونصه: «لا يصح السماع إذا كان النسخ بحيث يمتنع معه فهم الناسخ لما يقرأ حتىٰ يكون الواصل إلىٰ سمعه كأنه صوت غفل، ويصح إذا كان بحيث لا يمتنع معه الفهم».

(٣) هذا كلام الخطيب في الكفاية ص ٦٧.

(٤) تاريخ بغداد ١٣/ ٤٨٩ - ٤٩٠.

من الحذق والفهم لا بد أن يخفَىٰ عليه بعض المسموع، وإنما العبرة بالأكثر، فمَن لاحظ الاحتياطَ قال: ليس بسامع، ومَن لاحظ التسامح والغلبة عدَّه سامعًا ورأىٰ أن النسخ إن حجب فهو حجاب رقيق. ا.هـ. وفي تسميته لفظيًّا مع ذلك توقُّفٌ، وكذا في قول من قال «إن السمع للعين» نظرٌ. ويلتحق بالنسخ الصلاةُ، وقد كان الدارقطني يصلي في حال قراءة القارئ عليه، وربما يشير بردٍّ ما يخطئ فيه القارئ، كما اتفق له، حيث قرأ القارئ عليه مرة: يُسَير بن ذعلوق، بالياء التحتية، فقال له: «نون والقلم»، ومرة: عمرو بن سعيد، فقال له: «يا شعيب أصلاتك»[١].

وقد قال الرافعي في أماليه[٢]: كان شيخنا أبو الحسن الطالقاني ربما قُرئ عليه الحديث وهو يصلي ويصغي إلىٰ ما يقول القارئ وينبِّهه إذا زلَّ. يعني بالإشارة.

وهل يلتحق بذلك قراءة قارئين فأكثر في آنٍ واحد؟ فيه نظرٌ. والله أعلم.

ولنرجع إلىٰ شرح كلام المصنف، قال: **(ولو سمعوا علىٰ الشرط)** المتقدم **(لكانوا أيضًا مغرورين في اقتصارهم علىٰ النقل)** المجرَّد **(وفي إفناء أعمارهم)** وتضييع أوقاتهم النفيسة **(في جمع الروايات)** المتفرقة **(والأسانيد)** المختلفة **(وإعراضهم عن مهمَّات الدين ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يُقصَد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وربما يكفيه الحديث الواحد عمره، كما رُوي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع)** علىٰ بعض الشيوخ **(فكان أول حديث روىٰ قوله ﷺ: من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه)** رواه[٣] الترمذي - وقال: غريب - وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين

(١) هما قصتان رواهما الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٢) وذكره أيضا في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ١٤٤. والطالقاني المذكور هو أحمد بن إسماعيل بن يوسف الفقيه الشافعي، يكنىٰ أبا الخير، أما تكنيته بأبي الحسن فلم يذكرها مترجموه، والظاهر أنه تحريف.

(٣) المغني للعراقي ٢/ ٩٧٧.

مرسلاً، وقد تقدم[١] **(فقام)** من المجلس **(وقال: يكفيني هذا)** الحديثُ للعمل **(حتىٰ أفرغ منه ثم أسمع غيره.**

فهكذا يكون سماع الأكياس) العقلاء **(الذين يحذرون الغرورَ)** والله الموفِّق.

(وفرقة أخرىٰ اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة، واغتروا به، وزعموا أنهم قد غُفر لهم) بسبب اشتغالهم بتلك العلوم **(وأنهم من علماء الأمة)** وأحبارها **(إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو)** فمَن لم يعرف منهما لم يعرف الكتاب والسنة **(فأفنىٰ هؤلاء أعمارَهم)** النفيسة **(في)** معرفة **(دقائق النحو)** وغرائبه **(وفي)** معرفة **(صناعة الشعر وفي)** معرفة **(غرائب اللغة)** وسبب إفناء الأعمار فيها أن تلك العلوم لا تستقلُّ بأنفسها في معرفتها، بل لا بد معها من علوم أُخَر هي متوقِّفة عليها، فعلم النحو يستدعي علم التصريف وعلم جواهر الحروف وعلم الاشتقاق وعلم الخط وغيرها، وكذا علم اللغة يتوقَّف عليها، وعلم صناعة الشعر يزيد عليهما بمعرفة علم العروض وعلم القوافي وعلم العلل والزحاف، وفي كلٍّ من ذلك تصانيف مستقلة، فلا يكاد المشتغل ببعضها أن يفرغ إلىٰ غيرها، فيفنَىٰ العمرُ وهو لم يكمُل في تلك العلوم **(ومثالهم كمَن يفني جميع العمر في تعلُّم الخط)** العربي **(وتصحيح الحروف وتحسينها)** وتحصيلها بأوزانها المذكورة عند أصحاب الفن **(ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، فلا بد من تعلُّمها وتصحيحها)** فأفنوا أعمارهم علىٰ تحصيل ذلك، وتركوا الاشتغال بالمهمِّ من الدين، وساعدهم مع ذلك رغبة أهل الدنيا إليهم، فراجت صنعتُهم **(ولو عقلَ)** المشتغل بعلم الكتابة **(لعلمَ أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يُقرأ)** ويوصِل إلىٰ المراد **(كيفما كان، والباقي زيادة علىٰ)** قدْر **(الكفاية)** ولذلك قالوا: خير العلم ما دُري، وخير الخط ما قُري **(وكذلك الأديب**

---

(١) في كتاب آفات اللسان [الآفة الأولىٰ: الكلام فيما لا يعنيك].

لو عقلَ لعرف أن لغة العرب كلغة الترك، والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عمره في معرفة لغة الترك والهند) وغيرهما (وإنما فارقتها لغةُ العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغريبين في الحديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب) من غير تعمُّق في كلٍّ منهما (فأما التعمُّق فيه إلىٰ درجات لا تتناهَىٰ فهو فضول مستغنًىٰ عنه) والمضيع عمره فيه مضيع في فضول (ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة) وفي نسخة: المعاني الشرعية (والعمل بها) أي بمقتضاها (فهو أيضًا مغرور، بل مثاله مثال مَن ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه، وهو غرور؛ إذ المقصد من الحروف المعاني) المفهومة منها (وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومَن احتاج إلىٰ أن يشرب السكنجبين) وهو الدواء المركَّب من الخل والعسل (ليزول ما به من الصفراء) العارضة علىٰ الطبيعة (فضيع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجُهَّال المغرورين) فإن القدح إنما هو ظرف للشرب وليس هو المقصود بالذات (وكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب) والشعر (والقراءة والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمَّقوا فيها وتجرَّدوا لها وعرَّجوا عليها أكثر ممَّا يُحتاج إليه في تعلُّم العلوم التي هي فرض عين) في حقِّه (فاللب الأقصىٰ هو العمل، والذي فوقه هو معرفة العمل، وهو كالقشر للعمل، وكاللب بالإضافة إلىٰ ما فوقه، وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية، وهو قشر بالإضافة إلىٰ المعرفة، ولب بالإضافة إلىٰ ما فوقه، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو، وفوق ذلك - وهو القشر الأعلىٰ - العلم بمخارج الحروف، والقانعون بهذه الدرجات) ما عدا اللب الأقصىٰ (كلهم مغرورون، إلا مَن اتخذ هذه الدرجات منازل) يرحل منها (فلم يعرِّج عليها إلا بقدر حاجته) الضرورية (فتجاوز إلىٰ ما وراء ذلك حتىٰ وصل إلىٰ لباب العمل، وطالَبَ بحقيقة العمل قلبَه وجوارحه، وزجا) أي ساقَ (عمرَه في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات) العارضة لها (فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع، وسائر العلوم

خدم له ووسائل إليه وقشور له) وهو اللب (ومنازل بالإضافة إليه، وكل مَن لم يبلغ المقصد فقد خاب) في سعيه (سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد، وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع) إذ يكون الوصول إليها بها (اغترَّ بها أربابها. فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يُعلَم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها) المشتغلون بها (أنهم ينالون المغفرة) والنجاة (بها من حيث إنها علوم، فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع؛ لأن العلوم الشرعية مشترَكة في أنها محمودة كما يشارك اللبُّ القشرَ في كونه محمودًا، ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهَىٰ، والثاني محمود) لا لذاته بل (للوصول به إلىٰ المقصود الأقصىٰ، فمَن اتخذ القشر مقصودًا وعرَّج عليه فقد اغتر به) والله الموفِّق.

(وفرقة أخرىٰ عظُم غرورُهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه) الذي حكم به (في مجلس القضاء، فوضعوا) أنواع (الحِيَل في دفع الحقوق) الواجبة (وأساؤوا تأويل الألفاظ المبهمة، واغتروا بالظواهر وأخطأوا فيها، وهذا من قبيل الخطأ في الفتوىٰ والغرور فيه، والخطأ في الفتاوىٰ ممَّا يكثُر) في طائفة الفقهاء (ولكن هذا نوع عمَّ الكافةَ إلا الأكياس منهم، فنشير إلىٰ أمثلة له: فمن ذلك فتواهم بأن المرأة مهما أبرأت من الصداق) المتأخر علىٰ ذمة الزوج (برئ الزوجُ بينه وبين الله، وذلك خطأ، بل الزوج قد يسيء إلىٰ الزوجة بحيث يضيِّق عليها الأمورَ بسوء الخُلق فتضطر) حينئذٍ (إلىٰ طلب الخلاص) منه لراحتها (فتبرئ الزوجَ) عن حقها (لتتخلَّص منه، فهو إبراء) في ظاهر الشرع لكن (لا عن طيبة نفس، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾) أي من الصداق ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [النساء: ٤] وطيبة النفس غير طيبة القلب، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسُه، فإنه يريد الحجامة بقلبه) لِما لها من النفع للبدن (ولكن تكرهها نفسُه) لِما يحصل لها من ألم التشريط (فإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله) أي الإبراء. وفي نسخة: تقابلها. أي المرأة (حتىٰ إذا

رُدِّدت بين ضررينِ اختارت أهونهما، فهذه مصادرة علىٰ التحقيق بإكراه بالباطن. نعم، القاضي) الأصغر (في الدنيا لا يطَّلع علىٰ القلوب والأغراض) الباطنة (فينظر إلىٰ الإبراء الظاهر وأنها لم تُكرَه بسبب ظاهر) أي فيما يظهر له (والإكراه الباطن ليس يطَّلع عليه الخلق، ولكن مهما تصدَّىٰ القاضي الأكبر) يوم عرض الأعمال (في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبًا ولا مفيدًا في تحصيل الإبراء، ولذلك لا يحلُّ أن يؤخذ مال الإنسان إلا بطيب نفس منه، فلو طلب من إنسان مالاً علىٰ ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه، وكان يودُّ أن يكون سؤاله في خلوة) حيث لا يكون الناس (حتىٰ لا يعطيه ولكن خاف ألم مَذَمَّة الناس وخاف ألمَ تسليم المال فردَّد نفسه بينهما فاختار أهون الألمينِ وهو ألم التسليم فسلَّمه فلا فرق بين هذا وبين المصادرة؛ إذ معنىٰ المصادرة إيلام البدن بالسوط حتىٰ يصير ذلك أقوىٰ من ألم القلب ببذل المال) وقد صادره مصادرةً (فيختار أهون الألمين، والسؤال في مَظَنَّة الحياء، والرياء ضرب للقلب بالسوط) ومنه قولهم: ما أُخِذ بسيف المُحاياة فهو حرام (ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالىٰ، فإن الباطن) إنما هو بالإضافة إلينا، وأما (عند الله تعالىٰ) فهو (ظاهر) لا يخفَىٰ عليه شيء في السماء والأرض (وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالمِلك بظاهر قوله: وهبت) لك (لأنه لا يمكنه الوقوف علىٰ ما في القلب، وكذلك من يعطي اتِّقاء لشر لسانه) وفحشه (أو لشر سعايته) عند الظَّلَمة (فهو حرام عليه، وكذلك كل مال يؤخذ علىٰ هذا الوجه فهو حرام، ألا ترىٰ إلىٰ ما جاء في قصة داود عليه السلام، حيث قال بعد أن غُفر له: يا رب، كيف لي بخصمي؟ فأُمِر بالاستحلال منه، وكان ميتًا) قد مات شهيدًا في غزو (فأُمِر بندائه في صخرة بيت المقدس، فنادىٰ: يا أوريا. فأجابه: لبَّيك يا نبي الله، أخرجتني من الجنة، فماذا تريد؟ قال: إني أسأت إليك في أمر فهَبْه لي. قال: قد فعلتُ ذلك يا نبي الله. فانصرف وقد ركن إلىٰ ذلك) أي مال إليه واعتمده (فقال له جبريل عليه السلام: هل ذكرتَ له ما فعلتَ) من الإساءة؟ (قال: لا. قال: فارجعْ فبيِّنْ

له) إساءتك (فرجع فناداه): يا أوريا (فقال: لبَّيك يا نبي الله. فقال: إني أذنبت إليك ذنبًا. قال: ألم أهبْه لك؟ قال: أوَ لا تسألني ما ذلك الذنب؟ قال: ما هو يا نبي الله؟ قال: كذا وكذا. فذكر شأن المرأة) كما تقدمت القصة (فانقطع الجواب، فقال) داود: (يا أوريا، ألا تجيبني؟ قال: يا نبي الله، ما هكذا تفعل الأنبياء حتىٰ أقف معك بين يدي الله. فاستقبل داود الصراخ والبكاء من الرأس، حتىٰ وعده اللهُ أن يستوهبه منه في القيامة) أخرج(١) الحكيم في النوادر(٢) وابن [جرير(٣) وابن] أبي حاتم بسند ضعيف من حديث أنس: «لما أصاب داود ما أصاب مكث أربعين ليلة ساجدًا حتىٰ نبت الزرع من دموعه علىٰ رأسه، وأكلت الأرض جبينه، فجاءه جبريل بعد ذلك فقال: يا داود، إن الله قد غفر لك. قال داود: عرفنا أن الله عدل لا يميل، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال: يا رب، دمي الذي عند داود. فقال جبريل: ما سألتُ ربك عن ذلك، فإن شئتَ لأفعلن. فقال: نعم. فعرج جبريل، وسجد داود، فمكث ما شاء الله، ثم نزل فقال: يا داود، قد سألتُ الله عن الذي أرسلتني فيه فقال: قل لداود: إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول: هَبْ لي دمك الذي عند داود، فيقول: هو لك يا رب، فيقول: فإنَّ لك في الجنة ما شئتَ وما اشتهيت عوضًا».

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير(٤) وابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] قال: سجد أربعين ليلة، حتىٰ أوحىٰ الله إليه: قد غفرت لك. قال: يا رب، كيف تغفر لي وأنت حكم عدل لا تظلم أحدًا؟! قال: إني أقضيك له، ثم أستوهبُه دمَك، ثم أثيبه الجنة حتىٰ يرضىٰ قال الآن طابت نفسىٰ وعلمتُ أن قد غفرت لي.

---

(١) الدر المنثور ١٢/ ٥٢٦ - ٥٤١.

(٢) نوادر الأصول ص ٥٨٩.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٧٤ - ٧٥.

(٤) السابق ٢٠/ ٧٠.

وأخرج أحمد في الزهد[١] عن أبي عمران الجوني قال: سجد داود أربعين ليلة ويومًا لا يرفع رأسه إلا إلىٰ فريضة، حتىٰ يبست وقرحت جبهته وكفَّاه وركبتاه، فأتاه ملَكٌ فقال: يا داود، إني رسول الله إليك، وإنه يقول لك: ارفع رأسك فقد غفرت لك. فقال: كيف يا رب وأنت حكم عدل، وأنت دَيَّان يوم الدين، لا يجوز منك ظلمٌ، كيف تغفر لي ظُلامة الرجل؟! فتُرك ما شاء الله، ثم أتاه ملَكٌ آخر فقال: يا داود، إني رسول ربك إليك، وإنه يقول لك: إنك تأتيني يوم القيامة أنت وابن صوريا تختصمان إليَّ فأقضي له عليك، ثم أسألها إياه فيهبها لي، ثم أعطيه من الجنة حتىٰ يرضىٰ[٢].

وأخرج ابن جرير[٣] والحاكم عن السُّدِّي قال: مكث داود أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلا لحاجة وهو يبكي، حتىٰ نبت العشب من دموع عينيه، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، ارفع رأسك فقد غفرت لك. قال: يا رب، كيف أعلم أنك غفرت لي وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء؟ إذا جاء أوريَّا يوم القيامة آخذًا رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجُه دمًا في قِبَل عرشك يقول: رب، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ فأوحىٰ الله إليه: إذا كان ذلك دعوت أوريا فأستوهبك منه فيهبك لي فأثيبه بذلك الجنة. قال: يا رب، الآن علمتُ أنك غفرت لي.

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود قال: «لما سجد داود قيل له: ارفع رأسك فقد غفرت لك. قال: يا رب، كيف تكون هذه المغفرة وأنت قضاؤك بالحق ولستَ ظَلاَّمًا للعبيد، رجل ظلمتُه غصبته قتلته. فأوحىٰ الله إليه: بلىٰ يا داود، تجتمعان عندي فأقضي له عليك، فإذا برز الحقُّ عليك استوهبتك منه فوهبك لي وأرضيتُه من قِبَلي وأدخلتُه الجنة. فرفع داود رأسه وطابت نفسه وقال: نعم يا رب،

---

(١) الزهد ص ٦١.

(٢) بعده في الزهد: «ثم أغفرها لك. فقال: الآن أعلم يا ربا أنك قد غفرت لي».

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٦٨.

هكذا تكون المغفرة لي».

(**فهذا ينبِّهك أن الهبة من غير طيب قلب لا تفيد، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خُلِّي الإنسان واختياره حتىٰ تنبعث الدواعي من ذات نفسه، لا أن تضطر بواعثُه إلىٰ الحركة بالحِيَل والإلزام، ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لإسقاط الزكاة**) كما أفتىٰ به أبو يوسف (**فالفقيه يقول: سقطت الزكاة**) بهذه الحيلة (**فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي قد سقطت عنه فقد صدق، فإنَّ مَطمح نظرهم ظاهر المِلك وقد زال، وإن ظن أنه يَسلم في القيامة ويكون كمَن لم يملك المال أو كمَن باع لحاجته إلىٰ البيع لا علىٰ هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة**)! وقد تقدمت الإشارة إليه في كتاب العلم، وزاد المصنف هنا فقال: (**فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل، فإن البخل مهلك**) كما ورد به الخبر (**قال ﷺ: ثلاث مهلكات: شُح مطاع**) وهوًىٰ متبَع، وإعجاب المرء بنفسه. وقد تقدم مِرارًا (**وإنما صار شحُّه مطاعًا بما فعله**) من الحيلة (**وقبله لم يكن مطاعًا**) فمجرد[1] الشح إذا كان موجودًا في النفس لا يكون مهلكًا؛ لأنه من لوازم النفس، مستمدٌّ من أصل جِبلَّتها الترابي، وفي التراب قبض وإمساك، وإنما يكون مهلكًا إذا كان مطاعًا، أي ينقاد له (**فقد تم هلاكُه بما يظن أن فيه خلاصه، فإن الله مطَّلع علىٰ قلبه وحبه للمال وحرصه عليه، وأنه بلغ من حرصه علىٰ المال أنه استنبط الحِيَل حتىٰ يسدَّ علىٰ نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور. ومن ذلك إباحة الله مال المصالح**) المتقدم ذِكره في كتاب الحلال والحرام (**للفقيه وغيره بقدر الحاجة**) الداعية لهم (**والفقهاء المغرورون لا يميِّزون بين الأماني**) النفسية وهي التي تتمنَّاها نفوسهم (**والفضول والشهوات وبين الحاجات**) الضرورية (**بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة، وهو محض الغرور، بل الدنيا خُلقت**

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ١/ ٤٧٠.

لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الله، فكل ما يتناوله العبد للاستعانة به علىٰ الدين والعبادة فهو حاجته، وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته) فهم يأخذون من مال المصالح ويصرفونه في شهوات نفوسهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا (ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلَّدات، والغرض من ذلك التنبيه علىٰ أمثلة تعرِّف الأجناس دون الاستيعاب والاستقصاء، فإنَّ ذلك يطول) والبصير الكامل يكفيه ما ذكرنا، فليقِسْ عليه ما عداه. والله الموفِّق.

(الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل، والمغرورون منهم فِرق كثيرة، فمنهم مَن غروره في الصلاة، ومنهم مَن غروره في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد. وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليًا عن نوع غرور إلا الأكياس وقليل ما هم، فمنهم فرقة أهملوا الفرائض) أي تركوها (واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمَّقوا في الفضائل حتىٰ خرجوا إلىٰ) حدِّ (العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه) ويكرر غسل الأعضاء (و) ربما (لا يرتضي الماءَ المحكوم بطهارته في فتوىٰ الشرع ويقدِّر الاحتمالات البعيدة قريبةً في النجاسة، وإذا آل الأمر إلىٰ أكل الحلال قدَّر الاحتمالات القريبة بعيدةً، وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلىٰ الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة) رضوان الله عليهم (إذ توضأ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بماء من جَرَّة نصرانية) كما أورده البخاري في أول صحيحه، وتقدم في كتاب سر الطهارة (مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يَدَع أبوابًا من الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام) كما هو معروف من سيرته (ثم في هؤلاء من يخرج إلىٰ الإسراف في صب الماء، وذلك منهيٌّ عنه) في أخبار كثيرة، منها[١] ما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبيّ بن كعب: «إن للوضوء شيطانًا يقال له الولهان ...» الحديث، وقد تقدم في كتاب عجائب القلب (وقد يطول الأمر حتىٰ يضيع الصلاة

---

(١) المغني للعراقي ٢/ ٩٧٨.

ويخرجها عن وقتها، وإن لم يخرجها عن وقتها أيضًا فهو مغرور؛ لِما فاته من فضيلة أول الوقت) فإنه رضوان الله (وإن لم يفتْه فهو مغرور؛ لإسرافه في الماء، وإن لم يسرف فهو مغرور؛ لتضييعه العمر الذي هو أعزُّ الأشياء) وأنفسها (فيما له مندوحة عنه، إلا أن الشيطان يصدُّ الخلق عن الله بطرق شتىٰ، ولا يقدر علىٰ صدِّ العِباد إلا بما يخيَّل إليهم أنه عبادة، فيبعدهم عن الله بمثل ذلك).

(وفرقة أخرىٰ غلبت عليها الوسوسة في نية الصلاة، فلا يَدَعه الشيطان حتىٰ يعقد نية صحيحة، بل يشوِّش عليه حتىٰ تفوته الجماعة ويُخرِج[1] الصلاة عن الوقت) باشتغاله بالنية (وإن تم تكبيرُه فيكون في قلبه بعد تردُّد في صحة نيَّته، وقد يوسوَسون في التكبير حتىٰ قد يغيِّرون صيغة التكبير) مع رفع الصوت (لشدة الاحتياط فيه، يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة ولا يُحضِرون قلوبَهم) بل يسرعون في القراءة ويخفِّفون الركوع والسجود، وكل ذلك مشاهَد خصوصًا في هذه الأزمنة المتأخرة (ويغترُّون بذلك، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميَّزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم علىٰ خير عند ربِّهم) وليس كما ظنوا.

(وفرقة أخرىٰ تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات) التي في الفاتحة، وهي أربعة عشر تشديدة (والفرق بين) مخرجَي (الضاد والظاء) ويتحمَّل المشقة في ذلك (وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لا يهمُّه غيرَه، ولا يتفكَّر فيما سواه، ذاهلاً عن معنىٰ القرآن) الذي هو المقصود بالذات (و) عن (الاتِّعاظ به و) عن (صرف الفهم إلىٰ أسراره، وهذا من أقبح أنواع الغرور، فإنه لم يكلَّف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتُهم في الكلام) أي في محاوراتهم، ولذا لم يُنقَل عن أحد من السلف هذا التشدُّد (ومثال هؤلاء مثال مَن

---

(١) في ط المنهاج ٦/ ٦٧٧: تخرج. وبلا نقط في أ فلم أتبينها.

حمل رسالة إلىٰ مجلس سلطان وأُمِر أن يؤدِّيها علىٰ وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة، ويتأنَّق في مخارج الحروف، ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرىٰ، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بأن تُقام عليه السياسة ويُرَدُّ إلىٰ دار المجانين ويُحكَم عليه بفقد العقل) فهكذا مَن فعل بحضرة ملك الملوك جلَّ جلاله ولم يراعِ حرمة الحضرة في أداء رسالته فإنه يستحق التأديب.

(وفرقة أخرىٰ اغتروا بقراءة القرآن فيهذُّونه هذًّا) أي يسرعون فيه (وربما يختمونه في اليوم والليلة مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردَّد في أودية الأماني) وشهوات النفوس (إذ لا يتفكَّر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتَّعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلىٰ غير ذلك ممَّا ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه) أي عن فهم معانيه (ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتابًا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايتَه إلىٰ فهمه والعمل به ولكن اقتصر علىٰ حفظه) فقط (فهو مستمر علىٰ خلاف ما أمره به مولاه، إلا أنه يكرر الكتاب بنغمته وصوته كل يوم مائة مرة، فهو مستحقٌّ للعقوبة، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور. نعم، تلاوته إنما تُراد لكيلا يُنسَىٰ بل لحفظه، وحفظه يُراد لمعناه، ومعناه يُراد للعمل به والانتفاع بمعانيه) علىٰ قدر فهمه (وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذُّ به) في نفسه (ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذَّة مناجاة الله وسماع كلامه، وإنما هي لذَّته في صوته) لا غير (ولو ردَّد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذَّ به ذلك الالتذاذ) بعينه (فهو مغرور؛ إذ لم يتفقَّد قلبَه فيعرف أن لذَّته بكلام الله من حيث حُسن نظمه ومعانيه أو بصوته.

وفرقة منهم اغتروا بالصوم) الكثير (وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة) كالاثنين، والجمعة، وكعشر ذي الحجة، وعشر المحرم، ويوم ليلة مولده ﷺ، ويوم ليلة المعراج، ويوم ليلة النصف من شعبان (وهم فيها لا يحفظون

ألسنتهم عن الغِيبة) والكذب (وخواطرهم عن الرياء) وحب المَحمدة (وبطونهم عن أكل الحرام) أو الشبهة (عند الإفطار) وفي السحور (وألسنتهم عن الهَذَيان) واللغو (بأنواع الفضول طول النهار، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخيرَ، فيهمل الفرض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه، وذلك غاية الغرور.

وفرقة أخرىٰ اغترُّوا بالحج، فيخرجون إلىٰ الحج من غير خروج عن المظالم) التي ترتَّبت علىٰ ذمَّته ومن غير توبة عن المعاصي (و) من غير (قضاء الديون) التي عليه (و) من غير (استرضاء الوالدين) إن كانا موجودين (و) من غير (طلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حَجة الإسلام) عن ذمَّته (ويضيعون في الطريق الصلاةَ والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن) كسلاً منهم، أو لعذر عدم الماء (ويتعرَّضون لمكس الظلمة حتىٰ يؤخَذ منهم) ولا يرجعون عن الطريق. والمراد بالظلمة: أمراء البلاد الذين يمرُّون عليهم، وفي معناهم الأعراب الصادُّون عن الطريق إلا بدفع شيء من المال علىٰ كل إنسان فحكمه حكم المكس، وقد تقدم الكلام عليه في كتاب الحج مفصَّلاً (ولا يحذرون في الطريق من الرَّفَث والخصام) المنهيّ عنهما (وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه علىٰ الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء) بين نُظَرائه (فيعصي الله في كسب الحرام أولاً، وفي إنفاقه عليهم بالرياء ثانيًا، فلا هو أخذه من حِلِّه، ولا هو وضعه في حقه، ثم يحضر البيتَ) المكرَّم (بقلب ملوَّث برذائل الأخلاق وذميم الصفات، لم يقدِّم تطهيره) الظاهر والباطن (علىٰ حضوره) البيت (وهو مع ذلك يظن أنه علىٰ خير من ربه، وهو مغرور) قد خُدع به.

(وفرقة أخرىٰ أخذت في طريق الحِسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فترىٰ واحدًا منهم (ينكر علىٰ الناس ويأمرهم بالخير وينسىٰ نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنَّف) وشدَّد (وطلب الرياسة والعزة، وإذا باشر) بنفسه (منكرًا فرُدَّ عليه غضب وقال: أنا المحتسب، فكيف تنكر عليَّ)؟! وهو غرور (وقد يجمع

الناس إلىٰ مسجده) أو زاويته للصلاة والذكر **(ومَن تأخر عنه أغلظ عليه القولَ، وإنما غرضه)** في ذلك **(الرياء)** والسمعة **(والرياسة)** علىٰ الناس **(ولو قام بتعهُّد المسجد غيرُه لحرد)** أي غضب وحقد **(عليه، بل منهم مَن يؤذِّن ويظن أنه يؤذن)** حسبةً **(لله)** تعالىٰ **(ولو جاء غيره وأذَّن في وقت غيبته قامت عليه القيامة)** وتبربر **(وقال: لم آخذ حقي، وزوحِمت علىٰ مرتبتي)** وهو غرور **(وكذلك قد يتقلَّد إمامة مسجد)** حسبةً لله تعالىٰ **(ويظن أنه علىٰ خير، وإنما غرضه)** من إمامته **(أن يقال إنه إمام المسجد)** الفلاني. وكذلك قد يتقلَّد تدريس علم في ذاته ويغتر به، وغرضه أن يقال إنه مدرس الزاوية الفلانية **(ولو تقدَّم غيرُه)** في تلك الإمامة والتدريس **(وإن كان أورع منه وأعلم منه ثقلَ عليه)** ويا ليته ثقلَ عليه باطنًا ويسكت علىٰ هذا القدر، بل يشاكيه إلىٰ أهل محلَّته ويقع فيه، وهو غرور فاحش.

(وفرقة أخرىٰ جاوروا بمكة أو المدينة) شرَّفهما الله تعالىٰ **(واغتروا بذلك، ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يطهِّروا ظاهرهم وباطنهم)** تراهم **(فقلوبهم معلَّقة ببلادهم)** لا تنفكُّ عن خيالهم، مع تمنِّيهم أن يكونوا بها فيعدُّون لذلك تلك الأيام عدًّا **(ملتفتة إلىٰ قول مَن يعرِّفه أن فلانًا مجاور بمكة)** أو بالمدينة **(وتراه يتحدث)** مع الناس **(ويقول: قد جاورت بمكة)** أو بالمدينة **(كذا كذا سنة)** وحضرتُ بها كذا وكذا موسمًا، ولقيت بها فلانًا وفلانًا **(وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدُّث وأحب)** في باطنه **(أن يعرفه الناس بذلك)** وهو غرور **(ثم إنه قد يجاور)** بهما **(ويمد عين طمعه إلىٰ أوساخ أموال الناس)** من الصدقات التي تفرَّق هناك **(فإذا جمع من ذلك شيئًا شحَّ به وأمسكه)** بخلاً **(ولم تسمح نفسه بلقمة)** واحدة **(يتصدَّق بها علىٰ فقراء أهله، فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان)** هو **(عنها بمعزل لو ترك المجاورة، ولكن حب المَحمدة)** والثناء **(وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورةَ مع التضمُّخ بهذه الرذائل)** والخبائث **(فهو أيضًا مغرور.**

وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات) ظاهرة وباطنة

(فمَن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور، ولا يُعرَف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين) وهو هذا الكتاب (فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، و) مداخله (في الحج) والزكاة والتلاوة (من كتاب الحج و) في كتاب (الزكاة و) في كتاب (التلاوة، و) كذا (سائر القربات من الكتب التي رتَّبناها فيها) بحسب المناسبات علىٰ وجه التصريح (وإنما الغرض الآن الإشارة إلىٰ مَجامِع ما سبق في الكتب) علىٰ طريق التلويح.

(وفرقة أخرىٰ زهدت في المال، وقنعت من اللباس والطعام بالدون) الحقير منهما (ومن المسكن بالمساجد) والزوايا والخانات (وظنت أنها) بذلك (أدركت رتبة الزهَّاد، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ) أو بحلقة الذِّكر (أو بمجرد الزهد، فقد ترك) هذا (أهون الأمرين وباءَ بأعظم المهلكينِ، فإن الجاه أعظم من المال) كما سبقت الإشارة إليه في كتاب الجاه (ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلىٰ السلامة أقرب، فهذا مغرور؛ إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنىٰ الدنيا، ولم يدرِ أن منتهَىٰ لذَّاتها الرياسة، وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقًا) بأن يخالف باطنُه ظاهرَه إبقاءً للجاه (وحسودًا) يتمنىٰ زوال نعمة الغير (ومتكبرًا) علىٰ أقرانه (ومرائيًا) في أحواله (ومتَّصفا بجميع خبائث الأخلاق. نعم، وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوةَ والعزلة) عن الناس (وهو مع ذلك مغرور؛ إذ يتطاول بذلك علىٰ الأغنياء، ويخشن معهم الكلامَ، وينظر إليهم بعين الاستحقار، ويرجو لنفسه أكثر ممَّا يرجو لهم، ويعجب بعمله، ويتَّصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدري) وهو غرور (وربما يُعطَىٰ المال فلا يأخذه خيفةً من أن يقال: بطلَ زهدُه) وأقبل علىٰ الدنيا (ولو قيل له: إنه حلال فخذْه في الظاهر ورُدَّه في الباطن، لم تسمح به نفسه خوفًا من ذم الناس، فهو) إذًا (راغب في حمد الناس) وثنائهم عليه (وهو من ألذِّ أبواب الدنيا، ويرىٰ نفسه أنه زاهد في الدنيا، وهو مغرور مع ذلك، فربما لا يخلو) حاله (عن توقير الأغنياء) إذا حضروا (وتقديمهم علىٰ الفقراء) في

الجلوس والخطاب وغير ذلك (و) عن (الميل إلىٰ المريدين له) المعتقدين فيه (والمثنين عليه، و) عن (النفرة عن المائلين إلىٰ غيره من الزهَّاد، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان) يريد إهلاكه بذلك لو شعر (وفي العُبَّاد من يشدِّد علىٰ نفسه في أعمال الجوارح حتىٰ ربما يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة، ويختم) مع ذلك (القرآن) إما في صلاته أو خارجًا عنها (وهو في جميع ذلك لا تخطر له مراعاةُ القلب وتفقُّده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، فلا يدري أن ذلك مهلك، وإن علمَ فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك فربما ظن أنه مغفور له لعمله الظاهر) وما يخطر له من فضائله الواردة (وأنه غير مؤاخَذ بأعمال القلب، وإن توهَّم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجَّح بها كفَّةُ حسناته، وهيهات! فذرَّة من ذي تقوىٰ وخُلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح) وإليه الإشارة بما في الخبر: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ولكن بشيء وقر في صدره»، وقد تقدم[1] (ثم لا يخلو هذا المغرورُ مع سوء خلقه مع الناس وخشونته) في محاوراته (وتلوُّث باطنه) بالقاذورات (عن الرياء وحب الثناء، فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأوليائه وأحبَّائه) وربما قيل له: أنت قطب هذا الزمان ومجدِّده (فرح المغرور بذلك، وصدَّق به، وزاده ذلك غرورًا) وتماديًا علىٰ طريقته (وظن أن تزكية الناس له دليل علىٰ كونه مرضيًّا عند الله) تعالىٰ (ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه) ولو كُشف لهم الحجاب فرأوا ما فيه من ذميم الأوصاف لم يقولوا ما قالوا.

(وفرقة أخرىٰ حرصت علىٰ النوافل ولم يعظم اعتدادُها بالفرائض، ترىٰ أحدهم يفرح بصلاة الضحىٰ وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل) كصلاة الأوَّابين والصلوات المذكورة في كتاب ترتيب الأوراد (ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشتد حرصه علىٰ المبادرة بها في أول الوقت، وينسىٰ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: ما

(١) وتقدم أيضًا قول العراقي: لم أجده مرفوعًا، ورواه الحكيم من قول بكر بن عبد الله المزني.

تقرَّب المتقرِّبون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم) قال العراقي[١]: رواه البخاري[٢] من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما تقرَّب إليَّ عبدي». انتهىٰ.

قلت: ولفظه: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن شريك بن أبي نمر، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالىٰ قال: مَن عادَىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب ممَّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه ...» الحديث. وهذا الحديث من غرائب الصحيح ممَّا تفرَّد به شريك ابن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة، وتفرَّد به خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك، وليس لمحمد بن عثمان بن كرامة في الصحيح إلا هذا الحديث الفرد.

وقال أبو نعيم في الحلية[٣] - وهذا أول أحاديث الكتاب -: حدثنا إبراهيم ابن محمد بن حمزة، حدثنا أبو عبيدة محمد بن أحمد بن المؤمل. ح. وحدثنا إبراهيم بن عبد الله بن إسحاق، حدثنا محمد بن إسحاق السَّرَّاج، قالا: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة ... فساقه بسنده، ولفظه: «مَن آذَىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضته عليه ...» الحديث.

ورواه أحمد والحكيم وأبو يعلىٰ والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب والبيهقي في الزهد وابن عساكر من حديث عائشة بلفظ: «قال الله تعالىٰ: مَن آذىٰ لي وليًّا فقد استحلَّ محاربتي، وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء الفرائض ...» الحديث.

ورواه ابن السني في الطب من حديث ميمونة بلفظ: «قال الله تعالىٰ ما تقرَّب إليَّ العبد بمثل أداء فرائضي ...» الحديث.

---

(١) المغني ٢/ ٩٧٨.
(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢.
(٣) حلية الأولياء ١/ ٤ - ٥.

ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء وابن عساكر من حديث أنس بلفظ: «يقول الله تعالىٰ: مَن أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة ...» الحديث، وفيه: «وما تعبَّدني عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا، ولا تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه ...» الحديث[1].

(**وتركُ الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور**[2]**، بل قد يتعيَّن علىٰ الإنسان فرضان أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان**) أي نفلان (**أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه فهو مغرور، ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصَىٰ، فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة**) والأمر فيهما ظاهر (**وإنما الغامض**) الخفيُّ (**تقديم بعض الطاعات علىٰ بعض، كتقديم الفرائض كلها علىٰ النوافل، وتقديم فروض الأعيان علىٰ فروض الكفايات، وتقديم فرض كفاية لا قائم به علىٰ ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان علىٰ ما دونه**) ممَّا ليس بأهم (**وتقديم ما يفوت**) بفوات الوقت (**علىٰ ما لا يفوت، وهذا كما يجب أن يقدِّم حاجة الوالدة علىٰ حاجة الوالد؛ إذ سُئل رسول الله ﷺ فقيل له: مَن أَبَرُّ يا رسول الله**)؟ أي مَن أحقُّ بالبر؟ (**قال: أمك. قال: ثم مَن؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أباك. قال: ثم من؟ قال: ثم أدناك فأدناك**) أي الأقرب فالأقرب منك. رواه[3] الترمذي والحاكم وصحَّحه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده. وقد تقدم في كتاب آداب الصحبة. وروىٰ الديلمي[4] من حديث ابن مسعود: «بِرَّ أمك، ثم أباك، ثم أخاك، ثم أختك».

---

(١) حديث عائشة وحديث أنس تقدما في كتاب ذم الدنيا. أما حديث ميمونة فقد رواه أيضا أبو يعلىٰ في مسنده ١٢/ ٥٢٠.

(٢) في ط المنهاج ٦/ ٦٨٤: الغرور. وهي مطموسة في أ فلم أتبينها.

(٣) المغني للعراقي ٢/ ٩٧٨.

(٤) ورواه أيضا ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٦٩.

(فينبغي أن يبتدئ في الصلة بالأقرب) نسبًا منه (فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقىٰ والأورع) علىٰ هذا الترتيب (وكذلك مَن لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج) فإن أنفق عليهما لم يفِ بالحج، وبالعكس (فربما يحج) ويترك الإنفاق عليهما (وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدِّم حقَّهما علىٰ الحج، وهذا من تقديم فرض أهم علىٰ فرض هو دونه) في الرتبة (وكذلك إذا كان علىٰ العبد ميعاد) لرجل (ودخل وقت) صلاة (الجمعة فالجمعة تفوت بالاشتغال بالوفاء بالوعد، وهو) أي تفويت الجمعة به (معصية، وإن كان هو) أي الوفاء بالوعد (طاعة في نفسه. وكذلك قد تصيب ثوبَه النجاسةُ فيغلظ القولَ علىٰ أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور) أيضًا (والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة) لأن زوال الأذىٰ عن قلوبهم عسرٌ، بخلاف إزالة النجاسة من الثوب (وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات) كثيرة (لا تنحصر، ومَن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض) والدقة (لأن المغرور فيه في طاعة، إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها) والأكياس يظنون ذلك (ومن جملته الاشتغال بالمذهب) الذي يتعبَّد الله به (والخلاف من الفقه في حق مَن بقي عليه شغلٌ من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب؛ لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه) ومهمَّاته (فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أَولىٰ به) وأليق (إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المُباهاة) أي المفاخَرة (وقهر الأقران) والنظراء (والتقدُّم عليهم يعمي عليه) سلوك طريق الأَولىٰ (حتىٰ يغترَّ به مع نفسه ويظن أنه مشغول بمهمِّ دينه) والله الموفِّق.

(الصنف الثالث: المتصوفة، وما أغلب الغرور عليهم! والمغترون منهم فرق كثيرة:

ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا مَن عصمه الله) وأيَّده بتوفيقه

(اغتروا بالزي والمنظر والهيئة) الظاهرة (فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيِّهم وهيئتهم وفي ألفاظهم) في محاوراتهم (وفي آدابهم) الظاهرة (ومراسمهم) التي يجرونها بينهم (واصطلاحاتهم) التي توافقوا عليها (وفي أحوالهم الظاهرة في) حال (السماع والرقص) والتواجُد (و) في (الطهارة والصلاة والجلوس علىٰ السجَّادات، مع إطراق الرأس) كالمراقب (وإدخاله في الجيب) أي جيب الخرقة (كالمتفكِّر وفي تنفُّس الصعداء) كالمتأسِّف لما فاته شيء (وفي خفض الصوت) عند التكلم (في الحديث .. إلىٰ غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلَّفوا هذه الأمور وتشبَّهوا بهم فيها ظنوا أيضًا أنهم صوفية، و) علىٰ ذلك (لم يُتعِبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب) بالذكر (وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف) عند هذه الطائفة العلية (ولو فرغوا من جميعها) عملاً وتحقُّقًا (لَما جاز لهم أن يعدُّوا أنفسهم من الصوفية) إذ بينه وبين الوصول إلىٰ مراتبهم مفاوز تقطع الأعناق (كيف ولم يحوموا قط حولها، ولم يسوموا أنفسهم شيئًا منها) فهم عنها معرضون (بل يتكالبون علىٰ الحرام والشبهات وأموال السلاطين) من المرتَّبات والإدرارات وغيرها (ويتنافسون في الرغيف) الواحد (والفلس والحبة، ويتحاسدون علىٰ النقير): النقطة التي علىٰ النواة (والقِطْمير): القشر الداخل علىٰ النواة (ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه، وهؤلاء غرورهم ظاهر) لا يحتاج التنبيه بأكثر من ذلك (ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين) في سبيل الله (ثبتت أسماؤهم في الديوان) السلطاني (ويُقطَع لكل واحد منهم قُطرًا من أقطار المملكة) أي تُكتَب له إقطاعات في البلاد تحت شجاعته (فتاقت نفسُها إلىٰ أن يُقطَع لها) أيضًا (مملكة، فلبست درعًا) من حديد (ووضعت علىٰ رأسها مغفرًا) وهو طاسٌ من حديد يستر الرأس (وتعلَّمت من رجز الأبطال أبياتًا) ممَّا جرت عادتهم بإنشادها إرهابًا للعدو (وتعوَّدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتىٰ تيسَّرت عليها، وتعلَّمت) مع ذلك (كيف هيئة تبخترهم في الميدان) عند قيام

الصَّفَّين (وكيف تحريكهم الأيدي) بالسلام (وتلقَّفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكون، ثم توجَّهت إلىٰ المعسكر) أي الموضع الذي اجتمعت فيه العساكر (ليُثبَت اسمها في ديوان الشجعان، فلما دخلت إلىٰ المعسكر أُنفذت إلىٰ ديوان العرض، وأُمِر بأن تُجرَّد عن المغفر والدرع فيُنظَر ما تحته) من قوة البنية (وتُمتحَن بالمبارزة مع بعض الشجعان؛ ليُعرَف قدر غنائها في الشجاعة، فلما جُرِّدت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زَمِنة) أي مُلابِسة للضعف (لا تطيق حمل الدرع والمغفر) فضلاً عن قوة البراز (فقيل لها: أجئتِ للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم؟! خذوها فألقوها قدَّام الفيل ليثخنها) أي يهلكها وطئًا بأقدامه (فأُلقيت إلىٰ الفيل) فوُطئت (فهكذا يكون حال المدَّعين للتصوف في القيامة إذا كُشف عنهم الغطاء وعُرضوا علىٰ القاضي الأكبر) جلَّ جلاله (الذي لا ينظر إلىٰ الزي والمرقَّع) والهيئة (بل إلىٰ سر القلب) أي باطنه.

(وفرقة أخرىٰ زادت علىٰ هؤلاء في الغرور؛ إذ شقَّ عليها الاقتداءُ بهم في بذاذة الثياب) أي رثاثتها (والرضا بالدون) في المعيشة (وأرادت أن تتظاهر بالتصوف، ولم تجد بدًّا من التزيي بزيهم، فتركوا الخز والإبريسم وطلبوا المرقَّعات النفيسة والفُوَط الرفيعة) المثمَّنة (والسجَّادات المصبوغة) بالألوان المختلفة (ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمةً من الخز والإبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقَّعًا) أي رُقَعًا خيطت في بعضها (ونسي أنهم إنما لوَّنوا الثياب لئلاً يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ) فيشغلهم عن المراقبة (و) أنهم (إنما لبسوا المرقَّعات إذ كانت ثيابهم مخرقة) قد بليتْ من طول الاستعمال (فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد) ويكتفون بالقديم؛ لأنه يقضي الحاجة في ستر العورة (فأما تقطيع الفوط الرفيعة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها) بالخيوط الملونة مع الهيئات الغريبة (فمن أين يشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقةً من كافة المغرورين، فإنهم يتنعَّمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة،

ويطلبون رغد العيش) ولذة النفس (ويأكلون أموال السلاطين) من أدرار وهدية (ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير) والصلاح (وشر هؤلاء ممَّا يتعدَّىٰ إلىٰ الخلق؛ إذ يهلك من يقتدي بهم) أي يكون لهلاكه (ومَن لا يقتدي بهم تَفسد عقيدتُه في أهل التصوف كافةً؛ إذ يظن أن جميعهم كانوا من جنسه، فيطول اللسانَ) لا محالة (في الصادقين منهم) وقد سرَىٰ هذا الشرُّ إلىٰ جملة من العوامِّ، بل وبعض الخواص، فلم يميِّزوا بين المتحقق والمشتبه، وأطلقوا ألسنتهم في أعراضهم، ونسبوهم إلىٰ ما هم مبرَّؤون منه (وكل ذلك من شؤم المتشبِّهين وشرهم.

وفرقة أخرىٰ ادَّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق) من عين القلب (ومجاوزة المقامات والأحوال) ولهم فروق في المقام والحال، وقد سبقت الإشارة إلىٰ شيء منه، وسيأتي في الربع الأخير (والملازمة في عين الشهود) مع عدم الانفكاك (والوصول إلىٰ القرب) المعنوي (ولا يعرف) واحد منهم (هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ، إلا أنه تلقَّف من ألفاظ الطامَّات كلمات، فهو يردِّدها) علىٰ لسانه في محاوراته (ويظن أن ذلك أعلىٰ من) جملة (علم الأوَّلين والآخِرين، فهو ينظر إلىٰ الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين وأصناف العلماء) شزرًا (بعين الازدراء) والاحتقار (فضلاً عن العوام) فإنهم عنده كالأنعام (حتىٰ إن الفلاح يترك فلاحته) أي حراثة الأرض (والحائك يترك حياكته ويلازمهم أيامًا معدودة ويتلقَّف منهم تلك الكلمات المزيَّفة، فهو يردِّدها كأنه يتكلم) بها (عن الوحي) السماوي (ويخبر عن سر الأسرار) المكتومة (ويستحقر بذلك) مطلِقًا لسانه في (جميع العُبَّاد والعلماء) الذين هم من خواص عِباد الله تعالىٰ (فيقول في العبَّاد: إنهم أُجَراء متعبون، وفي العلماء: إنهم بالحديث) والقال والقيل (عن الله محجوبون. ويدَّعي لنفسه أنه الواصل إلىٰ الحق، وأنه) عنده (من المقرَّبين) في حضرته (وهو) في الحقيقة (عند الله من الفجَّار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقىٰ الجاهلين) المغرورين (لم

يُحكِم قط علمًا) أي لم يتقنه **(ولم يهذِّب قلبًا)** بالمجاهدة **(ولم يرتِّب عملاً)** يكون به واصلاً **(ولم يراقب قلبًا)** بالذكر **(سوىٰ اتِّباع الهوىٰ)** والشهوات **(وتلقُّف الهَذَيان وحفظه)** فما أشد غرور هذا!

(وفرقة أخرىٰ منهم وقعت في) إباحة **(الإباحة، فطووا بساط الشرع)** علىٰ غرته **(ورفضوا الأحكام)** الشرعية **(وسوَّوا بين الحلال والحرام)** وهم طائفة الملاحدة، وهم فِرَق **(فبعضهم يزعم أن الله مستغنٍ عن عملي)** كما تقتضيه حقيقة الغِنىٰ المطلق **(فلِمَ أُتعِب نفسي)** بالمجاهدة والرياضة؟ وهؤلاء قد شُبِّه عليهم الأمر، لم يفطنوا أن عائدة الأعمال إنما تعود إليهم، وهم لكمال فقرهم محتاجون لها، وأما الحق تعالىٰ فلا يُسئل عمَّا يفعل **(وبعضهم يقول: قد كُلِّف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا، وذلك مُحال، فقد كُلِّفوا ما لا يمكن)** تحصيله، وما من قلب إلا وفيه الشهوة وحب الدنيا **(وإنما يغتر به مَن لم يجرِّب، وأما نحن فقد جرَّبنا وأدركنا أن ذلك محال)** وهؤلاء أيضًا قد اشتبه عليهم الأمر **(ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلَّفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما، بل إنما كُلِّفوا قلع مادَّتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع. وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا قدْر)** وفي نسخة: لا وزن **(لها، وإنما النظر إلىٰ القلوب، وقلوبنا والهة)** أي مهيمة **(بحب الله، وواصلة إلىٰ معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبُنا عاكفة في الحضرة الربوبية)** نتمتَّع بها **(فنحن في الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقَّوا عن رتبة العوام)** بهذا **(واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية)** لعدم الحاجة إليها **(و)** يزعمون **(أن الشهوات لا تصدُّهم عن طريق الله لقوَّتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم علىٰ درجة الأنبياء عليهم السلام؛ إذ كانت تصدُّهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتىٰ كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية)** كما حُكي ذلك في قصة آدم وداود عليهما

السلام، فأخرج أحمد في الزهد[١] عن علقمة بن مرثد قال: لو جُمعت دموع أهل الأرض ودموع داود ما عدلوا دموع آدم حين أُهبِط من الجنة.

وعند ابن أبي شيبة[٢]: لو عُدل بكاء أهل الأرض ببكاء داود ما عدله، ولو عُدل بكاء [داود و] أهل الأرض ببكاء آدم حين أُهبِط إلىٰ الأرض ما عدله.

وأخرج أحمد[٣] عن ثابت قال: اتخذ داود سبع حشايا من الشعر وحشاهن من الرماد، ثم بكىٰ حتىٰ أنفذها دموعًا، ولم يشرب داود شرابًا إلا ممزوجًا بدموع عينيه.

ومن طريق الأوزاعي مرفوعًا: «لقد خدَّدت الدموع في وجه داود خديد الماء في الأرض»[٤].

ومن طريق أبي عبد الله الجَدَلي قال: ما رفع داود رأسه إلىٰ السماء بعد الخطيئة حتىٰ مات[٥].

(وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبِّهين بالصوفية لا تُحصَىٰ) وفضائحهم في سوء ما ذهبوا إليه لا تُستقصَىٰ **(وكل ذلك بناء علىٰ أغاليط)** وقعت لهم في فهمهم **(ووساوس يخدعهم الشيطان بها؛ لاشتغالهم بالمجاهدة)** والرياضة **(قبل إحكام العلم)** وإتقان قواعده **(ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به)** نعم، شيخهم الذي يقتدون به الشيطان **(وإحصاء أصنافهم يطول.**

---

(١) الزهد ص ٤٢، ولفظه: «لو بكي أهل الأرض جميعا ما عدل دموع داود حين أصاب الخطيئة، ولو أن دموع أهل الأرض ودموع داود جمعوا ما عدلت دموع آدم حين أهبط من الجنة».

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٥٤ من طريق علقمة بن مرثد عن ابن بريدة قال: لو عدل ... الخ.

(٣) وكذلك أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٢٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٤٣.

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان ٨/ ١٩٥. ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥٩٤ بزيادة في أوله: «إنما مثل عيني داود مثل القربتان تنطفان الماء، ولقد خددت ...» الخ.

(٥) رواه الرافعي في التدوين ٢/ ٦٢.

وفرقة أخرىٰ جاوزت حدَّ هؤلاء، واجتنبت[1] الأعمال، وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقُّد القلب، وصار أحدهم) بعد ذلك (يدَّعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف علىٰ حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها) وهم فِرَق (فمنهم مَن يدَّعي الوجد) وهو فقدانه بمحو أوصافه البشرية (والحب لله تعالىٰ، ويزعم أنه واله بالله) مشغوف به (ولعله قد تخيَّل في الله خيالات هي بدعة أو كفر، فيدَّعي حب الله قبل معرفته) ولا يتم حب شيء إلا بعد معرفته بحقيقته (ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره اللهُ، وعن إيثار هوىٰ نفسه علىٰ أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياءً من الخلق، ولو خلا) بنفسه (ما تركه حياءً من الله، وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحبَّ) ويضادُّه (وبعضهم ربما يميل إلىٰ القناعة والتوكل فيخوض البوادي) والقِفار (من غير زاد ليصحِّح دعوىٰ التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تُنقَل عن السلف والصحابة) رضوان الله عليهم، كما عُرِف ذلك من سِيَرهم (وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل) هو (المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون علىٰ الله لا علىٰ الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل علىٰ سبب من الأسباب، واثق به) فكيف يصح توكلُه؟ (وما من مقام من المقامات المنجيات) علىٰ ما سيأتي (إلا وفيه غرور، وقد اغترَّ به قوم. وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب، فلا يمكن إعادتها) هنا.

(وفرقة أخرىٰ ضيَّقت علىٰ أنفسها في أمر القوت حتىٰ طلبت منه الحلال الخالص، وأهملوا تفقُّد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة. ومنهم مَن أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومكسبه وأخذ يتعمَّق في غير ذلك) من الأعمال (وليس يدري المسكين أن الله لم يرضَ من عبده بطلب الحلال فقط، ولا رضي بسائر الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يرضيه إلا تفقُّد جميع الطاعات والمعاصي،

(١) في أ، وط المنهاج ٦/ ٦٩٢: أحسنت.

فمَن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه) عن البعض (وينجيه) من عقاب الله (فهو مغرور) في ظنِّه.

(وفرقة أخرىٰ) منهم (ادَّعوا حُسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدَّوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قومًا) منهم (وتكلَّفوا خدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة و) وسيلة إلىٰ (جمع المال وإنما غرضهم) من ذلك (التكبر، وهم يُظهِرون الخدمةَ والتواضع وغرضهم الارتفاع[1]) بالمعيشة (وهم يُظهِرون أن غرضهم الإرفاق) للصوفية (وغرضهم الاستتباع. وهم يُظهِرون أن غرضهم الخدمة والتبعية) فهذه فضائحهم (ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات) من حيث اتفق (وينفقون عليهم؛ ليكثُر أتباعُهم، ويُنشَر) في الآفاق (بالخدمة اسمهم. وبعضهم يأخذ أموال السلاطين وينفق عليهم) منها (وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج علىٰ الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة، وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله عليهم ظاهرًا وباطنًا ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه، ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمَن يعمر مساجد الله) قصدًا للثواب (فيطيِّنها بالعَذِرة) والنجاسة (ويزعم أنَّ قصده) بذلك (العمارة.

وفرقة أخرىٰ) منهم (اشتغلوا بالمجاهدة) والرياضة (وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها، وصاروا يتعمَّقون فيها) ويبالغون (فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خِدَعها علمًا وحرفة، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون: هذا في النفس عيب، والغفلة عن كونه عيبًا عيب، والالتفات إلىٰ كونه عيبًا عيب. ويشغفون فيه بكلمات مسلسَلة) مزخرَفة (تضيع الأوقاتُ في تلفيقها) وتركيبها (ومَن جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب) والبحث عن مكانها (وتحرير علمِ علاجها كان كمَن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج، فذلك لا يغنيه)

---

(١) في أ، وط المنهاج ٦/ ٦٩٤: الارتفاق.

ولا يُعَدُّ من السالكين.

(وفرقة أخرىٰ جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤوا سلوك الطريق، فانفتحت لهم أبواب المعرفة، فكلما تشمَّموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجَّبوا منها) لحسنها **(وفرحوا بها)** واطمأنوا إليها **(وأعجبتهم غرائبُها)** ومحاسنها **(فتقيَّدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده علىٰ غيرهم، وكل ذلك غرور)** مع الإعجاب، حيث انفتح له وانسدَّ علىٰ غيره، وأما الغرور فمن حيث تقيُّد القلب والالتفات، وهو أعظم حجاب للسالك في سلوكه **(لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيَّد بها قصرت خُطاه)** في سلوكه **(وحُرم من الوصول إلىٰ المقصد)** وحِيلَ بينه وبينه **(وكان مثاله مثال مَن قصد ملكًا)** من الملوك **(فرأىٰ علىٰ باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار)** ومتنزَّهات **(لم يكن قد رأىٰ قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها متعجبًا)** منها **(حتىٰ فاته الوقت الذي يمكنه فيه لقاء الملك)** فحُرم من مقصوده.

(وفرقة أخرىٰ جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلىٰ ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلىٰ ما تيسَّر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرِّجوا علىٰ الفرح بها والالتفات إليها) وقطعوا النظر عنها **(جادِّين في السير حتىٰ قاربوا فوصلوا إلىٰ حد القُربة إلىٰ الله، فظنوا أنهم قد وصلوا إلىٰ الله، فوقفوا)** عن سيرهم اعتمادًا علىٰ ظنهم **(وغلطوا، فإن لله تعالىٰ سبعين حجابًا من نور)** وظلمة، لو كشفها لأحرقت سبحاتُ وجهه كلَّ مَن أدركه بصره. كما في الخبر **(فلا يصل السالك إلىٰ حجاب من تلك الحُجُب)** أي النورانية **(في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل)** وتحقيقه: أن[1] الله تعالىٰ متجلٍّ في ذاته بذاته لذاته، ويكون الحجاب بالإضافة إلىٰ محجوب لا محالة، وأن المحجوبين من الخلق منهم مَن يُحجَب بمجرد الظلمة، ومنهم مَن يُحجَب بالنور المحض، ومنهم من يُحجَب بنور مقرون بظلمة. وقد أشرنا إلىٰ

(١) مشكاة الأنوار للغزالي ص ٨٩ - ٩٨.

الصنفين الأولين قريبًا، والمحجوبون بمحض الأنوار أصناف كثيرة، الواصلون منهم مَن اعتقد أن معبودهم واحد موصوف بصفة لا تنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ، وأن نسبته إلىٰ الموجودات الحسية نسبة الشمس إلىٰ الأنوار المحسوسة منه، فتوجَّهوا من الذي يحرك السموات ومَن الذي أمر بتحريكها إلىٰ الذي فطر السموات وفطر الآمِر بتحريكها، فوصلوا إلىٰ موجود منزَّه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم؛ إذ وجوده من قبله، فأحرقت سبحات وجه الأول الأعلىٰ جميع ما أدركه الناظرون وبصيرتهم؛ إذ وجدوه مقدَّسًا منزَّهًا. ثم هؤلاء انقسموا، فمنهم مَن احترق منه جميع ما أدركه بصره فانمحق وتلاشىٰ، ولكن بقي هو ملاحظًا للجمال والقدس، وملاحظًا ذاته في جماله الذي ناله بالوصول إلىٰ الحضرة الإلهية، وانمحقت منها المبصرات دون المبصَر. وجاوز هؤلاء طائفةٌ هم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه، وغشيهم سلطانُ الجلال، فانمحقوا وتلاشوا في ذاته، ولم يبقَ لهم لحاظ إلىٰ أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم، ولم يبقَ إلا الواحد الحق، وصار معنىٰ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] لهم ذوقًا وحالاً. فهذه نهاية الواصلين. ومنهم مَن لم يتدرَّج في الترقِّي والعروج عن التفصيل المذكور ولم يطُلْ عليه الفروج، فسبقوا في أول وهلة إلىٰ معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه، فغلب عليهم أولاً ما غلب علىٰ الآخرين آخرًا، وهجم عليهم التجلِّي دفعةً، فأحرقت سبحات وجهه جميعَ ما يمكن أن يدركه بصر حسيٌّ أو بصيرة عقلية، ويشبه أن يكون الأول طريق الخليل، والثاني طريق الحبيب، صلوات الله عليهما وسلامه. وإليه أشار المصنف بقوله: (**وإليه الإشارة بقول الخليل** عليه السلام؛ **إذ قال تعالىٰ إخبارًا عنه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾**) أي أظلم (﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾) من الكواكب (﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] **وليس المعنيُّ به**) الكوكب المعهود من (**هذه الأجسام المضيئة**) المركوزة في سطح السماء (**فإنه** عليه السلام (**كان يراها**) أي تلك الكواكب (**في**) حالة (**الصغر، ويعلم أنها ليست آلهة**)

حاشاه من ذلك (و) مع ذلك (هي كثيرة) لا عدد يحويها (وليست واحدة) حتىٰ يظن فيها الربوبية (**والجهَّال**) المحجوبون بظلمتهم (**يعلمون أن الكوكب ليس بالإله، فمثل إبراهيم** ﷺ) في جلالة قدره وعصمته (**لا يغرُّه الكوكب الذي لا يغر السوادية**) الجهَّال (**ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حُجُب الله**) المشار إليها في الحديث السابق (**وهي**) أي حُجُب الأنوار (**علىٰ طريق السالك**) في سلوكه إلىٰ الله تعالىٰ (**ولا يُتصور الوصول إلىٰ الله إلا بالوصول إلىٰ هذه الحُجُب، وهي حُجُب من النور**) كالستائر الرفيعة التي تكون علىٰ أبواب حضرة الملوك في الدنيا (**وبعضها أعظم من بعض**) في الجرم وفي النور (**وأصغر النيِّرات الكوكب، فاستُعير له لفظه**) بجامع النور (**وأعظمها الشمس، وبينهما رتبة القمر**) فهو أكبر من الكوكب، وأضوأ وأصغر من الشمس وأقل نورًا منها (**فلم يزل إبراهيم** ﷺ **لما رأىٰ ملكوت السموات**) بعين بصره وبصيرته (**حيث قال تعالىٰ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] **يصل**) في سلوكه (**إلىٰ نور بعد نور، ويتخيَّل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل**) إلىٰ الله (**ثم كان يُكشَف له أن وراءه أمرًا فيرتقي إليه ويقول: قد وصلت**) إلىٰ الله (**فيُكشَف له ما وراءه حتىٰ وصل إلىٰ الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده**) أي بعد رفعه وقطعه (**فقال: هذا أكبر، فلما ظهر له أنه مع عِظَمه**) الذي يُذكَر فيه أن قدر سعة الدنيا كذا وكذا مرة (**غير خالٍ عن الهويّ**) أي السقوط (**في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال**) البالغ (﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦] ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾)[1] [الأنعام: ٧٩] وإلىٰ هذا المعراج الإشارة بقوله ﷺ: «إنه لَيُغان علىٰ قلبي، وإني لأستغفر الله سبعين مرة».

---

(١) هذا مما انتقده العلماء علىٰ الغزالي رحمه الله تعالىٰ، قال ابن الجوزي: «وقال - أي الغزالي - إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله ﷻ، ولم يرد هذه المعروفات. انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٤٩ (ط. الفكر).

قال المصنف في مشكاة الأنوار[١]: لمَّا كان عالَم الشهادة مرقاة إلىٰ عالَم الملكوت، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقِّي، وقد يعبَّر عنه بالدين وبمنازل الهدىٰ، فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لَما تُصوِّر الترقِّي من أحدهما إلىٰ الآخر، فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة علىٰ موازنة عالم الملكوت، فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم، وربما كان الشيء الواحد مثالاً لأشياء من الملكوت، وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة، وإنما يكون مثالاً إذا ماثله نوعًا من المماثلة وطابقه نوعًا من المطابقة، مثال ذلك: إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبَّر عنها بالملائكة، منها تفيض الأنوار علىٰ الأرواح البشرية، ولأجلها قد تسمَّىٰ أربابًا، ويكون الله رب الأرباب لذلك، ويكون لها مراتب في نورانيَّتها متفاوتة، فبالحريِّ أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب، وسالك الطريق [أولاً] ينتهي إلىٰ ما درجته درجة الكوكب فيتضح له إشراق نوره [ويتضح له أن العالم الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره] ويتَّضح له من جماله وعلو درجته ما يبادر فيقول: هذا ربي. ثم إذا اتضح له ما فوقه ممَّا رتبته رتبة القمر رأىٰ أفول الأول في مغرب الهوي بالإضافة إلىٰ ما فوقه فقال: لا أحب الآفلين. وكذلك يترقَّىٰ حتىٰ ينتهي إلىٰ ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلىٰ، فيراه قابلاً للمثال بنوع مناسبة له معه، والمناسبة مع ذي النقص نقصٌ وأفول أيضًا، فمنه يقول: وجَّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض. ومعنىٰ «الذي» إشارة مبهمة لا مناسبة لها؛ إذ لو قال قائل: ما مثال مفهوم «الذي»؟ لم يُتصور أن يُجاب عنه، فالمنزَّه عن كل مناسبة هو الله الحق.

(**وسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف علىٰ بعض هذه الحُجُب**) فيظن أنه قد وصل (**وقد يغتر بالحجاب الأول، وأول الحُجُب بين الله وبين العبد هو نفسه،**

---

(١) السابق ص ٧١ - ٧٢.

فإنه أيضًا أمر رباني) أي هو من عالم الأمر **(وهو نور من أنوار الله، أعني سر القلب)** أي باطنه **(الذي تتجلّىٰ فيه حقيقة الحق كله)** توكيد من الضمير المجرور **(حتىٰ إنه)** أي القلب **(ليتَّسع لجملة العالَم ويحيط به)** إحاطة كلية **(وتتجلّىٰ فيه صورة الكل)** ولذا عُبِّر عنه بـ «العالم الأكبر» **(وعند ذلك يشرق نوره إشراقًا عظيمًا؛ إذ يظهر فيه الوجود كله علىٰ ما هو عليه، وهو في أول الأمر محجوب بمِشكاة هي كالساتر له)** عن مشاهدة ما وراء ذلك **(فإذا تجلّىٰ نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلىٰ القلب فيرىٰ من جماله الفائق ما يدهشه)** ويستغرق[1] الهم به فينظر إلىٰ كمال ذاته وقد تزيَّن بما تلألأ فيه من حلية الحق **(وربما يسبق لسانُه في هذه الدهشة)** والاستغراق بالجلال والجمال فيظن أنه هو **(فيقول: أنا الحق)** كما وقع لأبي منصور الحَلاَّج، ويعبَّر عن هذه الحالة بـ «الاتحاد» علىٰ سبيل التجوُّز والتوسع، لا أنه هو تحقيقًا، وهذه مزلَّة قدم **(فإن لم يتَّضح له ما وراء ذلك اغترَّ به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصل بعدُ إلىٰ القمر فضلاً عن الشمس، فهو مغرور، وهذا محل الالتباس)** فمَن ليس له قدم راسخ في المعقولات [ربما] لم يتميَّز له أحدهما عن الآخَر **(إذ المتجلِّي يلتبس بالمتجلَّىٰ فيه كما يلتبس لون ما يتراءىٰ)** من صورة متلونة انطبعت **(في المرآة بالمرآة، فيظن أنه لون المرآة)** وأن تلك الصورة صورة المرآة، وهيهات! فإن المرآة في ذاتها لا لون لها، وشأنها قبول صور الألوان علىٰ وجه يتخايل إلىٰ الناظرين إلىٰ ظاهر الأمور أن ذلك هو صورة المرآة. فكذلك القلب خالٍ عن الصور في نفسه وعن الهيئات، وإنما هيئاته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق، فما يحلُّه يكون كالمتحد به تجوُّزًا، لا أنه متحد به تحقيقًا **(وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج)** فمَن لا يعرف الزجاج والخمر إذا رأىٰ زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما، فتارة يقول: لا خمر، وتارة يقول: لا

---

(١) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ١٦٥ – ١٦٧.

زجاجة (كما قيل:

رقَّ الزجاج ورقَّت الخمر فتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنَّما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمرُ[(١)]

وبهذه العين نظرت النصارىٰ إلىٰ المسيح عليه السلام فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه) فقالوا باتحاد اللاهوت بالناسوت (فغلطوا فيه) غلطًا فاحشًا. وقول من قال «أنا الحق» إما أن يكون معناه ما ذكرنا من التجوُّز والتوسع، وإما أن يكون قد غلط كما غلط النصارىٰ. وهو (كمَن يرىٰ كوكبًا في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد إليه اليد ليأخذه، وهو مغرور) واعلم[(٢)] أن العبد في مجاوزته هذه الحُجُب سالك لا واصل، وإنما الوصول أن تنكشف له جليَّة الحق ويصير مستغرقًا به، فإن نظر إلىٰ معرفته فلا يعرف إلا الله، وإن نظر إلىٰ همِّه فلا هم له سواه، فيكون كلُّه مشغولاً بكله مشاهدةً وهمًّا لا يلتفت في كل ذلك إلىٰ نفسه.

(وأنواع الغرور في طريق السلوك إلىٰ الله لا تُحصَىٰ في مجلَّدات، ولا تُستقصَىٰ إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة، وذلك ممَّا لا رخصة في ذكره، ولعل القدْر الذي ذكرناه آنفًا كان الأولىٰ تركه) وكتمه (إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلىٰ أن يسمعه من غيره، والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه، بل ربما يستضرُّ به؛ إذ يورثه ذلك دهشة) وحيرة (من حيث) إنه (يسمع ما لا يفهم) معناه (ولكن فيه فائدة وهي إخراجه من الغرور الذي هو فيه؛ إذ ربما يصدِّق بأن الأمر أعظم مما يظنه) بعقله الناقص (وممَّا يتخيَّله بذهنه المختصَر وخياله القاصر وجدله المزخرف) بالأدلة الوهمية (ويصدِّق أيضًا بما يُحكَىٰ له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله) من صالحي عباده (ومَن عظُم غرورُه ربما أصرَّ مكذِّبًا بما يسمعه الآن كما يكذِّب بما سمعه من قبل.

---

(١) تقدم هذان البيتان في كتاب قواعد العقائد وفي كتاب الحلال والحرام.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ١٦٩.

الصنف الرابع: أرباب الأموال) ومُلاَّكها (والمغترُّون منهم فِرَق:

ففرقة منهم يحرصون علىٰ بناء المساجد والمدارس) والزوايا والتكايا (والرباطات) للصوفية (والقناطر) والجسور في الطرق العامة المسلوكة (وما يظهر للناس كافةً) كالسبل، والخانات، ومكاتب الأطفال، والقباب علىٰ قبور الأولياء المشهورين (ويكتبون أساميهم بالآجُرِّ عليها) وتارةً علىٰ الرخام حفرًا، مع ذكر تاريخ عمارتها، وتارةً يكتبون ما صُرف عليها من الأموال (ليتخلَّد ذِكرُهم) ويدوم (وتبقىٰ بعد الموت آثارهم، وهم يظنون أنهم قد استحقُّوا المغفرة) والعفو من الله تعالىٰ (بذلك) الصنيع (وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرِّشا) جمع الرشوة (والجهات المحظورة) شرعًا (فهم قد تعرَّضوا لسخط الله في كسبها) فإنَّ الجهات التي اكتسبوها منها قد كرهها الله (وتعرَّضوا لسخطه في إنفاقها) في هذه المواضع (فكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها، فإذا قد عصوا الله بكسبها كان الواجب عليهم التوبة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ وردُّها إلىٰ مُلاَّكها) الأصول (إما بأعيانها وإما بردِّ بدلها عند العجز) كما شرط التوبة (فإن عجزوا عن المُلاَّك) بهلاك أو فقدٍ (كان الواجب ردها علىٰ الورثة) لانتقال الحق إليهم (فإن لم يبقَ للمظلوم وارث) بأن لم يُعرَف (فالواجب صرفُها إلىٰ أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة علىٰ المساكين) من أهل بلده (وهم لا يفعلون ذلك خيفةً من أن لا يظهر ذلك للناس، فيبنون الأبنية بالآجُرِّ) والحجارة (وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء) من الناس (وحرصهم علىٰ بقائها لبقاء اسمهم المكتوب فيها لا لبقاء الخير.

الوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق علىٰ الأبنية، ولو كُلِّف واحد منهم أن ينفق دينارًا ولا يُكتَب اسمه علىٰ الموضع الذي أنفق عليه لشقَّ عليه ذلك) وصعبَ (ولم تسمح نفسه به، والله مطَّلع عليه كُتب اسمه أو لم يُكتَب، فلولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لَما افتقر إلىٰ ذلك) فهو

قرينة قائمة علىٰ أصل نيَّته.

(وفرقة أخرىٰ ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت علىٰ المساجد) أي علىٰ بنائها (وهي أيضًا مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره أو في بلده فقراء) محتاجون (فصرفُ المال إليهم أهم وأفضل وأَولىٰ من الصرف إلىٰ بناء المساجد وتزيينها) وتنقيشها (وإنما يخف عليه الصرفُ إلىٰ المساجد ليظهر بذلك بين الناس) ويشتهر اسمه.

(والثاني: أنه يصرف) تلك الأموال (إلىٰ زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهيٌّ عنها) رواه البخاري[١] من قول عمر بن الخطاب: أَكِنَّ الناسَ ولا تحمِّر ولا تصفِّر (وشاغلة قلوب المصلِّين) عن الحضور (وتختطف أبصارهم) بالنظر إليها (والمقصود من الصلاة) إذًا هو (الخشوع وحضور القلب) وجمع الهمَّة (وذلك يفسد قلوبَ المصلِّين ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرىٰ أنه من الخيرات) ومن القُربات (ويعدُّ ذلك وسيلة له إلىٰ الله تعالىٰ، وهو بذلك قد تعرَّض لسخط الله، وهو يظن أنه مطيع لله وممتثل لأمره) في عمارة المساجد (وقد شوَّش قلوبَ عباد الله بما زخرفه من المسجد، وربما شوَّقهم به إلىٰ زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه، ووبال ذلك كله في رقبته؛ إذ المسجد) إنما اتُّخِذ (للتواضع) والمسكنة والخشوع (ولحضور القلب مع الله. قال) أبو يحيىٰ (مالك بن دينار) البصري رحمه الله تعالىٰ: (أتىٰ رجلان مسجدًا، فوقف أحدهما علىٰ الباب وقال: مثلي لا يدخل) وفي نسخة: يدخل (بيت الله) علىٰ سبيل الإنكار علىٰ نفسه (فكتبه الملكان عند الله

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٦٠ معلقا، ولفظه: «أمر عمر ببناء المسجد وقال: أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس».

صدِّيقًا)[١] أخرجه أبو نعيم في الحلية (فهكذا ينبغي أن تعظَّم المساجد) لا بالزخرفة (وهو أن يرىٰ تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية علىٰ المسجد، لا أن يرىٰ تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منَّة علىٰ الله.

وقال الحواريون للمسيح ﷺ: انظر إلىٰ هذا المسجد ما أحسنه! فقال: آمين آمين، بحقٍّ أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرًا قائمًا علىٰ حجر إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئًا، وإن أحب الأشياء إلىٰ الله القلوب الصالحة، بها يعمر الله الأرض وبها يُخرِب إذا كانت علىٰ غير ذلك[٢].

وقال أبو الدرداء) رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ: إذا زخرفتم مساجدكم) أي بالنقوش (وحلَّيتم مصاحفكم) أي بالذهب والفضة (فالدمار عليكم) أي الهلاك. قال العراقي[٣]: رواه ابن المبارك في الزهد[٤] وأبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف[٥] موقوفًا علىٰ أبي الدرداء.

قلت: ورواه الحكيم في النوادر[٦] من حديث أبي الدرداء مرفوعًا.

---

(١) روىٰ ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٦٦ نحوه عن كعب الأخبار قال: بينما بنو إسرائيل يصلون في بيت المقدس إذ جاء رجلان، فدخل أحدهما ولم يدخل الآخر وقام خارجا علىٰ أبواب المسجد وقال: أنا أدخل بيت الله؟! ليس مثلي يدخل بيت الله وقد عملت كذا وكذا. وجعل يبكي ولم يدخل، فكُتب من الغد أنه صديق. وهكذا رواه أيضا أبو داود في الزهد ص ٣٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٣٥٤. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٧٨ بلفظ: «جاء رجلان فوقفا بباب المسجد، فدخل أحدهما ولم يدخل الآخر وقال: مثلي لا يدخل بيت ربه. فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبي من أنبياء بني إسرائيل: إني قد جعلته صديقا بإزرائه علىٰ نفسه».

(٢) رواه أحمد في الزهد ص ٧٩ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٥٤ عن يزيد بن ميسرة بن حلبس.

(٣) المغني ٢/ ٩٧٨.

(٤) الزهد والرقائق ص ٢٤٣.

(٥) المصاحف ص ٥٤٣ (ط - دار البشائر الإسلامية).

(٦) نوادر الأصول ص ١٠٤٣.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: (إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له: ابنِه سبعة أذرع طولاً في السماء، لا تزخرفه ولا تنقشه) قال العراقي[١]: لم أجده هكذا، وفي قصر الأمل[٢] لابن أبي الدنيا: «ابنوه كعريش موسىٰ»، وليس فيه مجيء جبريل.

قلت: وروىٰ البيهقي[٣] من مرسل سالم بن عطية: «عرش كعرش موسىٰ». ورواه الدارقطني في الأفراد والديلمي[٤] وابن النجار من حديث أبي الدرداء: «عريش كعريش موسىٰ، ثُمام وخُشَيبات، والأمر أعجلُ من ذلك». قال الدارقطني: غريب.

(فغرور هذا من حيث إنه رأىٰ المنكر معروفًا واتَّكل عليه) واطمأن به.

(وفرقة أخرىٰ ينفقون المال في الصدقات علىٰ الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة) للناس لأجل أن يظهر لهم إنفاقه (و) يختارون (من الفقراء مَن عادتُه الشكر) والثناء (والإفشاء للمعروف) بين الناس (ويكرهون التصدُّق في السر، ويرون إخفاء الفقير لِما أخذ منهم جناية عليهم وكفرانًا) لنعمتهم (وربما يحرصون علىٰ إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرىٰ، وربما تركوا جيرانهم جياعًا، ولذلك قال ابن مسعود) رضي الله عنه: (في آخر الزمان يكثُر الحاجُّ بلا سبب، يهوَّن عليهم السفر) أي لِما يتعوَّدونه[٥] (ويُبسَط لهم في الرزق) أي يكثُر دخلُهم بالتجارات وغيرها (ويرجعون محرومين) أي من الأجر (مسلوبين) عن

---

(١) المغني ٢/ ٩٧٩.

(٢) قصر الأمل ص ١٨٤.

(٣) السنن الكبرىٰ ٢/ ٦١٦.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٥٢.

(٥) لعله لتطور وسائل السفر التي من مميزاتها السرعة والسهولة والراحة كالطائرات والسيارات بأنواعها.

الثواب (يهوي بأحدهم بعيرُه بين القِفار والرمال وجاره مأسور) أي مربوط (إلىٰ جنبه لا يواسيه) ولا يسأل عنه.

(وروىٰ أبو نصر التَّمَّار) عبد[1] الملك بن عبد العزيز القُشَيري النسائي، ثقة، عابد، مات سنة ثمان وعشرين [ومائتين] وهو ابن إحدىٰ وتسعين سنة، روىٰ له مسلم والنسائي (أن رجلاً جاء يودِّع) أبا نصر (بشر بن الحارث) الحافي رحمه الله تعالىٰ (وقال: قد عزمتُ علىٰ الحج، فتأمرني بشيء؟ فقال له) بشر: (كم أعددت للنفقة)؟ أي هيَّأت لها (فقال: ألفي درهم. فقال بشر: فأيُّ شيء تبتغي بحجك؟ تزهُّدًا) في الدنيا (أو اشتياقًا إلىٰ البيت) المكرَّم (أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله. قال) بشر: (فإن أصبتَ رضا الله تعالىٰ وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون علىٰ يقين من مرضاة الله أتفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: اذهب فأعطِها عشر أنفس، مدين يقضي دَينه، وفقير يرم شعثه) أي يُصلِح حاله الذي غبره (ومعيل) أي صاحب عيال (يغني عائلته، ومربِّي يتيم يفرحه، وإن قويَ قلبُك تعطيها واحدًا) من هؤلاء (فافعلْ، فإن إدخال السرور علىٰ قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر) عن المضرور (وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قمْ فأخرِجْها كما أمرناك وإلا فقلْ لنا ما في قلبك. فقال) الرجل: (يا أبا نصر) هي كنية بشر (سفري أقوىٰ في قلبي. فتبسَّم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له: المال إذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفسُ أن تقضي به وطرًا) من أوطارها (فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلَىٰ الله علىٰ نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين) نقله صاحب القوت[2].

(وفرقة أخرىٰ من أرباب الأموال اشتغلوا بها، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل) والشح (ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يُحتاج فيها إلىٰ نفقة

---

(١) تقريب التهذيب ص ٦٢٤.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٦٨ - ٢٦٩.

كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن) وغير ذلك (وهم مغرورون؛ لأن البخل المهلك قد استولىٰ علىٰ بواطنهم، فهو يحتاج إلىٰ قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل بفضائل هو مستغنٍ عنها) فغرور هؤلاء في ترك الأهم الأنفع (ومثاله مثال مَن دخل في ثوبه حية وقد أشرف علىٰ الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكِّن به الصفراء، ومَن قتلته الحية متىٰ يحتاج إلىٰ السكنجبين؟ ولذلك قيل لبشر) الحافي رحمه الله تعالىٰ: (إن فلانًا الغني كثير الصوم والصلاة. فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق علىٰ المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء) منها. نقله صاحب القوت[1].

(وفرقة أخرىٰ غلبهم البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يُخرِجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه) وهو القديم، أو الممسوح سَكَّته، أو المكسور جانبه، أو الناقص وزنه أو عياره (ويطلبون من الفقراء مَن يخدمهم) في منزلهم (و) مَن (يتردَّد في حاجاتهم) لتُقضَىٰ من بعيد أو قريب (أو مَن يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة) معيَّنة (أو مَن لهم فيه علىٰ الجملة غرض، أو يسلمون ذلك إلىٰ مَن يعيِّنه واحد من الأكابر ممَّن يستظهر بحشمته) أي يستقوي بها (لينال بذلك عنده منزلة، فيقوم له بحاجاته، وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل، وصاحبه مغرور، و) هو مع ذلك (يظن أنه مطيع لله، وهو فاجر؛ إذ طلب بعبادة الله عوضًا من غيره.

فهذا وأمثاله من غرور أرباب الأموال أيضًا لا يُحصَىٰ، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه علىٰ أجناس الغرور) ليُقاس عليه ما لم يُذكَر.

(وفرقة أخرىٰ من عوامِّ الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغترُّوا بحضور

---

(١) وتقدم في كتاب كسر الشهوتين بلفظ آخر.

مجالس الذكر) والاغتباط بها (واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة) لا يفارقونها (ويظنون أن لهم علىٰ مجرد سماع الوعظ) والذكر (دون العمل ودون الاتِّعاظ أجرًا) من الله تعالىٰ (وهم مغرورون؛ لأن فضل مجلس الذكر لكون مرغِّبًا في الخير، فإن لم يهيِّج الرغبةَ) فيه (فلا خير فيه، والرغبة محمودة؛ لأنها تبعث علىٰ العمل، فإن ضعفت عن الحمل علىٰ العمل فلا خير فيها، وما يُراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلىٰ ذلك الغير فلا قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقَّة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلامًا مخوفًا فلا يزيد علىٰ أن يصفق بيديه ويقول: يا رب سَلِّمْ سلم، أو) يقول: (نعوذ بالله، أو: سبحان الله) أو نحو ذلك (ويظن أنه قد أوتي الخير كله، وهو مغرور، وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري) فيها من المحاورات (أو الجائع الذي يحضر عنده مَن يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، و) معلوم أن (ذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئًا، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئًا، وكل وعظ لم يغيِّر منك صفة تغييرًا يغيِّر أفعالك حتىٰ تُقبِل علىٰ الله إقبالاً قويًا أو ضعيفًا وتُعرِض عن الدنيا) قلبًا وقالبًا (فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيتَه وسيلة لك كنت مغرورًا.

فإن قلت: فما ذكرتَه من مداخل الغرور أمر لا يتخلَّص منه أحد، ولا يمكن الاحتراز منه، وهذا يوجب اليأسَ) من إدراكه (إذ لا يقوَىٰ أحدٌ من البشر علىٰ الحذر من خفايا هذه الآفات. فأقول: الإنسان إذا فترت همَّته) أي ضعفت (في شيء أظهر اليأسَ منه واستعظم الأمرَ) أي عدَّه عظيمًا (واستوعر الطريقَ) أي استصعبه (وإذا صح منه الهوىٰ اهتدىٰ إلىٰ الحِيَل، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق في الوصول إلىٰ الغرض، حتىٰ إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلِّق) أي المرتفع (في جو السماء مع بُعده منه استنزله) بحيلة منه (وإذا أراد أن يُخرِج الحوتَ من أعماق

البحار استخرجه) بحيلة منه (وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجهما) بحيلة منه (وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلَقة في البراري والصحاري اقتنصها) بحيلة منه (وإذا أراد أن يستسخر السباع) الضارية (والفِيَلة وعظيم الحيوانات استسخرها) بحيلة منه (وإذا أراد أن يأخذ الأفاعي والحيات ويعبث بها أخذها واستخرج الترياق من أجوافها) كل ذلك بحيلة منه (وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقوش من ورق التوت) والفِرصاد (اتخذه) فإنَّ دود القَز إنما يتربَّىٰ بورق التوت، ولهم في تربيته صناعات دقيقة (وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها) وكيف سيرها وقطعها الفلك (استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقرٌّ علىٰ الأرض) لم يتحرك (وكل ذلك باستنباط الحيل) اللطيفة (وإعداد الآلات) المتنوعة الموصلة إلىٰ ذلك (فسخَّر الفرس للركوب) بالارتياض (والكلب للصيد) وللحراسة (وسخَّر البازي لاقتناص الطيور، وهيَّأ الشبكة لاصطياد السمك .. إلىٰ غير ذلك من دقائق حيل الآدمي، كل ذلك لأن همه أمر دنياه، وذلك معين له علىٰ دنياه، فلو أهمَّه أمرُ آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه) فقط وهو تسويته وتعديله وتنظيفه من الخواطر الرديئة حتىٰ يكون مهبطًا لأنوار الله تعالىٰ (فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال: هذا مُحال، ومَن الذي يقدر عليه)؟ جهلاً منه وعنادًا (وليس ذلك بمُحال لو أصبح وهمُّه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال:

* لو صح منك الهوىٰ أُرشِدتَ للحيل[1] *)

أي فمتىٰ استقام القلب تنبَّه لمداخل الغرور فلا يبقىٰ منه شيء إلا وقد وُفِّق لقمعه (فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون) من الصحابة الكرام (ومَن اتَّبعهم بإحسان) وسلك علىٰ سويِّ نهجهم (فلا يعجز عنه أيضًا مَن صدقت إرادته) في سلوك طريق الحق (وقويتْ همَّتُه) بعد أن اجتمعت (بل لا يحتاج إلىٰ عُشر)

---

(١) انظر كتاب مصارع العشاق للسراج ٢/ ٣١.

معشار (**تعبِ الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها**) وتلفيق أجزائها.

(**فإن قلت: قد قرَّبتَ الأمرَ فيه بعد أن أكثرتَ في ذكر مداخل الغرور**) وآفاته (**فبِمَ**) وفي نسخة: فمتىٰ (**ينجو العبد من الغرور؟ فاعلمْ أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بد منها، أما العقل فأعني به الفطرة الغريزية**) التي فُطر الإنسان عليها (**والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء**) علىٰ ما هي عليه (**فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر علىٰ التحفُّظ من الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يُفطَر عليه الإنسان**) من الأصل (**فاكتسابه غير ممكن**) إمكانًا عاديًا (**نعم، إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة**) والمزاولة (**فأساس السعادات كلها العقل والكياسة، قال رسول الله ﷺ: تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتًا، إن الرجلين لَيستوي عملُهما وبرُّهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذَّرَّة**) وهي التي تتراءىٰ في ضوء الشمس من الكوَّة (**في جنب أُحُد**) الجبل المشهور (**وما قسم الله لخلقه حظًّا هو أفضل من العقل واليقين**) قال العراقي[1]: رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول[2] من رواية طاووس مرسلاً، وفي أوله قصة، وإسناده ضعيف، ورواه بنحوه من حديث أبي حميد، وهو ضعيف أيضًا.

قلت: حديث أبي حميد لفظه: «إن الرجل لَينطلقُ إلىٰ المسجد فيصلي وصلاته لا تعدل جناح بعوضة، وإن الرجل لَيأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل

---

(١) المغني ٢/ ٩٧٩.

(٢) نوادر الأصول ص ٧٦٨ - ٧٦٩، وأوله: «قضىٰ رسول الله ﷺ بين مهاجري وأنصاري، فقال المهاجري: يا رسول الله، حقي ثابت وما قضىٰ لي شيئا. فقال الأنصاري: صدق يا رسول الله، إن حقه لثابت وما قضيته شيئا. فقال رسول الله ﷺ: فأده إليه. قال: أما دعواه فقد أديته إليه، وأما حق ثواب معروفه فإنه عليَّ أكافئه. فقال المهاجري: صدق يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: تبارك ...» الخ.

جبل أُحُد إذا كان أحسنهما عقلاً». قيل: وكيف يكون أحسنهما عقلاً؟ قال: «أورعهما عن محارم الله وأسرعهما إلىٰ[1] أسباب الخير وإن كان دونه في العمل والتطوع».

(وعن أبي الدرداء) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (**أنه قيل: يا رسول الله، أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدَّق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيِّع الجنائز ويعين الضعيف ما يعلم منزلته عند الله تعالىٰ يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ: إنما يُجزَىٰ علىٰ قدر عقله**) قال العراقي[2]: رواه الخطيب في التاريخ[3] وفي «رُواة مالك» من حديث ابن عمر وضعَّفه، ولم أرَه من حديث أبي الدرداء[4].

قلت: وهو كذلك، لكن لفظه: «إن الرجل يصوم ويصلي ويحج ويعتمر، فإذا كان يوم القيامة أُعطي بقدر عقله». هكذا رواه الخطيب في كتابيه وأبو الشيخ في كتاب الثواب.

(وقال أنس) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**أُثني علىٰ رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا خيرًا، فقال ﷺ: كيف عقله؟ قالوا: يا رسول الله، نقول من عبادته وفضله وخُلقه. فقال: كيف عقله؟ فإن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرَّب الناس يوم القيامة علىٰ قدر عقولهم**) رواه[5] داود بن المحبر في كتاب العقل، وهو ضعيف، وقد تقدم في كتاب العلم.

(وقال أبو الدرداء) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدة عبادة**

---

(١) في النوادر: وأحرصهما علىٰ.

(٢) المغني ٢/ ٩٧٩.

(٣) تاريخ بغداد ٢/ ٦٠٠.

(٤) هو عند الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث عن زاوائد مسند الحارث للهيثمي ٢/ ٨٠٨، وهو موضوع.

(٥) المغني للعراقي ٢/ ٩٧٩.

سأل عن عقله، فإذا قالوا: حسن، قال: أرجوه. وإن قالوا غير ذلك قال: لن يبلغ. قال: وذُكرت له شدة عبادة رجل فقال: كيف عقله؟ قالوا: ليس بشيء. قال: لن يبلغ صاحبُكم حيث تظنون) قال العراقي[١]: رواه الحكيم في النوادر[٢] وابن عدي[٣] ومن طريقه البيهقي في الشعب[٤] وضعَّفه.

(فالذكاء وصحة غريزة العقل نعمة من الله تعالىٰ في أصل الفطرة، فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارُك لها.

الثاني: المعرفة، وأعني بها أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة. فيعرف نفسه بالعبودية والذل) والافتقار، ويعرف ربه بالسيادة والعظمة والاقتدار (و) يعرف نفسه أيضًا (بكونه غريبًا في هذا العالَم) مسافرًا منه إلىٰ دار الآخرة (وأجنبيًّا من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعًا هو معرفة الله تعالىٰ والنظر إلىٰ وجهه فقط، ولا يُتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه و) ما (لم يعرف ربه، فليستعِنْ علىٰ هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكُّر وكتاب الشكر؛ إذ فيها إشارات) ورموز (إلىٰ وصف النفس وإلىٰ وصف جلال الله تعالىٰ) وعظمته (ويحصل به التنبيهُ علىٰ الجملة، وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة) وأما علوم المكاشفة فإنما نشير إليها بنُتَف من العبارات علىٰ حسب اقتضاء المقام (وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليهما بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت؛ ليتبيَّن له أن لا نسبة للدنيا إلىٰ الآخرة. فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله،

---

(١) السابق ٢/ ٩٨٠.

(٢) نوادر الأصول ص ٧٦٤.

(٣) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٣٨٠.

(٤) شعب الإيمان ٦/ ٣٥٦.

وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبةُ عنها، فيصير أهم أموره ما يوصله إلىٰ الله تعالىٰ وينفعه في الآخرة، فإذا غلبت هذه الإرادة علىٰ قلبه صحَّت نيته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منها الاستعانة علىٰ سلوك طريق الآخرة، وصحَّت نيته، واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذُب الأغراض والنزوع إلىٰ الدنيا والجاه والمال) والتطلُّع إليها (فإنَّ ذلك هو المفسد للنية، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوىٰ نفسه أحب إليه من رضا الله فلا يمكنه الخلاص من الغرور) أصلاً (فإذا غلب حبُّ الله علىٰ قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلىٰ المعنىٰ الثالث وهو العلم، أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، والعلم بما يقرِّبه من الله وبما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله، وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين، فيعلم من ربع العبادات شروطَها فيراعيها وآفاتها فيتَّقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغنٍ عنه فيُعرِض عنه) ويتركه (ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله) وهي الصفات التي كالعقبات (فإن المانع من الله) هي (الصفات المذمومة في الخلق) وهي التي تصدُّ عن الله (فيعلم المذموم) منها (ويعرف طريق علاجه، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضَع خلفًا عن) الصفات (المذمومة بعد محوها) وإزالة أثرها (فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حبُّ الله علىٰ القلب ويسقط حبُّ الدنيا منه حتىٰ تقوَىٰ به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فإن قلت: فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يُخاف عليه؟ فأقول: يُخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلىٰ نصح الخلق) بالوعظ والتذكير (ونشر العلم) بالإفادة والتدريس (ودعوة الناس إلىٰ ما عرفه من دين الله، فإن المريد المخلص

إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب) بالأذكار السرية (حتىٰ صفّاه من جميع المكدِّرات واستوىٰ علىٰ الصراط المستقيم) الذي لا عوج فيه ولا ميل إلىٰ حدَّي الإفراط والتفريط (وصغرت الدنيا) مع ضخامتها (في عينيه فتركها) لحقارتها (وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم، ولم يبقَ له إلا همٌّ واحد وهو الله تعالىٰ والتلذُّذ بذكره ومناجاته والشوق إلىٰ لقائه، وقد عجز الشيطان عن إغوائه) وإضلاله (إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه) إذ هو قد تركها واستحقرها (فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلىٰ الرحمة علىٰ خلق الله والشفقة عليهم وعلىٰ دينهم بالنصح لهم والدعاء إلىٰ الله، فينظر العبد) حينئذٍ (برحمته) وعاطفته (إلىٰ العبيد فيراهم حيارىٰ في أمرهم، سكارىٰ في دينهم، صمًّا) آذانهم (عميًا) عيونهم (قد استولىٰ عليهم المرض وهم لا يشعرون، وفقدوا الطبيب، وأشرفوا علىٰ العَطَب) أي الهلاك (فغلبت علىٰ قلبه الرحمة لهم، وقد كانت عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبيِّن لهم ضلالهم ويرشدهم إلىٰ سعادتهم، وهو يقدر علىٰ ذِكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة) وثقل (وكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يُطاق ألمه، وقد كان لذلك يسهر ليلَه ويَقلق نهارَه، لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرَّف لشدة ضربان الألم، فوجد له دواء عفوًا صفوًا) بسهولة (من غير تعب) ولا مشقَّة (ولا ثمن) يُدفَع في عوضه (ولا مرارة في تناوله، فاستعمله فبرئَ) في الحال (وصحَّ) من مرضه (فطاب نومُه بالليل بعد طول سهره، وهدأ) أي سكن (بالنهار بعد شدة القلق) والانزعاج (وطاب عيشُه بعد نهاية الكدر، وأصاب لذةَ العافية بعد طول السقام، ثم نظر إلىٰ عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها، وقد طال) لذلك (سهرُهم، واشتد قلقهم، وارتفع إلىٰ السماء أنينهم، فتذكَّر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر علىٰ شفائهم بأسهل ما يكون وفي أدنىٰ زمان) أي أسرعه (فأخذته الرحمة والرقة) وفي نسخة: الرأفة (ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم) إلىٰ معالجتهم (فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدىٰ إلىٰ الطريق وشُفي من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم

وأعضل داؤهم) أي صعُبَ حتىٰ أيسَ من دوائه (وقرُب هلاكُهم وإشفاؤهم وسهل عليه دواؤهم، فانبعث من ذات نفسه عزمٌ جازم في الاشتغال بنصحهم) ووعظهم (وحرَّضه الشيطان علىٰ ذلك) بتحسينه إياه (رجاء أن يجد مجالاً للفتنة) أي سبيلاً لإيقاعها (فكلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاه إلىٰ الرياسة دعاءً خفيًّا أخفىٰ من دبيب النمل) علىٰ الصخرة الصمَّاء (لا يشعر به المريد) لخفائه (فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتىٰ دعاه إلىٰ التصنُّع والتزيُّن للخلق) وذلك (بتحسين الألفاظ) في وعظه (والنغمات) المعجِبة (والحركات) الموزونة (والتصنُّع في الزي والهيئات، فأقبل الناس عليه يعظِّمونه ويبجِّلونه ويوقِّرونه توقيرًا يزيد علىٰ توقير الملوك؛ إذ رأوه شافيًا لأدوائهم) أي أمراضهم (بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع) في عوض (فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، فآثروه بأبدانهم وأموالهم، وصاروا له خولاً) أي أتباعًا (كالخدم والعبيد) والأُجَراء (فخدموه وقدَّموه في المحافل) أي المجالس الحافلة (وحكَّموه علىٰ الملوك والسلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع، وارتاحت النفس، وذاقت لذة يا لها من لذة) لا توصف! (وأصابت من الدنيا شهوةً تُستحقَر معها كل شهوة، وكان) من قبل (قد ترك الدنيا ولذَّاتها (فوقع في أعظم لذَّاتها، وعند ذلك وجد الشيطان غرضه) ومكنه (وامتدَّت إلىٰ قلبه يدُه، فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذةَ) ويصونها (وأمارة انتشار الطبع وركون النفس إلىٰ الدنيا) وفي نسخة: إلىٰ الشيطان (أنه لو أخطأ) مثلاً في إلقائه (فرُدَّ عليه بين يدي الخلق غضب) علىٰ الرادِّ (فإذا أنكر علىٰ نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيَّل إليه أن ذلك غضبٌ لله) تعالىٰ (لأنه إذا لم يحسُن اعتقادُ المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله، فوقع) بهذا التخييل (في الغرور) إن اطمأنت نفسه إليه (فربما) إذا تمكَّن منه (أخرجه ذلك إلىٰ الوقيعة فيمَن رد عليه) في المجلس (فوقع في الغِيبة المحظورة) شرعًا (بعد تركه الحلال المتسع، ووقع) أيضًا (في الكبر الذي هو تمرُّد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات) أن تطرق قلبَه (وكذلك إذا سبقه الضحك) في المجلس (أو

فتر عن بعض الأوراد) الذي كان وظَّفه علىٰ نفسه (جزعت النفس أن يطّلعوا عليه فيسقط قبولُه) عندهم (فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفُّس الصعداء) كأنه يتحسَّر علىٰ ما فاته أو صدر منه (وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجلهم) ليريهم جده واجتهاده (والشيطان يخيِّل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيُهم عن) سلوكِ (طريق الله فيتركون الطريق بتركه. وإنما ذلك خدعة وغرور، بل هو جزعٌ من النفس خيفةَ فوات الرياسة) والحشمة (ولذلك لا تجزع نفسه من اطِّلاع الناس علىٰ مثل ذلك من أقرانه) ونُظَرائه (بل ربما يحب ذلك ويستبشر به، ولو ظهر من أقرانه مَن مالت القلوب إلىٰ قبوله وزاد أثرُ كلامه في القبول علىٰ كلامه شقَّ ذلك عليه، ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذَّت الرياسة لكان يغتمُّ لذلك؛ إذ مثاله أن يرىٰ الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وغُطِّي رأس البئر بحجر كبير، فعجزوا عن الرقي) أي الصعود (من البئر بسببه، فرقَّ قلبُه لإخوانه، فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشقَّ عليه) رفعُه (فجاءه مَن أعانه علىٰ ذلك حتىٰ تيسَّر عليه) رفعُه (أو كفاه ذلك ونجَّاه بنفسه) من غير مساعدة أحد (فيعظُم بذلك فرحُه لا محالة؛ إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر، فإن كان غرض الناصح) الذكي (خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر مَن أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه) باطنًا وظاهرًا (أرأيت لو اهتدوا جميعُهم من أنفسهم أكان ينبغي أن يثقل عليه ذلك إن كان غرضه هدايتهم، فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه، ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلىٰ) ارتكاب (جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح) وسوَّل له وأملَىٰ له (وأهلكه) وهو لا يشعر (فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدىٰ ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء) أي الاستقامة.

(فإن قلت: فمتىٰ يصح له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالىٰ، وكان يودُّ لو وجد مَن يعينه) عليه (أو لو اهتدوا بأنفسهم) من غير مرشد (وانقطع بالكلية طمعُه عن ثنائهم وعن أموالهم، فاستوىٰ

عنده حمدهم وذمُّهم، فلم يبالِ بذمهم إذا كان الله يحمده) ويحبه (ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالىٰ، وينظر إليهم كما ينظر إلىٰ السادات وإلىٰ البهائم. أما إلىٰ السادات فمن حيث إنه لا يتكبَّر عليهم) ولا يرىٰ لنفسه فضلاً عليهم (بل يرىٰ كلَّهم خيرًا منه لجهله بالخاتمة. وأما إلىٰ البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزيَّن لها ولا يتصنَّع) في لبسه وهيئته (بل راعي الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه، فما لم يرَ سائرَ الناس كالماشية التي لا يلتفت إلىٰ نظرها ولا يبالي بها لا يَسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم، ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسَه بإصلاحهم، فيكون كالسراج الذي يضيء لغيره ويحترق في نفسه) وقد روىٰ الطبراني من حديث أبي برزة الأسلمي: «مثل [العالِم] الذي يعلِّم الناس الخير وينسىٰ نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها». وقد تقدم في كتاب العلم.

(فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة خلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب) لأن عمارتها بسماع النصح، والناصح بالوصف المذكور نادر الوجود (فأقول: قد قال رسول الله ﷺ: حب الدنيا رأس كل خطيئة) رواه الديلمي في الفردوس من حديث علي، وتبعه ولدُه ولم يذكره مسندًا. ورواه البيهقي في الحادي والسبعين من الشعب من مرسل الحسن البصري، وإسناده حسن. ويُروَىٰ من قول عيسىٰ عليه السلام، كما في الحلية. ومن قول مالك بن دينار، كما عند ابن أبي الدنيا. ومن قول سعد بن مسعود التجيبي، كما عند ابن يونس في تاريخ مصر. ومن قول جُندب البَجَلي، كما جزم به ابن تيمية. وقد تقدم كل ذلك في كتاب ذم الدنيا (ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالَم وبطلت المعايش) واضمحلَّت الأسباب (وهلكت القلوب والأبدان جميعًا، إلا أنه ﷺ علم أن حب الدنيا مهلك، وأنَّ ذِكر كونه مهلكًا لا ينزع الحبَّ من قلوب الأكثرين لا الأقلِّين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم لها، فلم يترك النصح، وذكر ما في حب الدنيا من

الخطر) العظيم **(ولم يترك ذِكره خوفًا من أن يترك ثقة بالشهوات المهلكة التي سلَّطها الله تعالىٰ علىٰ عباده ليسوقهم بها إلىٰ جهنم، تصديقًا لقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝﴾)** [السجدة: ١٣] أي ممَّن ركن إلىٰ الشهوات ووثق بها ولم يرفع رأسه إلىٰ اتِّباع ما جاء به رسول الله ﷺ **(فكذلك لا تزال ألسنة الوعَّاظ مطلَقة لحب الرياسة)** والجاه **(ولا يَدَعونها)** أي لا يتركونها **(بقول من يقول: إن الوعظ لحب الرياسة حرام، كما لا يَدَع الخلق الشرب والزنا والسرقة والربا والظلم وسائر المعاصي بقول الله وقول رسوله ﷺ أن ذلك حرام. فانظر لنفسك، وكنْ فارغ القلب من حديث الناس)** غير ملتفت إليهم **(فإن الله يُصلِح خلقًا كثيرًا بإفساد شخص واحد وأشخاص)** كما قال الله تعالىٰ: (﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] و) كما جاء في الخبر: **(إن الله لَيؤيدُ هذا الدينَ بأقوام لا خَلاق لهم)** وقد تقدم الكلام عليه **(فإنما يُخشَىٰ أن ينسدَّ طريق الاتِّعاظ)** أي قبول الوعظ **(فأما أن تخرس ألسنة الوعَّاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدًا)**.

(فإن قلت: فإن علم المريدُ هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح) والخلطة **(أو نصح وراعَىٰ شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذي يُخاف عليه؟ وما الذي بقي بين يديه من الأخطار)** أي الأمور المخطرة **(وحبائل الاغترار)** وشبكاته؟ **(فاعلمْ أنه بقي عليه أعظمُه وهو أن الشيطان يقول له: قد أعجزتني)** وغلبتَ عليَّ **(وأفلتَّ مني بذكائك وكمال عقلك)** وقوة يقينك **(وقد قدرتُ علىٰ جملة من الأولياء والكبراء)** فأمكنتُ منهم **(وما قدرتُ عليك، فما أصبرك)!** أي أقواك صبرًا **(وما أعظم عند الله قدرك ومحلك؛ إذ قوَّاك علىٰ قهري، ومكَّنك من التفطُّن)** والتنبُّه **(لجميع مداخل غروري. فيصغي إليه)** بإذن قلبه **(ويصدِّقه)** فيما زخرفه **(ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كلِّه، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور، وهو المهلك الأكبر، فالعُجب أعظم من كل ذنب)** كما تقدم بيانه في شرح

كتاب ذم العجب (ولذلك قال الشيطان: يا ابن آدم، إذا ظننت أنك بعلمك تخلَّصتَ مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(فإن قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علمَ أن ذلك من الله تعالىٰ لا منه وأن مثله لا يقوَىٰ علىٰ دفع الشيطان إلا بتوفيق الله و) حُسن (معونته ومَن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر علىٰ مثل هذا الأمر العظيم علمَ أنه لم يقوَ عليه بنفسه بل بالله تعالىٰ، فما الذي يُخاف عليه بعد نفي العجب)؟ وهو آخر مداخل الغرور (فأقول: يُخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتىٰ يظن أنه يبقىٰ علىٰ هذه الوتيرة) أي الطريقة (في المستقبل) كما هو في الحال الراهن (ولا يخاف من الفترة) والوقفة (والانقلاب) من حال إلىٰ حال (فيكون حاله الاتّكال علىٰ فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوفُ من مكره، ومَن أمنَ من مكر الله فهو خاسر جدًّا) بنص الآية: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩] (بل سبيله أن يكون مشاهدًا لجملة ذلك من فضل الله) ومنَّته عليه (ثم) يكون (خائفًا علىٰ نفسه أن يكون قد سُدَّت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلىٰ عز) إلىٰ غير ذلك (وهو غافل عنه، ويكون) أيضًا (خائفًا أن يُسلَب حاله في كل تطريفة) وفي نسخة: في كل طريفة. وفي أخرىٰ: في كل طرفة (عين، غير آمن من مكر الله، ولا غافل عن خطر الخاتمة) وسوء المنقلَب (وهذا) أي خطر الخاتمة (خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط) الذي علىٰ متن جهنم (ولذلك لمَّا ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفَسٌ فقال له) الشيطان: (أفلتَّ مني يا فلان) أي خلصت مني (فقال) الوليُّ عند ذلك: (لا بعدُ) أي ما دام النفَس موجودًا لا أتخلَّص من شرِّك. رُوي ذلك عن الإمام أحمد. فأحَبُّ ما إلىٰ الشيطان أن يُسلَب المؤمن إيمانه عند النزع (ولذلك قيل: الناس كلهم هلكَىٰ) أي هالكون محجوبون

بظلمات جهلهم المورث فيه للهلاك **(إلا العالِمون)** فهم رفعوا تلك الحُجُب بنور معرفتهم بالله تعالىٰ **(والعالِمون كلهم هلكىٰ)** إذ هم محجوبون بحجب النور، فيظنون أنهم قد كُشف عنهم الحجاب فاغتروا فكان سبب هلاكهم **(إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكىٰ إلا المخلصون)** الذين أخلصوا لله في سائر أحوالهم **(والمخلصون علىٰ خطر عظيم)**[1] وقد رُوي هذا القول عن أبي محمد سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالىٰ، أخرجه الخطيب في اقتضاء العلم العمل[2] قال: أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسن الخَلاَّل، حدثنا محمد بن عبد الله الشيباني قال: سمعت عبد الكريم بن كامل يقول: سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول: الناس كلهم سكارىٰ إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارىٰ إلا مَن عمل بعلمه.

وأخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن فضالة الحافظ، أخبرنا أبو أحمد الغِطْريفي، حدثنا بكر بن أحمد بن سعدويه قال: قال سهل بن عبد الله: الدنيا جهل وموات إلا العلم، والعلم كله حُجة إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص، والإخلاص علىٰ خطر عظيم حتىٰ يختم به.

(فإذًا المغرور هالك، والمخلص الفارُّ من الغرور علىٰ خطر، فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوبَ أولياء الله أبدًا. فنسأل الله العون والتوفيق وحُسن الخاتمة، فإن الأمور بخواتيمها. والسلام) والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

---

(١) هو في تفسير السلمي ١/ ٣٥٥ عن ذي النون أو سهل بلفظ: الناس كلهم موتىٰ إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين، والمخلصون علىٰ خطر عظيم.
وهو في الشعب للبيهقي ٩/ ١٨١ عن ذي النون وحده.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٢٨ - ٢٩.

وبه تم شرح كتاب ذم الغرور، وبه تم ربع المهلكات، يتلوه ربع المنجيات.

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ: وكان الفراغ من تسويده في الثالثة من يوم الإثنين ثاني عشر جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٢٠٠. وكتب أبو الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني غفر الله له بمَنِّه، حامدًا لله ومصلِّيًا ومسلِّمًا.

فهرس موضوعات كتاب ذم الغرور

٣٠ - كتاب ذم الغرور

كتاب التوبة

- بيان حقيقة التوبة وحدِّها
- بيان وجوب التوبة وفضلها
- بيان أن وجوب التوبة على الفور
- بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال
- بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
- بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
- بيان توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا
- بيان ما تعظُم به الصغائرُ من الذنوب
- في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر
- بيان أقسام العباد في دوام التوبة
- بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق
- في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

٣١ - كتــاب التوبـة (١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الحمد لله الذي قبل توبةَ عباده وعفا عن السيئات، وأعلىٰ مقامَ مَن خرَّ إليه بالإنابة في أعلىٰ الدرجات، وأفاض أنواع إحسانه علىٰ المخلصين ووفَّقهم للأعمال الصالحات، أحمده حمدًا يشرق إشراق النجوم في الدُّجُنَّات، وأستغفره ممَّا سلف من الذنوب في الأيام الخاليات، وأتوب إليه من كل معصية ومخالفة وخطرات. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تدفع حُجُب الشكوك والشبهات، وتضيء نجومُ هدايتها في أوج العنايات، وتزهر سُرُجُ يقينها من مشكاة الإصابات. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذي ابتعثه والناس يضربون في الغمرات، ويموجون في جرة الظلمات، قد قادتهم أَزِمَّة الجبن، واستغلقت علىٰ أفئدتهم أقفال الدين، فأراهم بواهرَ الآيات، وقارعهم بأوضح النيِّرات، وقادهم إلىٰ أبواب الجنَّات. صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الأئمة الهُداة وصحبه الأجلَّة الأثبات صلاةً تستنزل من سحائبه غيوب الرحمات، وتُحِلُّ صاحبَها من الرضوان أعلىٰ الدرجات، وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) انظر الكلام عن التوبة في: قوت القلوب ٢/ ٤٩٩ - ٥٣٧، ٣/ ١٣٢٩ - ١٣٤١. الرسالة القشيرية ص ١٧٨ - ١٨٦ مع شرحها إحكام الدلالة لزكريا الأنصاري ١/ ٣٣٩ - ٣٥٦. الرعاية لحقوق الله تعالىٰ للحارث المحاسبي ص ٤٨ - ١٥١. عوارف المعارف ص ٣٢٦ - ٣٣٩.

أما بعد، فهذا شرح كتاب التوبة ولواحقها: الفرار والإنابة والإخبات، وهو أول الربع الرابع الموسوم بالمنجيات من كتاب الإحياء للإمام الهمام قدوة الأنام حُجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، سقىٰ الله عهده صوب الغفران المتوالي. قد وفَّقني الله جلَّت نعماؤه وتقدَّست أسماؤه إلىٰ فتح باب الإرشاد للسالكين في مسارح رياضه، ومنح عُدَّة الإسعاد للواردين بحُسن ذوقهم علىٰ موارد حياضه، لم آلُ جهدًا في سلوك شعابه ورياضة صعابه وتحرير ألفاظه ومعانيه وتبين ما أشكل لمُعانيه، متحفًا لهم بإبراز ما فيه من جلائل الفوائد، ومجريا لهم علىٰ ما ألفوه من جميل العوائد، موضحًا أدلة براهينه، مفصحًا مقاصده من قضايا قوانينه، علىٰ وجه يرتضيه أهل الإرادة ويقتفيه مَن وقف نفسه علىٰ الإخلاص في العبادة، باذلاً في ذلك جهد الاستطاعة، معترفًا بقلة البضاعة، مستعينًا بالله في تيسير كل عسير، مستوثقًا بفيضه، إنه علىٰ كل شيء قدير، لا إله غيره، ولا رب سواه، ولا خير إلا خيره.

قال رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) المستعان به في أمر الدنيا والأخرىٰ (**الحمد لله الذي بتحميده يُستفتَح كل كتاب**) الكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه. والتحميد: كثرة الحمد. والاستفتاح: الابتداء. أي كل صحيفة مهيَّأة للكتابة فيها فالكاتب إنما يبتدئ فيها أول كل شيء بحمد الله تعالىٰ وثنائه وتمجيده بما أثنىٰ علىٰ نفسه علىٰ لسان أنبيائه ورسله (**وبذكره يصدَّر كل خطاب**) الذِّكر أعمُّ من الحمد. والتصدير: الابتداء. والخطاب: القول الذي يفهم المخاطَب به شيئًا[1]. أي ما من كلام يتحاوره المتخاطبان إلا وذِكر الله يكون في صدره، أي أوله، وصدر كل شيء أعلاه، وصدر المجلس: المرتفع منه، وصدَّره تصديرًا: رفعه للصدر، وتصدَّر: ارتفع (**وبحمده يتنعَّم أهل النعيم**) أي النعمة الكثيرة، والتنعُّم[2]: تناوُل ما فيه نعمة وطِيب عيش (**في دار الثواب**) أي الجنة،

---

(١) ذكره المناوي في التوقيف ص ١٥٦.

(٢) المفردات للراغب ص ٤٩٩.

يشير بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ حكايةً عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤] **(وباسمه يتسلَّىٰ الأشقياء)** وهم المنافقون المحجوبون بنور ممزوج بالظلمة. والتسلِّي تفعُّلٌ من السُّلُوِّ، قال[١] أبو زيد: هو طِيب نفس الإلْف عن إلفه **(وإن أُرخي دونهم الحجاب)** وهو[٢] كل ما ستر المطلوبَ أو منع من الوصول إليه، وقيل للستر حجاب لمنعه للمشاهدة **(وضُرب بينهم وبين السعداء)** وهم المؤمنون الموسعة صدورهم لقبول نور الإيمان **(بسور)** أي[٣] بحائط **(له باب)** يدخل منه المؤمنون **(باطنه)** أي باطن السور أو الباب **(فيه الرحمة)** لأنه يلي الجنةَ **(وظاهره من قِبَله العذاب)** أي من جهته؛ لأنه يلي النارَ. يشير بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي انتظرونا، فإنهم يُسرَع بهم إلىٰ الجنة كالبرق الخاطف. أو انظروا إلينا، فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنور بين أيديهم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فإنه يتولَّد منها. وهو تهكُّمٌ بهم وتخييب من المؤمنين أو من الملائكة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ الآية [الحديد: ١٣] **(ونتوب إليه توبة مَن يوقن أنه رب الأرباب)** أي سيد السادات ومالك الملوك **(ومسبِّب الأسباب)** جمع سبب، وهو كل ما يُتوصَّل به إلىٰ غيره، وقد سببه إياها، وسبَّب له: إذا أمكنه منه **(ونرجوه رجاء مَن يعلم أنه الملك)** المستغني[٤] في ذاته وصفاته عن كل موجود، ومحتاج إليه كلُّ موجود **(الرحيم)** وهو[٥] مفيض الخير علىٰ المحتاجين تمامًا وعمومًا **(الغفور)**

---

(١) المصباح المنير ص ٢٨٧.

(٢) التوقيف ص ١٣٦.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ١٨٧.

(٤) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٧٠.

(٥) السابق ص ٦٥، ونصه: «الرحمة التامة: إفاضة الخير علىٰ المحتاجين وإرادته لهم عناية بهم، والرحمة العامة هي التي تتناول المستحق وغير المستحق، ورحمة الله تعالىٰ تامة وعامة، أما =

أي تام الغفران وكامله حتىٰ يبلغ أقصىٰ درجات المغفرة (**التواب**) وهو[١] الذي يرجع إلىٰ تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرىٰ بما يُظهِر لهم من آياته ويسوق إليهم من تنبيهاته ويُطلِعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتىٰ إذا اطَّلعوا بتعريفه علىٰ غوائل الذنوب استشعروا الخوفَ بتخويفه، فرجعوا إلىٰ التوبة، فرجع إليهم فضل الله تعالىٰ بالقبول (**ونمزج الخوف برجائنا مزج مَن لا يرتاب**) أي لا يشك (**أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب**) مصدر[٢] كالتوبة، وقيل: جمعُها (**شديد العقاب**) أي مشدِّده، أو الشديد عقابه. وتوسُّط الواو بين الأوَّلينِ لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، أو تغايُر الوصفين؛ إذ ربما يُتوهَّم الاتحاد، أو تغايُر موقع الفعلين؛ لأن الغفر هو الستر [فيكون لذنب باقٍ] وذلك لمَن لم يتُبْ، فإن التائب من الذنب كمَن لا ذنب له (**ونصلي**) ونسلِّم (**علىٰ**) سيدنا ومولانا (**محمد وعلىٰ آله وصحبه**) الأكرمين (**الأئمة الأنجاب**) وسقط ذلك من بعض النسخ (**صلاة تنقذنا**) أي تخلِّصنا (**من هول**) أي مخافة (**المُطَّلَع**) هو[٣] مفتعَل، اسم مفعول، موضع الاطِّلاع من المكان المرتفع إلىٰ المنخفض، وهول المُطَّلَع من ذلك، شبَّه ما يشرف عليه من أمور الآخرة [بذلك] (**يوم العرض**) علىٰ الله (**للحساب**) بذلك (**وتمهِّد لنا**) أي تهيِّئ وتبسط (**عند الله زُلفَىٰ**) وهو اسم المصدر بمعنىٰ القُربة والمنزلة (**وحُسن مآب**) أي مرجع.

(**أما بعد، فإن التوبة من الذنوب بالرجوع إلىٰ ساتر العيوب وعلاَّم الغيوب مبدأ طريق السالكين**) إلىٰ الله (**ورأس مال الفائزين**) بوصال الله (**وأول إقدام المريدين**) في سلوك طريق الله (**ومفتاح استقامة المائلين**) في زخارف الاشتباه، بل

= تمامها فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين، وأما عمومها فمن حيث شملت المستحق وغير المستحق وعمت الدنيا والآخرة وتناولت الضرورات والحاجات والمزايا الخارجة عنهما».

(١) السابق ص ١٥٠.

(٢) أنوار التنزيل ٥/ ٥١.

(٣) المصباح المنير ص ٣٧٥.

هي أصل كل مقام وقوامه، ومفتاح كل حال، وهي أول المقامات، وهي بمثابة الأرض للبناء، فمَن لا أرض له لا بناء له، ومَن لا توبة له لا حال له ولا مقام (و) هي (**مطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرَّبين**) في حضرة الربوبية (**ولأبينا آدم صلىٰ الله عليه وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين أجمعين، وما أجدر**) أي أليق (**بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو**) أي لا عجب (**إن أذنب الآدمي واجترم**) أي اكتسب الإثم (**فهي شِنْشِنة**) بكسر الشينين المعجمتين وسكون النون الأولىٰ وفتح الثانية، وهي الطبيعة والعادة (**يعرفها من أخزم، ومَن شابَهَ أباه فما ظلم**) أي ما تعدَّىٰ. وهذا[١] المثل لأبي أخزم هرومة بن ربيعة بن جرول بن ثُعَل بن عمرو الطائي الجد السادس لحاتم المشهور، مات ابنه أخزم، وكان عاقًّا لأبيه، وترك بنين منهم مرَّة وعدي وعبد شمس، فوثبوا يومًا علىٰ جدهم في مكان واحد فأدموه فقال:

إن بنـيَّ رمَّلـوني بالـدمِ ... مَـن يَلْـقَ آسـاد الرجـال يُكْلَـمِ

ومـن يكـن ذا دأبـه يقـوَّم ... بشِنْشَـنة يعرفهـا مـن أخـزم

أي إنهم أشبهوا أباهم في الطبيعة والعادة. هكذا ذكره ابن الكلبي، وتبعه الجوهري. ونقل أبو عبيدة فيه: نِشْنِشة، بتقديم النونين علىٰ الشينين، وهو من الأمثال السائرة المشهورة، أوسعت الكلام فيه في شرحي علىٰ القاموس، فراجعْه (**ولكن الأب إذا جُبر بعد ما كُسر وعُمِّر بعد أن هَرِمَ**) أي أُعطي عمرًا ثانيًا بعد أن ضعفت قُواه (**فليكن النزوع إليه**) أي اتِّباعه (**في كِلا طرفَي النفي والإثبات، والوجود والعدم، ولقد قرع آدمُ** عليه السلام **سن الندم**) وهو أيضًا من الأمثال المشهورة[٢]، يقال: قرع فلانٌ سنَّه: إذا أحرقه ندمًا[٣].

---

(١) تاج العروس ٣٢/ ٨٣ - ٨٤. مجمع الأمثال ١/ ٣٦١. غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ١٤١. الصحاح للجوهري ٥/ ١٩١١.

(٢) انظر: مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٨٥. المستقصىٰ للزمخشري ٢/ ١٩٦.

(٣) كذا جاءت هذه العبارة هنا وفي تاج العروس ٢١/ ٥٣٤. والذي في لسان العرب ٨/ ٢٦٤ وتهذيب اللغة للأزهري ١/ ٢٣٢ وغريب الحديث للحربي ص ١٠٢٧: «قرع فلان سنه ندما».

وأنشد أبو نصر للنابغة الذبياني[١]:

ولـو أني أطعتُـك في أمـور قرعـتُ ندامـةً مـن ذاك سِـنِّي

وقال تأبّط شرًّا[٢]:

لتقرَعَـنَّ علـيَّ السـنَّ مـن نـدمٍ إذا تذكَّـرتَ يومًـا بعـضَ أخلاقـي

(وتندَّم علىٰ ما سبق منه) من المخالفة **(وتقدَّم، فمَن اتخذه قدوةً في الذنب دون التوبة فقد زلَّت به القدم)** أي اضطربت ولم تثبُت **(بل التجرُّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرَّبين، والتجرُّد للشر دون التلافي)** أي التدارُك **(سجيَّة الشياطين)** أي طبيعتهم وعادتهم التي جُبلوا عليها **(والرجوع إلىٰ الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين، فالمتجرِّد للخير ملَك مقرَّب عند الملك الدَّيَّان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلىٰ الخير بالحقيقة إنسان)** فالموجودات[٣] منقسمة إلىٰ حية وميتة، ودرجات الأحياء ثلاث درجات: درجة الملائكة، ودرجة الإنس والجن، ودرجة البهائم. فالملَك درجته أعلىٰ الدرجات؛ لأنه عبارة عن موجود لا يؤثِّر القربُ والبعد في إدراكه، بل لا يقتصر إدراكُه علىٰ ما يُتصور فيه القرب والبعد؛ إذ القرب والبعد يُتصور علىٰ الأجسام، والأجسام أخس أقسام الموجودات، ثم هو مقدَّس عن الشهوة والغضب، فليست أفعاله بمقتضَىٰ الشهوة والغضب، بل داعيه إلىٰ [الأفعال] طلبُ القرب إلىٰ الله. وأما الإنسان **(فقد أُدرِج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيَّتان)** فإن درجته متوسطة بين الدرجتين، فكأنَّه مركَّب من بهيمية ومَلَكية، والأغلب عليه في بداية أمره البهيمية؛ إذ ليس له أولاً من الإدراك إلا الحواس التي يحتاج في الإدراك بها إلىٰ طلب القرب من المحسوس بالسعي والحركة إلىٰ أن يشرق عليه بالآخرة نور العقل المتصرِّف في

(١) البيت في ديوانه ص ١٢٩ (ط - دار المعارف).

(٢) البيت في ديوانه ص ٤١٤ (ط - دار الغرب الإسلامي).

(٣) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٤٤ - ٤٦.

ملكوت السموات والأرض من غير حاجة إلىٰ حركة بالبدن وطلب قرب ومماسَّة مع المدرك له، بل مدركه الأمور المقدسة عن قبول القرب والبعد بالمكان، وكذلك المستولي عليه أولاً شهوته وغضبه، وبحسب مقتضاهما انبعاثه، إلىٰ أن تظهر فيه الرغبة في طلب الكمال والنظر للعاقبة وعصيان مقتضَىٰ الشهوة والغضب **(وكل عبد مصحَّح نسبه إما إلىٰ الملَك أو إلىٰ آدم أو إلىٰ الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان علىٰ صحة نسبه إلىٰ آدم)** عَلَيْهِ السَّلَامُ **(بملازمة حدِّ الإنسان)** الذي هو الرجوع إلىٰ الخير بعد الوقوع في الشر **(والمصرُّ علىٰ الطغيان مسجِّل علىٰ نفسه بنسب الشيطان)** أي قاضٍ به، يقال[1]: سجَّل القاضي تسجيلاً: إذا قضىٰ وحكم وأثبت حكمه في السجل وهو كتاب القاضي، والجمع: سجلاَّت **(فأما تصحيح النسب بالتجرُّد لمحض الخير إلىٰ الملائكة فخارج عن حيِّز الإمكان، فإنَّ الشر معجون مع الخير في طينة آدم)** عَلَيْهِ السَّلَامُ عجنًا محكَمًا **(لا تخلِّصه إلا إحدىٰ النارين: نار الندم)** في الدنيا **(أو نار جهنم)** في الآخرة **(فالإحراق بالنار ضروري)** أي معلوم بالضرورة **(في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان)** وهي مقتضَىٰ الشهوات النفسية **(وإليك الآن اختيار أهون النارين والمبادرة إلىٰ أخف الشرين قبل أن يُطوَىٰ بساط الاختيار)** وذلك عند حلول الموت **(ويساق إلىٰ دار الاضطرار إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار)** فإن أذاب تلك الخبائث بنار الندم وعصىٰ مقتضَىٰ الشهوة والغضب وأناب إلىٰ ربه وملك نفسه أخذ بذلك شبهًا من الملائكة، وكذلك إن فطم نفسه عن الجمود علىٰ الخيالات والمحسوسات وأنسَ بالإدراك[2] أخذ شبهًا آخر من الملائكة، فإن خاصِّية الحياة الإدراك والعقل، وإليهما يتطرَّق النقصان والتوسُّط والكمال، ومهما اقتدىٰ بالملائكة في هاتين الخاصيتين فقد صحَّح نسبه إليهم وصار قريبًا منهم، والملَك قريب من الله، والقريب من القريب قريب، وعلىٰ هذا التفصيل قالوا: إن التوبة مخصوصة بنوع الإنسان؛ لتركيبه من طرفَي مشابهة الملائكة والبهائم،

(١) المصباح المنير ص ٢٦٧.

(٢) في المقصد الأسنىٰ: «وأنس بإدراك أمور يجل عن أن ينالها حس أو خيال».

ومَن نظر إلىٰ هذا قال: حقيقة التوبة ترجع إلىٰ الرجوع من الشر الشرعي إلىٰ الخير الشرعي، ومن الطريق المبعِدة إلىٰ الطريق المقرِّبة، كما سيأتي بيانه.

(وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها) وحدِّها (وشروطها) الملازِمة لها (وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسِّرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان، الركن الأول: في نفس التوبة، وبيان حدِّها وحقيقتها، وأنها واجبة علىٰ الفور وعلىٰ جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال، وأنها إذا صحَّت كانت مقبولة. الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهو الذنوب، وبيان انقسامها إلىٰ صغائر وكبائر، وما يتعلق) منها (بالعباد، وما يتعلق) منها (بحق الله تعالىٰ، وبيان كيفية توزُّع الدرجات والدركات علىٰ الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظُم الصغائرُ. الركن الثالث: في بيان شروط التوبة، ودوامها، وكيفية تدارُك ما مضىٰ من المظالم، وكيفية تكفير الذنوب، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة. الركن الرابع: في) بيان (السبب الباعث علىٰ التوبة، وكيفية العلاج في حلِّ عقدة الإصرار من المذنبين، ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله تعالىٰ.

الركن الأول: في نفس التوبة)

وفيه فصول أربعة، أول فصل في:

بيان حقيقة التوبة وحدِّها

ولنقدِّم قبل الخوض في كلام المصنف بيان أن التوبة من جملة المقامات، والفرق بين المقام والحال، واختلاف أقوالهم فيه، وكيفية ترتيب المقامات. قال الشيخ أبو طالب المكي في القوت: الفصل الثاني والثلاثون فيه كتاب شرح مقامات اليقين التسعة وأحوال المتقين. أصول مقامات اليقين التي تُرَدُّ إليها فروع أحوال المتقين تسعة: أولها التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة. وهذه محبة الخصوص، وهي محبة المحبوب.

وقال صاحب العوارف في ذكر المقامات علىٰ الترتيب هكذا: التوبة، الورع، الزهد، الصبر، الفقر، الشكر، الخوف، الرجاء، التوكل، الرضا. فزاد فيها الورع. وفي ترتيب الأحوال هكذا: المحبة لله تعالىٰ، الأنس به، القرب، الحياء، الاتصال، القبض والبسط، الفناء والبقاء، فهي تسعة. وجعل صاحب القوت المحبة لله من مكمِّلات المقامات، وسيأتي الكلام [عليها] في محلِّه إن شاء الله تعالىٰ.

وأما الحال والمقام والفرق بينهما، فقال صاحب العوارف ما حاصله: كثُر الاشتباهُ بينهما، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك، ووجود الاشتباه لمكان تشابههما في أنفسهما وتداخُلهما، فتراءىٰ للبعض الشيءَ حالاً، وتراءىٰ للبعض مقامًا، وكِلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخُلهما، ولا بد من ذكر ضابط يفرِّق بينهما، علىٰ أن اللفظ والعبارة عنهما مُشعِر بالفرق، فالحال سُمِّي حالاً لتحوله، والمقام مقامًا لثبوته واستقراره. وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقامًا. وقد تداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب، وإن شئت قلتَ: كلها مواهب؛ إذ المكاسب محفوفة بالموهبة، والمواهب محفوفة بالكسب، فالأحوال

مواجيد، والمقامات طرق المواجيد، ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت الموهبة، وفي الأحوال بطن الكسبُ وظهرت الموهبة، فالأحوال مواهب علوية سماوية، والمقامات طرقها. وقال بعض مشايخ العراق: الحال ما من الله، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون: هذا ما من العبد، فإذا لاح للمريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا: هذا ما من الله تعالىٰ، وسمَّوه حالاً، إشارة منهم إلىٰ أن الحال موهبة. وقال بعض مشايخ خراسان: الأحوال مواريث الأعمال. وقال بعضهم: الأحوال كالبروق، فإن بقي فحديث النفس. وهذا لا يكاد يستقيم علىٰ الإطلاق، وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال، فإنها تطرق ثم تستلبها النفس، فأما علىٰ الإطلاق فلا، والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء. وذهب بعضهم إلىٰ أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت، فإذا لم تَدُمْ فهي لوائح وطوالع وبوادر، وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال.

فصل: وهل يجوز له أن ينتقل إلىٰ مقام غير مقامه الذي هو فيه دون أن يُحكِم حكم مقامه؟ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: لا ينبغي أن ينتقل إلىٰ غير الذي هو فيه دون أن يُحكِم حكم مقامه. وقال بعضهم: لا يكمل له [المقام] الذي هو فيه إلا بعد ترقِّيه إلىٰ مقام فوقه، فينظر من مقامه العالي إلىٰ ما دونه من المقام فيُحكِم أمر مقامه. والأولىٰ أن نقول - والله أعلم - إن الشخص [في مقامه] يُعطَىٰ حالاً من مقامه الأعلىٰ الذي سوف يرتقي إليه، فبوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه، ويتصرَّف الحق فيه كذلك، ولا يضاف الشيء إلىٰ العبد أنه يرتقي أو لا يرتقي، فإن العبد بالأحوال يرتقي إلىٰ المقامات، والأحوال مواهب ترقِّي إلىٰ المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالموهبة، ولا يلوح للعبد حالٌ من مقام أعلىٰ ممَّا هو فيه إلا وقد قرُب ترقِّيه إليه، فلا يزال العبد يرقىٰ إلىٰ المقامات بزائد الأحوال. فعلىٰ ما ذكرنا يتضح تداخُل المقامات والأحوال حتىٰ التوبة، ولا تُعرَف فضيلة إلا وفيها حال ومقام [ففي الزهد حال ومقام] وفي التوكل حال ومقام، وفي

الرضا حال ومقام، وفي المحبة حال ومقام.

فصل: وأما كيفية ترتيب المقامات علىٰ وجه الإجمال، فاعلمْ أن المقامات والأحوال وثمراتها تجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه، فصارت مع الإيمان أربعة، وهي في إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التي جعلها الله بإجراء سنَّته مفيدة للولادة الطبيعية، ومَن تحقَّق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات، ويكاشَف بالقدَر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله المنزلات، ويحظىٰ بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيَّأت وتأكَّدت، فأحد الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح، والثاني الزهد في الدنيا، والثالث تحقيق [مقام] العبودية بدوام العمل لله ظاهرًا وباطنًا [من الأعمال القلبية والقالبية] من غير فتور ولا قصور، ثم يُستعان علىٰ [إتمام] هذه الأربعة بأربعة أخرىٰ بها تمامها وقوامها وهي قلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام، والاعتزال عن الناس. فالتوبة في مبدأ صحتها تفتقر إلىٰ أحوال، وإذا صحَّت تشتمل علىٰ مقامات وأحوال، فالأحوال التي تتقدم التوبة في استقامتها [تحتاج] إلىٰ المحاسبة في الظاهر، والمراقبة في الباطن، والرعاية. والأخيران حالان شريفان، ويصيران مقامين [شريفين يصحَّان] بصحة مقام التوبة [وتستقيم التوبة] علىٰ الكمال بهما، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة، وإذا صدق العبد في توبته صار منيبًا، وهو ثاني درجة التوبة. ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة وهو في تحقيق مقام التوبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بالصبر، وحقيقته كائنة في التوبة ككينونة المراقبة فيها، والصبر علىٰ الخمول والتواضع والذل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلاً في التوبة، وكل ما في التوبة من المقامات والأحوال يوجد في الزهد، وهو ثالث الأربعة. ثم إن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ نيرانها المتأجِّجة بمتابعة الهوىٰ، وتبلغ بطمأنينتها محلَّ الرضا ومقامه، والرضا

ثمرة التوبة النصوح، وما تخلَّف عبدٌ عن الرضا إلا بتخلُّفه عن التوبة النصوح [فإذًا تجمع التوبةُ النصوح] حالَ الصبر ومقامَ الصبر وحال الرضا ومقام الرضا، والخوف والرجاء مقامان كائنان في صلب التوبة النصوح؛ لأن خوفه حمله علىٰ التوبة، ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاؤه ما خاف، ويعتدلان للتائب المستقيم في التوبة. ثم إن التائب حيث قيَّد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله علىٰ طاعته فقد شكر المنعم، فإذا جمعت التوبة هذه المقامات والأحوال انجلت مرآة القلب، وبان قبحُ الدنيا فيها، فيحصل الزهدُ، والزاهد يتحقق فيه التوكل؛ لأنه لا يزهد في الموجود إلا لاعتماده علىٰ الموعود، والسكون إلىٰ وعد الله هو عين التوكل، وكلما بقي علىٰ العبد من بقية في تحقُّق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده في الدنيا، وهو ثالث الأربعة، وإذا صح زهد العبد صح توكله أيضًا؛ لأن صدق توكله مكَّنه من الزهد في الموجود، فمَن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقَّق هذين المقامين استوفىٰ سائرَ المقامات وتحقق بها، فإذا تاب توبة نصوحًا ثم زهد في الدنيا حتىٰ لا يهتم لأمر غد ولا يدَّخر فقد جمع في هذا الزهدَ والفقر، والزهد أفضل من الفقر، وهو فقر وزيادة؛ لأن الفقير عادم للشيء اضطرارًا، والزاهد تارك للشيء اختيارًا، وزهده يحقق توكلَه، وتوكله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، والصبر يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة، وحبسُ النفس لله يحقق خوفه، وخوفه يحقق رجاءه، ويحظىٰ بالتوبة والزهد بكل المقامات(١)، وهما إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثةَ رابعٌ به تمامها وهو دوام العمل؛ لأن الأحوال السَّنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة، ويصير بعضها متوقِّفًا علىٰ وجود الرابع وهو دوام العمل لله، لا يشغله عنه إلا واجب شرعي أو مهمٌّ لا بد منه طبعيٌّ، فإذا كان مع الزهد والتقوىٰ متمسكًا بدوام العمل فقد أكمل الفضلَ وما آلَىٰ جهدًا في العبودية، ومنه يصل إلىٰ مقام الفناء والبقاء، وهو مقام عزيز.

---

(١) في العوارف: ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات.

ولنعُد إلىٰ شرح كلام المصنف، قال رحمه الله تعالىٰ: (**اعلمْ أن التوبة**) مقام من جملة مقامات اليقين التسعة، وهي (**عبارة عن معنًىٰ ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتَّبة: علم وحال وفعل**) والمراد بالفعل: العمل، لكن العمل أخص؛ إذ الفعل[(١)]: ما ظهر عن داعية من الموقع كان عن علم أو غير علم، لتديُّن كان أو لغيره. والعمل[(٢)]: كل فعل من الحيوان بقصد، فهو أخصُّ من الفعل؛ لأن الفعل قد يُنسَب إلىٰ الحيوان الذي يقع منه فعلٌ بغير قصد، وقد يُنسَب إلىٰ الجماد، والعمل قد لا يُنسَب إلىٰ ذلك. ولذلك قيل: لو قال «وعمل» كان أنسب.

ولنقدِّم قبل الخوض فيه مقدمة تتنزل منزلة التوطئة والتمهيد لكل ما نستقبله من مقام وحال: فاعلمْ أن جملة ما تكلم الناس فيه من المقامات والأحوال كلها هي من الإيمان بالله ولله، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] والإيمان بالله ولله عقود كثيرة لا نهاية لها؛ لأن كل ما ورد من أسماء الله تعالىٰ سواء دلَّ علىٰ عين الذات الأقدس أو علىٰ صفة من صفاتها أو علىٰ سلب نقص وعيب عنها أو علىٰ إثبات جلال وكمال لها فهو من عقود الإيمان بالله، وكل ما جاءنا عن الله من أمر أو نهي أو خبر ماضٍ أو مستقبل أو حال فهو من الإيمان لله تعالىٰ، وسيأتي في كل مقام بيان كل ما هو من الإيمان بالله أو لله في موضعه إن شاء الله تعالىٰ. فإذا علمتَ أن عقود الإيمان لا حصر لها كان النفي والإيجاب لا نهاية لهما، والأوامر والنواهي كذلك لأن من جملتها النفي والإيجاب علمتَ أن كل عقد من عقود الإيمان أصل، ولذلك الأصل فرع، وللفرع ثمرة، ولذلك شبَّه اللهُ تعالىٰ الإيمانَ بالشجرة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥] فعرفنا أن لها أصلًا ثابتًا في القلوب بما أمد ساقه من النظر

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ١/ ١٧١ نقلا عن الحرالي.

(٢) المفردات للراغب ص ٣٤٨.

والاعتبار، وعرفنا أن لها فروعًا تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها، وعرفنا بقوله ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أن لها ثمارًا هي أعمالنا الناشئة عن أحوال قلوبنا وبها نجاتنا وكمالنا، وقوله ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ لأنه خالقها ومالكها، وفيه دليل الرد علىٰ مَن يقول بالتولُّد، وفيه دليل علىٰ أنه لا يصدر منا فعلٌ من أفعالنا إلا وهو موجود بقدرته علىٰ ما قدَّرته مشيئتُه.

ولمَّا علمَ المصنف رحمه الله تعالىٰ ذلك قال ما قال مشيرًا إلىٰ أن كل مقام ينتظم من علم وحال وفعل (**فالعلم الأول**) لأنه هو الأصل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله أو لله (**والحال الثاني**) وهو ما ينشأ عنه من المواجيد (**والفعل الثالث**) وهو ما تنشئه المواجيدُ علىٰ القلوب والجوارح من الأعمال (**فالأول موجِب للثاني، والثاني موجِب للثالث إيجابًا اقتضاه اطِّراد سنَّة الله تعالىٰ في**) عالَمي (**المُلك والملكوت**) ومِصْداق ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥] وهذه الآية جامعة لمجامع أركان التوبة للمتأمِّل. فإذا فهمتَ هذه المقدمة لم يعسُر عليك استنتاج الأحوال من العلوم واستفتاح الأعمال من الأحوال (**أما العلم فهو معرفة عِظَم ضرر الذنوب وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة حقيقية**) مؤيَّدة (**بيقين غالب علىٰ قلبه**) فإذا استغرقه (**ثار من هذه المعرفة تألُّمٌ للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألَّم**) لا محالة (**فإن كان فواته بفعله**) الموجِب لذلك (**تأسَّف علىٰ الفعل المفوِّت**) لمحبوبه (**فيسمَّىٰ تألُّمه بسبب فعله المفوِّت لمحبوبه ندمًا**) وقد اختُلف في حدِّه، فقال[1] الراغب[2]: هو التحسُّر من تغيُّر رأي في أمر فائت. وقال أبو البقاء:

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٣٢٣.

(٢) المفردات ص ٤٨٦.

هو أن يلوم نفسه علىٰ تفريط وقع منه. وقال غيره[١]: هو غمٌّ يصحب الإنسانَ يتمنىٰ أن ما وقع منه لم يقع. وكل هذه المعاني متقاربة **(فإذا غلب هذا الندم علىٰ القلب واستولىٰ انبعث من هذا الندم في القلب حالةٌ أخرىٰ تسمىٰ إرادة وقصدًا إلىٰ فعل له تعلُّقٌ بالحال والماضي والاستقبال، أما تعلُّقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسًا له)** ومصاحبًا له، وهو واجب شرعًا **(وأما)** تعلُّقه **(بالاستقبال فبالعزم علىٰ ترك الذنب المفوِّت للمحبوب إلىٰ آخر العمر)** فلا يعود فيه ولا في مثله، وهذا أيضًا واجب شرعًا **(وأما)** تعلُّقه **(بالماضي فبتلافي)** أي تدارُك **(ما فات)** وفرطَ من أمره. وهل تتوقَّف صحة التوبة علىٰ هذا أم لا؟ فيه خلاف، أما مَن منع فقال: العلم والندم يرادان لهذا، وهذا هو الغاية المقصودة، وأما مَن أجاز الصحة فيكتفي بالعلم والندم والعزم والترك في الحال. والصحيح أن فيه تفصيلاً قد أشار المصنف له **(بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر)** أي إن المعاصي المرجوع عنها إما أن تكون قاصرة الضرر علىٰ المذنب أو متعدِّية إلىٰ غيره، فالقاصرة منها ما يقبل القضاءَ كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ومنها ما لا يقبل القضاءَ كمس المصحف علىٰ غير وضوء، واللبث في المسجد علىٰ غير طهارة، وشرب الخمر، وإلقاء المال في البحر وإنفاقه في المعصية، وما أشبهَ ذلك ممَّا لا يقبل القضاءَ، فيكفي فيه الندمُ والترك والعزم علىٰ أن لا يعود، والذي يقبل القضاءَ فتصح أيضًا توبتُه، ولكن يجب قضاء ما فات؛ لأن التوبة عبادة الوقت؛ لوجوبها علىٰ الفور، وقد قام بها، والقضاء لا وقت له معيَّن، والذمة مشغولة به، وهذا الحكم في المعاصي المتعدِّي ضررها إلىٰ الغير. وسيأتي الكلام عليها قريبًا. وقد عُلم ممَّا تقدم أن واجبات التوبة وأركانها أربعة: علم وندم وترك **(فالعلم هو الأول، وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم)** عقد **(الإيمان)** لله **(واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب)** والمعاصي **(سموم مهلكة)** في الآخرة **(واليقين عبارة عن تأكُّد هذا التصديق)**

---

(١) هو الجرجاني في التعريفات ص ٢٦٠.

وترسُّخه في القلب (**وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب**) لكن مع هذا التصديق لا بد من تصديق أن الله جبل نفوسَنا على محبة السعادة، فإذا حضرت في قلبك محبتك للسعادة وأحضرتَ في قلبك أيضًا معرفتك بضرر الذنوب وأنها حائلة بينك وبين مقصودك وأدمتَ الفكرَ في هاتين المعرفتين من غير مانع من الشكوك ولا شاغل مذهل نتج عنهما حالٌ يسمى: الندم. كما أشار إليه المصنف بقوله: (**فيثمر نورُ هذا الإيمان مهما أشرق على القلب**) واستولى عليه (**نارُ الندم**) فأعجب من نور يثمر نارًا! وإنما قال «الندم» ولم يقل «التندُّم»؛ لأنه تأسُّف واحتراق، وهذا الندم واجب؛ لأنه المقصود من المعرفتين المتقدمتين، وهو وسيلة لترك الذنوب، وقدْر الواجب منه ما يحثُّ على الترك؛ لأن الوسيلة إذا لم تؤدِّ إلى مقصودها فلا فائدة فيها، وهذا الندم يوجب التركَ بأقسامه الثلاثة المذكورة في سياق المصنف قريبًا (**فيتألَّم بها القلب، حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبًا عن محبوبه**) مُحالاً بينه وبينه (**كمَن يشرق عليه نور الشمس**) بإضاءتها وانبساطها على وجه الأرض (**وقد كان**) قبلُ (**في ظلمة**) وحيرة (**فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب**) أي انكشافه (**أو انحسار حجاب**) من الحُجُب الظواهر (**فيرى محبوبه**) ويجد مطلوبه (**وقد أشرق**) الرائي (**على الهلاك**) من فقده محبوبه (**فتشتعل نيران الحب في قلبه، فتنبعث بتلك النيران إرادتُه للانتهاض للتدارُك**) لِما فات (**فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي، ثلاثة معانٍ مرتَّبة في الحصول، فيطلَق**[1] **اسم التوبة على مجموعها**) وهو أركانها وواجباتها (**وكثيرًا ما يطلَق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويُجعَل العلم كالسابق والمقدمة، والترك**) الذي يوجبه الندمُ (**كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال النبي ﷺ: الندم توبة. إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه**) والمراد[2] أن الندم لما كان معظم أركانها خصَّه بالذكر تنويهًا بشأنه لا أن الندم وحده كافٍ فيها،

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ١٤: يطلق. بلا فاء.

(٢) فيض القدير ٦/ ٢٩٨.

فهو إذًا من قبيل «الحج عرفة»؛ قاله القشيري في الرسالة (**فيكون الندم محفوظًا بطرفيه، أعني ثمرته**) وهي العزم (**ومثمره**) وهو العلم. ووجه تخصيصه بالذكر أنه شيء يتعلق بالقلب، والجوارح تبع له، فإذا تحقق الندم في القلب انقطع عن المعاصي فرجعت برجوعه الجوارحُ. ووجَّهه المصنفُ في موضع آخر فقال[١]: إنما نصَّ علىٰ أن الندم توبة ولم يذكر جميع شروطها ومقدماتها لأن الندم غير مقدور للعبد، فإنه قد يندم علىٰ أمر وهو يريد أن لا يكون، والتوبة مقدورة له، مأمور بها، فعُلم أن في الخبر معنًىٰ لا يُفهَم من ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله وخوف عقابه مما يبعث علىٰ التوبة النصوح، فإذا ذكر مقدمات التوبة الثلاث يندم، ويحمله الندم علىٰ ترك اختيار الذنب، وتبقىٰ ندامتُه بقلبه في المستقبل فتحمله علىٰ الابتهال والتضرع، ويجزم بعدم العود، وبذلك تتم شروط التوبة الأربعة، فلما كان الندم من أسباب التوبة سمَّاه باسمها.

والحديث المذكور قال العراقي[٢]: رواه ابن ماجه[٣] وابن حبان[٤] والحاكم[٥] [وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان[٦] والحاكم[٧]] من حديث أنس وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين.

قلت: رواه ابن ماجه من طريق عبد الكريم الجَزَري، عن زياد بن أبي مريم، عن ابن معقل قال: دخلت مع أبي علىٰ ابن مسعود، فسمعته يقول: أقال رسول الله ﷺ: «الندم توبة»؟ قال: نعم. ومن هذا الوجه أخرجه الطيالسي في مسنده[٨]، ولكن

(١) منهاج العابدين للغزالي ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) المغني ٢/ ٩٨٣.

(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٤١.

(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٧٧، ٣٨٠.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٧٣.

(٦) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٧٩.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٧٣.

(٨) مسند الطيالسي ١/ ٢٩٨.

قال: عن زياد وليس بابن أبي مريم. وقال: عن عبد الله بن معقل. ولفظه: دخلت مع أبي وأنا إلىٰ جنبه علىٰ عبد الله بن مسعود، فقال له أبي: أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «الندم توبة» [قال: نعم]. وأخرجه الطبراني في الكبير[١] وآخرون، وفي سنده اختلاف كثير. كذا قاله السخاوي[٢]. وأخرجه أحمد[٣] والبخاري في التاريخ[٤] والحكيم[٥] والبيهقي[٦] وأبو نعيم[٧]. وأما حديث أنس فقد رواه أيضًا الدارقطني في الأفراد والبيهقي في السنن والضياء[٨]، وقال الحافظ في الفتح[٩]: وهو حديث حسن. وقال العامري في شرح الشهاب: صحيح. ورواه الطبراني في الكبير[١٠] أيضًا وأبو نعيم في الحلية[١١] من طريق ابن أبي سعد الأنصاري عن أبيه به مرفوعًا بزيادة: «والتائب من الذنب كمَن لا ذنب له». وسنده ضعيف. وفي الباب ابن عباس وابن عمر وجابر وأبو هريرة ووائل بن حُجْر وغيرهم، فحديث ابن عباس[١٢] أشار إليه السخاوي. وحديث ابن عمر رواه تمام[١٣] والخطيب في «رُواة مالك» وابن عساكر[١٤].

---

(١) بل في المعجم الأوسط ٦/ ٨٣.

(٢) المقاصد الحسنة ص ٤٤٥.

(٣) مسند أحمد ٦/ ٣٧، ٧/ ١١٣، ١١٥، ١٩٣.

(٤) التاريخ الكبير ٣/ ٣٧٤.

(٥) نوادر الأصول ص ٥١٤.

(٦) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٥٩.

(٧) حلية الأولياء ٨/ ٣١٢.

(٨) الأحاديث المختارة ٦/ ١٠٢ - ١٠٤.

(٩) فتح الباري ١٣/ ٤٧٩، والكلام هنا عن حديث ابن مسعود.

(١٠) المعجم الكبير ٢٢/ ٣٠٦.

(١١) حلية الأولياء ١٠/ ٣٩٨.

(١٢) حديث ابن عباس رواه ابن الشجري في أماليه ١/ ١٩٦.

(١٣) فوائد تمام ٥/ ٩٨.

(١٤) تاريخ دمشق ٦/ ٢٧٢، ٥١/ ١٦٩، ٢١٢، ٥٢/ ٣٧٩، ٥٣/ ٣١٤.

وحديث جابر رواه الشيرازي في الألقاب[١]. وحديث أبي هريرة رواه ابن عساكر[٢]. وحديث وائل بن حُجْر رواه الطبراني في الكبير[٣].

(**وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة: إنها ذوبان الحشا لِما سبق من الخطا، فإن هذا تعرُّضٌ لمجرد الألم**) والحشا: داخل البطن، وذوبانه بتأثير ألم فيه من الزلاَّت السابقة (**ولذلك قيل: هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب**) أي شيء لا ينجبر ولا يلتئم (**وباعتبار معنىٰ الترك**) الذي هو ثمرة التوبة (**قيل في حد التوبة: إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء**) والمراد بخلع لباس الجفاء: أن لا يعود إلىٰ ما يبعده عن حضرة الله. وبنشر لباس الوفاء: أن يستقيم عليه فلا يمر بباله الجفاءُ حتىٰ ذِكره. قال القشيري في الرسالة: أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي قال: سمعت أبا عبد الله بن مصلح بالأهواز يقول: سمعت ابن زيري يقول: سمعت الجنيد يقول: دخلت علىٰ السري يومًا فرأيته متغيرًا، فقلت له: ما بالك؟ فقال: دخل عليَّ شاب فسألني عن التوبة، فقلت له: أن لا تنسىٰ ذنبك، فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسىٰ ذنبك. فقلت: إن الأمر عندي علىٰ ما قال الشاب. فقال: لِمَ؟ قلت: لأني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلىٰ حال الوفاء فذِكرُ الجفاء في حال الصفاء جفاء، فسكت.

وسيأتي الكلام علىٰ هذا.

(**وقال**) أبو محمد (**سهل بن عبد الله التستري**) رحمه الله تعالىٰ: أول ما يؤمَر به المبتدئ المريد (**التوبة**) وهي (**تبديل**) ولفظ القوت: تحويل (**الحركات المذمومة بالحركات المحمودة**) ولفظ القوت: إلىٰ الحركات المحمودة (**ولا يتم**

---

(١) ورواه أيضا الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ٣٨، ٧/ ٢٢٩. وابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٦٤.

(٢) تاريخ دمشق ٧٣/ ٢٤٩.

(٣) المعجم الكبير ٢٢/ ٤١.

ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال)[١] ولفظ القوت: ويلزم نفسه الخلوة والصمت، ولا تصح له التوبة إلا بأكل الحلال، ولا يقدر علىٰ الحلال حتىٰ يؤدي حق الله تعالىٰ في الخلق وحق الله تعالىٰ في نفسه، ولا يصح له هذا حتىٰ يتبرَّأ من كل حركة وسكون إلا بالله، وحتىٰ لا يأمن الاستدراج بأعمال الصالحين. هذا تمام قول سهل **(وكأنَّه)** رحمه الله تعالىٰ **(أشار إلىٰ المعنىٰ الثالث من التوبة)** ومَن نظر إلىٰ أن الإنسان متركِّب من طرفَي مشابهة الملائكة والبهائم فبميله إلىٰ صفة البهائم يبعُد عن ربه، وبميله إلىٰ صفة الملائكة يقرب من ربِّه، وطباع البهائم شر كلها، وطباع الملائكة خير كلها، كما إن حقيقة التوبة ترجع إلىٰ الرجوع من الشر الشرعي إلىٰ الخير الشرعي، ومن الطريق المبعِدة إلىٰ الطريق المقرِّبة. وهذا الحد أعمُّ من قولنا: هي الرجوع من المعصية إلىٰ الطاعة؛ لأن الحد الأول يدخل فيه الوجوب والاستحباب، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] وتوبة رسول الله ﷺ في رجوعه من حسن إلىٰ أحسن منه، ومن قُرب إلىٰ ما هو أقرب منه وأسنىٰ **(والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر)** وقد ذُكر بعضها في القوت، وأجمعُها وأسدها - علىٰ ما قال صاحب المفهم[٢] - أنها: اختيار ترك ذنب سبق [مثله] حقيقةً أو تقديرًا لأجل الله تعالىٰ (وإذ) قد **(فهمتَ هذه المعاني الثلاث وتلازُمها وترتيبها عرفتَ أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلبُ العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة)** التي لا تحيط بالمعاني كلها. والله الموفِّق.

---

(١) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٩٤.

(٢) المفهم للقرطبي ٧/ ٧٠.

بيان وجوب التوبة وفضلها

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن وجوب التوبة ظاهر بالآيات والأخبار، وهو واضح بنور البصيرة عند مَن انفتحت بصيرتُه وشرح الله بنور الإيمان صدره حتىٰ اقتدر علىٰ أن يسعىٰ بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل) وشُبهاته (مستغنيًا عن قائد يقوده في كل خطوة، فالسالك إما أعمىٰ لا يستغني عن القائد في خطوه) فهو عاجز عن السلوك بلا قائد (وإما بصير يهدي) أي يرشد (إلىٰ أول الطريق ثم) بعد ذلك (يهتدي بنفسه) في سلوكه، ويكفيه أول الهداية (وكذلك الناس في) سلوك (طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام، فمن قاصر) في سلوكه (لا يقدر علىٰ مجاوزة التقليد) للغير (في خطوه، فيفتقر إلىٰ أن يسمع في كل قدم) يرفعه أو يضعه (نصًا من كتاب الله تعالىٰ أو سنَّة رسول الله ﷺ، وربما يعوزه ذلك) ويعسر عليه دركُه (فيتحيَّر) في سيره (فسيرُ هذا وإن طال عمره وعظُم جدُّه) أي حظه (مختصر، وخطاه قاصرة. ومن سعيد) موفَّق (شرح الله صدره للإسلام فهو علىٰ نور من ربه، فيتنبَّه بأدنىٰ إشارة لسلوك طريق مغوصة) بالغين المعجمة، وفي نسخة بإهمالها، أي صعبة (وقطع عقبات) أي ثنيَّات (متعبة) في طلوعها والنزول عنها (فيشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، فهو لشدة نور باطنه يجتزئ) أي يكتفي (بأدنىٰ بيان، فكأنَّه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نارٌ، وإذا مسَّته نارٌ فهو نور علىٰ نور، يهدي الله لنوره من يشاء) فإن[1] الروح المفكِّرة منقسمة إلىٰ ما يحتاج إلىٰ تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتىٰ يستمر في أنوار المعارف، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبَّه من نفسه بغير مدد من خارج، فبالحري أن يكون نورًا علىٰ نور (وهذا لا يحتاج إلىٰ نص منقول في كل واقعة، فمَن كان هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة

---

(١) مشكاة الأنوار للغزالي ص ٨٦.

فينظر أولاً بنور البصيرة إلىٰ التوبة ما هي، ثم إلىٰ الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنىٰ الوجوب والتوبة، فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم أن معنىٰ الواجب ما هو واجب في الوصول إلىٰ سعادة الأبد) وهي الفوز بلقاء الله **(والنجاة من هلاك الأبد)** وهو البعد عن حضرة الله **(وأنه لولا تعلُّق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبًا معنىٰ)** يُعقَل **(وقول القائل: صار)** الأنس **(واجبًا بالإيجاب، حديث محض)** مجرَّد عن الفائدة **(فإنَّ ما لا غرض لنا عاجلاً ولا آجلاً في فعله وتركِهِ فلا معنىٰ لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرُنا أو لم يوجبه، فإذا عرف معنىٰ الوجوب وأنه الوسيلة إلىٰ سعادة الأبد علم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالىٰ، و)** علم **(أن كل محجوب عنه)** بحجاب ظلمة محض أو ظلمة ممزوجة بنور **(يشقىٰ لا محالة، محول بينه وبين ما يشتهي)** قيل: هو التوبة، وقيل: الزيادة في العمل، وقيل: حسن الخاتمة. وبكلٍّ فُسِّر قوله تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] **(محترق بنور الفراق ونار جهنم)** وفي نسخة: نار الجحيم **(وعلم)** أيضًا **(أنه لا مبعِد عن لقاء الله تعالىٰ إلا اتِّباع الشهوات)** والعمل بمقتضاها **(والأنس بهذا العالَم الفاني والإكباب علىٰ حب مَن لا بد)** وفي نسخة: ما لا بد **(من فراقه قطعًا، وعلم أنه لا مقرِّب من لقاء الله تعالىٰ إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالَم)** أي زينته **(والإقبال بالكلية علىٰ الله تعالىٰ طلبًا للأنس به)** وذلك يكون **(بدوام ذِكره)** بأيِّ نوع كان، فلا يُرَىٰ إلا مشتغلاً إما مصلِّيًا وإما صائمًا وإما تاليًا وإما طالبًا للعلم، أو غير ذلك، وكل ما يعين علىٰ الذكر فهو ذكرٌ، ودوام العمل من جملة مقامات التوبة، كما سبقت الإشارة إليه في المقدمة **(و)** يكون الإقبال علىٰ الله طلبًا **(للمحبة له بمعرفة جلاله وجماله علىٰ قدر طاقته)** وهو أيضًا من أحوال التوبة **(وعلم)** أيضًا **(أن الذنوب التي هي إعراض عن الله عَزَّوَجَلَّ واتِّباع لمَحابِّ الشياطين أعداء الله المبعَدين عن حضرته)** وفي بعض النسخ: لمَحابِّ الشيطان عدو الله المبعَد عن حضرته **(سبب كونه محجوبًا مبعَدًا عن الله)** تعالىٰ **(فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلىٰ القرب، وإنما يتم**

الانصراف) بثلاثة أمور مرتَّبة: (**بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجَّع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجَّع بقلبه فلا يرجع**) عمَّا هو مُلابِس له (**ومعنىٰ الرجوع: الترك والعزم، فلا يُشَك في أن المعاني الثلاثة**) بترتيبها (**ضرورية في الوصول إلىٰ المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل من نور البصيرة، وأما مَن لم يترشَّح لمثل هذا المقام**) المحمود (**المرتفع ذروته**) أي أعلاه (**عن**) درك (**حدود أكثر الخلق**) من المترسِّمين (**ففي التقليد والاتِّباع له مجال رحب يتوصل به إلىٰ النجاة من الهلاك**) الأبدي (**فيلاحظ فيه قولَ الله تعالىٰ وقول رسوله ﷺ وقول السلف الصالحين، فقد قال الله تعالىٰ**) في كتابه العزيز في البيان الأول من خطاب العموم: (﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣١] **وهذا أمر علىٰ العموم**) ومعناه: ارجعوا إليه من هوىٰ أنفسكم ومن وقوفكم مع شهواتكم عسىٰ أن تظفروا ببغيتكم في المعاد، وكي تبقوا ببقاء الله في نعيم لا زوال له ولا نفاد، ولكي تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار، وهذا هو الفلاح، ففرض في هذه الآية التوبةَ ووعد عليها عظيمَ المثوبة. كذا في القوت.

وفي البصائر[1] لصاحب القاموس: هذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّق الفلاحَ بالتوبة تعلُّق[2] المسبب بسببه، وأتىٰ بأداة «لعل» المُشعِرة بالترجِّي إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم علىٰ رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.

(**وقال تعالىٰ**) في البيان الثاني من مخاطبة الخصوص: (﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ **الآية**) وتمامها: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٢/ ٣٠٤.

(٢) كذا هنا وفي البصائر، ولعل الأولىٰ «تعليق»، كما قال محقق البصائر العلامة محمد علي النجار رحمه الله تعالىٰ.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨] أي[١] بالغة في النصح، وهي صفة التائب، فإنه ينصح نفسه بالتوبة، وُصِفتْ به على الإسناد المجازي مبالغةً، أو من النِّصاحة بالكسر وهي الخياطة؛ لأنها تنصح ما خرق الذنبُ، وقُرئ «نُصوحًا» بالضم[٢]، وهو مصدر [بمعنى النصح أو النصاحة] تقديره: ذات نصوح، أو تنصح نصوحًا، أو توبوا نصوحًا لأنفسكم.

وقال صاحب البصائر[٣]: يقال: إن التوبة من طريق المعنى على ثلاثة أنواع، ومن طريق اللفظ وسبيل اللطف على ثلاثة وثلاثين درجة. ثم قال: وأما درجات اللطف فالأولى: أن الله أمر الخلق بالتوبة وأشار بـ «أيها» التي تليق بحال المؤمن ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الثانية: لا تكون التوبة مثمرة حتى يتم أمرُها ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

(**ومعنى النصوح: الخالص لله، خاليًا عن الشوائب، مأخوذ من النُّصْح**) بضم فسكون، فَعُول للمبالغة في النصح، وهو الخلوص، ومنه قولهم: نصح العسلَ: إذا صفَّاه، كما تقدم. وفي القوت: وقيل: اشتقاقه من النِّصاح بالكسر، وهو الخيط، والمعنى حينئذٍ: أي مجرَّدة لا تتعلق بشيء، ولا يتعلق بها شيءٌ، وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب، وأن لا يحدِّث نفسه بعَوْد إلى ذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله خالصًا لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه مجمعًا عليه بقلبه، فمتى لقي الله تعالى بقلب سليم من الهوى وعمل مستقيم على السنَّة فقد ختم الله له بحُسن الخاتمة، فحينئذٍ أدركته الحسنى السابقةُ، وهذا هو التوبة النصوح، وهذا العبد هو التواب المتطهِّر الحبيب. وسُئل الحسن

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٢٥.

(٢) الذي قرأ بذلك هو أبو بكر بن عياش عن عاصم.
النشر لابن الجزري ٢/ ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٣) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٠٨ - ٣٠٩.

عن التوبة النصوح فقال: هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود(١).

وروىٰ ابن أبي حاتم وابن مردويه(٢) من حديث أبيٍّ بن كعب: «التوبة النصوح الندم علىٰ الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله [بندامتك عند الحافر] ثم لا تعود إليه أبدًا».

قال القرطبي(٣): في تفسير التوبة النصوح ثلاثة وعشرون قولاً.

(**ويدل علىٰ فضل التوبة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾**) [البقرة: ٢٢٢] وهو إخبار بمَن سبقت له من الله الحسنىٰ، ووصفٌ لمَن قصده بخطابه العام والخاص، وهذه إحدىٰ درجات اللطف، كأنه يقول: إذا تبتَ بتوبتي عليك وتوفيقي لك جازيتك بالمحبة. وفي عطف الجملة الثانية علىٰ الأولىٰ إشارة إلىٰ إن التوبة مطهِّرة عن الذنوب، ولذا قرنهما في سياق [واحد] ولهذا(٤) قيل: التوبة قَصَّار المذنبين، وغَسَّال المجرمين، وقائد المحسنين، وعطَّار المريدين، وأنيس المشتاقين، وسائق إلىٰ رب العالمين.

(**وقال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، توبوا إلىٰ ربكم، فإني أتوب إلىٰ الله في اليوم مائة مرة**)(٥) قال العراقي(٦): رواه مسلم(٧) من حديث الأغر المزني. ولابن

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٣٦٤ عن السري السقطي قال: التوبة علىٰ أربعة دعائم: استغفار ... فذكره.

(٢) وكذلك البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٢٤، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٩٨ - ١٤٩٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢١/ ٩٦.

(٤) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣١٢.

(٥) تفردت نسخة الزبيدي رحمه الله بهذا الحديث، ولا ذكر له في الجميع.

(٦) المغني ٢/ ٩٨٣.

(٧) صحيح مسلم ٢/ ١٢٤٣.

ماجه[١] من حديث جابر: «يا أيها الناس، توبوا إلىٰ ربكم قبل أن تموتوا ...» الحديث، وسنده ضعيف.

قلت: حديث الأغر لفظه عند مسلم: «يا أيها الناس، توبوا إلىٰ ربكم، فوالله إني لأتوبُ إلىٰ الله في اليوم مائة مرة». وهكذا رواه الطيالسي[٢] وأحمد[٣] وعبد بن حميد[٤] وأبو عوانة والطحاوي[٥] وابن حبان[٦] وابن قانع[٧] والباوَرْدي والبغوي[٨]، كلهم عن الأغر، وهو ابن يسار المزني، ويقال: الجهني، له صحبة.

ورواه ابن مردويه من حديث أبي هريرة.

ويُروَىٰ: «يا أيها الناس، استغفِروا الله وتوبوا إليه، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أو في كل يوم مائة مرة أو أكثر من مائة مرة». هكذا رواه ابن أبي شيبة[٩] وأحمد[١٠] والطبراني[١١] وابن مردويه عن أبي بُردة عن رجل من المهاجرين. ورواه الحكيم[١٢] عن أبي بردة عن الأغر.

وأما حديث جابر فطويل، رواه أيضًا البيهقي[١٣] وضعَّفه، وفيه بعد قوله

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ٢٨٧.

(٢) مسند الطيالسي ٢/ ٥٢٧.

(٣) مسند أحمد ٢٩/ ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٠/ ٢٢٤.

(٤) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ٢٩٣.

(٥) شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨٩.

(٦) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٠٩.

(٧) معجم الصحابة ١/ ٥١.

(٨) معجم الصحابة ١/ ١٢٦.

(٩) مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٥١٧.

(١٠) مسند أحمد ٣٠/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

(١١) المعجم الكبير ١/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(١٢) نوادر الأصول ص ٥٣٨.

(١٣) السنن الكبرىٰ ٣/ ٢٤٤. شعب الإيمان ٤/ ٤٢٤.

«توبوا»: «وبادِروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا ...» الخ بطوله.

وعند الطبراني[١] من حديث أبي أمامة: «يا أيها الناس، أنيبوا إلىٰ ربكم، إن ما قلَّ وكفىٰ خير ممَّا كثر وألهَىٰ ...» الحديث.

وفي القوت: ولا يكون العبد تائبًا حتىٰ يكون مصلحًا، ولا يكون مصلحًا حتىٰ يعمل الصالحات، ثم يدخل في الصالحين، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦] وهذا وصف التواب وهو المتحقق بالتوبة، الحبيب لله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي يتولّىٰ قبول الراجعين إليه من أهوائهم، المتطهِّرين له من المكاره (و) كما **(قال رسول الله ﷺ: التائب حبيب الله)** وسُئل سهل التستري رحمه الله: متىٰ يكون التائب حبيب الله؟ فقال: إذا كان كما قال سبحانه: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الآية كلها [التوبة: ١١٢] ثم قال: الحبيب لا يدخل إلا في شيء يحبه الحبيب.

والحديث قال العراقي[٢]: لم أجده بهذا اللفظ، وروىٰ ابن أبي الدنيا في التوبة[٣] وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف: «إن الله يحب الشاب التائب». ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند[٤] وأبي يعلىٰ[٥] بسند ضعيف من حديث علي: «إن الله يحب العبد المؤمن المفتَّن التواب».

قلت: وروىٰ القشيري من طريق أبي عاتكة طريف بن سليمان عن أنس رفعه: «ما من شيء أحب إلىٰ الله من شاب تائب». وأبي عاتكة ضعيف[٦].

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ٣١٤، وفيه (هلموا) بدل: أنيبوا.

(٢) المغني ٢/ ٩٨٣.

(٣) التوبة ص ١٣٧.

(٤) مسند أحمد ٢/ ٤٢، ١٨٨.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ١/ ٣٧٦.

(٦) وقد رواه ابن عدي في ترجمته من الكامل ٤/ ١٤٣٩.

(و) قال ﷺ: **(التائب من الذنب)** توبة[١] مخلصة صحيحة **(كمَن لا ذنب له)** فإن العبد إذا استقام ضعفت نفسه وانكسر هواه وساوىٰ الذي قبله ممَّن لا صبوة له، قال الطيبي[٢]: هذا من إلحاق الناقص بالكامل مبالغةً، كما تقول: زيد كالأسد، ولا يكون المشرك التائب معادَلاً بالنبي المعصوم.

والحديث قال العراقي: رواه ابن ماجه[٣] من حديث ابن مسعود.

قلت: وكذا الطبراني في الكبير[٤] والبيهقي في السنن[٥]، كلهم من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه مرفوعًا به. قال المنذري[٦]: رُواة الطبراني رُواة الصحيح، لكن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه. وقال السخاوي[٧]: رجاله ثقات، بل حسَّنه شيخنا، يعني لشواهده، وإلا فأبو عبيدة جزم غير واحد بأنه لم يسمع من أبيه.

ورواه الحكيم في النوادر[٨] والطبراني وأبو نعيم[٩] من حديث ابن أبي سعيد عن أبيه مرفوعًا بهذا بزيادة في أوله «الندم توبة»: والتائب من الذنب ... الخ. وقد تقدم. قال في الميزان[١٠]: قال أبو حاتم[١١]: حديث ضعيف، وابن أبي سعيد

---

(١) فيض القدير ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧.
(٢) الكاشف عن حقائق السنن ٦/ ١٨٥٩.
(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٤٠.
(٤) المعجم الكبير ١٠/ ١٨٥.
(٥) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٥٩.
(٦) الترغيب والترهيب ص ١١٤١.
(٧) المقاصد الحسنة ص ١٥٢.
(٨) نوادر الأصول ص ٧٦٠.
(٩) حلية الأولياء ١٠/ ٣٩٨.
(١٠) ميزان الاعتدال ٤/ ٥٩٢.
(١١) علل الحديث لابن أبي حاتم ٥/ ١٦٥.

مجهول، رواه عنه يحيىٰ بن أبي خالد، وهو مجهول أيضًا.

ومن شواهد هذا الحديث ما رواه ابن أبي الدنيا[١] والطبراني والبيهقي[٢] والديلمي[٣] من حديث ابن عباس: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه، ومَن آذىٰ مسلمًا كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل». قال الذهبي[٤]: إسناده مظلم. وقال الحافظ في الفتح[٥]: الراجح أن قوله: والمستغفر ... الخ، موقوف. وأخرجه البيهقي[٦] كذلك من حديث أبي عنبة الخولاني، وإلا فسنده أيضًا ضعيف.

ومنها ما قال القشيري في الرسالة: حدثنا ابن فورك، أخبرنا أحمد بن محمود بن خرزاد، حدثنا محمد بن الفضل بن جابر، حدثنا سعيد بن عبد الله، حدثنا أحمد بن زكريا، حدثنا أبي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبدًا لم يضرَّه ذنبٌ». ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢] قيل: يا رسول الله، وما علامات التوبة؟ قال: «الندامة». وقد رواه الديلمي[٧] وابن النجار إلىٰ قوله «لم يضرَّه ذنبٌ». ورواه ابن أبي الدنيا[٨] من قول الشعبي جملة الترجمة، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾.

(**وقال رسول الله ﷺ: لله**) اللام[٩] لام الابتداء، واسم الجلالة مبتدأ، وخبره:

---

(١) التوبة ص ٨٦.
(٢) شعب الإيمان ٩/ ٣٦٢.
(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٧٧.
(٤) تنقيح التحقيق ٢/ ٢٥٩.
(٥) فتح الباري ١٣/ ٤٨٠.
(٦) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٥٩.
(٧) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٧٧.
(٨) التوبة ص ١٣٧.
(٩) فيض القدير ٥/ ٢٥٢.

(أشد) أي أكثر **(فرحًا)** تمييز، أي رضًى، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣، الروم: ٣٢] أي راضون **(بتوبة عبده المؤمن)** فإطلاق الفرح في حق الله مجاز عن رضاه وبسط رحمته ومزيد إقباله علىٰ عبده وإكرامه له **(من رجل نزل في أرض دوية)** أي مَفازة **(مَهلكة)** وهو مَفعلة من الهلاك **(معه راحلته)** أي ناقته التي يرتحلها **(عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه)** علىٰ الأرض **(فنام نومة، فاستيقظ)** من نومه **(وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتىٰ)** طلع عليه النهار و**(اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله تعالىٰ قال)** في نفسه: **(أرجع إلىٰ مكاني الذي كنت فيه فأنام حتىٰ أموت. فوضع رأسه علىٰ ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته)** فالمراد أن التوبة تقع من الله في القبول والرضا موقعًا يقع في مثله ما يوجب فرطَ الفرح ممَّن يُتصور في حقِّه ذلك[1]، فعبَّر بالرضا عن الفرح تأكيدًا للمعنىٰ في ذهن السامع ومبالغةً في تقريره، وحقيقة الفرح لغةً: انشراح الصدر بلذة عاجلة[2]، وهو مُحال في حقه تعالىٰ.

والحديث قال العراقي[3]: متفق عليه[4] من حديث ابن مسعود وأنس، ورواه مسلم من حديث نعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرًا.

قلت: لفظ حديث ابن مسعود عند الشيخين: «للهُ أفرحُ بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مَهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتىٰ إذا اشتد عليه الحر والعطش قال: أرجع إلىٰ مكاني الذي كنت فيه فأنام حتىٰ أموت. فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا

---

(١) ذكره البيضاوي في تحفة الأبرار ٢/ ٧٢.

(٢) هذا المعنىٰ ذكره الراغب في المفردات ص ٣٧٥.

(٣) المغني ٢/ ٩٨٣ - ٩٨٤.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٥٤، صحيح مسلم ٢/ ١٢٥٨ - ١٢٦٠.

راحلته عنده عليها زاده وطعامه وشرابه. فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته [وزاده]». ورواه أيضًا هكذا أحمد[١] والترمذي[٢].

وأما لفظ حديث أنس عندهما: «للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط علىٰ بعيره قد أضلَّه بأرض فلاة». هكذا روياه في التوبة وغيرها مختصرًا.

ورواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة هكذا، ورواه الترمذي[٣] وابن ماجه[٤] بلفظ: «للهُ أفرحُ بتوبة [أحدكم من] أحدكم بضالَّته إذا وجدها». قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

ولفظ حديث النعمان بن بشير: «للربُّ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل كان في فلاة من الأرض معه راحلته عليها زاده وماؤه، فتوسَّد راحلتَه، فنام فغلبته عيناه، ثم قام وقد ذهبت الراحلة، فصعد شرفًا فنظر فلم يرَ شيئًا، ثم هبط فلم يرَ شيئًا، فقال: لأعودنَّ إلىٰ المكان الذي كنت فيه حتىٰ أموت فيه. فعاد، فنام فغلبته عيناه، ثم انتبه فإذا الراحلة قائمة علىٰ رأسه. فالرب بتوبة أحدكم أشد فرحًا من صاحب الراحلة بها حين وجدها». هكذا رواه ابن زنجويه.

(وفي بعض الألفاظ) لهذا الحديث **(قال من شدة فرحه إذ أراد شكر الله تعالىٰ: اللهم أنا ربك وأنت عبدي)** قال العراقي: رواه مسلم من حديث أنس بلفظ: «للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيسَ منها، فأتىٰ شجرةً فاضطجع في ظلِّها قد أيسَ من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخِطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

---

(١) مسند أحمد ٦/ ١٣١ - ١٣٥.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٣) السابق ٥/ ٥٠٧.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢٠.

وفي الباب أبو سعيد الخدري، ولفظه: «للهُ أفرحُ بتوبة عبده من رجل أضلَّ راحلتَه بفلاة من الأرض، فطلبها فلم يقدر عليها، فتسجَّىٰ للموت، فبينما هو كذلك إذ سمع وَجْبة الراحلة حين بركت، فكشف عن وجهه فإذا هو براحلته». رواه أحمد(١) وابن ماجه(٢) وأبو يعلىٰ(٣).

ومن شواهده حديث أبي هريرة: «للهُ أفرحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد». رواه ابن عساكر في أماليه(٤).

ورواه ابن تركان الهمذاني في كتاب «التائبين»(٥) من طريق بقية عن عبد العزيز الوصابي عن أبي الجون مرسلاً بزيادة: «فمَن تاب إلىٰ الله توبة نصوحًا أنسىٰ الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلَّها خطاياه [وذنوبه]».

(ورُوي عن الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ أنه **(قال: لمَّا تاب الله علىٰ آدم ﷺ هنَّأته الملائكة)** بقبول توبته **(وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا له: يا آدم، قرَّت عينُك بتوبة الله عليك)** أي بقبولها منك **(فقال آدم ﷺ: يا جبريل، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا آدم، ورثت ذريتك التعب والنصَب وورثتهم التوبة، فمَن دعاني منهم لبَّيته كما لبَّيتك)** أي أجبته كما أجبتُك **(ومَن سألني المغفرة)** من ذنوبه **(لم أبخل عليه)** بها **(لأني قريب)** للسائلين **(مجيب)** للداعين **(يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين)** فرحين **(ضاحكين، ودعاؤهم مستجاب)**(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة. وأورده

---

(١) مسند أحمد ١٨/ ٣١٤.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٣٩.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٤٧٥.

(٤) التوبة لابن عساكر ص ٣٧ [ضمن مجموع أجزاء حديثية له / ط - دار ابن حزم].

(٥) ومن طريقه رواه الرافعي في التدوين ١/ ٢٢٦.

(٦) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٩٥.

القشيري في الرسالة مقتصرًا علىٰ قوله: وقيل: أوحىٰ الله إلىٰ آدم عليه السلام: يا آدم، ورثت ذرِّيتك التعب والنصَب، وورَّثتهم التوبة، مَن دعاني منهم بدعوتك لبَّيته كتلبيتك، يا آدم أحشرُ التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين، ودعاؤهم مستجاب.

(والأخبار والآثار في ذلك لا تُحصَىٰ) لكثرتها (والإجماع منعقد من الأئمة[١] علىٰ وجوبها[٢]؛ إذ معناها العلم بأن الذنوب والمعاصي) كلها سمائم (مهلكات) هلاكَ الأبد (ومبعِدات من الله تعالىٰ، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تُدهِش الغفلةُ عنه، فمعنىٰ هذا العلم: إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها، ومن معانيها: تركُ المعاصي في الحال) والتخلِّي عنها (والعزم علىٰ تركها في الاستقبال) بأن لا يعود لها ولمثلها أبدًا (وتدارُك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وهذا لا يُشَك في وجوبه، وأما التندُّم علىٰ ما سبق) وفرطَ منه (والتحزُّن عليه فواجب) أيضًا (وهو روح التوبة) ومعظم أركانها (وهو تمام التلافي، فكيف لا يكون واجبًا؟! بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فاته من العمر وضاع) سبهللاً (في سخط الله) وأنواع ما يكرهه.

(فإن قلت: تألُّم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار) لأنه حال ينتُج من المعرفتين، كما تقدم (فكيف يوصَف بالوجوب؟ فاعلمْ أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب) وفقدِه السعادة (وله سبيل إلىٰ تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنىٰ دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنىٰ أن العلم يخلقه العبد ويُحدِثه في نفسه، فإنَّ ذلك مُحال) ولا يعقل منه أن العلم يولِّد الندمَ، والندم يولِّد العزم علىٰ الترك (بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعلِه) كما قال تعالىٰ: (﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾) [الصافات: ٩٦] علىٰ أن «ما» مصدرية، أي وعملكم (وهذا هو الحق) المقبول الراجح (عند ذوي الأبصار) من أهل السنة والجماعة

---

(١) في الجميع: الأمة.

(٢) انظر: الإرشاد للجويني ص٤٠٤.

(وما سوىٰ هذا ضلال) نعوذ بالله من ذلك. وفي قوله تعالىٰ: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٥] ردٌّ علىٰ مَن يقول بالتولُّد، كما سبق قريبًا، وإنما اقتضت حكمة رب الأرباب خلق المسببات عند خلق الأسباب، فيخلق الري عند شرب الماء، ويخلق الشبع عند أكل الخبز. وهذا العلم واجب؛ لأنه من نفس الإيمان بالقدرة، ومَن اعتقد غير ذلك فقد جعل لله شريكًا في أفعاله، وما أُنزِل بذلك من سلطان. هذا علىٰ طريق الإجمال، وقد أشار المصنف إلىٰ هذا بالتفصيل وقال: (فإن قلت: أوَ ليس للعبد اختيار في الفعل والترك)؟ فقد يريد فعل كل شيء فيختار تركه، وبالعكس (قلنا: نعم) له ذلك (وذلك لا يناقض قولَنا: إن الكل من خلق الله) وحده (بل الاختيار أيضًا من خلق الله، والعبد مضطر في الاختيار الذي له، فإن الله تعالىٰ إذا خلق اليد الصحيحة) السالمة من العيوب (وخلق الطعام اللذيذ) المشتهَىٰ (وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام مسكِّن للشهوة) أي شهوة الجوع (وخلق الخواطر المتعارضة) مع بعضها (في أن هذا الطعام هل فيه مضرَّة) بدنية أم لا (مع) علمه (أنه يسكِّن الشهوة، وهل دون تناوُله مانعٌ يتعذَّر معه تناوله أم لا، ثم خلق الله العلم بأنه لا مانع) من تناوله (ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة علىٰ التناول) منه (فانجزام الإرادة بعد تعدُّد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمَّىٰ اختيارًا) والجزء الاختياري (ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه) المذكورة (فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالىٰ إياها تحركت اليد الصحيحة إلىٰ جهة الطعام) اللذيذ (لا محالة؛ إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريًّا، فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله تعالىٰ بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضًا من خلق الله، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة) وهو ما يختلُّ البدن بدونه (والعلم بعدم الموانع، وهما أيضًا من خلق الله تعالىٰ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتَّب علىٰ البعض ترتُّبًا جرتْ به سنَّة الله تعالىٰ في خلقه، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً) أي تغييرًا (فلا يخلق الله

تعالىٰ حركة اليد بكتابة منظومة) متناسبة الأطراف (ما لم يخلق فيها صفة تسمَّىٰ قدرة، وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادة مجزومة، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثًا تامًّا ما لم يخلق علمًا بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضًا إلا بأسباب أُخَر ترجع إلىٰ حركة وإرادة وعلم، فالعلم والميل الطبيعي أبدًا يستتبع الإرادةَ الجازمة، والإرادة والقدرة أبدًا تستردف الحركةَ .. وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالىٰ، ولكن بعض مخلوقاته شرط للبعض، فلذلك يجب تقدُّم البعض) في الوجود (وتأخُّر البعض، كما لا تُخلَق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يُخلَق العلم إلا بعد الحياة، ولا تُخلَق الحياة إلا بعد الجسم، فيكون) حينئذٍ (خلق الجسم شرطًا لحدوث الحياة) فيه (لا لأن الحياة تتولَّد من الجسم، ويكون) كذلك (خلقُ الحياة شرطًا لخلق العلم) فيها (لا لأن العلم يتولَّد من الحياة، ولكن لا يستعدُّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيًّا) أي موصوفًا بالحياة (ويكون) كذلك (خلقُ العلم شرطًا لجزم الإرادة لا لأن العلم يولِّد الإرادةَ، ولكن لا يقبل الإرادةَ إلا جسم حيٌّ عالِم) أي موصوف بالحياة والعلم، هذا هو الحق عند أهل الحق (ولا يدخل في الوجود) سواء كان بإحدىٰ الحواس أو بقوة الشهوة أو بواسطة العقل (إلا ممكن، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغييرَ) والتبديل (لأن تغييره مُحال، فمهما وُجد شرط الوصف استعدَّ المحل به لقبول) ذلك (الوصف، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد) لقبوله (ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالىٰ ترتيب، والعبد مَجرىٰ هذه الحوادث المرتَّبة) أي محل لجريانها عليه (وهي مرتَّبة) إجمالاً (في قضاء الله الذي هو واحد) لا شريك له في فعله (كلمح البصر) أو هو أقرب (ترتيبًا كلِّيًّا لا يتغير) ولا يتبدَّل (وظهورها بالتفصيل مقدَّر بقدر لا تتعدَّاه) ولا تتجاوز طَوْره (وعنه العبارة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾) [القمر: ٤٩]

أي[1] إنَّا خلقنا كل شيء مقدَّرًا ومرتَّبًا علىٰ مقتضَىٰ الحكمة، و«كل شيء» منصوب بفعل يفسِّره ما بعده، وقُرِئ بالرفع علىٰ الابتداء[2]، وعلىٰ هذا فالأَولىٰ أن يُجعَل «خلقناه» خبرًا لا نعتًا؛ ليطابق المشهورةَ في الدلالة علىٰ أن كل شيء مخلوق بقدر. وقد تقدم الكلام عليه في كتاب قواعد العقائد (**وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالىٰ:** ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾) أي فعلة واحدة وهو الإيجاد بلا معالجة (﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾) [القمر: ٥٠] في اليسر والسرعة، وقيل: معناه معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] (**وأما العباد فإنهم مسخَّرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدَر خلقُ حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمَّىٰ القدرة، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمَّىٰ القصد، وبعد علمه بما إليه ميله يسمَّىٰ الإدراك والمعرفة**[3]**، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة علىٰ جسم عبد مسخَّر تحت قهر التقدير سبق أهل عالَم المُلك والشهادة المحجوبون عن**) دقائق (**عالَم الغيب**) المختص (**والملكوت وقالوا: يا أيها الرجل، قد تحركتَ وكتبت ورميت، ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت:** ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾) [الأنفال: ١٧] كما هو في الكتاب العزيز خطابًا لحبيبه ﷺ، وفي معناه: (**وما قتلت إذ قتلتَ ولكن الله قتل**) ويؤيِّده قوله تعالىٰ: (﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] **وعند هذا تتحيَّر عقول القاعدين في بحبوحة عالَم الشهادة**) والمُلك (**فمن قائل: إنه جبر محض**) أي خالص، وهؤلاء هم الجبرية الخالصة، يسندون فعل العبد إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يُثبِتون للعبد كسبًا (**ومن قائل: إنه اختراع صِرف**) من

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ١٦٨.

(٢) الذي قرأ بذلك هو أبو السمال الأسدي الشاعر، واسمه سمعان بن هبيرة. تفسير القرطبي ٢٠/ ١٠٥. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني ٢/ ٣٠٠ (ط - دار سركين).

(٣) انظر: الإرشاد للجويني ص١٨٧ وما بعدها، وشرح الإرشاد للمقترح ٢/ ٥٣٧ (ط الرابطة المحمدية بالمغرب).

فعل العبد، وهؤلاء هم القَدَرية **(ومن متوسط)** بين الجبر المحض والمقيَّد **(مائل إلىٰ أنه كسب)** فيسندون الفعل إلىٰ الله، ويثبتون للعبد كسبًا في الفعل، وهؤلاء هم الأشاعرة من أهل السنة والجماعة ومَن وافقهم في هذه المسألة من الماتُريدية، إلا أنهم سمَّوه جزءًا اختياريًّا، وهؤلاء هم المتوسطة **(ولو فُتحت لهم أبواب السماء فنظروا إلىٰ عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق)** فيما ذهب إليه **(من وجه، وأن القصور شامل لجميعهم، فلم يدرك واحد منهم كُنه هذا الأمر)** وحقيقته **(ولم يُحِطْ علمُه بجوانبه)**

وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلىٰ وليلىٰ لا تقرُّ لهم بذاك(١)

(وتمام علمه) إنما **(يُنال بإشراق النور)** الأقدس **(من كوَّة نافذة إلىٰ عالم الغيب)** فتُرفع الستور عن بصيرته **(وأنه تعالىٰ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾** [الجن: ٢٦ - ٢٧] كما أخبر بذلك في كتابه العزيز **(وقد يطَّلع علىٰ عالم الشهادة مَن لا يدخل في حيِّز الارتضاء)** فعدم الاطِّلاع مخصوص بعالم الغيب **(ومَن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسُلها ووجه ارتباط مَناط سلسلتها بمسبب الأسباب)** أي موضع تعليقها، من ناطَه نوطًا: إذا علَّقه **(وانكشف له سر القدَر)** المخفي **(علم علمًا يقينيًّا أن لا خالق إلا الله، ولا مبدع سواه)** وقد تقدمت الإشارة إلىٰ شيء من ذلك في كتاب العقائد.

(فإن قلت: فقد قضيتَ لكل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب بأنه صادق من وجه، وهو مع صدقه قاصرٌ) عن درجة الكمال **(وهذا تناقُضٌ)** كيف يكون صادقًا وقاصرًا؟ **(فكيف يمكن فهمُ ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلىٰ الأفهام بمثال؟ فاعلمْ أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه قد حُمل إلىٰ البلدة)** التي هم فيها **(حيوان عجيب اسمه الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته)** من قبل **(ولا سمعوا باسمه، فقالوا: لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه)** لفقد

---

(١) تقدم هذا البيت غير مرة.

حاسة البصر، وتقوم تلك المعرفة مقام المشاهدة (فطلبوه) أي توجَّهوا إليه (فلما وصلوا إليه لمسوه) بأيديهم (فوقعت يد بعض العميان علىٰ رجله، ووقعت يد بعضهم علىٰ نابه، ووقعت يد بعضهم علىٰ أذنه، فقالوا: قد عرفناه. فلما انصرفوا) إلىٰ مواضعهم (سألهم بقية العميان) عن حقيقة الفيل (فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي) قد (لمس الرِّجل: إن الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها. وقال الذي) كان قد (لمس الناب: ليس الفيل كما يقول، بل هو صلب لا لِين فيه، وأملس لا خشونة فيه، وليس في غلظ الأسطوانة أصلاً، بل هو مثل عمود. وقال الذي) كان قد (لمس الأذن: لعَمْري هو لين وفيه خشونة. فصدَّق أحدَهما فيه) وهو الذي قال: إنه لين (ولكن) كذَّب الآخرَ؛ إذ (قال: ما هو مثل عمود، ولا هو مثل أسطوانة، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ. فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه؛ إذ أخبر كل واحد عمَّا أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصَّروا عن الإحاطة بكُنه صورة الفيل) ما هي عليها (فاستبصِرْ بهذا المثال واعتبِرْ به) ما يَرِدُ عليك (فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه)[1] من المذاهب والمشارب (وإن كان هذا كلامًا يناطح بحارَ علوم المكاشفة) ويصادمها (ويحرك أمواجها) ويثير عجاجها (وليس ذلك من غرضنا) الآن في هذا الكتاب (فلنرجع إلىٰ ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وأن الندم داخل في الوجوب؛ لكونه واقعًا في جملة أفعال الله تعالىٰ المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخلِّلة بينها، وما هذا وصفُه فاسم الوجوب يشمله) لا محالة. والله الموفِّق.

فصل: ولما ثبت وجوبُ أصل التوبة بالدلائل المتقدمة شرع المصنف في بيان هل وجوبها علىٰ الفور أو علىٰ التراخي فقال:

---

(١) انظر: الإرشاد للجويني ص٢١٥.

بيان أن وجوب التوبة على الفور

ولنقدِّم قبل الشروع في المقصود أن التوبة يتقدمها واجبان، أحدهما: معرفة الذنب المرجوع عنه أنه ذنب؛ إذ كثير من العلماء فضلاً عن الجهَّال يقعون فيما لا يحلُّ لهم وهم يحسبون أنهم علىٰ شيء؛ لأنه لم يتبيَّن من العلم معرفة ما يحبه ممَّا يكرهه، وهذا من قسم الإيمان لله. الواجب الثاني: أن العبد لا يستبدُّ بالتوبة بنفسه؛ لأن الله هو خالقها في نفس العبد وميسِّر أسبابها، قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨] وهذا من قسم الإيمان بالله تعالىٰ؛ لتعلُّقه بالقدرة[١].

فإذا عرفتَ ذلك فلنعُد إلىٰ شرح كلام المصنف، قال: (**أما وجوبها علىٰ الفور**) وحاصل ما سيذكره في السياق الآتي هو أن المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرَّة بالأبدان، فمَن تناول سمًّا بغير علم وأدركه الأسف علىٰ بدنه أترىٰ يخرجه من بدنه بالقيء وغيره علىٰ الفور تلافيًا لبدنه أو يتراخىٰ في ذلك؟ فإذا كان خوفه علىٰ بدنه يوجب إخراجَ ما فيه من المُهلِك فالرجوع علىٰ الفور من سمائم الذنوب المفوِّتة لسعادة الأبد أَولىٰ. وقد ذكر المصنف ذلك تفصيلاً فقال: إما وجوبها علىٰ الفور (**فلا يُستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصي**) سمائم (**مهلكات من نفس الإيمان**) لله (**وهو واجب علىٰ الفور، والمقتضي**) هكذا بالقاف والضاد في نسخ الكتاب، وفي بعضها بالفاء والصاد المهملة، أي المتخلِّص (**عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه**) أي ممَّا يكرهه الله تعالىٰ (**فإنَّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل، بل هي من علوم المعاملة، وكل علم يُراد ليكون باعثًا علىٰ عمل فلا يقع التفصِّي**) أي التخلُّص (**عن عهدته ما**

---

(١) هذان الواجبان ذكرهما الغزالي في كتاب روضة الطالبين وعمدة السالكين ص ١٦١ - ١٦٢ [ضمن مجموع رسائل الغزالي].

لم يَصِرْ باعثًا عليه، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريدَ ليكون باعثًا علىٰ تركها، فمَن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله ﷺ: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) قال العراقي[١]: متفق عليه[٢] من حديث أبي هريرة. انتهىٰ.

قلت: وتمامه عندهما: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن». وهكذا رواه أيضًا أحمد[٣] والنسائي[٤] وابن ماجه[٥]. ورواه أيضًا عبد الرزاق والطيالسي[٦] وعبد بن حميد[٧] والحكيم[٨] والطبراني والبيهقي[٩] من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ. ورواه الطبراني في الكبير[١٠] أيضًا من حديث عبد الله بن مغفل، وفي الأوسط[١١] من حديث علي. وزاد عبد الرزاق[١٢] وأحمد ومسلم في رواية: «ولا يغلُّ أحدُكم حين يغل وهو مؤمن، فإياكم إياكم». ويُروَىٰ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة

---

(١) المغني ٢/ ٩٨٤.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٢٠١، ٤/ ١١، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٢. صحيح مسلم ١/ ٤٥ - ٤٦.

(٣) مسند أحمد ١٢/ ٢٦٩، ١٣/ ٥٢١، ١٤/ ٤٧٤، ٥٥١، ١٦/ ١٦١.

(٤) سنن النسائي ص ٧٤٢ - ٧٤٣، ٨٤٨ - ٨٤٩.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٦) مسند الطيالسي ٢/ ١٦٣.

(٧) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ٤١٨.

(٨) نوادر الأصول ص ٢١٦، ولم يسق لفظه.

(٩) شعب الإيمان ٧/ ٣٥٠.

(١٠) وكذلك الطبري في تهذيب الآثار - السفر الثاني من مسند ابن عباس ص ٦٢٠، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة ص ٥٠٣.

(١١) بل في المعجم الصغير ٢/ ١٣٠.

(١٢) مصنف عبد الرزاق ٧/ ٤١٥ - ٤١٧.

معروضة بعدُ». هكذا رواه عبد الرزاق ومسلم وأبو داود[١] والترمذي[٢] والحاكم من حديث أبي هريرة. ورواه عبد بن حميد[٣] وسمويه والضياء من حديث أبي سعيد. ورواه الحكيم[٤] من حديث عائشة. ويُروَىٰ: «لا يزني الرجل وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن، يُنزَع منه الإيمان ولا يعود إليه حتىٰ يتوب، فإذا تاب عاد إليه». هكذا رواه أبو نعيم في الحلية[٥] من حديث أبي هريرة. ويُروَىٰ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». هكذا رواه الطبراني في الأوسط[٦] من حديث عائشة، والبزار[٧] من حديث أبي سعيد. ويُروَىٰ: «لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يقتل وهو مؤمن». رواه عبد الرزاق وأحمد والبخاري[٨] والنسائي[٩] من حديث ابن عباس. ويُروَىٰ: «لا يزني الرجل وهو مؤمن، ولا يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف وهو مؤمن، فإذا تاب تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليه». رواه البزار[١٠] والطبراني[١١] والخطيب[١٢] من طريق عكرمة

---

(١) سنن أبي داود ٥/ ٢٢٠.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٦٨.

(٣) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٩٣.

(٤) نوادر الأصول ص ٢١٦، ولم يسق لفظه.

(٥) حلية الأولياء ٩/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٦) المعجم الأوسط ٢/ ٥٥.

(٧) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٧٤.

(٨) صحيح البخاري ٤/ ٢٤٧، ٢٥٢.

(٩) سنن النسائي ص ٧٤٢.

(١٠) مسند البزار ١٦/ ٢٥٣.

(١١) المعجم الكبير ١٢/ ٣٤٦.

(١٢) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٩٩.

عن ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر. ويُروَىٰ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، يخرج منه الإيمان، فإذا تاب رجع إليه». رواه الطبراني في الأوسط[١] من حديث أبي سعيد.

(**وما أراد به نفيَ الإيمان الذي يرجع إلىٰ علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيَّته وصفاته وكتبه ورسله، فإنَّ ذلك لا ينافيه الزنا والمعاصي**) المذكورة في الأخبار السابقة (**وإنما أراد به نفيَ الإيمان لكون الزنا مبعِدًا عن الله عَزَّوَجَلَّ وموجِبًا للمقت**)[٢] والغضب (**كما إذا قال الطبيب**) للعليل: (**هذا**) المأكول (**سم**) مُهلِك (**فلا تتناوله. فإذا تناوله يقال: تناول وهو غير مؤمن، لا بمعنىٰ أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبًا وغير مصدِّق به، بل المراد به أنه غير مصدِّق بقوله: إنه سم مهلك، فإن العالِم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان، وليس الإيمان بابًا واحدًا، بل هو نيِّف وسبعون بابًا، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**) رواه الترمذي[٣] - وقال: حسن صحيح - من حديث أبي هريرة بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون بابًا، فأدناه إماطة الأذىٰ عن الطريق، وأرفعه قول لا إله إلا الله». وفي لفظ له: «أربعة وستون بابًا». وعند ابن حبان[٤] بلفظ: «الإيمان سبعون أو اثنان وسبعون بابًا، أرفعه لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». وفي رواية: «الإيمان بضع وسبعون شُعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». هكذا رواه أحمد[٥] [والبخاري[٦]]

(١) المعجم الأوسط ١/ ١٧٠.

(٢) انظر: الإيمان لأبي عبيد ص٨٩، ٩٠ (ط دار الأرقم).

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٣٦٠ - ٣٦١.

(٤) صحيح ابن حبان ١/ ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٠٧، ٤٢٠.

(٥) مسند أحمد ١٤/ ٤٩٦، ١٥/ ٢١٢، ٤٦٦.

(٦) صحيح البخاري ١/ ٢٠.

ومسلم[١] وأبو داود[٢] والنسائي[٣] وابن ماجه[٤] وابن حبان من حديث أبي هريرة، والطبراني في الأوسط[٥] من حديث أبي سعيد **(ومثال ذلك قول القائل: ليس الإنسان موجودًا واحدًا بل هو نيِّف وسبعون موجودًا، أعلاها القلب والروح، وأدناها إماطة الأذىٰ)** أي إزالة ما يؤدي **(عن البَشَرة)** محرَّكة، وهو ظاهر الجسد **(بأن يكون مقصوص الشارب، مقلوم الأظفار، نقيُّ البشرة عن الخبث)** الظاهر **(حتىٰ يتميَّز)** بذلك **(عن البهائم المرسَلة)** في المرعَىٰ **(المتلوِّثة بأرواثها، المستكرَهة الصورة بطول مخالبها وأظلافها)** وحوافرها **(وهذا مثال مطابق)** لِما نحن فيه **(فالإيمان كالإنسان، وفقدُ شهادة التوحيد)** منه **(يوجب البطلانَ بالكلية كفقد الروح)** من البدن **(والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف، مفقوء العينين)** أي منخوسهما **(فاقد لجميع أعضائه الظاهرة والباطنة لا أصل الروح)** فهو ناقص **(وكما أن مَن هذا حالُه قريب من أن يموت فتزايله)** أي تفارقه **(الروحُ الضعيفة المنفردة التي تخلَّفت عنها الأعضاء التي تمدُّها وتقوِّيها، فكذلك مَن ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصِّر في الأعمال)** غير ملتفت إليها **(قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها)** أي عارضتها **(الرياحُ العاصفة)** القوية الشديدة **(المحرِّكة للإيمان في مقدمة قدوم ملَك الموت ووروده، فكل إيمان لم يثبُت في النفس[٦] أصلُه ولم تنتشر في الأعمال فروعُه لم)** يكن **(يثبُت علىٰ عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملَك الموت وخِيفَ عليه سوء الخاتمة إلا ما)** ثبت في أرض النفس و**(سُقي بماء الطاعات علىٰ توالي الأيام والساعات حتىٰ ثبت ورسخ)** فهو

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٨.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٢١٦.

(٣) سنن النسائي ص ٧٦٠.

(٤) سنن ابن ماجه ١/ ٨٢.

(٥) المعجم الأوسط ٧/ ٩٦.

(٦) في الجميع: اليقين.

الذي لا يُخشىٰ عليه من عواصف الأهوال (**وقول العاصي للطائع: إني مؤمن كما أنك مؤمن، كقول شجرة القرع**) وهي أضعف الأشجار (**لشجرة الصنوبر**) وهي أقواها، ومنابتها الجبال الشاهقة (**إني شجرة**) مثلك (**وأنتِ شجرة**) أي شملنا هذا الاسمُ جميعًا، وقد ثبتت تسمية القرع شجرة بنص القرآن: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ۝١٤٦﴾ [الصافات: ١٤٦] قال المفسرون: هو القرع[(١)] (**وما أحسن جواب شجرة الصنوبر**) لها (**إذ قالت: ستعرفين اغتراركِ بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف**) الزعازع (**فعند ذلك تنقطع أصولك، وتتناثر أوراقك، وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبات الأشجار**) وقد قيل في المثل:

(**وسوف ترىٰ إذا انجلَىٰ الغبارُ أفرس تحتك أم حمار**[(٢)]

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطعت نياط قلوب العارفين[(٣)]) النِّياط بالكسر: العِرق الذي معلَّق به القلب. فعلىٰ هذا فالأَولىٰ: وإنما انقطع (**خوفًا من دواهي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبُت عليها إلا الأقلُّون**) ممَّن ثبَّته الله علىٰ الصراط المستقيم (**فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرَّة**) من المأكولات وغيرها (**إذا كان لا يخاف الموتَ بسبب صحته**) وقوة مزاجه (**وأن الموت غالبًا لا يقع فجأة**) بل يتقدَّمه المرض (**فيقال له: الصحيح يخاف المرض، ثم إذا مرضَ خاف الموت، فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة، ثم إذا خُتم له بسوء وجب الخلودُ في النار**) عياذًا بالله منه. وإذا عرفتَ ما ذكرنا (**فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرَّة بالأبدان، فلا تزال تجتمع في الباطن حتىٰ تغيِّر مزاجَ الأخلاط**) الأربعة عن أصلها (**وهو لا**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠.

(٢) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٤٤ وقال: يضرب لمن يُنهىٰ عن شيء فيأبىٰ.

(٣) في أ: وإنما ينقطع نياط قلوب العارفين. وفي ب: انقطعت نياط العارفين. وفي ط المنهاج ٧/ ٣٠، والشعب ١١/ ٢٠٨١: انقطع نياط العارفين.

يشعر به) وفي نسخة: بها **(إلىٰ أن يَفسد المزاجُ)** من أصله **(فيمرض دفعة)** واحدة **(ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي)** بمنزلة السموم المهلكة **(فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية)** الفانية **(يجب عليه تركُ السموم وما يضرُّه من المأكولات)** المُفسدة مزاج البدن **(في كل حال وعلىٰ الفور)** بلا تراخٍ **(فالخائف من هلاك الأبد أَولىٰ بأن يجب عليه ذلك)** وهذا يُظهِر وجوبَ التوبة علىٰ الفور **(وإذا كان متناوِل السم إذا ندم)** من تناوله بأنْ راجعه تصديق قول الطبيب **(يجب عليه أن يتقايأ)** بنحو سمن أو لبن ليُفرِغ ما استقرَّ في جوفه **(ويرجع عن تناوله بإبعاده وإخراجه من المعدة علىٰ سبيل الفور والمبادرة تلافيًا لبدنه المشرف علىٰ هلاك لا يفوِّت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فمتناوِل سموم الدين - وهي الذنوب - أَولىٰ بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقىٰ**[1] **للتدارُك مهلة وهي العمر)** أي مدة بقائه في هذه الدنيا **(فإنَّ المخوِّف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم)** لا يحوَّل **(والمُلك العظيم)** لا يزول **(وفي فواتها نار الجحيم والعذاب الأليم)** أي الموجِع **(الذي تنصرم)** أي تنقطع وتفنَىٰ **(أضعافُ أعمار الدنيا دون عُشر عشير مدته؛ إذ ليس لمدَّته آخِر البتة، فالبدار البدار)** والسرعة السرعة **(إلىٰ التوبة قبل أن تعمل سمومُ الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمرَ فيه اختيار الأطباء)** وفي نسخة: الأطباء واختيارهم **(ولا ينفع بعده الاحتماء)** وفي نسخة: الحمية **(فلا ينجع)** أي لا ينفع ولا يؤثِّر **(بعد ذلك نصحُ الناصحين ووعظ الواعظين)** وزجر الزاجرين **(وتحقُّ الكلمةُ)** أي تجب كلمة الله **(عليه بأنه من)** الخاسرين **(الهالكين)** أبد الآبدين، وأشار بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ [يس: ٧] يعني قوله تعالىٰ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣] **(ويدخل تحت عموم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾)** جمع عُنُق بضمتين، وبضم فسكون في لغة الحجاز،

---

(١) في المطبوعة هكذا: بما أمكن التدارك، ما دام باقيًا ...إلخ. وفي الجميع ما أثبتُ، وهو الأسد.

أي في رقابهم (﴿أَغْلَٰلًا﴾) جمع غُل بالضم، وهو طرف من حديد. وهو[1] تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنُّذُر بتمثيلهم بالذين غُلَّت أعناقهم (﴿فَهِيَ﴾) أي تلك الأغلال (﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾) أي واصلة إلى أذقانهم فلا تخلِّيهم يطأطئون رؤوسهم (﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾) رافعون رؤوسهم، غاضُّون أبصارهم (﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾) أي أحاط بهم سدَّانِ فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدَّامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة، ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل (﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾) أي هؤلاء مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه لهم، أو معناه: إنذارك وعدمه سيَّان عليهم، والإنذار: التخويف من [عذاب] الله، وإنما اقتصر عليه [دون البشارة] لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيرًا في النفس من حيث إن دفع الضرر أهم من جلب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى (﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾) [يس: ٨-١٠] جملة مفسِّرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء (**ولا يغرَّنَّك لفظُ الإيمان**) من قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ وقد نفى عنهم وصف الإيمان (**فتقول: المراد بالآية**) أشخاص بأعيانهم كأبي جهل حين أراد الفتك بالنبي ﷺ فلزقت يده [بالحجر] وقصده آخر فقال: لأرضخنَّه بهذا الحجر. فأعماه الله تعالى. أو أن المراد (**به الكافر**) وفي نسخة: الكافرون. أي على الإطلاق ممَّن اتَّصف بالكفر (**إذ بُيِّن لك**) فيما سبق (**أن الإيمان نيِّف وسبعون بابًا، وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن**) والسارق لا يسرق حين يسرق وهو مؤمن (**فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شُعَب**) متبوعة (**وفروع**) متشعِّبة (**سيحتجب**[2] **في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل**) لتلك الفروع (**كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيُساق إلى الموت**

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ١/ ٤١، ٤/ ٢٦٤.

(٢) في الجميع: سيحجب.

المعدِم للروح التي هي أصل) لبقاء تلك الأطراف **(فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الفرع والأصل إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعًا يستدعي وجودَ الأصل)** فلا بد من وجود الأصل حتىٰ يوجد الفرع ويكون سبب بقائه **(وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجودَ الفرع)** فقد يكون موجودًا بنفسه من غير فرع **(فبقاء الأصل بالفرع)** أي قوَّته به **(ووجود الفرع بالأصل)** لأنه السبب فيه **(فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازُم الفرع والأصل، فلا يستغني أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع)** له **(وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة علىٰ العمل فعدمها خير من وجودها، فإن هي لم تعمل عملها الذي تُراد له)** بعد ذلك **(قامت)** وفي نسخة: كانت **(مؤيِّدة للحُجة علىٰ صاحبها)** فأَرْدَتْه إلىٰ أسفل سافلين **(ولذلك يُزاد في عذاب العالِم الفاجر)** الذي علمَ ولم يعمل بعلمه **(علىٰ عذاب الجاهل الفاجر)** كما قيل:

وعالِـم بعلمـه لـن يعملـن ... معـذَّب مـن قبـل عُبَّـاد الوثـن[1]

(كما أوردنا من الأخبار) الواردة في مذاهب العلماء الفجَّار **(في كتاب العلم)** وغيره. والله أعلم. وهذا الفصل بعينه هو الفرار، وهو من لواحق التوبة، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠] لأن حقيقة الفرار الهرب من المعصية إلىٰ الطاعة، هذا هو الفرار الواجب، ومَن فرَّ من محسوساته إلىٰ معقولاته رأىٰ ربَّه بعين قلبه يقينًا، ثم يفر منه إليه، ثم يفر من رؤيته لفراره، وليس وراء الله مرمىٰ.

فصل: ولما فرغ من بيان وجوب التوبة علىٰ الفور شرع في بيان عمومها في الوجوب في الأشخاص والأحوال فقال:

---

(١) البيت من منظومة طويلة لشهاب الدين ابن رسلان في الفقه الشافعي اسمها الزبد ص ٤ (ط - دار المعرفة). وانظر: فتح الرحمن بشرح زبد ابن رسلان للرملي ص ٤٦ (ط - دار المنهاج).

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال

(فلا ينفكُّ أحد عنه البتَّة) في حال من أحواله، ولذا[1] كانت من أفضل مقامات السالكين؛ لأنها أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد أبدًا، ولا يزال فيها إلىٰ الممات، وإن ارتحل السالك منها إلىٰ منزل آخر ارتحل به ونزل، فهي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك.

ولذلك قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: **(اعلمْ أن ظاهر الكتاب قد دلَّ علىٰ هذا)** أي علىٰ عموم وجوبها في الأشخاص والأحوال **(إذ قال عَزَّوَجَلَّ)** مخاطبًا أهل الإيمان وخيار خلقه: (﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾) [النور: ٣١] يعني أيها المؤمنون الصابرون المجاهدون **(فعمَّم الخطابَ)** وأمرهم أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم ومجاهدتهم. وقد استدلَّ المصنف رحمه الله تعالىٰ علىٰ مقصوده بهذه الآية وتكلم علىٰ ذلك بما سنعرضه عليك إجمالاً لتدرك منه تفصيله الذي لا يُستنبط منه الأصل المقصود إلا بعد تأمل شديد وهو أن حقيقة التوبة هي الرجوع من المعصية إلىٰ الطاعة، وهذا موجِب للنجاة، وهذا هو الوجوب المبنيُّ علىٰ أصل الإيمان، ورجوع العبد من الشواغل الملهية إلىٰ الله ومن الحسن إلىٰ الأحسن هو أيضًا توبة ورجوع، وبه كمال السعادة في الآخرة، وهذا هو الواجب المبنيُّ علىٰ كمال الإيمان، فمَن أراد كمال الإيمان حتىٰ ينال به السعادة الكبرىٰ في الدنيا بمعرفته ومشاهدته في الآخرة بالنظر إلىٰ وجهه أوجبنا عليه ذلك لإرادته؛ لأنه من لازِم الكمال، كمَن أراد النافلة فإنَّا نوجب عليه الطهارة قبل الدخول فيها. هذا حاصل ما سيذكره المصنف، فلنعُد إلىٰ شرحه،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ١٩٦.

فقال: (**ونور البصيرة أيضًا يرشد إليه؛ إذ معنىٰ التوبة: الرجوع عن الطريق المبعِد عن الله تعالىٰ المقرِّب إلىٰ الشيطان**) وهذا مبنيٌّ علىٰ أن التوبة مركَّبة من علم وحال وعمل، وأنها مخصوصة بنوع الإنسان؛ لتركُّبه من طرفَي مشابهة الملائكة والبهائم، فطباع البهائم شر كلها، وطباع الملائكة خير كله، فبميله إلىٰ صفة البهائم يبعُد عن ربه، وبميله إلىٰ صفة الملائكة يقرب من ربه؛ لأن الملائكة قريبون من الله تعالىٰ، والقريب إلىٰ القريب قريب. كما تقدمت الإشارة إليه (**ولا يُتصور ذلك إلا من عاقل**) أي من موصوف بصفة العقل (**ولا تكتمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلىٰ إغواء الإنسان؛ إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين**) من عمره، وهو بلوغ الأشد عند أكثر المفسرين (**وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ**) باحتلام أو سنٍّ، علىٰ اختلاف فيه تقدم في كتاب العلم (**ومبادئه تظهر بعد سبع سنين**) في الغالب، وذلك أيضًا مختلف باختلاف الأجناس من الأشخاص (**والشهوات**) بأسرها (**جنود الشيطان، والعقول**) من حيث هي (**جنود الملائكة، فإذا اجتمعا**) أي جند الشهوة وجند العقل (**قام القتال بين الجندين بالضرورة؛ إذ لا يثبُت أحدهما للآخر؛ لأنهما ضدَّان**) أحدهما يبعث علىٰ الخير، والثاني يبعث علىٰ الشر (**فالتطارُد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار، و**) بين (**النور والظلمة، ومهما غلب أحدهما**) في محل (**أزعج الآخرَ**) منه (**بالضرورة. وإذا كانت الشهوة تكمُل في الصبي**) في صباوته (**والشاب**[1]) في شبابه (**قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولىٰ علىٰ المكان**) وأرخىٰ كلاكله عليه (**ووقع للقلب به أنس، وألفَ لا محالة مقتضيات الشهوة بالعادة، وغلب ذلك عليه، ويعسر عليه النزوع عنه**) والتخلُّص منه (**ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئًا فشيئًا علىٰ التدريج**) والتمهُّل (**فإن لم يقوَ ولم يكمُل سُلِّمت مملكة القلب للشيطان**)

---

(١) في الجميع: تكمل في الصبا والشباب.

فاستولىٰ عليها بما فيها من العجائب والخزائن، وصار ما في البدن رعايا له (**وأنجز اللعين موعودَه**) الذي وعد به (**حيث قال**: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢] ممَّن عصمهم الله من شرِّه (**وإن كمُل العقل وقويَ كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات**) ومزايلة المألوفات (**وردّ الطبع علىٰ سبيل القهر إلىٰ العبادات، ولا معنىٰ للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريقِ دليلُه الشهوة وخفيره الشيطان إلىٰ طريق الله تعالىٰ**) وبه عُرف وجه اختصاصها بنوع الإنسان (**وليس في الوجود آدميٌّ إلا وشهوته سابقة علىٰ عقله وغريزته التي هي عُدَّة للشيطان، متقدمة علىٰ غريزته التي هي عُدَّة للملائكة، فكان الرجوع عمَّا سبق إليه علىٰ مساعدة الشهوات ضروريًّا في حق كل إنسان نبيًّا كان أو غبيًّا**) من غير خصوصية (**فلا تظن أن هذه الضرورة اختصَّت بآدم** عليه السلام**، وقد قيل**:

فلا تحسبن هندًا لها الغدر وحدها سجيَّة نفس كل غانية هندُ[1]

بل هو حكم أزليٌّ مكتوب علىٰ جنس الإنسان لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدَّل السنَّة الإلهية التي لا مَطمع في تبديلها) لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣، الفتح: ٢٣] (**فإذًا كل مَن بلغ كافرًا جاهلاً فعليه التوبة من كفره وجهله، فإن بلغ مسلمًا تبعًا لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفُّهم معنىٰ الإسلام**) حتىٰ يكون بذلك مسلمًا (**فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئًا ما لم يُسلِم بنفسه، فإن فهمَ ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات**) فيستأصلها علىٰ قدر الإمكان (**من غير صارف**) عنه (**بالرجوع إلىٰ قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانكفاف والاسترسال، وذلك من أشق أبواب التوبة**) وأشدِّها (**وفيه هلك الأكثرون؛ إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة، فدلَّ أن التوبة فرض عين في حق كل شخص، لا يُتصور أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغنِ عنها آدم** عليه السلام**، فخِلقة الولد لا تتسع لِما لم تتسع له خلقة الوالد**

(١) البيت لأبي تمام الطائي، وهو في ديوانه ص ١٢٠.

أصلاً) وهذا حالَ وجوبها علىٰ كل الأشخاص.

(وأما بيان وجوبها علىٰ الدوام وفي كل حال)

(فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه؛ إذ لم يَخْلُ عن ذلك الأنبياءُ) عليهم السلام مع جلالة قدرهم **(كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء عليهم السلام وتوبتهم وبكائهم علىٰ خطاياهم)** وقد تقدم بعضُ ذلك **(فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب)** فروىٰ أحمد[1] وأبو يعلىٰ[2] وابن عدي[3] والضياء من حديث ابن عباس: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيىٰ بن زكريا فإنه لم يهمَّ بها [ولم يعملها] ولا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن مَتَّىٰ». ورواه الحكيم[4] والحاكم[5] بلفظ: «ما من آدمي إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة غير يحيىٰ بن زكريا [فإنه] لم يهمَّ بخطيئة ولم يعملها» **(وإن خلا في بعض الأحوال من الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله)** تعالىٰ **(فإن خلا عنها)** أي عن الخواطر الناشئة عن الوسواس **(فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص)** عن رتبة الكمال **(وله أسباب، وتركُ أسبابه بالتشاغُل بأضدادها رجوع من طريق إلىٰ ضده، والمراد بالتوبة الرجوع)** كما هو حقيقة اللفظ، يقال: تاب عنه توبة ومَتابًا: إذا رجع **(ولا يُتصور الخُلوُّ في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير فأما الأصل فلا بد منه، ولهذا قال ﷺ: إنه ليُغان علىٰ قلبي في اليوم والليلة سبعين مرة، فأستغفر الله منه...**

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٤٢٥، ٤٦٨، ٥/ ١٠٣.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٤/ ٤١٨.

(٣) الكامل في الضعفاء ٢/ ٨١٤، ٥/ ١٨٤٣، ٦/ ٢٢٤٨.

(٤) نوادر الأصول ص ٥٨٦.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٦٩٥.

الحديث) هكذا في سائر نسخ الكتاب، وفي بعضها: إنه يغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة. قال العراقي[1]: رواه مسلم من حديث الأغر المزني، إلا أنه قال: في اليوم مائة مرة. وكذا هو عند أبي داود. وللبخاري من حديث أبي هريرة: «إني لأستغفرُ الله في اليوم أكثر من سبعين [مرة]». وفي رواية البيهقي في الشعب «سبعين»، ولم يقل: أكثر من. وتقدم في الأذكار والدعوات.

قلت: حديث الأغر المزني رواه كذلك أحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن حبان والبغوي وابن قانع والباوَرْدي والطبراني[2]. وتقدم قريبًا حديث الأغر عند مسلم: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوبُ إلى الله في اليوم مائة مرة». وعند الحكيم: «فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أو في كل يوم مائة مرة أو أكثر من مائة مرة». وقد تقدم الكلام على الأغر في الأذكار والدعوات. ثم قول المصنف «الحديث» يدل على أن للحديث بقية لم يذكرها، وهذا لأن الموجود في نسخ الكتاب «إنه لَيغانُ على قلبي في اليوم والليلة سبعين مرة» ثم قال: الحديث، أي إلى آخره، وآخره: «فأستغفر الله منه»، وإلا فالحديث هو هذا بتمامه.

(ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال) في كتابه العزيز في خطابه إليه: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾) [الفتح: ٢] وقد اختلفوا في معنى ذلك على أقوال، أحسنها أن يقال: جميع ما فرط منك ممَّا يصح أن تعاتَب عليه[3] **(وإذا كان هذا)** مع

---

(١) المغني ٢/ ٩٨٤.

(٢) اقتصر الشارح في كتاب الأذكار والدعوات على عزو حديث الأغر إلى مسلم وأحمد والنسائي، ويزاد هنا: أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ٢٩٤، وعبد بن حميد في مسنده ١/ ٢٩٣، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٢١١، والبغوي في معجم الصحابة ١/ ١٢٤ - ١٢٥، وابن قانع في معجم الصحابة ١/ ٥١، والطبراني في المعجم الكبير ١/ ٣٠٢. ويزاد في حديث أبي هريرة: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ١٤٦. وقول العراقي إن البيهقي لم يقل «أكثر من» خطأ، بل هذه العبارة ثابتة عنده.

(٣) ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل ٥/ ١٢٦.

علوِّ مقامه (**حاله فكيف حال غيره**؟

فإن قلت: لا يخفَىٰ أن ما يطرأ علىٰ القلب من الهموم والخواطر نقصٌ) في الجملة (**وأن الكمال في الخلو عنها**) وفي نسخة: عنه (**وأن القصور عن معرفة كُنْه جلال الله**) وعظمته (**نقصٌ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأن الانتقال إلىٰ الكمال من أسباب النقص رجوع، والرجوع توبة**) كما تقرَّر (**ولكن هذه فضائل**) زائدة (**لا فرائض، وقد أطلقتَ القولَ بوجوب التوبة في كل حال، والتوبة عن هذه الأمور ليست واجبة؛ إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع، فما المراد بقولك: التوبة واجبة في كل حال؟ فاعلمْ أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتِّباع الشهوات أصلاً**) لكونها معجونة في طينته، ولا يزايلها إلا بمسدَّد العقل ومعونته، والعقل إنما يكمُل بعدُ (**وليس معنىٰ التوبة تركها فقط؛ لأن تمام التوبة بتدارُك ما مضىٰ**) في مبدأ عمره (**وكل شهوة اتَّبعها الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلىٰ قلبه**) فتغيِّره (**كما يرتفع من نفس الإنسان ظلمةٌ إلىٰ وجه المرآة الصقيلة**) أي المصقولة (**فإن تراكمت ظلمة الشهوات**) بأن كثرت حتىٰ ركب بعضها بعضًا (**صار رينًا**) علىٰ القلب (**كما يصير بخار النفَس في وجه المرآة عند تراكمه**) وكثرته (**خبثًا**) وصدأً (**كما قال الله تعالىٰ**) في كتابه العزيز في حق المكذِّبين بالحق (﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا﴾) ردعٌ[1] عن هذا القول (﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾) [المطففين: ١٤] أي غلب عليهم حبُّ المعاصي بالانهماك فيها حتىٰ صار ذلك رينًا علىٰ قلوبهم، فعمي عليهم معرفة الحق والباطل، فإنَّ كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات (**فإذا تراكم الرين صار طبعًا فيُطبع علىٰ قلبه**) ومِصداقه في حديث أبي هريرة: «إذا أذنب العبد نُكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقلَ منها، فإن عاد زادت حتىٰ تعظُم في قلبه». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم. وقد كان الحسن يقول: إن بين العبد وبين الله تعالىٰ حدًّا من المعاصي معلومًا

(١) أنوار التنزيل ٥/ ٢٩٥.

إذا بلغه العبد طبع على قلبه فلا يوفِّقه بعدها لخير. وفي حديث ابن عمر: «الطابع [معلَّق بقائمة العرش، فإذا انتُهِكت الحرمات واستُحِلَّت المحارم أرسل الله] الطابع فيُطبع على القلب بما فيها»[١] **(كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد)** الهندي **(وأفسده، وصار لا يقبل الصقلَ بعده، وصار كالمطبوع من الخشب[٢])** أي كأنَّه طُبع منه **(ولا يكفي في تدارُك اتِّباع الشهوات تركُها في المستقبل)** فقط **(بل لا بد من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب)** من المعاصي **(كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطعُ الأنفاس)** عنها **(وقطعُ البخارات المسوِّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار[٣])** فإذا صقلها ظهرت فيها الصور، ولو ظهر تغيُّر القلوب بعد المعصية على وجه العاصي لاسودَّ وجهُه، ولكن الله سلَّم بحلمه وستره فغطى ذلك في القلب مع تأثيره فيه وحجابه لصاحبه وقساوته عن الذكر وطلب البر والمسارعة إلى الخيرات، وذلك من أعظم العقوبات، ويقال: إن العبد إذا عصى اسودَّ قلبه فيثور على القلب دخان يشهده الإيمان، فهو مكان حزن العبد الذي يسودُّ[٤]، ويكون ذلك الدخان حجابًا له عن العلم والبيان، كما تحجب السحابةُ الشمسَ فلا تُرى، فإذا تاب العبد وأصلح انكشف الحجاب فيظهر الإيمان ويأنس بالعلم كما تبرز الشمس من تحت السحاب **(وكما ترتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فـ)** كذلك **(يرتفع إليه نور من الطاعات وتركِ الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: أتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها)** قال العراقي[٥]: رواه الترمذي من حديث

---

(١) أما حديث أبي هريرة فتقدم في كتاب عجائب القلب. وأما حديث ابن عمر وأثر الحسن فسيأتيان في الركن الرابع من أركان التوبة.

(٢) كذا، وعليها شرحه!، وفي الجميع: الخبث. وهو الصواب لا غير.

(٣) في المطبوعة وط الشعب ١١/ ٢٠٨٤: الأريان. والمثبت من أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٣٧، وهو الصواب.

(٤) في قوت القلوب: الذي تسوءه سيئته.

(٥) المغني ٢/ ٩٨٤.

أبي ذر بزيادة في أوله وآخره، وقال: حسن [صحيح]. انتهىٰ.

قلت: الحديث بتمامه: «اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالِق الناسَ بخُلق حسن». هكذا رواه الترمذي وحسَّنه والدارمي والحاكم والبيهقي والضياء. ورواه أحمد والترمذي والبيهقي من حديث معاذ بن جبل. والصحيح حديث أبي ذر. ورواه ابن عساكر من حديث أنس[١].

وقال الدارقطني في كتاب العلل[٢]: رواه حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «اتق الله[٣] حيثما كنت». قال: قلت: يا رسول الله، زِدني. قال: «أتبع السيئة الحسنة تمحُها». قال: قلت: يا رسول الله، زدني. قال: «خالِق الناس بخُلق حسن». هكذا رواه حماد بن شعيب وليث بن أبي سليم وإسماعيل بن مسلم المكي عن حبيب، ورواه الثوري عن حبيب، واختُلف عنه، فرواه وكيع عن الثوري هكذا، وأرسله جماعة عن وكيع فلم يذكروا فيه معاذًا، وكذلك رواه أبو سِنان - واسمه سعيد بن سنان - عن حبيب عن ميمون مرسلاً، وقيل: عن الثوري عن حبيب عن ميمون عن أبي ذر. ورواه أبو مريم عبد الغفار عن الحكم بن عتيبة عن ميمون عن معاذ، وغيره يرويه عن الحكم مرسلاً عن النبي ﷺ، وكأنَّ المرسَل أشبه بالصواب. انتهىٰ.

قلت: وقد وقع لنا عاليًا في جزء أبي بكر محمد بن العباس الرافقي[٤]: حدثنا أحمد بن بزيع الخَفَّاف، حدثنا سعيد بن مَسلمة، عن الليث بن أبي سليم، عن حبيب ... فذكره.

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث الثلاثة في كتاب رياضة النفس.

(٢) العلل ٦/ ٧٢ - ٧٣.

(٣) في العلل: «عن معاذ: قال رجل: يا رسول الله علمني شيئا لعلي أنتفع به». وليس فيه (قال قلت يا رسول الله زدني).

(٤) ومن طريقه رواه ابن جميع الصيداوي في معجم الشيوخ ص ١٣٦.

(فإذًا لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات من قلبه بمباشرة حسنات تضادُّ آثارَها آثار تلك السيئات) الحاصلة في القلب (هذا في قلب حصل أولاً صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة، فأما التصقيل الأول ففيه يطول الشغل؛ إذ ليس شغل الصقل[1] في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة، فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً، وكل ذلك يرجع إلىٰ التوبة).

(فأما قولك: إن هذا لا يسمَّىٰ واجبًا بل هو فضل وطلبُ كمال. فاعلمْ أن الواجب له معنيان، أحدهما: ما يدخل في فتوىٰ الشرع ويشترك فيه كافة الخلق، وهو القدر الذي لو اشتغل كافة الخلق به لم يخرب) نظام (العالَم، ولو كُلِّف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تُقاته لتركوا المعايش) كما أن في غالب معاملاتها ما يضادُّ التقوىٰ (ورفضوا الدنيا بالكلية) وهجروها (ثم يؤدي ذلك إلىٰ بطلان التقوىٰ بالكلِّية، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرَّغ أحد للتقوىٰ) لشدة الإعواز إلىٰ إصلاح ما يتعيَّش به (بل شغلُ الحياكة والحراثة والخَبز) ولو قال «الخبازة» كان أَولىٰ (يستغرق جميع عمر كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار. والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلىٰ القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدِّيقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه، كما يقال: الطهارة واجبة في صلاة التطوع. أي لمَن يريدها، فإنه لا يُتوصل إليها إلا بها، فأما مَن رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست بواجبة عليه لأجلها، وكما يقال: العين والأذن واليد والرِّجل شرط في وجود الإنسان. يعني أن ذلك شرط لمَن يريد أن يكون إنسانًا كاملاً ينتفع بإنسانيَّته ويتوصَّل بها إلىٰ درجات العلا في الدنيا، فأما مَن قنع بأصل الحياة ورضي بأن يكون كلحم علىٰ وَضَم) وهو محرَّكة: ما وقيتَ به اللحمَ من الأرض.

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٣٨: الصَّيْقل. وهو الأقرب، والصيقل: هو شحاذُ السيوف وجلاّؤُها. وانظر: تاج العروس ٢٩/ ٣١٧.

كذا في المصباح[١]. وقال صاحب الأساس[٢]: هو كل ما وُقيَ به من الأرض من خشبة أو خَصَفة أو غيرهما، ووضمتُه وَضْمًا: إذا وضعته على الوَضَم، ورُوي على العكس، ويقال للذليل: هو لحم على وَضَم **(وكخرقة مطروحة)** على الأرض، أي مبتذَلة **(فليس يُشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورِجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصِل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها أصل الحياة[٣] تجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيَّأ الحياة، وفي ذلك سعى الأنبياء)** عليهم السلام **(والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل)** من المتَّبعين على أقدامهم **(وعليه كان حرصهم، وحوالَيْه)** بفتح اللام وسكون التحتية **(كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لمَلاذِّ الدنيا بالكلِّية، حتى انتهى عيسى ﷺ)** في كمال زهده **(إلى أن توسَّدَ)** يومًا **(حجرًا في منامه)** أي وضع رأسه على حجر لينام عليه، وجعله بمنزلة الوسادة **(فجاءه الشيطان وقال: أما)** كنتَ **(تركتَ الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم، وما الذي حدث؟ قال: توسُّدُك لهذا الحجر تنعُّمٌ في الدنيا، فلِمَ لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى ﷺ الحجر ووضع رأسه على الأرض)** أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصري أنه: مر إبليس يومًا بعيسى ﷺ وهو متوسِّد حجرًا، وقد وجد لذة النوم، فقال له إبليس: يا عيسى [أليس تزعم] أنك لا تريد شيئًا من عَرَض الدنيا؟ فهذا الحجر من عَرَض الدنيا. فقام عيسى ﷺ [غضبانًا] فأخذ الحجر فرمى به وقال: هذا لك مع الدنيا[٤] **(وكان رميُه الحجر توبة عن ذلك التنعُّم، أفترى أن عيسى ﷺ لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمَّى واجبًا في فتوى العامة؟ أفترى أن نبيَّنا محمدًا ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علمَ في صلاته حتى نزعه)** وأرسله إلى أبي جهم وطلب منه أنبجانيَّته

---

(١) المصباح المنير ص ٦٦٣.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ٢/ ٣٤١.

(٣) في أ، وب: التي بها تتهيأ النجاة. وفي ط المنهاج ٧/ ٣٩، والشعب ١١/ ٢٠٨٥: التي بها تتهيأ الحياة.

(٤) تقدم هذا الخبر في كتاب عجائب القلب.

وقال: «قد ألهاني»، وقد تقدم في كتاب الصلاة (وشغله شِراك نعليه الذي جدَّده حتىٰ أعاد الشِّراك الخلق) تقدم أيضًا في كتاب الصلاة (لم يعلم أن ذلك ليس واجبًا في شرعه الذي شرعه لكافة العِباد؟ وإذا علمَ ذلك فلِمَ تاب عنه بتركه؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثِّرًا في قلبه أثرًا يمنعه من بلوغ المقام المحمود الذي قد وُعِد به) الذي يحمده فيه الأوَّلون والآخِرون؟ (أفترىٰ أن الصدِّيق] بعد أن شرب اللبن) من يد غلامه (وعلم أنه علىٰ غير وجهه) لأنه أخبره عن أصله (أدخل إصبعه في حلقه ليخرجه حتىٰ كاد أن تخرج معه روحه) أخرجه أبو نعيم في الحلية، وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام (ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما تناوله) وفي نسخة: ما أكله (عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوىٰ الفقه إخراجُه) بالقيء؟ (فلِمَ تاب من شربه بالتدارُك علىٰ حسب إمكانه بتخلية المعدة منه؟ وهل كان ذلك إلا لسرٍّ وقر في صدره) لِما ورد: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، وإنما سبقكم بسرٍّ وقر في صدره»، وقد تقدم في كتاب العلم (عرَّفه ذلك السرُّ أن فتوىٰ العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصدِّيقون؟ فتأملْ) أيها المصرُّ (أحوالَ هؤلاء الذين هم أعرَفُ خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرَّك الحياةُ الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرَّك بالله الغَرُور) أي الشيطان (فهذه أسرارٌ مَن استنشق مبادي روائحها) وكان صحيح الشم للحقائق (علمَ أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالىٰ في كل نفَس من أنفاسه) لا تفارقه في سائر أحواله في بدايته ووسطه ونهايته (ولو عُمِّر عمر نوح) عليه السلام وهو ألف سنة وخمسمائة، وقد يُضرَب به المثل في التعمير (وأن ذلك واجب علىٰ الفور من غير مهلة) ولا تراخٍ (ولقد صدق أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالىٰ (حيث قال: لو لم يبكِ العاقل فيما بقي من عمره إلا علىٰ فوات) وفي نسخة: فوت. وفي أخرىٰ: تفويت (ما مضىٰ منه في غير الطاعة لكان خليقًا) أي جديرًا (أن يحزنه ذلك إلىٰ الممات، فكيف بمَن يستقبل ما بقي من عمره بمثل

ما مضىٰ من جهله)[1] أورده صاحب القوت (وإنما قال) أبو سليمان (هذا) الذي قال (**لأن العاقل إذا ملك جوهرةً نفيسة**) رفيعة (**فضاعت منه بغير فائدة**) تؤول منها إليه (**بكىٰ عليها لا محالة، فإن ضاعت منه وكان ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه من ذلك أشد**) من الأول (**وكل ساعة من العمر بل كل نفَس**) من أنفاسه (**جوهرة نفيسة لا خُلف لها ولا بدل منها فإنها صالحة لأن توصلك إلىٰ سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأيُّ جوهرة**) توجد في الدنيا (**أنفس من هذا**) وأعلىٰ من هذا (**فإذا ضيَّعتَها في الغفلة**) عن الله تعالىٰ (**فقد خسرتَ خسرانًا مبينًا، وإن صرفتَها إلىٰ معصية فقد هلكتَ هلاكًا فاحشًا، فإن كنت لا تبكي علىٰ هذه المعصية فذلك لجهلك**) عنها (**ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة، لكن الجهل مصيبة لا يعرف المُصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته، والناس نيام**) في غفلتهم (**فإذا ماتوا انتبهوا**) كما رُوي ذلك من قول علي رضي الله عنه، وتقدم في كتاب العلم (**فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسُه، ولكل مصاب مصيبته، وقد وقع اليأس عن التدارُك**) لفوات وقته (**قال بعض العارفين: إن ملَك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة، وأنك لا تتأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها**) من أولها إلىٰ آخرها (**لخرج منها علىٰ أن يضم إلىٰ تلك الساعة ساعةً أخرىٰ ليستعتب فيها ويتدارك فيها تفريطه فلا يجد إلىٰ ذلك سبيلاً**) نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: ويقال إن ملك الموت ... إلخ (**وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾**) [سبأ: ٥٤] قيل: التوبة، وقيل: الزيادة في العمر، وقيل: حُسن الخاتمة. فإذًا كل ساعة تمضي علىٰ العبد تكون بمنزلة هذه الساعة، قيمتها الدنيا كلها إذا عرف قيمة ذلك، فلذلك قيل: ليس لِما بقي من عمر العبد قيمة إذا عرف وجه التقدير من الله تعالىٰ بالتصريف والحكمة (**وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿مِّن**

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٧٥، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٤٧.

قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾) أي أزكِّي (﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾) [المنافقون: ١٠] وقيل: أول من يسأل الرجعة من هذه الأمَّة مَن لم يكن أدَّىٰ زكاة ماله ولم يكن حج بيتَ ربه(١)، فذلك تأويل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ وكان ابن عباس يقول: هذه الآية من أشد شيء علىٰ أهل التوحيد. هذا لقوله في أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقيل: لا يسأل عبدٌ الرجعةَ عند الموت وله عند الله مثقال ذرَّة من خير. وفي معناه الخبر: «مَن كان له عند الله في الآخرة مثقال ذرَّة [من خير] لو أن له الدنيا وما فيها [من أولها إلىٰ آخرها] لم يحبَّ أن يعود إليها» (﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾) [المنافقون: ١١] وقد اختُلف في هذه الآية (**فقيل: الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء: يا ملَك الموت، أخِّرني يومًا أعتذر فيه إلىٰ ربي**) ولفظ القوت: أعتب فيه ربي (**وأتوب وأتزوَّد صالحًا لنفسي. فيقول**) ملَك الموت: (**فنيت الأيام فلا يوم. فيقول**) العبد: (**فأخِّرني ساعة. فيقول: فنيت الساعاتُ فلا ساعة**) فتبلغ الروحُ الحلقومَ فيؤخَذ بكَظْمه عند الغرغرة (**فيُغلَق عليه باب التوبة**) ويُحجَب عنه (**فيغرغر بروحه، وتتردَّد أنفاسه في شراسيفه**) وهي عظام الحلق(٢)، وتنقطع الأعمال، وتذهب الأوقات (**ويتجرَّع غُصَّة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة علىٰ تضييع العمر**) النفيس، ويشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ٢٢/ ٦٧٣ عن ابن عباس بلفظ: «هو الرجل المؤمن إذا نزل به الموت وله مال لم يزكه ولم يحج منه ولم يعط حق الله فيه، فيسأل الرجعة عند الموت ليتصدق من ماله ويزكي». وروىٰ مثله أيضا عن الضحاك بن مزاحم.

(٢) في تاج العروس ٢٣/ ٤٩١: «الشُّرسوف: غضروف معلق بكل ضلع، مثل غضروف الكتف، كما في الصحاح. أو هو مقط الضلع، وهو الطرف المشرف علىٰ البطن؛ نقله الجوهري أيضا، والجمع: شراسيف. وقال ابن الأعرابي: الشرسوف: رأس الضلع مما يلي البطن. وقال ابن سيده: الشرسوف: ضلع علىٰ طرفها غضروف».

فيحتدُّ بصرُه (**فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا**) كان في آخر نفَس و(**زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنىٰ**) ولفظ القوت: فيدركه ما سبق له من السعادة (**فتخرج روحه علىٰ التوحيد، وذلك حُسن الخاتمة. وإن سبق له القضاءُ بالشقاوة والعياذ بالله**) تعالىٰ (**خرجت**) ولفظ القوت: أو يدركه ما سبق له من الشقاوة فتخرج (**روحه علىٰ الشك والاضطراب**) ولفظ القوت: علىٰ الشرك بالشك (**وذلك سوء الخاتمة. ولمثل هذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾**) [النساء: ١٨] قيل: هو المنافق [وقيل]: المدمن علىٰ المعاصيٰ، المصرُّ عليها. وروىٰ الطبراني في الكبير[1] من حديث ابن مسعود: «إن العبد يولَد مؤمنًا ويعيش مؤمنًا ويموت كافرًا، وإن العبد يولَد كافرًا ويعيش كافرًا ويموت مؤمنا، وإن العبد لَيعملُ بُرهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كُتِب له فيموت شقيًا، وإن العبد لَيعملُ بُرهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كُتب له فيموت سعيدًا».

(**بل**[2]: **﴿ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾**) [النساء: ١٧] قيل: قبل الموت وقبل ظهور آيات الآخرة وقبل الغرغرة؛ لأنه تعالىٰ حكم أن التوبة بعد ظهور أعلام الآخرة لا تنفع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل معاينة الآيات ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ قيل: التوبة هي كسبُ الإيمان وأصول الخيرات، وقيل: الأعمال الصالحة وهي [مزيد] الإيمان وعلامة الإيقان (و) قيل في قوله ﴿مِن قَرِيبٍ﴾: (**معناه: عن قُرب عهدٍ بالخطيئة**) لا يتمادىٰ فيها، ولا يتباعد عن التوبة (**بأن يتندَّم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها**) بأن يُعقِب الذنبَ عملاً صالحًا ولا يردفه ذنبًا آخر، وأن يخرج من السيئة إلىٰ الحسنة ولا يدخل في سيئة

---

(١) المعجم الكبير ١٠/ ٢٧٦.

(٢) في المطبوعة وط الشعب ١١/ ٢٠٨٧: وقوله تعالىٰ: «إنما».

أخرىٰ (**قبل أن يتراكم الرين علىٰ القلب**) فيصير طبعًا (**فلا يقبل المحوَ**) أصلاً (**ولذلك قال ﷺ**) لمعاذ بن جبل حين قال له: أوصني. فقال: خالِق الناسَ بخُلق حسن و(**أتبع السيئة الحسنة تمحُها**) وقد تقدم قريبًا (**ولذلك قال لقمان لابنه: [يا بني]**[1] **لا تؤخِّر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة**) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده والبيهقي[2] عن عثمان بن زائدة.

(**ومَن ترك المبادرة إلىٰ التوبة بالتسويف**) أي المطل والتأخير، وأصله أن يقول لمَن وعده بالوفاء: سوف أفعل مرة بعد أخرىٰ (**كان بين خطرين عظيمين، أحدهما: أن تتراكم الظلمة علىٰ قلبه من المعاصي حتىٰ تصير رينًا وطبعًا فلا تقبل المحوَ. الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، ولذلك ورد في الخبر: إن أكثر صياح أهل النار من التسويف**) قال العراقي[3]: لم أجد له أصلاً (**فما هلك مَن هلك إلا بالتسويف**) وفي القوت: حقيقة التوبة أن لا يسوِّف أبدًا، إنما يلزم أنها في الوقت[4] (**فيكون تسويده للقلب**) بتلك المعاصي (**نقدًا**) حاضرًا (**وجلاؤه بالطاعة نسيئة**) وما يزال كذلك (**إلىٰ أن يخطفه الأجل**) بسرعة (**فيأتي اللهَ**) يوم العرض (**بقلب غير سليم**) من الغش (**ولا ينجو إلا مَن أتىٰ اللهَ بقلب سليم، والقلب أمانة الله عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمَن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمرُه مخطر**) جدًّا (**قال بعض العارفين**) من الصوفية: (**إن الله عَزَّ وَجَلَّ أَسَرَّ إلىٰ عبده سرَّين**[5] **يسرُّهما**

---

(١) زيادة من الجميع.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٣٧١، وهو عند ابن أبي الدنيا في التوبة (٢٩)، ومن طريقه أخرجه البيهقي في الشعب.

(٣) المغني ٢/ ٩٨٥. قلتُ: أخرج ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٢٠٩) عن ابن المبارك قال: بلغني أن أكثر تلاقع أهل النار: أف لسوفَ، أف لسوفَ. يعني: أكثر كلام أهل النار أف لسوف.

(٤) في القوت: «إنما يلزم نفسه الحال في الوقت».

(٥) في الجميع: إن لله تعالىٰ إلىٰ عبده سرين.

إليه علىٰ سبيل الإلهام) ولفظ القوت: إن الله تعالىٰ أسرَّ إلىٰ عبده سرين يسرُّهما إليه، يوجده ذلك بإلهام يلهمه (**أحدهما: إذا**) وُلد و(**خرج من بطن أمه يقول له: عبدي، قد أخرجتك إلىٰ الدنيا طاهرًا**) سويًّا (**نظيفًا، واستودعتك عمرك، وائتمنتك عليه**) ولفظ القوت: لتمسك عليه (**فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني**) به كما أخرجتك (و) السر (**الثاني: عند خروج روحه يقول له: عبدي، ماذا صنعتَ في أمانتي عندك؟ هل حفظتَها حتىٰ تلقاني علىٰ العهد**) والرعاية (**فألقاك علىٰ الوفاء**) ولفظ القوت: بالوفاء والجزاء (**أو ضيَّعتَها فألقاك بالمطالبة والعقاب**).

(**وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾) [البقرة: ٤٠] قيل: العهد علىٰ أمانة عبده إن كان حفظها[1] فقد أدَّىٰ الأمانة، وإن كان ضيَّعها فقد خان الله، والله لا يحب الخائنين (**وبقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾) [المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢] ويُروَىٰ عن ابن عباس مرفوعًا: «مَن ضيَّع فرائض الله خرج من أمانة الله». وإذ قد فهمتَ ما ساقه المصنف في هذا الفصل ظهر لك أنه لا نهاية لمراتب التوبة ومراقيها، وتسمية هذا الفصل بالإنابة أَولىٰ؛ لأن حقيقة الإنابة تكرار الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ وإن لم يتقدمها ذنبٌ. والله أعلم.

(١) في القوت: عمر العبد أمانة عنده إن حفظه ... الخ.

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

بفضل الله تعالىٰ لا بطريق الوجوب؛ إذ لا يجب شيء علىٰ الخالق؛ لأنه لا يرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٥] هذا حاصل ما ذكره المصنف في هذا الفصل، وقد أخَّر تلك الشرائطَ، وكان الأَولىٰ تقديمها حتىٰ يكون ما في هذا الفصل كالمتمِّم له، والإيمان بهذا واجب؛ لأنه من عقود الإيمان بالله تعالىٰ.

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (**أنك إذا فهمت معنىٰ القبول لم تشكَّ في أن كل توبة صحيحة**) وهي المستجمعة الشروط والأركان (**فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر**) وهو المُفاض علىٰ القلوب (**المستمِدُّون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم**) من المعاصي (**مقبول عند الله تعالىٰ، ومتنعِّم في الآخرة في جوار الله تعالىٰ، ومستعدٌّ لأن ينظر بعينه الباقية إلىٰ وجه الله تعالىٰ، وعلموا**) أيضًا (**أن القلب خُلق سليمًا في الأصل**) أي في الفطرة الأصلية (**وكل مولود يولَد علىٰ الفِطرة**) كما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وتمامه: «فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويشرِّكانه ...» الحديث، وقال: حسن صحيح. وقد تقدم (**وإنما تفوته السلامةُ بكدورة ترهق وجهَه**) أي تعلوه (**من غبرة الذنوب وظلمتها**) وروىٰ أحمد من حديث جابر: «كل مولود يولَد علىٰ الفِطرة حتىٰ يعرب عنه لسانُه، فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكرًا وإما كفورًا»[1] (**وعلموا أن نار الندم**) المتولِّدة من التوجُّع (**تحرق تلك الغبرةَ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمةَ السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار**) بل ينسخه ويمحوه (**بل كما لا**

(١) حديث أبي هريرة وحديث جابر تقدما في كتاب عجائب القلب.

طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون) المتخَذ من القليٰ والجير والزيت (وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالىٰ ولا) يليق (أن يكون في جواره) وحظيرته (وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوبَ) ويدنِّسه (وغسله بالصابون والماء الحار ينظِّفه لا محالة) ويزيل وسخه (فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهِّره ويزكِّيه، وكل قلب زكيٍّ طاهر فهو مقبول، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول، فإنما عليك التزكية والتطهير) من الأدناس والأرجاس (وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزليُّ الذي لا مَرَدَّ له، وهو المسمَّىٰ فلاحًا في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾) [الشمس: ٩] أي طهَّرها، أي نفسه من الشهوات الخفيَّة (ومَن لم يعرف علىٰ سبيل التحقيق معرفةً) هي (أقوىٰ وأجلىٰ من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثَّر بالمعاصي والطاعات تأثُّرًا متضادًّا يُستعار لأحدهما لفظ «الظلمة» كما يستعار للجهل) بجامع عدم الاهتداء (ويستعار للآخر لفظ «النور» كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضادًّا ضروريًّا لا يُتصور الجمع بينهما، فكأنَّه لم يعرف من الدين إلا قشوره، ولم يَعلق به إلا أسماؤه) يقال: علقَ: إذا لصق (وقلبه في غطاء كثيف) أي غليظ (عن) معرفة (حقيقة الدين، بل) هو في غطاء (عن) معرفة (حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومَن جهل نفسه فهو بغيره أجهلُ، وأعني به) أي بغيره (قلبَه؛ إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه؟ فمَن يتوهَّم أن التوبة تصح ولا تُقبَل كمَن يتوهَّم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول) هذا لا يكون (و) كمَن يتوهَّم أن (الثوب يُغسَل بالصابون والوسخُ لا يزول) اللهم (إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكُمه في تجاويف الثوب وخلله) أي أثنائه (فلا يقوىٰ الصابونُ علىٰ قلعه، ومثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتىٰ تصير طبعًا ورينًا علىٰ القلب، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب) ولا ينجع فيه تأثير، ولا يوفَّق بعده لخير. وقال مجاهد: القلب مثل الكف المفتوحة، كلما أذنب ذنبًا انقبضت أصبع، حتىٰ تنقبض الأصابع كلها فتشتبك علىٰ القلب،

فذلك هو القفل. وسيأتي هذا للمصنف قريبًا. ويقال: إن لكل ذنب نباتًا ينبت في القلب، فإذا كثرت الذنوب تكاثف النبات حول القلب مثل الكم للثمرة فانضمَّ على القلب، فذلك [هو] الغلاف، ويقال: [إنه] الكِنان، واحد الأكِنَّة التي ذكر الله أن القلب لا يسمع معها ولا يفقه (نعم، قد يقول باللسان): إني (تبت) الآن (فيكون ذلك كقول القَصَّار بلسانه: قد غسلت الثوب، وذلك) أي مجرد هذا القول (لا ينظِّف الثوبَ أصلاً ما لم يغيِّر صفةَ الثوب باستعمال ما يضادُّ الوصفَ المتمكِّن به) الراسخ فيه (فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين) بهَمهم (على الدنيا، المعرضين عن الله بالكلِّية) وحاصل الكلام أن[1] توبة العبد إذا وقعت على الوجه المعتبَر شرعًا فهي مقبولة، إلا أنها إذا كانت توبة الكافر من كفره فهي مقطوع بقبولها، وإن كانت سواها من أنواع التوبة فهل قبولها مقطوع به أو مظنون؟ فيه خلاف لأهل السنَّة، واختار إمام الحرمين أنه مظنون[2]. قال النووي[3]: وهو الأصح. قال القشيري في الرسالة: التائب من الذنب على يقين، ومن قبول التوبة على خطر، فينبغي أن يكون دائم الحذر.

(فهذا البيان كافٍ عند ذوي البصائر) والعقول (في قبول التوبة) ولا يفتقر بعده إلى تنبيه (ولكنا نعضد جناحَه بنقل الآيات والأخبار والآثار) ليتأيَّد بها (فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنَّة لا يوثَق به، وقد قال تعالى) في كتابه العزيز: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] إلى غير ذلك من الآيات) كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤] وكقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآية [النساء: ١٧] وكقوله فيمَن رمى بنفسه في وهدة الكفر: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ٩٠] وكقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:

---

(١) طرح التثريب للعراقي ٨/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) انظر: الإرشاد للجويني ص٤٠٤.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٧/ ٩٤.

٢٧] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والمحبة وراء القبول.

(وقال ﷺ: **للهُ أفرحُ بتوبة أحدكم**[١] ... **الحديث**) أي إلىٰ آخره، وقد تقدم قريبًا من رواية مسلم وغيره (**والفرح وراء القبول، فهو دليل علىٰ القبول وزيادة**) وقد تقدم أن الفرح لغةً: استرواح الصدر بلذَّة عاجلة، وهو مُحال في حقه تعالىٰ، وإنما أريدَ بذلك الرضا والقبول تأكيدًا للمعنىٰ في ذهن السامع ومبالغةً في تقريره.

(وقال ﷺ: **إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلىٰ النهار، ولمسيء النهار إلىٰ الليل**) ولا يزال كذلك (**حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**) فإذا[٢] طلعت أُغلِق باب التوبة، يعني يقبل التوبة من العِباد[٣] ليلًا ونهارًا.

قال العراقي[٤]: رواه مسلم[٥] من حديث أبي موسىٰ بلفظ: «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ...» الحديث. وفي رواية للطبراني: «لمسيء الليل أن يتوب بالنهار ...» الحديث. انتهىٰ.

قلت: لفظ مسلم: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها». وهكذا رواه أحمد[٦] وابن أبي شيبة[٧] والنسائي[٨] والدارقطني[٩] والبيهقي في الصفات[١٠] وأبو

(١) في أ، وط المنهاج ٧/ ٤٨: عبده المؤمن. وفي ب: بتوبة العبد.
(٢) فيض القدير ٢/ ٢٨١.
(٣) في الفيض: من العصاة.
(٤) المغني ٢/ ٩٨٥.
(٥) صحيح مسلم ٢/ ١٢٦٥.
(٦) مسند أحمد ٣٢/ ٢٩٥، ٣٩٦.
(٧) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٤٠٨.
(٨) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٩٨.
(٩) الصفات ص ٢٠ (ط - مكتبة الدار بالمدينة المنورة).
(١٠) الأسماء والصفات ٢/ ١٣١.

الشيخ في العظمة(١).

وأما لفظ الطبراني الذي أشار إليه العراقي فرواه في الأوسط(٢) من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر بلفظ: «إن الله يعرض علىٰ عبده في كل يوم نصيحةً، فإن هو قبلها سعدَ، وإن تركها شقيَ، فإن الله باسط يده بالليل لمسيء النهار ليتوب، فإن تاب تاب الله عليه، وباسط يده بالنهار لمسيء الليل [ليتوب] فإن تاب تاب الله عليه ...» الحديث. ورواه كذلك ابن عساكر(٣) وابن شاهين عن ابن جريج عن الزهري مرسلاً.

(**وبسطُ اليد كناية عن طلب التوبة**) وقبولها، وهو في حقه تعالىٰ عبارة عن التوسُّع في الجود، والتنزُّه عن المنع عند اقتضاء الحكمة (**والطالب وراء القابل، فرُب قابل ليس بطالب**) فقبوله وإقباله علىٰ قدر حاله (**ولا طالب إلا وهو قابل**) ففي الطلب قبول وزيادة عليه.

(**وقال ﷺ: لو عملتم الخطايا حتىٰ تبلغ السماءَ**) أي لكثرتها وتراكُم بعضها علىٰ بعض (**ثم ندمتم لتاب الله عليكم**) قال العراقي(٤): رواه ابن ماجه(٥) من حديث أبي هريرة بلفظ «لو أخطأتم»، وقال: «ثم تبتم»، وإسناده حسن. انتهىٰ.

قلت: لفظ ابن ماجه: «لو أخطأتم حتىٰ تبلغ خطاياكم السماءَ ثم تبتم لتاب الله عليكم». قال المنذري(٦): إسناده جيد.

وأخرج ابن زنجويه في فوائده عن الحسن بلاغًا: «لو أخطأ أحدكم حتىٰ تملأ

---

(١) العظمة ٢/ ٤٣٠، ٤٣٢.

(٢) المعجم الأوسط ٧/ ٣٦٠ - ٣٦١، وليس فيه أول الحديث، بل من قوله (إن الله باسط يده).

(٣) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٤) المغني ٢/ ٩٨٥.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٣٩.

(٦) الترغيب والترهيب ص ١١٣٨ - ١١٣٩.

خطئيته ما بين السماء والأرض ثم تاب لتاب الله عليه».

وروىٰ أحمد[١] وأبو يعلىٰ[٢] والضياء[٣] من حديث أنس: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتىٰ تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله لغفر لكم ...» الحديث، ورجاله ثقات.

ورواه ابن زنجويه من حديث أبي هريرة بلفظ: «والذي نفسي بيده لو أنكم تخطئون حتىٰ تبلغ خطاياكم السماءَ ثم تتوبون لتاب الله عليكم» وفي أوله زيادة[٤].

(وقال) ﷺ **(أيضًا: إن العبد)** أي[٥] الإنسان **(لَيذنبُ)** أي لَيوقِعُ ويفعل **(الذنب فيدخل به)** أي بسببه **(الجنة)** لأن الذنب مستجِلب للتوبة والاستغفار الذي هو موقع محبة الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ومَن أحبه لم يدخله النار **(قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون)** ذنبه **(نصب عينيه)** أي مستحضرًا له كأنه يشاهده أبدًا **(تائبًا)** إلىٰ الله **(منه فارًّا)** منه إليه **(حتىٰ يدخل)** به **(الجنة)** لأنه كلما ذكره طار عقله حياءً من ربه، حيث فعله وهو بمَرأىٰ منه ومَسمع، فيجدُّ في توبته ويتضرَّع في إنابته بخاطر منكسر وقلب حزين، والله تعالىٰ يحب كل قلب حزين، ومَن أحبه أدخله جنَّته ورفع منزلته.

قال العراقي[٦]: رواه ابن المبارك في الزهد[٧] عن المبارك بن فضالة عن

---

(١) مسند أحمد ٢١/ ١٤٦.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٢٢٦.

(٣) الأحاديث المختارة ٤/ ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٤) وهي: «لو أنكم لا تذنبون فتستغفرون الله فيغفر لكم لذهب بكم ثم جاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

(٥) فيض القدير ٢/ ٣٦٩.

(٦) المغني ٢/ ٩٨٥ - ٩٨٦.

(٧) الزهد والرقائق ص ٨٦.

الحسن مرسلاً. ولأبي نعيم في الحلية[١] من حديث أبي هريرة: «إن العبد لَيذنبُ الذنب فإذا ذكره أحزنه، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له ...» الحديث، وفيه صالح المُرِّي، وهو رجل صالح، لكنه مضعَّف في الحديث. ولابن أبي الدنيا في التوبة[٢] من حديث ابن عمر: «إن الله ينفع العبدَ بالذنب يذنبه»، والحديث غير محفوظ؛ قاله العقيلي[٣]. انتهىٰ.

قلت لفظ أبي نعيم: «غفر له ما صنع»، وتمامه: «قبل أن يأخذ في كفَّارته بلا صلاة ولا صيام». وقد رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان وابن عساكر[٤] كلاهما من طريق عيسىٰ بن خالد عن صالح المري عن هشام عن محمد عن أبي هريرة. قال أبو نعيم: غريب من حديث هشام وصالح، لم نكتبه إلا من حديث عيسىٰ.

(وقال ﷺ: **كفَّارة الذنب الندامة**) أي[٥] ندامة تغطي ذنبه، والكفارة عبارة عن الفعلة أو الخصلة التي من شأنها أن تكفِّر الخطيئةَ، وهي فَعَّالة للمبالغة كضرَّابة وقتَّالة، وهي من الصفات الغالبة في الاسمية؛ قاله الطيبي[٦]. وقال رزين: وكون الندامة تكفر الذنب خصيصة لهذه الأمة، وكانت بنو إسرائيل إذا أخطأ أحدهم حُرِّم عليه كل طيب من الطعام، وتصبح خطيئته مكتوبة علىٰ باب داره.

والحديث، قال العراقي[٧]: رواه أحمد[٨] والطبراني[٩] والبيهقي في الشعب[١٠]

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ١٧٦، ٢٧٥.
(٢) التوبة ص ١٤٤.
(٣) الضعفاء الكبير ٤/ ١٣٩٧.
(٤) تاريخ دمشق ١٣/ ٢٩.
(٥) فيض القدير ٥/ ٦.
(٦) الكاشف عن حقائق السنن ٣/ ٨٨٨، ٩٤٦.
(٧) المغني ٢/ ٩٨٦.
(٨) مسند أحمد ٤/ ٣٧٩.
(٩) المعجم الكبير ١٢/ ١٧٢.
(١٠) شعب الإيمان ٩/ ٢٦٦.

من حديث ابن عباس، وفيه يحيىٰ بن عمرو بن مالك النُّكْري، ضعيف. انتهىٰ.

قلت: ولكن للحديث بقية وهي: «ولو لم تذنبوا لأتىٰ الله بقوم يذنبون فيغفر لهم». ويحيىٰ بن عمرو بن مالك من رجال الترمذي، قال الذهبي[1]: كان حماد ابن زيد يرميه بالكذب. وأبوه عمرو بن مالك كان يسرق الحديث[2]. وقد رواه القضاعي أيضًا في مسند الشهاب[3]، وكلهم من هذا الطريق عن أبي الجوزاء عن ابن عباس.

(وقال ﷺ: **التائب من الذنب كمَن لا ذنب له**) رواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم الكلام عليه قريبًا.

(**ويُروَىٰ أن حبشيًّا قال: يا رسول الله، إني كنت أعمل الفواحش، فهل لي من توبة؟ قال: نعم. فولَّىٰ**) منصرفًا (**ثم رجع**) علىٰ يديه (**فقال: يا رسول الله، أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: نعم. فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه**)[4] حياءً من الله تعالىٰ وحشمة منه طار به عقله ثم تبعته روحُه. قال العراقي[5]: لم أجد له أصلاً.

(**ويُروَىٰ**) في بعض الأخبار (**أن الله لما لعن إبليس سأله النَّظِرة**) بكسر الظاء، أي الإمهال، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦﴾ [الحجر: ٣٦، ص:

---

(١) ميزان الاعتدال ٤/ ٣٩٩.

(٢) هكذا نقله الذهبي في ديوان الضعفاء ص ٣٠٥ عن ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٩٩، ولكنه ذكر في ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨٦ والمغني ٢/ ٧٢ أن عمرو بن مالك النكري ثقة، وأن الذي كان يسرق الحديث هو عمرو بن مالك الراسبي.

(٣) مسند الشهاب ١/ ٨١.

(٤) هذا الحديث أورده ابن الجوزي في كتاب تنوير الغبش في فضل السودان والحبش ص ١٤٧ (ط - دار الشريف بالرياض) وقال: «رواه أبو طاهر ابن العلاف في كتابه زهر الرياض».

(٥) المغني ٢/ ٩٨٦.

(فأنظره إلىٰ يوم القيامة) وذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧﴾ [الحجر: ٣٧، ص: ٨٠] **(فقال)** إبليس: **(وعزَّتك، لا خرجتُ من قلب ابن آدم ما دامت فيه الروح)** أي أصحبه إلىٰ آخر أنفاسه وأغويه **(فقال الله تعالىٰ: وعزَّتي وجلالي لا حجبتُ عنه التوبة ما دامت فيه الروح)** قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] وأبو يعلىٰ[٣] والحاكم[٤] وصحَّحه من حديث أبي سعيد: «إن الشيطان قال: وعزَّتك يا رب لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال: وعزَّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». أورده المصنف بصيغة «ويُروَىٰ كذا»، ولم يعزِه إلىٰ النبي ﷺ، فذكرته احتياطًا. انتهىٰ.

قلت: ورواه كذلك ابن زنجويه وعبد بن حميد[٥] والضياء.

(وقال ﷺ: إن الحسنات يُذهِبن السيئات كما يُذهِب الماءُ الوسخَ) قال العراقي[٦]: لم أجده بهذا اللفظ، وهو صحيح المعنىٰ، وهو بمعنىٰ «أتبع السيئة الحسنة تمحُها»، رواه الترمذي، وتقدم قريبًا.

قلت: بل روىٰ أبو نعيم في الحلية[٧] من حديث شداد بن أوس: «إن التوبة تغسل الحوبة، وإن الحسنات يُذهِبن السيئات ...» الحديث. فلعل المصنف أشار إلىٰ هذا.

(والأخبار في هذا) الباب، يعني قبول التوبة **(لا تُحصَىٰ)** لكثرتها، ومن ذلك قوله

---

(١) السابق ٢/ ٩٨٦.
(٢) مسند أحمد ١٧/ ٣٣٧، ٣٤٤، ٤٦١، ١٨/ ٢٥٣.
(٣) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٤٥٨، ٥٣٠.
(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٩٣.
(٥) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٩٨.
(٦) المغني ٢/ ٩٨٧.
(٧) حلية الأولياء ١/ ٢٧٠، ٥/ ١٨٩.

ﷺ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب». قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: «تخرج النفس وهي مشركة». رواه أحمد(١) والبخاري في التاريخ(٢) وأبو يعلىٰ وابن حبان(٣) والبغوي في الجعديات(٤) والحاكم(٥) والضياء من حديث أبي ذر.

وقوله ﷺ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يفتح أبواب السماء الدنيا، ثم يبسط يده: ألا عبد يسألني فأعطيه؟ فلا يزال كذلك حتىٰ يسطع الفجرُ». رواه ابن عساكر(٦) من حديث ابن مسعود.

وقوله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». رواه ابن زنجويه والحاكم(٧) والبيهقي(٨) من حديث ابن عمر.

ورواه ابن جرير(٩) من حديث عُبادة ومن حديث أبي أيوب بُشَير بن كعب.

ورواه ابن زنجويه وابن جرير(١٠) عن الحسن بلاغًا.

ورواه أحمد عن رجل من الصحابة بلفظ: «ما لم يغرغر بنفسه». وفي رواية له: «قبل أن يموت بضَحْوة». وفي أخرىٰ له: «قبل أن يموت بنصف يوم». وفي

(١) مسند أحمد ٣٥/ ٤١١ - ٤١٢.
(٢) التاريخ الكبير ٢/ ١٦١.
(٣) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٤.
(٤) مسند ابن الجعد ص ١١٧٣.
(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٨٩.
(٦) تاريخ دمشق ٥٥/ ٢٣٧.
(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٨٩.
(٨) شعب الإيمان ٩/ ٢٨٢.
(٩) جامع البيان ٦/ ٥١٤ - ٥١٥.
(١٠) السابق ٦/ ٥١٥.

أخرىٰ له: «قبل أن يموت بيوم»[١].

ورواه[٢] من حديث أبي ذر بلفظ: «إن الله يقول: يا عبدي، ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك علىٰ ما كان فيك. ويا عبدي، إن لقيتَني بقُراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي لقيتك بقُرابها مغفرةً».

وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من أحد يتوب قبل موته بيوم إلا قَبِلَ الله توبتَه». رواه البغوي عن رجل من الصحابة.

وقوله ﷺ: «ما من عبد [مؤمن] يتوب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ قبل الموت بشهر إلا قَبِل الله منه وأدنىٰ من ذلك قبل موته بيوم أو ساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إلا قبلَ اللهُ منه». رواه الطبراني[٣] من حديث ابن عمر.

وقوله ﷺ: «مَن تاب قبل موته بعام تِيبَ عليه، حتىٰ قال بشهر، حتىٰ قال بجمعة، حتىٰ قال بيوم، حتىٰ قال بساعة، حتىٰ قال بفواق». رواه الحاكم[٤] والبيهقي[٥] والخطيب في المتفق والمفترق[٦] من حديث ابن عمرو.

---

(١) هذه الروايات أخرجها أحمد في مسنده ٢٤/ ٢٥٦، ٣٨/ ١٦٦ - ١٦٧ في سياق واحد عن عبد الرحمن ابن البيلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم. فقال الثاني: آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم. فقال الثالث: آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة. فقال الرابع: آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه».

(٢) مسند أحمد ٣٥/ ٢٩٦.

(٣) المعجم الكبير ١٢/ ٤٤٣.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٩١.

(٥) شعب الإيمان ٩/ ٢٨٥.

(٦) المتفق والمفترق ص ٢٣٢.

(**وأما الآثار، فقد قال سعيد بن المسيب**) رحمه الله تعالىٰ: (**أُنزِل قوله تعالىٰ**: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾ [الإسراء: ٢٥] **في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب**)[١] وقال سعيد بن جبير: للأوابين: الرجَّاعين إلىٰ الخير. أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة[٢]. وقال الضحاك: نزلت في الراجعين من الذنب إلىٰ التوبة، ومن السيئات إلىٰ الحسنات. أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب[٣].

(**وقال الفضيل**) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (**قال الله تعالىٰ: بشِّر المذنبين بأنهم إن تابوا**) إليَّ (**قبلتُ منهم**) توبتهم (**وحذِّر الصدِّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذَّبتهم**)[٤].

وقال طَلْق بن حبيب) العَنزي[٥] البصري العابد، قال أبو حاتم: صدوق في الحديث. وقال طاووس: هو ممَّن يخشىٰ الله. وقال مالك: بلغني أن طلقًا كان من العُبَّاد، وكان برًّا بأمه، وكان ممَّن دخل الكعبة في نفر كان الحجاج طلبهم فأخذهم وقتلهم. روىٰ له الجماعة إلا البخاري (**إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبِحوا تائبين، وأمسُوا تائبين**)[٦] أخرجه المزي في التهذيب، إلا أنه قال: أن

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٣١٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٣٠٦، وأبو داود في الزهد ص ٣٥١، والطبري في جامع البيان ١٤/ ٥٥٨.

(٢) التوبة ص ١٤٥.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ٣٦٧ مقتصرا علىٰ قوله (الراجعين من الذنب).

(٤) روي نحو ذلك عن عبد العزيز بن أبي رواد، رواه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٩٥ بلفظ: «أوحىٰ الله إلىٰ داود: يا داود، بشر المذنبين وأنذر الصديقين. فكأنه عجب فقال: رب أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟! قال: نعم، بشر المذنبين أن لا يتعاظمني ذنب أغفره لهم، وأنذر الصديقين أنهم احتجوا بأعمالهم فإني لا أضع عدلي وإحساني علىٰ عبد إلا هلك».

(٥) تهذيب الكمال ١٣/ ٤٥١ - ٤٥٤. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٤٩٠ - ٤٩١.

(٦) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٢١، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٩٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٦٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٢٩٠.

يقوم بها العِباد. وزاد بعده: وإن نعمه أكثر من أن تُحصَىٰ. والباقي سواء.

(وقال عبد الله بن عمر) ابن الخطاب (ﷺ: مَن ذكر خطيئة أَلَمَّ بها) أي فعلها ووقع فيها (فوجلَ منها قلبُه مُحيتْ عنه في أم الكتاب) أي اللوح المحفوظ، وذلك لأن الوجل إنما يحصل من الندم، والندم أعظم أركان التوبة، فهو أحرىٰ بأن تحقق به توبتُه وتُمحَىٰ بذلك خطيئته.

(ويُروَىٰ) في بعض الأخبار (أن نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل أذنب) ذنبًا (فأوحىٰ الله إليه: وعزَّتي لئن عدتَ لأعذِّبنَّك. فقال: يا رب، أنت أنت) في ربوبيَّتك (وأنا أنا) في عبوديَّتي (وعزَّتك إن لم تعصمني لأعودنَّ. فعصمه الله تعالىٰ.

وقال بعضهم: إن العبد لَيذنبُ الذنب) أي لَيفعلُه (فلا يزال نادمًا) أي متحسِّرًا علىٰ ما صدر منه (حتىٰ يدخل الجنة) بسبب حزنه عليه (فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب) وشاهدُه ما تقدم من حديث أبي هريرة عند أبي نعيم وابن عساكر قريبًا.

(وقال حبيب بن أبي ثابت) الأسدي[1] مولاهم، أبو يحيىٰ الكوفي، ثقة، فقيه جليل، مات سنة تسع عشرة ومائة، روىٰ له الجماعة، وأبو ثابت اسمه قيس بن دينار، وقيل: هند (تُعرَض علىٰ الرجل ذنوبه يوم القيامة، فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقًا منه) أي خائفًا (قال: فيُغفَر له)[2] أي بسبب إشفاقه منه في الدنيا، وهذا يدل علىٰ قبول التوبة.

(ويُروَىٰ أن رجلاً سأل ابن مسعود) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه فرأىٰ عينيه تذرفان) أي تسيلان بالدموع

---

(١) تقريب التهذيب ص ٢١٨.

(٢) رواه هناد في الزهد ٢/ ٤٥٩، وابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٨٦، ٣٨٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٤١٤. كلهم من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة بن عامر المكي.

(فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تُفتَح وتُغلَق إلا باب التوبة فإنه عليه ملَك موكَّل به لا يُغلَق) أبدًا (فاعملْ ولا تيأس)(١).

وروىٰ الطبرانيُ في الكبير(٢) من حديث صفوان بن عَسَّال: «إن للتوبة بابًا عرضُ ما بين مِصْراعيه ما بين المشرق والمغرب، لا يُغلَق حتىٰ تطلع الشمس من مغربها».

ولابن حبان(٣): «إن من قِبَل المغرب بابًا فتحه الله للتوبة مسيرةَ أربعين سنة يوم خلق الله السموات والأرض، فلا يغلقه حتىٰ تطلع الشمس منه».

ولابن ماجه(٤): «إن من قِبَل المغرب بابًا مفتوحًا عرضه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب مفتوحًا [للتوبة] حتىٰ تطلع الشمس من نحوه، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا».

ولابن زنجويه: «إن الله جعل بالمغرب بابًا مسيرةُ عرضِه سبعون عامًا للتوبة لا يُغلَق حتىٰ تطلع الشمس من قِبَله، وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾(٥) [الأنعام: ١٥٨].

وقول ابن مسعود السابق قد رُوي مرفوعًا بلفظ: «للجنة ثمانية أبواب، سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة لا يُغلَق حتىٰ تطلع الشمس من نحوه». أخرجه ابن أبي

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٣٠٦ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ص ١٠٧٥ وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٤١١ - ٤١٢ عن يعقوب بن غضبان اليشكري.

(٢) المعجم الكبير ٨/ ٧٨.

(٣) صحيح ابن حبان ٤/ ١٥٠.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٢٥.

(٥) ورواه بهذا اللفظ أيضا: أحمد في مسنده ٣٠/ ٢٤، والترمذي في سننه ٥/ ٥٠٦، والنسائي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٩٧.

الدنيا في صفة الجنة[١] وأبو يعلىٰ[٢] والطبراني[٣] والحاكم[٤].

(وقال عبد الرحمن بن القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم) بن يحيىٰ الدمشقي المعروف بالأسود[٥] (توبة الكافر وقول الله تعالىٰ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فقال: إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً) من الكافر (ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وقال عبد الله بن سلام) بالتخفيف[٦]، الإسرائيلي، أبو يوسف، رضي الله عنه، حليف الأنصار، قيل: كان اسمه الحصين فسمَّاه النبيُّ ﷺ عبد الله، مشهور، له أحاديث وفضل، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين (لا أحدِّثكم إلا عن نبي مرسَل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبًا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه) ذلك الذنب (أسرع من طرفة عين)[٧] وشاهدُه حديث أبي هريرة السابق ذِكره عند أبي نعيم: «فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له ما صنع».

(وقال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلىٰ التوابين، فإنهم أرق أفئدةً)[٨] ولفظ القوت: في

---

(١) صفة الجنة ص ١٦٧ (ط - مؤسسة الرسالة) مقتصرا علىٰ قوله «للجنة ثمانية أبواب».

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٨/ ٤٢٩.

(٣) المعجم الكبير ١٠/ ٢٥٤.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٩٣.

(٥) بل هو عبد الرحيم بن خالد بن يزيد الإسكندراني مولىٰ الجمحيين، كما ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك ٣/ ٥٤ (ط - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية).

(٦) تقريب التهذيب ص ٥١٤.

(٧) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٤/ ٣٤٨ وابن حبان في الثقات ٦/ ٤٥٦ والمحاملي في أماليه رواية ابن البيع ص ٢٤٠ بلفظ: «لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن عبدا لو أذنب كل ذنب ثم تاب إلىٰ الله قبل موته بيوم قبل منه».

(٨) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٧٩، وأحمد في الزهد ص ٩٩، وابن أبي الدنيا في التوبة ص ١١٧، وهناد في الزهد ٢/ ٤٥١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٥١، وابن حبان في روضة العقلاء ص ٣١.

الخبر: «جالِسوا التوابين، فإنهم أرق أفئدة». وسيأتي للمصنف قريبًا.

(**وقال بعضهم: أنا أعلم متىٰ يغفر الله لي. قيل: ومتىٰ؟ قال: إذا تاب عليَّ**) نقله صاحب القوت بلفظ: وكان بعضهم يقول: قد علمتُ. والباقي سواء.

(**وقال آخر: أنا من أن أُحَرم التوبة أخوف من أن أُحَرم المغفرة**) نقله صاحب القوت (**أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة**) فإذا حُرم التوبة حُرم المغفرة، فلذلك من حرمان التوبة كان أخوف.

(**ويُروَىٰ أنه كان في بني إسرائيل شاب عبدَ اللهَ تعالىٰ عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر**) وجهه يومًا (**في المرآة فرأىٰ الشيب في لحيته فساءه ذلك**) أي أحزنه (**فقال: إلهي، أطعتُك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعتُ إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرىٰ شخصه: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك**)[١] وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ [الإسراء: ٨] وفي الخبر: «ما أصرَّ مَن استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة».

(**وقال**) أبو الفيض (**ذو النون المصري رحمه الله تعالىٰ: إن لله عبادًا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب**) أي نصبوها بين أعينهم حيث ترمقها القلوب (**وسقوها بماء التوبة**) فتفرَّعت (**فأثمرت ندمًا وحزنًا، فجُنُّوا من غير جنون**) وفيهم قيل:

مجانيـن إلا أن سـر جنونهـم عزيز لـدىٰ إبدائه يسجد العقل[٢]

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٣٣٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٨/ ٢١٥ عن إبراهيم بن شيبان قال: كان عندنا شاب عبد الله عشرين سنة، فأتاه الشيطان فقال له: يا هذا، أعجلت في التوبة والعبادة وتركت لذات الدنيا، فلو رجعت فإن التوبة بين يديك. فرجع إلىٰ ما كان عليه من لذات الدنيا، فكان يوما في منزله قاعدا في خلوة فذكر أيامه مع الله ﷻ فحزن عليها فقال: ترىٰ إن رجعت يقبلني؟ فنودي أن يا هذا، عبدتنا فشكرناك، وعصيتنا فأمهلناك، ولئن رجعت إلينا قبلناك.

(٢) البيت لبدر الدين الحسن بن علي بن هود المغربي، وهو من أبيات أوردها له الصفدي في الوافي بالوفيات ١٢/ ٩٨ وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ٨/ ٢٣٩ (ط - دار الكتب العلمية).

(وتبلّدوا من غير عِيٍّ) أي حصرِ لسانٍ (ولا بُكْمٍ، وإنهم هم البلغاء الفصحاء، العارفون بالله ورسوله) فجنونهم وتبلُّدهم إنما هو علىٰ ظهر ما يُرَىٰ منهم (ثم شربوا بكأس الصفاء) فتصفَّت بواطنهم عن الجفاء (فورثوا الصبرَ علىٰ طول البلاء، ثم تولَّهت قلوبهم في الملكوت) الأعلىٰ (وجالت أفكارُهم بين سرايا حُجُب الجبروت) وهو عالَم الملائكة المقرَّبين (واستظلُّوا تحت رواق الندم، وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتىٰ وصلوا إلىٰ علو) مقام (الزهد بسلَّم الورع) والتقوىٰ (فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا) وفطموا نفوسهم عنها (واستلانوا خشونة المضجع حتىٰ ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا) والملأ الأعلىٰ (حتىٰ أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع) أي سدوها (وعبروا جسور الهوىٰ حتىٰ نزلوا بفناء العلم) الحقيقي، أي بساحته (واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا) أي رفعوا شِراعها (بريح النجاة) من الخوف (في بحر السلامة) من الكدر (حتىٰ وصلوا إلىٰ رياض الراحة) من التعب (ومعدن العز والكرامة)(1) في حظيرة القدس الأقدس. أورده ابن خميس في مناقب الأبرار في ترجمة ذي النون من طريق يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون المصري ... فذكر نحوه بطوله(2).

(فهذا القدر كافٍ في بيان أن كل توبة صحيحة) بشروطها (فمقبولة لا محالة.

فإن قلت: أفتقول ما قالت المعتزلة من أن قبول التوبة واجب علىٰ الله) تعالىٰ بناءً علىٰ قاعدة مذهبهم من رعاية الصالح والأصلح؟ (فأقول: لا أعني بما ذكرتُه من وجوب قبول التوبة علىٰ الله) تعالىٰ (إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غُسل بالصابون) مثلاً (وجب زوالُ الوسخ) عنه (وأن العطشان إذا شرب الماء

---

(1) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ١٧٠، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٤١٧.

(2) انظر نص ابن خميس في كتاب مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار ص ٨٥ - ٨٦ (ط - مركز زايد للتراث والتاريخ).

وجب زوالُ العطش) عنه **(وأنه إذا مُنع الماء مدةً وجب العطش، وأنه إذا دام العطش وجب الموتُ)** بيبس العروق ونفاد الرطوبة الغريزية **(وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب علىٰ الله تعالىٰ، بل أقول: خلق الله تعالىٰ الطاعة مكفِّرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش. والقدرة متسعة، بخلافه لو سبقت به المشيئةُ، فلا واجب علىٰ الله تعالىٰ، ولكن ما سبقت به الإرادة الأزلية فواجبٌ كونه لا محالة)** وقد سبق تقرير ذلك مع بيان قاعدة مذهبهم وما فرَّعوا عليها في كتاب قواعد العقائد فأغنانا عن الإعادة.

(فإن قلت: فما من تائب إلا وهو شاكٌّ في قبول توبته) ليس علىٰ يقين منه **(والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه)** بل هو علىٰ يقين منه، وقد شبَّهتَ في وجوبه بوجوبه **(فلم يشكَّ فيه. فأقول: شكُّه في القبول كشكِّه في وجود شرائط الصحة، فإن للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة)** لا بد من مراعاتها في وجودها وصحتها وكمالها **(كما سيأتي)** ذِكر ذلك قريبًا **(وليس يتحقق وجود جميع شرائطها)** بخلاف شرب الماء، وهذا **(كالذي يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهِّل)** أم لا **(وذلك لشكِّه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال)** والمزاج **(والوقت و)** باعتبار **(كيفية خلطِ الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجِب للخوف بعد التوبة، وموجِب للشك في قبولها لا محالة، علىٰ ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالىٰ)** قريبًا. والله الموفِّق. وبه تم الركن الأول.

(الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها) ومعرفة حدود كلٍّ منها

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ **(أن التوبة)** في الأصل رجوع إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يكون الرجوع إلا بترك ما كان ملتبسًا به، فلذلك قلنا: إن التوبة **(تركٌ للذنب)** أي لفعله وإيقاعه **(ولا يمكن تركُ الشيء إلا بعد معرفته)** فما لا يُعرَف كيف يُترَك **(وإذا كانت التوبة واجبة)** علىٰ ما تقرَّر **(كان ما لا يُتوصل إليها إلا به واجبًا)** أيضًا

(فمعرفة الذنوب) بأقسامها **(إذًا واجبة، والذنب)** أصله[1] الأخذ بذَنَب الشيء، وفي العرف الشرعي: **(عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله في ترك أو فعل)** ممَّا تُستوخَم عاقبته، ولذلك سُمِّي تَبِعةً اعتبارًا بما يحصل من عاقبته. وهو عند أهل الله: ما يحجب عن الله تعالىٰ **(وتفصيل ذلك يستدعي شرحَ التكليفات)** الشرعية **(من أولها إلىٰ آخرها، وليس ذلك من غرضنا)** الآن **(ولكنا نشير إلىٰ مَجامِعها وروابط أقسامها)** التي منها تتفرَّع أنواعها **(والله الموفِّق للصواب برحمته)** وفضله.

---

(١) المفردات للراغب ص ١٨١. التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ١٧١.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ أن صاحب القوت قسم الذنوب إلىٰ سبعة ضروب، بعضها أعظم من بعض، لكلٍّ منها مراتب، في كل مرتبة من المذنبين طبقة. وقد فصَّلها المصنف تفصيلاً غريبًا وحصرَها في ثلاث قسمٍ، فقال في القسمة الأولىٰ: **(إن للإنسان أوصافًا وأخلاقًا كثيرة، علىٰ ما عُرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله، ولكن تنحصر)** هنا **(مثارات الذنوب في أربع صفات)** هي منابعها: **(صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية. وذلك لأن طينة الإنسان عُجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضىٰ كلُّ واحد من الأخلاط في المعجون منه أثرًا من الآثار، كما يقتضي السكرُ)** أو العسل **(والخل)** وفي بعض النسخ زيادة: والزعفران **(في السكنجبين آثارًا مختلفة)** ولا أعرف من الأطباء مَن ذكر الزعفران من جملة أجزاء السكنجبين، وإنما هو مركَّب من عسل أو سكر وخل، ومنهم مَن يزيد فيه نعناعًا **(فأما ما يقتضي النزوعَ إلىٰ الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنىٰ وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء علىٰ الكافة)** فهذه كلها من الصفات المختصَّة بالرب تعالىٰ **(حتىٰ كأنَّه يريد)** إذا اجتمعت فيه تلك الصفات **(أن يقول)** للناس: **(أنا ربكم الأعلىٰ)** كما قاله فرعون **(وهذا تنشعب منه جملةٌ من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدُّوها ذنوبًا، وهي)** في الحقيقة **(المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي، كما استقصيناه في ربع المهلكات)** وفيها من العموم طبقات **(الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعَّب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد)** والإفساد **(والمنكر، وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلىٰ البدع)** المنكرة **(والضلال)** وهي كبائر، منها ما يُذهِب الإيمانَ ويُنبِت النفاق، وست منها من كبائر البدع، وهي تنقل عن الملَّة: القدرية، والمرجئة، والرافضة، والإباضية، والجهمية،

والشاطحية والمعطِّلة[1] (الثالثة: الصفة البهيمية، ومنها يتشعَّب الشَّرَه والكَلَب والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعَّب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحُطام لأجل الشهوات).

(الرابعة): هي (الصفة السبعية، ومنها يتشعَّب الغضب والحقد) والضغن (والتهجُّم علىٰ الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال) وهذه تتعلق بمظالم العباد في أمر الدنيا (وتتفرَّع عنها جمل من الذنوب) مستكثَرة كالكذب والبهتان وغيرهما، وهذه موبِقات ولا بد فيها من القصاص بين يدي الله تعالىٰ إلا أن يقع الاستحلال أو يستوهبها الله من أربابها بكرمه ويعوِّض المظلومين عليها في جنَّاته بجوده (وهذه الصفات لها تدريج في) أصل (الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيًا، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفاتُ الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصدُ الاستيلاء علىٰ جميع الخلق. فهذه أمَّهات الذنوب) وأصولها (ومنابعها، ثم تنفجر الذنوب) بأنواعها (من هذه المنابع علىٰ الجوارح، فبعضها في القلب خاصةً كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها علىٰ العين والسمع، وبعضها علىٰ اللسان، وبعضها علىٰ البطن والفرج، وبعضها علىٰ اليدين والرِّجلين، وبعضها علىٰ جميع البدن. ولا حاجة إلىٰ بيان تفصيل ذلك فإنه واضح) فهذه قسمة الذنوب بحسب الصفات.

(قسمة ثانية) للذنوب: (اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن الذنوب تنقسم) بالنظر الآخَر (إلىٰ ما بين العبد وبين الله، وإلىٰ ما يتعلق بحقوق العباد، فما يتعلق بالعبد خاصةً كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حقوق الغير فإما نفس أو طرف أو مال أو عِرْض أو دين أو جاه وتناول الدين بالإغواء

(١) في القوت: «والشاطحون من المغالطين، وهم الذين لا يقولون بخلق ولا رسم ولا حكم، يسقطون الأحكام، ويتعدون الحدود، ويجاوزون العلم، فهم زنادقة هذه الأمة».

والدعاء إلىٰ البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة علىٰ الله تعالىٰ، كما يفعله بعض الوعَّاظ بتغليب جانب الرجاء علىٰ جانب الخوف. وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ) وأشد **(وما بين العبد وبين الله تعالىٰ إذا لم يكن شركًا فالعفو فيه أرجىٰ وأقرب. وقد جاء في الخبر: الدواوين ثلاثة)** جمع[1] دِيوان بالكسر، وقد تُفتَح، فارسي معرَّب، قال في المغرب[2]: هو الجريدة، من دوَّنَ الكتبَ: إذا جمعها؛ لأنها قِطَع من القراطيس مجموعة. قال الطيبي[3]: والمراد هنا صحائف الأعمال **(ديوان يُغفَر، وديوان لا يُغفَر، وديوان لا يُترَك، فالديوان الذي يُغفَر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالىٰ)** من ترك صلاة وصوم وغيرهما ممَّا أوجب الله عليه، فإنه تعالىٰ كريم، ومن شأن الكريم المسامحة **(وأما الديوان الذي لا يُغفَر فالشرك بالله تعالىٰ)** و﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] **(وأما الديوان الذي لا يُترَك فمظالم العباد)** بعضهم بعضًا **(أي لا بد وأن يطالَب بها حتىٰ يُعفَىٰ[4] عنها)** قال العراقي[5]: رواه أحمد[6] والحاكم[7] وصحَّحه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسىٰ الدقيقي، ضعَّفه ابن معين وغيره. وله شاهد من حديث سلمان رواه الطبراني[8]، وهو منكر؛ قاله الذهبي[9]. انتهىٰ.

---

(١) فيض القدير ٣/ ٥٥٢.

(٢) المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي ١/ ٢٩٩.

(٣) الكاشف عن حقائق السنن ١٠/ ٣٢٥٨.

(٤) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٦٠: يتفصىٰ.

(٥) المغني ٢/ ٩٨٧.

(٦) مسند أحمد ٤٣/ ١٥٥.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٥/ ٣٩.

(٨) المعجم الكبير ٦/ ٢٥٢، ولفظه: «ذنب لا يغفر، وذنب لا يترك، وذنب يغفر، فأما الذي لا يغفر فالشرك بالله، وأما الذي يغفر فذنب بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، وأما الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا».

(٩) ميزان الاعتدال ٤/ ٤٢٦.

قلت: رواه أحمد والحاكم من طريق صدقة بن موسىٰ عن أبي عمران الجوني عن يزيد بن بابَنُوس عن عائشة. وقد رد الذهبي علىٰ الحاكم تصحيحه وقال: صدقة بن موسىٰ ضعَّفه الجمهور، ويزيد بن بابنوس فيه جهالة. ولفظهما جميعًا: «الدواوين يوم القيامة ثلاثة، فديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئا. فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئًا فالإشراك بالله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا فظلمُ العبد نفسه فيما بينه وبين ربِّه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها فإن الله يغفر ذلك إن شاء أن يتجاوز، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا فمظالم العباد بينهم، القصاص لا محالة».

(قسمة ثالثة) للذنوب: (اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (**أن الذنوب تنقسم إلىٰ كبائر وصغائر، وقد كثر اختلافُ الناس فيها، فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله تعالىٰ**) ممَّا نهىٰ عنه (**فهي كبيرة**) وهذا[1] مذهب ابن عباس، وتبعه جماعة منهم أبو إسحاق الأسفراييني وأبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين في الإرشاد[2] وابن القشيري في المرشدة[3]، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في تفسيره فقال: معاصي الله عندنا كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة إلىٰ ما هو أكبر منها، ثم أول الآية الآتية: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ الآية [النساء: ٣١] بما ينبو عنه ظاهرها، وقال المعتزلة: الذنوب علىٰ ضربين: صغائر وكبائر. وهذا ليس بصحيح. انتهىٰ. وربما ادَّعىٰ في موضعٍ اتفاقَ الأصحاب علىٰ ما ذكره، واعتمد ذلك التقيُّ السبكي، وقال القاضي عبد الوهاب:

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ١/ ٣ (ط - مطبعة حجازي بالقاهرة). البحر المحيط للزركشي ٤/ ٢٧٥ - ٢٧٦. التحبير شرح التحرير للمرداوي ٤/ ١٨٧٦ - ١٨٨٢. فيض القدير ٥/ ٦٠.

(٢) الإرشاد ص ٣٩١.

(٣) أي في شرحه عليها، والمرشدة لابن تومرت.

لا يمكن أن يقال في معصية إنها صغيرة إلا علىٰ معنىٰ أنها تصغر باجتناب الكبائر (وهذا) القول (ضعيف) ويُعتذَر بأنهم إنما قالوا ما قالوا نظرًا إلىٰ عظمة مَن عُصي بالذنب فكرهوا تسمية معصية الله صغيرة، مع اتفاقهم في الجرح علىٰ أنه لا يكون بمطلق المعصية، فالخلاف لفظيٌّ يرجع لمطلق القسمة. ثم بيَّن المصنفُ وجه ضعفِ هذا القول فقال: (إذ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾) قال السُّدِّي: أي الصغار (﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾) قال قتادة: أي الجنة[1] (وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾) [النجم: ٣٢] أي الصغائر، ففي الآيتين دليل علىٰ تقسيم الذنوب إلىٰ صغائر وكبائر، وفي الحديث: «إن تغفر اللهم تغفر جمّا، وأيُّ عبدٍ لك ما ألمَّا».

(وقال ﷺ: الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة) المضاف[2] محذوف، أي صلاة الجمعة منتهية إلىٰ الجمعة (تكفِّر ما بينهن) من الصغائر (إن اجتُنبت الكبائر) شرط وجزاء دلَّ عليه ما قبله[3]. قال النووي[4]: معناه أن الذنوب كلها تُغفَر إلا الكبائر فلا تُغفَر لا أن الذنوب تُغفَر ما لم تكن كبيرة، فإن كانت لا تُغفَر إلا صغائره ثم كلٌّ من المذكورات صالح للتكفير، فإن لم يكن له صغائر كُتب له حسنات ورُفع له درجات.

والحديث، قال العراقي[5]: رواه مسلم[6] من حديث أبي هريرة. انتهىٰ.

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٣٧٢.

(٢) فيض القدير ٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) شرح مشكاة المصابيح للطيبي ٣/ ٨٦٤.

(٤) الجزء الأول من كلام النووي في شرح صحيح مسلم ٣/ ١٤١. وأما الجزء الثاني ففي المجموع شرح المهذب ٦/ ٣٨٢.

(٥) المغني ٢/ ٩٨٧.

(٦) صحيح مسلم ١/ ١٢٥.

قلت: هذا لفظ ابن حبان والطبراني من حديث أبي بكرة، إلا أنهما قالا: «كفَّارات لِما بينهن ما اجتُنِبت» والباقي سواء. ويقرُب من ذلك لفظ الترمذي[١] من حديث أبي هريرة: «الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة مكفِّرات لِما بينهن إذا اجتُنِبت الكبائر». وأما لفظ مسلم ففيه زيادة «ورمضان إلىٰ رمضان»، والباقي كسياق الترمذي. وهكذا هو عند أحمد[٢]. وفي رواية لمسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة كفَّارات لِما بينهن ما لم تُغْشَ [الكبائر]». وزاد ابن ماجه[٣] من حديث أبي أيوب بعد قوله «إلىٰ الجمعة»: «وأداء الأمانات كفَّارات لِما بينها». قيل: وما أداء الأمانة؟ قال: «الغسل من الجنابة، فإنَّ تحت كل شعرة جنابة». وهكذا رواه محمد بن نصر[٤] والشاشي[٥] والطبراني[٦] والسَّرَّاج في مسنده[٧] والبيهقي[٨] وابن عساكر[٩] والضياء **(وفي لفظ آخر: كفَّارات لِما بينهن إلا الكبائر)** رواه أبو نعيم في الحلية[١٠] من حديث أنس بلفظ: «الصلوات الخمس كفارات لِما بينهن ما اجتُنبت الكبائر والجمعة إلىٰ الجمعة وزيادة ثلاثة أيام».

وهنا إشكال صعب أورده ابن بزيزة، وهو أن الصغائر بنص القرآن مكفَّرة باجتناب الكبائر، فما الذي تكفِّره الصلوات؟ وأجاب عنه البُلقيني بأن معنىٰ «إن تجتنبوا» الموافاة علىٰ هذه الحال من الإيمان أو التكليف إلىٰ الموت، والذي في

---

(١) سنن الترمذي ١/ ٢٥٤.

(٢) مسند أحمد ١٤/ ٣٣٣، ١٥/ ١٠٦، ١٦/ ١٩٦.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ٤٧٦.

(٤) تعظيم قدر الصلاة ص ٤٨٠.

(٥) مسند الشاشي ٣/ ٩٨.

(٦) المعجم الكبير ٤/ ١٥٥.

(٧) مسند السراج ص ١٨٩، ٣٤٣.

(٨) شعب الإيمان ٤/ ٢٦٥.

(٩) تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٢٩، ٥٣/ ٢٦٦.

(١٠) حلية الأولياء ٩/ ٢٥٠.

الحديث أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها أي في يومها إذا اجتُنبت الكبائر في ذلك اليوم، فالسؤال غير وارد، وبفرض وروده فالتخلُّص منه أنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الخمس، فمَن لم يفعلها لم يجتنب؛ لأن تركها من الكبائر، فيتوقَّف التكفير علىٰ فعلها، وأحوال المكلَّف بالنسبة لِما يصدر منه من صغيرة وكبيرة خمسة، إحداها: أن لا يصدر منه شيء، فهذا تُرفَع درجاته. الثانية: يأتي بصغائر بلا إصرار، فهذا يكفَّر عنه جزمًا. الثالثة: مثله لكن مع الإصرار، فلا يكفَّر؛ لأن الإصرار كبيرة. الرابعة: يأتي بكبيرة واحدة وصغائر. الخامسة: يأتي بكبائر وصغائر، وفيه نظرٌ يحتمل إذا لم يجتنب أن تكفَّر الصغائر فقط، والأرجح لا تكفر؛ إذ مفهوم المخالفة إذا لم تتعيَّن جهته لا يُعمَل به[١]. والله أعلم.

(وقد قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص) ﷺ: **(الكبائر: الإشراك بالله)** وذلك[٢] بأن يتخذ مع الله إلهًا غيره **(وعقوق الوالدين)** الأصليين المسلمين وإن عليا **(وقتل النفس)** التي حرَّمها الله إلا بالحق كالقصاص والقتل بالردَّة والرجم **(واليمين الغموس)** والواو في الثلاثة للعطف علىٰ السياق.

قال العراقي[٣]: رواه البخاري[٤].

قلت: ورواه كذلك أحمد[٥] والترمذي[٦] والنسائي[٧] وابن جرير[٨]. وعند بعضهم «أو قتل النفس» شك شعبة.

---

(١) انظر: فتح الباري ٢/ ١٦ (ط الريان).

(٢) فيض القدير ٥/ ٦٠ - ٦٢.

(٣) المغني ٢/ ٩٨٧.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٢٢٤، ٢٦٦، ٢٧٨.

(٥) مسند أحمد ١١/ ٤٧٦.

(٦) سنن الترمذي ٥/ ١١٧.

(٧) سنن النسائي ص ٦٢٠، ٧٤٢.

(٨) تهذيب الآثار - مسند علي ص ١٨٩.

فهذه الآيات والأخبار دالَّة علىٰ انقسام الكبائر في عِظَمها إلىٰ كبير وأكبر، وأُخِذ منها ثبوت الصغيرة؛ لأن الكبيرة بالنسبة إليها أكبر منها، ولذلك قال المصنف: لا يليق [بفقيه] إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر، وقد عُرف من مدارك الشرع.

(واختلف الصحابة) رضوان الله عليهم **(والتابعون)** لهم **(في عدد الكبائر من أربع إلىٰ سبع إلىٰ تسع إلىٰ إحدىٰ عشرة فما فوق ذلك:**

فقال ابن مسعود) رضي الله عنه: **(هي أربع)** الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. رواه عبد الرزاق[١] وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التوبة[٢] وابن جرير[٣] وابن المنذر[٤] والطبراني[٥].

(وقال) عبد الله **(ابن عمر)** بن الخطاب رضي الله عنهما: **(هي سبع)** الإشراك بالله، وقذف المحصنة، وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم. أخرجه علي بن الجعد في الجعديات والبيهقي[٦] عن طيسلة قال: سألت ابن عمر عن الكبائر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هي سبع ... فذكره.

وقد رُوي نحو ذلك عن أبي هريرة: «اجتنِبوا السبع الموبِقات: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم،

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١٠/ ٤٦٠.

(٢) التوبة ص ٥٤.

(٣) جامع البيان ٦/ ٦٤٨ - ٦٥٠.

(٤) تفسير ابن المنذر ص ٦٦٧.

(٥) المعجم الكبير ٩/ ١٧١.

(٦) الذي في مسند ابن الجعد ص ١١٥٠ والسنن الكبرىٰ للبيهقي ٣/ ٥٧٣ في هذا الحديث أن الكبائر تسع، فزادا: عقوق الوالدين، والإلحاد بالبيت الحرام.

والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». رواه الشيخان[١] وأبو داود[٢] والنسائي[٣] وابن أبي حاتم.

ويُروَىٰ عنه أيضًا: «الكبائر سبع، أولها الإشراك بالله، ثم قتل النفس بغير حقها، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم إلىٰ أن يكبر، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات، والانقلاب إلىٰ الأعراب بعد الهجرة». هكذا رواه البزار[٤] وابن المنذر[٥] وابن أبي حاتم.

وأما لفظ حديث أبي سعيد: «الكبائر سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والرجوع إلىٰ الأعرابية بعد الهجرة». رواه الطبراني في الأوسط[٦].

وأما حديث ابن عمرو فلفظه: «هي عقوق الوالدين، والإشراك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الربا». رواه ابن المنذر[٧] والطبراني[٨] وابن مردويه.

(**وقال عبد الله بن عمرو**) بن العاص: (**هي تسع**) هكذا في القوت، وهي: الإشراك بالله، وقتل النَّسَمة - يعني بغير حق - وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والذي يستسحر، وإلحاد في المسجد

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٢٩٥، ٤/ ٢٦٤. صحيح مسلم ١/ ٥٤.
(٢) سنن أبي داود ٣/ ٣٩٧.
(٣) سنن النسائي ص ٥٧١.
(٤) مسند البزار ١٥/ ٢٤١.
(٥) تفسير ابن المنذر ص ٦٦٧.
(٦) المعجم الأوسط ٦/ ٣٣.
(٧) تفسير ابن المنذر ص ٦٦٥.
(٨) المعجم الكبير ١٤/ ٧.

الحرام، وبكاء الوالدين من العقوق». رواه البخاري في الأدب المفرد[١] وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير[٢] والقاضي إسماعيل في أحكام القرآن[٣] وابن المنذر[٤] بسند حسن، كلهم من طريق طيسلة، قالوا: عن ابن عمر، ولم يقولوا: عن ابن عمرو.

وقد رُوي مثله عن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه رفعه: «الكبائر تسع، أعظمُهن الإشراك بالله، وقتل النفس بغير حق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتًا». رواه أبو داود[٥] والنسائي[٦] وابن جرير[٧] وابن أبي حاتم والطبراني[٨] والحاكم[٩] وابن مردويه والبيهقي[١٠].

(وكان ابن عباس إذا بلغه قولُ ابن عمر) رضي الله عنهما **(الكبائر سبع، يقول: هي إلىٰ سبعين أقرب منها إلىٰ سبع)** رواه عبد الرزاق[١١] وعبد بن حميد.

ويُروَىٰ عن سعيد بن جبير أن رجلاً سأل ابن عباس: كم الكبائر؟ سبع هي؟ قال: إلىٰ سبعمائة أقرب منها إلىٰ سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة

---

(١) الأدب المفرد ص ١٥.

(٢) جامع البيان ٦/ ٦٤٦.

(٣) أحكام القرآن ص ٨٤ - ٨٥ (ط - دار ابن حزم).

(٤) تفسير ابن المنذر ص ٦٦٩.

(٥) سنن أبي داود ٣/ ٣٩٨.

(٦) سنن النسائي ص ٦٢٠ مقتصرا علىٰ الشرك والقتل والفرار.

(٧) تهذيب الآثار - مسند علي ص ١٩٣، ولم يسق لفظه.

(٨) المعجم الكبير ١٧/ ٤٨.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٧، ٤/ ٣٩٢.

(١٠) السنن الكبرىٰ ٣/ ٥٧٣، ١٠/ ٣١٤.

(١١) مصنف عبد الرزاق ١٠/ ٤٦٠.

مع الإصرار. أخرجه ابن جرير[١] وابن المنذر[٢] وابن أبي حاتم.

(وقال مرةً) يعني ابن عباس في حدِّ الكبيرة: **(كل ما نهىٰ الله عنه فهو كبيرة)** رواه عبد بن حميد وابن جرير[٣] وابن المنذر[٤] والطبراني[٥] والبيهقي في الشعب[٦] من طرق عنه.

وأخرج ابن جرير[٧] عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر، قال: كل شيء عُصِي الله فيه فهو كبيرة.

(وقال غيره) من السلف: **(كل ما أوعد اللهُ عليه بالنار فهو من الكبائر)** وهذا القول أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير[٨] عن سعيد بن جبير قال: كل ذنب نسبه الله إلىٰ النار فهو من الكبائر. وأخرج عن الضحَّاك قال: الكبائر كل موجبة أوجب الله لأهلها النار. وأخرج عن ابن عباس قال: [الكبائر] كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب.

وفي[٩] الروضة[١٠] وأصلها[١١]: الكبيرة ما لحق صاحبَها بخصوصها وعيدٌ شديد بنص كتاب أو سنَّة. وحذف بعض المتأخرين تقييد الوعيد بكونه شديدًا،

---

(١) جامع البيان ٦/ ٦٥١.

(٢) تفسير ابن المنذر ص ٦٧١.

(٣) جامع البيان ٦/ ٦٥٠.

(٤) تفسير ابن المنذر ص ٦٧٠.

(٥) المعجم الكبير ١٨/ ١٤٠.

(٦) شعب الإيمان ١/ ٤٦٣، ٩/ ٣٤٩.

(٧) جامع البيان ٦/ ٦٥٢.

(٨) السابق ٦/ ٦٥٢ - ٦٥٣.

(٩) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ٤.

(١٠) روضة الطالبين للنووي ١١/ ٢٢٢.

(١١) فتح العزيز للرافعي ١٣/ ٦.

وكأنه نظر إلىٰ أن كل وعيد من الله تعالىٰ لا يكون إلا شديدًا، فهو من الوصف اللازم، وخرج بالخصوص ما اندرج تحت عموم، فلا يكفي ذلك في كونه كبيرة بخصوصه (**وقال بعض السلف: كل ما أوجب الله عليه الحدَّ في الدنيا فهو كبيرة**) كزنا[١] ولواط وشرب خمر وإن قلَّ ولم يسكر ونبيذ ولم يعتقد حِله وسرقة وقذف. فهذه فيها حدود.

والصغائر عندهم من اللَّمَم، وهو ما لا حد فيه وما لم يُتهدَّد بالنار عليه. قال صاحب القوت: وقد رُوي هذا عن أبي هريرة وغيره.

قلت: وبه[٢] قال البغوي وغيره. قال الرافعي: وهذان الوجهان في حد الكبيرة أكثر ما يوجد لهم، وهم إلىٰ ترجيح هذا أميل، ولكن الأول أوفق لِما ذكروه في تفصيل الكبائر. أي لأنهم نصُّوا علىٰ كبائر كثيرة ولا حد فيها كأكل الربا ومال اليتيم والعقوق وقطع الرحم والسحر والنميمة وشهادة الزور والسعاية والقوادة والدِّياثة وغيرها، وبهذا يُعلَم أن الحد الأول منهما أصح من الثاني وإن قال الرافعي: إنهم إلىٰ ترجيحه أميل، وأخذ منه صاحب «الحاوي الصغير»[٣] وغيره أنه الراجح فجزم به. وقال الأذرعي في القوت: عجيب قول الشيخين إن الأصحاب إلىٰ الثاني أميل، وهو في غاية البعد. ا.هـ. لكن إذا أُوِّل علىٰ أن مراد قائله ما عدا المنصوص عليه وإن لم يكن فيه حدٌّ خفَّ بُعدُه. علىٰ أنه يَرِدُ علىٰ الحد الأول أيضًا بعضُ ما عُلم أنه كبيرة ولم يَرِدْ فيه وعيدٌ شديد، وقد عدَّ العز ابن عبد السلام في قواعده[٤] أنواعًا من الكبائر اتفاقًا، مع أنه لم يَرِدْ فيها نصٌّ.

(**وقيل: إنها مبهمة لا يُعرَف**) حقيقة (**عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة**)

---

(١) أشرف الوسائل إلىٰ شرح الشمائل لابن حجر الهيتمي ص ١٩٦.

(٢) الزواجر ١/ ٤.

(٣) الحاوي الصغير لنجم الدين القزويني ص ٦٦٨ (ط - دار ابن الجوزي).

(٤) قواعد الأحكام ١/ ٢٩ - ٣٤.

والصلاة الوسطىٰ ليكون الناس علىٰ خوف ورجاء، فلا يقطعون بشيء ولا يسكنون إلىٰ شيء. كذا في القوت. واعتمده[١] الواحدي في البسيط[٢] فقال: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العِباد به وإلا اقتحم الناس الصغائرَ واستباحوها، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أخفىٰ ذلك عن العباد؛ ليجتهدوا في اجتناب المنهيِّ عنه رجاءَ أن يجتنبوا الكبائر، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطىٰ وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك. ا.هـ. وليس كما قال، بل الصحيح أن لها حدًّا معلومًا، ونقل بعضهم[٣] عن الواحدي هذه المقالة لكن علىٰ وجه يخفُّ به الاعتراض عليه فقال: قال الواحدي المفسِّر: الكبائر كلها لا تُعرَف، أي لا تنحصر. قالوا: لأنه ورد وصفُ أنواع من المعاصي بأنها كبائر، وأنواع أنها صغائر، وأنواع لم توصَف بشيء منهما. وقال الأكثرون: إنها معروفة، واختلفوا هل تُعرَف بحدٍّ وضابط أو بالعدِّ. ا.هـ. وكل[٤] ما سبق من الحدود وممَّا سيأتي منها للمتأخرين إنما قصدوا بها التقريبَ فقط وإلا فهي ليست بحدود جامعة، وكيف يمكن ضبطُ ما لا مَطمع في ضبطه؟ وذهب آخرون إلىٰ تعريفها بالعدِّ من غير ضبطها بالحد.

(و) قد **(قال ابن مسعود)** رَضِوَاللَّهُعَنْهُ فيها قولاً حسنًا من طريق الاستنباط **(لمَّا سُئل عنها: اقرأ من أول سورة النساء إلىٰ رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ فكل ما نهىٰ الله عنه في هذه السورة إلىٰ هنا فهو كبيرة)** فأشبهَ هذا الاستدلالُ قولَ ابن عباس في استنباط ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين من كون قوله تعالىٰ ﴿هِىَ﴾ سبعًا وعشرين كلمة. قال صاحب القوت بعد أن نقل القول الأول وهو الإبهام وهذا القولَ: والله أعلم بحقيقة هذين القولين.

---

(١) الزواجر ١/ ٥.

(٢) التفسير البسيط ٦/ ٤٧٤.

(٣) هو شهاب الدين الرملي في حاشيته علىٰ أسنىٰ المطالب ٤/ ٣٤٢ (ط - المطبعة الميمنية).

(٤) الزواجر ١/ ٧.

قلت: وقد استنبط ابن عباس أيضًا ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين أنه عدَّ حروف «ليلة القدر» وقد ذُكرت ثلاث مرات في السورة، كل كلمة منهما تسعة أحرف، فهي سبع وعشرون حرفًا من ضرب ثلاثة في تسعة.

وأما قول ابن مسعود السابق فأخرجه عبد بن حميد والبزار[١] وابن جرير[٢] عنه أنه سُئل عن الكبائر، فقال: ما بين أول سورة النساء إلىٰ رأس ثلاثين آية منها. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر[٣] وابن أبي حاتم قال: الكبائر من أول سورة النساء إلىٰ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. وأخرج عبد بن حميد أنه سُئل عن الكبائر فقال: افتحوا سورة النساء، فكل شيء نهىٰ الله عنه حتىٰ تأتوا ثلاثين آية فهو كبيرة. ثم قرأ مِصْداق ذلك: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ من أول السورة إلىٰ حيث بلغه. وقد رُوي ذلك أيضًا عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يرون أن الكبائر فيما بين أول هذه السورة سورة النساء إلىٰ هذا الموضع: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. أخرجه عبد بن حميد وابن جرير.

فصل: وقد بقي من حدود الكبيرة ما لم يذكره المصنف هنا، فنقول: قال[٤] إمام الحرمين: كل جريمة، علىٰ ما نقله الرافعي[٥]. وعبارة إرشاده[٦]: جريرة - وهي بمعناها - تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقَّة الديانة، مبطلة للعدالة، وكل جريمة أو جريرة لا تؤذن بذلك بل تبقي حُسن الظن ظاهرًا بصاحبها لا تحبط العدالةَ. قال: وهذا أحسن ما يتميز به أحد الضربينِ عن الآخَر. ا.هـ. وقد تابعه

---

(١) مسند البزار ٤/ ٣٣٧.

(٢) جامع البيان ٦/ ٦٤٠ - ٦٤٣.

(٣) تفسير ابن المنذر ص ٦٧٠.

(٤) الزواجر ١/ ٤ - ٦.

(٥) فتح العزيز ١٣/ ٦.

(٦) الإرشاد ص ٣٩٢.

القشيري في الرسالة[١]، واختاره الإمام السبكي[٢] وغيره. وفي معناه قوله في نهايته[٣]: الصادر من الشخص إن دلَّ علىٰ الاستهانة لا بالدين فهو كبيرة، وإن صدر عن فلتة خاطر أو لفتة ناظر فصغيرة. ومعنىٰ قوله «لا بالدين» أي لا بأصله، فإنَّ الاستهانة بأصله كفرٌ، ومن ثَم عبَّر في الأول بقلة اكتراث، ولم يقل: بعدم اكتراث. والكفر وإن كان أكبر الكبائر فالمراد تفسير غيره ممَّا يصدر من المسلم. قال البِرْماوي: ورجَّح المتأخرون مقالة الإمام لحسن الضبط بها [ولعلها وافية بما ورد في السنَّة من تفصيل الكبائر وما أُلحِق بها] قياسًا[٤]. ا.هـ. وكأنَّه لم يرَ منازعة الأذرعي فيما قاله الإمام، فإنه قال: وإذا تأمَّلت بعضَ ما عدَّ من الصغائر توقَّفتَ فيما أطلقه. ا.هـ. وكأنَّه أخذ ذلك من اعتراض ابن أبي الدم ضابط النهاية بأنه مدخول. علىٰ أنك إذا تأمَّلت كلام الإمام الأول ظهر لك أنه لم يجعل ذلك حدًّا للكبيرة، خلافًا لمَن فهم منه ذلك؛ لأنه يشمل صغائرَ الخسَّة وليست بكبائر، وإنما ضبط به ما يُبطِل العدالةَ من المعاصي الشامل لصغائر الخسَّة. نعم، هذا الحد أشمل من التعريفين المتقدمين [لصِدقه] علىٰ سائر مفردات الكبائر، ولكنه غير مانع؛ لِما علمتَ أنه يشمل صغائر الخسة وغيرها. وقال في الخادم نقلاً عن الرافعي[٥]: التحقيق أن كل واحد من هذه الأوجه اقتصر علىٰ بعض أنواع الكبيرة، وأن مجموع هذه الأوجه يحصل به ضابط الكبيرة. ا.هـ. ولهذا قال الماوردي في حاويه[٦]: الكبيرة ما أوجب

(١) في الزواجر: «تابعه ابن القشيري في المرشدة». وهو الصواب؛ إذ القشيري صاحب الرسالة متقدم علىٰ إمام الحرمين.

(٢) بل ولده التاج السبكي، وانظر: جمع الجوامع ص٧٠ (ط العلمية)، وتشنيف المسامع للزركشي ٢/ ١٠٠٢ (ط قرطبة).

(٣) انظر: نهاية المطلب ١٩/ ٦ - ٧.

(٤) انظر: الفوائد السنية في شرح الألفية ٢/ ٥٥٦ (ط مكتبة التوعية الإسلامية بالقاهرة).

(٥) في الزواجر: «وقال في الخادم بعد إيراده ما مر عن الرافعي». أي خادم الرافعي والروضة للزركشي، شرح فيه مشكلات الروضة للنووي وفتح العزيز للرافعي.

(٦) الحاوي الكبير ١٧/ ١٤٩.

الحدَّ أو توجَّه إليه الوعيدُ. وقال ابن عطية[١]: كل ما وجب فيه حدٌّ أو ورد فيه توعُّدٌ بالنار أو جاءت فيه لعنة. ونحوه عن ابن الصلاح[٢]. واعتُرض قول الإمام: وكل جريمة لا تؤذن بذلك ... الخ، بأن مَن أقدمَ علىٰ غصب ما دون نِصاب السرقة أتىٰ بصغيرة، ولا يحسُن في نفوس الناس الظن به، وكان القياس أن يكون كبيرة، وكذلك قبلة الأجنبية صغيرة، ولا يحسُن في نفوس الناس الظنُّ بفاعلها. ويُجاب بأن كون هذين صغيرتين إنما هو علىٰ قول جمع، وأما علىٰ مقابلة أنهما كبيرتان فلا اعتراض، وإنما يحسُن أنْ لو اتفقوا علىٰ أنها صغيرة وأنها ممَّا يسوء ظنُّ أكثر الناس بفاعلها.

فصل: ومن حدود الكبيرة أنها: كل فعل نص الكتابُ علىٰ تحريمه[٣]، أي بلفظ التحريم، وهو أربعة أشياء: أكل لحم الميتة، والخنزير، ومال اليتيم ونحوه، والفرار من الزحف. ورُدَّ بمنع الحصر في الأربعة.

فصل: ومن حدود الكبيرة ما قاله المصنِّف في بعض كتبه[٤]: كل معصية يُقدِم المرءُ عليها من غير استشعار خوف ووجدان ندم تهاونًا واستجراءً عليها فهي كبيرة، وما يُحمَل علىٰ فلتات النفس ولا ينفكُّ عن ندم يمتزج بها وينغِّص التلذُّذَ بها فليس بكبيرة. واعترضه العلائي بأنه بسطٌ لعبارة الإمام، وهو مشكل جدًّا إن كان ضابطًا للكبيرة من حيث هي؛ إذ يَرِدُ عليه مَن ارتكب نحو الزنا نادمًا عليه فقضيَّته أنه لا تنخرم به عدالته ولا يسمَّىٰ كبيرة حينئذٍ، وليس كذلك اتفاقًا، وإن كان ضابطًا لما عدا المنصوص عليه فهو قريب. ا.هـ. قال الجلال البُلقيني: كأنَّ العلائي فهم أن كل مَن يذكر حدًّا يدخل المنصوص، وهو ممنوع، وضابط الغزالي إنما هو لِما

(١) المحرر الوجيز ص ٤٢٨، ونصه: «قال ابن عباس وغيره: الكبائر كل ما ورد عليه وعيد بنار أو عذاب أو لعنة أو ما أشبه ذلك».

(٢) صيانة صحيح مسلم ص ٢٦٩.

(٣) نقله الرافعي في فتح العزيز ١٣/ ٦ عن القاضي أبي سعد الهروي.

(٤) هو كتاب البسيط في الفقه، كما ذكره النووي في شرح صحيح مسلم ٢/ ١١٣.

عدا المنصوص عليه، فهو قريب، وقد ذكر العلائي نفسه أن الحدود إنما هي لِما عدا المنصوص عليه.

فصل: ومن حدود الكبيرة قول العز ابن عبد السلام[١]: الأَولىٰ ضبطُ الكبيرة بما يُشعِر بتهاون مرتكبها بدينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها [بذلك]. قال: فإذا أردتَ [معرفة] الفرق بين الصغيرة والكبيرة فاعرِضْ مَفسدة الذنب علىٰ مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل [مفاسد] الكبائر فهي صغيرة، وإلا فهي كبيرة[٢]. ا.هـ. واعترضه الأذرعي فقال: وكيف السبيل إلىٰ الإحاطة بالكبائر المنصوص عليها حتىٰ يُنظَر في أقلها مَفسدةً ونقيس بها مَفسدة الذنب الواقع؟ هذا متعذر. ا.هـ. قال الجلال البلقيني: ولا تعذُّر في ذلك إذا جُمع ما صح من الأحاديث في ذلك. ا.هـ. [والحق تعذُّرُ ذلك؛ لأنه وإن فُرض إمكان جمع ما صح من الأحاديث في ذلك] إلا أن الإحاطة بمفاسدها [كلها] حتىٰ يُعلَم أقلها مَفسدةً في غاية الندور والاستحالة؛ إذ لا يطَّلع علىٰ ذلك إلا الشارع ﷺ. ثم قال ابن عبد السلام بعد ما ذكر: وكذلك مَن أمسك امرأة محصنة لمَن يزني بها، أو أمسك مسلمًا لمَن يقتله، فلا شك أن مفسدته أعظم من مفسدة [أكل] مال اليتيم، وكذلك لو دلَّ الكفار علىٰ عورة المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته ويسبون حريمهم وأطفالهم ويغنمون أموالهم، فإنَّ نسبة هذه المفاسد أعظم من التولِّي يوم الزحف بغير عذر، وكذلك لو كذب علىٰ إنسان وهو يعلم أنه يُقتَل بسبب كذبه. وأطال في ذلك إلىٰ أن قال: وقد ضبط بعض العلماء الكبائر بأن كل ذنب قُرن به وعيد أو حدٌّ أو لعن فهو من الكبائر، فتغيير منار الأرض - أي طرقها - كبيرة؛ لاقتران اللعن به، فعلىٰ هذا كلُّ ذنب يُعلَم أن مفسدته كمفسدة ما قُرن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو كان أكبر من مفسدته فهو كبيرة. ا.هـ. قال ابن دقيق العيد[٣]:

(١) قواعد الأحكام ١/ ٢٩ - ٣٤.

(٢) في القواعد: «وإن ساوت أدنىٰ مفاسد الكبائر أو أربت عليه فهي من الكبائر».

(٣) إحكام الأحكام ٢/ ٢٩٥.

وعلىٰ هذا فيُشترط أن لا تؤخذ المفسدة مجرَّدة عمَّا يقترن بها من أمر آخر، فإنه قد يقع الغلط في ذلك، ألا ترىٰ أن السابق إلىٰ الذهن في مفسدة الخمر إنما هو السكْر وتشويش العقل، فإن أخذناه بمجرده لزم أن لا يكون شرب القطرة الواحدة منه كبيرة؛ لخلوِّها عن المفسدة المذكورة، لكنها كبيرة لمفسدة أخرىٰ وهي التجرؤ علىٰ الشرب الكثير الموقِع في المفسدة، فبهذا الاقتران تصير كبيرة.

فصل: ومن حدود الكبيرة ما اختاره ابن الصلاح في فتاويه[1]: الكبيرة: كل ذنب عظُم عِظَمًا يصح [معه] أن يُطلق عليه اسم الكبيرة ويوصَف بكونه عظيمًا علىٰ الإطلاق، ولها أمارات، منها إيجاب الحد، ومنها الإيعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب أو السنَّة، ومنها وصفُ فاعلها بالفسق، ومنها اللعن. ا.هـ. ولخَّصه البارزي في تفسير الحاوي فقال: والتحقيق أن الكبيرة: كل ذنب قُرن به وعيد أو لعن بنص كتاب أو سنة أو عُلم أن مفسدته كمفسدة ما قُرن به وعيد أو حد [أو لعن] أو أكثر من مفسدته أو أشعرَ بتهاون مرتكبه في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها، من ذلك لو قتل مَن يعتقد براءته فظهر أنه مستحق لدمه، أو وطئ امرأة ظانًّا أنه زانٍ بها فإذا هي زوجته أو أمته.

ولنرجع لشرح كلام المصنف، وقد تقدم أن ما قالوه في حدودها إنما هو علىٰ سبيل التقريب فقط، وأن بعضهم ضبطها بالعدِّ دون الحد.

(**وقال أبو طالب**) محمد بن علي بن عطية الحارثي (**المكي**) رحمه الله تعالىٰ في كتاب قوت القلوب بعد أن نقل أقوال من قال إنها خمس أو سبع أو أكثر أو أقل، قال: وكان عبد الرزاق يقول: الكبائر إحدىٰ عشرة. وهذا أكثر ما قيل في جملة عددها مجملاً. ثم قال: والذي عندي في جملة ذلك مجتمعًا من المتفرق (**الكبائر سبع عشرة، جمعتُها من جملة الأخبار**) الواردة بلفظ «الكبائر» وبلفظ «أكبر الكبائر» (**وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر**) وهم

---

(١) فتاوىٰ ابن الصلاح ص ١٤٨.

العبادلة الثلاثة (**وغيرهم**) ﷺ، كما سيأتي بيان ذلك تفصيلاً (**أربعة في القلب**) أي من أعمال القلوب (**وهي الشرك بالله**) تعالىٰ (**والإصرار علىٰ معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربعة في اللسان**) أي من أعماله (**وهي شهادة الزور، وقذف المحصن**) وهو الحر البالغ المسلم (**واليمين الغموس، وهي التي يُحَقُّ بها باطل أو يُبطَل بها حق، وقيل: هي التي يُقتطَع بها مال امرئ مسلم باطلاً**) ولفظ القوت: ظلمًا (**ولو**) كان ذلك المقتطَع (**سواكًا من أراك**) إشارة إلىٰ حقارته (**و**) إنما (**سُمِّيت غموسًا لأنها تغمس صاحبَها**) في غضب الله تعالىٰ، وقيل: (**في النار، والسِّحْر**) بكسر فسكون (**وهو كل**) ما كان من (**كلام**) أو فعل (**يغيِّر الإنسان وسائر الأجسام**) عن أعيانها أو ينقل المعاني (**عن موضوعات الخِلقة**) التي خُلقت لها، والسَّحَرة هم النفَّاثات في العُقَد الذين أمر الله تعالىٰ بالاستعاذة منهم (**وثلاثة في البطن، وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب**) أسكرَ، ولفظ القوت: شرب الخمر والمسكر من الأشربة (**وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا وهو يعلم. واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواط**) في الأدبار (**واثنتان في اليدين وهما القتل والسرقة. وواحدة في الرِّجلين وهي الفرار من الزحف، الواحد من اثنين، والعشرة من العشرين**) غير [متحرِّف إلىٰ الإمام، ولا] متحيِّز إلىٰ فئة، ولا معتقد الكَرَّة (**وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين. قال: وجملة عقوقهما**) ولفظ القوت: وتفسير العقوق جملةً (**أن يقسما عليه في حق فلا يبرُّ قسمهما، وأن يسألاه**) في (**حاجة فلا يعطيهما**) وأن يأتمناه فيخونهما (**وأن يجوعا**) فيشبع (**ولا يطعمهما، وأن يسبَّاه فيضربهما**) وذكر وهب بن منبه: أصل البر بالوالدين في التوراة أن تقي مالهما بمالك وتوفِّر مالهما وتطعمهما من مالك، وأصل العقوق أن تقي مالك بمالهما وتوفِّر مالك وتأكل مالهما (**هذا ما قاله**) أبو طالب المكي رحمه الله تعالىٰ.

قال ابن حجر في شرح الشمائل[1]: وعقوق الوالدين أو أحدهما، وجمعهما

---

(١) أشرف الوسائل ص ١٩٧.

لأن عقوق أحدهما يستلزم عقوقَ الآخر [غالبًا] أو يجرُّ إليه، من العَقِّ، وهو لغةً: القطع والمخالفة، وأما شرعًا فقيل: ضابطه أن يعصيه في جائز. وليس هذا الإطلاق بمرضيٍّ، والذي آلَ إليه أمرُ أئمَّتنا بعد طول البحث أن ضابطه أن يفعل معه ما يتأذَّىٰ به تأذِّيًا ليس بالهين[1]. لكن هل المراد بقولهم «ليس بالهين» بالنسبة للوالد حتىٰ إن ما تأذَّىٰ به كثيرًا وهو عرفًا بخلاف ذلك كبيرة أو بالنسبة للعُرف، فما عدَّه أهلُه ممَّا يتأذَّىٰ به كثيرًا ليس بكبيرة وإن تأذَّىٰ به كثيرًا؟ كلٌّ محتمل، ولم يبيِّنوه، والذي يظهر أن المراد الثاني، بدليل أنه لو أمر ولده بنحو فراق حليلته لم تلزمه طاعتُه وإن تأذَّىٰ بذلك كثيرًا.

تنبيه: قد[2] تقدم عن ابن عباس أن الكبائر إلىٰ السبعمائة أقرب، وفي رواية: إلىٰ السبعين، والقول الأول أكثر ما قيل فيه، وصنَّف الديلمي من الشافعية جزءًا ذكر فيه أكثر من أربعين، وصنَّف العلائيُّ جزءًا ذكر فيه خمسة وعشرين من مجموع ما جاء في الأحاديث منصوصًا عليه أنه كبيرة، وزاد عليه الجلال البلقيني أشياء كثيرة.

وكنت قد أمليت في زاوية القطب أبي محمود الحنفي قُدِّس سره نيفًا وتسعين كبيرة مرتَّبة علىٰ حروف التهجِّي، مع بيان حقائقها وحدودها، وذكر ابن حجر منها في شرح الشمائل جملة سردها إجمالاً، وفي كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» تفصيلاً، فأوصلها في الباب الأول منه إلىٰ ستة وستين كبيرة، وفي الباب الثاني منه إلىٰ أربعمائة وسبع وستين كبيرة، ورتَّبها علىٰ ترتيب كتب الفقه، وبرهن عليها بالآيات والأخبار، فهو أجمعُ كتابٍ في هذا الباب، وقد سبقه إلىٰ ذلك الحافظ الذهبي فأورد جملة منها في كتاب ولم يرتِّب، ولا حاجة إلىٰ تعداد ما أورده؛ لِما فيه من التطويل الممل، وإنما ذُكر هنا بيان ما ذكره صاحب القوت واستنبطه من الأخبار مع زيادة عليه، فالأربعة[3] منها في حديث عبد الله بن عمرو، وقد تقدم

---

(١) هذا الضابط ذكره ابن الصلاح في فتاويه ص ٢٠١.

(٢) الزواجر ١/ ٧.

(٣) المغني للعراقي ٢/ ٩٨٨ - ٩٩١.

للمصنف. وفي الصحيحين[١] من حديث أبي هريرة: «اجتنِبوا السبع الموبِقات». قالوا: يا رسول الله، وما هي؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». ولهما[٢] من حديث أبي بكرة: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، أو قال: وقول الزور». ولهما[٣] من حديث أنس: سُئل عن الكبائر، قال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين». وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قال: «قول الزور، أو قال: شهادة الزور». ولهما[٤] من حديث ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافةَ أن يَطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». وللطبراني[٥] من حديث سلمة بن قيس: «إنما هي أربع: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». وفي الصحيحين[٦] من حديث عُبادة بن الصامت: «بايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا». وفي الأوسط[٧] للطبراني من حديث ابن عباس: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر». وفيه[٨] موقوفًا علىٰ عبد الله بن عمرو: أعظم الكبائر شرب الخمر. وكلاهما ضعيف. وللبزار[٩] من حديث ابن

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٢٩٥، ٤/ ٢٦٤. صحيح مسلم ١/ ٥٤.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٢٥١، ٤/ ٨٧، ١٤٦، ٢٧٨. صحيح مسلم ١/ ٥٤.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٢٥١، ٤/ ٨٨، ٢٦٦. صحيح مسلم ١/ ٥٤.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٩١، ٢٧١، ٤/ ٩٢، ٢٥٢، ٢٦٥، ٤٠٩، ٤١٢. صحيح مسلم ١/ ٥٣ - ٥٤.

(٥) المعجم الكبير ٧/ ٤٣ - ٤٤.

(٦) صحيح البخاري ١/ ٢٢، ٣/ ٦٥، ٦٦، ٣٠٨، ٤/ ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٦٧، ٣٤٥، ٣٩٨. صحيح مسلم ٢/ ٨١٦ - ٨١٧.

(٧) المعجم الأوسط ٣/ ٢٧٦، وتمامه: «من شربها وقع علىٰ أمه وخالته وعمته».

(٨) السابق ١/ ١١٦.

(٩) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٧١.

عباس بإسناد حسن أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله». وله[١] من حديث بريدة: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ومنعُ فضل الماء، ومنع الفحل». وفيه صالح بن حيَّان، ضعَّفه ابن معين[٢] والنسائي[٣] وغيرهما. وله[٤] من حديث أبي هريرة: «الكبائر أولهن الإشراك بالله»، وفيه: «والانتقال إلىٰ الأعراب بعد هجرته». وفيه خالد بن يوسف السمين، ضعيف. وللطبراني في الكبير[٥] من حديث سهل بن أبي حثمة في الكبائر: «والتعرُّب بعد الهجرة». وفيه ابن لهيعة. وله في الأوسط[٦] من حديث أبي سعيد الخدري: «الكبائر سبع»، وفيه: «والرجوع إلىٰ الأعرابية بعد الهجرة». وفيه أبو بلال الأشعري، ضعَّفه الدارقطني[٧]. وللحاكم[٨] من حديث عبيد بن عمير عن أبيه: «الكبائر تسع»، فذكر منها: «واستحلال البيت الحرام». وللطبراني[٩] من حديث واثلة: «[إن] من أكبر الكبائر أن يقول الرجل عليَّ ما لم أقُل». وله[١٠] أيضًا من حديثه: «إن من أكبر الكبائر أن ينتفي الرجل من ولده». ولمسلم[١١] من حديث جابر: «بين الرجل وبين الإشراك والكفر تركُ الصلاة». ولمسلم[١٢] من حديث عبد الله بن عمرو: «من الكبائر شتمُ الرجل والديه». ولأبي

---

(١) مسند البزار ١٠/ ٣١٤.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٣٩٨.

(٣) الضعفاء والمتروكون ص ١٣٥، وفيه: «ليس بثقة».

(٤) مسند البزار ١٥/ ٢٤١.

(٥) المعجم الكبير ٦/ ١٠٣.

(٦) المعجم الأوسط ٦/ ٣٣.

(٧) سنن الدارقطني ١/ ٤١٠.

(٨) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٧، ٤/ ٣٩٢.

(٩) المعجم الكبير ٢٢/ ٩٨.

(١٠) السابق ٢٢/ ٩٨.

(١١) صحيح مسلم ١/ ٥٢.

(١٢) السابق ١/ ٥٤.

داود[1] من حديث سعيد بن زيد: «من أربَىٰ الربا الاستطالة في عِرض المسلم بغير حق». وفي الصحيحين[2] من حديث ابن عباس أنه مرَّ ﷺ علىٰ قبرين، فقال: «إنهما لَيعذَّبان، وما يعذَّبان في كبير، وإنه لَكبيرٌ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخَر فكان لا يستتر من بوله ...» الحديث. ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة: «أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ...»[3] الحديث. ولأبي داود[4] والترمذي[5] من حديث أنس: «عُرضت عليَّ ذنوب أمتي فلم أرَ ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها». وقال الترمذي: غريب. وروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة[6] من حديث ابن عباس: «لا صغيرة مع إصرار»، وفيه أبو شيبة الخراساني، يُعرَف به، والحديث منكر. فهذه المرفوعات. وأما الموقوفات، فروىٰ الطبراني[7] والبيهقي في الشعب[8] عن ابن مسعود قال: الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. وروىٰ البيهقي فيه[9] عن ابن عباس قال: «الكبائر: الإشراك بالله، واليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرَّم الله، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الربا، والسحر، والزنا، واليمين الغَمُوس الفاجرة، والغلول، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وشرب الخمر، وتركُ الصلاة متعمِّدًا وأشياء ممَّا فرضها الله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم. وروىٰ

---

(١) سنن أبي داود ٥/ ٣٠٤.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٨٩، ٩٠، ٤١٨، ٤٢٣، ٤/ ١٠١. صحيح مسلم ١/ ١٤٧.

(٣) هذا اللفظ ليس عند أحمد، وإنما عند الطيالسي في مسنده ٤/ ٣٧٠ من حديث ابن عباس.

(٤) سنن أبي داود ١/ ٣٧٣.

(٥) سنن الترمذي ٥/ ٣٧.

(٦) التوبة ص ١٣٢، وزاد: «ولا كبيرة مع استغفار».

(٧) المعجم الكبير ٩/ ١٧١.

(٨) شعب الإيمان ٢/ ٣٤١.

(٩) السابق ١/ ٤٦١ - ٤٦٢.

ابن أبي الدنيا في التوبة[١] عن ابن عباس قال: كل ذنب أصرَّ العبد عليه كبير. وفيه الربيع بن صبيح، مختلَف فيه. وروىٰ الديلمي عن أنس قوله: لا صغيرة مع الإصرار. وإسناده جيد.

قال العراقي بعد أن ساق هذه العبارة: فقد اجتمع من الموقوفات والمرفوعات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون، إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم، وإنما ذكرتُ الموقوفات حتىٰ يُعلَم ما ورد في [المرفوعات وما ورد في] الموقوفات.

قلت: وفي الموقوفات: عن ابن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن الكبائر، فقال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله بغير حقها، وفرارٌ يومَ الزحف، وأكل مال اليتيم بغير حقه، وأكل الربا، والبهتان، ويقولون: أعرابية بعد الهجرة. قيل لابن سيرين: والسحر؟ قال: إن البهتان يجمع شرًّا كثيرًا. أخرجه ابن جرير[٢].

وعن الأوزاعي قال: [كان] يقال: من الكبائر أن يعمل الرجل الذنب فيحتقره. أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة[٣] والبيهقي في الشعب[٤].

وعن مغيرة قال: كان يقال: شتمُ أبي بكر وعمر ﷺ من الكبائر. أخرجه ابن أبي حاتم[٥].

ويُزاد علىٰ هذا ممَّا استُنبط من الأخبار: نكث الصفقة، وترك السنَّة، والتسبُّب إلىٰ شتم الوالدين، والإضرار في الوصية، والإلحاد في البيت، وهو غير استحلاله كما هو ظاهر؛ لصدقه بفعل معصية فيه ولو سرًّا، وسوء الظن بالله، والجمع بين

---

(١) التوبة ص ٧٢، وزاد: «وليس بكبير ما تاب منه العبد».

(٢) جامع البيان ٦/ ٦٤٤ - ٦٤٥.

(٣) التوبة ص ٧٨.

(٤) شعب الإيمان ٩/ ٣٥٠.

(٥) وكذلك اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ١٢٦٦.

الصلاتين بغير عذر، وقطيعة الرحم، والمن بالعطية، واعتباد الحر، وتغيير منار الأرض، وإيواء المُحدِث، والذبح لغير الله، والديائة، والقيادة. وغير ذلك ممَّا أورده ابن حجر في الزواجر.

تنبيه: الفرد[١] المطلق هو الكفر، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يُغفَر بالإجماع، فحينئذٍ وقوع لفظ الكبيرة جمعًا في الآيات والأخبار لتنوُّعه، كعبادة الصنم والشمس والقمر وكفر اليهود والنصارىٰ والمجوس وأمثالهم، أو لتعدُّد المخاطَب، فوقعت مقابلة الجمع بالجمع، أو لأن كفر زيد غير كفر عمرو.

وقال ابن حجر في شرح الشمائل[٢]: ادِّعاء أن الأكبر لا يكون إلا واحدًا إنما هو إن أريدَ الحقيقة، أما إن أريدَ الأكبر النسبي فهو يكون متعددًا، ولا شك أن الأكبر بالنسبة إلىٰ بقية الكبائر أمور أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «اتقُوا السبع الموبقات ...» الحديث، وحينئذٍ فالأكبر هنا لتعدُّده في الجواب يُراد به الأمر النسبي. والله أعلم.

ولنعُد إلىٰ شرح كلام المصنف، فإنه بعد ما أورد سياق كلام أبي طالب المكي من تقسيمه الكبائر علىٰ الأعضاء قال: (**وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء؛ إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه، فإنه جعل أكل الربا و**) أكل (**مال اليتيم من الكبائر، وهي جناية علىٰ الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقء العين**) أي نخسها (**وقطع اليدين ونحو ذلك من تعذيب المسلمين بالضر وأنواع العذاب فلم يتعرَّض له، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله، كيف وفي الخبر: من الكبائر السَّبَّتان بالسَّبَّة، ومن الكبائر استطالة الرجل في عِرض أخيه المسلم**) قال العراقي[٣]: عزاه الديلمي في مسند الفردوس

(١) شرح عين العلم لملا علي القاري ٢/ ١٨٣ - ١٨٤.
(٢) أشرف الوسائل ص ١٩٨.
(٣) المغني ٢/ ٩٩١.

لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد، والذي عندهما من حديثه: «من أربَىٰ الربا الاستطالةُ في عِرض المسلم بغير حق»، كما تقدم.

قلت: ولفظ القوت: وقد روينا عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر استطالة الرجل في عِرض أخيه المسلم بغير حق، ومن الكبائر السبتان بالسبة».

وقد رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت[١] وفي ذم الغضب هكذا عن الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن. ولفظ أبي داود[٢]: «من أكبر الكبائر استطالة المرء في عِرض الرجل المسلم بغير حق، ومن الكبائر السبتان بالسبة». وهكذا رواه أيضًا ابن أبي حاتم وابن مردويه.

وأما حديث سعيد بن زيد فقد رواه أحمد[٣] وسمويه والطبراني[٤] وابن قانع[٥] والضياء[٦] بلفظ: «إن من أربىٰ الربا الاستطالة في عِرض المسلم بغير حق ...» الحديث.

(وهذا زائد علىٰ قذف المحصن.

وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة) رضوان الله عليهم: **(إنكم لَتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر كنا نعدُّها علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الكبائر)** لفظ القوت: وأما عبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدري وغيرهما من الصحابة فكانوا

(١) الصمت وآداب اللسان ص ٣٠٦.
(٢) سنن أبي داود ٥/ ٣٠٤.
(٣) مسند أحمد ٣/ ١٩٠.
(٤) المعجم الكبير ١/ ١٥٤.
(٥) معجم الصحابة ١/ ٢٦٠.
(٦) الأحاديث المختارة ٣/ ٣٠٥.

يقولون: إنكم لَتعملون أعمالاً هي أدَقُّ في أعينكم من الشعر كنا نعدُّها علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. وهي في بعض الألفاظ: من الموبِقات.

قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] والبزار[٣] بسند صحيح وقالا: من الموبِقات، بدل: الكبائر. ورواه البخاري[٤] من حديث أنس، وأحمد[٥] والحاكم[٦] من حديث عبادة بن قرص، وقال: صحيح الإسناد.

(**وقالت طائفة**) من العلماء: (**كل عمدٍ كبيرةٌ**) نقله صاحب القوت (**و**) قال آخَرون: (**كل ما نهىٰ الله عنه فهو كبيرة**) كذا في القوت. ورواه البيهقي في الشعب عن ابن عباس، وقد تقدم.

(**وكشفُ الغطاء عن هذا أنَّ نظر الناظرِ في السرقة هل هي كبيرة أم لا لا يصح ما لم يفهم معنىٰ الكبيرة والمراد بها**) وهذا (**كقول القائل: السرقة حرام أم لا، لا مَطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنىٰ الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة**).

(**فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات**) أي من[٧] الأسماء المتضايفة، ويُستعمَلان في الكمِّية المتصلة كالأجسام وذلك كالكثير والقليل، وفي الكمية المنفصلة كالعدد (**وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلىٰ ما دونه، وصغير بالإضافة إلىٰ ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلىٰ النظرة، صغيرة بالإضافة**

---

(١) المغني ٢/ ٩٩١.

(٢) مسند أحمد ١٧/ ٢٦.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٧٢.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٨٩.

(٥) مسند أحمد ٢٥/ ١٩٠، ٣٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٩٤.

(٧) المفردات للراغب ص ٤٢٠.

إلىٰ الزنا. وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلىٰ ضربه، صغيرة بالإضافة إلىٰ قتله) ونقل[١] ابن الرفعة[٢] وغيره عن القاضي حسين عن الحليمي[٣] أن الكبيرة: كل محرَّم لعينه منهيٌّ عنه لمعنىٰ في نفسه، فإن فعله علىٰ وجه يجمع وجهين أو وجوهًا من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة، وبحليلة الجار فاحشة. والصغيرة: تعاطي ما ينقُص [رتبته] عن رتبة المنصوص عليه، أو تعاطيه علىٰ وجهٍ دون المنصوص عليه، فإن تعاطاه علىٰ وجه يجمع وجهين أو وجوهًا من التحريم كان كبيرة، فالقُبلة واللمس والمفاخذة صغيرة، ومع حليلة الجار كبيرة. ومن اختيارات الحليمي أنه ما من ذنب إلا وفيه صغيرة وكبيرة، وقد تنقلب الصغيرة كبيرة بقرينة تُضَم إليها، وتنقلب الكبيرة فاحشة بقرينة تُضَم إليها، إلا الكفر بالله فإنه أفحش الكبائر، وليس من نوعه صغيرة **(نعم، للإنسان أن يطلق علىٰ ما تُوعِّد بالنار)** في الآخرة **(علىٰ فعله خاصةً اسم الكبيرة، ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة. وله أن يطلق علىٰ ما أوجب الحدَّ عليه)** في الدنيا **(مصيرًا إلىٰ أن ما عُجِّل عليه في الدنيا عقوبة واجبة)** من رجم أو قتل أو ضرب **(عظيم. وله أن يطلق علىٰ ما ورد في نص الكتاب النهيُ عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل علىٰ عِظَمه، ثم يكون عظيمًا وكبيرة لا محالة بالإضافة؛ إذ منصوصات القرآن أيضًا تتفاوت درجاتها. فهذه الإطلاقات لا حرج فيها، وما نُقل من ألفاظ الصحابة)** ابن مسعود وأبي سعيد وابن عمرو وغيرهم **(يتردَّد بين هذه الجهات، ولا يبعُد تنزيلها علىٰ شيء من هذه الاحتمالات. نعم، من المهمَّات أن تعلم معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾)** أي[٤] كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقُرِئ «كبير»[٥] علىٰ إرادة الجنس **(﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾)** [النساء: ٣١]

---

(١) الزواجر ١/ ٥.

(٢) كفاية النبيه بشرح التنبيه ١٩/ ١٠١.

(٣) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٣٩٦ - ٣٩٩.

(٤) أنوار التنزيل للبيضاوي ٢/ ٧١.

(٥) قرأ بذلك ابن عباس وسعيد بن جبير. البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٢٤٤.

أي نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم (و) معنىٰ (**قول رسول الله ﷺ: الصلوات**) **الخمس** (**كفَّارات لِما بينهن إلا الكبائر**) رواه مسلم، وقد تقدم الكلام عليه قريبًا (**فإنَّ هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلىٰ ما يُعلَم استعظامه إياها**) بالإيعاد عليها أو بإيجاب الحد في الدنيا علىٰ مرتكبها مثلاً (**وإلىٰ ما يُعلَم أنها معدودة في الصغائر**) وذلك ينقص رتبتها عن رتبة المنصوص عليها (**وإلىٰ ما يُشَك فيه فلا يُدرَىٰ حكمه**) أهو من الكبائر أم من الصغائر (**فالطمع في معرفة عدد خاص**) ينتهي إليه (**أو حدٍّ جامع**) للإيراد (**مانع**) من دخول ما ليس فيه منه (**طلبٌ لِما لا يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشرًا أو خمسًا**) أو سبعًا (**ويفصِّلها، فإن لم يَرِدْ هذا بل ورد في بعض الألفاظ: ثلاث من الكبائر**) وهو ما رواه أحمد[1] والشيخان[2] والترمذي[3] من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور». ورواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مساوئ الأخلاق[4] من حديث أبي الدرداء. وأخرجه أحمد[5] والنسائي[6] وابن جرير[7] وابن المنذر[8] والحاكم[9] وصحَّحه من حديث أبي أيوب: «مَن عبدَ اللهَ لا يشرك به شيئًا وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاةَ وصام رمضان واجتنب الكبائر فله الجنة». فسأله رجل: ما الكبائر؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس المسلمة، والفرار يوم

---

(١) مسند أحمد ٣٤/ ٢٢، ٣٦.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٢٥١، ٤/ ٨٧، ١٤٦، ٢٧٨. صحيح مسلم ١/ ٥٤.

(٣) سنن الترمذي ٣/ ٤٦٥، ٤/ ١٣٧، ٥/ ١١٦.

(٤) مساوئ الأخلاق ص ١٢٢.

(٥) مسند أحمد ٣٨/ ٤٨٨، ٤٩٢.

(٦) سنن النسائي ص ٦١٩.

(٧) جامع البيان ٦/ ٦٥٥ - ٦٥٦.

(٨) تفسير ابن المنذر ص ٦٦٦.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٦٧.

الزحف» (وفي بعضها: سبع من الكبائر) رواه[1] الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد: «الكبائر سبع»، وقد تقدم. وله في الكبير[2] من حديث عبد الله بن عمرو: «مَن صلىٰ الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ...» الحديث، ثم عدَّها سبعًا. وتقدم عن الصحيحين من حديث أبي هريرة: «اجتنِبوا السبع الموبِقات» (ثم ورد أن السَّبتين بالسَّبَّة الواحدة من الكبائر) كما رواه أبو داود وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي هريرة، وتقدم (وهو خارج عن السبع والثلاث عُلم أنه لم يُرِدْ به العددَ والحصر) وإذا كان الأمر كذلك (فكيف يُطمَع في عدد ما لم يعدِّده الشرع، وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العِباد منه علىٰ وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظُم جدُّ الناس في طلبها) ولهذا ذهب بعض السلف إلىٰ أن الكبائر مبهمة وقطع بذلك، كما تقدم (نعم، لنا سبيل كليٌّ يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق، وأما أعيانها فتُعرَف بالظن والتقريب) وذلك بالحدود التي ذُكرت آنفًا (ونعرف أيضًا أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل) لنا (إلىٰ معرفته. وبيانه: أنَّا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعًا أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلىٰ جوار الله تعالىٰ وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلىٰ ذلك إلا بمعرفة الله تعالىٰ ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] أي) إلا ليعرفون، أو (ليكونوا عبيدًا لي) خاصةً (ولا يكون العبد عبدًا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية، ولا بد أن يعرف نفسه وربه) كما يرشد إليه الخبرُ: «مَن عرف نفسه عرف ربه» (فهذا هو المقصود الأقصىٰ ببعثة الأنبياء) والرسل عليهم السلام إلىٰ الخلق ليرشدوهم إلىٰ ذلك، وكذا بإرسال الكتب من السماء (ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعنيُّ بقوله ﷺ: الدنيا مزرعة الآخرة) قال

---

(١) المغني للعراقي ٢/ ٩٩٢.

(٢) المعجم الكبير ١٤/ ٦ - ٧، وفيه: «من صلىٰ الصلوات الخمس واجتنب الكبائر دخل من أي أبواب الجنة شاء».

العراقي[١]: لم أجده بهذا اللفظ مرفوعًا، وروىٰ العقيلي في الضعفاء[٢] وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم: «نِعمت الدار الدنيا لمَن تزوَّد منها لآخرته ...» الحديث، وإسناده ضعيف.

قلت: وتمامه: «حتىٰ يرضي ربَّه، وبئست الدار الدنيا لمَن صدَّته عن آخرته وقصرت به عن رضا ربه، وإذا قال العبد: قبَّح الله الدنيا، قالت الدنيا: قبَّح الله أعصانا لربه». وقد رواه كذلك الرامهرمزي في الأمثال[٣]. وهو عند الحاكم في مستدركه[٤] وصحَّحه، لكن تعقَّبه الذهبي بأنه منكر، وأن عبد الجبار - يعني راويه - لا يُعرَف.

ويُروَىٰ من قول سعيد بن عبد العزيز: الدنيا غنيمة الآخرة. أخرجه أبو نعيم في الحلية[٥] من طريق عقبة بن علقمة عنه.

(فصار حفظُ الدنيا أيضًا تابعًا مقصودًا لحفظ الدين[٦]؛ لأنه وسيلة إليه، والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسد بابَ معرفة الله) وصفاته **(فهو أكبر الكبائر، ويليه ما يسد باب حياة النفوس، ويليه ما يسد باب المعايش التي بها حياة النفوس. فهذه ثلاث مراتب، فحفظُ المعرفة علىٰ القلوب و)** حفظ **(الحياة علىٰ الأبدان و)** حفظ **(الأموال علىٰ الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يُتصور أن تختلف فيها المِلَل)** بأسرها **(فلا يجوز أن الله تعالىٰ يبعث نبيًّا يريد ببعثته إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال)**.

---

(١) المغني ٢/ ٩٩٢.

(٢) الضعفاء الكبير ٣/ ٨٤٣.

(٣) أمثال الحديث ص ٨٦، ٢٣٢.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٥٤.

(٥) حلية الأولياء ٦/ ١٢٥.

(٦) في الجميع: مقصودًا تابعًا للدين.

(فحصل من هذا أن الكبائر علىٰ ثلاث مراتب:

الأولىٰ: ما يمنع من معرفة الله تعالىٰ ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر؛ إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقرِّبة إليه هي العلم والمعرفة، وقربُه) من ربه **(بقدر معرفته)** وعلمه **(وبُعدُه)** منه **(بقدر جهله)** فمَن قويَ جهلُه كان في المرتبة الأقصىٰ من البعد، ومَن قويَ علمُه كان في المرتبة الأعلىٰ من القرب **(ويتلو الجهلَ الذي يسمَّىٰ كفرًا الأمنُ من مكر الله)** بالاسترسال في المعاصي مع الاتِّكال علىٰ الرحمة **(والقنوط من رحمته)** وهو[1] بعينه اليأس من رحمته وسوء الظن بالله تعالىٰ؛ لتلازُم الثلاثة في معنًىٰ واحد، لكن الجلال البلقيني عدَّ كلَّ واحدةٍ كبيرةً مستقلة، ومن ثَم قال أبو زُرعة العراقي[2]: وفي معنىٰ اليأس القنوطُ، والظاهر أنه أبلغُ منه؛ للترقِّي إليه في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: ٤٩]. ا.هـ. والظاهر أيضًا أن سوء الظن أبلغُ منهما؛ لأنه يأس وقنوط وزيادة التجويز علىٰ الله تعالىٰ ما لا يليق بجوده وكرمه. وفي حديث ابن عباس أنه ﷺ سُئل عن الكبائر، فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله». أخرجه البزار[3] وابن أبي حاتم. وأخرج ابن المنذر[4] عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أكبر الكبائر: الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله». وأخرج ابن جرير عن أبي سعيد نحوه **(فإنَّ هذا أيضًا عين الجهل، فمَن عرف الله)** بصفاته الحسنىٰ **(لم يُتصور أن يكون آمنًا)** من مكره وغضبه **(ولا أن يكون آيسًا)** من رحمته **(ويتلو هذه الرتبةَ البدعُ كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها علىٰ حسب تفاوت الجهل بها، وعلىٰ**

---

(١) الزواجر ١/ ٧٤.

(٢) الغيث الهامع شرح جمع الجوامع ص ٤٤٩ (ط - دار الكتب العلمية).

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٧١، وفيه (والقنوط من رحمة الله) بدل: والأمن من مكر الله.

(٤) تفسير ابن المنذر ص ٦٦٩.

حسب تعلُّقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه) ومن[1] ذلك التكذيب بالقدَر، أي بأن الله يقدِّر علىٰ عبده الخير والشر، كما زعمه المعتزلة، فإنهم يقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه من دون الله تعالىٰ، فهم ينكرون القدَر فسُمُّوا لذلك قَدَرية. وكذا القول بالإرجاء والإباحة ومقالة جهم والتعطيل والشطح والرفض، وغير ذلك من البدع مما يُذهِب الإيمانَ ويُنبِت النفاقَ **(ومراتب ذلك لا تُحصَىٰ، وهي تنقسم إلىٰ ما يُعلَم أنها داخلة تحت ذِكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلىٰ ما يُعلَم أنها لا تدخل، وإلىٰ ما يُشَك فيه. وطلبُ رفعِ الشك في القسم المتوسط طمعٌ في غير مَطمع.**

المرتبة الثانية: النفوس؛ إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله) تعالىٰ **(فقتل النفس لا محالة من الكبائر)** كما ورد التصريح بذلك في الآيات والأخبار المتقدمة **(وإن كان دون الكفر؛ لأن ذلك)** أي الكفر **(يصدم عينَ المقصود، وهذا)** أي القتل **(يصدم وسيلةَ المقصود؛ إذ حياة الدنيا لا تُراد إلا للآخرة والتوصل بها إلىٰ معرفة الله تعالىٰ. ويتلو هذه الكبيرةَ قطعُ الأطراف)** كاليدين والرِّجلين والأنف والأذن واللسان **(وكل ما يفضي إلىٰ الهلاك)** ولو بعد مدة **(حتىٰ الضرب)** المثخن **(وبعضها أكبر من بعض)** فإنَّ في كل ذلك صدمًا لوسائل المقصود **(ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط)** في الأدبار **(لأنه لو اجتمع الناس علىٰ الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل)** أي الذرية **(ودفعُ الموجود قريب من قطع الوجود)** هذا في اللواط **(وأما الزنا فإنه لا يفوِّت أصل الوجود ولكن يشوِّش الأنسابَ)** ويخلطها **(ويُبطِل التوارُث)** المشروع **(والتناصُر)** أي التعاون في الأمور المهمَّة **(وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظامُ مع إباحة الزنا؟ ولا تنتظم أمور البهائم ما لم يتميَّز الفحل منها بإناث يختصُّ)** هو **(بها عن سائر الفحول، ولذلك لا يُتصور أن يكون الزنا مباحًا في أصل شرعٍ قُصد به**

---

(١) من هنا إلىٰ قوله (قدرية) عن كتاب الزواجر ١/ ٨٢.

الإصلاح. وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل؛ لأنه ليس يفوِّت دوامَ الوجود ولا يمنع أصله، ولكنه يفوِّت تمييزَ الأنساب، ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلىٰ التقاتل) والتهالُك (وينبغي أن يكون أشد من اللواط؛ لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين) الذكر والأنثىٰ بحكم الفطرة (فيكثُر وقوعُه، ويعظُم أثرُ الضرر بكثرته) بخلاف اللواط.

(المرتبة الثالثة: الأموال، فإنها معايش الخلق) يتعاملون بها (فلا يجوز تسلُّط الناس علىٰ تناولها كيف شاؤوا حتىٰ بالاستيلاء) والقهر والغلبة (والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تُحفَظ لتبقىٰ ببقائها النفوسُ. إلا أن الأموال إذا أُخِذت أمكن استردادُها) لأربابها (وإن أُكِلت أمكن تغريمها، فليس يعظُم الأمرُ فيها) لإمكان التدارُك في الحالين (نعم، إذا جرىٰ تناولها بطريق يعسر التدارُكُ فيه فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق، أحدها: أخذُها خفيةً وهي السرقة) وهي أخذُ ما ليس له أخذُه في خفاء (فإنه إذا لم يُطَّلَع عليه غالبًا كيف يُتدارك)؟ وفي معناها الاختلاس والاستلال (الثاني: أكل مال اليتيم، وهذا أيضًا من الخفية، وأعني به في حق الوليِّ) علىٰ ماله (والقيِّم) عليه من جهة الشرع (فإنه مؤتمَن فيه، وليس له خصم سوىٰ اليتيم، وهو صغير لا يعرفه، فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يُعرَف، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودَع خصم فيه ينتصف لنفسه. الثالث: تفويتها) أي الأموال (بشهادة الزور) أي الكذب بأن يشهد بما لا يتحقَّقه. قال العز ابن عبد السلام[١]: وعدُّها كبيرةً ظاهر إن وقعت في مال خطير، فإن وقعت في قليل كزبيبة أو تمرة فمشكل. كما سيأتي الكلام عليه قريبًا (الرابع: أخذُ الوديعة وغيرها باليمين الغموس) وقد تقدم معناها (فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارُك، ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشد من بعض، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس) قال العز ابن عبد السلام في قواعده[٢]: وإن

---

(١) قواعد الأحكام ١/ ٣٠.

(٢) القواعد الصغرىٰ [الفوائد في اختصار المقاصد] ص ٨٨ (ط - دار الفكر).

كان الشاهد بها كاذبًا أثمَ ثلاثة آثام: إثم المعصية، وإثم إعانة الظالم، وإثم خذلان المظلوم [بتفويت حقه] وإن كان صادقًا أثمَ إثم المعصية لا غير؛ لتسبُّبه إلىٰ إبراء ذمَّة الظالم وإيصال المظلوم إلىٰ حقه (**وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحدَّ في بعضها، ولكن أكثرَ الوعيدَ عليها**) بالنار وبالويل وبالعذاب الأليم (**وعظَّم في مصالح الدنيا تأثيرها. وأما أكل الربا فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضي**) من الجانبين (**مع الإخلال بشرط وضعه الشرع**) ورتَّبه (**ولا يبعُد أن تختلف الشرائع في مثله. وإذا لم يُجعَل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أَولىٰ أن لا يكون من الكبائر، فأكل الربا أكلٌ برضا المالك، ولكن دون رضا الشرع، وإن عظَّم الشرع الربا بالزجر عنه**) والوعيد عليه (**فقد عظَّم أيضًا الظلم بالغصب وغيره، وعظَّم الخيانة**) وهي التفريط في الأمانة (**والمصير إلىٰ أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظرٌ، وذلك واقع في مَظَنَّة الشك، وأكثر ميل الظن إلىٰ أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرائع فيه ليكون ضروريًّا في الدين**) اعلمْ أنه ذكر(١) ابن عبد السلام في القواعد أن أخذ الأموال وتفويتها علىٰ أربابها بشهادة الزور كبيرة إن كان في مال خطير وإلا فمشكل، فيجوز أن يُجعَل من الكبائر فطمًا عن المفاسد كما جُعل شرب قطرة من الخمر من الكبائر وإن لم تتحقق المفسدة، ويجوز أن يُضبَط ذلك المال بنصاب السرقة. قال: وكذلك القول في أكل مال اليتيم. قال في الخادم: ويشهد للثاني ما نُقل عن أبي سعيد الهروي اشتراطه في كون الغصب كبيرة أن يكون المغصوب ربع دينار، لكن ذكر ابن عبد السلام نفسه أنه حُكي الإجماع علىٰ أن غصب الحبة وسرقتها كبيرة، وهذا يؤيد أنه لا فرق في كون شهادة الزور كبيرة بين قليل المال وكثيره فطمًا عن [هذه] المَفسدة (**فيبقىٰ مما ذكره**) الإمام (**أبو طالب المكي**) في القوت (**القذف والشرب والسحر**

---

(١) الزواجر ١/ ٢١٢، ٢/ ١٦١.

والفرار من الزحف وعقوق الوالدين. أما الشرب لِما يزيل العقل، فهو جدير بأن يكون من الكبائر، وقد دلَّت عليه تشديدات الشرع) فمن ذلك ما رواه الشيخان[(١)] والنسائي[(٢)] من حديث أبي هريرة: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، وقد تقدم. وروى الترمذي[(٣)]: «إذا فعلت أمَّتي ثنتي عشرة خصلة فقد حلَّ بهم البلاء»، فذكرها، وفيه: «وشُربت الخمور»، وتقدم. وروى الحاكم[(٤)] وصحَّحه: «اجتنِبوا الخمر، فإنها مفتاح كل شر». وفي جامع رزين: «الخمر جُمَّاع الإثم»[(٥)]. وعند ابن ماجه[(٦)] من حديث أبي الدرداء: «لا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر». وروى الطبراني[(٧)] من حديث ابن عباس قال: لمَّا حُرِّمت الخمر قالوا: حُرِّمت الخمر وجُعلت عِدلاً للشرك. وعند أحمد من حديث قيس بن سعد: «مَن شرب الخمر خرج نور الإيمان من قلبه»[(٨)]. وعند البزار[(٩)]: «سقاه الله من حميم جهنم». إلى غير ذلك من الأخبار الواردة فيه **(و)** دلَّ عليه **(طريق النظر أيضًا؛ لأن العقل محفوظ، كما أن النفس محفوظة)** فكما يجب حفظُ النفس يجب حفظ العقل **(بل**

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٢٠١، ٤/ ١١، ٢٤٥، ٢٥٢. صحيح مسلم ١/ ٤٥ - ٤٦.

(٢) سنن النسائي ص ٧٤٢ - ٧٤٣، ٨٤٨ - ٨٤٩.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٧٠ - ٧١ من حديث علي بن أبي طالب، وفيه (خمس عشرة خصلة).

(٤) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٥٥ من حديث ابن عباس.

(٥) رواه الدارقطني في سننه ٥/ ٤٤٤ من حديث زيد بن خالد الجهني، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٤٢ من حديث عقبة بن عامر، وأبو الشيخ الأصفهاني في أمثال الحديث ١٨١ من حديث أبي الدرداء.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٧٧.

(٧) المعجم الكبير ١٢/ ٣٧.

(٨) لم أقف عليه عند أحمد بهذا اللفظ، وإنما رواه الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ١١٠ من حديث أبي هريرة بلفظ: «من شرب خمرا أخرج الله نور الإيمان من جوفه». والذي في مسند أحمد ٢٤/ ٢٢١ من حديث قيس بن سعد بن عبادة لفظه: «من شرب الخمر أتى عطشانا يوم القيامة، ألا فكل مسكر خمر، وإياكم والغبيراء».

(٩) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ٣٥٤ من حديث ابن عمر.

لا خير في النفس دون العقل، فإزالة العقل) بالمسكرات (من الكبائر، ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة، وإنما هو شرب ماء نجس، والقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحد به يدل علىٰ تعظيم أمره، فيُعَدُّ ذلك من الكبائر بالشرع، وليس في القوة البشرية الوقوف علىٰ جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماعٌ في أنه كبيرة وجب الاتِّباع، وإلا فللتوقُّف فيه مجال) قال ابن حجر في الزواجر[١]: أما شرب الخمر ولو قطرة منها فكبيرة إجماعًا، ويلحق بذلك شربُ المسكر من غيرها، وفي إلحاق غير المسكر خلاف، والأصح إلحاقه إن كان شافعيًّا. وأما ما اقتضاه كلام الروياني[٢] من أن شرب غير الخمر إنما يكون كبيرة إذا سكرَ منه، فمردود بأن القدْر الذي لا يسكر داخل تحت الخمر علىٰ المشهور عند الشافعية من ثبوت اللغة قياسًا، وفيه الحد عندهم أيضًا. أي والحد من العلامات القطعية الدالَّة علىٰ كون الشيء المحدود عليه كبيرة، فسكوت الرافعي علىٰ كلام الروياني ضعيف. وكذلك قول الحليمي[٣]: لو خلط خمرًا بمثلها من الماء فذهبت شدتها وشربَها فصغيرة. ا.هـ. وقد قال الأذرعي عقبه: وفيه نظرٌ، ولا يسمح الأصحاب بذلك فيما أراه، وقد قالوا: إن شرب القطرة منها كبيرة، ومعلوم أنها لا تؤثِّر. ا.هـ. وهو ظاهر، وهذا في حق مَن يعتقد التحريمَ، أما مَن يعتقد الحِل فقال الشافعي: أحدُّه وأقبل شهادتَه[٤]. أي لأنه لم يأتِ كبيرةً في عقيدته. علىٰ أن ما نقله الرافعي عن الروياني ذكر مثله القاضي أبو سعيد الهروي وحكىٰ الخلاف ولم يرجِّح منه شيئًا، فقال في تعداد

---

(١) الزواجر ٢/ ١٣٠- ١٣١.

(٢) انظر: بحر المذهب للروياني ١٣/ ١١٩ - ١٢٩.

(٣) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٣٩٨.

(٤) عبارة الشافعي في الأم ٧/ ٥١٢: «إذا كان الرجل المستحل للأنبذة يحضرها مع أهل السفه الظاهر ويترك لها الحضور للصلوات وغيرها وينادم عليها ردت شهادته بطرحه المروءة وإظهاره السفه، وأما إذا لم يكن ذلك معها لم ترد شهادته من قبل الاستحلال».

الكبائر: وشرب الخمر والمسكر من غيره، وفي اليسير منه خلاف إذا كان شافعيًّا. ا.هـ. والأرجح ما ذُكر أنه كبيرة أيضًا. وأما قول الحليمي: شرب الخمر كبيرة، فإن استكثر منه حتىٰ سكرَ أو جاهر به ففاحشة، فإن مزج خمرًا بمثلها من الماء فذهبت شدتها وشربها فذلك من الصغائر. فمردود أيضًا، فإن الأصحاب لا يسمحون بما قاله في مزج الخمر بمثلها، بل الصواب كما قاله الجلال البلقيني الجزم بخلاف ما قاله، وأن ذلك كبيرة لا محالة. ومرَّ أن العز ابن عبد السلام اختار ضبط الكبيرة بما يُشعِر بتهاون مرتكبها بدينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها [بذلك] وقرَّر ذلك إلىٰ أن قال: فعلىٰ هذا إن كانت مفسدته كمفسدة ما قُرن به وعيد أو لعن أو حدٌّ أو كان أكثر مفسدةً منه فهو كبيرة. ا.هـ. وذيَّلَ عليه ابنُ دقيق العيد أنه: لا بد أن لا تؤخذ المفسدة مجردة عمَّا يقترن بها من أمر آخر، فإنه قد يقع الغلط في ذلك. قال: ألا ترىٰ أن السابق إلىٰ الذهن في مفسدة الخمر السكْر وتشويش العقل، فإن أخذناه بمجرده لزم أن لا يكون شرب القطرة الواحدة كبيرة لخلوِّها عن المفسدة المذكورة، لكنها كبيرة لمفسدة أخرىٰ وهي التجرؤ علىٰ شرب الكثير الموقِع في المفسدة، فهذا الاقتران يصيِّره كبيرة. والله أعلم.

(**وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض**) بالشتم والغِيبة صريحًا أو كنايةً (**والأعراض دون الأموال في الرتبة**) ويدل لذلك حديث الصحيح: «فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم وأعراضهم» (**ولتناوُلها مراتب، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة**) أي النسبة (**إلىٰ فاحشة الزنا**) كأنْ يقول: يا زاني، أو يا منكوح، أو يا عِلْق، ونحو ذلك. وللمرأة: يا زانية، أو بغيَّة، أو قحبة. أو بنتها: يا بنت الزنا. أو ولدها: يا ولد القحبة (**وقد عظَّم الشرع أمره**) ففي[1] الكتاب قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ إلىٰ آخر الآيتين [النور: ٤ - ٥] صريحًا في الأولىٰ للنص فيها علىٰ أن ذلك فسقٌ، وضمنًا في الثانية للنص فيها علىٰ أن ذلك يلعن الله فاعله في الدنيا والآخرة،

---

(١) الزواجر ٢/ ٤٦.

وهذا من أقبح الوعيد وأشدِّه (**وأظن ظنًّا غالبًا أن الصحابة**) رضوان الله عليهم (**كانوا يعدُّون كل ما يجب به الحدُّ كبيرة**) كما سبق النقل عن جماعة منهم (**فهو بهذا الاعتبار لا تكفِّره الصلواتُ الخمس**) يشير إلىٰ حديث أبي هريرة عند مسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة ورمضان إلىٰ رمضان مكفِّرات لِما بينهن إذا اجتُنِبت الكبائر»، وقد تقدم (**وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع، فالقياس بمجرده لا يدل علىٰ كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يَرِدَ الشرع بأن العدل الواحد إذا رأىٰ إنسانًا يزني**) بامرأة أجنبية (**فله أن يشهد ويُجلَد المشهود عليه**) وهو الزاني (**بمجرد شهادته**) ولا يحتاج إلىٰ ضم عدلٍ آخر معه (**فإن لم تُقبَل شهادته**) لكونه وحده (**فحدُّه ليس ضروريًّا في مصالح الدنيا وإن كان علىٰ الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات، فإذًا هذا أيضًا يلتحق بالكبائر في حق مَن عرف حكم الشرع، فأما مَن ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده علىٰ**) تلك (**الشهادة غيرُه فلا ينبغي أن يُجعَل في حقه من الكبائر**.

وأما السحر فإن كان فيه كفرٌ فكبيرة، وإلا فعظمته علىٰ حسب الضرر الذي يتولَّد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره) اعلمْ أن[١] السحر أقسام، أولها: سحر الكشدانيين الذين بُعث إليهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مبطلاً لمقالاتهم، وهم فِرق ثلاث. الثاني: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية. الثالث: الاستعانة بالأرواح الأرضية. وهذه الأنواع الثلاثة أنكرها المعتزلة. الرابع: التخيلات والأخذ بالعيون. الخامس: الأعمال الغريبة التي تظهر من تركيب الآلات علىٰ النسب الهندسية. السادس: الاستعانة بخواص الأدوية المزيلة للعقل ونحوها. السابع: تعليق القلب بأن يدَّعي أنه يعرف الاسم الأعظم، وأن الجن تطيعه، فيتعلق به قلبُ غيره، فيتمكَّن الساحر من أن يفعل فيه ما يشاء[٢]. وحُكي عن الشافعي أنه قال:

---

(١) السابق ٢/ ٨٤، ٨٦، ٩٠.

(٢) هذه الأقسام ذكرها الفخر الرازي في التفسير الكبير ٣/ ٢٢٣ - ٢٣٠ وأضاف إليها نوعا ثامنا وهو: السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفية لطيفة.

السحر يخبل ويُمرِض ويقتل، والقصاص واجب علىٰ مَن قتل به، وهو من عمل الشيطان. وقيل: إنه يؤثِّر في قلب الأعيان. وقيل: الأصح أنه كذلك[١]، لكنه يؤثِّر في الأبدان بالأمراض والموت والجنون. واختلف العلماء في الساحر هل يكفر أم لا، وليس من محل الخلاف النوعان الأولان، وأما النوع الثالث فالمعتزلة وحدهم أقرُّوه، وأما بقية أنواعه فقال جماعة: إنه كفر مطلقًا، وقال الشافعي وأصحابه بعدم الكفر. وهل تُقبَل توبة الساحر؟ فالنوعان الأولان معتقد أحدهما مرتدٌّ، فإن تاب وإلا قُتل، وقال مالك وأبو حنيفة: لا تُقبَل توبتهما. وأما النوع الثالث وما بعده فإن اعتقد أن فعله مباح قُتل لكفره، وإن اعتقد أنه حرام فعند الشافعي أنه جناية، فإذا فعله بالغير وأقرَّ أنه يقتل غالبًا قُتل؛ لأنه عمد، أو نادرًا فهو شِبه عمد، أو أخطأ من اسم غيره إليه فهو خطأ، والدية علىٰ العاقلة إن صدَّقتْه؛ إذ لا يُقبَل إقراره عليهم. وعن أبي حنيفة: إن أقرَّ بأني كنت أسحر مدةً وقد تركتُ ذلك منذ زمان، قُبل منه ولم يُقتَل[٢]. وقد ظهر بالآيات والأخبار أن سائر أنواعه كفر، وقال به كثيرون، فلا أقل من كونها كبيرة لا سيَّما مع ما ورد فيها من الوعيد الشديد والزجر البليغ.

(**وأما الفرار من الزحف**) غير متحرِّف لقتال أو متحيِّز إلىٰ فئة (**وعقوق الوالدين**) أو أحدهما (**فهذا أيضًا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقُّف، وإذا قُطع بأن السب للناس بكل شيء**) من أنواعه (**سوىٰ الزنا**) بصريح أو كناية (**و**) سوىٰ (**ضربهم**) المؤدِّي إلىٰ الهلاك (**و**) سوىٰ (**الظلم لهم بغصب أموالهم**) وإن كان المغصوب عليه قليلاً (**و**) سوىٰ (**إخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم عن أوطانهم ليس من الكبائر؛ إذ لم يُنقَل ذلك في السبع عشرة كبيرة، وهو أكثر ما قيل فيه**) كما ذكره صاحب القوت (**فالتوقُّف في هذا أيضًا غير بعيد، ولكن**

---

(١) في الزواجر: أنه تخييل.

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ١٢/ ٢٩٩ - ٣٠٦. مغني المحتاج للشربيني ٤/ ١٥٤ - ١٥٥. الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني للنفراوي ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨ (ط - دار الكتب العلمية). تبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٢٩٣.

الحديث يدل على تسميته كبيرة) وهو حديث ابن عباس: «الكبائر: الإشراك بالله ...» فساقه، وفيه: «وعقوق الوالدين، والفرار يوم الزحف»، وقد تقدم **(فليلتحق بالكبائر، فإذا رجع حاصل الأمر إلىٰ أنّا نعني بالكبيرة ما لا تكفِّره الصلواتُ الخمس بحكم الشرع، وذلك ممَّا انقسم إلىٰ ما عُلم أنه لا تكفِّره قطعًا، وإلىٰ ما ينبغي أن تكفره، وإلىٰ ما يُتوقف فيه، والمتوقَّف فيه بعضُه مظنون للنفي والإثبات)** برجحان الاعتقاد مع احتمال النقيض **(وبعضه مشكوك فيه)** بالتردُّد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما **(وهو شكٌّ لا يزيله إلا نص كتاب أو سنَّة، وإذًا لا مَطمع فيه، فطلبُ رفعِ الشك فيه مُحال)** إذ لا نص في ترجيح أحد الاحتمالين علىٰ الآخر.

(فإن قلت: هذا) الذي ذكرتَه **(إقامة برهان علىٰ استحالة معرفة حدِّها، فكيف يَرِدُ الشرع بما يستحيل معرفة حدِّه؟ فاعلمْ أن كل ما يتعلق به حكمٌ في الدنيا فيجوز أن يتطرَّق إليه الإبهام، فإن دار التكليف هي دار الدنيا، والكبيرة علىٰ الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، بل كل موجِبات الحدود)** الشرعية **(معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما)** كاللواط والشرب والقذف **(وإنما حكمُ الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها، فهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليقُ به حتىٰ يكون الناس علىٰ وجل وحذر فلا يتجرَّؤون علىٰ)** اقتراف **(الصغائر اعتمادًا علىٰ الصلوات الخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجِب قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾)** [النساء: ٣١] يعني الصغائر **(ولكن اجتناب الكبائر إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمَن يتمكَّن من امرأة)** بأن اختلىٰ بها **(ومن مواقعتها فيكفُّ)** أي يمنع **(نفسه عن الوقوع)** بها **(فيقتصر علىٰ نظر أو لمس)** أو تقبيل **(فإنَّ مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرًا في تنوير قلبه من إقدامه علىٰ النظر في إظلامه، فهذا معنىٰ تكفيره، فإن كان عِنِّينًا)** وهو العاجز عن إتيان النساء **(أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز)** القائم به **(أو كان قادرًا)** علىٰ الوقاع **(ولكن امتنع لخوف أمر**

آخر) من الخارج (**فهذا لا يصلُح للتكفير أصلاً. وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيحَ له لَما شربها فاجتنابها لا يكفِّر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار**) بأنواعها (**نعم، مَن يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع**) أي سماع الملاهي والأوتار (**فمجاهدته النفس بالكف**) عن الخمر (**ربما تمحو عن قلبه الظلمةَ التي ارتفعت إليه من معصية السماع**) وقد تقدم أن المعاصي ترتفع منها ظلمة إلىٰ القلب فتُظلِمه، كما أن الطاعات يرتفع إليه منها نورٌ فينوِّره (**فكل هذه أحكام أخروية، ويجوز أن تبقىٰ في محل الشك وتكون من المشتبهات فلا يُعرَف تفصيلها إلا بالنص**) القاطع (**ولم يَرِدِ النصُّ بعدد**) معلوم (**ولا حدٍّ جامع**) أو مانع (**بل ورد بألفاظ مختلفة، فقد روىٰ أبو هريرة** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أنه قال: قال رسول الله** ﷺ: **الصلاة إلىٰ الصلاة كفارة، ورمضان إلىٰ رمضان كفَّارة، إلا من ثلاث: الشرك بالله، وترك السنَّة، ونكث الصفقة. قيل: ما تركُ السنَّة؟ قال: الخروج عن الجماعة، ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله**) قال العراقي[(١)]: رواه الحاكم[(٢)] [من حديث أبي هريرة] نحوه، وقال: صحيح الإسناد. انتهىٰ.

قلت: ورواه أيضًا أحمد[(٣)] والبيهقي[(٤)]، ولفظهم جميعًا: «الصلاة المكتوبة إلىٰ الصلاة التي قبلها كفارة لِما بينهما، والجمعة إلىٰ الجمعة التي قبلها كفارة لما بينهما، والشهر إلىٰ الشهر كفارة لما بينهما، إلا من ثلاث: الإشراك بالله، وترك السنة، ونكث الصفقة». قيل: يا رسول الله، أما الإشراك بالله فقد عرفناه، فما نكثُ الصفقة وتركُ السنَّة؟ قال: «أما نكث الصفقة فأنْ تبايع رجلاً بيمينك ثم تخالف إليه فتقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج عن الجماعة».

---

(١) المغني ٢/ ٩٩٢.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٩٥، ٤/ ٣٩١.

(٣) مسند أحمد ١٢/ ٣٠، ١٦/ ٣٣٨.

(٤) شعب الإيمان ٥/ ٢٣١.

(فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كلِّه، ولا يدل علىٰ حد جامع) للأفراد **(فيبقىٰ لا محالة مبهمًا.**

فإن قلت: الشهادة لا تُقبَل إلا ممَّن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطًا في قبول الشهادة) قال الرافعي[١]: قال الأصحاب: يُعتبر في العدالة اجتناب الكبائر، فمَن ارتكب كبيرة فسقَ ورُدَّت شهادته، وأما الصغائر فلا يُشترط تجنُّبها بالكلية، لكن يشترط أن لا يصرَّ عليها **(وهذا من أحكام الدنيا. فاعلمْ أنَّا لا نخصِّص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أن مَن يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختَّم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تُقبَل شهادته، ولم يذهب أحد إلىٰ أن هذه الأمور من الكبائر)** لكن[٢] نقل الإمام[٣] عن الشيخ أبي محمد أن العراقيين ومعظم الأصحاب قطعوا بأن سماع الأوتار والملاهي من الكبائر. وتابعه عليه المصنف في كتبه[٤]. وتوقَّف ابن أبي الدم فيما نسبه الإمام للعراقيين وقال: لم أرَ أحدًا [منهم] صرَّح به، بل جزم الماوردي - وهو منهم - بنقيض ما حكاه الإمام فقال[٥]: إذا قلنا بتحريم الأغاني والملاهي فهي من الصغائر دون الكبائر تفتقر إلىٰ الاستغفار، ولا تُرَدُّ بها الشهادة إلا بالإصرار، ومتىٰ قلنا بكراهة شيء منها فهي من الخلاعة لا تفتقر إلىٰ الاستغفار، ولا تُرَدُّ الشهادة بها إلا مع الإكثار[٦]. انتهىٰ. وتابعه في المهذَّب[٧]، وكذا القاضي حسين فإنه قال في تعليقه: قال بعض أصحابنا: لو جلس علىٰ الديباج عند عقد النكاح لم ينعقد؛ لأن تحمل الشهادة فيه

(١) فتح العزيز ١٣/ ٩.

(٢) الزواجر ٢/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) نهاية المطلب ١٩/ ٢٤.

(٤) انظر: الوسيط للغزالي ٧/ ٣٥٠ - ٣٥١.

(٥) الحاوي الكبير ١٧/ ١٩٢.

(٦) في الحاوي: الإصرار.

(٧) المهذب للشيرازي ٥/ ٦٠٥ - ٦٠٨.

كالأداء. والذي صار إليه المحصلون أن هذا من الصغائر، وما يندر منه لا يوجِب الفسقَ. وتابعه الفوراني في الإبانة، وردَّ إنكارَ ابن أبي الدم على الإمام بما ذكر بأن مجليًّا صرَّح في ذخائره بما يوافقه فقال: إن كون ذلك [من الكبائر] هو ظاهر كلام الشامل، حيث قال: مَن استمع إلى شيء من هذه المحرَّمات فسقَ ورُدَّت شهادته. ولم يشترط تكرار السماع. انتهى. هذا حاصل كلام القائلين بالحرمة، ووراء ذلك أقوال، فانظرْه من كلام المصنف.

(**وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا شرب الحنفي النبيذ حددتُه**) أي أقمت عليه الحدَّ (**ولم أردَّ شهادته**) لأنه يعتقد حِلِّيَّته (**فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد، ولم يردَّ به الشهادة**) وفي[1] الخادم للزركشي: وأما النبيذ المختلَف فيه إذا شرب اليسير منه معتقدًا تحريمه ففي كونه كبيرة خلاف من أجل اختلاف العلماء فيه، ولهذا صرَّح الرافعي[2] بأنه على وجهين، وأن الأكثرين على الرد. أي ردِّ الشهادة به؛ لأنه فسقٌ، ولو استُعملت [الخمر] للتداوي على القول بالتحريم فيحتمل أن يقال: ليس بكبيرة إذا قلنا لا يجب فيه الحد كما صحَّحه النووي[3]، ويحتمل خلافه للجرأة. انتهى. وقال غيره: الأوجَه الأول (**فدلَّ على أن الشهادة نفيًا وإثباتًا لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدح في العدالة**) أي الصغائر والكبائر، أما الكبائر فبمجردها يخرج عن العدالة، وأما الصغائر فبوقوعها منه مرة بعد مرة (**إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبًا بضرورة مجاري العادات كالغِيبة، والتجسُّس، وسوء الظن، والكذب**) الذي لا حد فيه ولا ضرر (**في بعض الأقوال**) ولو تعمُّدًا (**وسماع**

---

(١) الزواجر ٢/ ١٣١.

(٢) فتح العزيز ١٣/ ٢٠.

(٣) في روضة الطالبين للنووي ١٠/ ١٧٠: «ثم قال القاضي حسين والغزالي: لا حد على المتداوي وإن حكمنا بالتحريم لشبهة الخلاف». «وقال الإمام: أطلق الأئمة المعتبرون أقوالهم في طرقهم أن التداوي حرام موجب للحد. وإذا جوزنا الشرب للعطش لزمه الشرب كتناول الميتة للمضطر ولا حد، وإذا لم نجوزه ففي الحد الخلاف كالتداوي».

الغِيبة) والإصغاء إليها والسكوت عليها (**وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) مع عدم القدرة عليهما (**وأكل الشبهات**) وعدم التحرِّي فيها (**وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب**) الطبعي (**زائدًا علىٰ حدِّ المصلحة**) الشرعية (**وإكرام السلاطين الظلمة**) وأعوانهم (**ومصادقة الفجَّار**) ومجالستهم إيناسًا لهم (**والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين. فهذه ذنوب لا يُتصور أن ينفكَّ الشاهد عن قليلها وكثيرها**) لا سيَّما في بعض ما ذُكر ما قيل إنه من الكبائر (**إلا بأن يعتزل الناس**) مدةً (**ويتجرَّد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة**) مديدة (**بحيث يبقىٰ علىٰ سَمْته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يُقبَل إلا قول مثله لعزَّ وجودُه**) أي قلَّ (**وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير**) والديباج (**وسماع الملاهي**) والأوتار (**واللعب بالنرد**) وما في معناه من المنقلة والكنجفة والأربعة عشر وغيرها (**ومجالسة أهل الشَّرْب**) بفتح فسكون، جمع شارب، كرَكْب وراكب (**في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات**) وكذا مباشرتهن بغير الجماع (**وأمثال هذه الصغائر**) كالنظر إلىٰ ما لا يجوز، وهجر المسلم فوق ثلاث لغير عذر شرعي، وكثرة الخصومات وإن كان محقًّا، والتبختر في المشي، والعبث في الصلاة، وكشف العورة في الحمَّام وكذا في الخلوة لغير حاجة في الأصح، وإرسال الريح بحضرة الناس، ومد الرِّجلين في المجالس، والإكثار من الحكايات المضحكة وغير ذلك (**من هذا القبيل**) أما مجالسة أهل الشرب فقد نقل الأذرعي عن صاحب العدة أنه من الصغائر، وأقرَّه الشيخان الرافعي[(١)] والنووي[(٢)]. وتقييد المصنف بكونه وقت الشرب دالٌّ علىٰ أن مجالستهم في غير هذا الوقت مباحة، فإن قصد إيناسهم من حيث كونهم فسقة فلا شك في حرمة ذلك.

وأما لبس الحرير فقيل: إنه كبيرة.

---

(١) فتح العزيز ١٣/ ٨.

(٢) روضة الطالبين ١١/ ٢٢٤.

وأما[١] سماع الملاهي والأوتار فقد نقل الإمام عن الشيخ أبي محمد أن سماع الأوتار مرة واحدة لا يوجب رد الشهادة، وإنما تُرَدُّ بالإصرار[٢]. وتبعه المصنف فقال: وما ذكرناه في سماع الأوتار مفروض فيما إذا لم يكن الإقدام عليه مرة يُشعِر بالانحلال، وإلا فالمرة الواحدة لا تُرَدُّ بها الشهادة[٣].

وأما[٤] اللعب بالنرد ففيه أربعة أقوال، أحدها: أنه مكروه كراهة تنزيه، وبه قال أبو إسحاق المروزي والأسفراييني، وحكاه[٥] ابن خيران، واختاره أبو الطيب، وهو غلط ليس بشيء؛ لمخالفته المنقول والدليل، وقول جماعة: إنه منصوص عليه في «الأم» وغيره، مردود، ولهذا قال صاحب البيان[٦]: إن المنصوص عليه في «الأم» التحريم[٧]، وبه قال أكثر الأصحاب. الثاني: أنه حرام صغيرة، وعليه مشىٰ المصنف هنا، ورجَّحه الرافعي[٨]. الثالث: أنه حرام كبيرة، وهو الذي عليه

(١) الزواجر ١/ ١٦٨.

(٢) عبارة إمام الحرمين في نهاية المطلب ١٩/ ٢٤: «وكان شيخي يقول: الاستماع إلىٰ الأوتار في رتبة الصغائر، والإدمان فيه مفسق، وما يندر منه لا يفسق».

(٣) نص الغزالي في الوجيز: «اللعب بالشطرنج والحمام وسماع الغناء والرقص ونظم الشعر الذي لا هجو فيه ولا فحش ولا تشبيب بامرأة معينة وسماع الدف وإن كان فيه جلاجل وكذا سماع الطبل إلا طبل المخنثين كل ذلك ليس بحرام، لكن المواظبة عليها قد تخرم المروءة في حق بعض الناس فيقدح، وأما النرد وسماع الأوتار والمعازف والمزمار العراقي وما هو شعار الشرب ونظم الهجو وإنشاده ولبس الحرير والجلوس عليه والتختم بالذهب كل ذلك حرام، ولكن لا ترد الشهادة بالمرة الواحدة بل بالإصرار إلا في بلدة يعظم عندهم سماع الأوتار، والإقدام مرة يشعر بالانحلال». فتح العزيز ١٣/ ٩ - ١٠.

(٤) الزواجر ٢/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٥) في الزواجر: وحُكي عن.

(٦) البيان للعمراني ١٣/ ٢٨٩.

(٧) نص الشافعي في الأم ٧/ ٥١٤ - ٥١٥: «يكره من وجه الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي، ولا نحب اللعب بالشطرنج وهي أخف من النرد».

(٨) فتح العزيز ١٣/ ١١ - ١٢.

الشافعي و[أكثر] أصحابه؛ أشار إليه الروياني في الحلية[١]، ونقل القرطبي في شرح مسلم[٢] الإجماع عليه، وكذا الموفَّق الحنبلي في المغني[٣] نقل الإجماع عليه.

الرابع: التفصيل بين بلد يستعظمون اللعب به فتُرَدُّ به الشهادة وبلد ليس كذلك فلا تُرَدُّ به. وهذه التفرقة ضعيفة كما قاله البلقيني، وعلىٰ القول بأنه صغيرة - كما مشىٰ عليه المصنف هنا - فمحلُّه حيث خلا عن القمار، وإلا فهو كبيرة بلا نزاع كما أشار إليه الزركشي، وهو واضح (**فإلىٰ مثل هذا المنهاج ينبغي أن يُنظَر في قبول الشهادة وردِّها لا إلىٰ الكبيرة والصغيرة. ثم آحاد هذه الصغائر التي لا تُرَدُّ الشهادة بها لو واظب عليها لأثَّر في ردِّ الشهادة**) والمراد[٤] بالمواظبة هنا المداومة علىٰ نوع منها، وهذا هو الإصرار السالب للعدالة، وبه قال جماعة من الأصحاب (**كمَن اتخذ الغِيبة وثلب الناس**) أعراضهم (**عادة**) له. ومنهم مَن فسَّر المواظبة بالإكثار من الصغائر سواء كانت من نوع أو أنواع مختلفة، وبه فسَّروا الإصرار السالب للعدالة، ونقل الرافعي[٥] القولين، قال: ويوافق الثاني قولُ الجمهور: إن مَن تغلب طاعتُه معاصيه كان عدلاً، ومن تغلب معاصيه طاعتَه كان مردود الشهادة، وإذا قلنا به لم تضرَّ المداومةُ علىٰ نوع واحد من الصغائر إذا غلبت الطاعاتُ، وعلىٰ الاحتمال الأول تضر. انتهىٰ. وتبعه النووي في الروضة[٦]. وقضية كلامهما ترجيح الثاني، وبه صرَّح ابن سُراقة وغيره (**وكذلك مجالسة الفجَّار ومصادقتهم**) ولو في حال فجورهم، وكلام[٧] بعض الأصحاب صريح في أن مجرد مصادقتهم

---

(١) وذكره أيضا في بحر المذهب ١٤/ ٣٠٧.

(٢) المفهم ٥/ ٥٦٠.

(٣) المغني ١٤/ ١٥٤ - ١٥٦.

(٤) الزواجر ٢/ ١٧٩ - ١٨٠.

(٥) فتح العزيز ١٣/ ٩.

(٦) روضة الطالبين ١١/ ٢٢٥.

(٧) الزواجر ٢/ ١٦٤.

حرام وإن لم يجالسهم. وكلام بعضهم [صريح في] أن مجرد المجالسة من غير مصادقة ولا قصد إيناس لا إثم فيها، وكلام المصنف صريح في أن كلاًّ منهما يأثم به (**والصغيرة تكبر**) أي تصير كبيرة (**بالمواظبة**) عليها، أي تصير مثلها في ردِّ الشهادة (**كما أن المباح يصير صغيرة**[١] **بالمواظبة**) عليه، وهذا بناء علىٰ القول الضعيف، فإن[٢] المعتمَد أنه لا تضر المداومة علىٰ نوع من الصغائر أو أنواع، سواء كان مقيمًا علىٰ الصغيرة أو الصغائر أو مكثرًا مكرِّرًا من فعل ذلك حيث غلبت الطاعاتُ المعاصي؛ هكذا نقله الأذرعي والبلقيني والزركشي وابن العماد وغيرهم، ويؤيِّده قولُ الجمهور: مَن غلبت [طاعاته معاصيه كان عدلاً؛ إذ ظاهره أن مَن غلبت] معاصيه طاعاته رُدَّت شهادته، سواء كانت المعاصي من نوع أو أنواع، ومن ثَم قال الأذرعي: المذهب وقول الجمهور وما تضمَّنته النصوص أن مَن كان الأغلب عليه الطاعة والمروءة قُبلت شهادته، أو المعصية وخلاف المروءة رُدَّت شهادته. وهذا القول الذي اعتمده المصنف مشىٰ عليه الرافعي والنووي، حيث قالا: المداومة علىٰ الصغيرة تصيِّرها كبيرة، لكن إن انضمَّ إليه كونُ طاعاته لم تغلب معاصيه. ثم علىٰ هذا القول من أن مطلق الإصرار علىٰ الصغيرة يصيِّرها كبيرة يحتاج لمعرفة ضبط الإصرار، قال ابن الصلاح[٣]: الإصرار هو التلبُّس بضد التوبة باستمرار العزم علىٰ المعاودة أو استدامة الفعل بحيث يدخل به [ذنبه] في حيِّز ما يطلق عليه الوصف بصيرورته كبيرة. وقال العز ابن عبد السلام[٤]: الإصرار أن تتكرَّر منه الصغيرة تكرارًا يُشعِر بقلة مبالاته بدينه إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك. قال: وكذلك إذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع بحيث يُشعِر مجموعُها

(١) في المطبوعة: كبيرة. وهو تحريف، والمثبت من الجميع.

(٢) السابق ٢/ ١٨٠.

(٣) فتاوىٰ ابن الصلاح ص ١٤٨.

(٤) قواعد الأحكام ١/ ٣٤.

بما يُشعِر به أصغرُ الكبائر. انتهىٰ. هذا ضبطُ الإصرار، وأما علىٰ القول المعتمد السابق فالمَدار علىٰ غلبة الطاعات والمعاصي، وعلىٰ هذا المعتمَد كان ينبغي أن يقال: شرط العدالة اجتناب الكبائر وعدم غلبة الصغائر علىٰ الطاعة. وقد أشار إلىٰ ذلك البلقينيُّ (**كاللعب بالشطرنج والترنُّم بالغناء علىٰ الدوام وغيرهما**) وقوله «علىٰ الدوام» متعلق بالقولين، فاللعب بالشطرنج مكروه عند الشافعي، حرام عند غيره بشروط. قال النووي في فتاويه[1]: الشطرنج حرام عند أكثر العلماء إن فوَّت به صلاةً عن وقتها أو لعب به علىٰ عوض، فإن انتفَىٰ ذلك كُره عند الشافعي، وحرُم عند غيره. انتهىٰ. وفي كلام ابن العماد أن اللعب به من الرذائل المباحة مع الكراهة، فالإكباب عليه والملازمة له يصيِّره صغيرة. وكذا الترنُّم بالغناء مع نفسه إذا كان في بعض الأوقات لإزالة الوحشة عن نفسه لا بأس به، فإن داوم عليه حتىٰ اتخذه عادة يصير صغيرة (**فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر**) ثم اعلمْ أنه قد تقدم ذِكرُ الكبائر وما يتعلق بها، وأما الصغائر فحصرها متعذر، وقد ذكر ابن حجر منه في شرح الشمائل جملة فقال: هي كالغِيبة في غير عالِم أو حامل قرآن معا[2]، بل حكي فيها الإجماع، قالوا: إنها كبيرة مطلقًا. نعم، تُباح لأسباب ستة مقرَّرة في محلِّها، وكقُبلة أجنبية، ولعن ولو بهيمة، وكذب لا حد فيه ولا ضرر، وهجو مسلم ولو تعريضًا وصدقًا، وإشراف علىٰ بيت غيره، وهجر مسلم فوق ثلاثة [أيام] عدوانًا، ونحو تناجٍ وجلوس مع فاسق لا يناسبه، وتنجيس بدن أو ثوب عدوانًا، ونجش، واحتكار، وبيع معيب علم عيبَه ولم يذكره. ا.هـ. فهذه ثلاثة عشر.

---

(١) فتاوىٰ النووي ص ١٢٧ (ط - الأزهر).

(٢) كذا في المطبوعة، والعبارة مضطربة، ونص ابن حجر لما ذكر الكبائر: «وغيبة عالم أو حامل أو قارئ قرآن ...» وذكر بقية الكبائر، ثم قال: «وما عدا ذلك ونحوه صغيرة، كالغيبة من غير مر، علىٰ أن جمعًا، بل حُكي فيه الإجماع ...».

وقال ابن العماد في كتاب الذريعة في أعداد الشريعة زاد علىٰ ما ذكر[١]: النظر إلىٰ ما لا يجوز. وذكر في التطلُّع علىٰ بيوت الناس بأنه لو كان المؤذِّن ينظر إلىٰ بيوت الجيران وجب علىٰ الناظر عزله. ثم قال: وكثرة الخصومات وإن كان محقًّا. قال الرافعي: وينبغي أن لا يكون معصية إذا راعَىٰ حد الشرع. قال النووي: وهو الصواب. والسكوت علىٰ الغِيبة، والصياح وشق الجيب في المصيبة، والتبختر في المشي، واللعب بالقردة وبالصور، ونطاح الكِباش، ومهارشة الديكة، والجلوس إليهم[٢] وإعانتهم بدفع مال إليهم، والصلاة في وقت الكراهة، والبيع والشراء في المسجد، وإدخال الصبيان والمجانين والنجاسات إليه، وإمامة قوم يكرهونه، والعبث في الصلاة، والضحك فيها، وتخطِّي الرقاب يوم الجمعة ونحوه[٣]، والتغوُّط مستقبل القِبلة أو في طريق المسلمين، والقُبلة للصائم التي تحرك شهوته، والوصال في الصوم علىٰ الأصح، والاستمناء باليد، ومباشرة الأجنبية بغير الجماع، ووطء الزوجة المُظاهَر منها قبل التكفير، ووطء الرجعية، والخلوة بالأجنبية، ومسافرة المرأة بغير زوج ولا مَحرم ولا نسوة ثقات، والبيع علىٰ بيع أخيه والخِطبة والسوم علىٰ سومه، وتلقِّي الركبان، وبيع الحاضر للبادي، وتصرية الحيوان، واقتناء الكلب لغير الحراسة والصيد، وبيع العبد المسلم للكافر وكذا المصحف وسائر كتب العلم الشرعي، وكشف العورة في الحمَّام وكذا في الخلوة علىٰ الأصح، والسفاهة، ولبس الحرير، والرقص مع التثنِّي، وسماع أشعار الشربة، وضرب الكوبة والصَّفَّاقتين وألحان قرآن حُرِّفت حركته كما صحَّحه النووي، واللعب بالنرد. انتهىٰ. فهذه سبعة وأربعون. قال الصيدلاني: وممَّا تُرَدُّ به الشهادة إرسال الريح بحضرة الناس. ثم قال ابن العماد: ومن الرذائل المباحة مع الكراهة

---

(١) ما ذكره ابن العماد نقله بتصرف عن فتح العزيز للرافعي ١٣/ ٨ - ٢٢ وروضة الطالبين للنووي ١١/ ٢٢٤ - ٢٣٣.

(٢) يعني إلىٰ من يفعل ذلك.

(٣) في الروضة وفتح العزيز: «وتخطي رقاب الناس يوم الجمعة، والكلام والإمام يخطب».

قُبلة الزوجة أو الأمة بحضرة الناس، وذِكر ما جرىٰ بينهما في الخلوة، والمشي مكشوف الرأس[(١)]، ومد الرِّجلين في المجالس، وكذا نتف اللحية علىٰ المرجَّح في الكفاية[(٢)]. قال الماوردي[(٣)]: وكذا خضبها. ولبس فقيه قباء وقلنسوة حيث لا يُعتاد، ولبس تاجر ثياب جمَّال، ولبس جمَّال عمامة وطيلسانًا، والإكثار من الحكايات المضحكة، ومن اللعب بالحمام وشبهه، ومن اللعب بالشطرنج وبالخاتم إذا كان بغير عوض، ومن الغناء وسماعه، والحِرَف الدنيئة ممَّا لا يليق به كالحجامة والكنس والدبغ وقيِّم الحمَّام والحارس والنخَّال والإسكاف والقَصَّاب، وكذلك الحائك في الأشبه لا الصبَّاغ علىٰ الأصح، وفيما ذُكر نظرٌ. والله أعلم.

فصل: وقال أصحابنا[(٤)]: الصحيح في حد العدالة المعتبرة في الشهادات اجتناب الكبائر وعدم الإصرار علىٰ الصغائر وغلبة صوابه علىٰ خطئه وصِدقه علىٰ كذبه وإن ألمَّ بمعصية؛ لأن في اعتبار اجتنابه الكل سد بابه وهو مفتوح إحياءً للحقوق. والكبيرة: كل ما يسمَّىٰ فاحشة كاللواطة ونكاح منكوحة الأب أو ثبت لها بنص قاطع عقوبة في الدنيا وفي الآخرة[(٥)]. وقال الشمس الحُلْواني: كل ما كان شنيعًا بين المسلمين وفيه هتكُ حرمة الله والدين فهو كبيرة. ولا تُقبَل شهادة مخنَّث، ونائحة، ومغنِّية، ومدمن علىٰ الشرب، ومَن يلعب بالطيور والطنبور، ومَن يفعل كبيرة توجب الحدَّ، ومن يأكل الربا، أو يقامر بالشطرنج، أو تفوته الصلاة بسببه، أو يدخل الحمَّام بغير إزار، أو يفعل فعلاً مستخَفًّا كالبول والأكل علىٰ الطريق، ومَن يُظهِر سب السلف. والله أعلم.

---

(١) في الروضة: «والمشي في السوق مكشوف الرأس والبدن إذا لم يكن الشخص سوقيا ممن يليق به مثله».

(٢) كفاية النبيه لابن الرفعة ١٩/ ١١٠ - ١١١.

(٣) الحاوي الكبير ١٧/ ١٥١.

(٤) البناية شرح الهداية للعيني ٩/ ١٤٣ - ١٥٦.

(٥) هذا التعريف ذكره أبو البقاء الكفوي في الكليات ص ٧٤٢.

بيان توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

فيهما لفٌّ ونشر مرتَّب. والدَّرْج[1] والدَّرْك بمعنىٰ واحد لكن باعتبارين مختلفين، فالدرج اعتبارًا بالصعود، والدرك اعتبارًا بالهبوط، ولذلك قيل: درجات الجنة، ودركات النار.

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ **(أن الدنيا من عالَم المُلك والشهادة)** من المحسوسات الطبيعية **(والآخرة من عالَم الغيب والملكوت)** المختص بأرواح النفوس **(وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك، يسمَّىٰ القريب الداني منهما دنيا)** فُعْلَىٰ من الدُّنُوِّ **(والمتأخر)** منهما **(آخرة، ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة، فإنَّا الآن نتكلم في الدنيا وهي عالَم المُلك)** والشهادة **(وغرضنا شرح الآخرة وهي عالَم الملكوت)** والغيب **(ولا يُتصور شرح عالم الملكوت في عالم المُلك)** ولا يتَّضح **(إلا بضرب الأمثال)** لأنه أقرب إلىٰ الوصول للأفهام **(ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾)** [العنكبوت: ٤٣] أي المتبصِّرون، واستُنبط أن مَن ليس بعالم لا يعقل الأحكام الإلهية من ضرب الأمثال **(وهذا لأن عالم المُلك نوم)** أي بمنزلته **(بالإضافة إلىٰ عالم الملكوت، ولذلك قال ﷺ: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا)** قال العراقي[2]: لم أجده مرفوعًا، وإنما يُعزَىٰ إلىٰ علي بن أبي طالب.

---

(١) المفردات للراغب ص ١٦٧.

(٢) المغني ٢/ ٩٩٣.

قلت: وهكذا أورده الشريف الموسوي في نهج البلاغة[١] من كلام أمير المؤمنين. وذكره أبو نعيم في الحلية[٢] في ترجمة سفيان الثوري، رواه من طريق المعافَىٰ بن عمران عنه.

(**وما سيكون في اليقظة لا يتبيَّن لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلىٰ التعبير**) أي إلقائه في عبارة (**فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبيَّن في نوم الدنيا إلا بكثرة الأمثال**) أي صورتها (**وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير، ويكفيك فيه**) وفي نسخة: منه (**إن كنت فطنًا**) حاذقًا (**ثلاثة أمثلة: فقد جاء رجل إلىٰ**) أبي بكر محمد (**ابن سيرين**) التابعي البصري الثقة، رأس المعبِّرين، رحمه الله تعالىٰ، وكان يضاهي الحسن في علمه وورعه، وفيه القول المشهور الذي يُستدَل به علىٰ أن «أو» للتخيير: جالِس الحسنَ أو ابن سيرين[٣] (**فقال: رأيت كأنَّ في يدي خاتمًا أختم به أفواه الرجال وفروج النساء. فقال له: إنك مؤذِّن تؤذِّن في شهر رمضان قبل طلوع الفجر. فقال: صدقتَ.**

وجاءه رجل آخر فقال: رأيت كأنِّي أصبُّ الزيت في الزيتون. فقال: إن كان تحتك جارية اشتريتَها ففتِّشْ عن حالها، فإنها أمُّك سُبيت في صغرك. لأن الزيتون أصل الزيت، فهو ردٌّ إلىٰ الأصل، فنظر الرجل فإذا جاريته كانت أمه وقد سُبيتْ في صغره.

وقال له آخر: رأيت كأني أقلِّد الدُّرَّ في أعناق الخنازير. فقال: إنك تعلِّم الحكمةَ غيرَ أهلها. فكان كما قال) والأخير أخذه من قول عيسىٰ عليه السلام: معلِّم الحكمة غير أهلها كمقلِّد الدُّرَّ في أعناق الخنازير.

---

(١) الذي في نهج البلاغة لفظه: «أهل الدنيا كركب يُسار بهم وهم نيام». شرح نهج البلاغة ١٨/ ٣٠٤.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٥٢.

(٣) انظر: المقتضب للمبرد ١/ ١٤٩ (ط المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية بالقاهرة).

ومن غرائب تعبيرات ابن سيرين ما رواه أبو نعيم في الحلية[١] من طريق خالد ابن دينار قال: كنت عند ابن سيرين، فأتاه رجل فقال: يا أبا بكر، رأيت في المنام كأني أشرب من بلبلة لها ثقبان، فوجدت أحدهما عذبًا والآخر ملحًا. قال: اتقِ الله، لك امرأة وأنت تخالف إلىٰ أختها.

ومن طريق أبي قلابة أن رجلاً قال لأبي بكر[٢]: رأيت كأني أبول دمًا. قال: تأتي امرأتك وهي حائض. قال: نعم. قال: اتقِ الله ولا تعُدْ

ومن طريق أبي جعفر أن رجلاً رأىٰ في المنام كأنَّ في حِجره صبيًّا يصيح، فقصَّ رؤياه [علىٰ ابن سيرين] فقال له: اتقِ الله ولا تضرب بالعود.

ومن طريق حبيب المعلِّم أن امرأة رأت في المنام أنها تحلب حيَّة، فقصَّت علىٰ ابن سيرين، فقال: اللبن فطرة، والحية عدو وليست من الفطرة في شيء، هذه امرأة يدخل عليها أهل الأهواء.

ومن طريق الحارث بن ثقيف قال: قال رجل لابن سيرين: إني رأيت كأني ألعق عسلاً من جام من جوهر. فقال: اتقِ الله وعاوِد القرآنَ، فقد كنت تحفظه ثم نسيتَه[٣].

قال: وقال رجل لابن سيرين: رأيت كأني أحرث أرضًا لا تنبت. قال: أنت رجل تعزل عن امرأتك.

ومن طريق مبارك بن يزيد البصري قال: قلت لابن سيرين[٤]: رأيت في

---

(١) السابق ٢/ ٢٧٦ - ٢٧٨.

(٢) المراد به هنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما رواه عبد الرزاق في مصنفه ١/ ٣٣٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ١٣٣، والدارمي في سننه ١/ ٢٦٩.

(٣) في الحلية: «فإنك رجل قرأت القرآن ثم نسيته».

(٤) في الحلية: «قال رجل لابن سيرين».

المنام كأني أغسل ثوبي وهو لا ينقىٰ. قال: أنت رجل مصارم لأخيك.

قال: وقال رجل لابن سيرين: رأيت كأني أطير بين السماء والأرض. قال: أنت رجل تُكثِر التمنِّي.

ومن طريق هشام بن حسان قال: جاء رجل إلىٰ ابن سيرين وأنا عنده فقال: إني رأيت كأنَّ علىٰ رأسي تاجًا من ذهب. قال: فقال له ابن سيرين: اتقِ الله، فإن أباك في أرض غربة، وقد ذهب بصره، وهو يريد أن تأتيه. قال: فما رادَّه الرجل الكلام حتىٰ أدخل يده في حجزته فأخرج كتابًا من أبيه [يذكر] فيه ذهاب بصره، وأنه في أرض غربة، ويأمره بالإتيان إليه.

(**والتعبير من أوله إلىٰ آخره أمثال تعرِّفك طريقَ ضرب الأمثال، وإنما نعني بالمثل أن أداء المعنىٰ في صورة إن نظر إلىٰ معناه وجده صادقًا، وإن نظر إلىٰ صورته**) الظاهرة (**وجده كاذبًا، فالمؤذِّن إن نظر إلىٰ صورة الخاتم والختم به علىٰ**) الأفواه و(**الفروج رآه كاذبًا فإنه لم يختم به قط، وإن نظر إلىٰ معناه وجده صادقًا؛ إذ قد صدر منه روحُ الختم ومعناه وهو المنع الذي يُراد الختم له، وليس للأنبياء**) عليهم السلام (**أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال؛ لأنهم كُلِّفوا أن يكلِّموا الناس علىٰ قدْر عقولهم**) فقد[1] روىٰ الديلمي[2] من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن قريش، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا إسماعيل بن محمد الطلحي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، عن أبي معشر، عن عكرمة، عن ابن عباس رفعه: «أُمِرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم». وأبو معشر ضعيف. وعزاه الحافظ ابن حجر لمسند الحسن بن سفيان من حديث ابن عباس بلفظ: «أُمِرتُ أن أخاطب الناس علىٰ قدر عقولهم». قال: وسنده ضعيف جدًّا. ورواه أبو الحسن التميمي من الحنابلة في كتاب العقل له بسنده عن ابن عباس

---

(١) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٩٣.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٣٩٨.

أيضًا بلفظ: «بُعثنا معاشر الأنبياء نخاطب الناس على قدر عقولهم» **(وقدرُ عقولهم أنهم في النوم، والنائم لا يُكشَف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال ﷺ: قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)** رواه أحمد[1] ومسلم[2] والدارقطني في الصفات[3] من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب رجل واحد يصرفه كيف يشاء، اللهم مصرِّف القلوب اصرفْ قلوبنا إلى طاعتك».

وروى ابن خزيمة[4] من حديث أبي ذر: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الله عَزَّوَجَلَّ فإذا شاء صرفه، وإذا شاء بصَّره».

وروى الحاكم[5] من حديث جابر: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يقول به هكذا».

وقد تقدم ذلك في كتاب عجائب القلب وفي كتاب قواعد العقائد.

(وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالِمون، فأما الجاهل) العامِّي الذي لم تُكشَف بصيرته بنور الإيمان **(فلا يجاوز قدرُه)** وفي نسخة: عقله **(ظاهرَ المثال؛ لجهله بالتفسير الذي يسمَّى تأويلاً، كما يسمَّى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرًا، فيُثبِت لله تعالى يدًا وأصبعًا، تعالى الله عن قوله علوًّا كبيرًا)** وقد أعماه جهلُه بحقائق الأمور حتى أوقعه في هذا الوهم، وكان يكفي في دفعه أن يعرف أن الله تعالى ليس بجسم وليس من جنس الأجسام **(وكذلك قوله ﷺ: إن الله خلق آدم على**

(١) مسند أحمد ١١/ ١٣٠، ١٨٢.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٥.

(٣) الصفات ص ٢٧.

(٤) التوحيد ص ١٩٢.

(٥) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

صورته) رواه أحمد[١] والشيخان[٢] من حديث أبي هريرة بلفظ: «خلق الله آدم علىٰ صورته طوله ستون ذراعًا ...» الحديث، وقد تقدم في كتاب قواعد العقائد **(فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيُثبِت لله تعالىٰ مثل ذلك، تعالىٰ الله عن قوله علوًّا كبيرًا)** مثال[٣] ذلك: إذا أورد الفقيه في كلامه لفظ الصورة للمسألة بين يدي الصبي أو العامِّي الذي لا يفقه معنىٰ المسألة ظن الصبي أو العامي أن المسألة يعني بها صورة، في تلك الصورة أنف وفم وعين علىٰ ما عرفه واستقر عنده من معنىٰ الصورة المعروفة، أما مَن عرف حقيقة المسألة المعروفة بأنها عبارة عن علوم مرتَّبة ترتيبًا مخصوصًا، فهل يُتصور أن يتوهَّم للمسألة عينًا وأنفًا وفمًا وصورة من جنس صور الأجسام أو صورة الإنسان، بل تكفيه معرفتُه بأن المسألة منزَّهة عن الجسمية وعوارضها، فكذلك معرفة نفي الجسمية عن حقيقة الإلهية وتقدُّسها عنها تكون قرينة في [قلب] كل مستمع مُفهِمة لفهم معنىٰ الصورة في الحديث المذكور، ويتعجَّب العارف بتقديسه عن الجسمية ممَّن يتوهَّم لله تعالىٰ الصورة الجسمانية كما [يتعجَّب ممَّن] يتوهَّم للمسألة الواقعة صورة جسمانية **(ومن ههنا زلَّ)** قدم **(مَن زل في صفات الإلهية)** كالاستواء والفوقية وغيرهما **(حتىٰ في الكلام وجعلوه صوتًا وحرفًا وغير ذلك من الصفات، والقول فيه يطول)** وقد استوفيناه بتفصيله في شرح قواعد العقائد **(وكذلك قد ورد في أمر الآخرة ضربُ أمثلة يكذِّب بها الملحدون)** المارقون من الدين **(لجمود نظرهم علىٰ ظاهر المثال وتناقضه عندهم، كقوله ﷺ: يؤتَىٰ بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح)** أي[٤] أسود يعلو شعرَه بياضٌ، وقيل: نقيُّ البياض، وقيل: ليس بخالص البياض بل فيه

---

(١) مسند أحمد ١٣/ ٥٠٤.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٥٠، ٤/ ١٣٥. صحيح مسلم ٢/ ١٣٠٣.

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام ص ٣٤٣ [ضمن مجموعة رسائل الغزالي].

(٤) المصباح المنير ص ٥٧٩.

عفرة (فيُذبَح) قال العراقي[١]: متفق عليه[٢] من حديث أبي سعيد.

قلت: ورواه الترمذي[٣] وقال: حسن صحيح. ولفظه: «يؤتَىٰ بالموت كأنه كبش أملح حتىٰ يوقَف علىٰ السور بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة. فيشرئبُّون، ويقال: يا أهل النار. فيشرئبون، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. فيُضجَع ويُذبَح، فلولا أن الله تعالىٰ قضىٰ لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحًا، ولولا أن الله قضىٰ لأهل النار الحياة فيها [والبقاء] لماتوا حزنًا».

وقد رُوي من حديث أنس وأبي هريرة وابن عمر. أما حديث أنس فرواه أبو يعلىٰ[٤] والضياء[٥] مختصرًا بلفظ: «يؤتَىٰ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ...».

وأما حديث أبي هريرة فرواه أحمد[٦] وهنَّاد[٧] وابن ماجه[٨] والحاكم[٩] بلفظ: «يؤتَىٰ بالموت يوم القيامة فيوقَف علىٰ الصراط، فيقال: يا أهل الجنة. فيطَّلعون خائفين وَجِلين أن يُخرَجوا من مكانهم الذي هم فيه [فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ربَّنا، هذا الموت] ثم يقال: يا أهل النار. فيطَّلعون مستبشرين فرحين أن يُخرَجوا من مكانهم الذي هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون:

---

(١) المغني ٢/ ٩٩٣.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٢٥٨. صحيح مسلم ٢/ ١٣٠٦.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢٢١.

(٤) مسند أبي يعلىٰ ٥/ ٢٧٨.

(٥) الأحاديث المختارة ٧/ ٤٩. وبقية الحديث: «فيوقف بين الجنة والنار، ثم ينادىٰ: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: هذا الموت. فيذبح كما تذبح الشاة، فيأمن هؤلاء، وينقطع رجاء هؤلاء».

(٦) مسند أحمد ١٢/ ٥٠٨.

(٧) الزهد ١/ ١٥٧.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٩١.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٤٦.

نعم، هذا الموت. فيؤمَر به فيُذبَح علىٰ الصراط، ثم يقال للفريقين كليهما: خلود فيما تجدون، لا موت فيه أبدًا».

وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير(١) بلفظ: «يجاء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح، فيوقَف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت [ويقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت] فيؤمر به فيُذبَح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

(**فيثور الملحد الأحمق ويكذِّب**) هذا القولَ (**ويستدل به علىٰ كذب الأنبياء**) عليهم السلام (**ويقول**) متعجِّبًا من قولهم: (**يا سبحان الله! الموت عَرَضٌ**) من الأعراض محتاج في وجوده إلىٰ محل يقوم به (**والكبش جسم**) من الأجسام (**فكيف ينقلب العَرَض جسمًا؟ وهل هذا**) أي انقلاب العرض جسمًا (**إلا مُحال**) لا يُتصور وجوده في الخارج، أو باطل (**ولكن الله تعالىٰ عزل هؤلاء الحمقىٰ عن معرفة أسراره فقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾** [العنكبوت: ٤٣] **ولا يدري المسكين أن مَن قال: رأيت في منامي أنه جِيء بكبش وقيل**) لي (**هذا هو الوباء الذي في البلد**) وهو المرض الذي يعقبه الموتُ سريعًا (**وذُبح**) واستعبره عند المعبِّر (**فقال**) له (**المعبِّر: صدقتَ والأمر كما رأيتَ. وهذا يدل علىٰ أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود**) إلىٰ هذا البلد (**قط؛ لأن المذبوح وقع اليأس منه. فإذًا المعبِّر صادق في تعبيره، وهو صادق في رؤيته، وترجع حقيقة ذلك إلىٰ أن الملَك الموكل بالرؤيا - وهو الذي يُطلِع الأرواحَ عند النوم علىٰ ما في اللوح المحفوظ**) - قد (**عرَّفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه**

---

(١) المعجم الكبير ١٢/ ٣٦١. والحديث عند البخاري ٤/ ٢٠٠ ومسلم ٢/ ١٣٠٦ بلفظ: «إذا صار أهل الجنة إلىٰ الجنة وصار أهل النار إلىٰ النار أُتي بالموت حتىٰ يُجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلىٰ فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلىٰ حزنهم».

له) حتىٰ يدركه بفهمه **(لأن النائم إنما يحمل المثال، فكان مثاله صادقًا، وكان معناه صحيحًا، فالرسل أيضًا إنما يكلِّمون الناس في الدنيا، وهي بالإضافة إلىٰ الآخرة نوم، فيوصلون المعاني إلىٰ أفهامهم بالأمثلة)** المضروبة **(حكمةً من الله تعالىٰ، ولطفًا بعباده، وتيسيرًا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل)** فقد روىٰ البخاري في الصحيح[(١)] عن عليٍّ موقوفًا: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟ وروىٰ مسلم في مقدمة صحيحه[(٢)] عن ابن مسعود: ما أنت محدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولُهم إلا كان لبعضهم فتنة. وروىٰ الديلمي[(٣)] من حديث ابن عباس: «لا تحدِّثوا أمَّتي من أحاديثي إلا ما تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم». فكان ابن عباس يخفي أشياء من حديثه ويفشيها إلىٰ أهل العلم. وروىٰ البيهقي في الشعب[(٤)] من حديث المقدام بن معدي كَرِب: «إذا حدَّثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يغرب عنهم ويشقُّ عليهم» **(فقوله)** ﷺ في الحديث السابق: **(«يؤتَىٰ بالموت في صورة كبش أملح» مثال ضربه ليوصل إلىٰ الأفهام حصولَ اليأس من الموت)** وثبوت الخلود إما في الجنة وإما في النار **(وقد جُبلت القلوب علىٰ التأثُّر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها، ولذلك عبَّر القرآن بقوله «كنْ فيكون» عن نهاية القدرة، وعبَّر ﷺ بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن عن سرعة التقليب)** وعن كمال القدرة والإحاطة به **(وقد أشرنا إلىٰ حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات، فلنرجع الآن إلىٰ الغرض، فالمقصود أن تعرف توزُّع الدرجات والدركات علىٰ الحسنات والسيئات، ولا يمكن)** معرفة ذلك **(إلا بضرب الأمثال،**

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٦٢.

(٢) مقدمة صحيح مسلم ١/ ٦.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ١٧. ورواه في موضع آخر ٥/ ٣٥٩ بلفظ: «يا ابن عباس، لا تحدث حديثا لا تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم». ورواه البلاذري في أنساب الأشراف ٤/ ٥٣ بلفظ: «حدث إذا حدثت، إلا أن تجد قوما تحدثهم بشيء لا تضبطه عقولهم فيكون ذلك فتنة لبعضهم». فكان ابن عباس يخفي أشياء ويفشيها إلىٰ أهل العلم.

(٤) شعب الإيمان ٣/ ٢٦٥.

فلتفهم من المثل الذي نضربه) لك (معناه) المراد منه (لا صورته، فنقول: الناس في الآخرة ينقسمون أصنافًا، وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتًا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنىٰ أصلاً البتَّة، فإن مدبِّر) الأمور في (المُلك والملكوت واحد لا شريك له، وسنَّته الصادرة عن إرادته الأزلية مطَّردة لا تبديل لها) ولا تحويل عنها (إلا أنَّا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات) لعدم حصرها (فلا نعجز عن إحصاء الأجناس، فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلىٰ أربعة أقسام: هالكين، ومعذَّبين، وناجين، وفائزين) لأنهم لا يخلون عن سعادة أو شقاوة، والشقاوة إن كانت بالشرك والكفر وجحود صفات الربوبية فهم الهالكون، فإن كان مع وجود الإقرار بالربوبية نوع عصيان ومخالفة فهم المعذَّبون، والسعادة إن كانت بالإيمان بالله وبما جاء به الرسل فهم الناجون، فإن كان مع ذلك نبذُ الدنيا وإقبال علىٰ الله بالكلِّية فهم الفائزون. فهذا وجه الحصر في الأقسام المذكورة (ومثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك علىٰ إقليم) من الأقاليم السبعة (فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذِّب بعضَهم مدةً ولا يقتلهم فهم المعذَّبون، ويخلي بعضهم) أي يتركهم (فهم الناجون، ويخلع علىٰ بعضهم) أي يُلبِسهم خُلَعًا (فهم الفائزون، فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا بالاستحقاق، فلا يقتل إلا جاحدًا) أي منكرًا (لاستحقاقه المُلك، معاندًا له في أصل الدولة، ولا يعذِّب إلا مَن قصَّر في خدمته) والمثول بين يديه (مع الاعتراف بمُلكه وعلو درجته) واستحقاقه لتلك النعمة (ولا يخلي إلا معترفًا له برتبة المُلك، لكنه لم يقصِّر ليعذَّب) علىٰ تقصيره (ولم يخدم ليُخلَع عليه، ولا يخلع) الملك (إلا علىٰ مَن أبلىٰ عمره) وفي نسخة: قدره (في الخدمة والنصرة) له (ثم ينبغي أن تكون خُلَع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة) والنصرة (وإهلاك الهالكين إما تحقيقًا) في الحال (بحزِّ الرقبة) أي قطعها (أو تنكيلاً بالمُثلة) بأن تُقطع أطرافه عضوًا عضوًا حتىٰ يهلك، وذلك (بحسب درجاتهم) ومراتبهم (في المعاندة) له (وتعذيب المعذَّبين

في الخفة والشدة وطول المدة وقِصَرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم) ومراتبه **(فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلىٰ درجات لا تُحصَىٰ ولا تنحصر. فكذلك فافهمْ أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك)** مرةً **(ومن معذَّب مدةً، ومن ناجٍ يحل في دار السلامة، ومن فائز، والفائزون ينقسمون إلىٰ من يحلُّون في جنات عدن أو جنات المأوىٰ أو جنات الفردوس)** وهي أعلىٰ الجنان، وسيأتي ذِكر الجنان في آخر الكتاب **(والمعذَّبون ينقسمون إلىٰ من يعذَّب قليلاً وإلىٰ من يعذَّب ألف سنة إلىٰ سبعة آلاف سنة، وذلك آخر مَن يخرج من النار، كما ورد في الخبر)** قال العراقي(١): رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول(٢) من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه: «وأطولهم مكثًا فيها مثل الدنيا من يوم خُلقت إلىٰ يوم القيامة، وذلك سبعة آلاف سنة».

ولفظ القوت: وقد جاء في الخبر: «إن آخر مَن يبقىٰ في جهنم من الموحِّدين سبعة آلاف سنة». وروىٰ أبو سعيد وأبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «آخر من يخرج من النار، وهو أيضًا آخر مَن يدخل الجنة». فلعله - والله أعلم - بعد سبعة آلاف سنة، فيُعطَىٰ من الجنة مثل الدنيا كلها عشرة آلاف سنة(٣).

قلت: هذا الخبر رواه أحمد(٤) وعبد بن حميد(٥) عن أبي سعيد وأبي هريرة بهذا، ولفظه: «آخر مَن يخرج من النار رجلان، يقول الله لأحدهما: يا ابن آدم ...» الحديث بطوله، وفي آخره: «فيقول: أيْ ربِّ، أدخِلْني الجنة. فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: سَلْ وتَمَنَّ. فيسأل ويتمني مقدار ثلاثة أيام من أيام الدنيا، فإذا فرغ قال: لك ما سألتَ

---

(١) المغني ٢/ ٩٩٣.

(٢) نوادر الأصول ص ٤٣٠، وفيه: «وأطولهم سكنا فيها يمكث فيها مثل الدنيا يوم خلقت إلىٰ يوم أفنيت، وذلك سبعة آلاف سنة».

(٣) في القوت: (عشرة أضعاف) وهو الصواب.

(٤) مسند أحمد ١٨/ ٢٠٦، ٢٣٧.

(٥) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ١٢٢.

ومثله معه». وقال أبو هريرة: وعشرة أمثاله.

وروىٰ الطبراني في الكبير[1] من حديث ابن مسعود: «إن آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة رجل يحبو، فيقال له: ادخل الجنة. فيخيَّل إليه أنها ملأىٰ فيقول: يا رب، إنها ملأىٰ. فيقال له: ادخل، إن لك عشرة أمثال الدنيا. فيقول: أنت الملك، أتضحك بي؟ فذلك أنقص أهل الجنة حظًّا».

(**وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تعالىٰ تتفاوت دركاتهم، وهذه الدرجات والدركات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية توزُّعها عليها**) فنقول:

(**الرتبة الأولىٰ: وهي رتبة الهالكين، ونعني بالهالكين: الآيسين من رحمة الله تعالىٰ؛ إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه**) لك آنفًا (**آيس من رضا الملك وإكرامه، فلا تغفل عن معاني المثال**) فهذه الرتب قد رتَّبناها عليه (**وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين**) أي المنكرين (**والمعرضين**) عن الله بالكلية (**المتجرِّدين للدنيا، المكذِّبين بالله ورسله وكتبه**) فلا يرفعون لهم رأسًا (**فإن السعادة الأخروية**) إنما هي (**في القرب من الله تعالىٰ والنظر إلىٰ وجهه**) الكريم من غير حجاب (**وذلك لا يُنال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبَّر عنها بالإيمان**) بالله تعالىٰ (**والتصديق**) برسله وكتبه (**والجاحدون هم المنكرون، والمكذِّبون هم الآيسون من رحمة الله تعالىٰ أبد الأبد، وهم الذين يكذِّبون برب العالمين**) جلَّ جلاله (**وبأنبيائه المرسَلين**) وبالكتب المُنزلة عليهم (**إنهم عن ربهم يومئذٍ لَمحجوبون لا محالة**) كما قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا

(١) المعجم الكبير ١٠/ ٢٠٥. وهذا الحديث في البخاري ٤/ ٢٠٣، ومسلم ١/ ١٠٢، ١٠٣ من حديث ابن مسعود.

﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ [المطففين: ١٠ - ١٧] **(وكل محجوب عن محبوبه فمَحُول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة)** أشار بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ولا يكون ذلك إلا للمحجوبين **(فهو لا محالة يكون محترقًا مع نار جهنم)** أشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾ **(بنار الفراق)** الحاصلة من الحجاب **(ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحور العِين)** في الجنان **(وإنما مطلبنا اللقاء)** أي مشاهدة الوجه الكريم **(ومَهربنا من الحجاب فقط. وقالوا)** أيضًا: **(مَن يعبد الله بعوض فهو لئيم)** وذلك **(كأن يعبده لطلب جنَّته أو لخوف ناره، بل العارف)** الكامل **(يعبده لذاته، فلا يطلب إلا ذاته ووجهه فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتَّقيها؛ إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت علىٰ النار المحرقة للأجسام، فإنَّ نار الفراق هي نار الله الموقَدة التي تطَّلع علىٰ الأفئدة)** وهي بواطن القلوب **(ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام)** فتذيبها **(وألم الأجسام يُستحقَر مع ألم الفؤاد، ولذلك قيل)** قائله المتنبي[1]:

(وفي فـؤاد المحـب نـار جَـوًىٰ) (أحـرُّ نـار الجحيـم أبردُهـا)

وفي نسخة: هوىٰ.

(ولا ينبغي أن يُنكَر هذا في عالم الآخرة؛ إذ له نظير مشاهَد في عالم الدنيا، فقد رُؤي مَن غلب عليه الوجدُ) في السماع **(فغدا علىٰ النار وعلىٰ أصول القصب)** بعد أن قُطعت وطارت كالأسنَّة **(الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه)** وتقدَّم في كتاب الوجد والسماع **(وترىٰ الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال)** فيقاتل **(فتصيبه جراحات)** في بدنه **(وهو لا يشعر بها في الحال)** ويشعر بها في المستقبل بعد خمود نار الغضب **(لأن الغضب نار في القلب)** إذا تأجَّجت شغلت القلبَ عن الإحساس بالألم **(قال رسول الله ﷺ: الغضب قطعة من النار)**

---

(١) البيت في ديوانه ص ٨.

رواه الترمذي من حديث أبي سعيد بلفظ: «الغضب جمرة في قلب ابن آدم». وسنده ضعيف، وقد تقدم في كتاب ذم الغضب (**واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد يُبطِل الإحساسَ بالأضعف**) أي فلا يحس به (**كما تراه، فليس التألُّم من النار والسيف إلا من حيث إنه**) أي كلاً من النار والسيف (**يفرِّق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخَر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرِّق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به**) وفي نسخة: المرتبط به (**برابطة تأليف**) الحب (**أشد إحكامًا من تأليف الأجسام، فهو أشد إيلامًا إن كنتَ من أرباب البصائر وأرباب القلوب، ولا يبعُد أن لا يدرك مَن لا قلب له شدة هذا الألم**) ولا يحس به (**ويستحقره**) أي يجده حقيرًا (**بالإضافة إلىٰ ألم الجسم، فالصبي لو خُيِّر بين ألم الحرمان من**) لعب (**الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان من رتبة السلطان لم يحسَّ بألم الحرمان من رتبة السلطان أصلاً، ولم يعدَّ ذلك ألمًا، وقال: العدْو**) أي الجري (**في الميدان مع الصولجان**) بضرب الكرة فيه (**أحب إليَّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه، بل مَن تغلبه شهوة البطن لو خُيِّر بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر**) أي اختار (**الهريسة والحلواء**) ولم يلتفت إلىٰ الفعل الجميل (**وهذا كله لفقد المعنىٰ الذي بوجوده يصير الجاه محبوبًا ووجود المعنىٰ الذي بوجوده يصير الطعام لذيذًا، وذلك لمَن استرقَّته**) أي استعبدته (**صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القُرب من رب العالمين، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان**) وهي قوة منبثَّة في العصب المفروش علىٰ جوهر اللسان، وبها تدرك الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية[1] (**والسمع إلا في الآذان، فلا تكون هذه الصفة**

---

(١) ذكره الجرجاني في التعريفات ص ١١٢، وزاد: «بمخالطة الرطوبة اللعابية في الفم بالمطعوم ووصولها إلىٰ العصب». وهو مأخوذ من كلام الغزالي في كتاب معارج القدس في مدارج معرفة النفس ص ٤٣ (ط دار الآفاق الجديدة) ونصه: «الذوق: قوة مرتبة في العصب المفروش علىٰ جرم اللسان تدرك الطعوم المتحللة من الأجرام المماسة لها المخالطة للرطوبة العذبة التي فيه مخالطة محيلة».

إلا في القلب، فمَن لا قلب له ليس له هذا الحس) والإدراك (كمَن لا سمع له ولا بصر له ليس له لذة الألحان) المطربة (وحسن الصور والألوان) المختلفة (وليس لكل إنسان قلب، ولو كان لَما صح قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فجعل مَن لم يتذكَّر بالقرآن) ولم يتَّعظ به (مفلسًا من القلب) أي عاريًا منه عادمًا له عُرْي المفلس من المال. وقد تقدم الكلام عليه في فصول مقدمة كتاب العلم عند ذكر مختارات أقوال المصنف (ولست أعني بالقلب هذا) اللحم الصنوبري (الذي تكتنفه عظام الصدر) في الجهة اليسرىٰ (بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالَم الخلق عرشه) المستوي عليه (والصدر كرسيه، وسائر الأعضاء عالَمه ومملكته) كما تقدم ذلك من قول سهل التستري في كتاب عجائب القلب (ولله الخلق والأمر جميعًا) قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] (ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] هو الآمِر والملِك) فاللطيفة من عالم الأمر، واللحم الصنوبري من عالَم الخلق (لأن بين عالم الأمر و) بين (عالم الخلق ترتيبًا، وعالم الأمر أمير علىٰ عالم الخلق) وحاكم عليه (وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلُحَ بها سائرُ الجسد) كما ورد ذلك في الخبر، وتقدم (مَن عرفها) أي تلك اللطيفة (فقد عرف نفسه، ومَن عرف نفسه فقد عرف ربَّه) كما ورد ذلك في الخبر، وتقدم (وعند ذلك يشم العبد) السالك (مبادئ روائح المعنىٰ المطويِّ تحت قوله ﷺ: إن الله خلق آدم علىٰ صورته) تقدم الكلام عليه قريبًا (وينظر بعين الرحمة إلىٰ الجامدين) الواقفين (علىٰ ظاهر لفظه) ولا يؤوِّلون (وإلىٰ المتعسِّفين في طريق تأويله) الخارجين عن الحدود (وإن كانت رحمته للجامد) الواقف (علىٰ) ظاهر (اللفظ أكثر من رحمته للمتعسِّف في التأويل؛ لأن الرحمة علىٰ قدر المصيبة، ومصيبة أولئك) الجامدين (أكثر، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر) إذ كلٌّ منهما لم يحقق الأمرَ تحقيقًا شافيًا، فهما مشتركان في الحرمان (فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وهي حكمة) ربَّانية (يختصُّ بها

من يشاء، ومَن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

ولنعُدْ إلىٰ الغرض، فقد أرخينا الطِّوَل) بكسر الطاء المهملة وفتح الواو: الحبل، ومنه قول الشاعر:

* لكالطِّوَل المرخي وثنياه باليد[1] *

(**وطوَّلنا النفَسَ**) محرَّكة، هو[2] في الأصل اسم للريح الداخل والخارج في البدن من الفم والمِنْخَر، وهو كالغذاء للنفْس، وبانقطاعه بطلانُها (**في أمر هو أعلىٰ من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب، فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليست إلا للجهَّال المكذِّبين**) بالله ورسله (**وشهادة ذلك من كتاب الله تعالىٰ وسنَّة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر، فلذلك لم نوردها**) والله الموفِّق.

(**الرتبة الثانية: رتبة المعذَّبين، وهذه رتبة مَن تحلَّىٰ بأصل الإيمان**) بالله ورسله (**ولكن قصَّر في الوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد**) أي هو بمنزلة الرأس من الجسد (**وهو أن لا يعبد إلا الله**) وحده (**ومَن اتَّبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه**) فمعبوده هواه ولم يكمُل توحيدُه (**فهو موحِّد بلسانه**) فقط (**لا بالحقيقة**) إذ حقيقة التوحيد أن لا يشارك في توحيده (**بل معنىٰ قولك «لا إله إلا الله»**) بعينه (**معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾**) [الأنعام: ٩١] فقد أمر بالتوحيد الخالص، وأن يتركهم فيما يخوضون (**وهو أن تَذَر بالكلية غير الله**) فلا يكون للغير إلىٰ قلبه سبيل (**و**) أيضًا (**معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾**) [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣] أي علىٰ هذا القول (**ولمَّا كان الصراط المستقيم**) المشار إليه في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦]

---

(١) عجز بيت، صدره:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتىٰ

وهو لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٢٦ من معلقته المشهورة.

(٢) المفردات للراغب ص ٥٠١.

(الذي لا يكمُل التوحيدُ إلا بالاستقامة عليه) ومن هنا أشار بعض العارفين أن المراد هنا وحدة الوجود **(أدق من الشعر وأحَدَّ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة)** بهذا الوصف **(فلا ينفكُّ بشرٌ عن الميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير)** أي قليل تافه **(إذ لا يخلو عن اتِّباع الهوىٰ ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضي لا محالة نقصانًا في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن)** في آي متعددة **(فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذَّبًا مرتين)**: مرة في الدنيا، ومرة في الآخرة **(من وجهين)** مختلفين **(ولكن شدة ذلك العذاب وخفَّته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين، أحدهما: قوة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتِّباع الهوىٰ وقلَّته؛ إذ لا يخلو بشر في غالب الأمر)** والأحوال **(عن واحد من الأمرين، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ ﴾)** أي[1] ما منكم من أحد **(﴿إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾)** أي إلا واصلها وحاضرها، يعني جهنم **(الآيتين)** وهما ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢] فيمر بها المؤمن وهي خامدة، وفي الخبر: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربُّنا أن نَرِدَ النارَ؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة». قيل: المراد بورودها الجواز علىٰ الصراط، فإنه ممدود عليها **(ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفُنا لأنَّا تيقَّنا أنَّا علىٰ النار واردون، وشككنا في النجاة)** ووجه التيقُّن قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ أي كان ورودهم واجبًا أوجبه الله تعالىٰ علىٰ نفسه وقضىٰ به بأن وعد به وعدًا لا يمكن تخلُّفه.

وأخرج أحمد في الزهد عن بكر بن عبد الله المزني أنه لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾ ذهب عبد الله بن رواحة إلىٰ بيته فبكىٰ، وبكىٰ أهل بيته

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ١٧.

لبكائه، فسُئل عن بكائه قال: أُنزلت علىٰ رسول الله ﷺ آية نبَّأني فيها ربي أني وارد علىٰ النار، ولم ينبِّئني أني صادر عنها، فذلك الذي أبكاني(١). وفي(٢) رواية أخرىٰ عن قيس بن أبي حازم قال: بكىٰ عبد الله بن رواحة، فقالت له امرأته: ما يبكيك؟ قال: إني أُنبئتُ أني وارد النار، ولم أُنبَّأ أني صادر عنها.

وأخرج ابن أبي شيبة(٣) عن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه: هل أتاك أنك وارد؟ فيقول: نعم. فيقول: هل أتاك أنك خارج [منها]؟ فيقول: لا. فيقول: ففيمَ الضحك إذًا؟

(ولمَّا روىٰ **الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ (**الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام فإنه**) وفي نسخة: وأنه (**ينادي: يا حنَّان يا منَّان، قال الحسن: يا ليتني كنت ذلك الرجل**) لشدة خوفه، خاف أن يدخلها، ثم عظُم خوفُه فخاف أن لا يخرج منها فتمنىٰ أن يخرج منها بعد ألف عام. كذا في القوت.

والحديث قال العراقي(٤): رواه أحمد(٥) وأبو يعلىٰ(٦) من رواية أبي ظلال القسملي عن أنس، وأبو ظلال ضعيف، واسمه هلال بن ميمون.

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٢٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٨/ ١٠٦.
(٢) الزهد لأحمد ص ١٦٤.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٠.
(٤) المغني ٢/ ٩٩٣ - ٩٩٤.
(٥) مسند أحمد ٢١/ ٩٩ - ١٠٠.
(٦) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٢١٤. ولفظ الحديث: «إن عبدا في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان، يا منان. فيقول الله لجبريل: اذهب فأتني بعبدي هذا. فينطلق جبريل، فيجد أهل النار منكبين علىٰ وجوههم يبكون، فيرجع إلىٰ ربه فيقول: يا رب لم أره. فيقول الله: ائتني به، فإنه في مكان كذا وكذا. فيجيء به فيوقفه علىٰ ربه، فيقول له: يا عبدي، كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب، شر مكان وشر مقيل. فيقول: ردوا عبدي. فيقول: يا رب، ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها. فيقول: دعوا عبدي».

قلت: ويقال فيه: هلال بن سويد، معروف بكنيته، أخرج له الترمذي، قال ابن عدي[١]: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه [الثقات].

وروى الحكيم في النوادر[٢] من حديث جابر: «قال لي جبريل: يا محمد، إن الله تعالى يخاطبني يوم القيامة فيقول: يا جبريل، ما لي أرى فلانًا في صفوف أهل النار؟ فأقول: يا رب، إني لم أجد له حسنة يعود عليه خيرُها اليوم. فيقول الله تعالى: إني سمعته في دار الدنيا يقول: يا حنَّان يا منَّان، فأتِه فاسأله [ماذا عني بقوله: يا حنان يا منان؟ فآتيه فأسأله] فيقول: وهل من حنَّان منَّان غير الله؟! فآخُذ بيده من صفوف أهل النار فأُدخِله في صفوف أهل الجنة».

(واعلمْ أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة) رواه الحكيم الترمذي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم قريبًا **(وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث)** أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال: يَرِدُ الناسُ الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدُرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمرُّ مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل [ومنهم من يمر كأجود الإبل] ومنهم من يمر كعَدْو الرجل، حتى إن آخرهم مرًّا رجل نوره على موضعَي إبهامَي قدميه يمر متكفِّئًا به الصراط» **(وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المُدَد)** وفي القوت: يخرجون من النار زمرًا متفاوتين من اليوم والجمعة والشهر والسنة إلى ستة آلاف سنة **(وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب)** لِما في الخبر: «مَن نوقِش الحساب عُذِّب» **(كما أن الملك)** من ملوك الدنيا **(قد**

(١) الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٧٩.

(٢) نوادر الأصول ص ٣٣٠.

يعذِّب بعض المقصِّرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو) فضلاً منه (وقد يضرب بالسياط) وشبهها (وقد يعذب بأنواع أُخَر من العذاب. ويتطرَّق إلىٰ العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع؛ إذ ليس من يعذب بمصادرة المال) أي أخذه منه ظلمًا وتعدِّيًا (فقط كمَن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع) الأطراف مثل (اللسان واليد والأنف والأذن وغيرها. فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دلَّت عليها قواطع الشرع، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها، أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها، وأما كثرته فبكثرتها) أي السيئات (وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات، وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان، وهو المعنيُّ) أي المقصود (بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾) [فصلت: ٤٦] وبقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١﴾ [غافر: ٣١] (وبقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ [غافر: ١٧] وبقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩] وبقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨] إلىٰ غير ذلك ممَّا ورد في الكتاب والسنَّة من كون العقاب والثواب جزاء علىٰ الأعمال) مترتِّبان عليها (وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه) ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩] (وجانب العفو والرحمة أرجح؛ إذ قال تعالىٰ فيما أخبر) وفي نسخة: حكىٰ (عنه نبيُّنا ﷺ: سبقت رحمتي غضبي) رواه مسلم[1] من حديث أبي هريرة (وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠] فإذًا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع) أي بدلائله القطعية (ونور المعرفة)

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٢٦١. وقد رواه أيضا البخاري في صحيحه ٢/ ٤١٩، ٤/ ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٩٥، ٤١٧. وتمام الحديث: «لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي». وفي بعض الروايات: (غلبت) بدل (سبقت).

الحاصل من كمال الإيمان، هذا علىٰ سبيل الإجمال **(وأما التفصيل فلا يُعرَف إلا ظنًّا، ومستنَده ظواهر الأخبار ونوع حَدْس)** أي تخمين **(يُستمَدُّ من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار)**.

(فنقول: كل مَن أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميعَ الفرائض، أعني الأركان الخمسة) من التوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج **(ولم تكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصرَّ عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط، فإنه إذا حوسِب رجحت حسناته علىٰ سيئاته؛ إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة)** إلىٰ الجمعة **(وصوم رمضان)** إلىٰ رمضان **(كفَّارة لِما بينهن)** رواه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة نحوه، وقد تقدم قريبًا **(وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفِّر للصغائر)** وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ١٣] **(وأقل درجات التكفير أن يُدفَع العذاب إن لم يُرفَع[1] الحساب، وكل مَن هذا حالُه فقد ثقلت موازينه)** بالحسنات **(فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية)** يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القارعة: ٦ - ٧] **(نعم، التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرَّبين ونزوله في جنة عدن أو في الفردوس الأعلىٰ فكذلك يتبع أصناف الإيمان؛ لأن الإيمان إيمانان: تقليديٌّ كإيمان العوامِّ يصدِّقون بما يسمعون ويستمرون عليه، وإيمان كشفيٌّ يحصل بانشراح الصدر بنور الله)** عَزَّوَجَلَّ، وهو المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] **(حتىٰ ينكشف فيه الوجود كلُّه علىٰ ما هو عليه)** واجبه وممكنه **(فيتضح أن الكل إلىٰ الله مرجعه ومصيره؛ إذ ليس في الوجود إلا الله تعالىٰ وصفاته وأفعاله)** وأن[2] كل شيء

---

(١) في الجميع: يدفع.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٥٧ - ٥٨.

هالك إلا وجهه، لا أنه يصير هالكًا [في وقت] من الأوقات، بل هو هالك أزلاً وأبدًا، لا يُتصور إلا كذلك، فإن كل شيء سواه إذا اعتُبِرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتُبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول [الحق رُؤي موجودًا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجِدَه] فيكون الموجود وجه الله فقط، ولكل شيء وجهان: وجه إلىٰ نفسه ووجه إلىٰ ربه، فهو باعتبار وجه نفسه عدمٌ، وباعتبار وجه الله موجود، فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه، فإذًا كل شيء هالك إلا وجهه أزلاً وأبدًا، ونزيد ذلك وضوحًا أن الوجود ينقسم إلىٰ ما الوجود له من ذاته وإلىٰ ما له الوجود من غيره، وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه، بل إذا اعتُبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإنما هو موجود من حيث نسبته إلىٰ غيره، وذلك ليس بوجود حقيقيٍّ، فاعْرفه (**فهذا الصنف هم المقرَّبون، النازلون في الفردوس الأعلىٰ، وهم علىٰ غاية القرب من الملأ الأعلىٰ**) والقريب إلىٰ القريب قريبٌ (**وهم أيضًا علىٰ أصناف، فمنهم السابقون**) بالخيرات (**ومنهم مَن دونهم**) في الرتبة (**وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالىٰ**) فكل مَن قويتْ معرفته تم له السبق، وذلك[1] بقدر ما ينكشف لهم من معلومات الله وعجائب مقدوراته وبديع آياته في الدنيا والآخرة والمُلك والملكوت (**ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالىٰ لا تنحصر؛ إذ الإحاطة بكُنْه جلال الله**) وعظمته (**غير ممكنة**) في قوة البشر والملائكة (**وبحر المعرفة ليس له ساحل**) ينتهي إليه (**و**) لا يُعرَف له (**عمق**) أي قرار (**وإنما يغوص فيه الغوَّاصون بقدر قواهم**) واستعداداتهم (**وبقدر ما سبق لهم من الله تعالىٰ في الأزل، فالطريق إلىٰ الله تعالىٰ لا نهاية لمنازله، والسالكون لسبيل الله لا نهاية لدرجاتهم**) ونهاية[2] معرفتهم عجزُهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه، وأنهم لا يمكنهم البتَّة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكُنْه صفات الربوبية إلا الله

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٥٦.

(٢) السابق ص ٥٤.

تعالىٰ، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافًا برهانيًا فقد بلغوا المنتهَىٰ الذي يمكن في حق الخلق من معرفته (وأما المؤمن إيمانًا تقليديًّا فهو من أصحاب اليمين، ودرجته دون درجة المقرَّبين، وهم أيضًا علىٰ درجات، فالأعلىٰ من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبتُه رتبةَ الأدنىٰ من درجات المقرَّبين. هذا حال مَن اجتنب كل الكبائر وأدَّىٰ الفرائض كلها، أعني الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج) وهي أبنية الإسلام، إذا تُمِّمت كفَّرت ما بعدها من السيئات، وثبتت للعبد نوافلُه، وتبدَّلت سيئاته حسنات (فأما مَن ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام) المذكورة (فإن تاب توبة نصوحًا قبل قرب الأجل التحق بمَن لم يرتكب ذنبًا؛ لأن التائب من الذنب كمَن لا ذنب له) كما في الخبر، وتقدم ذِكرُه (والثوب المغسول كالذي لم يتوسَّخ أصلاً. وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت؛ إذ ربما يكون موته علىٰ الإصرار سببًا لتزلزُل إيمانه) واضطرابه (فيُختَم له بسوء الخاتمة) عياذًا بالله منه (لا سيَّما إذا كان إيمانه تقليديًّا) لا كشفيًّا (فإن التقليد وإن كان جزمًا فهو قابل للانحلال بأدنىٰ شك وخيال، والعارف البصير أبعدُ [من][1] أن يُخاف عليه سوء الخاتمة، وكلاهما إن ماتا علىٰ الإيمان يعذَّبان - إلا أن يعفو الله تعالىٰ - عذابًا يزيد علىٰ عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات. وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البُلْه المقلِّدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلىٰ عِلِّيين) فهذا تفاوت درجاتهم في منازلهم (ففي الخبر: آخر من يخرج من النار يُعطَىٰ مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف) قال العراقي[2]: متفق عليه[3] من حديث ابن مسعود. انتهىٰ.

---

(١) زيادة من أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٩٧.

(٢) المغني ٢/ ٩٩٤.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢٠٣، ٤٠٦. صحيح مسلم ١/ ١٠٢ - ١٠٤.

قلت: الذي في صحيح مسلم من حديثه: «آخر مَن يدخل الجنة رجل يمشي علىٰ الصراط، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها وقال: تبارك الذي نجَّاني منكِ، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخِرين. فتُرفَع له شجرة، فيقول: أيْ رب، أدنِني منها فأستظل بظلها وأشرب من مائها. فيقول الله: يا ابن آدم، لعلِّي إن أعطيتكها سألتني غيرَها. فيقول: لا يا رب. ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم تُرفَع له شجرة أخرىٰ هي أحسن من الأولىٰ، فيقول: أيْ رب، أدنِني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلِّي إن أدنيتك منها تسألني غيرها. فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم تُرفَع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأُوليين، فيقول: أيْ رب، أدنِني من هذه الشجرة لاستظلَّ بظلها وأشرب من مائها ولا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلىٰ يا رب، أدنِني من هذه لا أسألك غيرها. وربه يعذره؛ لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أيْ رب، أدخلنيها. فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: أيْ رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني علىٰ ما أشاء قدير». وهكذا رواه أحمد[1] والطبراني في الكبير[2] والبيهقي في الشعب[3]. وقوله «ما يصريني منك» هكذا رواه مسلم، وقيَّده النووي[4] بفتح الياء وإسكان الصاد المهملة، ومعناه: يقطع مسألتك

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٢٥٣، ٧/ ١٤.

(٢) المعجم الكبير ١٠/ ١٠.

(٣) لم يروه في الشعب، وإنما في كتاب البعث والنشور ص ١٠١ - ١٠٢.

(٤) شرح صحيح مسلم ٣/ ٥٣.

عني. ورُوي في غير مسلم: «ما يصريك مني»؟ وكلاهما صحيح، والمعنىٰ: أيُّ شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك. انتهىٰ. وفي رواية للطبراني[١]: «إن آخر مَن يخرج من النار ويدخل الجنة رجل يحبو، فيقال له: ادخل الجنة. فيخيَّل إليه أنها ملأىٰ، فيقول: يا رب، إنها ملأىٰ. فيقال له: ادخل، إن لك عشرة أمثال الدنيا. فيقول: أنت الملك، أتضحك بي؟ فذلك أنقص أهل الجنة حظًّا». وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد معًا: «آخر مَن يخرج من النار رجلان ...» الحديث بطوله، وفيه: «فيسأل ويتمنىٰ، فإذا فرغ قال: لك ما سألتَ ومثله معه». وقال أبو هريرة: وعشرة أمثاله. رواه أحمد وعبد ابن حميد، وقد تقدم. وفي الباب أبو أمامة الباهلي، رواه الحكيم والطبراني[٢]، ولكن ليس فيه ذِكر عشرة أمثال الدنيا.

(فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأنْ يقابَل فرسخ بفرسخين أو عشرة فراسخ بعشرين) المِساحة بالكسر: الذرع، يقال: مسحت الأرض مسحًا، أي ذرعتها. والفرسخ: ثلاثة أميال بالهاشمي، والجمع: فراسخ **(فإنَّ هذا جهل بطريق ضرب الأمثال، بل هذا كقول القائل: أخذ منه جملاً وأعطاه**

---

(١) المعجم الكبير ١٠/ ٢٠٥.

(٢) السابق ٨/ ١٨٥. ولفظ الحديث: «إن آخر رجل يدخل الجنة رجل يتقلب علىٰ الصراط ظهرا لبطن كالغلام يضربه أبوه وهو يفر منه، يعجز عنه عمله أن يسعىٰ، فيقول: يا رب، بلِّغ بي الجنة ونجني من النار. فيوحي الله تعالىٰ إليه: عبدي، إن أنا نجيتك من النار وأدخلتك الجنة أتعترف لي بذنوبك وخطاياك؟ فيقول العبد: نعم يا رب، وعزتك وجلالك لئن نجيتني من النار لأعترفن لك بذنوبي وخطاياي. فيجوز الجسر، ويقول العبد فيما بينه وبين نفسه: لئن اعترفت له بذنوبي وخطاياي ليردني إلىٰ النار. فيوحي الله إليه: عبدي، اعترف لي بذنوبك وخطاياك أغفرها لك وأدخلك الجنة. فيقول العبد: لا، وعزتك ما أذنبت ذنبا قط ولا أخطأت خطيئة قط. فيوحي الله إليه: عبدي، إن لي عليك بينة. فيلتفت العبد يمينا وشمالا فلا يرىٰ أحدا، فيقول: يا رب، أرني بينتك. فيستنطق الله جلده بالمحقرات، فإذا رأىٰ ذلك العبد يقول: يا رب، عندي وعزتك العظائم المضمرات. فيوحي الله عَزَّوَجَلَّ إليه: عبدي، أنا أعرف بها منك، اعترف لي بها أغفرها لك وأدخلك الجنة. فيعترف العبد بذنوبه، فيدخل الجنة». ثم ضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه وقال: «هذا أدنىٰ أهل الجنة منزلة، فكيف بالذي فوقه؟!».

عشرة أمثاله، وكان الجمل يساوي) في الثمن (عشرة دنانير، فأعطاه مائة دينار) وهو عشرة أمثال (فإن لم يفهم من المَثل إلا المِثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار مثلاً للجمل؛ لأن مائة دينار إذا وُضعت في كفة الميزان و) وُضع (الجمل في الكفة الأخرىٰ لم يكن عُشر عشيره، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها) أي صورها الظاهرة (فإن الجمل لا يُقصَد لثقله وطوله وعرضه ومساحته، بل لماليَّته، فروحه) الباطني (المالية، وجسمه اللحم والدم) اللذان بهما تركيبه (ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية، وهذا صادق عند مَن يعرف روح المالية من الذهب والإبل، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال: أعطيته عشرة أمثالها، كان صادقًا، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهري) الذي يتعاطىٰ بيع الجواهر وشراءها (فإن روح الجوهرية لا تُدرَك بمجرد البصر بل بفطنة أخرىٰ وراء البصر) وهي التي يميِّز بها بين الجيد منه والمغشوش، وكثيرًا ما يروج علىٰ مَن عدم هذه الفطنةَ الزجاج المغشوش بالجوهر (ولذلك يكذِّب به الصبي) الغِرُّ بالأمور (بل القروي) أي ساكن القرىٰ البعيدة عن المدن (والبدوي) أي ساكن البراري والقِفار (ويقول) لعدم الفطنة: (ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال، ووزن الجمل ألف ألف مثقال) بل ألف ألف أرطال (فقد كذب في قوله: إني أعطيته عشرة أمثاله. والكاذب بالتحقيق هو الصبي، ولكن لا سبيل إلىٰ تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال) بالعقل (وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال، فعند ذلك ينكشف له الصدق) انكشافًا برهانيًا (والعارف عاجز عن تفهيم المقلِّد القاصر) عقله (صِدق رسول الله ﷺ في هذه الموازنة) التي ذُكرت في الأخبار السابقة (إذ يقول: الجنة في السموات. كما ورد في الأخبار) قال العراقي[1]: رواه البخاري[2] من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه

---

(١) المغني ٢/ ٩٩٤.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤، ٤/ ٣٨٨.

أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة، وفوقه عرش الرحمن». انتهىٰ.

قلت: بل قد ورد أصرح من ذلك، فروىٰ الشيخان[١] من حديث أبي موسىٰ: «الخيمة دُرَّة مجوَّفة، طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل [للمؤمن] لا يراهم الآخَرون».

وروىٰ أبو نعيم[٢] ومن طريقه الديلمي من حديث عبد الله بن سلام: «الجنة في السماء، والنار في الأرض».

(**والسموات من الدنيا، فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا؟ وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة، وكذلك تفهيم البدوي**) فإنهما قاصران عن فهمها (**وكما أن الجوهري مرحوم إذا بُلي بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف**) البصير (**مرحوم إذا بُلي بالأبله البليد**) الجامد الذهن (**في تفهيم هذه الموازنة، ولذلك قال ﷺ: ارحموا ثلاثة: عالمًا بين الجهَّال وغني قوم افتقر، وعزيز قوم ذلَّ**) قال العراقي[٣]: رواه ابن حبان في الضعفاء[٤] من رواية عيسىٰ بن طهمان عن أنس، وعيسىٰ ضعيف. ورواه فيه[٥] من حديث ابن عباس، إلا أنه قال: «عالِم تلاعب به الصبيان»، وفيه أبو البختري واسمه وهب ابن وهب، أحد الكذابين. انتهىٰ.

قلت: لفظ[٦] ابن حبان في الضعفاء: «ارحموا ثلاثة: عزيز قوم ذلَّ، وغني قوم افتقر، وعالمًا بين جُهَّال». هكذا أورده في ترجمة عيسىٰ وقال: إنه يتفرَّد بالمناكير

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٤٣٢، ٣/ ٣٠٣. صحيح مسلم ٢/ ١٣٠٢.
(٢) صفة الجنة ٣/ ٢٩٥.
(٣) المغني ٢/ ٩٩٤.
(٤) المجروحون من المحدثين ٢/ ٩٨ - ٩٩.
(٥) السابق ٢/ ٤١٦.
(٦) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٤٩.

عن أنس، كأنه كان يدلِّس عن أبان بن أبي عيَّاش ويزيد الرقاشي عنه، لا يجوز الاحتجاج بخبره. ورواه العسكري في الأمثال والسليماني في الضعفاء من طريق زيد بن أبي الزرقاء عن عيسىٰ بن طهمان بلفظ: «ارحموا ثلاثة من الناس ...» والباقي سواء، وقال ثانيهما: إن الحمل فيه علىٰ عيسىٰ. لكن وُجد بخط الحافظ ابن حجر ما نصه: عيسىٰ ثقة، لم يتكلم فيه غير ابن حبان، وقد احتجَّ به البخاري والنسائي والأئمة ممَّن دونه. انتهىٰ. وقال في التهذيب(١): صدوق، أفرط فيه ابن حبان، والذنب فيما استنكره من حديثه لغيره. وسبقه المزي(٢) فقال في ترجمته: قال أحمد: شيخ، ثقة. وعنه أيضًا: ليس به بأس. وكذلك قال ابن معين والنسائي، وقال أبو حاتم: لا بأس به، يشبه حديثُه حديثَ أهل الصدق، ما بحديثه بأس. وقال أبو داود: لا بأس به، أحاديثه مستقيمة. وقال مرة أخرىٰ: ثقة. ورواه الخطيب(٣) من طريق جعفر بن هارون الواسطي عن سمعان عن أنس رفعه مثله لكن بلفظ «فقيهًا يتلاعب به الصبيان والجهَّال»، وسمعان مجهول لا يكاد يُعرَف، أُلصقت به نسخة مكذوبة(٤). ورواه القضاعي(٥) من طريق عبد الله بن الوليد العَدَني حدثنا الثوري [عن منصور] عن مجاهد عن ابن مسعود به مرفوعًا بلفظ: «[وعالما] يلعب به الحمقىٰ والجهَّال». ومجاهد، قال أبو زُرعة: عن ابن مسعود [مرسل](٦). وقد رُوي عن ابن عباس بلفظ: «وعالم تلاعب به الصبيان»، رواه ابن حبان في الضعفاء من طريق نوح بن الهيثم عن أبي البختري. ويُروَىٰ عن أبي هريرة أيضًا. وأورده

(١) تقريب التهذيب ص ٧٦٨.

(٢) تهذيب الكمال ٢٢/ ٦١٧ - ٦٢٠. وانظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/ ٢٨٠. تاريخ بغداد للخطيب ١٢/ ٤٥٩ - ٤٦١. العلل ومعرفة الرجال ٣/ ٤٥٦. سؤالات أبي عبيد الآجري لأبي داود ٢/ ٤٢، ٣٠٣.

(٣) الفقيه والمتفقه ١/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٤) قاله الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٢٣٤.

(٥) مسند الشهاب ١/ ٤٢٨.

(٦) نقله عنه ابن أبي حاتم في المراسيل ص ٢٠٥ (ط - مؤسسة الرسالة).

ابن الجوزي في الموضوعات[1] وقال: إنما يُعرَف هذا من كلام الفضيل بن عياض. وساقه من طريق الحاكم قال: سمعت إسماعيل بن محمد بن الفضل قال: سمعت جدي يقول: سمعت سعيد بن منصور يقول: قال الفضيل بن عياض: ارحموا عزيز قوم ذل، وغنيًّا افتقر، وعالمًا بين جهَّال.

(والأنبياء مرحومون بين الأمَّة بهذا السبب، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة) عن إدراك ما يقولون لهم **(فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله تعالىٰ وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزليُّ، وهو المعنيُّ بقوله ﷺ: البلاء موكل بالأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل)** قال العراقي[2]: رواه الترمذي[3] وصحَّحه والنسائي في الكبرىٰ[4] وابن ماجه[5] من حديث سعد بن أبي وقَّاص قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشد بلاءً؟ ... فذكره دون ذِكر الأولياء. وللطبراني[6] من حديث فاطمة عمة أبي عبيدة بن حذيفة بإسناد صحيح في أثناء حديث: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون». انتهىٰ.

قلت: رواه الترمذي في الزهد من جامعه من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيُبتلَىٰ الرجل علىٰ حسب دينه [فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتُلي علىٰ حسب دينه] فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض وما عليه خطيئة». وكذا هو عند النسائي

---

(١) الموضوعات ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) المغني ٢/ ٩٩٥.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٠٣.

(٤) السنن الكبرىٰ ٧/ ٤٦.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٩٣.

(٦) المعجم الكبير ٢٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

وابن ماجه في الفتن في سننه والدارمي في الرقاق من مسنده[١]، وأخرجه الطيالسي[٢] وأحمد[٣] وعبد بن حميد[٤] والبخاري[٥] وابن أبي عمر وابن منيع وأبو يعلىٰ[٦] وابن حبان[٧] والحاكم[٨] كلهم من حديث عاصم، وهو عند مالك في الموطأ وآخرين، وقال الترمذي: إنه حسن صحيح. وصحَّحه ابن حبان والحاكم، وأخرجه أيضًا من طريق العلاء بن المسيب عن مصعب.

وأما حديث فاطمة بنت اليمان أخت حذيفة فلفظه عند الطبراني في الكبير: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وروىٰ البخاري في التاريخ[٩] عن أزواج النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء في الدنيا نبي أو صفيٌّ».

وروىٰ ابن النجار[١٠] من حديث أبي هريرة: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون».

وروىٰ ابن حبان من حديث أبي سعيد[١١]: «أشد الناس بلاء الأنبياء

---

(١) سنن الدارمي ٢/ ٤١٢.

(٢) مسند الطيالسي ١/ ١٧٤.

(٣) مسند أحمد ٣/ ٧٨، ٨٧، ١٢٨، ١٥٩.

(٤) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ١٦٣.

(٥) لم يرو البخاري حديث سعد، وإنما أورد لفظه في كتاب المرضىٰ من صحيحه ٤/ ٢٤ ترجمة باب.

(٦) مسند أبي يعلىٰ ٣/ ١٤٣.

(٧) صحيح ابن حبان ٧/ ١٦٠ - ١٦١، ١٨٤.

(٨) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٩١ - ٩١.

(٩) التاريخ الكبير ٨/ ١١٥.

(١٠) وكذلك البزار في مسنده ١٦/ ٢١٨، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ص ١٩.

(١١) كذا هنا وفي كنز العمال ٣/ ٣٢٧. وفي صحيح ابن حبان ٧/ ١٨٤: عن سعد. يعني ابن أبي وقاص. وقال محققه: إنه في الأصل والتقاسيم: عن أبي سعيد. وأنه أثبت ما في موارد الظمآن ٢/ ٤٤٥ (ط - دار الثقافة العربية).

ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلَىٰ الناس علىٰ قدر دينهم، فمَن ثَخُنَ دينه اشتد بلاؤه، ومَن ضعُف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل لَيصيبُه البلاء حتىٰ يمشي في الناس ما عليه خطيئة». ورواه ابن سعد في الطبقات[١] وابن ماجه[٢] وأبو يعلىٰ[٣] والحاكم[٤] وصاحب الحلية[٥] والضياء بلفظ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ولقد كان أحدهم يُبتلَىٰ بالفقر حتىٰ ما يجد إلا العباءة يحوبها فيلبسها، ويُبتلَىٰ بالقمل حتىٰ يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء».

(فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب ﷺ وهو الذي ينزل بالبدن) وكان ﷺ قد ابتُلي سبع سنين وأشهرًا بالضر في جسده، كما رواه ابن جرير[٦] عن قتادة **(فإنَّ بلاء نوح ﷺ أيضًا من البلاء العظيم؛ إذ بُلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلىٰ الله إلا فرارًا)** وذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ أي عن الإيمان والطاعة ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: ٥ - ٧] **(ولذلك لمَّا تأذَّىٰ رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال: رحم الله أخي موسىٰ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)** قال العراقي[٧]: متفق عليه[٨] من حديث ابن مسعود. انتهىٰ.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ٢/ ١٨٥.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٩٤.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٣١٣.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٩٠ - ٩١، ٤/ ٤٤٨.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٣٧٠.

(٦) جامع البيان ٢٠/ ١٠٦، ولفظه: «﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ حتىٰ بلغ ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾: ذهاب المال والأهل والضر الذي أصابه في جسده، ابتلي سبع سنين وأشهرا ملقىٰ علىٰ كناسة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده، ففرج الله عنه، وعظم له الأجر، وأحسن عليه الثناء».

(٧) المغني ٢/ ٩٩٥.

(٨) صحيح البخاري ٢/ ٤٠٤، ٤٧٧، ٣/ ١٥٩، ٤/ ١٠٢، ١١٠، ١٥٠، ١٦٠. صحيح مسلم ١/ ٤٧٠.

قلت: والمراد ببعض الناس: رجل من المؤلَّفة قلوبهم، وذلك أنه ﷺ أعطىٰ يوم حنين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة من الإبل، وأعطىٰ غيرَهم أقل من ذلك، فقال رجل: إن هذه قسمة ما أريدَ بها وجه الله. فقال ﷺ ذلك. وقد رواه أحمد[١] كذلك، وتقدم في أخلاق النبوَّة.

ويُحكَىٰ[٢] من تعنُّت مَن آمن بموسىٰ من بني إسرائيل أن رموه بداء الأدرة، واتَّهموه بقتل أخيه هارون لمَّا مات معه في التِّيه بعد ما رأوا من المعجزات الظاهرة ممَّا جاء به التنزيل، ومن سوء أخلاقهم أنه لما سلك بهم طريق البحر قالوا له: إن صَحْبنا لا نراهم. فقال: سيروا، فإنهم علىٰ طريق كطريقكم. قالوا: لا نرضىٰ حتىٰ نراهم. فقال: اللهم أعنِّي علىٰ أخلاقهم السيئة. ففُتحت لهم كُوَّات في الماء، فتراءوا وتسامعوا. إلىٰ غير ذلك من أذاهم له عليه السلام. وهذا القول منه ﷺ شفقة عليهم ونصحًا في الدين، لا تهديدًا وتثريبًا، إيثارًا لحق الله علىٰ نفسه في ذلك المقام الذي هو عقب الفتح وتمكُّن السلطان الذي يتنفَّس فيه المكروب وينفث المصدورُ ويتشفَّىٰ المغيظ المحنق ويدرك ثأره المأثور.

(**فإذًا كما لا يخلو الأنبياء**) عليهم السلام (**عن الابتلاء بالجاحدين**) والمعاندين (**فلا يخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، ولذلك قلَّما ينفكُّ الأولياء**) وكذلك العلماء (**عن ضروب**) أي أنواع (**من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلد**) تارة (**والسعاية بهم إلىٰ السلاطين**) تارة (**والشهادة عليهم بالكفر**) تارة (**والخروج عن الدين**) تارة، أي رميهم بالحلول والزندقة، وقد وقع كل ما ذُكر لأعيان الأولياء والعلماء، كما يُعرَف ذلك من تراجمهم في التواريخ، وهم مع ذلك يصبرون علىٰ أذاهم؛ إذ أخذ الله عليهم أن يعدلوا، ويقوموا بنواميس

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٩٩، ٧/ ١٨، ٢١٤، ٢٥٦.

(٢) فيض القدير ٤/ ٢٧.

الشريعة والحقيقة، والصدع بالحق، والقيام لله في أمور الدين ومصالح المسلمين، وتحمُّل الأذىٰ المترتِّب علىٰ ذلك؛ إذ هم القدوة والمرجع في الأحكام وحُجَّة الله علىٰ العوامِّ (وواجب أن يكون أهل المعرفة) بالله تعالىٰ (عند أهل الجهل من الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير) في الجسم (جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذِّرين المضيِّعين) أموالهم في غير مَحالِّها (فإذا عرفتَ هذه الدقائق فآمِنْ بقوله ﷺ: إنه يُعطَىٰ آخر مَن يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات) كما تقدم بيان ذلك (وإيَّاك أن تقتصر بتصديقك علىٰ ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارًا برجلين؛ لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس) الظاهرة (وإنما أنت مفارق للحمار بسرٍّ إلهيٍّ عُرض علىٰ السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنه وأشفقنَ منه) وحملتَه أنت (فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادَف إلا في عالَم ذلك السر الذي فارقتَ به الحمارَ وسائر البهائم) وتميَّزتَ به عنها (فمَن ذهل عن ذلك وعطَّله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات) وهي أخسُّ الرتب (فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها) وقد قال تعالىٰ في كتابه العزيز: (﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] فكل مَن لم يعرف إلا المُدرَك بالحواس فقد نسي الله) وجهل طريقَ المعرفة (إذ ليس ذات الله مدرَكًا في هذا العالَم بالحواس الخمس، وكل مَن نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه ونزل إلىٰ رتبة البهائم) وامتنع سلوكه (وترك الترقِّي إلىٰ الأفق الأعلىٰ وخان في الأمانة التي أودعها الله تعالىٰ) إياه (وأنعم) بها (عليه) فغدا بذلك (كافرًا بنعمته ومتعرِّضًا لنقمته، إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة، فإن البهيمة تتخلَّص بالموت) وتصير هباء فلا تحاسَب ولا تعاقَب (وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلىٰ مودِعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها) ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورىٰ: ٥٣] (وتلك الأمانة) المودَعة (كالشمس الزاهرة) أي المضيئة المشرقة (وإنما هبطت) من الأفق الأعلىٰ (إلىٰ هذا القالب) الجسماني

(الفاني وغربت فيه) وإليه أشار أبو علي ابن سينا في عينيته[١]:

هبطت إليك من المحل الأرفع   هيفاء ذات تحجُّب وتمنُّع

(وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلىٰ بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضًا راجعة إلىٰ الحضرة؛ إذ المرجع والمصير للكل إليه، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلىٰ عِلِّيين إلىٰ جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] أي حياء وخجلاً وذلاً وحقارة (فبيَّن أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون) منجوسون (قد انقلبت وجوههم إلىٰ أقفيتهم) أي إلىٰ الوراء قد وُكس بهم (وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلىٰ جهة أسفل، وذلك حكم الله ﷻ فيمَن حرمه توفيقه) أي منعه إياه (ولم يهدِه طريقَه) أي لم يُرِه إياه (فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلىٰ منازل الجهَّال. فهذا حكم انقسام مَن يخرج من النار) آخرًا فيتمنَّىٰ ويسأل (فيُعطَىٰ مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر، ولا يخرج من النار إلا موحِّد، ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالَم المُلك والشهادة، فلا ينفع) هذا التوحيدُ (إلا في عالَم المُلك فيُدفَع السيف عن رقبته) أي سيف المجاهدين (و) تُدفَع (أيدي الغانمين عن ماله) وذلك قوله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وحسابهم علىٰ الله ﷻ» (ومدة بقاء الرقبة والمال مدة الحياة) في عالم المُلك (فحيث لا تبقىٰ رقبة ولا مال له لا ينفع القولُ باللسان، وإنما ينفع الصدق

---

(١) القصيدة العينية لابن سينا في النفس والروح، وعدد أبياتها عشرون أو أقل، وقد أوردها ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٣/ ١٠٧٦، واليافعي في مرآة الجنان ٣/ ٣٩، والذهبي في تاريخ الإسلام ٢٩/ ٢٣٠، وابن خلكان في وفيات الأعيان ٢/ ١٦٠، والصفدي في الوافي بالوفيات ١٢/ ٢٥٢، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ٢/ ١٠ (ط - المطبعة الوهبية).

في التوحيد، وكمال التوحيد أن لا يرىٰ الأمور كلها إلا من الله عَزَّوَجَلَّ) قال أبو عبد الله ابن الجلاء: مَن استوىٰ عنده المدح والذم فهو زاهد، ومَن حافظ علىٰ الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد، ومَن رأىٰ الأفعال كلَّها من الله فهو موحِّد[1] **(وعلامته أن لا يغضب علىٰ أحد من خلقه بما يجري عليه)** من المقدَّرات الأزلية من خير أو شر **(إذ لا يرىٰ الوسائط)** لأنها تضمحلُّ عن نظره **(وإنما يرىٰ مسبِّب الأسباب)** وهذه هي مرتبة الفناء في الله **(كما سيأتي تحقيقه في)** كتاب **(التوكل)** إن شاء الله تعالىٰ **(وهذا التوحيد متفاوت)** بتفاوت الموحِّدين **(فمن الناس مَن له من التوحيد مثل الجبال)** وهؤلاء هم الأنبياء والمقرَّبون والصِّدِّيقون **(ومنهم مَن له مثقال)** وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم **(ومنهم مَن له مقدار خردلة)** والخردلة معروفة **(و)** منهم مَن له مثقال **(ذرَّة)** وهي الهباء الذي يظهر في ضوء الشمس من كُوَّة **(فمَن)** كان **(في قلبه)** منه **(مثقال دينار)** أي وزنه **(من إيمان فهو أول مَن يخرج من النار. وفي الخبر: يقال: أخرِجوا من النار مَن في قلبه مثقال دينار من إيمان. وآخر مَن يخرج مَن في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان)** روىٰ الطيالسي وأحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث أنس: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرَّة». وروىٰ الترمذي - وقال: حسن صحيح - من حديث أبي سعيد: «يخرج من النار مَن كان في قلبه مثقال ذرَّة من الإيمان»[2] **(وما بين المِثْقال والذرَّة علىٰ قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المِثقال وبين طبقة الذرَّة)** وهؤلاء آخر الطبقات خروجًا، إلا أن يبدو لبعضهم من الله تعالىٰ ما لا يحتسبه فيعفو عن البعض، ولا يُجعَل ممَّن حقَّ عليه الوعيدُ لِما سبق له من الكلمة الحسنىٰ ويتجاوز

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣١٤، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٨٣.

(٢) تقدم هذان الحديثان في كتاب ذم الغرور.

عن سيئاتهم في أصحاب الجنة **(والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرناه في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود، وأكثر ما يُدخِل الموحِّدين النارَ مظالمُ العِباد)** يتحمَّلونها على رقابهم فتكون سببًا لدخولهم في النار **(فديوان العباد هو الديوان الذي لا يُترَك)** كما تقدم في ذِكر الدواوين الثلاثة في الخبر السابق، وذلك لأن حقوق العباد مبنيَّة علي المشاحَّة. ولفظ القوت: وأكثر ما يوبق الناسَ من الكبائر المظالم، وأكثر ما يُدخِلهم النارَ ذنوبُ غيرهم إذا طُرحت عليهم، وفي الخبر: «ذنب يُغفَر وذنب لا يُترَك فالذي يُغفَر ذنب [ظلمك] نفسك، والذي لا يُترَك مظالم العباد» **(فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها، ففي الأثر)** والمراد به هنا الخبر كما هو نص القوت، فإنه قال: وقد جاء في الخبر. وليس من عادة المصنف أن يستعمل لفظ «الأثر» إلا في أقوال الصحابة ومَن بعدهم، ولذلك لم يتعرَّض له العراقي **(إن العبد لَيوقَفُ بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وله من الحسنات أمثال الجبال، لو سُلِّمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون)** ولفظ القوت: فيوجَد **(قد سبَّ عِرض هذا وأخذ)** ولفظ القوت: وأكل **(مال هذا، فيُنقَص من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة: يا ربنا، هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير. فيقول الله تعالى)** ولفظ القوت: فيقال: **(ألقُوا من سيئاتهم على سيئاته وصكُّوا له صكًّا إلى النار)**[1] هكذا في القوت. وروى الحاكم[2] عن أبي عثمان النهدي عن سلمان وسعد وابن مسعود وغيرهم رفعوه: «تُرفَع للرجل الصحيفة يوم القيامة حتى يرى أنه ناجٍ، فما تزال مظالم بني آدم تتبعه حتى ما تبقى له حسنة، ويزداد عليه من سيئاتهم» **(وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم؛ إذ تُنقَل إليه عوضًا عمَّا ظُلم به)** فقد روى

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٣٩٣ والطبري في جامع البيان ٧/ ٣٣ - ٣٤، ١٧/ ١١٣ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٠٢ والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٥/ ٢٢٩ وابن أبي الدنيا في الأهوال ص ٢٥٦ عن ابن مسعود.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٤٩.

الخرائطي في مساوئ الأخلاق[١] من حديث أبي أمامة: «إن العبد لَيعطَىٰ كتابه يوم القيامة منشورًا، فيرىٰ فيه حسنات لم يعملها، فيقول: يا رب، لم أعمل هذه الحسنات. فيقول: إنها كُتبت باغتياب الناس إياك. وإن العبد لَيعطَىٰ كتابه يوم القيامة منشورًا، فيقول: يا رب، ألم أعمل حسنة يوم كذا وكذا؟ فيقال له: مُحيت عنك باغتيابك الناس». وفي إسناده الحسن بن دينار عن الخصيب بن جحدر.

ولفظ القوت: وكثيرون يدخلون الجنة بحسنات غيرهم إذا طُرحت عليهم؛ لأنها صحيحة ثابتة، وقد تبطُل حسناتُهم لدخول الآفات عليها.

(**وقد حُكي عن**) أبي عبد الله أحمد بن يحيىٰ (**ابن الجلاء**) البغدادي، أقام بالرملة ودمشق، صحب أبا تراب النخشبي وذا النون وأبي عبيد البُسري وأباه يحيىٰ الجلاء. ترجم له القشيري في الرسالة[٢] (**أن بعض إخوانه اغتابه**) أي ذكره بما يكره (**ثم أرسل إليه**) رسولاً (**ليستحلَّه، فقال: لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها**) كذا في القوت (**وقال هو وغيره: ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزيِّن بها صحيفتي**) ذكره صاحب القوت من بقية قول ابن الجلاء السابق.

(**فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد**) أي في الآخرة (**في درجات السعادة والشقاوة، وكل ذلك حكمٌ بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب علىٰ مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاجَ**) لشدة ما عرض له من المرض (**وعلىٰ مريض آخر بأنَّ عارِضه خفيف وعلاجه هيِّن**) أي سهل (**فإنَّ ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال، ولكن قد تثوب**) أي ترجع (**إلىٰ المشرف علىٰ الهلاك نفسُه**) أي إلىٰ الصحة (**من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يُساق إلىٰ ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطَّلع عليه، وذلك لأسرار الله الخفيَّة في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتَّبها مسبِّب الأسباب بقدر معلوم**) لا يتبدَّل ولا يتغيَّر (**إذ ليس في قوة البشر**

---

(١) مساوئ الأخلاق ص ١٠٠.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٨٤.

الوقوف علىٰ كُنْهها) أي حقيقتها **(فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفيَّة ليس في قوة البشر الاطِّلاع عليها، يعبَّر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلىٰ النجاة بالعفو والرضا، وعمَّا يفضي إلىٰ الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطَّلع الخلق عليها)** فهم عنه محجوبون، وعن إدراكه غافلون **(فلذلك يجب علينا أن نجوِّز العفوَ عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة،** و) أن نجوِّز **(الغضبَ علىٰ المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد علىٰ التقوىٰ، والتقوىٰ في القلب، وهو أغمضُ من أن يطَّلع عليه صاحبه فكيف غيره؟ ولكن قد انكشف لأرباب القلوب)** والبصائر **(أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفيٍّ فيه يقتضي العفوَ)** والمسامحة **(ولا غضب إلا بسببٍ باطن يقتضي البعدَ عن الله تعالىٰ، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء علىٰ الأعمال والأوصاف)** وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦، التحريم: ٧] **(ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً، ولو لم يكن عدلاً لم يصحَّ قولُه تعالىٰ:** ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦] **ولا قوله تعالىٰ):** ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩] ولا قوله تعالىٰ: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] **وكل ذلك صحيح)** لا خلاف فيه **(فإنه ليس للإنسان إلا ما سعىٰ، وسعيه هو الذي يُرَىٰ)** كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١] (و) قال تعالىٰ: (﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾) [المدثر: ٣٨] أي محبوسة. وقال تعالىٰ: (﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾) [الصف: ٥] أي أمالَها عن وجه الصواب **(ولمَّا غيَّروا ما بأنفسهم غيَّر اللهُ ما بهم تحقيقًا لقوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] **وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب)** والبصائر **(انكشافًا أوضح من المشاهدة بالبصر؛ إذ البصر يمكن الغلط فيه؛ إذ قد يرىٰ البعيد قريبًا والكبير صغيرًا)** والساكن[1] متحركًا، والمتحرك ساكنًا،

(١) مشكاة الأنوار ص ٤٥، ٤٩.

ويبصر غيره ولا يبصر نفسَه، ولا يبصر ما بعُدَ عنه ولا ما قرُب منه، ولا يبصر ما وراء حجاب، ويبصر من الأشياء ظاهرها لا باطنها، ومن الموجودات بعضها لا كلها [ويبصر أشياء متناهية] ولا يبصر ما لا نهاية له. فهذه سبع نقائص لا تفارق البصر الظاهر. ومعنىٰ كونه يبصر الكبير صغيرًا أي لأنه يبصر الشمس في مقدار مجن، والكواكب في صورة دنانير منثورة علىٰ بساط أزرق، ويرىٰ الكواكب ساكنة، بل يرىٰ الظل بين يديه ساكنًا، ويرىٰ الصبي ساكنًا مع أنه يتحرك في الرحم علىٰ الدوام. وأنواع غلط البصر كثيرة **(ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها)** فإن قلت: نرىٰ جماعة من أرباب العقول يغلطون في نظرهم. فاعلمْ أن فيهم خيالات وأوهامًا واعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل، فالغلط منسوب إليها، فأما العقل إذا تجرَّد عن غشاوة الوهم والخيال لم يُتصور أن يغلط، بل يرىٰ الأشياء علىٰ ما هي عليه، وفي تجرُّده عسرٌ. وإليه أشار بقوله: **(وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرىٰ بها بعد الانفتاح فلا يُتصور فيه الكذب)** والغلط والوهم **(وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ)** في حق نبيِّه ﷺ: (﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾) [النجم: ١١] أي من عجائب الملكوت الأعلىٰ، وذلك لأن البصر من عالَم الشهادة والحس، والبصيرة من عالم الملكوت لا تُرَىٰ بالأبصار، إنما تشاهَد ببصيرة القلب. والله الموفِّق.

(الرتبة الثالثة: رتبة الناجين، وأعني بالناجين أصحاب السلامة فقط دون أصحاب السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيُخلَع عليهم) في مقابلة خدمتهم **(ولم يقصِّروا فيعذَّبوا. ويشبه أن يكون هذا حال المجانين)** الذين سُلبت عقولهم **(والصبيان من الكفار)** يعني أولاد المشركين **(والمعتوهين)** من[1] العَتَه محرَّكة، وهو نقص العقل من غير جنون، وفي التهذيب[2]: المعتوه: المدهوش من غير مس أو جنون **(والذين لم تبلغهم الدعوةُ)** من الأنبياء عليهم السلام **(في أطراف البلاد)**

---

(١) المصباح المنير ص ٣٩٢.

(٢) تهذيب اللغة ١/ ١٣٩.

وأقاصيها كما قيل في أهل الصين (**وعاشوا علىٰ البَلَه وعدم المعرفة، فلم تكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، ولا وسيلة تقرِّبهم**) إلىٰ الله تعالىٰ (**ولا جناية تبعدهم**) عن الله تعالىٰ (**فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبَّر الشرع عنه بالأعراف**) وأعراف[1] الحجاب: أعاليه، وهو السور المضروب بين الفريقين أو بين الجنة والنار، جمع عُرف بالضم من عُرْف الفرس، وقيل: العرف: ما ارتفع من الشيء.

وقد اختلفت فيه أقوال السلف، فقال[2] مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار وسور له باب. أخرجه هنَّاد وعبد بن حميد.

وقال حذيفة: هو سور بين الجنة والنار. أخرجه سعيد بن منصور.

وقال ابن عباس: هو الشيء المشرف. أخرجه البيهقي في البعث.

وعنه أيضًا قال: سور له عرف كعرف الديك. أخرجه هناد وعبد بن حميد.

وقال سعيد بن جبير: جبال بين الجنة والنار. أخرجه أبو الشيخ.

وقال كعب: هو في كتاب الله عمقانا سقطانا. قال ابن لهيعة: أي وادٍ عميق خلف جبل مرتفع. أخرجه ابن أبي حاتم.

(وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينًا من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار) فالآيات قوله تعالىٰ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ الآية [الحديد: ١٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ٤٦].

وأما الأخبار، فقد قال العراقي[3]: روىٰ البزار من حديث أبي سعيد

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ١٤.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٣٩٨ - ٤١٢. جامع البيان للطبري ١٠/ ٢٠٨ - ٢٣٢. الزهد لهناد ١/ ١٥٠ - ١٥٢. تفسير سعيد بن منصور ٥/ ١٤٣ - ١٥٠. البعث والنشور للبيهقي ص ١٠٤ - ١٠٩.

(٣) المغني ٢/ ٩٩٥ - ٩٩٦.

الخدري: سُئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «هم رجال قُتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم، فمنعتهم الشهادةُ أن يدخلوا النار، ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم علىٰ سور بين الجنة والنار ...» الحديث، وفيه عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وهو ضعيف. ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيىٰ ابن شِبل عن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه مختصرًا، وأبو معشر السِّنْدي اسمه نجيح، ضعيف، ويحيىٰ بن شبل لا يُعرَف. وللحاكم[١] من حديث حذيفة قال: أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتُهم النارَ وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ... الحديث، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. وروىٰ الثعلبي[٢] عن ابن عباس قال: الأعراف: موضع عالٍ في الصراط عليه العباس وحمزة وعلي وجعفر ...» الحديث. هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذّابين.

قلت: حديث أبي سعيد هذا قد رواه أيضًا ابن مردويه بسند الطبراني[٣]، ولفظه: سُئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «هم رجال قُتلوا في سبيل الله ...» فذكره بسياق البزار، وفيه بعد قوله: «وهم علىٰ سور بين الجنة والنار حتىٰ تزول لحومهم وشحومهم حتىٰ يفرغ الله من حساب الخلائق، فإذا فرغ من حساب خلقه فلم يبقَ غيرهم [تغمَّدهم منه برحمة] فأدخلهم الجنة برحمته».

وفي الباب: عبد الرحمن المزني، ورجل من مُزَينة، قيل: عبد الرحمن، وقيل: غيره، وأبو هريرة، وابن عباس، ومالك الهلالي. فلفظ [حديث] عبد الرحمن المزني: سُئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «هم قوم قُتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم، فمنعهم من النار قتلُهم في سبيل الله، ومنعهم من الجنة معصيةُ آبائهم». أخرجه سعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد والحارث

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٣٨١.

(٢) الكشف والبيان ٤/ ٢٣٦، وتمامه: «يعرفون محبيهم بيض الوجوه، ومبغضيهم سود الوجوه».

(٣) المعجم الأوسط ٣/ ٢٤٩، ٥/ ٥١.

ابن أبي أسامة[١] في مسنديهما وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد[٢] والخرائطي في مساوئ الأخلاق[٣] والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث.

ولفظ حديث رجل من مزينة: أن رسول الله ﷺ سُئل عن أصحاب الأعراف، فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقُتلوا في سبيل الله». أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه من طريق محمد بن المنكدر عنه.

ولفظ حديث أبي هريرة: سُئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، قال: «هم قوم قُتلوا في سبيل الله وهم لآبائهم عاصون، فمُنِعوا الجنة بمعصيتهم آباءهم، ومُنِعوا النار بقتلهم في سبيل الله». أخرجه ابن مردويه والبيهقي في البعث.

ولفظ حديث ابن عباس: «إن أصحاب الأعراف قوم خرجوا غزاةً في سبيل الله وآباؤهم وأمهاتهم ساخطون عليهم، وخرجوا من عندهم بغير إذنهم، فأُوقِفوا عن النار بشهادتهم، وعن الجنة بمعصيتهم آباءهم». أخرجه ابن مردويه.

ولفظ حديث مالك الهلالي: قال قائل: يا رسول الله، ما أصحاب الأعراف؟ قال: «قوم خرجوا في سبيل الله بغير إذن آبائهم فاستشهدوا، فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة، فهم آخر مَن يدخل الجنة». أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[٤] وابن جرير وابن مردويه من طريق عبد الله بن مالك الهلالي عن أبيه.

وهناك أقوال أُخَر في تعيين أصحاب الأعراف، منها حديث حذيفة الذي

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ٧٢٢.

(٢) الأضداد ص ٣٦٩ (ط - المكتبة العصرية).

(٣) مساوئ الأخلاق ص ١٢٠.

(٤) بغية الباحث ص ٧٢٢.

أشار إليه العراقي، أخرجه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في البعث بلفظ: أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، تجاوزت بهم حسناتهم عن النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، جُعلوا علىٰ سور بين الجنة والنار حتىٰ يُقضَىٰ بين الناس، فبينما هم كذلك إذ اطَّلع عليهم ربُّهم فقال لهم: قوموا فادخلوا الجنة، فإني غفرت لكم.

وعند ابن جرير عنه قال: أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار، وهم آخر من يدخل الجنة، قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار.

وفي لفظ آخر قال: قوم تكافأت أعمالُهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجُعلوا علىٰ الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم.

وعند البيهقي في البعث عنه أُراه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجمَع الناس يوم القيامة، فيؤمَر بأهل الجنة إلىٰ الجنة، ويؤمَر بأهل النار إلىٰ النار، ثم يقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك. فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النارَ أن تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم، فادخلوا بمغفرتي ورحمتي».

وقد رُوي مثل هذا القول عن جماعة من الصحابة والتابعين، فأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال في أصحاب الأعراف: ذُكر لنا أن ابن عباس كان يقول: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فحُبسوا هناك(١).

وأخرج ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه(٢) قال: أصحاب الأعراف

---

(١) في الدر المنثور: «عن قتادة في قوله ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ قال: الأعراف حائط بين الجنة والنار، وذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم تفضل حسناتهم علىٰ سيئاتهم ولا سيئاتهم علىٰ حسناتهم فحبسوا هنالك».

(٢) يعني ابن عباس.

قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فوُقِفوا هنالك علىٰ السور ... الحديث[١].

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: مَن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف.

ورُوي مثله عن ابن مسعود، أخرجه ابن جرير.

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ والبيهقي في البعث عن مجاهد في أصحاب الأعراف قال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم علىٰ سور بين الجنة والنار، وهم علىٰ طمع من دخول الجنة، وهم داخلون.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: يحاسَب الناس يوم القيامة، فمَن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قال: إن الميزان يخفُّ بمثقال حبة ويَرجح. قال: ومَن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوُقِفوا علىٰ الصراط ... الحديث.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر[٢] عن جابر بن عبد الله رفعه: «يوضَع الميزان يوم القيامة، فتوزَن الحسنات والسيئات، فمَن رجحت حسناته علىٰ سيئاته مثقال صُؤابة دخل الجنة، ومَن رجحت سيئاته علىٰ حسناته مثقال

---

(١) تمامه: «فإذا رأوا أصحاب الجنة عرفوهم ببياض وجوههم، وإذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد وجوههم. ثم قال: لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها. ثم قال: إن الله أدخل أصحاب الأعراف الجنة».
وقد رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٥٢١ - ٥٢٢ بلفظ: «أصحاب الأعراف رجال كانت لهم ذنوب عظام، وكان جسيم أمرهم لله، فأقيموا علىٰ ذلك المقام، إذا نظروا إلىٰ أهل النار عرفوهم بسواد الوجوه وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤٧﴾. وإذا نظروا إلىٰ أهل الجنة عرفوهم ببياض الوجوه، فذلك قوله: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦﴾ قال ابن عباس: أدخل الله أصحاب الأعراف الجنة قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٤٩﴾».

(٢) تاريخ دمشق ١٤/ ٣١٣.

صُؤابة دخل النار». قيل: يا رسول الله، فمَن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زُرعة بن عمرو بن جرير قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «هم آخر مَن يُفصَل بينهم من العِباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عُتَقائي، فارْعَوا من الجنة حيث شئتم».

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة[1] وهنَّاد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: أصحاب الأعراف أناس استوت حسناتهم وسيئاتهم، فيُذهَب بهم إلىٰ نهر يقال له: الحياة ... الحديث.

وقيل: أصحاب الأعراف ناس من أهل الذنوب حُبسوا علىٰ تلٍّ بين الجنة والنار. أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

وفي لفظ قال: الأعراف هو السور الذي بين الجنة والنار، وأصحابه رجال كانت لهم ذنوب عِظام، وكان [جسيم] أمرهم لله أن يقوموا علىٰ الأعراف ... الحديث. وهكذا رواه ابن [جرير وابن] المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في البعث.

وقيل: هم قوم صالحون فقهاء علماء. وهكذا أخرجه ابن أبي شيبة وهنَّاد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد.

وقيل: هم قوم كان فيهم عُجْب. وهكذا أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة عن الحسن.

وقيل: هم قوم كان عليهم دَين. وهكذا أخرجه ابن المنذر ومَن بعده عن قتادة عن مسلم بن يسار.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٣٦٩.

وقيل: هم مؤمنو الجن، وهكذا أخرجه البيهقي في البعث من حديث أنس: «إن مؤمني الجن لهم ثواب، وعليهم عقاب». فسألناه عن ثوابهم، فقال: «علىٰ الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمّة محمد ﷺ». فقلنا: وما الأعراف؟ قال: «حائط في الجنة، تجري فيه الأنهار، وتنبُت فيه الأشجار والثمار».

وقيل: هم الملائكة، أخرج سعيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد(١) وأبو الشيخ والبيهقي في البعث عن أبي مِجْلَز قال: الأعراف مكان مرتفع عليه رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة بسيماهم وأهل النار بسيماهم. فقيل: يا أبا مجلز، الله يقول: رجال، وأنت تقول: الملائكة! قال: إنهم ذكور وليسوا بإناث.

وأخرج أحمد في الزهد(٢) عن قتادة قال: قال سالم مولىٰ أبي حذيفة: وددتُ أني بمنزلة أصحاب الأعراف.

(**وأما الحكم علىٰ العين**) من الأعيان بالخصوص (**كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقَن، والاطّلاع عليه يقينًا**) وفي نسخة: تحقيقًا (**في عالَم النبوَّة**) فإن الأنبياء عليهم السلام إنما يخبرون بوحي من الله تعالىٰ (**ويبعُد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء**) لقصور رتبتهم في الانكشاف (**والأخبار**) الواردة (**في حق الصبيان أيضًا متعارضة**) كتعارُضها في حق أصحاب الأعراف (**حتىٰ قالت عائشة ﵂ لما مات بعض الصبيان: طوبىٰ له، عصفور من عصافير الجنة. فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: وما يدريكِ**) أنه عصفور من عصافير الجنة؟ قال العراقي(٣): رواه مسلم(٤).

---

(١) الأضداد ص ٣٦٩.

(٢) الزهد ص ١٦٤.

(٣) المغني ٢/ ٩٩٦ - ٩٩٨.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٨.

قلت: ولفظه: توفي صبي من الأنصار، فقالت: طوبىٰ له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال النبي ﷺ: «أوَ غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم». وعند مسلم أيضًا: «إن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً».

وروىٰ الطبراني في الأوسط(١) والصغير(٢) والخطيب(٣) من حديث أبي هريرة: «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم، لا يُزاد فيهم ولا يُنقَص [منهم] وخلق النار وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم، لا يُزاد فيهم ولا يُنقَص منهم. اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لِما خُلق له». وسنده ضعيف.

ولنذكر الأخبار المتعارضة في الصبيان. قال العراقي: روىٰ الشيخان من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي ﷺ، وفيه: «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان [الذين] حوله فكل مولود يولَد(٤) علىٰ الفطرة». قيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين»(٥). وللطبراني(٦) من حديثه: سألنا رسولَ الله ﷺ عن أولاد المشركين، قال: «هم خدم أهل الجنة». وفيه عبَّاد بن منصور الناجي قاضي البصرة وهو ضعيف، يرويه عنه عيسىٰ بن شعيب وقد ضعَّفه ابن حبان(٧).

---

(١) المعجم الأوسط ٥/ ١٣٤.

(٢) المعجم الصغير ٢/ ٢٧.

(٣) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٩.

(٤) في صحيح البخاري: مات.

(٥) هذا المتن عند البخاري في صحيحه ٤/ ٣١١، وليس عند مسلم.

(٦) المعجم الكبير ٧/ ٢٩٥.

(٧) المجروحون من المحدثين ٢/ ١٠١، ونصه: «عيسىٰ بن شعيب، من أهل البصرة، يروي عن مطر الوراق، روىٰ عنه عمرو بن علي الفلاس وأهل البصرة، كان ممن يخطئ حتىٰ فحش خطؤه، فلما غلبت الأوهام علىٰ حديثه استحق الترك».

وللنسائي[١] من حديث الأسود بن سريع: كنا في غزاة لنا ... الحديث في قتل الذرِّية، وفيه: «ألا إن خياركم أبناء المشركين». ثم قال: «لا تقتلوا ذرية وكل نَسَمة تولَد علىٰ الفطرة ...» الحديث، وإسناده صحيح. وفي الصحيحين[٢] من حديث أبي هريرة: «كل مولود يولَد علىٰ الفِطرة ...» الحديث. وفي رواية لأحمد[٣]: «ليس مولود إلا يولَد علىٰ هذه المِلَّة». ولأبي داود[٤] في آخر الحديث: فقالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وفي الصحيحين[٥] من حديث ابن عباس: سُئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وللطبراني[٦] من حديث [ثابت بن] الحارث الأنصاري: كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صِدِّيق، فقال النبي ﷺ: «كذبت يهود، ما من نَسَمة يخلقها الله تعالىٰ في بطن أَمَة إلا أنه شقيٌّ أو سعيد ...» الحديث، وفيه عبد الله بن لهيعة. ولأبي داود[٧] من حديث ابن مسعود:

---

(١) السنن الكبرىٰ ٨/ ٢٣. ولفظه: «كنا في غزاة لنا، فأصبنا ظفرا، وقتلنا في المشركين حتىٰ بلغ بهم القتل إلىٰ أن قتلوا الذرية، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال أقوام بلغ بهم القتل إلىٰ أن قتلوا الذرية؟ ألا لا تقتلن ذرية، ألا لا تقتلن ذرية. قيل: لم يا رسول الله؟ أليس هم أولاد المشركين؟ قال: أو ليس خياركم أولاد المشركين»؟ وعند أحمد في مسنده ٢٤/ ٣٥٦: «أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه، فأصبت ظهرا، فقتل الناس يومئذ حتىٰ قتلوا الولدان (أو الذرية) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتىٰ قتلوا الذرية؟ فقال رجل: يا رسول الله، إنما هم أولاد المشركين. فقال: ألا إن خياركم أبناء المشركين». ثم قال: «ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية، كل نسمة تولد علىٰ الفطرة حتىٰ يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها».

(٢) صحيح البخاري ١/ ٤١٧، ٤٢٤، ٣/ ٢٧٥، ٤/ ٢٠٩. صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٦ - ١٢٢٧.

(٣) مسند أحمد ١٢/ ٤١٢ - ٤١٣، ١٦/ ١٧٣.

(٤) سنن أبي داود ٥/ ٢٣٣.

(٥) صحيح البخاري ١/ ٤٢٤، ٤/ ٢٠٩. صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٧ - ١٢٢٨.

(٦) المعجم الكبير ٢/ ٨٢. وتمامه: «فأنزل الله ﷻ عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]».

(٧) سنن أبي داود ٥/ ٢٣٥.

«الوائدة والموءودة في النار». وله[١] من حديث عائشة: قلت: يا رسول الله، ذَراري المؤمنين؟ فقال: «مع آبائهم». قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». قلت: فذراري المشركين؟ قال: «مع آبائهم». قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وللطبراني[٢] من حديث خديجة: قلت: يا رسول الله، أين أطفالي منك؟ قال: «في الجنة». قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». قلت: فأين أطفالي قبلك؟ قال: «في النار». قلت: بغير عمل؟ قال: «لقد علم اللهُ ما كانوا عاملين». وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة. وفي الصحيحين[٣] من حديث الصعب بن جَثَّامة في أولاد المشركين: «هم من آبائهم». وفي رواية: «هم منهم».

قلت: وُجد بخط تلميذه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ بإزاء هذا السياق ما نصه: جميع الأحاديث السابقة ناطقة بأن أولاد المسلمين في الجنة، فقول الغزالي «الأخبار في الصبيان متعارضة» إطلاق مردود، والتعارُض إنما هو في أطفال المشركين.

قلت: حديث سمرة عند البخاري: أن النبي ﷺ رأىٰ في منامه جبريل عليه السلام وميكائيل أتياه فانطلقا به، وذكر حديثًا طويلاً، وفيه: وأما الشيخ ... الخ. وفي رواية[٤] بعد قوله «علىٰ الفطرة»: «وُكِّل بهم إبراهيم عليه السلام يربِّيهم إلىٰ يوم القيامة».

وروىٰ الطبراني في الأوسط[٥] من حديث أنس: «أطفال المشركين خدم أهل الجنة». ورواه سعيد بن منصور[٦] عن سلمان موقوفًا.

(١) السابق ٥/ ٢٣٢.

(٢) المعجم الكبير ٢٣/ ١٦.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٣٦٢. صحيح مسلم ٢/ ٨٣٢ - ٨٣٣.

(٤) هذه الرواية عند ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٧/ ٥.

(٥) المعجم الأوسط ٣/ ٢٢٠، ٥/ ٢٩٤.

(٦) وكذلك البيهقي في القضاء والقدر ٣/ ٨٩٣.

وروىٰ أحمد[١] والحاكم[٢] والبيهقي في البعث[٣] من طريق مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الأصبهاني، عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة رفعه: «أطفال المؤمنين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم [وسارة حتىٰ يردَّهم] إلىٰ آبائهم يوم القيامة». وفي لفظ للديلمي[٤]: «أولاد المؤمنين». وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرطهما. وكذا صحَّحه ابن حبان[٥]. وقد تابع مؤملاً علىٰ رفعه وكيعٌ، لكن رواه ابن مهدي وأبو نعيم كلاهما عن الثوري فوقفاه، وقال الدارقطني[٦]: إنه أشبهُ.

وروىٰ الحكيم[٧] من حديث أنس: «كل مولود يولَد من والد كافر أو مسلم فإنما يولَد علىٰ الفطرة علىٰ الإسلام كلهم، ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم فهوَّدتهم ونصَّرتهم ومجَّستهم وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانًا».

وروىٰ الترمذي[٨] من حديث أبي هريرة: «كل مولود يولَد علىٰ المِلَّة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يشرِّكانه». قيل: يا رسول الله، فمَن هلك قبل ذلك؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وروىٰ أبو يعلىٰ[٩] والبغوي[١٠] والباوَرْدي والطبراني[١١]

(١) مسند أحمد ١٤/ ٧١ مختصرا بلفظ: «ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم».

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٥٣٦.

(٣) البعث والنشور ص ١٥٥.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٤٥ بلفظ أحمد.

(٥) صحيح ابن حبان ١٦/ ٤٨١ مختصرا بلفظ أحمد.

(٦) العلل ١١/ ١٨٦.

(٧) نوادر الأصول ص ٢٥٣.

(٨) سنن الترمذي ٤/ ١٧.

(٩) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٢٤٠.

(١٠) معجم الصحابة ١/ ١٧٦.

(١١) المعجم الكبير ١/ ٢٨٣ - ٢٨٥.

والبيهقي[١] من حديث الأسود بن سريع: «كل مولود يولَد علىٰ الفطرة حتىٰ يُعرِب عنه لسانُه، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه». ورواه ابن عبد البر في التمهيد[٢] بلفظ: «ما بال قوم بالغوا في القتل حتىٰ قتلوا الولدان»؟ قال رجل: أوَ ليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أوَ ليس خياركم أولاد المشركين؟ إنه ليس من مولود إلا وهو يولَد علىٰ الفطرة فيُعرِب عنه لسانُه ويهوِّدانه أبواه أو ينصِّرانه».

وحديث ثابت بن الحارث الأنصاري: «ما من نَسَمة يخلقها الله في بطن أمة إلا أنه شقيٌّ أو سعيد» أخرجه أيضًا أبو نعيم[٣].

وحديث ابن عباس: سُئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» رواه الطيالسي[٤] والبخاري[٥] ومسلم[٦] وأبو داود[٧] والنسائي[٨] من حديث أبي هريرة. ورواه أبو داود[٩] والحكيم[١٠] من حديث عائشة. ورواه عبد بن حميد[١١] من حديث أبي سعيد.

وعند أحمد[١٢] من حديث ابن عباس: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم».

---

(١) السنن الكبرىٰ ٦/ ٣٣٤.

(٢) التمهيد ١٨/ ٦٨.

(٣) معرفة الصحابة ١/ ٤٧٨.

(٤) مسند الطيالسي ٤/ ١٣٦.

(٥) صحيح البخاري ١/ ٤٢٤، ٤/ ٢٠٩.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٧.

(٧) سنن أبي داود ٥/ ٢٣٣.

(٨) سنن النسائي ص ٣١٢.

(٩) سنن أبي داود ٥/ ٢٣٢.

(١٠) نوادر الأصول ص ٢٥٥.

(١١) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ١٠٥.

(١٢) مسند أحمد ٥/ ١٦١، ٢٥١.

وحديث خديجة أخرجه ابن عبد البر في التمهيد[١] بسند ضعيف عن عائشة قالت: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم مع آبائهم». ثم سألته بعد ذلك، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». ثم سألته بعدما استحكم الإسلامُ، فنزلت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧] فقال: «هم على الفطرة»، أو قال: «في الجنة».

وحديث الصعب بن جَثَّامة رواه أيضًا عبد الرزاق في المصنَّف[٢] وأصحاب السنن[٣] عن ابن عباس قال: حدثني الصعب بن جثامة.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند[٤] من حديث علي: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾ [الطور: ٢١].

وروى أحمد[٥] والنسائي[٦] والبغوي[٧] وابن المنذر وابن مردويه والطبراني[٨] من حديث سلمة بن يزيد الجُعْفي: «الوائدة والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيُسلِم».

---

(١) التمهيد ١٨/ ١١٧.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٠٢.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٢٩٠. سنن الترمذي ٣/ ٢٢٩. سنن ابن ماجه ٤/ ٣٦٢. السنن الكبرى للنسائي ٨/ ٢٥ - ٢٦.

(٤) مسند أحمد ٢/ ٣٤٩، وأوله: «سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: هما في النار. فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لو رأيتِ مكانهما لأبغضتهما. قالت: يا رسول الله، فولدي منك؟ قال: في الجنة. ثم قال رسول الله ﷺ: إن المؤمنين ...» الخ.

(٥) السابق ٢٥/ ٢٦٨.

(٦) السنن الكبرى ١٠/ ٣٢٥.

(٧) معجم الصحابة ٣/ ١١٥ - ١١٦.

(٨) المعجم الكبير ٧/ ٤٤.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم[١] عن عكرمة قال: قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝﴾ [التكوير: ٨] هي المدفونة. قال: فمَن قال إنهم في النار فقد كذب، بل هم في الجنة.

وغير ذلك من الأخبار، وهي - كما قال المصنف - متعارضة.

(فإذًا الإشكال والاشتباه أغلبُ في هذا المقام) اعلمْ أنه قد[٢] اختلف العلماء في أولاد المسلمين، فالأكثرون علىٰ الجزم بأنهم في الجنة، وقيل فيهم بالتوقُّف، واحتجَّ قائله بحديث عائشة عند مسلم الذي ذكره المصنف من قولها: طوبَىٰ له، عصفور من عصافير الجنة ... الخ. وحكىٰ النووي الأول عن إجماع مَن يُعتَدُّ به من علماء المسلمين، والتوقُّف عن بعض مَن لا يُعتَدُّ به. قال: وأجاب العلماء عن حديث عائشة بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلىٰ القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر علىٰ سعد بن أبي وقَّاص في قوله: أعطِه إني لأراه مؤمنًا، قال: أو مسلمًا ... الحديث. قال: ويحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة. وذكر المازري أن بعضهم ينكر الخلاف في ذلك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] قال: وبعض المتكلمين يقف فيهم ولا يرىٰ نصًّا قاطعًا بكونهم في الجنة، ولم يثبُت عنده الإجماعُ فيقول به. واستثنىٰ قبل ذلك من الخلاف أولاد الأنبياء عليهم السلام، فقد تقرَّر الإجماع علىٰ أنهم في الجنة. وحكىٰ ابن عبد البر التوقُّف في أولاد المسلمين عن جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث، منهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك وإسحاق بن راهويه وغيرهم. قال: وهو يشبه ما رسمه مالكٌ في موطئه في أبواب

---

(١) وكذلك ابن الشجري في أماليه ١/ ٣٤، وزاد في آخره: كان في الجاهلية تدفن البنات ويحبس البنين.

(٢) طرح التثريب للعراقي ٧/ ٢٣٠ - ٢٣٢. التمهيد لابن عبد البر ١٨/ ٥٧ - ١٤١. شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/ ٣١٧ - ٣٢٠. المعلم بفوائد مسلم للمازري ٣/ ٣٠٧. المفهم للقرطبي ٦/ ٦٧٧ - ٦٨٠.

القَدَر وما أورده في ذلك من الأحاديث، وعلىٰ ذلك أكثر أصحابه، وليس فيه عن مالك شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلىٰ أن أطفال المسلمين في الجنة. ا.هـ. وأما أطفال المشركين ففيهم مذاهب، أحدها: أنهم في النار تبعًا لآبائهم. والثاني: أنهم في الجنة. والثالث: التوقُّف فيهم. والرابع: أنهم يُمتحَنون في الآخرة. والخامس: أنهم في برزخ؛ حكاه أبو العباس القرطبي عن قوم، قال: وأحسبهم من غير أهل السنة. وحكىٰ النووي القول بأنهم في النار عن الأكثرين، والقول الثاني بأنهم في الجنة عن المحقِّقين. قال: وهو الصحيح، ويُستدَلُّ عليه بأشياء، منها حديث إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي ﷺ في الجنة وحوله أولاد الناس، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين». رواه البخاري في صحيحه. ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥] ولا يتوجَّه علىٰ المولود التكليفُ ولا يلزمه قولُ الرسول حتىٰ يبلغ، وهو متفق عليه. قال: والجواب عن حديث «الله أعلم بما كانوا عاملين» أنه ليس فيه تصريح بأنهم في النار، وحقيقة لفظه: الله أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا. والتكليف لا يكون إلا بالبلوغ. وروىٰ ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة قالت: سألت خديجة النبيَّ ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم مع آبائهم»، ثم سألته بعد ذلك، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، ثم سألته بعدما استحكم الإسلامُ، فنزلت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال: «هم علىٰ الفطرة – أو قال: في الجنة». وروىٰ أيضًا عن ابن عباس قال: لا يزال أمر هذه الأمَّة مواتيًا – أو متقاربًا، أو كلمة تشبه هاتين – حتىٰ يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر. قال يحيىٰ بن آدم: فذكرته لابن المبارك، فقال: أفيسكت الإنسان علىٰ الجهل؟! قلت: فتأمر بالكلام؟ فسكت. والله أعلم.

(الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين، وهم العارفون) المخصوصون **(دون المقلِّدين، وهم المقرَّبون السابقون، فإنَّ المقلِّد وإن كان له فوز علىٰ الجملة بمقام في الجنة**

فهو من أصحاب اليمين، وهؤلاء هم المقرَّبون) قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٢] ثم قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩١] **(وما يلقَىٰ هؤلاء يجاوز حدَّ البيان، والقدر الممكن ذِكره ما فصَّله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالَم فهو الذي أجمله قولُه تعالىٰ:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧] **وقوله ﷺ: قال الله عَزَّوَجَلَّ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا أذن سمعت، ولا عين رأت، ولا خطر علىٰ قلب بشر)** أغفله العراقي، وسبب إغفاله أنه يوجد في بعض نسخ الكتاب «وقال الله عَزَّوَجَلَّ» بدون «وقوله ﷺ». وهو حديث قدسيٌّ رواه أحمد[(١)] والشيخان[(٢)] والترمذي[(٣)] وابن ماجه[(٤)] من حديث أبي هريرة. ورواه ابن جرير[(٥)] من حديث أبي سعيد، ورواه أيضًا عن قتادة مرسلاً، ورواه أيضًا عن الحسن بلاغًا بلفظ: «قال ربُّكم: أعددتُ لعبادي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما لا عينٌ رأت ...» الحديث **(والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يُتصور أن تخطر علىٰ قلب بشر في هذا العالَم، وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلي والأساور)** والذهب والحرير وغير ذلك ممَّا ذُكر في القرآن **(فإنهم لا يحرصون عليها، ولو أُعطُوها لم يَقنعوا بها)** وطلبوا ما وراء ذلك **(ولا يطلبون إلا لذَّة النظر إلىٰ وجه الله الكريم، فهي غاية السعادات ونهاية اللذَّات، ولذلك قيل لرابعة)** بنت إسماعيل **(العَدَوية)** البصرية العابدة المشهورة **(رحمة الله عليها)** وكانت من أقران الحسن

---

(١) مسند أحمد ١٣/ ٤٨٩، ١٥/ ٤٠٧، ١٦/ ٧١، ٢٦٥.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٣٢، ٣/ ٢٧٦، ٤/ ٤٠٣. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٨.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢٥٦، ٣٢٢.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٩٢.

(٥) جامع البيان ١٨/ ٦٢٢ - ٦٢٣.

البصري: (**كيف رغبتكِ في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار**) وقد رُوي ذلك مرفوعًا من حديث علي: «الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، والزاد قبل الرحيل». رواه الخطيب في الجامع(١). ورواه الطبراني(٢) من حديث رافع بن خديج بزيادة في آخره (**فهؤلاء قوم شغلهم حبُّ رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه حتىٰ عن أنفسهم، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه**) أي المولَع به، المدهوش في حبِّه (**المستوفي همَّه بالنظر إلىٰ وجهه والفكر فيه، فإنه في حالة الاستغراق غافل عن**) كل شيء سواه حتىٰ عن (نفسه) فهو (**لا يحس بما يصيبه في بدنه**) من الآلام والمصائب (**ويعبَّر عن هذه الحالة بأنه فنيَ عن نفسه، ومعناه أنه صار مستغرقًا بغيره، وصارت همومه**) كلها (**همًّا واحدًا وهو محبوبه، ولم يبقَ فيه متسَع لغير محبوبه حتىٰ يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه**) اعلمْ أنه مَن استولىٰ عليه سلطان الحقيقة حتىٰ لم يشهد من الأغيار لا عينًا ولا أثرًا ولا رسمًا ولا طللاً يقال إنه فنيَ عن الخلق وبقي بالحق، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فإذا فني عن الأفعال والأحوال والأخلاق فلا يجوز أن يكون ما فني عنه [من ذلك] موجودًا، وإذا قيل: إنه فني عن نفسه وعن الخلق، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودون ولكنه لا علم له بهم ولا بها ولا إحساس ولا خبر، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق، غير محسٍّ بنفسه وبالخلق، وقد يرىٰ الرجلَ يدخل علىٰ ذي سلطان أو محتشم فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه [هيبةً] وربما يذهل عن ذلك المحتشم حتىٰ إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه وهيئة ذلك الصدر وهيئة نفسه لم يمكنه الإخبار عن شيء، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] لم يجدن عند لقاء يوسف علىٰ الوهلة ألم قطع الأيدي وهنَّ أضعف الناس، وقلن: ما هذا بشرًا، ولقد كان بشرًا، وقلن: إن هذا إلا ملَك كريم، ولم يكن ملَكًا، فهذا تغافُل مخلوق عن أحواله

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٣٥٠ - ٣٥١.

(٢) المعجم الكبير ٤/ ٢٦٩.

عند لقاء مخلوق، فما ظنُّك بمن يكاشَف بشهود الحق سبحانه؟ فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه فأيُّ أعجوبة فيه؟ فمَن فني عن جهله بقي بعلمه، ومَن فني عن شهوته بقي بإنابته، ومَن فني عن رغبته بقي بزهادته، ومَن فني عن منيته بقي بإرادته، وكذلك القول في جميع صفاته، فإذا فني العبد عن صفته بما جرىٰ ذِكرُه يرتقي عن ذلك بفنائه عن رؤيه فنائه، وهي مراتب ثلاث، فالأولىٰ فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده [الحق، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود] الحق. كذا قرَّره القشيري في الرسالة[١] (**وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلىٰ قرَّة عين لا يُتصور أن تخطر علىٰ قلب بشر في هذا العالَم، كما لا يُتصور أن تخطر صورة الألوان**) المتنوعة (**والألحان**) المختلفة (**علىٰ قلب الأصم والأكمه**) فيه لفٌّ ونشر غير مرتَّب. والأكمه: مَن وُلد أعمىٰ أو عميَ قبل أن يميز ويدرك (**إلا أن يُرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعًا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورتُه، فالدنيا حجاب علىٰ التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء**) وتتضح الحقائق، وإليه الإشارة بقول بعض السادة[٢]:

إنما الكون خيال وهو حق في الحقيقة
كل مَن يفهم هذا حاز أسرارَ الطريقة

(**فعند ذلك يدرك ذوقَ الحياة الطيبة**) المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] (و) يدرك أيضًا (**أن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**) وكيف يعلمون والحجاب علىٰ قلوبهم؟! وقد تقدم الكلام علىٰ هذه الآية في كتاب العلم.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) هو محيي الدين ابن عربي، والبيتان في كتابه فصوص الحكم ص ١٥٩.

(فهذا القدر كافٍ في بيان توزُّع الدرجات) والدركات **(على الحسنات)** والسيئات في الآخرة **(والله الموفِّق بلطفه)** وكرمه.

بيان ما تعظُم به الصغائرُ من الذنوب

هذا الفصل مشتمل على سبعة أسباب بها تكبر الصغائرُ، وهي في الحقيقة ثمانية.

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالى (أن **الصغيرة تكبر بأسباب**:

منها: **الإصرار**) يقال: أصرَّ على الذنب: إذا تعقد فيه وتشدَّد وامتنع عن الإقلاع عنه. قال المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٥]: أي لم يعزموا على العود إليه. وإنما كان الإصرار تكبر به الصغيرةُ لأن التوبة واجبة على الفور، كما تقدم.

(و) منها: (**المواظبة**) عليه؛ لأنها تورث القساوةَ وتوجب الرانَ على القلب. ولما كانت المواظبة بمعنى الملازمة والمداومة - وهو أحد معاني الإصرار - جعلهما المصنِّف سببًا واحدًا، وهما في الحقيقة سببان مختلفان، يظهر ذلك بالتأمُّل (**ولذلك قيل: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار**) رواه[1] أبو الشيخ ومن طريقه الديلمي في مسند الفردوس[2] من حديث سعيد بن سليمان سعدويه عن أبي شيبة الخراساني عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس به مرفوعًا، لكن بتقديم الجملة الثانية على الأولى. قال ابن طاهر: أبو شيبة الخراساني، قال البخاري: لا يتابَع على حديثه. ومن هذا الوجه أخرجه العسكري في الأمثال والقضاعي في مسند الشهاب[3]، وسنده ضعيف لا سيَّما وهو عند ابن المنذر في تفسيره[4] عن

(١) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٤٦٧.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ١٩٩.

(٣) مسند الشهاب ٢/ ٤٥.

(٤) تفسير ابن المنذر ص ٦٧١.

ابن عباس من قوله. وكذا رواه البيهقي في الشعب[١] من حديث [سعيد بن أبي] صدقة عن قيس بن سعد عن ابن عباس موقوفًا. وله شاهد عند البغوي ومن طريقه الديلمي عن خلف بن هشام عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس به مرفوعًا، ويُنظَر سنده. ورواه إسحاق بن بشر أبو حذيفة في كتاب المبتدأ عن الثوري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، و[إسحاق] حديثه منكر. وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين[٢] من رواية مكحول عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وزاد في آخره: «فطوبَىٰ لمَن وجد في كتابه [يوم القيامة] استغفارًا كثيرًا». وفي إسناده بِشر بن عبيد الدارسي، وهو متروك. ورواه الثعلبي وابن شاهين في الترغيب[٣] من رواية بشر بن إبراهيم عن خليفة بن سليمان عن أبي سلمة عن أبي هريرة به (**فكبيرة واحدة تنصرم**) أي تنقطع (**ولا يتبعها مثلُها لو تُصوِّر ذلك لكان العفو عنها أرجىٰ من صغيرة يواظب العبد عليها**) ويلازمها (**ومثال ذلك قطرات من الماء تقع علىٰ الحجر علىٰ تَوالٍ**) أي تتابُع (**فتؤثِّر فيه، وذلك القدر من الماء**) بعينه (**لو صُبَّ عليه دفعة واحدة لم يؤثِّر فيه**) ومنه قول الشاعر:

أما ترىٰ الحبل بتكراره   في الصخرة الصَّمَّاء قد أثَّرا[٤]

(**ولذلك قال رسول الله ﷺ: خير الأعمال أدومُها وإن قلَّ**) قال العراقي[٥]: متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «أحب الأعمال إلىٰ الله»، وقد تقدم[٦].

---

(١) شعب الإيمان ٩/ ٤٠٦.

(٢) مسند الشاميين ٤/ ٣٨٠.

(٣) الترغيب في فضائل الأعمال ص ٦٥.

(٤) البيت في كتاب التصريح بمضمون التوضح لخالد بن عبد الله الأزهري ١/ ٦٠٩ منسوب لبعض المولدين، وقبله:

اطلب ولا تضجر من مطلب   فآفة الطالب أن يضجرا

(٥) المغني ٢/ ٩٩٨.

(٦) في الباب السابع من كتاب الصلاة وفي كتاب ترتيب الأوراد.

قلت: ورواه أحمد بلفظ: «أحبُّ الأعمال إلىٰ الله ما داومَ عليه صاحبُه وإن قلَّ».

(والأشياء تُستبان بأضدادها، فإذا كان النافع من الأعمال هو الدائم) المتتابع (وإن قلَّ فالكثير المنصرم) الذي ينقطع ويضمحلُّ (قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام) وتتابع (عظُم تأثيرُه في إظلام القلب) وتسويده (إلا أن الكبيرة قلَّما يُتصوَّر الهجوم عليها بغتةً من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلَّما يزني الزاني بغتةً من غير مراودة) من الجانبين (ومقدمات) تسبقه من نظر ولمس وتقبيل ومفاخَذة (وقلَّما يقتل) إنسانًا (بغتةً من غير مشاحنة سابقة ومعاداة) من الجانبين ومشاتمة في الأعراض (فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تُصوِّرت كبيرة وحدها بغتةً ولم يتفق) له (إليها عَوْدٌ) أي رجوع (ربما كان العفو فيها أرجىٰ من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره) وداوم.

(ومنها: أن يستصغر الذنب) أي يعدَّه صغيرًا ويحتقره، فيكون أعظم من اجترامه (فإنَّ الذنب) كما يقال (كلَّما استعظمه العبد من نفسه صغُر عند الله تعالىٰ، وكلَّما استصغره كبُر عند الله تعالىٰ؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثُّره به، واستصغاره يصدر عن الإلف به) والأنس معه (وذلك يوجب شدةَ الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخَذ بما يجري عليه في الغفلة، فإن القلب لا يتأثَّر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر) في كون استصغار الذنب كبيرة: (المؤمن يرىٰ ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرىٰ ذنبه كذباب مرَّ علىٰ أنفه فأطارَه) ولفظ القوت: فطيَّره. قال العراقي[١]: رواه البخاري[٢] من رواية الحارث بن سُوَيد قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين،

(١) المغني ٢/ ٩٩٨.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٥٤.

أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه[١]، قال: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مر علىٰ أنفه فقال به هكذا». قال أبو شهاب بيده فوق أنفه. ثم قال: «للهُ أفرحُ بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مَهلكة، ومعه راحلته ...» الحديث. وأما مسلم[٢] فقد أخرجه عن الحارث بن سويد قال: دخلت علىٰ عبد الله أعوده وهو مريض، فحدثنا حديثين: حديثًا عن نفسه، وحديثًا عن رسول الله ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِيَّة مهلكة ...» فساقه ولم يذكر الحديث الثاني.

(وقال بعضهم: الذنب الذي لا يُغفَر قول العبد: ليت كل ذنب عملتُه مثل هذا) نقله صاحب القوت، قال: وهذا كما قال بلال بن سعد: لا تنظر [إلىٰ صغر] الخطيئة، ولكن انظر [إلىٰ] مَن عصيتَ[٣] **(وإنما يعظُم الذنبُ في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالىٰ)** وعظمته وهيبته في قلبه **(فإذا نظر إلىٰ عِظَم مَن عصىٰ به رأىٰ الصغير كبيرًا، وقد أوحىٰ الله إلىٰ بعض أنبيائه: لا تنظر إلىٰ قلة الهدية وانظر إلىٰ عِظَم مُهديها، ولا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة وانظر إلىٰ كبرياء مَن واجهتَه بها)**[٤] نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: وقد حُدِّثنا عن الله تعالىٰ أنه أوحىٰ إلىٰ بعض أوليائه ... والباقي سواء. ثم قال: وإنما عظمت الذنوبُ علىٰ تعظيم المواجَه بها، وكبرت في القلوب لمشاهدة ذي الكبرياء ومخالفة أمره إليها، فلم يصغُر ذنبٌ عند ذلك.

---

(١) بعده في المغني: «فذكر هذا وحديث: لله أفرح بتوبة العبد. ولم يبين المرفوع من الموقوف، وقد رواه البيهقي في الشعب ٩/ ٣١٣ من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا».

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٥٨ - ١٢٥٩.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٦٦، والنسائي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٤٠٥، وأحمد في الزهد ص ٣١٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٥٨.

(٤) تقدم هذا الخبر في آخر كتاب كسر الشهوتين بسياق أطول مما هنا.

(وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة) رُوي ذلك عن ابن عباس، أخرج ابن جرير عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر، قال: كل شيء عُصي الله به فهو كبيرة. وقد تقدم. واختاره أبو إسحاق الأسفراييني وأبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين في الإرشاد و[ابن] القشيري في المرشدة، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في تفسيره، واعتمد عليه التقي السبكي، وقد تقدم أن المصنِّف ضعَّف هذا القولَ. قال صاحب القوت: فكانت الصغائر عند الخائفين كبائر، وهذا أحد الوجهين في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢] **(وكذلك قال بعض الصحابة)** أبو سعيد الخدري، كما تقدم التصريح به للمصنف، وقيل: أنس، وقيل: عبادة بن الصامت **(للتابعين: إنكم لَتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدقُّ من الشعر كنا نعدُّها علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الموبقات)** وتقدم للمصنف: من الكبائر، بدل الموبِقات. فحديث أبي سعيد رواه أحمد والبزار، وحديث أنس رواه البخاري، وحديث عبادة رواه أحمد والحاكم، وقد تقدم. قال صاحب القوت: ليس يعنون أن الكبائر التي كانت علىٰ عهد رسول الله ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر لعِظَم الله في قلوبهم وعِظَم نور الإيمان، ولم يكن ذلك في قلوب مَن بعدهم. وإليه أشار المصنِّف بقوله: **(إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلىٰ جلال الله تعالىٰ من الكبائر، وبهذا السبب يعظُم من العالِم ما لا يعظُم من الجاهل، ويُتجاوز عن العامِّي في أمور لا يُتجاوز في أمثالها عن العارف)** البصير **(لأن الذنب والمخالفة يكبران بقدر معرفة المخالَف)** فكلَّما زادت معرفته بالله زادت خشيته له وكان أبعد الناس عن المخالفة له في أمره.

(ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجُّج بها) أي الافتخار **(واعتداد**

التمكُّن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة) لأنه يدل علىٰ عدم التفكُّر في ثواب الله وعقابه (فكلَّما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبُرت الصغيرة وعظُم أثرُها في تسويد قلبه) وإظلامه (حتىٰ إن من المذنبين من يتمدَّح بذنبه ويتبجَّح به لشدة فرحه بمقارفته إياه) وملابسته له (كما يقول: أما رأيتني كيف مزَّقتُ عِرضه) وذلك عند المخاصمة (ويقول المُناظِر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته) في المجلس (وكيف ذكرت مساوئه) وجهله (حتىٰ أخجلته) وسجَّلت عليه (وكيف استخففت به وكيف لبَّست عليه) في الكلام (ويقول المُعامِل في تجارته: أما رأيتني كيف روَّجت عليه الزائفَ) أي الرديء المبرِّح (وكيف خدعته، وكيف غبنته في ماله، وكيف استحمقته. فهذا وأمثاله تكبر به الصغائرُ) وتعظُم (فإنَّ الذنوب مهلكات) للعبد (وإذا دُفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة) وغمٍّ (وتأسُّف بسبب غلبة العدوِّ عليه) فيما وقع فيه (وبسبب بُعده عن الله تعالىٰ، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتىٰ يتخلَّص من ألم شربِه لا يُرجَىٰ شفاؤه) بل لا يزال مقيمًا علىٰ مرضه.

(ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدري أنه إنما يُمهَل مقتًا ليزداد بالإمهال إثمًا فيظن أن تمكُّنه من المعاصي عناية من الله تعالىٰ به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله) فالاغترار بستر الله والاستخفاف بحلمه وإن كان صغيرة لكنه يكبر لأنه يتسبَّب منه الأمن من مكر الله، وهو كبيرة (كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾) أي يدخلونها (﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٨﴾) [المجادلة: ٨] مصيرهم.

(ومنها: أن يأتي الذنبَ فيُظهِره بأن) يتحدث به و(يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره) أي حيث يشهده ويراه (فإنَّ ذلك جناية منه علىٰ ستر الله الذي أسدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمَن أسمعه ذنبَه) إذ تحدَّث به (أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمَّتا إلىٰ جنايته فتغلَّظت به) أي بهذا الانضمام (فإن انضاف إلىٰ ذلك الترغيبُ للغير

فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحشَ الأمرُ. وفي الخبر: كل الناس معافىٰ إلا المجاهرين) الذين يجاهرون بالذنب والصول به والتظاهر، وهذا من الطغيان **(يبيت أحدهم علىٰ ذنب قد ستره الله عليه، فيصبح فيكشف ستر اللهِ ويتحدَّث بذنبه)** هكذا هو في القوت. وقال العراقي[(١)]: متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «كل أمَّتي»، وقد تقدم.

قلت: لفظ المتفق عليه: «كل أمَّتي معافىٰ إلا المجاهرين، وإن من الجناية[(٢)] أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: عملتُ البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربُّه، ويصبح يكشف ستر الله عَزَّوَجَلَّ عنه». وفي رواية: وإن من الجهار. وبخط الحافظ: الإجهار.

وروىٰ الطبراني في الأوسط من حديث أبي قتادة: «كل أمَّتي معافىٰ إلا المجاهرين الذي يعمل العمل بالليل فيستره ربُّه، ثم يصبح فيقول: يا فلان، إني فعلت البارحة كذا وكذا. فيكشف ستر الله عَزَّوَجَلَّ [عنه]»[(٣)].

(وهذا لأن من صفات الله ونِعَمه أن يُظهِر الجميلَ، ويستر القبيح، ولا يهتك الستر) وقد ورد ذلك في دعاء مأثور: يا مَن أظهر الجميلَ، وستر القبيح، يا مَن لم يهتك الستر[(٤)] **(فالإظهار كفران لهذه النعمة)** وجهل بها وإيثار لضدها، ويقال: كل عاصٍ تحت كَنَف الرحمن، فإذا رفع عنه يده انهتك ستره.

---

(١) المغني ٢/ ٩٩٨.

(٢) كذا في المطبوعة، وهو تصحيف، صوابه «المجانة»، ووقع في رواية أبي ذر عن الكشميهني للصحيح «المجاهرة» بدل «المجانة»، وجعل القاضي عياض لفظة «المجانة» تصحيف من المجاهرة، وقال القسطلاني: معناها - أي المجانة - لايبعد. وانظر: مشارق الأنوار ١/ ١٦٢ (ط تونس)، وإرشاد الساري ٩/ ٥٠ (ط الأميرية).

(٣) حديث أبي هريرة وحديث أبي قتادة تقدما في كتاب آداب الصحبة.

(٤) كما عند الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٤ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(وقال بعضهم: لا تذنب، فإن كان ولا بد فلا ترغِّب غيرَك فيه فتذنب ذنبين) ولفظ القوت: فلا تحمل غيرك علىٰ الذنب فتكسب ذنبين. وقد جعل الله ذلك وصفًا من أوصاف المنافقين **(ولذلك قال تعالىٰ:** ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾) الآية [التوبة: ٦٧] فمَن حمل أخاه علىٰ ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهىٰ عن المعروف.

(وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده علىٰ معصية ثم يهوِّنها عليه) نقله صاحب القوت.

(ومنها: أن يكون المذنب عالمًا يُقتدَىٰ به، فإذا فعله بحيث يُرَىٰ ذلك منه كبُر ذنبُه) وهذا **(كلبس العالِم الإبريسم)** وهو الحرير الخام **(وركوبه مراكب الذهب)** والفضة **(وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين)** ومَن في معناهم **(ودخوله علىٰ السلاطين وتردُّده عليهم)** في قضاء حوائجه أو حوائج غيره **(ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم)** فيما يظهر له من المنكَرات الشرعية **(وإطلاق اللسان في الأعراض، وتعدِّيه باللسان في)** أثناء **(المناظرة، وقصده الاستخفاف)** بحقوق أخيه المسلم **(واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة. فهذه ذنوب يُتَّبَع العالِم عليها، فيموت العالِم ويبقىٰ شره مستطيرًا)** شائعًا **(في العالَم آمادًا)** أي أزمانًا **(متطاولة)** وتبقىٰ سيئات ذنوبه عليه ما دام يُعمَل به، فيكون وزره عليه حتىٰ ينقرض من عامليه **(فطوبَىٰ لمَن إذا مات ماتت ذنوبه معه)** ولم يؤاخَذ بها بعده، وطوبىٰ لمَن لم يعُدَّ ذنبَه غيرُه. وقد يعيش العبد أربعين سنة ثم يموت فتبقىٰ ذنوبه بعده مائة سنة يعاقَب عليها في قبره إذا كان قد اتُّبع عليها إلىٰ أن تندرس أو يموت كل مَن عمل بها، ثم تسقط عنه فيستريح منها، ويقال: أعظم الذنوب مَن ظلم مَن لم يعرفه ولم يره من المتقدِّمين، مثل أن يتكلم فيمَن سلف من أهل الدين وأئمَّة المتقين، وهذه المعاني كلها تدخل في الذنب الواحد وهي أعظم منه **(وفي الخبر: مَن سنَّ سنَّة سيئة)** فعُمل بها بعده **(فعليه وِزرها ووزر مَن عملَ بها، لا ينقص من**

أوزارهم شيئًا) وهو قطعة من حديث رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش.

وفي ذلك **(قال)** الله **(تعالىٰ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾)** من الأعمال (**﴿وَآثَارَهُمْ﴾**) [يس: ١٢] أي سنَّتهم التي عُمل بها بعدهم. وإليه أشار بقوله: **(والآثار: ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل.**

وقال ابن عباس) رضي الله عنه: **(ويل للعالِم من الاتِّباع، يزلُّ زلَّةً فيرجع عنها ويحملها الناس ويذهبون بها في الآفاق)** نقله صاحب القوت.

(وقال بعضهم[1]**: مثل زلَّة العالِم مثل انكسار السفينة، تغرق ويغرق أهلها)** ولفظ القوت: ويغرق الخَلقُ معها.

(وفي الإسرائيليات أن عالمًا) من علمائهم **(كان يُضِل الناسَ بالبدعة، ثم أدركته توبةٌ)** فرجع إلىٰ الله تعالىٰ **(فعمل في الإصلاح دهرًا)** أي إصلاح نفسه **(فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيِّهم: قلْ له: إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك)** بالغًا ما بلغ **(ولكن كيف بمَن أضللتَ من عبادي فأدخلتُهم النار)**[2] نقله صاحب القوت، قال: فأما استحلال المعصية أو إحلالها للغير فليس من هذه الأبواب في شيء إنما ذلك خروج عن الملَّة وتبديل للشريعة، وهو الكفر بالله عز وجل، ففي الخبر: «ما آمنَ بالقرآن مَن استحلَّ محارمه».

(فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر) جدًّا، بخلاف غيرهم من العوامِّ **(فعليهم وظيفتان، إحداهما: تركُ الذنب)** مطلقًا مهما أمكنهم ذلك **(والأخرىٰ:**

---

(١) هو عبد الله بن المعتز العباسي، كما رواه عنه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٧.

وكذلك أورده الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ١٦٦، والصفدي في الوافي بالوفيات ١٧/ ٢٤٢.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٩٥ عن خالد بن باب الربعي، ورواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٢ والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٢٨ - ٣٢٩ بلفظ آخر.

إخفاؤه) إن قدر علىٰ ذلك **(وكما تتضاعف أوزارُهم علىٰ الذنوب)** إذا ارتكبوها **(فكذلك يتضاعف ثوابهم علىٰ الحسنات إذا اتُّبِعوا)** وعُمل بها بعدهم **(فإذا ترك)** العالِم **(التجمُّل والميل إلىٰ الدنيا)** أي من التوسُّع فيها **(وقنع منها باليسير)** والبلغة **(و)** قنع **(من الطعام بالقوت)** قدْر ما يسد به رمقَه **(ومن الكسوة بالخلق)** ومن المسكن ما يكنُّه من البرد والحر **(فيُتَّبَع عليه ويقتدي به العلماء)** من أمثاله **(والعوام)** المشاهدون أحواله **(ويكون له مثل ثوابهم)** من غير أن ينقص من ثوابهم شيء **(وإن مال إلىٰ التجمُّل)** والتحفُّل **(مالت طباعُ مَن دونه)** لا محالة **(إلىٰ التشبُّه به)** في أحواله **(ولا يقدرون علىٰ التجمُّل إلا بخدمة السلاطين)** ومعاشرة أرباب الأموال **(وجمع الحُطام من الحرام)** من حيث كان **(ويكون هو السبب في جميع ذلك)** ويكون عليه وزرُهم **(فحركات العلماء في طَوْري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارُها إما بالربح وإما بالخسران.**

فهذا القدر كافٍ في معرفة تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها) والله الموفِّق بكرمه.

الركن الثالث[١]: في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

تُذكَر فيه علامات صحة التوبة وطريق تمامها وكمالها.

اعلمْ أنَّا (قد ذكرنا أن التوبة) لها أركان أربعة، وأنها (**عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم أورثه العلمُ**) فالعلم والندم والعزم والقصد هي أركانها الأربعة التي عليها أساسها (**بكون المعاصي حائلة بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شروط، فلا بد من بيانها**) بالتفصيل:

(**أما**) الركن الأول الذي هو (**العلم فالنظر فيه نظرٌ في سبب التوبة**) وتقويته وكماله بأسباب، منها: مجالسة الصالحين والمذكِّرين بالله، والسؤال عن شؤم المعاصي وما رُتِّب عليها من العقوبات العاجلة، وملازمة الشيخ أنفع من هذا كله، فإنه الدرياق[٢] النافع (**وسيأتي**) بيان ذلك (**وأما**) الركن الثاني الذي هو (**الندم فهو توجُّع القلب عند شعوره بفوات المحبوب**) كما تقدم في أول الكتاب (**وعلامته**) أي علامة صحته وكماله (**طول الحسرة والحزن**) ورقَّة القلب (**وانسكاب الدمع وطول البكاء والفِكر**) وذبول البدن وسكون القلب، وهذا هو الإخبات الآتي ذِكره؛ لأن حقيقة الإخبات: الإذعان والانقياد للحق بسهولة (**فمَن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزَّته**) من أقاربه وأخِصَّائه (**طالت عليه مصيبته وبكاؤه**[٣]) واشتد

---

(١) في المطبوعة الرابع. والمثبت هو الصواب.

(٢) لغة في الترياق. وانظر تاج العروس ٢٥/ ٢٨٠.

(٣) في ط المنهاج ٧/ ١١٧: طال عليه بكاؤه لمصيبته.

عليه حزنه وعناؤه (وأيُّ عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأيُّ عقوبة أشد من النار؟ وأيُّ شيء أدل علىٰ نزول العقوبة من المعاصي؟ وأيُّ مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو أخبره إنسان واحد يسمَّىٰ طبيبًا أن ولده المريض لا يبرأ) من مرضه (وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنُه) وعظُم وجدُه (فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل علىٰ الموت من المعاصي علىٰ سخط الله تعالىٰ والتعرُّض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجىٰ، فعلامة صحة الندم رقَّة القلب) وذبول البدن (وغزارة الدمع. وفي الخبر: جالِسوا التوَّابين، فإنهم أرقُّ أفئدةً) هكذا في القوت. قال العراقي(١): لم أجده مرفوعًا، وهو من قول عون بن عبد الله، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة(٢) قال: جالِسوا التوابين، فإن رحمة الله إلىٰ النادم أقرب. وقال أيضًا: فالموعظة إلىٰ قلوبهم أسرع، وهم إلىٰ الرقة أقرب(٣). وقال أيضًا: التائب أسرع دمعة وأرق قلبًا. انتهىٰ.

قلت: سبق للمصنِّف قريبًا أنه من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكن بلفظ: اجلسوا إلىٰ التوابين.

(ومن علامته) أي علامة صحته (أن تتمكَّن مرارةُ تلك الذنوب في قلبه بدلاً من حلاوتها، فيتبدَّل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة) مع التلهُّف والتأسُّف والاحتراق (وفي الإسرائيليات: أن الله سبحانه وتعالىٰ قال لبعض أنبيائه وقد سأله) ذلك النبي (قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة فلم يرَ قبول توبته فقال: وعزَّتي وجلالي، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلتُ توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه) نقله صاحب القوت.

---

(١) المغني ٢/ ٩٩٩.

(٢) التوبة ص ١٣٧، ١٣٨.

(٣) في كتاب التوبة: «قلب المرء التائب بمنزلة الزجاجة يؤثر فيها جميع ما أصابها، فالموعظة ...» الخ.

(**فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع**) أي إن الإنسان يشتهيها بموجِب طبعه الذي جُبل عليه (**فكيف يجد مرارتها**)؟ وكيف تتمكَّن من قلبه؟ (**فأقول: مَن تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذَّه ثم مرِضَ وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه**) كما هي خاصِّية من يتناول السمومات (**فإذا قُدِّم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسُه عن**) تناول (**ذلك العسل أم لا؟ فإن قلتَ: لا**) تنفر (**فهو جحدٌ للمشاهدة والضرورة**) أي إنكار لهما (**بل**) الحق أنه (**ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضًا لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل، وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدُق إلا بمثل هذا الإيمان، ولما عزَّ مثلُ هذا الإيمان**) أي ندرَ (**عزَّت التوبةُ والتائبون**) وقلَّ وجودهما ووجود مَن يتَّصف بهما (**فلا ترىٰ إلا معرضًا عن الله تعالىٰ، متهاونًا بالذنوب، مصرًّا عليها. فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم**) هذا الشرط (**إلىٰ الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرةَ عن**) شرب (**الماء البارد مهما علمَ أن فيه مثل ذلك السم؛ إذ لم يكن ضرره من العسل**) نفسه (**بل ممَّا فيه**) وهو السم (**ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالىٰ**(١)**، وذلك جارٍ في كل ذنب**) علىٰ العموم.

(**وأما**) الركن الثالث الذي هو (**القصد**) أي الترك (**الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارُك فله تعلُّقٌ**) بالحال وبالماضي وبالاستقبال، أما تعلُّقه (**بالحال**) أي الحالة الراهنة (**وهو يوجب ترك كل محظور**) شرعيٍّ (**هو مُلابس له**) والخروج عنه في الحال (**وأداء كل فرض هو متوجِّه عليه في الحال. وله تعلُّقٌ بالماضي وهو تدارُك ما فرط**) منه فيما مضىٰ من الزمان (**و**) له تعلُّقٌ (**بالمستقبل وهو دوام الطاعة**

(١) في أ، وب: بل من مخالفته أمر الله. وفي ط المنهاج: بل من حيث مخالفته أمر الله.

ودوام ترك المعصية إلىٰ الموت. وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يردَّ فكره) من ساعة توبته (إلىٰ أول يوم) غفلته منذ (بلغ فيه بالسن أو الاحتلام، ويفتِّش عمَّا مضىٰ من) أحواله في (عمره سنة سنة وشهرًا شهرًا ويومًا يومًا ونفَسًا نفَسًا، وينظر إلىٰ الطاعات ما الذي قصَّر فيه منها، وإلىٰ المعاصي ما الذي قارفه منها) فيقابل كل سيئة بحسنة من جنسها (فإن كان قد ترك صلاة) من الخمس (أو صلاَّها في ثوب نجس) أو بدن نجس أو مكان نجس (أو صلاَّها بنيَّة غير صحيحة لجهله بشرط النية) علىٰ ما ذُكر في كتاب الصلاة (فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسبَ من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أدَّاه ويقضي الباقي، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن الذي يصل إليه علىٰ سبيل التحرِّي والاجتهاد[1]. وأما الصوم، فإن كان قد تركه في سفر) أو لمرض عرَضَ له (ولم يقضِه أو أفطر عمدًا) أي متعمِّدًا (أو نسي النية بالليل ولم يقضِ) بعدُ (فيتعرَّف مجموع ذلك بالتحرِّي والاجتهاد ويشتغل بقضائه) وفي نسيان النية بالليل خلاف في مذهبَي أبي حنيفة ومالك، كما تقدم في كتاب الصوم (وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول مِلكه) لذلك المال (لا من زمان البلوغ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبي) خلافًا لأبي حنيفة، كما تقدم في كتاب الزكاة (فيؤدي ما علمَ بغالب الظن أنه في ذمَّته، فإن أدَّاه لا علىٰ وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرفه إلىٰ الأصناف الثمانية) المذكورة في القرآن بل إلىٰ بعضها كما هو مذهب أبي حنيفة (أو أخرج البدل) كما هو مذهب أبي حنيفة (وهو علىٰ مذهب) الإمام (الشافعي) رحمه الله تعالىٰ (فيقضي جميع ذلك، فإنَّ ذلك لا يجزئه أصلاً) وتقدم التفصيل في كلٍّ من المسألتين في كتاب الزكاة (وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويُحتاج فيه إلىٰ تأمُّل شافٍ) واحتياط وافٍ (ويلزمه) مع ذلك (أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من) أفواه السادة (العلماء) ليعمل بموجِب ما يرشدونه إليه (وأما الحج، فإن كان قد استطاع) الزاد والراحلة

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ١٢٠: ويصل إليه علىٰ سبيل التحري والاجتهاد.

مع أمن الطريق (**في بعض السنين**) من عمره (**ولم يتفق له الخروج**) تهاونًا وتكاسلاً وتسويفًا (**والآن قد أفلس**) أي صار عديم المال (**فعليه الخروج**) إلىٰ الحج (**فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد**) والراحلة (**فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به**) ولا يسقط عنه الحجُّ (**فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيًا، قال ﷺ: مَن مات ولم يحجَّ فليمُت إن شاء يهوديًّا وإن شاء نصرانيًّا**) رواه البيهقي والدارقطني من حديث أبي أمامة بلفظ: «مَن لم يمنعه من الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحجَّ فليمُتْ إن شاء يهوديًّا، وإن شاء نصرانيًّا». وقد تقدم في كتاب الحج (**والعجز الطارئ**) أي العارض (**بعد القدرة لا يُسقِط عنه الحجَّ**) وقد تقدم الكلام عليه في كتاب الحج (**فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتدارُكها، وأما المعاصي فينبغي أن يفتِّش من أول بلوغه**) إلىٰ وقت التوبة (**عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورِجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتىٰ يطَّلع علىٰ جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالىٰ من حيث لا يتعلق بمَظلمة العباد**) اعلمْ أن الترك المتعلق بالماضي الذي هو التدارُك لِما فرط من أمره هل تتوقَّف صحة التوبة علىٰ هذا؟ وهذا هو الغاية المقصودة، وأما مَن أجاز الصحةَ فيكتفي بالعلم والندم والعزم والترك في الحال، والصحيح الذي مشىٰ عليه المصنِّف أن فيه تفصيلاً؛ لأن المعاصي المرجوع عنها إما أن تكون قاصرة الضرر علىٰ المذنب أو متعدِّية إلىٰ غيره، فالقاصرة منها ما يقبل القضاءَ كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وقد ذكرها المصنف، ومنها ما لا يقبل القضاءَ، وإليه الإشارة بقوله: (**كنظر إلىٰ غير مَحرم**) أو لمس (**وقعود في مسجد مع الجنابة**) أي اللبث فيه علىٰ غير طهارة (**ومس مصحف بغير وضوء**) ولا تيمُّم (**واعتقاد بدعة**) غير مُخرِجة عن الملَّة (**وشرب خمر، وسماع مَلاهٍ، وغير ذلك**) كإلقاء المال في البحر وإنفاقه في المعصية، وما أشبهَ ذلك (**ممَّا لا يتعلق بمظالم العباد**) ولا يقبل القضاءَ (**فالتوبة عنها بالندم والتحسُّر**

عليها) والترك والعزم علىٰ أن لا يعود (وبأن يحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث المدة، ويطلب لكل سيئة منها حسنةً تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذًا من قوله ﷺ) لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنة تمحُها) وخالِق الناسَ بخُلق حسن. رواه الترمذي وصحَّحه، وتقدم أوله في كتاب آداب الكسب، وبعضه في كتاب رياضة النفس، وبعضه في هذا الكتاب قريبًا (بل من قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤] فيكفِّر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر) والعلم (ويكفر القعود في المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه، مع الاشتغال بالعبادة) بأنواعها (ويكفر مس المصحف محدِثًا بإكرام المصحف، وكثرة القراءة منه، وكثرة تقبيله) ووضعه علىٰ العينين، ورفعه في أشرف المواضع (وبأن يكتب مصحفًا) بخطه (ويجعله وقفًا) علىٰ المسلمين يقرأون فيه (ويكفر شرب الخمر بالتصدُّق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه) بأن يتصدَّق بشرب السكَّر مثلاً يجعله في كيزان ويسقي الناس في المجامع، أو يقف به في ممرِّ الناس في أوقات شدة الحر والعطش (وعدُّ جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك طريق المضادَّة، فإن المرض) إنما (يعالَج بضدِّه) ليقاومه فيعتدل المزاج

(وكل ظلمة ارتفعت إلىٰ القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بطاعة[1]) من جنسها لكن (تضادُّها، والمتضادَّات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تُمحَىٰ كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادُّها، فإن البياض يُزال بالسواد) فإنه ضده (لا بالحرارة والبرودة) والحرارة تُزال بالبرودة، وبالعكس، لا باليبوسة والرطوبة (وهذا التدريج من التلطُّف في تحقيق طريق المحو فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب علىٰ نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضًا مؤثِّرًا في المحو) وكذا إن فعل أنواعًا من العبادات ولكنها ليست من جنس المعاصي

---

(١) في الجميع: بحسنة.

المرجوع عنها فإنها مؤثِّرة في المحو كذلك. وقد روىٰ الخطيب[١] من حديث أنس: «إذا كثرت ذنوبك فاسْقِ الماءَ علىٰ الماء تتناثر كما يتناثر الورق من الشجر في الريح العاصف» **(فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالىٰ. ويدل علىٰ أن الشيء يكفَّر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة)** كما ورد في الخبر، وتقدم الكلام عليه **(وأثرُ اتِّباع الدنيا في القلب السرورُ بها [والإلف لها]**[٢] **والحنين إليها، فلا جَرَم كان كل أذىٰ يصيب المسلمَ ينبو بسببه قلبُه عن الدنيا يكون كفَّارة له؛ إذ القلب يتجافَىٰ بالهموم والغموم عن دار الهموم)** أي يتباعد **(قال ﷺ: من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم - وفي لفظ آخر: إلا الهم - بطلب المعيشة)** ولفظ القوت: اعلمْ أن الغم علىٰ ما يفوت من الدنيا والهم والحرص عليها من العقوبات، والفرح والسرور بما نال من الدنيا مع ما لا يبالي بما خرج من دينه من العقوبات، وقد تكون عقوبة الذنب ذنبًا مثله أو أعظم منه، كما يكون ثواب الطاعة طاعة مثلها أو أفضل منها. وقد يكون دوام العوافي واتساع الغِنىٰ من عقوبات الذنوب إذا كانا سببين إلىٰ المعاصي، وفي أحد الوجوه من معنىٰ قوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قال: الغِنىٰ والعافية. فقد صار الفقر والمرض رحمة من الله تعالىٰ إذا كانا سببين للعصمة». وفي الخبر: «من الذنوب ذنوب لا يكفِّرها إلا الهم بطلب المعيشة». وفي لفظ آخر: «إلا الهموم». فالهموم والأحزان بالمباحات من حاجات الدنيا كفارات، وهي علىٰ ما يفوت من قربات الآخرة للمؤمنين درجات، وهي علىٰ حب الدنيا والجمع منها والحرص [عليها] عقوبات. انتهىٰ.

والحديث المذكور، قال العراقي[٣]: رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في تلخيص المتشابه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وتقدم في النكاح. انتهىٰ.

---

(١) تاريخ بغداد ٧/ ٤٤٨ - ٤٤٩، وهو باطل لا أصل له، وانظر فيض القدير ١/ ٤٣٤.

(٢) زيادة من ب، وط المنهاج ٧/ ١٢٣، وأ مطموسة فلم أتبينها.

(٣) المغني ٢/ ٩٩٩.

قلت: لفظ الطبراني وأبي نعيم: «إن من الذنوب ذنوبًا لا تكفِّرها الصلاة ولا الوضوء ولا الحج ولا العمرة». قيل: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: «الهموم بطلب المعيشة». وهكذا رواه ابن عساكر أيضًا، وهو غريب جدًّا، وفيه محمد بن يوسف بن يعقوب الرقِّي، وهو ضعيف. وفي لفظ: «لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج، ويكفرها الهم في طلب المعيشة». ورواه الخطيب في تلخيص المتشابه بنحوه من طريق يحيىٰ بن بكير عن مالك عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة به. وفي لفظ: «عَرَق الجبين» بدل: الهم. وللديلمي من حديث أبي هريرة: «إن في الجنة درجة لا ينالها إلا أصحاب الهموم». يعني في [طلب] المعيشة.

وروىٰ الخطيب في المتفق والمفترق[1] عن أبي عبيد عن أنس رفعه: «إن من الذنوب ذنوبًا لا تكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج، تكفرها الهمومُ في طلب المعيشة». قال الأزدي: أبو عبيد عن أنس شِبه لا شيء[2].

(**وفي حديث عائشة** ﷺ: **إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه**) ولفظ القوت: ولم يكن له من الأعمال ما يكفرها أدخل الله عليه الهموم والغموم. قال العراقي[3]: تقدم أيضًا في النكاح، وهو عند أحمد[4] من حديث عائشة بلفظ: «ابتلاه الله بالحزن». انتهىٰ.

قلت: ذكر هناك أن فيه ليث بن أبي سليم، مختلَف فيه. ولفظ أحمد في المسند: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له من العمل ما يكفِّرها ابتلاه الله بالحزن

---

(١) المتفق والمفترق ص ٣٢٥.

(٢) نقله عنه الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٤٨.

(٣) المغني ٢/ ١٠٠٠.

(٤) مسند أحمد ٤٢/ ١٣٤.

ليكفرها عنه». قال المنذري[١]: رواته ثقات إلا ليث بن أبي سليم. وقال الهيثمي[٢]: فيه ليث، وهو مدلِّس، وبقية رجاله ثقات. ولكن حسَّنه الحافظ السيوطي[٣]، وكأنه رجَّح جانب التوثيق فيه. والله أعلم.

(**ويقال: إن الهم الذي يدخل علىٰ القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع**) ولفظ القوت: ويقال: إن الهم الذي يعرض للقلب في وقت لا يعلم العبد سببه هو كفَّارة الهم بالخطايا، ويقال: هو حزن العقل عند تذكُّره الوقوف والمحاسبة لأجل جنايات الجسد، فيلزم العقل ذلك [الهم] فتظهر علىٰ العبد منه كآبة لا يعرف بها سبب غمِّه.

(**فإن قلتَ: همُّ الإنسان غالبًا بماله وولده وجاهه، وهو خطيئة، فكيف يكون كفارة؟ فاعلمْ أن الحب له خطيئة، والحرمان عنه كفارة، ولو تمتَّع به لتمَّت الخطيئة، فقد رُوي**) في أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه: لولا ما سبق لك في علمي من عنايتي بك لجعلتُ نفسي عندك أبخل الباخلين؛ لكثرة تردُّدك عليَّ وطول سؤالك لي وتأخيري إجابتك، ولكن من عنايتي بك أنْ جعلتُ نفسي في قلبك أني أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين، وقد سبقت لك عندي منزلة لم تكن تنالها بشيء من عملك إلا بحزنك علىٰ يوسف، فأردتُّ أن أبلغك تلك المنزلةَ.

وكذلك رُوي (**أن جبريل عليه السلام دخل علىٰ يوسف عليه السلام في السجن، فقال له**) يوسف: يا أخي (**كيف تركتَ الشيخ الكبير**)؟ وفي نسخة: الكئيب (**فقال: قد حزنَ عليك حزن مائة ثَكْلَىٰ. قال**) يوسف: (**فما**) ذا (**له عند الله؟ قال: أجر مائة شهيد**) كذا في القوت.

قلت: أخرجه[٤] ابن جرير وابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: أتي جبريلُ عليه السلام

---

(١) الترغيب والترهيب ص ١٢٣٤.

(٢) مجمع الزوائد ٣/ ١١.

(٣) في الجامع الصغير. انظر: فيض القدير ١/ ٤٣٤.

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ١٩٨، ٣٠٥ - ٣٠٨. جامع البيان للطبري ١٣/ ٣٠٧ - ٣١٣.

يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في السجن، فسلَّم عليه، وجاءه في صورة رجل حسن الوجه، طيِّب الريح، نقيِّ الثياب. فقال له يوسف: أيها الملك الحسن وجهه، الكريم علىٰ ربِّه، الطيب ريحه، حدِّثني كيف يعقوب. قال: حزنَ عليك حزنًا شديدًا. قال: فما بلغ من حزنه؟ قال: حزن سبعين مُثْكَلة. قال: فما بلغ من أجره؟ قال: أجر سبعين شهيدًا. قال يوسف: [فإلىٰ] مَن أوَىٰ بعدي؟ قال: إلىٰ أخيك بنيامين. قال: فتراني ألقاه؟ قال: نعم. فبكىٰ يوسف لِما لقي أبوه [بعده] ثم قال: ما أبالي بما لقيتُ، إن الله أرانيه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم نحوه. وأخرجه [ابن جرير] من طريق ليث عن ثابت البُناني نحوه. ومن طريق ليث عن مجاهد نحوه. وعن عبد الله بن أبي جعفر نحوه. وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن وهب بن منبه نحوه. وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه، وفيه: أجر سبعين ثَكْلَىٰ. وعن الحسن وفيه: وَجْد سبعين ثكلىٰ وأجر مائة شهيد، وما ساء ظنُّه بالله ساعةً من ليل ولا نهار».

(فإذًا الهموم أيضًا مكفِّرات حقوق الله) عَزَّوَجَلَّ **(فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالىٰ)** والذي يقبل القضاءَ فتصح أيضًا توبته [منه] ولكن يجب عليه قضاء ما فات؛ لأن التوبة عبادة الوقت لوجوبها علىٰ الفور وقد قام بها، ولا وقت لها معيَّن، والذمة مشغولة به، وهذا الحكم في المعاصي المتعدِّي ضررها إلىٰ الغير، وأجناسها ثلاثة: في النفس والمال والعِرض، وفي كل واحد من هؤلاء حق لله وحق للعبد، أما حق الله فقد كفَّرته التوبةُ، وأما حق العبد فلا بد منه. وإلىٰ ذلك أشار المصنِّف بقوله: **(وأما مظالم العباد ففيها أيضًا معصية وجناية علىٰ حق الله، فإن الله تعالىٰ نهىٰ عن ظلم العباد أيضًا)** في آي كثيرة وأخبار صحيحة **(فمتىٰ تعلَّق به حق الله تعالىٰ تداركه بالندم والتحسُّر وترك مثله في المستقبل)** وبه تمَّت أركان التوبة، وقد أشار إلىٰ كمالها فقال: **(والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها)** أي المعاصي **(فيقابل إيذاء**

الناس) أي إن كان آذاهم (بالإحسان إليهم، ويكفِّر غصب أموالهم بالتصدُّق) علىٰ الفقراء (بمِلكه الحلال، ويكفر تناوُل أعراضهم بالغِيبة والقدح فيهم بالثناء علىٰ أهل الدين) والصلاح (وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله) وبث ذلك بين الناس (ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب؛ لأن ذلك إحياء؛ إذ العبد مفقود لنفسه، موجود لسيده، فالإعتاق إيجاد) أي بمنزلته (لا يقدر الإنسان علىٰ أكثر منه) إذ ليس في وسعه الإيجاد الحقيقي، فجُعل الإعتاق قائمًا مقامه رحمةً من الله علىٰ عباده ومنَّةً منه عليهم (فيقابل الإعدام) الذي هو قتل النفس (بالإيجاد) الذي هو عتق الرقبة (وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادَّة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة) وهذا من الأسرار الإلهية التي لا يدركها إلا خواص البشر (ثم إذا فعل ذلك كلَّه لم يُنْجِه ولم يَكْفِه ما لم يخرج عن مظالم العباد، ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب، أعني به الإيذاء المحض. أما النفوس، فإن جرىٰ عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية) وهي المال الذي هو بدل النفس (ووصولها إلىٰ المستحق إما منه أو من عاقلته، وهو في عهدة ذلك قبل الوصول) والخطأ[1] قتل بمباشرة وهو أن يرمي شخصًا يظنه صيدًا [فإذا هو آدمي] أو حربيًّا فإذا هو مسلم، فهذا خطأ في القصد. أو يرمي غرضًا فيصيب آدميًّا، فهذا خطأ في الفعل، ويلحق به ما يجري مجراه، كأن يكون في حالة النوم فانقلب علىٰ إنسان فقتله. والدية اثنا عشر ألفًا عند مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: عشرة آلاف، وعنده دية المسلم والذمي سواء. وقال مالك: دية الذمي ستة آلاف درهم. وقال الشافعي: دية الكتابي أربعة آلاف، ودية المجوسي ثمانمائة. ودية المرأة نصف دية الرجل عند الكل (وإن كان عمدا موجبا للقصاص) بأن كان بسلاح ومُشابِهه في تفريق الأجزاء، وإلا فهو شِبه العمد، قال الشافعي: هو أن

(١) البناية شرح الهداية للعيني ١٣/ ٦٢ - ٧٤، ١٦٩ - ١٧٢. الاختيار لتعليل المختار لابن مودود الموصلي ٥/ ٢٢ - ٣٦ (ط - دار الكتب العلمية). تحفة الفقهاء للسمرقندي ٣/ ٩٩ - ١٠٦. المبسوط للسرخسي ٢٦/ ٥٨ وما بعدها.

يتعمَّد الضرب بآلة لا يقتل مثلها غالبًا كالعصا والسوط والحجر الصغير، ووافقه أبو يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة: شِبه العمد أن يتعمَّد الضرب بما لا يفرِّق الأجزاء كالعصا والحجر واليد، ولهذا لو ضربه بحجر عظيم أو خشبة [عظيمة] فهو عمد عندهم، خلافًا له. ولو ضربه بسوط صغير ووالَىٰ في الضربات حتىٰ مات فهو عمد يقتصُّ به عند الشافعي، خلافًا لنا (**فبالقصاص**) فتوبته بأن يُقتصَّ منه، قال الله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىٰ﴾ الآية [البقرة: ١٧٨] وللشافعيٰ في موجِب العمد قولان، أحدهما: القصاص إلا إذا عفا الولي فله أن يختار أخذ الدية بغير رضا القاتل؛ لأن أخذ المال تعيَّن سببًا لدفع الهلاك، فيجوز بدون رضاه، كمَن أصابته مَخمصة فبذل له إنسان طعامًا بثمن المثل لزمه الشراء؛ لأنه يملك ما يحيي به نفسه بعوض يعدله. والثاني: القصاص أو الدية، ويتعيَّن ذلك باختيار الولي. وقال أبو حنيفة: موجِب العمد القَوَد، وهو واجب عينًا، وليس للولي أخذ الدية إلا برضا القاتل، إلا أن يعفو الأولياء؛ إذ وجوب المال عند المصالحة برضا القاتل في ماله، فيجب بدل الصلح قليلاً أو كثيرًا في ماله علىٰ ما اصطلحوا عليه من تعجيل أو تأجيل أو تنجيم، وإن لم يذكروا شيئًا كان المال حالاً كسائر المعاوضات عند الاصطلاح أو صلح بعضهم أو عفوه، فتجب بقية الدية علىٰ العاقلة (**فإن لم يُعرَف**) بالقتل (**فيجب عليه أن يعترف**) به (**عند وليِّ الدم ويحكِّمه في روحه، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله، ولا تسقط عهدتُه إلا بهذا، ولا يجوز له الإخفاء**) ومتىٰ أخفىٰ كان آثمًا غير إثم القتل (**وليس هذا كما لو زنىٰ**) بامرأة (**أو شرب**) خمرًا (**أو سرق**) شيئًا ذا قيمة (**أو قطع الطريق**) علىٰ المسلمين (**أو باشر ما يجب عليه فيه حدٌّ لله تعالىٰ، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه**) بين الناس (**ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالىٰ**) منه (**بل عليه أن يستتر بستر الله تعالىٰ، ويقيم حد الله علىٰ نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب**) مع الندم وهو التأسُّف (**فعفو الله في محض حق الله تعالىٰ قريب من التائبين النادمين**[1]) فإنَّ مَن تاب إلىٰ الله تعالىٰ

---

(١) في غير الزبيدي: فالعفو في محض حقوق الله قريب من التائبين النادمين.

ونزع عمَّا صدر منه يُرجَىٰ أن يُعفَىٰ عنه (فإن رُفع أمره إلىٰ الوالي حتىٰ أقام عليه الحد وقع موقعه، وتكون توبته صحيحه مقبولة عند الله تعالىٰ، بدليل ما رُوي أن ماعز بن مالك) الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال ابن حبان[1]: له صحبة (أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهِّرني) أي بإقامة الحد (فردَّه، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت. فردَّه الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به فحُفرت له حفرة، ثم أمر به فرُجم، فكان الناس فيه فِرقتين، فقائل يقول: لقد هلك، ولقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أصدق) وفي نسخة: أفضل (من توبته. فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قُسمت بين) وفي نسخة: علىٰ (أمَّة لوسعتْهم) قال العراقي[2]: رواه مسلم[3] من حديث بريدة بن الحصيب. انتهىٰ.

قلت: لفظ مسلم من حديث بريدة قال: جاء ماعز بن مالك إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، طهِّرْني. فقال: «ويحك! ارجع فاستغفِر الله وتُبْ إليه». فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله، طهِّرْني. فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتىٰ إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «مِمَّ أطهِّرك»؟ فقال: من الزنا. فقال رسول الله ﷺ: «أبه جنونٌ»؟ فأُخبِر أنه ليس بمجنون، فقال: «أشربَ خمرًا»؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أزنيت»؟ فقال: نعم. فأمر به فرُجم، فكان الناس فيه فِرقتين، قائل يقول: لقد [هلك، لقد] أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فوضع يده في يده ثم قال: اقتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلَّم ثم جلس فقال: «استغفِروا لماعز بن

(١) الثقات ٣/ ٤٠٤.

(٢) المغني ٢/ ١٠٠٠.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨١٠ - ٨١١.

مالك». فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبةً لو قُسمت بين أمَّة لوسعتْهم».

وأخرجه أبو داود[١] مختصرًا.

ولمسلم أيضًا من حديث بريدة: أن ماعز بن مالك الأسلمي أتىٰ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهِّرني. فردَّه، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت. فردَّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلىٰ قومه فقال: «تعلمون بعقله بأسًا؟ تنكرون منه شيئًا»؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفيَّ العقل، من صالحينا، فيما نرىٰ. فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله. فلما كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به فرُجم.

وهذا السياق متصل بحديث الغامدية الآتي ذِكره، والمصنِّف جمع بين البابين لمَّا وجدهما من رواية صحابي واحد.

وروىٰ أبو داود[٢] والنسائي[٣] عن عبد الرحمن بن الصامت أنه سمع أبا هريرة يقول: جاء الأسلمي نبيَّ الله ﷺ، فشهد علىٰ نفسه أنه أصاب امرأة حرامًا أربع مرات، كل ذلك يُعرِض عنه، فأقبل في الخامسة فقال: «أنكتَها»؟ هذا لفظ أبي داود، ولفظ النسائي: أنكحتها؟ ثم اتفقا فقالا: قال نعم. قال: [حتىٰ غاب ذلك منك في ذلك منها؟ قال: نعم. قال]: «كما يغيب المِرْوَد في المُكْحُلة والرِّشاء في البئر»؟ قال: نعم. قال: «فهل تدري ما الزنا»؟ قال: نعم، أتيتُ منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «فما تريد بهذا القول»؟ قال: أريد أن تطهِّرني. فأمر به

---

(١) سنن أبي داود ٥/ ٩٩.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٩٧.

(٣) السنن الكبرىٰ ٦/ ٤١٥ - ٤١٧، ٤٣٣ - ٤٣٤.

فرُجم، فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلىٰ هذا الذي ستر الله عليه فلم تَدَعْه نفسُه حتىٰ رُجِمَ رَجْمَ الكلبِ. فسكت عنهما، ثم سار ساعةً حتىٰ مر بجيفة حمار شائل برجله، فقال: «أين فلان وفلان»؟ فقالا: نحن ذانِ يا رسول الله. قال: «انزِلا فكُلا من جيفة هذا الحمار». قالا: يا نبي الله، مَن يأكل من هذا؟ قال: «فما نِلتما من عِرض أخيكما آنفًا أشد من أكلكما منه، والذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة ينغمس فيها». وقد تقدم هذا الحديث في كتاب ذم الغيبة.

وروىٰ الترمذي[١] - وقال: حسن غريب [صحيح] - من حديث علقمة بن وائل عن أبيه بلفظ: «لقد تاب توبةً لو تابها أهل المدينة لقُبل منهم».

وروىٰ الطبراني في الكبير[٢] من حديث ابن عباس بلفظ: «لقد تاب توبةً لو تابها صاحب مكس لقُبلت منه». يعني ماعزًا.

وقال الحافظ في الإصابة[٣] في ترجمة ماعز: ثبت ذِكرُه في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد وغيرهما، وجاء ذِكرُه في حديث أبي بكر الصدِّيق وأبي ذر وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وبريدة بن الحصيب وابن عباس ونعيم بن هزال وأبي سعيد الخدري ونصر الأسلمي وأبي بَرْزة، سمَّاه بعضهم، وأبهمه بعضهم. وفي بعض طرقه أن النبي ﷺ قال: «لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمَّتي لأجزأت عنهم». وفي صحيح أبي عوانة[٤] وابن حبان[٥] وغيرهما من طريق أبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ لمَّا رجم ماعز بن مالك قال: «لقد رأيته يتخضخض في أنهار الجنة». ويقال: إن اسمه عريب و«ماعز» لقب. انتهىٰ.

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) المعجم الكبير ١١/ ٣٩٦.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٩/ ٣١.

(٤) المستخرج علىٰ صحيح مسلم لأبي عوانة ٤/ ١٢٦.

(٥) صحيح ابن حبان ١٠/ ٢٤٨، ٢٥٢.

ثم قال مسلم عقيب حديث ماعز قال: (**وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت، فطهِّرْني. فردَّها، فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله، لِمَ تردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزًا، فوالله إني لَحبلىٰ. قال: أَمَّا لا**) هكذا في نسخ مسلم، وهو بفتح الهمزة وتشديد الميم، بعدها «لا» نافية، وفيه لغات ذكرتُها في آخر شرح القاموس[1]، ولغة النبي ﷺ بالإمالة فيه «أمَّا لي». ويوجد في سائر نسخ الكتاب: «الآن»، وهو غلط (**فاذهبي حتىٰ تلدي. فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته. قال: «اذهبي فأرضعيه حتىٰ تفطميه». فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كِسرة خبز، فقالت: يا نبي الله، قد فطمته، وقد أكل الطعام. فدُفع الصبي إلىٰ رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحُفرت لها**) حفرة (**إلىٰ صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل**) وفي لفظ: فيُقبِل. وهكذا هو في مسلم (**خالد بن الوليد**) رضي الله عنه (**بحجر فرمىٰ رأسها فتنضح**) أي ترشش (**الدم علىٰ وجهه فسبَّها، فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال: مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْس لغُفر له. ثم أمر بها فصَلَّي عليها ودُفنت**) قال العراقي[2]: رواه مسلم من حديث بريدة، وهو بعض الحديث الذي قبله. انتهىٰ.

قلت: ولم يُخرِج البخاري عن بريدة في هذا شيئًا، ولا ذكر حديث هذه المرأة، وإنما ذكر حديث المرأة والعسيف. ورواه أبو داود[3] والنسائي[4] مختصرًا من رواية عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن امرأة – يعني من غامد[5] – أتت النبيَّ ﷺ فقالت: إني قد فجرت. فقال: «ارجعي». فرجعت، فلما

(١) تاج العروس ٤٠/ ٥٠٣ – ٥٠٥، وفيه أن الهمزة مكسورة.

(٢) المغني ٢/ ١٠٠٠.

(٣) سنن أبي داود ٥/ ١٠٢.

(٤) السنن الكبرىٰ ٦/ ٤٢٦، ٤٣١ – ٤٣٢، ٤٦٠.

(٥) غامد: بطن من الأزد، من القحطانية، وهم بنو غامد (واسمه عمرو) بن عبد الله، قدم منهم وفد علىٰ النبي ﷺ سنة عشر، وكانوا عشرة، فأقروا بالإسلام، وكتب لهم كتابا فيه شرائع الإسلام، =

كان الغد أتته فقالت: لعلك [تريد] أن تردِّدني كما ردَّدت ماعز بن مالك، فواللهِ إني لَحبلىٰ. فقال لها: «ارجعي حتىٰ تلدي». فرجعت، فلما كان الغد أتته، فقال لها: «ارجعي حتىٰ تلدي»، فرجعت، فلما ولدت أتته بالصبي فقالت: قد ولدت. فقال لها: «ارجعي فأرضعيه حتىٰ تفطميه». فجاءت به وقد فطمته وفي يده شيء يأكله، فأمر بالصبي فدُفع إلىٰ رجل من المسلمين، وأمر بها فحُفر لها [وأمر بها] فرُجمت، وكان خالد فيمن يرجمها، فرجمها بحجر، فوقعت قطرة من دمها علىٰ وجهه فسبَّها، فقال له النبي صلىٰ عليه وسلم: «مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْس لغُفر له». وأمر بها فصَلَّي عليها ودُفنت. وكذلك رواه أحمد(١).

وحديث مسلم أتم من هذا يشتمل علىٰ قصة ماعز وقصة الغامدية، قال المنذري في مختصر أبي داود(٢): في إسناده بشير بن المهاجر الغَنوي الكوفي، وليس له في صحيح مسلم سوىٰ هذا الحديث، وقد وثَّقه يحيىٰ بن معين، وقال أحمد: منكر الحديث، يجيء بالعجائب، مرجئ، متهم. وقال في أحاديث ماعز كلها: إن ترديده إنما كان في مجلس واحد إلا ذاك الشيخ بشير بن المهاجر. وقال أبو حاتم الرازي: يُكتَب حديثه [ولا يُحتَجُّ به(٣). وغمزه] غيرهما. ولا عيب علىٰ مسلم في إخراج هذا الحديث، فإنه أتىٰ به في الطبقة الثانية بعدما ساق طرق حديث ماعز، وأتىٰ به آخرًا ليبيِّن اطِّلاعه علىٰ طرق الحديث. والله أعلم.

= وأمر أبي ابن كعب أن يعلمهم القرآن. من بلادهم: دوقة، بأرض اليمن. معجم قبائل العرب ٣/ ٨٧٦.

(١) مسند أحمد ٣٨/ ٣٧ - ٣٨.

(٢) مختصر سنن أبي داود ٦/ ٢٥٥ - ٢٥٦ (ط - دار المعرفة).

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٣٧٨ - ٣٧٩.

وروىٰ مسلم[١] وأبو داود[٢] والترمذي[٣] والنسائي[٤] من حديث عمران بن حصين أن امرأة من جُهَينة أتت النبيَّ ﷺ فقالت إنها زنت، وهي حبلىٰ، فدعا النبي ﷺ وليًّا لها فقال له رسول الله ﷺ: «أحسِنْ إليها، فإذا وضعت فجئني بها». فلما وضعت جاء بها، فأمر بها النبي ﷺ فشُكَّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرُجمت، ثم أمرهم فصلوا عليها، فقال عمر: يا رسول الله، نصلي عليها وقد زنت؟! قال: «والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدتَ توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله»؟ لم يقل أبو داود عن أبان: فشُكَّت عليها ثيابها. وحكىٰ أبو داود عن الأوزاعي قال: فشُكَّت عليها ثيابها، يعني فشُدَّت. ورواه كذلك أحمد[٥] وابن جرير.

وذكر الحافظ أبو بكر الخطيب في كتاب المبهمات[٦] حديث الغامدية وقال: رواه عمران بن حصين وقال: امرأة من جهينة، واسم هذه المرأة سبيعة، وقيل: آسية بنت الفرج. وساق شاهدها، وقد جاء في بعض طرقه بأنها القرشية، وليس بين هذه النِّسَب اجتماع، وظاهر كلام الخطيب أنها امرأة واحدة واختُلف في نسبها. هكذا نقله المنذري عن الخطيب.

قلت: آسية[٧] بنت الفرج جُرْهمية، أورد ابن منده قصتها من طريق أيوب [بن محمد الوَزَّان عن يعلىٰ بن الأشدق عن عبد الله بن جراد قال: جاءت آسية] بنت

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٨١١.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ١٠١ - ١٠٢.

(٣) سنن الترمذي ٣/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٤) سنن النسائي ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٥) مسند أحمد ٣٣/ ٩٣، ١٣٦، ١٥٢، ١٧٣.

(٦) الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة ١٢/ ١٠٣، ٢٩٦ - ٢٩٨.

الفرج امرأة من جُرْهم، وكان مسكنها الحَجُون بمكة ... فذكرها بطولها[١]. وقيل: هي سُبَيعة بنت الحارث الأسلمية، وقيل: هي امرأة من قريش، وهي غير الأسلمية، أوردها هبة الله في الناسخ والمنسوخ[٢]. وروى ابن منده[٣] من رواية عبيد بن عمير عن عائشة قالت: سمعتُ سُبَيعة القرشية قالت: يا رسول الله، إني زنيت، فأقِم عليَّ حدَّ الله. فقال: «اذهبي حتى تضعي ...» فذكر الحديث. قال الحافظ في الإصابة: سنده ضعيف، وأخلِقْ بها إن ثبت خبرها أن تكون هي سبيعة الأسلمية. انتهى.

قال المنذري: وذكر بعضهم[٤] أن حديث عمران بن حصين فيه أنه قد أمر برجمها حين وضعت ولم يستأنِ بها، وكذا رُوي عن علي أنه فعل بشراحة، رجمها لما وضعت، وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأصحاب الرأي، وقال أحمد وإسحاق: تُترَك حتى تضع ما في بطنها، ثم تُترَك حولين حتى تفطمه. ويشبه أن يكونا ذهبا إلى حديث بريدة، وحديث عمران أجود إسنادًا. وقال بعضهم[٥]: يحتمل أن تكونا امرأتين إحداهما وُجد لولدها كفيل وقبلها، والأخرى لم يوجد لولدها كفيل أو لم يقبل، فوجب إمهالها حتى يستغني عنها لئلا يهلك بهلاكها، ويكون الحديث محمولاً على حالتين، ويرتفع الخلاف. والله أعلم.

(وأما القصاص وحد القذف فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه) فإن شاء اقتصَّ وإن شاء عفا، وكذا في حد القذف **(وإن كان المتناوَل مالاً قد تناوله بغصب)** بأن استولى عليه عدوانًا **(أو خيانة)** بأن كان أمانة عنده ففرَّط فيه **(أو غبن في معاملة بنوع تلبيس)** أي تخليط **(كترويج زائفٍ)** أي المبهرج الرديء، وترويجه:

---

(١) ورواها أيضا أبو نعيم في معرفة الصحابة ٦/ ٣٢٦٧.

(٢) الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة المقري ص ١٧٦ - ١٧٨ (ط - المكتب الإسلامي) حيث ذكر أنه نزل في شأنها قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾.

(٣) وكذلك أبو نعيم في معرفة الصحابة ٦/ ٣٣٥٠، والخطيب في الأسماء المبهمة ص ٣٦١.

(٤) هو الخطابي في معالم السنن ٣/ ٣٢٢.

(٥) هو ابن العربي في عارضة الأحوذي ٦/ ٢١٣.

تزيينه وتمشيته (**أو ستر عيب من المَبيع**) سواء كان العيب خفيًّا أو ظاهرًا (**أو نقص أجرة أجير**) استأجره بأن يعطيه أقل ممَّا يعطي أمثاله (**أو منع أجرته**) مطلقًا (**فكل ذلك يجب أن يفتِّش عنه**) ويبحث (**لا من حدِّ بلوغه، بل من أول مدة وجوده، فإنَّ ما يجب في مال الصبي يجب علىٰ الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الوليُّ قد قصَّر فيه**) فإن ادَّعىٰ الوليُّ أنه أخرج ما يجب عليه من ماله وظهرت القرائن بصدقه صُدِّق (**فإن لم يفعل كان ظالمًا مطالَبًا به**) يوم القيامة (**إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ. وليحاسب نفسه علىٰ الحبة والدانق**) أي القليل منه والأقل (**من أول يوم حياته إلىٰ يوم توبته قبل أن يحاسَب في القيامة**) بين يدي الله تعالىٰ (**وليناقِش قبل أن يناقَش، فمَن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإذا حصل مجموع ما عليه بظنٍّ غالب ونوعٍ من الاجتهاد ممكن فليكتبه**) في جريدة (**وليكتب أسامي أصحاب المظالم**) فيها (**واحدًا واحدًا، وليَطُفْ في نواحي العالَم**) وأطرافه (**وليطلبهم**) بأعيانهم (**وليستحلَّهم**) أي يطلب منهم أن يحلِّلوا له (**أو ليؤدِّ حقوقهم**) المرتَّبة بذمَّته، فإن لم يجدهم بأعيانهم فورثتهم الأقرب فالأقرب (**وهذه التوبة تشقُّ علىٰ الظلمة وعلىٰ التجار، فإنهم لا يقدرون علىٰ طلب المُعامِلين كلهم**) ولا المظلومين كلهم (**ولا علىٰ طلب ورثتهم**) في أقطار البلاد (**ولكن علىٰ كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه**) ويستطيعه (**فإن عجز**) عن ذلك (**فلا يبقىٰ له طريق إلا أن يُكثِر من الحسنات**) في صحائف أعماله (**حتىٰ تفيض عنه يوم القيامة فتؤخَذ حسناته**) تلك (**وتوضَع في موازين أرباب المظالم**) كما ورد في الخبر، وتقدم ذِكره (**ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تفِ بها حسناته حُمِّل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره**) كما هو في الخبر السابق ذِكره (**فهذه طريق كل تائب**) عن المظالم (**في ردِّ المظالم، و**) لا يخفَىٰ أن (**هذا يوجب استغراقَ العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم، فكيف وذلك ممَّا لا يُعرَف، وربما يكون الأجل قريبًا، فينبغي أن يكون تشمُّره للحسنات، والوقت ضيق أشد من تشمُّره الذي كان في المعاصي في متسَع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة**)

في ذمَّته) وفي عهدته (أما أمواله الحاضرة فليردَّ إلىٰ المالك ما يعرف له مالكًا معينًا، وما لا يعرف له مالكًا) معيَّنًا (فعليه أن يتصدَّق به) علىٰ مَن يستحق من الفقراء (فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدَّق بذلك القدر، كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام) فلا نعيده ثانيًا.

(وأما الجناية علىٰ القلوب بمشافهة الناس بما يسؤهم) أي يحزنهم (أو يعيبهم في الغِيبة، فليطلب كلَّ مَن تعرَّض له بلسانه أو آذىٰ قلبَه بفعل من أفعاله، وليستحلَّ واحدًا واحدًا منهم، ومن مات) منهم (أو غاب) غيبة طويلة (فقد فات أمرُه، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخَذ منه عوضًا في القيامة) عند المحاسبة (وأما مَن وجده وأحلَّه بطِيب قلب منه) وانشراح صدر (فذلك كفَّارته، وعليه أن يعرِّفه قدر جنايته وتعرُّضه له، فالاستحلال المبهم لا يكفي) كما تقدم بيانه في كتاب ذم الغيبة (وربما لو عرف ذلك وتعدِّيه عليه) وفي نسخة: وكثرة تعدِّيه عليه (لم تَطِبْ نفسُه بالإحلال وادَّخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمِّله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته علىٰ الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذَّىٰ بمعرفته، كزناه بجاريته أو) جارية (أهله أو نسبته باللسان إلىٰ عيب من خفايا عيوبه بحيث يعظُم أذاه مهما شوَّفه به فقد انسدَّ عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحلَّ منها) بلا تعيين جناية (ثم تبقىٰ له مَظلمة، فليجبرها بالحسنات كما يجبر مَظلمة الميت والغائب، فأما الذِّكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جناية وعرفها المجني عليه فلم تسمح نفسُه بالاستحلال بقيت المَظلمة عليه) في ذمَّته (فإنَّ هذا حقه، فعليه أن يتلطَّف به) في القول (ويسعىٰ في) قضاء (مهمَّاته وأغراضه) الدنيوية (ويُظهِر من حبِّه له والشفقة عليه ما يستميل به قلبَه، فإن الإنسان عبدُ الإحسان) كما هو المشهور علىٰ الألسنة، وفي معناه قولهم: الإنسان الإحسان، أي يتقيَّد عند الإحسان فيحب المحسنَ إليه بطبعه ويميل إليه بقلبه. وفي كلام علي رضي الله عنه: أحسِنْ إلىٰ مَن شئتَ تكن أميره. أي يكون هو بمنزلة الأسير لك، وأنت

بمنزلة الأمير عليه (وكل مَن نفرَ) عنك (بسيئة مال) إليك (بحسنة، فإذا طاب قلبُه بكثرة تودُّده وتلطُّفه سمحت نفسه بالإحلال) لا محالة (فإن أبىٰ إلا الإصرار) علىٰ عدم السماح (فيكون تلطُّفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودُّده وتلطُّفه كقدر سعيه في أذاه، حتىٰ إذا قاوم أحدهما الآخَر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضًا في القيامة بحكم الله به عليه) وهذا (كمَن أتلف في الدنيا مالاً) لآخر (فجاء) المتلِف (بمثله فامتنع مَن له المال عن القبول وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبىٰ) رضي أم كرهَ (وكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين) جلَّ جلاله (وفي المتفق عليه من الصحيحين) أي فيما اتفق علىٰ إخراجه البخاري[١] ومسلم[٢] (عن أبي سعيد الخدري) ﵁ (أن النبي ﷺ قال: كان فيمَن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض) أي أكثرهم علمًا (فدُلَّ علىٰ راهب، فأتاه فقال إنه) يعني نفسه (قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ قال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض) أي أكثرهم علمًا ليذهب إليه فيستفتيه عن حاله (فدُلَّ علىٰ رجل عالِم، فقال له إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة)؟ أي هل تصح توبته أو تُقبَل توبته؟ (قال: نعم، ومَن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلِقْ إلىٰ أرض كذا وكذا) وسمَّاها له (فإنَّ بها أناسًا يعبدون الله ﷿، فاعبد الله معهم، ولا تنطلق إلىٰ أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق، حتىٰ إذا نصف الطريق أتاه ملَك الموت) ولفظ مسلم: أتاه الموت (فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلىٰ الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه حكمًا بينهم) ولفظ مسلم: فجعلوه بينهم (فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيَّتهما كان أدنىٰ) أي أقرب (فهو له. فقاسوا فوجدوه أدنىٰ

(١) صحيح البخاري ٢/ ٤٩٧.
(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٦٨.

إلىٰ الأرض التي أراد، فقبضته) بها (**ملائكة الرحمة**) هذا لفظ مسلم. ورواه كذلك ابن حبان في صحيحه(١)، إلا أنه قال: «ومَن يحول بينك وبين التوبة؟ ائتِ أرض كذا وكذا». وفيه: «ولا ترجع إلىٰ أرضك». والباقي سواء (**وفي رواية**) لمسلم: «أن رجلاً قتل تسعة وتسعين نفسًا، فجعل يسأل: هل له من توبة؟ فأتىٰ راهبًا فسأله، فقال: ليست لك توبة. فقتل الراهب، ثم جعل يسأل، ثم خرج من قرية إلىٰ قرية فيها قوم صالحون، فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت، فناءَ بصدره، ثم مات، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب (**فكان إلىٰ القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فجُعل من أهلها**) ورواه البخاري نحوه (**وفي رواية**): «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا، ثم خرج يسأل، فأتىٰ راهبًا فسأله فقال: هل من توبة؟ قال: لا. فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائتِ قرية كذا وكذا. فأدركه الموت، فناءَ بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب (**فأوحىٰ الله إلىٰ هذه أن تباعدي وإلىٰ هذه أن تقرَّبي**) هكذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: «فأوحىٰ الله إلىٰ هذه أن تقرَّبي وإلىٰ هذه أن تباعدي» (**وقال: قيسوا ما بينهما. فوجدوه**) ولفظ الشيخين: فوجداه (**إلىٰ هذه أقرب بشبر فغُفر له.**

فبهذا يُعرَف أنه لا خلاص) هنالك (**إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمِثقال ذرَّة، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات.**

هذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

فأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدًا مؤكَّدًا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلىٰ تلك الذنوب) بعينها (**ولا إلىٰ أمثالها**) وعلامة صحته أن يحب أن يُقذَف في النار ولا يرجع فيما عنه خرج (**كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة**) الرطبة (**تضرُّه مثلاً**) إذا تناولها؛ لسرعة استحالتها في المعدة (**فيعزم عزمًا**

---

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٧٦، ٣٨٠.

جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يَزُل مرضه) المانع من صحة معدته (فإن هذا العزم يتأكَّد في الحال، وإن كان يُتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائبًا ما لم يتأكَّد عزمُه في الحال، ولا يُتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره) وفي نسخة: أول مرة (إلا بالعزلة) عن الناس (والصمت، وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوت حلال. فإن كان له مالٌ موروث حلال) أي ورثه من أحد موروثيه (أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكلُ الحرام، فكيف يكون تائبًا مع الإصرار عليه) أي علىٰ الحرام (ولا يكتفي بالحلال وتركِ الشبهات ما لم يقدر) وفي نسخة: مَن لم يقدر (علىٰ ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات) فإن التوسُّع فيها غالبًا يستدعي إلىٰ تناول ما لا يحل له، فإن الحلال ضيق (وقد قال بعضهم: مَن صدق في ترك شهوة وجاهد نفسَه لله سبع مرات لم يُبْتَلَ بها)[1] نقله صاحب القوت.

(وقال آخر: مَن تاب من ذنب واستقام عليه) وفي نسخة: وأقام عليه. أي علىٰ توبته من ذلك الذنب (سبع سنين لم يعُدْ إليه أبدًا) نقله صاحب القوت.

(ومن مهمَّات التائب إذا لم يكن عالمًا أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرُم عليه حتىٰ يمكنه الاستقامة) علىٰ التوبة (وإن لم يؤثِر العزلةَ لم تتمَّ له الاستقامة المطلقة، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب) فقط (كالذي يتوب عن الشرب) أي شرب المسكر (والزنا واللواط والغصب مثلاً) ولا يتوب عن غيرها (وليست هذه توبة مطلقة، وقد قال بعض الناس: إن هذه التوبة لا تصح) وهو[2] المحكيُّ عن

---

(١) أورده الثعالبي في الشكوىٰ والعتاب ص ١٤٤ (ط - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت) والزمخشري في ربيع الأبرار ٣/ ٤١٣ وابن حمدون في تذكرته ٩/ ٩٦ من كلام أبي سليمان الداراني بلفظ: «من صدق في ترك الشهوة كفي مؤونتها، الله أكرم من أن يعذب قلبه بها مرتين وقد تركها له».

(٢) طرح التثريب للعراقي ٨/ ٢٣٩. وعبارته: «قال القاضي عياض: ورُوي عن ابن المبارك أن من شرط التوبة الخروج عن مظالم العباد. قال: ولعله يشير إلىٰ كمالها وتمام أمرها، لا أنه لا =

المعتزلة، وإلىٰ هذا يشير قول ابن المبارك: إن من شرط التوبة الخروج عن مظالم العباد. فإن الظاهر أنه إن أراد الخروج عن مظالم العباد مطلقًا، وإن كان الصحيح خلافه أنه في ذلك الذنب الذي تاب منه (**وقال قائلون**): إنها (**تصح**) وهو المحكيُّ عن أهل السنَّة والجماعة (**ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمَن قال لا تصح**) عن ذنب دون ذنب (**إن عنيتَ به أنَّ تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك**) في هذا (**فإنَّا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب**) وفي نسخة: العذاب (**وقلَّتها سبب لقلَّته**) ولا تُتصور القلة والكثرة فيها إلا بسبب التوبة (**ونقول لمَن قال تصح**) التوبة من ذنب دون ذنب (**إن أردتَ به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلىٰ النجاة أو الفوز فهذا أيضًا خطأ، بل النجاة والفوز بترك الجميع. هذا حكم الظاهر**) المطابق للقواعد (**ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله تعالىٰ. فإن قال مَن ذهب إلىٰ أنها لا تصح: إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم**) إذ هو معظم أركانها (**وإنما يندم**) العبد (**علىٰ السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة، ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجُّعه لأجل المعصية، فإن العلة شاملة لهما**) أي لكلٍّ من السرقة والزنا (**إذ مَن يتوجَّع علىٰ قتل ولده بالسيف يتوجَّع علىٰ قتله بالسكين**) أو غيرها (**لأن توجُّعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين**) أو غيرهما (**فكذلك توجُّع العبد بفوات محبوبه، وذلك بالمعصية، سواء عصىٰ بالسرقة أو بالزنا، فكيف يتوجَّع علىٰ البعض دون البعض، فالندم حالة يوجبها العلمُ بكون المعصية مفوِّتة للمحبوب من حيث إنها معصية، فلا يُتصور أن يكون علىٰ بعض المعاصي دون بعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنينِ دون الآخَر، فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرينِ واحدة وإنما الدِّنان ظروف**) وآلات (**فكذلك**

= تصح في ذلك الذنب. قلت: ولعله لم يُرِد الخروج عن مظالم العباد مطلقا بل في ذلك الذنب الذي تاب منه، وبتقدير إرادته الخروج عنها مطلقا فهو مبني علىٰ قول من يرىٰ أنه لا تصح التوبة من بعض الذنوب دون بعض، وهو محكي عن المعتزلة، والصحيح خلافه».

أعيان المعاصي) كالقتل والزنا والسرقة (آلات للمعصية) وظروف لها (والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة. فإذًا معنىٰ [عدم][1] الصحة: أن الله وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تُنال إلا بالندم، ولا يُتصور الندم علىٰ بعض المتماثلات دون بعض، فهو كالمِلك المرتَّب علىٰ الإيجاب والقبول، فإنه إذا لم يتمَّ الإيجاب والقبول يقال: إن العقد لا يصح، أي لا تترتَّب عليه الثمرةُ وهو المِلك، ويحقِّق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقابُ ما تركه، وثمرة الندم تكفير ما سبق، فتركُ السرقة لا يكفر السرقة، بل الندم عليها يكفرها، ولا يُتصور الندم إلا لكونها معصية، وذلك يعمُّ جميع المعاصي) هذا تقرير كلام المانعين من الصحة وبيان علَّة المنع (وهذا الكلام مفهوم واقع يستنطق المنصفَ بتفصيل به ينكشف الغطاء) عن وجه الحق (فنقول: إن التوبة[2] عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن؛ لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته، والصغائر أقرب إلىٰ تطرُّق العفو إليها، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندَّم عليه، كالذي يجني علىٰ أهل الملك وحرمه ويجني علىٰ دابَّته، فيكون خائفًا من الجناية علىٰ الأهل، مستحقرًا للجناية علىٰ الدابَّة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعِدًا عن الله تعالىٰ، وهذا ممكن وجوده في الشرع، فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية) أي الماضية (ولم يكن واحد منهم معصومًا، فلا تستدعي التوبةُ العصمةَ، والطبيب قد يحذِّر المريض) تناول (العسل تحذيرًا شديدًا، ويحذره) تناوُل (السكر تحذيرًا أخف منه علىٰ وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر، فهذا غير محال وجوده، وإن أكلهما جميعًا بحكم الشهوة ندم علىٰ أكل العسل دون السكر.

---

(١) زيادة من الجميع.

(٢) في الجميع: فنقول: التوبة عن بعض ...إلخ.

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض، وهذا أيضًا ممكن؛ لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله) وهذا **(كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يُترَك، وما بينه وبين الله)** من الذنوب **(يتسارع العفو إليه)** كما ورد في الخبر السابق ذِكره **(فهذا أيضًا ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر؛ لأن الكبائر أيضًا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً؛ إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور)** كلها **(وأنه إذا)** شربها **(زال عقله)** وإذا زال عقله **(ارتكب جميع المعاصي)** كالزنا والقتل والسلب والنهب والاستطالة في العِرض **(وهو لا يدري)** أخرج[1] ابن أبي حاتم[2] عن ابن عمرو أنه سُئل عن الخمر، فقال: سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «هي أكبر الكبائر وأم الفواحش، مَن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع علىٰ أمه وخالته وعمَّته».

وأخرج عبد بن حميد ورُسْته في كتاب الإيمان عن شعبة مولىٰ ابن عباس عن ابن عباس رفعه: «إذا شرب الخمر سكرَ وزنىٰ وترك الصلاة».

وأخرج ابن المنذر[3] عن سالم بن عبد الله التَّمَّار عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: تحدَّثوا عند رسول الله ﷺ أن ملكًا من بني إسرائيل أخذ رجلاً، فخيَّره أن يشرب الخمر أو يقتل نفسًا أو يزني أو يأكل لحم خنزير أو يقتله إن أبىٰ، فاختار شرب الخمر، وإنه لمَّا شربها لم يمتنع عن شيء أراده منه ... الحديث.

(فبحسب ترجُّح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوفٌ يوجب ذلك تركًا في المستقبل وندمًا علىٰ الماضي.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٣، ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) وكذلك الطبراني في المعجم الكبير ١٤/ ١١٧.

(٣) تفسير ابن المنذر ص ٦٦٨، والحديث عند الحاكم في المستدرك ٤/ ١٤٧، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم.

الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصرٌّ علىٰ كبيرة يعلم أنها كبيرة، كالذي يتوب عن الغِيبة أو عن النظر إلىٰ غير المحرَّم أو ما يجري مجراه) من الصغائر (وهو مصرٌّ علىٰ شرب الخمر، فهو أيضًا ممكن، ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم علىٰ فعله ندمًا إما ضعيفًا وإما قويًّا، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوىٰ من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة) والغِرة بالله تعالىٰ (وأسباب توجب قوةَ الشهوة) من السعة والفراغ وتمكُّن القوة (فيكون الندم موجودًا، ولكن لا يكون مليًّا) أي قادرًا (بتحريك العزم ولا قويًّا عليه، فإن سَلِمَ من شهوة) هي (أقوىٰ منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوفُ الشهوةَ وغلبها) وكسر شهوتها (وأوجب ذلك ترك المعصية، وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر) أي لهجه وولعه بها (فلا يقدر أن يصبر عنه) أي عن شربها (وتكون له ضراوة ما بالغِيبة وثلب الناس) في الأعراض (والنظر إلىٰ غير المحرَّم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغًا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية، فيوجب عليه جندُ الخوف انبعاثَ العزم للترك، بل يقول هذا الفاسق في نفسه: إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلِّية، بل أجاهده في بعض المعاصي فعساني أغلبه، فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي. ولو لم يُتصور هذا لَما تُصوِّر من الفاسق أن يصلي ويصوم، ولقيل له: إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح) أصلاً (وإن كانت لله فاترك الفسق لله، فإن الأمر لله واحد) وفي نسخة: فإنَّ أمر الله فيه واحد (فلا يُتصور أن تقصد بصلاتك التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ ما لم تتقرَّب إليه بترك الفسق، وهذا مُحال، بل يقول) الفاسق: (لله تعالىٰ عليَّ أمران، ولي علىٰ المخالفة فيهما عقوبتان، وأنا مليء) أي قادر (في أحدهما بقهر الشيطان، عاجز عنه في) الأمر (الآخَر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي) وغلبتها عليَّ (فكيف لا يُتصور هذا وهو حال كل مسلم؛ إذ لا مسلم إلا

وهو جامع بين طاعة الله تعالىٰ ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا، وإذا فُهم هذا فُهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماضٍ أورث الندمَ، والندم يورث العزم، وقد قال النبي ﷺ: الندم توبة) قد تقدم ذِكره قريبا (ولم يشترط الندم علىٰ كل ذنب) بل هو مطلق (وقال) ﷺ: (التائب من الذنب كمَن لا ذنب له) تقدم ذِكره قريبًا (ولم يقل: التائب من الذنوب كلها، وبهذه المعاني يتبيَّن سقوط قول القائل: إن التوبة عن بعض الدناءات غير ممكنة؛ لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرُّض لسخط الله تعالىٰ. نعم، يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوُتهما في اقتضاء السخط) وعدم تماثُلهما (ويتوب عن الكثير دون القليل؛ لأن لكثرة الذنوب تأثيرًا في كثرة العقوبة فيساعد العقوبة بالشهوة) وفي نسخة: فيساعد الشهوة (بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالىٰ، كالمريض الذي حذَّره الطبيب) تناول (الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله، بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفًا لِما بقي عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تُصوِّر اختلاف حاله في الخوف والندم، فيُتصور اختلاف حاله في الترك، فندمه علىٰ ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه علىٰ الترك يُلحِقه بمَن لم يذنب) أصلاً (وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي.

فإن قلت: هل تصح توبة العِنِّين من الزنا الذي قارفه) أي ارتكبه (قبل طرآن العنَّة)؟ قال في المصباح[1]: رجل عِنِّين: لا يقدر علىٰ إتيان النساء أو لا يشتهي النساء، وامرأة عِنِّينة: لا تشتهي الرجالَ، والفقهاء يقولون: به عُنَّة، وفي كلام الجوهري ما يشبهه، ولم أجده لغيره، ولفظه[2]: عُنِّنَ عن امرأته تعنينًا، بالبناء للمفعول: إذا حكم

---

(١) المصباح المنير ص ٤٣٣.

(٢) الصحاح ٦/ ٢١٦٦.

القاضي عليه بذلك أو مُنع عنها بالسحر، والاسم منه: العُنَّة. وصرَّح بعضهم[١] بأنه لا يقال عِنِّين به عنة كما يقوله الفقهاء، فإنه كلام ساقط. قال: والمشهور في هذا المعنىٰ - كما قال ثعلب وغيره -: رجل عِنِّين: بيِّن التعنين والعِنِّينة. وقال في البارع: بيِّن العَنانة، بالفتح. قال الأزهري[٢]: سُمِّي عِنِّينًا؛ لأن ذكره يعنُّ لقُبُل المرأة عن يمين وشمال. أي يُعرِض إذا أراد إيلاجه، وسُمِّي عِنان اللجام من ذلك. والعُنَّة بالضم: حظيرة من خشب تُعمَل للإبل والخيل. هذا ما وجدته [في الكتب] فقول الفقهاء «لو عُنَّ عن امرأة دون أخرىٰ»[٣] مخرَّج علىٰ المعنىٰ الثاني دون الأول، أي لو لم يشتهِ امرأة واشتهىٰ غيرَها (**فأقول: لا**) تصح توبته (**لأن التوبة**) كما تقدم (**عبارة عن ندم يبعث العزمَ علىٰ الترك**) أي ترك الذنب (**فيما يقدر علىٰ فعله**) إن كان مقدورًا عليه (**وما لا يقدر علىٰ فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكني أقول: إذا طرأ عليه بعد العُنَّة كشفٌ ومعرفة تحقَّق به ضررُ الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسُّر وندم بحيث لو**) فرضنا إن (**كانت شهوة الوقاع**) أي الجماع (**به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها**) وتحثُّه علىٰ تركها (**فإني أرجو أن يكون ذلك مكفِّرًا لذنبه**) الماضي (**وماحيًا عنه سيئته**) التي سلفت، وهذا اختيار المصنف رحمه الله تعالىٰ (**إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طرآن العنَّة**) عليه (**ومات عقيب التوبة كان من التائبين**) وهو ظاهر (**وإن لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسَّر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغًا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فإذًا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العِنِّين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإنَّ كل مَن لا يشتهي شيئًا يقدِّر نفسه قادرًا علىٰ**

---

(١) هو أبو حيان التوحيدي، ونصه في البصائر والذخائر ١/ ٢٣: «تقول: عنين: بين التعنين، واجتنب قول الفقهاء: بين العنة، فإنه كلام مرذول، وقد مرنوا علىٰ فنون من الخطأ لسوء عنايتهم بلغة نبيهم عليه الصلاة والسلام».

(٢) تهذيب اللغة ١/ ١١١.

(٣) هذه عبارة الغزالي في الوسيط ٥/ ١٧٨، وتمامها: ثبت الخيار.

تركه بأدنىٰ خوف، والله مطَّلع علىٰ ضميره وعلىٰ مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله) منه (والحقيقة في هذا كله ترجع إلىٰ أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين، أحدهما: حرقة الندم، والآخر: شدة المجاهدة بالترك في المستقبل) أي فيما سيأتي من الزمان (وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن ليس محالاً أن يقوىٰ الندمُ بحيث يقوَىٰ علىٰ محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تُقبَل ما لم يعِش التائب بعد التوبة مدةً يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك ممَّا لا يدل ظاهر الشرع علىٰ اشتراطه أصلاً.

فإن قلتَ: إذا فرضنا تائبِين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلىٰ الذنب) أي ترك الذنب وانكمش في الاستبدال[1] فلم تكن نفسه تنازعه ولا تطالبه في الذنب (والآخَر بقي في نفسه نزوعٌ إليه) أي ترك ذنبًا وعمل في الاستقامة ونفسه تنازعه إليه (وهو ينازعها ويمنعها، فأيُّهما أفضل؟ فاعلمْ أن هذا ممَّا اختلف العلماء فيه، فقال) الشاميون منهم أبو[2] الحسن (أحمد بن أبي الحواري) الدمشقي، من كبار المشايخ، صحب أبا سليمان الداراني، وكان الجنيد يقول: هو ريحانة الشام. مات سنة ثلاثين ومائتين (وأصحاب أبي سليمان الداراني) رحمه الله (إن المجاهد أفضل؛ لأن له مع التوبة فضل الجهاد) أي الذي تنازعه نفسه إلىٰ الذنب وهو يجاهدها أفضل؛ لأنه غلب منازعتها، وله فضل مجاهدتها (وقال علماء البصرة: ذلك الآخَر) أي الذي سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة (أفضل) ومال إلىٰ ذلك رياح بن عمرو القيسي، وهو من كبار علماء البصريين، قال: (لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلىٰ السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور[3] عن المجاهدة) أي فلا يؤمَن عليه الرجوع. وقد نقل صاحب

---

(١) في القوت: في الإصلاح.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٧٢.

(٣) في ب، وط المنهاج ٧/ ١٤٠: القصور.

القوت القولين، وكأنه مال إلىٰ قول البصريين، ولكن المصنف رحمه الله تعالىٰ توسَّط بين المذهبين وقال: (**وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة، والحق فيه**) ما نذكره وهو (**أن الذي انقطع نزوع نفسه**) وسكت (**له حالتان، إحداهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها**) أي إلىٰ المعاصي. وفي نسخة: إليه. أي إلىٰ الذنب (**بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا؛ إذ تركُه بالمجاهدة قد دلَّ علىٰ قوة يقينه واستيلاء**) أي غلبة (**دينه علىٰ شهوته، فهو دليل**) قوي (**قاطع علىٰ قوة اليقين وعلىٰ قوة الدين، وأعني بقوة الدين: قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين. فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعًا**) والسلامة مطلوبة من المكلَّفين بالمجاهدة لا بعدم القُوَىٰ والغرائز (و) أما (**قول القائل**) من البصريين: (**إن هذا أسلمُ؛ إذ لو فتر لا يعود إلىٰ الذنب. فهذا صحيح، ولكن استعمال لفظ «الأفضل» فيه خطأ**) إذ لا يلزم من صحته أن يكون الأفضل (**وهو كقول القائل: العِنِّين أفضل من الشهواني؛ لأنه في أمن من خطر الشهوة**) لا تتحرك عليه شهوته فلا تحمله علىٰ ارتكاب مخالفة (**والصبي أفضل من البالغ؛ لأنه أسلمُ**) إذ لم يكتب عليه القلم (**والمفلس**) أي عادم المال أفضل (**من الملك القاهر القامع لأعدائه؛ لأن المفلس لا عدو له**) إذ لا مال له، والعداوات إنما تنشأ بسبب الأموال غالبًا (**والملك ربما يُغلَب عليه مرةً وإن غلب**) علىٰ عدوِّه (**مرات، وهذا كلام رجل سليم القلب، قاصر النظر علىٰ الظواهر، غير عالم بأن العز في ركوب الأخطار، وأن العلو**) في المرتبة (**شرطه اقتحام الأغوار[1]**) من البراري والقِفار، ومن أمثالهم: ما اشتار العسل مَن اختار الكسل[2] (**بل هو كقول القائل: الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلىٰ رتبةً من صاحب الكلب والفرس؛ لأنه آمِن من أن يجمح به فرسه فتنكسر**

(١) في ط المنهاج ٧/ ١٤٠: الأغرار.

(٢) من كلام الحريري في المقامة الساسانية من مقاماته ص ٤٣٧، واشتار يعني: جناه وأخذه. كما في اللسان مادة «شور».

أعضاؤه عند السقوط على الأرض، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه، وهذا خطأ، بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويًّا عالمًا بطريق تأديبهما) ورياضتهما على الوجه الذي ينبغي (أعلى رتبةً وأحرى بدرك سعادة الصيد) التي هي غاية القصد له.

(الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة؛ إذ تبلغ مبلغًا) وفي نسخة: إذ بلغ مبلغًا (قمع هيجان الشهوة حتى تأدَّبت بآداب الشرع، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين، وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها، فهذا أعلى رتبةً من المجاهد المُقاسي لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد، قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد، فإن الجهاد ليس مقصودًا لعينه بل) لتهذيب الأخلاق ورياضتها، كما أنه ليس المقصود من ضرب الدابة ألمها، بل المقصود أدبها، ولهذا قال المصنف: إن (المقصود) من الجهاد (قطع ضرر العدو حتى لا يستجرَّك إلى شهواته، وإن عجز عن استجرارك) للشهوات (فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرتَه وحصَّلتَ المقصودَ فقد ظفرت، وما دمت في المجاهدة فأنت بعدُ في طلب الظفر، ومثاله كمثال مَن قهر العدو واسترقَّه) أي أسره فجعله رقيقًا له (بالإضافة إلى مَن هو مشغول بالجهاد في صف القتال، ولا يدري كيف يَسلم، ومثاله أيضًا مثال مَن علَّم كلب الصيد) ودرَّبه على أخذ الصيد (وراضَ الفرسَ) وأدَّبه (فهما قائمان) وفي نسخة: ثابتان (عنده بعد ترك الكلب الضراوة) بلحم الصيد (والفرس الجماح) عند الركض (بالإضافة إلى مَن هو مشغول بمقاساة التأديب بعدُ، ولقد زلَّ في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى) لذاته (ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق) وموانعها (وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلِّية مقصود) لذاته (حتى جرَّب بعضهم نفسه فعجز عنه) لصعوبته (فقال: هذا مُحال، فكذَّب بالشرع) ورفض العمل بقواعده (وسلك سبيل الإباحة، واسترسل في اتِّباع الشهوات) من

حيث اتفقت **(وكل ذلك جهل وضلال، وقد قرَّرنا ذلك في كتاب رياضة النفس)** وتهذيب الأخلاق **(من ربع المهلكات)** فلا نعيده ثانيًا. وقد نقل صاحب القوت اختلاف علماء الشام وعلماء البصرة في التائبينِ المذكورينِ، ثم قال بعد ذلك ما نصه: وقد اختلف العلماء أيضًا في عبدين سُئل أحدهما بذل شيء من ماله في سبيل الله فأبت نفسُه عليه وثقُلَ ذلك عليها فجاهدها وأخرج ماله، وسُئل آخر فبذل ماله مع السؤال طوعًا من غير منازعة نفس ولا ثِقل عليها ولا بمجاهدة منه لها، أيُّهما أفضل؟ فقال قوم: المجاهد لنفسه أفضل؛ لأنه اجتمع له الإكراه والمجاهدة، فحصل له عملان. وذهب إلىٰ هذا القول أحمد بن عطاء وأصحابه. وقال آخَرون: الذي سمحت نفسه بالبذل طوعًا من غير اعتراض ولا إكراه أفضل؛ لأن مقام هذا في سخاوة النفس والتحقُّق بالزهد أفضل من جميع أعمال الأول من الإكراه والمجاهدة ومن بذلِ ماله علىٰ تلك الأحوال، ولأن الأول وإن غلب نفسه في هذه الكَرَّة لا يؤمَن غلبتها له في كَرَّة ثانية وثالثة؛ إذ ليس السخاء من مقامها؛ لأنها كانت محمولة عليه، وإليه ذهب أبو القاسم الجنيد، وهو عندي كما قال. وسُئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب عن الشيء فيراه أو يسمع به فيجد له حلاوة، فقال: الحلاوة طبع البشرية، ولا بد من الطبع، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلىٰ مولاه بالشكوىٰ وينكره بقلبه ويلزم الإنكارَ ولا يفارقه ويدعو الله أن ينسيه ذِكر ذلك ويشغله بغيره من ذِكره وطاعته. وقال: فإن هو غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يَسلم وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يُلزِم قلبَه الإنكارَ ويحزن غاية الحزن فإنه لا يضرُّه. وهذا عندي هكذا؛ لأن التوبة تصح مع بقاء الشهوة، فيكون العبد مرادًا بالمجاهدة، وهذا حال المريدين، ومحو الشهوة من القلب وصف العارفين بدوام التولِّي.

(فإن قلتَ: فما قولك في تائبينِ أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكُّر فيه، والآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكَّر فيه ويحترق ندمًا عليه، فأيُّهما أفضل؟

فاعلمْ أن هذا أيضًا قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك) أي لا تنساه، وهذا قول أبي محمد سهل التستري. قال القشيري في الرسالة: سمعت أبا حاتم يقول: سمعت أبا نصر السَّرَّاج الصوفي يقول: سُئل سهل بن عبد الله عن التوبة، فقال: أن لا تنسىٰ ذنبك.

قلت: ويؤيِّده خبر: «إن العبد لَيذنبُ [الذنب] فيدخله ذنبه الجنة». قيل: كيف يدخله ذنبُه الجنةَ يا رسول الله؟ قال: «لا يزال نُصب عينيه تائبًا منه هاربًا».

(**وقال آخر**) وفي نسخة: آخرون: (**حقيقة التوبة أن تنسىٰ ذنبك**)(١) قال القشيري في الرسالة: وسُئل الجنيد عن التوبة، فقال: أن لا تنسىٰ ذنبك. ا.هـ.

واختُلف في معنىٰ نسيانه الذنب، فقيل: معناه أن تخرج حلاوته من قلبه خروجًا لا يبقىٰ له في سرِّه أثرٌ حتىٰ يكون كمَن لم يعرفه قط، وقيل: المراد به تركُ العَوْد إليه.

وقد مال السري السقطي شيخ الجنيد إلىٰ قول سهل وردَّ عليه الجنيد ذلك، فيما قال القشيري: أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي قال: سمعت أبا عبد الله ابن مصلح بالأهواز يقول: سمعت ابن زيري يقول: سمعت الجنيد يقول: دخلت علىٰ السري يومًا فرأيته متغيِّرًا، فقلت له: ما لك؟ فقال: دخل عليَّ شاب، فسألني عن التوبة، فقلت له: أن لا تنسىٰ ذنبك، فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسىٰ ذنبك. فقلت: إن الأمر عندي ما قاله الشاب. فقال: لِمَ؟ قلت: لأني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلىٰ حال الوفاء فذِكرُ الجفاء في حال الصفاء جفاءٌ. فسكت. ا.هـ.

وأراد بالجفاء: الذنب، وبحال الصفاء: التوبة.

وقريب من قول الجنيد قول رويم، فإنه لما سُئل عن التوبة قال: هي التوبة من التوبة. نقله القشيري عن أبي نصر السراج. والمعنىٰ: التوبة من رؤية كونه تائبًا،

---

(١) انظر: اللمع للطوسي، وتوجيهه للقولين ص٦٨.

فإنه لا يرىٰ ذلك إلا إذا كان مفرَّق القلب، ناظرًا لنفسه وتوبته، فينحجب بذلك، فكمال توبته دوام شغله بربِّه حتىٰ ينسىٰ توبته، كما قال الجنيد. وقد قيل في تأويل كلام رويم وجوه أُخَر سيأتي ذِكرُ بعضها في مَحالِّها.

(وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلىٰ حالين) مختلفين (وكلام المتصوفة أبدًا يكون قاصرًا) في حدِّ ذاته، غير شامل للأحوال كلِّها (فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط) وذلك فيما أقامه الله تعالىٰ فيه (ولا يهمُّه حال غيره، فتختلف الأجوبة) منهم حين يُسئلون (باختلاف الأحوال، وهذا نقصان بالإضافة إلىٰ درجة العلم، فإن معرفة الأشياء علىٰ ما هي عليه أفضل وأعلىٰ، ولكنه كمال بالإضافة إلىٰ الهمَّة والإرادة والجد، حيث يكون صاحبه مقصور النظر علىٰ حال نفسه، لا يهمُّه إلا أمره) وفي نسخة: ولا يهمُّه أمر غيره (إذ طريقه إلىٰ الله نفسه، ومنازله أحواله، وقد يكون طريق العبد إلىٰ الله العلم [والتعليم][1]، فالطرق إلىٰ الله كثيرة) كما قيل: بعدد أنفاس الخلائق (وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمَن هو أهدىٰ سبيلاً، مع الاشتراك في أصل الهداية) وبه ظهر أن كلام كلٍّ من السري والجنيد فيما ذهبا إليه صحيح، فمَن قال: التوبة أن لا تنسىٰ ذنبك، يقول: إنما الغرض من ذِكر الذنب الحملُ علىٰ الأعمال الجميلة، ولكن إذا حصل للعبد حال شريف واستغرق فيه فاشتغاله بذنبه حينئذٍ يفسد عليه ما هو فيه، فالسري كلَّم الشابَّ بما هو الأَولىٰ في حق التائبين، فإنَّ ذِكر ذنوبهم يهيِّج خوفَهم ويحملهم علىٰ إصلاح أحوالهم، وكان الشاب ممَّن ارتفعت درجته في ذلك فكلَّم السريَّ بما يناسب حالَه المستلزم باستغراق صاحبه في نسيان ذنبه، فنبهَّه بذلك علىٰ مقام شريف في درجات التوبة، ولذلك اغتمَّ وتغيَّر لونه لإشكال الأمر عليه، وهذا شأنه تعالىٰ يؤدِّب الكبار بالصغار لتفقروا إليه. ونقل القشيري عن أبي نصر السَّرَّاج قال: أشار سهل إلىٰ أحوال المريدين والمتعرِّضين، تارة لهم وتارة عليهم، وأما الجنيد

---

(١) زيادة من ب، وط المنهاج ٧/ ١٤٣.

فإنه أشار إلىٰ توبة المحقِّقين، فإنهم لا يذكرون ذنوبهم ممَّا غلب علىٰ قلوبهم من عظمة الله ودوام ذِكره.

وقال صاحب القوت: فأما نسيان الذنوب وذِكرها فقد اختلف قول العارفين في ذلك، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك، وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسىٰ ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين وحالان لأهل مقامين، فأما ذِكر الذنب فطريق المريدين وحال الخائفين [يُستخرَج منهم بتذكُّرها الحزن الدائم والخوف اللازم، وأما نسيان الذنوب شغلاً عنها بالأذكار وما يُستقبل من مزيد الأعمال فطريق العارفين وحال المحبِّين] ووِجهة هؤلاء شهادة التوحيد [وهي مقام في التعرُّف] ووِجهة الأوَّلين شهادة التوقُّف والتحديد، وهي مقام في التعريف، ففي أيِّ المقامين أقيمَ عبد قام بشهادة وِجهته وعملَ بحكم حاله، ومقام شهادة التوحيد أفضل عند العارفين من مقام شهادة التعريف، وإن كانت هذه أوسع وأكثر، إلا أنها في أصحاب اليمين وفي عموم المقرَّبين، وشهادة التوحيد أضيق وأقل، وأهلها أعلىٰ وأفضل، وهي في المقرَّبين وخصوص العارفين.

وقد توسَّط المصنِّف بين القولين وقرَّره بأحسن الوجهين فقال: (**فأقول: تصوُّر الذنب وذِكره**) في خياله (**والتفجُّع عليه كمالٌ في حق المبتدئ**) المريد، وهو الذي لاحظه السري السقطي قُدِّس سره، قال: (**لأنه إذا نسيه لم يكثُر احتراقُه فلا تقوَىٰ إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق، ولأن ذلك**) أي تصوُّره كذلك (**يستخرج منه الحزن**) من مكامنه (**والخوف الوازع**) أي المانع (**عن الرجوع إلىٰ مثله**) في الحال والمستقبل (**فهو بالإضافة إلىٰ الغافل**) الذي لم يشمَّ رائحة السلوك (**كمالٌ**) في الجملة (**ولكنه بالإضافة إلىٰ سالك الطريق نقصان**) في المقام (**فإنه شغلٌ مانع عن سلوك الطريق، بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرِّج علىٰ غير السلوك**) ولا يلتفت لسواه (**فإن ظهرت له**) في سلوكه (**مبادئ الوصول**) وفُتحت له الأبواب (**وانكشفت**

له أنوار المعرفة و) بدت له **(لوامع الغيب)** وأصحاب[1] البدايات [الصاعدين] في الترقِّي بالقلب في زمان سترهم يرقبون ذلك، فتكون لوائح ثم لوامع ثم طوالع، واللوامع أظهرُ من اللوائح، وليس زوالها بتلك السرعة، فقد تبقىٰ وقتين وثلاثة، واللوائح كالبروق كلما ظهرت استترت، فإذا لمع قطعك عنك وجمعك به، لكنه لم يسفر نور نهاره حتىٰ كَرَّت عليه عساكرُ الليل، وهذه المعاني إذا ظهرت للسالك في أثناء سيره **(استغرقه)** ظهورُ **(ذلك ولم يبقَ فيه متسعٌ للالتفات إلىٰ ما سبق من أحواله)** ولكنها تختلف في القضايا، فمنها ما إذا فات لم يبقَ عنه أثر كالشوارق إذا أفلتْ، ومنها ما يبقىٰ عنه أثر، فإن زال رقمه بقي ألمه، وإن غربت أنواره بقيت آثاره، فصاحبه بعد سكون غلباته يعيش في ضياء بركاته **(وهو الكمال)**.

(بل لو عاقَ) أي حالَ **(المسافرَ عن)** سلوك **(الطريق إلىٰ بلد من البلاد)** في عالَم المُلك **(نهر حاجز)** أي مانع **(طال تعب المسافر في عبوره مدةً من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل، فلو جلس علىٰ شاطئ النهر)** أي طرفه **(بعد عبوره يبكي متأسِّفًا علىٰ تخريبه الجسر كان هذا مانعًا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع. نعم، إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذَّر السلوك، أو كان علىٰ طريقه أنهار)** حاجزة و**(هو يخاف علىٰ نفسه أن يمر بها)** أي [علىٰ] جسورها **(فليَطُل بالليل بكاؤه وحزنه علىٰ تخريب الجسر ليتأكَّد بطول الحزن عزمُه علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثله، فإن حصل له من التنبيه ما وثِقَ بنفسه أنه لا يعود إلىٰ مثله فسلوك الطريق أَولىٰ به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه، وهذا لا يعرفه إلا مَن عرف الطريق والمقصد والعائق وسلوك الطريق، وقد أشرنا إلىٰ تلويحات)** أي إشارات **(منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات)** فليراجَع هنالك، فظهر من ذلك أن تصوُّر الذنب إنما يصلُح للتائب الغافل حتىٰ يتبيَّن من نفسه الاجتهاد والمسارعة إلىٰ التكفير، وأما السالك فربما يعوقه عن السلوك **(بل نقول: شرط التوبة)** وفي

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٠ - ١٦١.

نسخة: دوام التوبة (**أن يكون كثير الفكر في النعيم**) الذي أعدَّه الله (**في الآخرة؛ لتزيد رغبتُه**) في سلوكه (**ولكن إن كان شابًّا فينبغي أن لا يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور، فإنَّ ذلك الفكر ربما يحرِّك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضىٰ بالآجلة، فينبغي أن يتفكَّر في لذَّة النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ فقط، فذلك لا نظير له في الدنيا، فكذلك تذكُّر الذنب قد يكون محرِّكًا للشهوات، فالمبتدئ أيضًا قد يستضرُّ به، فيكون النسيان أفضل له عند ذلك**) وقال صاحب القوت: اعلمْ أنه لا يؤمَن علىٰ ضعيف اليقين تقوِّي النفس عند تذكرة الذنوب، فإن نظر القلب إليها بشهوة أو ميل النفس إليها بحلاوة فيكون ذلك سبب فتنته فيفسد من حيث صلح، كما لا يؤمَن علىٰ معتاد خطيئة بالنظر إلىٰ سببها حركة النفس إليها، وإن كان الأفضل الاتفاق معها ما لم يكن الاتفاق معصية لأجل مجاهدة النفس بالصبر عنها، إلا أن ذلك غَرَرٌ، وفيه خطر، فترك الاجتماع وترك الأسباب حينئذٍ أسلمُ، وما كان أسلم للمريد فهو أفضل، وفي نسيان الذنوب الذِّكرُ لِما يستقبل والانكماش مع ما يفوت من الوقت خوف فوتٍ ثانٍ، وقد كان بعض العارفين يكره للمريد أن يكون وسواسه الجنة أو تذكُّر ما فيها من النعيم واللباس والأزواج ويَستحبُّ للمريد أن يكون وسواسه ذِكر الله تعالىٰ، وخواطره وهممه متعلقة بالله تعالىٰ لا بسواه، قال: لأن المريد حديث عهد بالتوبة، غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة، فإذا ذكر نعيمَ الجنة لم آمَنْ عليه لضعف قلبه أن يشتهي مثله ممَّا يشاهد في الدنيا من اللباس وأطيب الطعام والنساء؛ لأن هذا حظ عاجل، وذاك آجِل، فتطلب نفسُه مثل ما ذكرت من نعيم الآخرة معجَّلاً في الدنيا، قال: فإذا كان همُّه الله تعالىٰ كان أبعد له من زينة الدنيا وشهواتها، ولم يجسر العدوُّ بتمثيل ذلك له من العاجل إلىٰ أن يقوَىٰ يقينه وتنتقل عادته وتدوم عصمته والمعنىٰ لقائله (**ولا يصدَّنَّك عن التصديق بهذا التحقيق ما يُحكَىٰ لك من بكاء داود**) عليه السلام (**ونياحته**) علىٰ ذنبه (**فإنَّ قياسك نفسك علىٰ الأنبياء**) عليهم السلام (**قياس في غاية الاعوجاج؛ لأنهم قد ينزلون**

في أقوالهم وأفعالهم إلىٰ الدرجات اللائقة بأممهم، فإنهم ما بُعثوا إلا لإرشادهم) وهدايتهم **(فعليهم التلبُّس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم)** ولفظ القوت: وقد يعترض المريد بقصة داود عليه السلام من تذكُّره ونوحه علىٰ خطيئته، فإن الأنبياء لا يُقاس عليهم؛ لمجاوزتهم حدود مَن دونهم، وقد يقلّبون في أحوال المريدين وبُسلَك بهم سبل المتعلِّمين، وذلك لأجل الأمَّة؛ ليكون طريقًا للأئمة[1] **(فلقد كان في الشيوخ مَن لا يشير علىٰ مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنيًا عنها؛ لفراغه من المجاهدة وتأديب النفس)** ورياضتها ولكن **(تسهيلاً للأمر علىٰ المريد، ولذلك قال ﷺ: أما إني لا أنسىٰ، ولكن أنسىٰ لأشرِّع)** قال العراقي[2]: ذكره مالك في الموطأ[3] بلاغًا بغير إسناد، وقال ابن عبد البر[4]: لا يوجد إلا في الموطأ مرسلاً لا إسناد له. وكذا قال حمزة الكناني: إنه لم يَرِدْ من غير طريق مالك. وقال أبو الطاهر الأنماطي: وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه الأئمة والحفَّاظ، فلم أظفر به، ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به، وادَّعىٰ بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندًا **(وفي لفظ: إنما أسهو لأسنَّ. ولا تعجب من هذا، فإنَّ الأمم في كَنَف شفقة الأنبياء، كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كَنَف الرعاة)** وقد روىٰ أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة من حديث أبي هريرة: «إنما أنا لكم مثل الوالد للولد أعلِّمكم ...» الحديث، وقد تقدم في كتاب سر الطهارة[5] **(أما ترىٰ الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير كيف ينزل إلىٰ درجة نطق الصبي،**

---

(١) في القوت: للعالمين.

(٢) المغني ٢/ ١٠٠٠ - ١٠٠١.

(٣) الموطأ ١/ ١٠٠، وفيه: لأسن، بدل: لأشرع.

(٤) التمهيد ٢٤/ ٣٧٥، ونصه: «هذا الحديث بهذا اللفظ لا أعلمه يروىٰ عن النبي ﷺ بوجه من الوجوه مسندا ولا مقطوعا من غير هذا الوجه، وهو أحد الأحاديث الأربعة في الموطأ التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة، ومعناه صحيح في الأصول».

(٥) بل في الباب الخامس من كتاب العلم.

كما قال ﷺ للحسن) بن علي ﷺ: (**كِخْ كِخْ**) بفتح الكاف وكسرها وسكون المعجمة، مثقلاً ومخففًا، ويُكسر منوَّنًا وغير منوَّن: كلمة ردع للطفل عن تناول شيء. وهذا قاله (**لما أخذ الحسن تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه**) فزجره به (**وما كانت فصاحته**) ﷺ (**تقصر عن أن يقول له: ارْمِ هذه التمرة فإنها حرام، ولكنه لمَّا علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلىٰ لكنته**) وكأنَّ المراد بذلك: ما كانت فصاحته تقصر عن الاكتفاء بكلامه الفصيح الظاهر، وهذا كان تمام الحديث في المتفق عليه عن أبي هريرة: «ارْمِ بها، أما شعرتَ أنَّا لا نأكل الصدقة»؟ وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام، فقد جمع ﷺ بين اللكنة والفصاحة (**بل الذي يعلِّم شاة أو طائرًا يصوِّت به رغاءً أو صفيرًا تشبُّهًا بالبهيمة والطائر تلطُّفًا في تعليمه**) وروىٰ ابن عساكر[1] من حديث معاوية - وقال: غريب جدًّا - «مَن كان له صبي فليَتَصابَ له». وإذا عرفتَ ذلك فاعلمْ أن قولهم:

شيئان عجيبان هما أبرد من يخ ... شيخ يتصابَىٰ وصبي يتشيَّخ[2]

ليس علىٰ إطلاقه (**فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق، فإنها مزلَّة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين**) وأما كلام رويم لما سُئل عن حقيقة التوبة - وقد سبق ذِكرُه نقلاً عن القشيري، وسبق الوعد بأنَّا نتكلم عليه - فاعلم أن[3] المقصود من التوبة تقوىٰ الله وهو خوفه وخشيته والقيام بأمره واجتناب نهيه، فيعمل بطاعته علىٰ نور من الله [يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله علىٰ نور من الله، يخاف عقاب الله] لا يريد بذلك عز الطاعة، فإن للطاعة والتوبة عزًّا ظاهرًا وباطنًا، فلا يكون مقصوده العزة [وإن علمَ أنها تحصل له بالطاعة والتوبة] فمَن تاب لأجله فتوبته مدخولة، وسرائر التوبة ثلاثة أشياء، هذا أحدها، والثاني: نسيان الجناية، والثالث: التوبة

---

(١) تاريخ دمشق ٧٢/ ٣٨. وليس فيه: (غريب جدا).

(٢) انظر كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ٢/ ٤٣٥.

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٢/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

من [الإسلام والإيمان، والمراد منه التوبة من] رؤية التوبة [وأنها إنما حصلت له بتوفيق الله ومشيئته، ولو خُلِّي ونفسه ولم يسمح بها البتَّة] فإن رأىٰ منَّة الإيمان والإسلام من نفسه وغفل عن منَّة الله عليه فليتب من هذه الرؤية، ولكن هذه الرؤية ليست التوبة ولا جزءها ولا شرطها، بل جناية أخرىٰ حصلت له بعد التوبة، فيتوب من هذه الجناية كما تاب من الجناية الأولىٰ، فما تاب إلا من ذنب أولاً وآخرًا، والمراد التوبة من نقصان التوبة وعدم توفيتها حقها. ووجه ثالث لطيف وهو أنه مَن حصل له مقامُ الأنس بالله وصفاء وقته مع الله بحيث يكون إقباله علىٰ الله واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له، حتىٰ إذا نزل عن هذه الحال اشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها وسار مع الجناية واشتغل بها عن الله تعالىٰ، فهذا نقصٌ ينبغي أن يتوب إلىٰ الله منه، وهي توبة من هذه التوبة؛ لأنه نزول من الصفاء إلىٰ الجفاء، وهذا هو الذي لاحظه الجنيد حين خاطب شيخه السري، فالتوبة من التوبة إنما تُعقَل علىٰ أحد هذه الوجوه الثلاثة. والله أعلم.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن طبقات التائبين في التوبة أربع) أي الناس في التوبة علىٰ أربعة أقسام، في كل قسم طبقة، ولكل طبقة مقام:

(الطبقة الأولىٰ: أن يتوب العاصي) من جميع ما ارتكبه من المخالفات (ويستقيم علىٰ التوبة) والإنابة (إلىٰ آخر عمره، فيتدارك ما فرطَ من أمره) فيما مضىٰ (ولا يحدِّث نفسه بالعَوْد إلىٰ ذنوبه) أيام حياته (إلا الزَّلاَّت التي لا ينفكُّ البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة) إذ صاحب هذه الرتبة معصوم عنها (فهذا هو الاستقامة علىٰ التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات، المستبدل بالسيئات حسنات، واسم هذه التوبة: التوبة النصوح) التي قال فيها سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] (واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة التي ترجع إلىٰ ربها راضية مرضية) التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] أي راضية بما أوتيتْ، مرضيَّة عند الله (وهؤلاء هم) المفردون (الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ: سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالي، وضع الذكر عنهم أثقالهم فوردوا القيامة خِفافًا) قال العراقي[(١)]: رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسَّنه، وقد تقدم[(٢)].

قلت: لفظ الترمذي: «في ذكر الله، يضع الذكر»، وفيه: «فيأتون يوم القيامة خِفافًا». وهكذا رواه الحاكم. ورواه الطبراني من حديث أبي الدرداء. وروىٰ

(١) المغني ٢/ ١٠٠١.

(٢) في كتاب عجائب القلب.

أحمد ومسلم وابن حبان من حديث أبي هريرة: «سيروا، هذا جُمْدان، سبق إليه المفردون». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات». وقد تقدم ضبطُ «المفردون» و«المستهترون» في كتاب الأذكار والدعوات.

(**فإنَّ فيه إشارة إلىٰ أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذِّكر عنهم**) وهي الذنوب التي كانت أثقلتهم (**وأهل هذه الطبقة علىٰ رُتَب**) وأحوال مختلفة من شفوف بعضهم علىٰ بعض (**من حيث النزوع إلىٰ الشهوات، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة**) وقوة اليقين (**ففتر نزاعُها**) أي سكنت منازعتها إياه (**ولم يشغله عن السلوك صراعُها**) أي مصارعتها (**وإلىٰ مَن لا ينفكُّ عن منازعة النفس**) ومصارعتها (**ولكنه مليء**) أي قادر (**بمجاهدتها وردِّها**) والغلبة عليها (**ثم تتفاوت درجات النزاع أيضًا بالكثرة والقلة**) فمنهم مَن يكثُر نزاعُها له فيقابلها بالرد والكف، ومنهم مَن يقلُّ (**و**) تتفاوت أيضًا (**باختلاف المدة وباختلاف الأنواع، وكذلك يختلفون من حيث طول العمر**) وقِصَره (**فمن مختطَف**) مأخوذ به (**يموت قريبًا من توبته**) لم يطُلْ كثيرًا (**يُغبَط علىٰ ذلك لسلامته وموته قبل الفترة**) وإليه الإشارة بقول أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: طوبىٰ لمَن مات في بدوات الإسلام[١] (**ومن مهمَل**) أي متروك (**طال جهادُه**) للنفس (**وصبرُه**) عليها (**وتمادت**) أي طالت (**استقامتُه وكثرت حسناته**) فعاش في سعادة (**وحالُ هذا أعلىٰ وأفضل؛ إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة**) فأفضل السعادات طول العمر في طاعة الله، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «خير الناس مَن طال عمرُه وحسُن عملُه». رواه أحمد وعبد بن حميد والترمذي من حديث عبد الله بن بُسْر[٢] (**حتىٰ قال بعض العلماء: إنما يكفِّر**

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١١٧ من طريق إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت طارق ابن شهاب يقول: قال أبو بكر: طوبىٰ لمن مات في النأناة. فسألت طارقا عن النأناة، قال: أراه عنىٰ في جدة الإسلام، أو قال: بدء الإسلام. ورواه أيضا أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٣.

(٢) تقدم هذا الحديث في كتاب رياضة النفس.

الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكَّن منه عشر مرات مع صِدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفًا من الله تعالىٰ. و) لا يخفَىٰ أن (اشتراط هذا بعيد، وإن كان لا يُنكَر عِظَم أثره لو فُرض) ووقع (ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسبابُ حتىٰ يتمكَّن ثم يطمع في الانكفاف) عنها (فإنه لا يأمن خروجَ عنان الشهوة عن اختياره) فلا يقدر علي قمعها وقهرها (فيُقدِم علىٰ المعصية) قهرًا عنه (وينقض توبتَه) وتزلُّ قدمُه (بل طريقه الفرار من ابتداء أسبابه الميسِّرة له حتىٰ يسدَّ طرقها علىٰ نفسه) ولا يلتفت إليها (ويسعىٰ مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه، فبه تَسلم توبتُه في الابتداء) وفي بعض النسخ: بما يقدر عليه فيه لتَسلم توبتُه في الابتداء.

(الطبقة الثانية) وهي تلي الطبقةَ الأولىٰ في القرب منها: (تائب سلك طريق الاستقامة في أمَّهات الطاعات) وأصولها بأن دام علىٰ العمل فيها من غير فترة (وترك كبائر الفواحش كلها) بأن اجتنبها، لا يسعىٰ فيها، ولا يهمُّ بها (إلا أنه لا ينفكُّ) وفي نسخة: ليس ينفكُّ (عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجديد قصدٍ) لها (ولكن يُبتلَىٰ بها) أي بدخولها عليه (في مجاري أحواله) عليه (من غير) قصد إليها، ولا (أن يُقدِم عزمًا علىٰ الإقدام عليها) ويُمتحَن بالهم واللَّمَم (ولكنه كلَّما أقدمَ عليها لامَ نفسَه وندم وتأسَّف) وحزن (وجدَّد عزمه علىٰ أن يتشمَّر للاحتراز عن أسبابها) الباعثة عليها (التي تعرِّضه لها) وهذا من صفات المؤمنين تُرجَىٰ له الاستقامة؛ لأنه في طريقها (وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوَّامة) التي أقسم الله بها (إذ تلوم صاحبها علىٰ ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد) وصاحبها من المقتصدين (وهذه أيضًا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولىٰ) لكنها قريبة منها (وهي أغلب أحوال التائبين) وصاحب هذا الحال داخل في وصف المتقين (لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلَّما ينفكُّ عنه) وهذه الذنوب تدخل علىٰ النفس من معاني صفاتها وغرائز جِبِلاَّتها وأوائل إنشائها من

نبات الأرض وتركيب الأطوار في الأرحام خلقًا من بعد خلق ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض (**وإنما غاية سعيه أن يغلب خيرُه شرَّه حتىٰ يثقُل ميزانُه فترجح كفةُ الحسنات، فأما أن تخلو بالكلِّية كفةُ السيئات فذلك في غاية البعد، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالىٰ؛ إذ قال تعالىٰ:** ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢] **فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفوِّ عنه، وقد قال تعالىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٥] **فأثنىٰ عليهم مع ظلمهم لأنفسهم؛ لتندُّمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلىٰ مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه عليٌّ كرَّم الله وجهه: خياركم كل مفتَّن تواب)** أي[1] كل ممتحَن يمتحنه الله تعالىٰ بالذنب ثم يتوب ثم يعود ثم يتوب.

قال العراقي[2]: رواه البيهقي في الشعب[3] بسند ضعيف.

قلت: ورواه الديلمي[4]. وفي سند البيهقي النعمان بن سعد، قال الذهبي[5]: كوفي مجهول.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[6] من حديث ابن عباس: «إن المؤمن خُلق مفتنًا توابًا ناسيًا، إذا ذُكِّر ذَكَرَ». وفي رواية له: «إن المؤمن خُلق ناسيًا، فإذا ذُكِّر ذَكر».

وروىٰ أحمد[7] من حديث علي: «إن الله يحب العبد المؤمن المُفَتَّن

---

(١) فيض القدير ٣/ ٤٦٨.

(٢) المغني ٢/ ١٠٠١.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ٣٢٧.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٧٣.

(٥) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٤١٢.

(٦) حلية الأولياء ٣/ ٢١١.

(٧) مسند أحمد ٢/ ٤٢، ١٨٨، وكان الأولىٰ أن يعزوه إلىٰ زوائد المسند لا المسند، وهذا ربما تابع فيه المناوي أو السيوطي في الصغير، مع أن السيوطي في الكبير عزاه للزوائد، والله أعلم.

التواب».

(**وفي خبر آخر: المؤمن كالسنبلة يفيء أحيانًا ويميل أحيانًا**) قال العراقي[(١)]: رواه أبو يعلىٰ[(٢)] وابن حبان في الضعفاء[(٣)] من حديث أنس، والطبراني من حديث عمار بن ياسر، والبيهقي في الشعب[(٤)] من حديث الحسن مرسلاً، وكلها ضعيفة، وقالوا: يقوم، بدل: يفيء. وفي الأمثال[(٥)] للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس.

قلت: حديث أنس رواه أيضًا البزار[(٦)] والضياء[(٧)]، ولفظهم: «مثلُ المؤمن مثلُ السنبلة تميل أحيانًا وتقوم أحيانًا».

وأما حديث عمار عند الطبراني فلفظه مثل لفظ حديث أنس بزيادة: «ومثلُ الكافر مثل أَرْز يخرُّ ولا يشعر».

وقد رُوي من حديث جابر بلفظ: «مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرةً وتخِرُّ مرة، ومثل الكافر مثل الأَرْزة لا تزال مستقيمة حتىٰ تخرَّ ولا تشعر». رواه أحمد[(٨)] وعبد بن حميد[(٩)] والشاشي والضياء في المختارة.

وفي معناه ما رواه الشيخان[(١٠)] من حديث أبي هريرة: «مثل المؤمن كمثل

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠١.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٥/ ٤٠٦، ٦/ ٤١ - ٤٢، ١٩٠ - ١٩١.

(٣) المجروحون من المحدثين ٢/ ٢١١.

(٤) شعب الإيمان ٩/ ٣٠٧.

(٥) أمثال الحديث ص ١٢٤.

(٦) مسند البزار ١٣/ ٣٠٣، ٤٥٠.

(٧) الأحاديث المختارة ٥/ ١٣٥.

(٨) مسند أحمد ٢٣/ ٨٣، ٣٤٨، ٤٠١.

(٩) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ١٣٢.

(١٠) صحيح البخاري ٤/ ٢٤، ٣٩٨. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٢. واللفظ المذكور هو لفظ البخاري، أما لفظ مسلم فهو كلفظ أحمد الذي سيذكره الشارح.

خامة الزرع [يفيء ورقه] من حيث أتتها الريح كفئتها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء، ومثل الكافر كالأرزة صمَّاء معتدلة حتىٰ يقصمها الله عَزَّوَجَلَّ إذا شاء».

ومن[1] حديث كعب بن مالك: «مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيِّئها الريح مرة وتعدلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتىٰ يكون انجعافها مرة واحدة». وكذلك رواه أحمد[2] أيضًا.

وفي لفظ لأحمد[3] من حديث أبي هريرة: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تكفِّئه، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأَرْزة لا تهتزُّ حتىٰ تُستحصَد». ورواه كذلك الترمذي[4] وقال: حسن صحيح.

وروىٰ أحمد[5] وأبو يعلىٰ من حديث أم ولد أبيٍّ بن كعب عن أبي بن كعب مرفوعًا: «مثل المؤمن مثل الخامة تحمرُّ مرة وتصفرُّ أخرىٰ، والكافر كالأرزة».

(وفي الخبر: لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفَيْنة بعد الفينة. أي الحين بعد الحين) قال العراقي[6]: رواه الطبراني[7] والبيهقي في الشعب[8] من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة. انتهي.

قلت: ولفظ الطبراني في الكبير: «ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة

(١) صحيح البخاري ٤/ ٢٣. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٢ - ١٢٩٣.

(٢) مسند أحمد ٢٥/ ٤٨، ٤٥/ ١٤٦.

(٣) السابق ١٢/ ١١٨، ١٣/ ٢٢٠، ٤٥٢.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٥٤٧.

(٥) مسند أحمد ٣٥/ ٢٠٥.

(٦) المغني ٢/ ١٠٠١ - ١٠٠٢.

(٧) المعجم الكبير ١٠/ ٣٤٢، ١١/ ٣٠٤، ١٢/ ٥٦.

(٨) شعب الإيمان ٩/ ٣٣٠.

بعد الفينة أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتىٰ يفارق الدنيا، إن المؤمن خُلق مفتَّنًا توابًا نسيًّا إذا ذُكِّر ذَكَر». وفي لفظ له: «ما من مسلم إلا وله ذنب يصيبه الفينة بعد الفَيْنة، إن المؤمن نَسَّاء إذا ذُكِّر ذَكَر».

(فكل ذلك أدلَّة قاطعة علىٰ أن هذا القدر لا ينقض التوبةَ ولا يُلحِق صاحبَها بدرجة المصرِّين) ولا يؤيَّس هذا عن درجة التائبين **(ومَن يؤيِّس مثلَ هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيِّس الصحيحَ عن دوام الصحة بما يتناول من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرىٰ من غير مداومة واستمرار)** عليها (و) أيضًا **(كالفقيه الذي يؤيِّس المتفقِّهَ عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة)** والمراد بالتكرار: إعادة ما يحصِّله في درسه مرة بعد أخرىٰ حتىٰ يرسخ في الذهن. والتعليق: أن يعلِّق ما يسمع من فوائد الشيوخ في أوراق **(وذلك يدل علىٰ نقصان)** مقام **(الطبيب والفقيه)** جميعًا **(بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيِّس الخلقَ من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات. قال النبي ﷺ: كل بني آدم خَطَّاء)** بتشديد[1] الطاء، من أبنية المبالغة، يقال: رجل خَطَّاء: إذا كان ملازمًا للخطأ[2]. قال الطيبي في شرح المشكاة[3]: إن أريدَ بلفظ «كل» الكل من حيث هو كلٌّ فهو تغليب؛ لأن الأنبياء ليسوا بمبالغين في الخطأ، وإن أريدَ به الاستغراق وأن كل واحد واحد خَطَّاء لم يستقِم إلا علىٰ التوزيع، كما يقال: هو ظَلاَّم للعبيد، أي يظلم كل واحد واحد، فهو ظالم بالنسبة إلىٰ كل أحد، ظَلاَّم بالنسبة إلىٰ المجموع، وإذا قلتَ: هو ظَلاَّم لعبده، كان مبالغًا في الظلم **(وخير الخَطَّائين المستغفرون)** أي الذين يستغفرون من ذنوبهم ويرجعون إلىٰ الله تعالىٰ بالتوبة والاستغفار، ولا يؤتَىٰ العبد من فعل المعصية وإن

---

(١) فيض القدير ٥/ ١٦ - ١٧.

(٢) قاله ابن الأثير في النهاية ٢/ ٤٤.

(٣) شرح مشكاة المصابيح ٦/ ١٨٤٧.

عظمت وكثرت، وإنما يؤتَىٰ من ترك التوبة والاستغفار[١].

قال العراقي[٢]: رواه الترمذي[٣] واستغربه والحاكم[٤] وصحَّح إسناده من حديث أنس، وقالا: التوابون، بدل: المستغفرون. قلت: فيه علي بن مسعدة، ضعَّفه البخاريُّ[٥]. انتهي.

قلت: ورواه كذلك أحمد[٦] وعبد بن حميد[٧] وابن ماجه[٨] والدارمي[٩] والبيهقي[١٠]. ولفظ الترمذي بعد أن أخرجه: غريب، لا نعرفه إلا من حديث علي ابن مسعدة. انتهىٰ. قلت: علي بن مسعدة الباهلي، أبو حبيب البصري، قال ابن حبان[١١]: لا يُحتجُّ به. كذا قاله الذهبي[١٢]، وردَّ علىٰ الحاكم تصحيحَه وقال: بل فيه لينٌ. وفي أمالي أبي زُرعة: حديث فيه ضعفٌ. فكأنَّه تبع فيه والدَه. وقال الحافظ في التهذيب[١٣]: صدوق، له أوهام، وقد روىٰ له البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه. ومال ابن القَطَّان[١٤] إلىٰ تصحيح الحاكم وقال: ابن مسعدة

---

(١) قاله الكلاباذي في بحر الفوائد ص ٣٦٥.

(٢) المغني ٢/ ١٠٠٢.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٧٣.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٧٤.

(٥) التاريخ الكبير ٦/ ٢٩٤ - ٢٩٥، قال: فيه نظر.

(٦) مسند أحمد ٢٠/ ٣٤٤.

(٧) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٣٠.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٤٠.

(٩) سنن الدارمي ٢/ ٣٩٣.

(١٠) شعب الإيمان ٩/ ٣٣٢.

(١١) المجروحون من المحدثين ٢/ ٨٧، ونصه: «كان ممن يخطئ علىٰ قلة روايته وينفرد بما لا يتابع عليه فاستحق ترك الاحتجاج به لما لا يوافق الثقات من الأخبار».

(١٢) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٢٨٦. وفي المغني له ٢/ ٢٥: لا يحتج بما انفرد به.

(١٣) تقريب التهذيب ص ٧٠٤.

(١٤) بيان الوهم والإيهام ٥/ ٤١٤.

صالح الحديث، وغرابته إنما هي فيما انفرد به عن قتادة.

(وقال) ﷺ **(أيضًا: المؤمن واهٍ راقع، فخيرهم مَن مات على رقعه)** قال العراقي[١]: رواه الطبراني والبيهقي في الشعب[٢] من حديث جابر بسند ضعيف، وقالا: فسعيد، بدل: فخيرهم. انتهى.

قلت: ورواه كذلك البزار[٣] والعسكري في الأمثال والطبراني في الصغير[٤] والأوسط[٥]، كلهم من طريق سعيد بن خالد الخزاعي عن محمد بن المنكدر عن جابر به مرفوعًا بلفظ: «فسعيدٌ مَن هلك على رَقْعه». وفي لفظ: فالسعيد. قال المنذري: ضعيف[٦]. وقال الهيثمي[٧]: سعيد بن خالد ضعيف. قلت: هو من رجال أبي داود، قال أبو زُرعة: ضعيف[٨] **(أي واهٍ)** لربِّه **(بالذنوب، راقع)** له **(بالتوبة والندم)** فكلَّما[٩] انخرق دينُه بالمعصية رقعه بالتوبة، قال الزمخشري[١٠]: شبَّهه بمَن يَهِي ثوبُه فيرقعه. وقد وهَى الثوبُ: إذا بليَ. ومعنى «مَن مات على رَقْعه» أي من مات وهو راقع لدينه بالتوبة والندم، ونحوه: «استقيموا ولن تحصوا» أي لن تستطيعوا أن تستقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا. ومنه أيضًا: «يا حنظلة، ساعة وساعة».

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٢.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٣٢٩.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤/ ٧٦.

(٤) المعجم الصغير ١/ ١٢٢.

(٥) المعجم الأوسط ٢/ ٢٣٩، ٢٤٣.

(٦) قد ذكر المنذري الحديث في الترغيب والترهيب ص ١١٣٩، ولكن لم يحكم عليه بشيء.

(٧) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٣.

(٨) نقله عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٤/ ١٦.

(٩) فيض القدير ٦/ ٢٥٧. المقاصد الحسنة ص ٤٣٩.

(١٠) الفائق ٤/ ٨٥.

(وقال تعالىٰ) في وصف المؤمنين بترك متابعة الذنوب وبترديف السيئة بالحسنة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وجعل هذا من نعوت العاملين الذين صبروا فقال: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾) [القصص: ٥٤] فجعل لهم صبرين: عن الذنب، وعلىٰ التوبة، فآتاهم أجرين (**فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً**) فإزراء هذا العبد علىٰ نفسه ومقته لها عن معرفته بها وتركُ نظره إليها وسكونه إلىٰ خير إن ظهر عليها يكون من كفَّارات ذنوبه؛ لأنه من تدبُّر الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

(**الطبقة الثالثة**) وهي تلي هذه الثانيةَ في الحال: (**أن يتوب**) عن الذنوب (**ويستمر بالاستقامة**) علىٰ توبته (**مدةً ثم تغلبه الشهوة**) وفي نسخة: شهوته (**في بعض الذنوب فيُقدِم عليها عن صدق**) عزم (**وقصد شهوة**) فيذنب، ثم يحزن عليه بقصده له وسعيه فيه وإيثاره إياه (**لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب علىٰ الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوةُ الواحدة أو الشهوتان، وهو يودُّ أنْ لو أقدره الله تعالىٰ**) أي جعله مليًّا قادرًا (**علي قمعها**) وكفِّها (**وكفاه شرَّها، هذه أمنيته**) وتمام رجائه (**في حال قضاء الشهوة، وعند الفراغ**) منه (**يتندَّم**) ويتحسَّر (**ويقول: ليتني لم أفعله، وسأتوب منه، وأجاهد نفسي في قهرها. لكنه تسوِّل نفسه ويسوِّف توبتَه مرةً بعد أخرىٰ ويومًا بعد يوم**) ويحدِّث نفسه بالاستقامة، ويحب منازل التوابين، ويرتاح قلبه إلىٰ مقامات الصدِّيقين، ولم يأتِ حينُه ولا ظهر مقامه؛ لأن الهوىٰ يحركه، والعادة تجذبه، والغفلة تغمره، إلا أنه يندم خلال الذنوب ويعاود هذا المتقدم المعتاد (**فهذه النفس هي التي تسمَّىٰ: النفس المسوِّلة**) وإليها الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ [يوسف: ٨١، ٨٣] وتوبة هذا قوت من وقت إلىٰ وقت (**وصاحبها من الذين قال الله تعالىٰ فيهم**: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾) [التوبة: ١٠٢] قيل: خلطوا عملاً صالحًا: هو الاعتراف

بالذنوب والتوبة المستأنفة. وآخر سيئًا: ما سلف من الغفلة والجهالة (**فأمره من حيث مواظبته علىٰ الطاعات وكراهته لِما تعاطاه**) من المعاصي والمخالفات (**مرجوٌّ**) له الاستقامة لمحاسن عمله وتكفيرها لسالف سيئاته (**فعسىٰ الله أن يتوب عليه**) فيستقيم فيلحق بالسابقين (**وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره**) فيُخاف عليه الانقلاب لأجل ذلك ومن حيث مداومة خطاياه (**فربما يُختطَف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة**) وإنما كان مثل هذا مخطرًا لأن خفايا المكر والألطاف دقيق لا اطِّلاع لأحد عليه، فهذا بين حالين: (**فإن تداركه الله بفضله**) بأن نظر إليه بعين رحمته (**وجبر كسره**) وأغنىٰ فقره (**وامتنَّ عليه بالتوبة التحق بالسابقين**) والمقرَّبين؛ لأنه قد سلك طريقهم (**وإن غلبته شقوته وقهرته شهوتُه**) وهي وصفُ النفس (**فيُخشَىٰ أن يحقَّ عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل**) بأن يكون من أهل النار، فلو أنه تاب سبعين توبة لم تنقذه من النار (**لأنه مهما تعذَّر علىٰ المتفقِّه مثلاً الاحترازُ عن شواغل التعلُّم دل تعذُّره علىٰ أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين، فيضعُف الرجاءُ في حقه، وإذا يُسِّرت له أسباب المواظبة علىٰ التحصيل**) والتعلُّم (**دلَّ علىٰ أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالِمين، فكذلك ارتباط درجات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبِّب الأسباب**) جل جلاله (**كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصبَ العليَّة في الدنيا بترك الكسل والمواظبة علىٰ تفقيه النفس**) ليلاً ونهارًا (**فكما لا يصلُح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدُّم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقُّه فلا يصلُح لمُلك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم**) من الغش (**صار طاهرًا بطول التزكية والتطهير**) عن الأدناس المعنوية (**هكذا سبق في الأزل تدبيرُ رب الأرباب، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞﴾**) أي[1] ومَن سواها، وتسويتها بورود الروح الإنساني

---

(١) عوارف المعارف ص ٣١٣.

عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات (﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾) والمراد[١] بإلهامهما: إفهامهما وتعريف حالهما والتمكين من الإتيان بهما (﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾) أي أنماها بالعلم والعمل (﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾) [الشمس: ٧ - ١٠] أي نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق (**فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدًا**) حاضرًا (**والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان**) والشقاوة (**قال ﷺ: إن العبد لَيعملُ بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتىٰ يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقىٰ بينه وبين الجنة إلا شبر**) ثم يدركه الشقاء، وفي لفظ آخر: (**فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**) فقد دخلت التوبات في صالح أعماله من الحسنات ثم أحبطها عنه في جملة عمله بسبق الكتاب بالشقاوة له، فأما مَن لم يسبق له سوء الخاتمة ووُهبت له التوبة النصوح لم يدركه الشقاء.

قال العراقي[٢]: روىٰ مسلم[٣] من حديث أبي هريرة: «إن الرجل لَيعملُ الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ...» الحديث. ولأحمد[٤] من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة: «إن الرجل لَيعملُ بعمل أهل الجنة سبعين سنة». وشهر مختلَف فيه. انتهىٰ.

قلت: وتمام حديث أبي هريرة عند مسلم: «ثم يُختَم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل لَيعملُ الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يُختَم له عمله بعمل أهل الجنة». وقد رواه أحمد[٥] أيضًا.

وروىٰ الشيخان[٦] من حديث سهل بن سعد: «إن الرجل لَيعملُ عمل أهل

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٣١٥ - ٣١٦.
(٢) المغني ٢/ ١٠٠٢.
(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٣ - ١٢٢٤.
(٤) مسند أحمد ١٣/ ١٦٧.
(٥) السابق ١٦/ ١٩٧.
(٦) صحيح البخاري ٢/ ٣٣٢، ٣/ ١٣٦، ١٣٧، ٤/ ١٩٠، ٢١٠. صحيح مسلم ١/ ٦٣، ٢/ ١٢٢٤.

الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ...» الحديث، زاد البخاري: «وإنما الأعمال بخواتيمها».

وروى الطبراني[1] وأبو نعيم[2] من حديث أكثم بن أبي الجون: «إن الرجل لَيعملُ بعمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، وإن الرجل لَيعملُ بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، تدركه الشقاوة أو السعادة عند خروج نفسه فيُختَم له بها».

وأما حديث أبي هريرة من رواية شهر بن حوشب الذي أخرجه أحمد فلفظه: «إن الرجل لَيعملُ بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصىٰ حافَ في وصيته فيُختَم له بشرٍّ عمله فيدخل النار، وإن الرجل لَيعملُ بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيُختَم له بخير عمله فيدخل الجنة». وهكذا رواه أيضًا ابن ماجه[3].

وروىٰ أحمد[4] أيضًا من حديث عائشة: «إن الرجل لَيعملُ بعمل أهل الجنة وإنه لَمكتوبٌ في الكتاب من أهل النار، فإذا كان قبل موته تحوَّل فعملَ بعمل أهل النار ...» الحديث.

(**فإذًا الخوف من الخاتمة قبل التوبة، وكل نفَس**) من الأنفاس (**فهو خاتمة ما قبله؛ إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به، فليراقب الأنفاس**) ويحافظ عليها (**وإلا وقع في المحذور**) أي الأمر الذي يحذر منه (**ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسُّر**.

الطبقة الرابعة) أسوأ العبيد حالاً، وأعظمهم علىٰ نفسه وبالاً، وأقلُّهم من الله وصلاً[5] هو (**أن يتوب**) العبد عن المعاصي (**ويجري مدةً علىٰ الاستقامة**

---

(١) المعجم الكبير ١/ ٢٩٧.

(٢) معرفة الصحابة ١/ ٣٤١.

(٣) سنن ابن ماجه ٤/ ٢٧٠.

(٤) مسند أحمد ٤١/ ٢٧٩.

(٥) في القوت: نوالا.

ثم يعود إلىٰ مقارفة الذنب أو الذنوب) بأن يُتبع الذنب ذنبًا [مثله] أو أعظم منه **(من غير أن يحدِّث نفسَه بالتوبة)** ولا ينويها **(ومن غير أن يتأسَّف علىٰ فعله)** ولا يعتقد استقامة، ولا يرجو وعدًا بحُسن ظنِّه، ولا يرجو[1] وعيدًا لتمكُّن أمنِه **(بل ينهمك انهماكَ الغافل في اتِّباع شهواته، فهذا)** هو حقيقة الإصرار، وهو **(من جملة المصرِّين)** والعُتاه المستكبرين، وفي مثل هذا جاء الخبر: «هلك المصرُّون قُدمًا إلىٰ النار»[2]. **(وهذه النفس هي النفس الأمَّارة بالسوء، الفرَّارة من)** الصالحات و**(الخير، ويُخاف علىٰ هذا سوء الخاتمة)** لأنه في مقدماتها وسالك طريقها، ولا يبعُد عنه سوء القضاء ودَرَك الشقاء، ولأن العاصي يريد الكفر، كما أن الحي يريد الموت، وفي مثل هذا قيل: مَن سوَّف الله تعالىٰ بالتوبة أكذبه. وإن اللعنة خروج من الذنب إلىٰ ما هو أعظم منه **(و)** هو في عموم المسلمين **(أمره في مشيئة الله)** من الفاسقين، قال الله تعالي: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مؤخَّرون لحكمه ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بالإصرار ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] بما سبق من حُسن الاختيار **(فإن خُتم له بالسوء شقيَ شقاوة لا آخر لها، وإن خُتم له بالحسنىٰ حتىٰ مات علىٰ التوحيد فيُنتظَر له الخلاص من النار ولو بعد حين)** علىٰ قدر إيمانه **(ولا يستحيل أن يشمله عمومُ العفو بسبب خفيٍّ لا يُطَّلَع عليه)** لأن خفايا الألطاف دقيقة لا اطِّلاع لأحد عليها **(كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان)** موضعًا **(خرابًا ليجد كنزًا فيتفق أن يجده، ولا)** يستحيل أيضًا **(أن يجلس في البيت ليجعله الله عالـمًا بالعلوم)** والمعارف **(من غير)** سبق **(تعلُّمٍ)** لها **(كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم)** إذ علومهم وهبية إفاضية **(وطلبُ المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار، وطلبُها)** أي المغفرة **(بمجرد الرجاء مع**

---

(١) في القوت: (ولا يخاف) وهو الصواب.

(٢) أخرج ابن جرير ٦/ ٦٦ في قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ عن قتادة قال: فإياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قدمًا، لا ينهاهم مخافة الله عن حرام حرمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوه، حتىٰ أتاهم الموت وهم علىٰ ذلك.

خراب الأعمال) وفسادها (كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلبِ العلوم من تعليم الملائكة، وليت مَن اجتهد تعلَّم، وليت مَن اتَّجر) وركب البحار (استغنىٰ، وليت مَن صام وصلىٰ غُفر له، فالناس كلهم محرومون) عن نيل السعادة (إلا العالِمون، والعالِمون كلهم محرومون إلا العاملون) لله تعالىٰ (والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون) في أعمالهم لله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] (والمخلصون علىٰ خطر عظيم) وهو منتزَع من كلام أبي محمد سهل التستري رحمه الله تعالىٰ: الناس كلهم هلكىٰ إلا العالِمون، والعالِمون كلهم هلكىٰ إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكىٰ إلا المخلصون، والمخلصون علىٰ خطر عظيم. وقد تقدم ذلك في آخر كتاب الغرور (وكما أن مَن خرَّب بيتَه وضيَّع ماله وترك نفسه وعياله جياعًا يزعم أنه ينتظر فضل الله) تعالىٰ (بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض في بيته الخرب) كان (يُعَدُّ عند ذوي البصائر من الحمقىٰ والمغرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالىٰ وفضله، فكذلك مَن ينتظر المغفرة من فضل الله تعالىٰ وهو مقصِّر في الطاعة، مصرٌّ علىٰ الذنوب، غير سالك سبيل المغفرة، معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين) أي المدهوشين من غير جنون (والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة) الصيغة[1] أصلها الواو، كالقيمة، وصيغة القول كذا: أي مثاله وصورته، علىٰ التشبيه بالعمل والتقدير (إذ يقول: إن الله) تعالىٰ (كريم) أي موصوف بالكرم (وجنَّته ليست تضيق علىٰ مثلي، ومعصيتي ليست تضرُّه) وإنما شؤمها عليَّ (ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار[2]) أي الأمور الصعبة (في طلب الدينار، وإذا قيل له: إن الله كريم، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك، وكسلك بترك التجارة ليس يضرُّك، فاجلسْ في بيتك) واسترحْ (فعساه)

(١) المصباح المنير ص ٣٥٢.

(٢) في أ، وب: الأغرار، أو الأغوار، وفي ط المنهاج ٧/ ١٥٥: الأخطار.

أن (يرزقك من حيث لا تحتسب. فيستحمق قائلَ هذا الكلام) أي يعدُّه حمقًا (ويستهزئ به ويقول: ما هذا الهوس)؟ أي خفَّة العقل (السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وإنما يُنال ذلك بالكسب) والسعي في الأسباب (هكذا قدَّره ربُّ الأرباب) وفي نسخة: مسبِّب الأسباب (وأجرىٰ به) في العالَم (سنَّته، ولا تبديل لسنَّة الله) بنص القرآن (ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأن سنَّته لا تبديل لها فيهما جميعًا، وأنه) تعالىٰ (قد أخبر) علىٰ لسان رسله (إذ قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤٠] فكيف يعتقد أنه تعالىٰ كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟! وكيف يقول: ليس مقتضىٰ الكرم الفتور عن كسب المال، ومقتضاه الفتور عن العمل للمُلْك المقيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد) ولا مشقَّة (في الآخرة، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا، وينسىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] فنعوذ بالله من العمىٰ) أي عمىٰ البصيرة (والضلال، فما هذا إلا انتكاس علىٰ أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل، وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾) إلىٰ تحت (﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾) أي في حضرة الربوبية يقولون: (﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾) إلىٰ الدنيا ثانيًا (﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾) [السجدة: ١٢] فإنَّا لا نرىٰ النجاة إلا لمَن عمل صالحًا. وقال تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] وتقييد[1] العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسُّر علىٰ ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به، والإشعار بأن رجوعهم وإخراجهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح، والآن تحقَّق لهم خلافه (أي أبصرنا أنك صدقتَ إذ قلت) في كتابك العزيز: (﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] فارجعْنا لنسعىٰ) في صالح الأعمال (وعند ذلك لا يمكَّن من الانقلاب ويحقُّ

---

(١) أنوار التنزيل ٤/ ٢٦٠.

عليه العذاب) أي يثبُت **(فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلىٰ سوء المنقلَب والمآب)** والله الموفِّق.

تنبيه: تقدم في تقسيم المصنِّف طبقات التائبين إلىٰ أربعة، وأشار فيها إلىٰ أن الطبقة الأولىٰ أهلها هم السابقون بالخيرات، وأن الثانية أهلها هم المقتصدون، وأن الثالثة والرابعة هم الظالمون أنفسهم، وأمرهم في مشيئة الله تعالىٰ، وأشار في أثناء ذلك إلىٰ النفوس الأربعة: المطمئنة، واللوَّامة، والمسوِّلة، والأمَّارة. وفي سياقه من أوله إلىٰ آخره تلميح لطيف إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢] أما[1] النفوس فقد ذكر الله تعالىٰ في كتابه العزيز إياها بثلاثة أوصاف: بالطمأنينة، قال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧] وسمَّاها لوَّامة فقال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢] وسمَّاها أمَّارة فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وهي نفس واحدة، ولها صفات متغايرة، فإذا امتلأ القلب سكينة خلع [علىٰ النفس خُلَع] الطمأنينة؛ لأن السكينة مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلىٰ مقام الروح لِما منح من حظ اليقين وعند توجُّه القلب إلىٰ محل الروح تتوجَّه النفس إلىٰ محل القلب، وفي ذلك طمأنينتها، وإذا انزعجت عن مَقارِّ جِبِلاَّتها ودواعي طبيعتها متطلِّعة إلىٰ مَقارِّ الطمأنينة فهي اللوَّامة؛ لأنها تعود باللائمة علىٰ نفسها؛ لنظرها وعلمها بمحلِّ الطمأنينة، ثم انجذابها إلىٰ محلِّها الذي كانت فيه أمَّارة بالسوء، وإذا أقامت في محلِّها لا يغشاها نور العلم والمعرفة، فهي علىٰ ظُلمتها أمَّارة بالسوء.

وقد تقدم شيء من ذلك في كتاب عجائب القلب.

ولنتكلم علىٰ الآية المذكورة، قال البيضاوي[2]: ظالم لنفسه، أي بالتقصير

---

(١) عوارف المعارف ص ٣١٦.

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٢٥٩.

في العمل به، وقوله «مقتصد» أي يعمل به في أغلب الأوقات، والسابق هو الذي يضم التعليم والإرشاد إلىٰ العمل. وقيل: الظالم: الجاهل، والمقتصد: المتعلم، والسابق: العالِم. وقيل: الظالم: المجرم، والمقتصد: الذي خلط الصالح بالسيئ، والسابق: الذي ترجَّحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفَّرة، وهو معنىٰ قوله ﷺ: «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة [يُرزَقون فيها] بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسَبون [حسابًا يسيرًا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يُحبَسون] في طول المحشر ثم يتلقَّاهم الله برحمته». وقيل: الظالم: الكافر، علىٰ أن الضمير للعباد، وتقديمه لكثرة الظالمين، ولأن الظلم بمعنىٰ الجهل والركون إلىٰ الهوىٰ مقتضَىٰ الجِبِلَّة، والاقتصاد والسبق عارضان. انتهىٰ.

قلت: وهذه الأقوال كلها مسندة، والحديث[١] المذكور رواه الفريابي وأحمد[٢] وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم[٣] وابن مردويه والبيهقي [في البعث] عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسَبون حسابًا يسيرًا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك [الذين] يُحبَسون في طول المحشر ثم يتلقَّاهم الله تعالىٰ برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ إلىٰ ﴿لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ قال البيهقي: إذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ١٢/ ٢٨٤ - ٢٩٤. جامع البيان للطبري ١٩/ ٣٦٧ - ٣٧٦. البعث والنشور للبيهقي ص ٨٣ - ٨٨.

(٢) مسند أحمد ٣٦/ ٢٨، ٥٧، ٤٩٧.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٠٠.

البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الآية، قال: هم أمَّة محمد ﷺ، ورَّثهم اللهُ كلَّ كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسَب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

وأخرج الطيالسي[١] وأحمد[٢] وعبد بن حميد والترمذي[٣] وحسَّنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي [في البعث] عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة».

وأخرج الطيالسي[٤] وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط[٥] والحاكم[٦] وابن مردويه عن عقبة بن صُهْبان قال: قلت لعائشة: أرأيتِ قول الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الآية. قالت: أما السابق فمَن مضىٰ في حياة رسول الله ﷺ فشهد له بالجنة، وأما المقتصد فمَن اتَّبع أثرهم فعمل بمثل أعمالهم حتىٰ يلحق بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك ومَن اتبعَنا، وكلٌّ في الجنة».

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: هذه الأمَّة ثلاثة أثلاث [يوم القيامة]: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسَبون حسابًا يسيرًا، وثلث يُحبَسون بذنوب عِظام إلا أنهم لم يشركوا بالله، فيقول الرب: أدخِلوا هؤلاء في سعة رحمتي. ثم قرأ هذه الآية.

وأخرج العقيلي[٧] وابن لال وابن مردويه والبيهقي [في البعث] من حديث

---

(١) مسند الطيالسي ٣/ ٦٨١.

(٢) مسند أحمد ١٨/ ٢٧١.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢٧٨.

(٤) مسند الطيالسي ٣/ ٩٢.

(٥) المعجم الأوسط ٦/ ١٦٧.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٠١.

(٧) الضعفاء الكبير ٣/ ١١٣٣.

عمر: «سابقُنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفور له». ثم قرأ عمر هذه الآية.

وأخرج سعيد بن منصور[١] وابن أبي شيبة عن عثمان أنه نزع بهذه الآية ثم قال: ألا إن سابقنا أهل جهادنا، ألا وإن مقتصدنا أهل حَضَرنا، ألا وإن ظالمنا أهل بَدْونا.

وأخرج ابن مردويه والديلمي[٢] من حديث حذيفة: «يبعث الله الناس على ثلاثة أصناف، وذلك في قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾ فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بلا حساب، والمقتصد يحاسَب حسابًا يسيرًا، والظالم لنفسه يدخل الجنة برحمته».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن الحنفية قال: أُعطيتْ هذه الأمَّة ثلاثًا لم تُعْطَها أمَّة كانت قبلها: منهم ظالم لنفسه مغفور له، ومنهم مقتصد في الجِنان، ومنهم [سابق] بالمكان الأعلى.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: هم أصحاب المشأمة ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [قال]: هم أصحاب اليمين ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال: هم السابقون من الناس كلِّهم.

وفي[٣] تفسير الكواشي: وعن علي رضي الله عنه قال: الظالم أنا، والمقتصد أنا، والسابق أنا. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: أنا ظالم بمعصيتي، ومقتصد بتوبتي،

---

(١) سنن سعيد بن منصور ٢/ ١٢٠.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٤٦٦.

(٣) الكواشي له تفسير صغير وكبير، ولعل الزبيدي يقصد الكبير، وترجمته في بغية الطلب لابن العديم ٣/ ١٢٦١، وانظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٥/ ٥١٧ (ط - دار الكتب العلمية). حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي ٢/ ١٦١ - ١٧٠ (ط - دار الكتب العلمية). لطائف الإشارات للقشيري ٣/ ٢٠٤ - ٢٠٦ (ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب).

وسابق بمحبَّتي. وفي الآية وجوه من الإشارات، قال الجنيد: لمَّا ذكر الميراث دلَّ علىٰ أن الخَلق فيه عامٌّ وخاص، وأن الميراث لمَن هو أصلح قربًا وأصح نسبًا، فتصحيح النسبة هو الأصل في رتبة القربة، فالظالم الذي أحبَّه لنفسه، والمقتصد الذي أحبه له، والسابق الذي أسقط مراده لمراد الحق فيه، فلا يرىٰ لنفسه طلبًا ولا مرادًا؛ لغلبة سلطان الحق عليه. وقال النصرآباذي: مَن صحَّح النسب وجد الميراث، ولا يأخذ ميراث الحق إلا مَن نسبُه بالحق وإلىٰ الحق دون الأسباب والوسائط. وقال جعفر الصادق: بدأ بالظالمين إخبارًا بأنه لا يُتقرَّب إليه إلا بمحض كرمه، وأن الظلم لا يؤثِّر في الاصطفائية، ثم [ثنَّىٰ] بالمقتصدين؛ لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين؛ لأنه لا يأمن أحدٌ مكره، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص في الشهادة. وقال غيره: يُبدأ في الميراث بذوي الفروض، ثم ما يبقىٰ فللعصبة، وإن كان صاحب الفرض أضعف استحقاقًا، كذلك قال الله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فقدَّمه علىٰ المقتصد والسابق. وتكلموا في الظالم، فمنهم مَن قال: هو الأفضل، وأراد به مَن ظلم نفسه بكثرة ما حمَّلها من الطاعة. والأكثرون علىٰ أن السابق هو الأفضل، وقالوا: التقديم في الذِّكر لا يقتضي التقديمَ في الرتبة، يعني فهو من باب التدلِّي لا من طريق الترقِّي. ويقال: قُرن باسم الظالم قرينة وهي قوله «لنفسه»، وقُرن باسم السابق قرينة وهي قوله «بإذن الله»، فالظالم كان له زلَّة، والسابق كان له صولة، فالظالم رفع زلَّته بقوله «لنفسه»، والسابق كسر صولته بقوله «بإذن الله». ويقال: الظالم مَن زهد في دنياه، والمقتصد مَن رغب في عُقباه، والسابق مَن آثر علىٰ الدارين مولاه. ويقال: الظالم مَن نَجَمَ كوكبُ عقله، والمقتصد من عظُم[1] بدرُ علمه، والسابق مَن أشرقت شمس معرفته. ويقال: الظالم مَن ترك الزلَّة[2]، والمقتصد مَن ترك الغفلة، والسابق مَن ترك العلاقة.

---

(١) في لطائف الإشارات: طلع.

(٢) في اللطائف: المعصية.

ويقال: الظالم مَن جادَ بنفسه، والمقتصد مَن لم يبخل بقلبه[1]، والسابق مَن جادَ بروحه. ويقال: الظالم مَن له علم اليقين، والمقتصد مَن له عين اليقين، والسابق مَن له حق اليقين. ويقال: الظالم بترك المحرَّمات، والمقتصد بترك الشبهات، والسابق بترك الزيادات. ويقال: الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسابق طالب المناجاة.

وفي الآية وجوه كثيرة غير ما ذكرتها.

فصل: في حال مَن عجز عن التوبة، قال:

(١) في اللطائف: الظالم من جاد بماله، والمقتصد من لم يبخل بنفسه.

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن) مَن وقع منه ذنب أو ذنوب فإن (الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده[1] كما ذكرنا طريقه) آنفًا (فإن) عجز و(لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة) بل قهرته نفسُه وشهوته (فقد عجز عن أحد الواجبين، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني) ولا يعجز عنه (وهو أن يدرأ بالحسنة السيئةَ) أي يدفعها بها (لتمحوها) وتزيلها (فيكون ممَّن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا) وهو حال المقتصدين (فالحسنات المكفِّرة) وفي نسخة: المكفِّرات (للسيئات إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها، فأما بالقلب فليكفِّرْه بالتضرُّع إلى الله تعالىٰ) والابتهال إليه (في سؤال المغفرة والعفو) من باطن قلبه دون حركة اللسان فقط (ويتذلَّل) في نفسه (تذلُّل العبد الآبق) عن مولاه (ويكون ذلُّه بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم) فيُرِي الناسَ كلَّهم خيرًا منه (فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد) والكبر والمعصية لا يجتمعان في قلب مؤمن (وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين) كلهم (والعزم على الطاعات) إلىٰ آخر العمر (وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم) أي يعترف بظلمه لنفسه (فقد جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [التوبة: ٢] قيل: الاعتراف بالذنوب والاستغفار) فقد ورد فضلُه في الكتاب والسنَّة (فيقول) ما ورد عن النبي ﷺ، نحو قوله: (رب ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءًا، فاغفر لي ذنوبي) روى الديلمي[2] من

(١) عود الضمير هو على الذنب.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٤٧٥.

حديث ابن عباس: «مَن قال: لا إله إلا أنت، عملتُ سوءًا وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك خير الغافرين، غُفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زَبَد البحر». أو يقول: ربِّ اغفر لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم. رواه أبو داود[١] والترمذي[٢] والنسائي[٣] وابن حبان[٤] من حديث ابن عمر قال: إنْ كنا لَنعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة ... فذكره. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وهذا لفظ أبي داود، وعند الثلاثة: التواب الغفور. وفي رواية للنسائي: «اللهم اغفر لي وارحمني وتُبْ عليَّ، إنك أنت التواب الغفور» **(وكذلك يُكثِر من ضروب الاستغفار)** كسيد الاستغفار المرويِّ عن شداد بن أوس: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». رواه البخاري[٥] والترمذي[٦] والنسائي[٧] **(كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار. وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات)** والاستكثار منها، فلعله بذلك تزيد حسناته علىٰ سيئاته ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] **(وفي الآثار ما يدل علىٰ أن الذنب إذا أُتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوًّا)** ولفظ القوت: ومن أحسن ما يتعقَّب الذنبَ من الأعمال بعد التوبة وحلِّ الإصرار ممَّا يُرجَىٰ به كفارة الخطيئة ثمانية أعمال **(أربعة من أعمال القلوب وهي)** اعتقاد **(التوبة)** منه **(والعزم علىٰ التوبة)** فإن العبد إذا

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٢٩٤.
(٢) سنن الترمذي ٥/ ٤٣٣.
(٣) سنن النسائي ٩/ ١٧٢ - ١٧٣.
(٤) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٠٦.
(٥) صحيح البخاري ٤/ ١٥٣، ١٥٨.
(٦) سنن الترمذي ٥/ ٤٠٠.
(٧) سنن النسائي ص ٨٣٢.

عزم عليها فكأنَّه اعتقدها. ولم يذكر صاحب القوت هذه الزيادة **(وحب الإقلاع عن الذنب، وتخوُّف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له)** ثم يحتسب علىٰ الله تعالىٰ بحُسن ظنِّه وصدق يقينه كفارة ذنبه. فهذه الأربعة من أعمال القلوب **(وأربعة من أعمال الجوارح، وهي: أن يصلي)** العبد **(عقب الذنب ركعتين)** وذلك[(١)] بعد أن يتوضأ، وإن اغتسل كان أكمل، وإن أمكنه أن يغسل الثياب التي عصىٰ الله فيها كان أكمل، فإن طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن. وإذا كانت الصلاة في موضع خالٍ عن اشتغال وعن توهُّم الرياء والسمعة في بال كان أكمل، ويُشترط أن يضع جبينه علىٰ الأرض [تواضعًا] لله والتراب لزيادة الخشوع عند الله وللتذكُّر إلىٰ أصله ومرجعه **(ثم يستغفر الله بعدهما)** مع البكاء إن أمكن، وإلا فبالتباكي وقلب حزين علىٰ ما سبق له من المعصية، ويجعلها نُصب عينيه **(سبعين مرة)** روىٰ الديلمي من حديث أبي هريرة: «مَن استغفر الله سبعين مرة في دُبر كل صلاة غُفر له ما اكتسب من الإثم ...» الحديث[(٢)]. وروىٰ الحسن بن سفيان[(٣)] من حديث أنس: «مَن استغفر سبعين مرة غُفر له سبعمائة ذنب الحديث. وروىٰ ابن السني في عمل اليوم والليلة[(٤)] من حديث عائشة: «مَن استغفر الله في كل يوم سبعين مرة لم يُكتَب من الكذَّابين ...» الحديث **(ويقول: سبحان الله العظيم وبحمده)** ولو **(مائة مرة)** فإن زاد أو نقص فهو بالخيار، إن زاد في الاستغفار حتىٰ صار مائة مرة فهو أفضل وأكمل، وكذلك ينبغي أن يكون مع التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير مائة؛

---

(١) شرح عين العلم لملا علي القاري ٢/ ١٩٢ - ١٩٤.

(٢) كنز العمال ١/ ٤٨١، وتمامه: «ولم يخرج من الدنيا حتىٰ يرىٰ أزواجه من الحور ومساكنه من القصور».

(٣) وكذلك أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٠٩، والطبراني في الدعاء ص ١٦٢٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ١٥٦.

(٤) عمل اليوم والليلة ص ٢٢٣، ولفظه: «من استغفر الله عز وجل في كل يوم سبعين مرة لم يكتب في يومه من الغافلين، ومن استغفر الله عز وجل في كل ليلة سبعين مرة لم يكتب في ليلته من الغافلين».

لتجتمع الباقيات الصالحات، بل ويضم إليها «لا حول ولا قوة إلا بالله» كذلك، ثم يرفع يديه ويحمد الله تعالىٰ، ويصلي علىٰ نبيِّه ﷺ، ويدعو لنفسه ولوالديه ولجميع المسلمين.

روىٰ ابن أبي شيبة(١) وأحمد(٢) والشيخان(٣) والترمذي(٤) والنسائي(٥) وابن حبان(٦) من حديث أبي هريرة: «مَن قال: سبحان الله وبحمده [في يوم] مائة مرة حُطَّت [عنه] خطاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر».

وروىٰ البيهقي(٧) من حديث ابن عمر: «مَن قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له ألف حسنة، ومَن زاد زاده الله».

وروىٰ أحمد(٨) ومسلم(٩) وأبو داود(١٠) والترمذي(١١) وابن حبان(١٢) [من حديث أبي هريرة]: «مَن قال حين يصبح ويمسي سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة لم يأتِ أحد يوم القيامة بأفضل ممَّا جاء به إلا أحد قال مثل ذلك أو زاد عليه» (ثم يتصدَّق بصدقة) سرًّا وعلانية، ليلاً ونهارًا؛ ليدخل في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٥١٠.

(٢) مسند أحمد ١٣/ ٣٨٥، ١٤/ ٤٦١، ١٦/ ٤٠٢.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٣. صحيح مسلم ٢/ ١٢٤٠.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ٤٥٧ – ٤٥٨.

(٥) السنن الكبرىٰ ٩/ ٣٠٤.

(٦) صحيح ابن حبان ٣/ ١١١.

(٧) السنن الكبرىٰ ٨/ ٥٧٧.

(٨) مسند أحمد ١٤/ ٤٢٩.

(٩) صحيح مسلم ٢/ ١٢٤٠.

(١٠) سنن أبي داود ٥/ ٣٩٤، ولفظه: «من قال حين يصبح: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة وإذا أمسىٰ كذلك لم يواف أحد من الخلائق بمثل ما وافىٰ».

(١١) سنن الترمذي ٥/ ٤٥٩.

(١٢) صحيح ابن حبان ٣/ ١٤٢ مثل لفظ أبي داود.

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤] (**ثم يصوم يومًا**) فإنه من جملة الحسنات المكفِّرات، فهذه الأعمال قد وردت بها الآثار أنها مكفِّرة للزلل والعثار (**وفي بعض الآثار**) أنه يُشترط أن يتوضأ و(**يسبغ الوضوء**) وإسباغه بإكمال شروطه وأركانه وواجباته (**ويدخل المسجد ويصلي ركعتين**) فإن المسجد أفضل الأماكن وأشرفها، ويشهد له بما عمل فيه. قال العراقي[1]: في هذه الآثار أن من مكفِّرات الذنب أن يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلي ركعتين، رواه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصدِّيق: «ما من عبد يذنب ذنبًا فيُحسِن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له»[2]. هذا لفظ أبي داود، وهو في الكبرىٰ للنسائي مرفوعًا وموقوفًا، فلعل المصنِّف عبَّر بالآثار لإرادة الموقوف، فذكرته احتياطًا، وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي. انتهىٰ.

قلت: وقد روىٰ الطبراني في الأوسط[3] من حديث أبي الدرداء: «ما من عبد يذنب ذنبًا فيتوضأ ثم يصلي ركعتين أو أربعًا مفروضة أو غير مفروضة ثم يستغفر الله إلا غفر الله له».

وحديث أبي بكر رواه كذلك الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والحميدي والعَدَني وعبد بن حميد وابن منيع وابن السني في عمل يوم وليلة وابن حبان والبزار وأبو يعلىٰ والدارقطني في الأفراد والبيهقي والضياء، كلهم من رواية علي عن أبي بكر، ولفظهم جميعًا: «ما من عبد يذنب ذنبًا فيتوضأ فيُحسِن الطهورَ ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر الله له».

(**وفي بعض الأخبار: يصلي أربع ركعات**) قال العراقي: رواه ابن مردويه في

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٢ - ١٠٠٣.

(٢) تقدم هذا الحديث في كتاب الأذكار والدعوات.

(٣) المعجم الأوسط ٥/ ١٨٦.

التفسير والبيهقي في الشعب[١] من حديث ابن عباس قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوىٰ امرأة ... الحديث، وفيه: فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من أهله وحرَّك ذَكَره فإذا هو مثل الهُدْبة، فقام نادمًا، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فذكر له ذلك، فقال له النبي ﷺ: «صلِّ أربع ركعات». فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية [هود: ١١٤] وإسناده جيد. انتهىٰ.

قلت: ورواه كذلك البزار[٢]، ولفظهم جميعًا: أن رجلاً كان يهوىٰ امرأة، فاستأذن النبيَّ ﷺ في حاجة، فأذنَ له، فانطلق في يوم مطير، فإذا هو بالمرأة علىٰ غدير ماء تغتسل، فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يحرك ذكره فإذا هو كأنه هُدْبة، فندم، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فذكر له ذلك، فقال له النبي ﷺ: «صلِّ أربع ركعات». فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية.

وروىٰ عبد الرزاق[٣] وابن جرير[٤] عن يحيىٰ بن جعدة أن رجلاً أقبل يريد أن يبشِّر النبيَّ ﷺ بالمطر، فوجد امرأة جالسة علىٰ غدير، فدفع في صدرها وجلس بين رجليها، فصار ذَكَرُه مثل الهُدْبة، فقام نادمًا حتىٰ أتىٰ النبيَّ ﷺ فأخبره بما صنع، فقال له: «استغفِرْ الله ربَّك، وصلِّ أربع ركعات»، وتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية.

(وفي الخبر: إذا عملتَ سيئة فأتْبِعْها بحسنة تكفِّرها، السر بالسر، والعلانية بالعلانية) قال العراقي[٥]: رواه البيهقي في الشعب[٦] من حديث معاذ، وفيه رجل

---

(١) شعب الإيمان ٩/ ٢٩٨.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ٥٢ - ٥٣.

(٣) مصنف عبد الرزاق ٧/ ٤٤٧.

(٤) جامع البيان ١٢/ ٦٢٤.

(٥) المغني ٢/ ١٠٠٣.

(٦) شعب الإيمان ٢/ ٧٨، وفيه: «إن عملت سيئة في سر فأتبعها حسنة في سر، وإن عملت سيئة علانية فأتبعها حسنة علانية».

لم يُسَمَّ. ورواه الطبراني[١] من رواية عطاء بن يسار عن معاذ [ولم يلقه] بلفظ: «وما عملتَ من سوء فأحدِثْ لله فيه توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية ...» الحديث. انتهىٰ.

قلت: ورواه ابن النجار من حديثه: «إذا عملتَ سيئة فاعملْ بجنبها حسنة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية».

ورواه أحمد في الزهد[٢] عن عطاء بن يسار مرسلاً: «إذا عملتَ سيئة فأحدِثْ عندها توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية».

وروىٰ أحمد[٣] من حديث أبي ذر: «إذا عملتَ سيئة فأتْبِعْها بحسنة تمحُها». قيل: يا رسول الله، أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات».

(**ولذلك قيل: صدقة السر تكفِّر ذنوب الليل، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار**) ولفظ القوت: ويقال: صدقة الليل تكفر ذنوب النهار، وصدقة السر تكفر ذنوب الليل[٤].

(**وفي الخبر الصحيح: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فأصبت منها كلَّ شيء إلا المسيس**) يعني الوقاع (**فاقْضِ عليَّ بحكم الله تعالىٰ. فقال ﷺ: أوَ ما صليت معنا صلاة الغَداة؟ قال: بلىٰ. قال: فإنَّ الحسنات يُذهِبن السيئات**) قال العراقي[٥]: متفق عليه[٦] من حديث ابن مسعود دون قوله «أوَ ما صليتَ معنا

---

(١) المعجم الكبير ٢٠/ ١٥٩.

(٢) الزهد ص ٢٥.

(٣) مسند أحمد ٣٥/ ٣٨٦.

(٤) أخرج ابن زنجويه في الأموال ٢/ ٦٣٩ عن الحسن مرسلًا قال: قال رسول الله ﷺ: «صدقة الليل تُذهب غضب الرب، وصدقة النهار تطفئ الذنوب كما يطفئ الماء النار».

(٥) المغني ٢/ ١٠٠٤.

(٦) صحيح البخاري ١/ ١٨٤، ٣/ ٢٤٣. صحيح مسلم ٢/ ١٢٦٦.

صلاة الغداة»؟ ورواه مسلم من حديث أنس، وفيه: «هل حضرتَ معنا الصلاة»؟ قال: نعم. ومن حديث أبي أمامة، وفيه: «هل شهدت الصلاة معنا»؟ قال: نعم ... الحديث.

قلت: لفظ المتفق عليه من حديث ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له كأنَّه يسأل عن كفَّارتها، فأُنزِلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية، فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذه؟ قال: «هي لمَن عمل بها من أمتي». وقد رواه كذلك أحمد[١] والترمذي[٢] والنسائي[٣] وابن ماجه[٤] وابن جرير[٥] وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن حبان[٦]. ورواه ابن حبان[٧] وحده بلفظ: قال رجل: يا رسول الله، إني رأيت امرأة في البستان، فضممتها إليَّ وقبَّلتها وباشرتها وفعلت بها كلَّ شيء، إلا أني لم أجامعها. فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، فدعاه رسولُ الله ﷺ فقرأها عليه، فقال عمر: يا رسول الله، أله خاصةً؟ فقال: «بل للناس كافةً». ورواه عبد الرزاق[٨] وأحمد[٩] ومسلم والثلاثة[١٠] وهنَّاد[١١] وابن جرير[١٢] وابن المنذر وابن أبي حاتم

(١) مسند أحمد ٦/ ١٦٥، ٧/ ١٧١.
(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٩٠ - ١٩١.
(٣) السنن الكبرىٰ ٦/ ٤٨٠.
(٤) سنن ابن ماجه ٢/ ٥١٥، ٥/ ٦٤٢.
(٥) جامع البيان ١٢/ ٦٢١.
(٦) صحيح ابن حبان ٥/ ١٩.
(٧) السابق ٥/ ٢٠.
(٨) مصنف عبد الرزاق ٧/ ٤٤٥ - ٤٤٦.
(٩) مسند أحمد ٧/ ٣١٩.
(١٠) سنن أبي داود ٥/ ١١٥. سنن الترمذي ٥/ ١٨٨. السنن الكبرىٰ للنسائي ٦/ ٤٧٩.
(١١) الزهد ٢/ ٤٤٩، ٦٤٨.
(١٢) جامع البيان ١٢/ ٦١٧ - ٦٢٠.

والطبراني[(١)] وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب[(٢)] بلفظ: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أني لم أجامعها، قبَّلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعلْ بي ما شئتَ. فلم يقلْ له رسول الله ﷺ شيئًا، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر علىٰ نفسه. فأتبعه رسولُ الله ﷺ بصرَه فقال: «رُدُّوه عليَّ». فردُّوه، فقرأ عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، فقال معاذ بن جبل: يا رسول الله، أله وحده أمْ [للناس كافةً؟ فقال: «بل] للناس كافةً».

وأما حديث أنس في المتفق عليه[(٣)] فلفظه: كنت عند النبي ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا، فأقِمْه عليَّ. فلم يسأله عنه، وحضرت الصلاة، فصلىٰ مع النبي ﷺ، فلما قضىٰ الصلاة قام الرجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقِمْ فيَّ كتابَ الله. قال: «أليس قد صليتَ معنا»؟ قال: نعم. قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك». ورواه كذلك أحمد.

وقد رُوي مثل ذلك من حديث واثلة قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا، فأقِمْه عليَّ ... الحديث، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «هل توضأتَ حين أقبلت»؟ قال: نعم. قال: «صليت معنا»؟ قال: نعم. قال: «فاذهب، فإنَّ الله قد غفر لك». رواه ابن حبان[(٤)].

وأما حديث أبي أمامة فرواه أحمد[(٥)] ومسلم[(٦)] وأبو داود[(٧)]

---

(١) المعجم الأوسط ٧/ ٢٠٤.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٢٩٧.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢٥٥. صحيح مسلم ٢/ ١٢٦٧.

(٤) صحيح ابن حبان ٥/ ١٥.

(٥) مسند أحمد ٣٦/ ٤٩١، ٦٠٠، ٦١٦.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ١٢٦٧.

(٧) سنن أبي داود ٥/ ٧٥.

والنسائي[١] وابن خزيمة[٢] وابن جرير[٣] والطبراني[٤] وابن مردويه: أن رجلاً أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أقِمْ فيَّ حد الله. مرة أو مرتين، فأعرض عنه، ثم أقيمت الصلاة [فلما فرغ] قال: «أين الرجل»؟ قال: أنا ذا. قال: «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفًا»؟ قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمُّك، فلا تَعُدْ». وأنزل الله حينئذٍ علىٰ رسوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

وقد روي مثل هذه القصة من حديث بُرَيدة ورواية عطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي ويزيد بن رومان وغيرهم.

(وهذا يدل علىٰ أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة؛ إذ جعل الصلاة كفارة لذلك بمقتضىٰ قوله ﷺ: الصلوات الخمس كفَّارات لِما بينهنَّ إلا الكبائر) تقدم قريبًا **(فعلىٰ الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته)** فردًا فردًا، ويلوم النفس ويوبِّخها **(ويجتهد في دفعها بالحسنات)** علىٰ الطريق المتقدم ذِكره.

(فإن قلتَ: فكيف يكون الاستغفار نافعًا من غير حل عقدة الإصرار، وفي الخبر: المستغفر من الذنب وهو مصرٌّ عليه كالمستهزئ بآيات الله) قال العراقي[٥]: رواه ابن أبي الدنيا في التوبة[٦] ومن طريقه البيهقي في الشعب[٧] من حديث ابن عباس بلفظ «كالمستهزئ بربِّه»، وسنده ضعيف.

---

(١) السنن الكبرىٰ ٦/ ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٢) صحيح ابن خزيمة ١/ ١٦٠ - ١٦١.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٦٢٣.

(٤) المعجم الكبير ٨/ ١٦٣.

(٥) المغني ٢/ ١٠٠٤.

(٦) التوبة ص ٨٦.

(٧) شعب الإيمان ٩/ ٣٦٢.

قلت: لفظ ابن أبي الدنيا: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربِّه، ومَن آذىٰ مسلمًا كان عليه من الإثم مثل كذا وكذا». وفي سنده مَن لا يُعرَف، ورُوي موقوفًا، قال المنذري[1]: ولعله أشبهُ. بل هو الراجح، وقد رواه البيهقي وابن عساكر[2] من هذا الطريق.

(**وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولي: أستغفر الله**) أي من غير توبة وندم بالقلب. نقله صاحب القوت.

(**وقيل: الاستغفار باللسان توبة الكذَّابين**)[3] نقله صاحب القوت. وفي الرسالة: قال ذو النون: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين[4]. قال: وقال بعضهم: توبة الكذابين علىٰ طرف لسانهم. يعني قول: أستغفر الله.

(**وقالت رابعة**) بنت إسماعيل (**العدوية**) البصرية رحمها الله تعالىٰ: (**استغفارنا هذا يحتاج إلىٰ استغفار [كثير]**[5] وتوبتنا تحتاج إلىٰ توبة، أي في صحتها وإخلاصها من النظر إليها والسكون والإدلال بها. نقله صاحب القوت.

(**فاعلمْ أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر**) والاستقصاء

---

(١) الترغيب والترهيب ص ١١٤١.

(٢) تاريخ دمشق ٥٤/ ٧٢، وفيه: «ومن آذىٰ مسلما كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل».

(٣) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١٢٤ مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري. وروىٰ الثعلبي في الكشف والبيان ٨/ ٣١٥ عن جابر بن عبد الله قال: دخل أعرابي مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك سريعا. وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي: يا هذا، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلىٰ توبة. قال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ قال: اسم يقع علىٰ ستة معان: علىٰ الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما أذبتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٣٦٢.

(٥) زيادة من ب.

(**ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات، حتىٰ**) إنه قد (**قرن الله تعالىٰ الاستغفار**) للعباد (**ببقاء الرسول**) فيهم ودفع العذاب عنهم بوجوده فضلاً منه ونعمة (**فقال الله تعالىٰ**: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾) [الأنفال: ٣٣] نقله صاحب القوت (**فكان بعض الصحابة**) ولفظ القوت: وقد كان بعض السلف (**يقول: كان لنا أمانان، ذهب أحدهما**) ولفظ القوت: فذهب أحدهما وبقي الآخَر (**وهو كون الرسول فينا، و**) الذي (**بقي الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا**) قال العراقي[1]: رواه أحمد[2] من قول أبي موسىٰ الأشعري، ورفعه الترمذي[3] من حديثه: «أنزل الله عليّ أمانين ...» الحديث، وضعَّفه. ورواه ابن مردويه في التفسير من قول ابن عباس.

قلت: لفظ الترمذي: «أنزل الله تعالىٰ عليّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فإذا مضيتُ تركت فيهم الاستغفار إلىٰ يوم القيامة».

وأما الموقوف من قول أبي موسىٰ فقد أخرجه أيضًا ابن جرير[4] وأبو الشيخ والطبراني[5] وابن مردويه والحاكم[6] وابن عساكر[7] عنه قال: إنه[8] قد مضىٰ لسبيله، وأما الاستغفار فهو كائن فيكم إلىٰ يوم القيامة.

وأما قول ابن عباس فلفظ ابن مردويه: إن الله جعل في هذه الأمَّة أمانين لا

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٤.

(٢) مسند أحمد ٣٢/ ٢٦٤، ٣٨٥.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ١٦٣.

(٤) جامع البيان ١١/ ١٥٢.

(٥) المعجم الأوسط ٣/ ٣٤٢.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٧٣٥.

(٧) تاريخ دمشق ١٧/ ٤.

(٨) يعني رسول الله ﷺ.

يزالون معصومين من قوارع العذاب ما داما بين أظهُرهم، فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، ورواه البيهقي في الشعب[1] بلفظ: كان في هذه الأمَّة أمانان [رسول الله ﷺ والاستغفار، فذهب أمانٌ] يعني رسول الله ﷺ، وبقي أمان. يعني الاستغفار. وروىٰ أيضًا في السنن[2] مثله.

وقد رُوي نحو ذلك من قول أبي هريرة بلفظ: كان فيكم أمانان، مضىٰ أحدُهما وبقي الآخر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية[3].

وروىٰ الديلمي[4] من حديث عثمان بن أبي العاص رفعه: «في الأرض أمانان: أنا أمان، والاستغفار أمان، وأنا مذهوب بي، ويبقىٰ أمانُ الاستغفار، فعليكم بالاستغفار عند كل حَدَث وذنب».

وروىٰ صاحب نهج البلاغة[5] من طريق أهل البيت عن علي رضي الله عنه أنه قال: كان في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه، فرُفع أحدهما، فدونكم الآخَر فتمسَّكوا به، أما الأمان الذي رُفع فهو رسول الله ﷺ، وأما الأمان الباقي فالاستغفار، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة: أستغفر الله) فيجري علىٰ لسانه من غير أن يتعقَّل معناه أو يعمل بموجِبه

---

(١) شعب الإيمان ٣/ ٧٧.

(٢) السنن الكبرىٰ ٥/ ٧٢.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ١٥٦، والحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٧٣٥.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ١٣٦.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٨/ ٣١٩.

(وكما يقول إذا سمع صفة النار) وأحوال المعذَّبين فيها: (نعوذ بالله منها) أو ما يشبهه (من غير أن يتأثَّر به قلبه، وهذا يرجع إلىٰ مجرد حركة اللسان) في الظاهر (ولا جدوىٰ له، فأما إذا انضاف إليه تضرُّع القلب إلىٰ الله تعالىٰ وابتهاله في سؤاله المغفرة) منه (عن صدق إرادة) وحضور طويَّة (وخلوص نيَّة ورغبة فهذه حسنة في نفسها، فتصلُح لأنْ تُدفَع بها السيئة) وتُمحَىٰ بها (وعلىٰ هذا تُحمَل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار) ممَّا تقدم ذِكرُها في كتاب الأذكار والدعوات (حتىٰ قال ﷺ: ما أصرَّ مَن استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة) رواه أبو داود[١] والترمذي[٢] وضعَّفه وأبو يعلىٰ[٣] والبيهقي[٤] وابن السني في عمل يوم وليلة[٥] والدارقطني في الأفراد من حديث أبي بكر. وقد تقدم في الدعوات (وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب) مع اللسان، لا بمجرد حركة اللسان (وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنتهِ إلىٰ أواخرها، ولذلك قال) أبو محمد (سهل) بن عبد الله التستري رحمه الله تعالىٰ: (لا بد للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء، فإن عصىٰ يقول: يا رب استر عليَّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تُبْ عليَّ، فإذا تاب قال: يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال: يا رب تقبَّلْ مني) نقله صاحب القوت.

(وسُئل) سهل (أيضًا) رحمه الله تعالىٰ (عن الاستغفار الذي يكفِّر الذنوب، فقال: أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله علىٰ مولاه بأن يترك الخلق) ولفظ القوت: وترك الخَلق (ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وتركِ

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٢٩٣.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٥٢٣.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ١/ ١٢٤ - ١٢٥.

(٤) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣١٧.

(٥) عمل اليوم والليلة ص ٢٢٠.

الشكر، فعند ذلك يُغفَر له ويكون عنده مأواه، ثم ينتقل إلىٰ الانفراد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم الفكر، ثم المعرفة، ثم المناجاة، ثم المُصافاة، ثم الموالاة، ثم محادثة السر وهو الخلَّة، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتىٰ يكون العلم غذاءه، والذِّكر قوامه، والرضا زاده) والتفويض مراده **(والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله تعالىٰ إليه فيرفعه إلىٰ العرش، فيكون مقامه مقام حَمَلة العرش)** هكذا نقله صاحب القوت.

وفي الرسالة للقشيري: وقال ابن عطاء: التوبة [توبتان]: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه.

(وسُئل) سهل رحمه الله تعالىٰ **(أيضًا عن قوله ﷺ: التائب حبيب الله)** كما تقدم في أول هذا الكتاب: متىٰ يكون التائب حبيب الله؟ **(فقال: إنما يكون حبيبًا إذا كان فيه جميع ما ذكره الله في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ الآية كلها)** تمامها: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة: ١١٢] فالعابدون[١] هم المخلصون في عبادة الله، والحامدون علىٰ نعمة الإسلام، والسائحون هم الصائمون، والراكعون الساجدون أي المحافظون علىٰ الصلوات، والحافظون لحدود الله أي أوامره ونواهيه، أو معالم الشرع **(وقال: الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه)** ولفظ القوت: ثم قال: الحبيب لا يدخل إلا في شيء يحبه الحبيب.

(والمقصود أن للتوبة ثمرتين، إحداهما: تكفير السيئات حتىٰ يصير كمَن لا ذنب له) وإليه الإشارة في الخبر: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له» **(والثانية: نيل الدرجات حتىٰ يصير حبيبًا)** وإليه الإشارة في الخبر: «التائب حبيب الله» **(وللتكفير**

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي ١/ ٧١٢ - ٧١٣.

أيضًا درجات، فبعضه محوٌ لأصل الذنب بالكلِّية، وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب والتدارُك بالحسنات وإن خلا عن حلِّ عقدة الإصرار في أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها، بل عُرْف أهل المشاهدة) لعجائب عالَم الملكوت (وأرباب القلوب) والبصائر (معرفة لا ريب فيها) ولا تردُّد (أن قول الله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] حق و(صدق، وأنه لا تخلو ذرَّة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تُطرَح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرةُ الأولىٰ عن أثر لكانت الثانية مثلها، ولكان لا يرجح الميزانُ بأحمال الذرَّات، وذلك بالضرورة مُحال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرَّات الخيرات) إذا جُمعت إلىٰ بعضها (إلىٰ أن يثقل فتشيل كفَّة السيئات، فإيَّاك أن تستصغر ذرَّات الطاعات) وتستحقرها (فلا تأتيها و) تستصغر (ذرات المعاصي فلا تتَّقيها فتكون كالمرأة الخرقاء) وهي التي إذا عملت في شيء لم ترفق فيه (تكسل عن الخيط تعلُّلاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا علىٰ خيط واحد وتقول: أيُّ غنًىٰ يحصل بخيط؟ وما وَقْعُ ذلك في الثياب)؟ أي ما قدْره (ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا) كلها إنما (اجتمعت خيطًا خيطًا، وأن أجسام العالَم مع اتساع أقطاره) إنما (اجتمعت ذرة ذرة. فإذًا التضرُّع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً) بل هي محسوبة له في ميزان الحسنات (بل أقول): إن (الاستغفار باللسان أيضًا حسنة؛ إذ حركة اللسان بها عن غفلة) من حضور القلب (خيرٌ من حركة اللسان في تلك الساعة بغِيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضلُه بالإضافة إلىٰ السكوت عنه، وإنما يكون نقصًا بالإضافة إلىٰ عمل القلب، ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان) سعيد بن سلام (المغربي) قال القشيري في الرسالة[1]: واحد عصره، لم يوصَف مثله قبله، صحب ابنَ الكاتب وأبا عمرو الزجاجي، ولقي النهرجوري وابن الصائغ وغيرهم،

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٢٣.

مات بنيسابور سنة ٣٧٣، وأوصىٰ بأن يصلي عليه الإمام أبو بكر ابن فورك رحمه الله تعالىٰ (إن لساني في بعض الأحوال) وفي نسخة: الأوقات (يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل. فقال: اشكر الله) تعالىٰ (إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوَّده الذِّكر، ولم يستعمله في الشر ولم يعوِّده الفضولَ.

وما ذكره حق) لا مِرية فيه (فإنَّ تعوُّد الجوارح للخيرات حتىٰ يصير لها ذلك كالطبع) اللازم (يدفع جملة من المعاصي، فمَن تعوَّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبًا سبق لسانُه إلىٰ ما تعوَّده فقال: أستغفرُ الله. ومَن تعوَّد الفضولَ سبق لسانُه إلىٰ أن يقول: ما أحمقك! وما أقبح كذبك! ومَن تعوَّد الاستعاذة إذا حدَّث) أي أخبر (بظهور مبادئ الشر من شِرِّير قال بحكم سبقِ اللسان: نعوذ بالله) أو عياذًا بالله، أو العياذ بالله (وإذا تعوَّد الفضولَ قال: لعنه الله) أو قبَّحه الله، أو قاتله الله (فيعصي في إحدىٰ الكلمتين ويَسلم في الأخرىٰ، وسلامته أثرُ اعتياد لسانه الخير، وهو من جملة معاني قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠] ومعاني قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠] فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتىٰ دفع بتلك العادة شر العصيان بالغِيبة واللعن والفضول. هذا تضعيف في الدنيا لأدنىٰ الطاعات، وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) قال تعالىٰ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١] (فإيَّاك وأن تَلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتُك) أي تضعُف (في العبادات، فإنَّ هذه مكيدة روَّجها) أي زيَّنها (الشيطان بلعنته) أي طردِه عن حضرة القُرب (علىٰ المغرورين) والحمقىٰ (وخيَّل إليهم) بأن ألقىٰ في أذهانهم (أنهم أرباب البصائر وأهل التفطُّن للخفايا والسرائر، فأيُّ خير في ذِكرنا باللسان مع غفلة القلب) وقد تتمكَّن فيهم هذه الوسوسة (فانقسم الخَلق في هذه المكيدة إلىٰ ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. أما السابق فقال: صدقتَ يا ملعون، ولكن هي كلمة حق أردتَ بها باطلاً) وهو تفويته عن

الخير (**فلا جَرَم أعذِّبك مرتين، وأرغمُ أنفَك**) أي أُلصِقُها بالرَّغام وهو التراب (**من وجهين، فأضيف إلىٰ حركة اللسان حركةَ القلب**) فيتوافقان (**فكان كالذي داوىٰ جرح الشيطان بنثر الملح عليه**) بل كان كمَن أراد أن يصطاد فاصطيدَ (**وأما الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفِطنة**) وعُجْب الإدراك (**لهذه الدقيقة، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطانَ**) بمراده (**وتدلَّىٰ بحبل غروره، فتمَّت بينهما المشاركة**) وفي نسخة: المشاكلة (**والموافقة**) فكان (**كما قيل**) في المَثل: (**وافق شنٌّ طَبَقَه، وافقه فاعتنقه**) الشَّن بالفتح: وعاء من أدم يوضع فيه الماء وغيره، وطبقه: غطاؤه. أي وافق الشنُّ غطاءه؛ هكذا فسَّره الزمخشري في الأساس[١]. وقال[٢] [ابن] الكلبي: قولهم: أوفقُ من طبق لشن، طبق: قبيلة من إياد، وشن: من ربيعة[٣]، فأوقعت طبقة بشن، فانتصفت منها، فقالوا: وافق شنٌّ طبقه. وأنشد في ذلك:

لقيتْ شنٌّ إيادًا بالقَنا ولقد وافق شنٌّ طبقَه[٤]

(**وأما المقتصد فلم يقدر علىٰ إرغامه بإشراك القلب في العمل، وتفطَّنَ لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلىٰ القلب، ولكن اهتدىٰ إلىٰ كماله بالإضافة إلىٰ السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالىٰ أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير. فكان السابق كالحائك الذي ذُمَّت حياكته فتركها وأصبح كاتبًا، والظالم لنفسه المتخلِّف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كنَّاسًا**) يكنس الزبالات (**والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مَذَمَّة الحياكة، ولكن الحائك**

---

(١) أساس البلاغة ١/ ٥٩٤.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠، ٣٧٩.

(٣) انظر: معجم قبائل العرب ٢/ ٦١٢، ٦٧٥.

(٤) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

وفي أمالي اليزيدي ص ٥٩ - ٦٠ (ط - دائرة المعارف العثمانية بالهند) أن البيت لكاهنة من إياد.

مذموم بالإضافة إلىٰ الكاتب لا بالإضافة إلىٰ الكنَّاس، فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة، ولذلك قالت رابعة العدوية) رحمها الله تعالىٰ: (استغفارنا يحتاج إلىٰ استغفار) نظرًا إلىٰ ذلك (فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذِكر الله) تعالىٰ (بل) هي (تذم غفلة القلب، فهو محتاج إلىٰ الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضًا احتاج إلىٰ استغفارين لا إلىٰ استغفار واحد، فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يُذَم وحمد ما يُحمَد وإلا جهلتَ معنىٰ ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين) وهو من كلام أبي سعيد الخَرَّاز، كما قاله ابن عساكر في ترجمته، وقد تقدم (فإنَّ هذه أمور تثبُت بالإضافة، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغي أن لا تستحقر ذرَّات الطاعات والمعاصي، ولذلك قال) أبو عبد الله (جعفر الصادق) رحمه الله تعالىٰ: (إن الله خبَّأ ثلاثًا في ثلاث) خبأ (رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها) أي من الطاعات (شيئًا، فلعل رضاه فيه. و) خبأ (غضبه في معاصيه، فلا تحقروا منها شيئًا، فلعل غضبه فيه. و) خبأ (ولايته) وفي نسخة: وليَّه (في عِباده، فلا تحقروا منهم أحدًا) وفي نسخة: فلا تحقروا من عباد الله أحدًا (فلعله وليُّ اللهِ. وزاد) رابعًا فقال: (وخبأ إجابته في دعائه بأسمائه، فلا تتركوا شيئًا منها) وفي نسخة: فلا تتركوا الدعاء (فربما كانت الإجابة فيه)[1] وبه تم الركن الثالث.

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير ص ٢٩٠ بنحوه من كلام ذي النون المصري.

الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

(اعلمْ) أرشدك الله (أن الناس قسمان) الأول: (شاب لا صَبْوة له) وهو الميل إلىٰ هوىٰ النفس بمقتضَىٰ السن (نشأ) من صغره (علىٰ الخير واجتناب الشر، و) هذا (هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: تعجَّب ربُّك من شاب ليست له صَبْوة) والعجب[١]: كون الشيء خارجًا عن نظائره من جنسه حتىٰ يكون ندرة في صنفه. ويكون استعظام الشيء واستكباره لخروجه عن العادة وبُعده [عن العُرف] وذلك ممَّا يُنزَّه عن مثله الباري تعالىٰ، فيؤوَّل بمعنىٰ: يعظُم قدرُه عنده فيجزل له أجره، وإنما عبَّر بذلك تقريبًا لأفهام العرب.

قال العراقي[٢]: رواه أحمد[٣] والطبراني[٤] من حديث عقبة بن عامر، وفيه ابن لهيعة.

قلت: وكذلك رواه أبو يعلىٰ[٥] وتمام في فوائده[٦] والقضاعي في مسند الشهاب[٧]، كلهم من طريق ابن لهيعة حدثنا أبو عُشَّانة عن عقبة بن عامر مرفوعًا

(١) فيض القدير ٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤. نظم الدرر للبقاعي ٣/ ١٢٩. بحر الفوائد للكلاباذي ص ٢٠٢.

(٢) المغني ٢/ ١٠٠٤ - ١٠٠٥.

(٣) مسند أحمد ٢٨/ ٦٠٠.

(٤) المعجم الكبير ١٧/ ٣٠٩.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ٣/ ٢٨٨.

(٦) فوائد تمام ١/ ١١٦.

(٧) مسند الشهاب ١/ ٣٣٦.

بلفظ: «إن الله لَيعجبُ من الشاب ليست له صبوة». وسنده حسن، وضعَّفه الحافظُ ابن حجر في فتاويه لأجل ابن لهيعة. وأما سياق المصنِّف فوجدته في «تاريخ مصر» لابن الربيع الجيزي قال: حدثني أبي، حدثنا أبو الأسود نصر بن عبد الجبار وأسد بن موسىٰ. ح. وحدثنا عبد الله بن نعمة، حدثني محمد بن قُدامة ويحيىٰ بن عبد الله بن بكير وعمر بن خالد، قالوا وهم خمسة: حدثنا، وعند بعضهم: أخبرنا ابن لهيعة، عن أبي عشانة، وعند بعضهم: حدثنا أبو عشانة قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول ... فذكره، وعند بعضهم: يعجب ربُّك تعالىٰ. وعند بعضهم: عَزَّوَجَلَّ.

وروينا في خبر أبي حاتم الحضرمي من حديث الأعمش عن إبراهيم النخعي قال: كان يعجبهم أن لا يكون للشاب صبوة(١).

تنبيه: هل الأفضل شاب لا صبوة له لكونه لم يلابس كبيرةً ونجا من ضررها وخطرها والسؤال عنها في القيامة أو مَن قارف الذنوبَ وتاب توبة نصوحًا لكونه أقلع عن الشهوات لله بعد إلفه لها وتعوُّده لذَّاتها ثم فارق لذَّته وشهوته لله؟ قولان، وكلام المحاسبي يقتضي ترجيحَ الأول. والله أعلم.

(**وهذا عزيز نادر**) الوجود؛ لخروجه عن العادة وبُعده عن العُرف.

(**والقسم الثاني هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب**) وملابستها (**ثم هم ينقسمون إلىٰ مصرِّين**) عليها (**وإلىٰ تائبين**) عنها (**وغرضنا**) الآن (**أن نبيِّن العلاج في حل عقدة الإصرار، ونذكر الدواء فيه**).

(**فاعلمْ أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء، ولا يقف علىٰ الدواء مَن لا يقف علىٰ**) أصل (**الداء**) وحقيقته ومن أين مبدؤه (**إذ لا معنىً للدواء إلا مناقضة أسباب الداء**) ومضادَّتها (**فكل داء حصل من سبب فدواؤه حلُّ ذلك السبب**) وفي

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ٣١٤، والخرائطي في اعتلال القلوب ص ٢٦٩.

نسخة: لأجل ذلك السبب (ورفعُه) وفي نسخة: ودفعه (وإبطاله، ولا يبطُل الشيءُ إلا بضده) ومُناقِضه (ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة[١]، ولا يضاد الغفلةَ إلا العلم، ولا يضادُّ الشهوة إلا الصبر علىٰ قطع الأسباب المحرِّكة للشهوة) وهي أسباب كثيرة تقدم ذِكرُها في كتاب كسر الشهوتين (والغفلة رأس الخطايا) وأمُّها، فإن منها تنشأ (قال الله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٠٩﴾) [النحل: ١٠٨ - ١٠٩] دلَّ ذلك علىٰ أن خسرانهم في أرباح معاملات الآخرة إنما سببها الغفلة، فقد جعل الله أهل الغفلة في الدنيا هم أهل الخسران في العقبىٰ (فلا دواء للتوبة إذًا إلا معجون) مركَّب (يُعجَن من) جزأَيْ (حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يُجمَع في السكنجبين بين حلاوة السكر) أو العسل (وحموضة الخل) مع تبايُن مزاجيهما (ويُقصَد بكل واحد منهما) أي من السكر والخل (غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيِّجة للصفراء، فهكذا ينبغي أن يُفهَم علاج القلب ممَّا به من مرض الإصرار. فإذًا لهذا الدواء أصلان) بهما يتم تركيبه (أحدهما: العلم) وهو الجزء الأكبر (والآخر: الصبر، ولا بد من بيانهما) ليتضح به المقصود.

(فإن قلتَ: أينفع كل علم) يتعلَّمه الإنسان (لحلِّ عقدة الإصرار أم لا بد من علم مخصوص)؟ فإن العلوم تتفاوت مراتبها (فاعلمْ أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب، ولكن) ليس كل فرد من أفراد العلوم ينفع لكل مرض من أمراض القلوب، فكما أن العلوم كثيرة فكذلك أمراض القلوب كثيرة، بل (لكل مرض علمٌ يخصُّه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض) البدنية (بالجملة ولكن يخص كلَّ علة علمٌ مخصوص) به يُستعان علىٰ إزالة تلك العلة (فكذلك دواء الإصرار، فلنذكر خصوص ذلك العلم علىٰ موازنة مرض الأبدان؛ ليكون ذلك أقرب إلىٰ الفهم، فنقول: يحتاج المريض إلىٰ التصديق بأمور) أربعة:

---

(١) في المطبوعة: إلا الشهوة والغفلة. والمثبت من الجميع، وهو أولىٰ.

(الأول: أن يصدِّق علىٰ الجملة بأن للصحة والمرض أسبابًا يُتوصل إليها بالاختيار علىٰ ما رتبَّه مسبِّب الأسباب) جل جلاله (وهذا هو الإيمان بأصل الطب، فإنَّ مَن لا يؤمن به لا يشتغل بأصل العلاج ويحقُّ عليه الهلاك) أي يثبُت (وهذا وزانُه ممَّا نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببًا هو الطاعة، وللشقاوة سببًا هو المعصية، وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق) وبرهان (أو) عن (تقليد، وكلاهما من جملة الإيمان) وهذا علىٰ صحة إيمان المقلِّد كما هو مذهب أهل السنة.

(الثاني: أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معيَّن أنه عالم بالطب، حاذق فيه) بصير بمسائله (صادق فيما يعبِّر عنه) ويرويه (لا يلبِّس) أي لا يخلط (ولا يكذب) فيما يقول (فإنَّ إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرَّده دون هذا الإيمان، ووزانه ممَّا نحن فيه العلمُ بصدق الرسول ﷺ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف.

الثالث: أنه لا بد وأن يصغي إلىٰ الطبيب فيما يحذِّره عنه من تناول الفواكه) الرطبة (والأسباب المضرَّة علىٰ الجملة حتىٰ يغلب عليه الخوفُ في ترك الاحتماء) عن المحذورات (فتكون شدة الخوف باعثة له علىٰ الاحتماء) منها (ووزانه) ممَّا نحن فيه (من الدين الإصغاء إلىٰ الآيات والأخبار المشتملة علىٰ الترغيب في التقوىٰ) والخشية (والتحذير من ارتكاب الذنوب واتِّباع الهوىٰ والتصديق بجميع ما يُلقَىٰ إلىٰ سمعه من ذلك من غير شكٍّ واسترابة) وتردُّد (حتىٰ ينبعث به الخوف المقوِّي علىٰ الصبر الذي هو الركن الآخَر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلىٰ الطبيب فيما يخصُّ مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه؛ ليعرِّفه أولاً تفصيل ما يضرُّه من أحواله وأفعاله ومأكوله ومشروبه، فليس علىٰ كل مريض الاحتماء عن كل شيء، ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علَّة خاصة علمٌ خاص وعلاج خاص، ووزانه) ممَّا نحن فيه (من الدين أن كل عبد فليس يُبتلَىٰ بكل

شهوة وارتكاب كل ذنب، بل لكل مؤمن ذنبٌ مخصوص أو ذنوب مخصوصة، وإنما حاجته في الحال مرهقة) أولاً (إلىٰ العلم بأنها ذنوب، ثم إلىٰ العلم بآفاتها وقدْر ضررها) في الدين (ثم إلىٰ العلم بكيفية التوصل إلىٰ الصبر عنها، ثم إلىٰ العلم بكيفية تكفير ما سبق منها) والضمائر كلها راجعة إلىٰ الذنوب (فهذه علوم يختصُّ بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء) عليهم السلام، كما هو في حديث أبي الدرداء عند أحمد وأبي داود والترمذي وابن حبان، وفي حديث البراء عند أبي نعيم والديلمي وابن النجار[١] (فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلبُ العلاج من الطبيب وهو العالِم، وإن كان) العبد (لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلىٰ العالِم أن يعرِّفه ذلك) بأن الذي ارتكبه محظور، وعاقبته مخطرة (وذلك بأن يتكفَّل كل عالِم بإقليم) هو فيه (أو بلدة أو محلَّة أو مسجد أو مشهد فيعلِّم أهله دينهم) أي أهل إقليمه أو بلدته أو محلَّته أو مسجده (ويميِّز) لهم (ما يضرُّهم) في الدين (عمَّا ينفعهم، وما يشقيهم عمَّا يسعدهم، ولا ينبغي) للعالِم (أن يصبر) ويسكت (إلىٰ أن يُسئل عنه، بل ينبغي أن يتصدَّىٰ لدعوة الناس إلىٰ نفسه، فإنهم) أي العلماء (ورثة الأنبياء، والأنبياء) عليهم السلام (ما تركوا الناس علىٰ جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مَجامِعهم) ونواديهم (ويدورون علىٰ أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدًا واحدًا فيرشدونهم) إلىٰ طريق التوحيد والهداية (فإن مرضىٰ القلوب لا يعرفون مرضهم) فيحتاجون إلىٰ مَن يعرِّفهم (كما أن الذي ظهر علىٰ وجهه برَصٌ) وهو لمع بِيض (ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرِّفه غيرُه، وهذا فرض عين علىٰ العلماء كافة، وعلىٰ السلاطين كافة أن يرتِّبوا في كل قرية وفي كل محلَّة فقيهًا متديِّنًا يعلِّم الناسَ) أمور (دينهم، فإن الخَلق لا يولَدون إلا جهَّالاً) وإنما العلم بالتعلُّم (فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع، والدنيا دار المرضىٰ؛ إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت، ولا علىٰ ظهرها إلا سقيم، ومرضىٰ القلوب أكثر من مرضىٰ

---

(١) تقدم ذلك في أول كتاب العلم.

الأبدان، والعلماء أطباء) يداوون أولئك المرضىٰ (والسلاطين قُوَّام دار المرضىٰ، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالِم يسلَّم إلىٰ السلطان ليكفَّ شره، كما يسلِّم الطبيبُ المريضَ الذي لا يحتمي) عن تناول المضرَّات (أو الذي غلب عليه الجنون) يسلَّم (إلىٰ القيِّم) بالمارستان (ليقيِّده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس).

(وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها: أن المريض به لا يدري أنه مريض) بخلاف مريض البدن فإنه يظهر له مرضُه.

(الثانية: أن عاقبته غير مشاهَدة في هذا العالَم) بل إنما يشاهدها في عالم الآخرة (بخلاف مرض البدن فإنَّ عاقبته موت مشاهَد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهَد، وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهَد في هذا العالم، فقلَّت النفرة من الذنوب وإن علمها مرتكبُها، فلذلك تراه يتَّكل علىٰ فضل الله تعالىٰ في مرض القلب، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتِّكال) ولا ثقة بالله.

(الثالثة، وهي الداء العُضال) المُعطِب: (فقدُ الطبيب، فإن الأطباء) لهذا الداء (هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضًا شديدًا عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم [غموض][1] المرض حتىٰ لا يظهر نقصانهم، فاضطرُّوا إلىٰ إغواء الخلق) وإضلالهم (والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضًا؛ لأن الداء المهلك هو حب الدنيا) وهو رأس كل خطيئة، كما ورد في الخبر (وقد غلب هذا الداءُ علىٰ الأطباء فلم يقدروا علىٰ تحذير الخلق منه استنكافًا) واستكبارًا (من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج) لغيركم (وتنسون أنفسكم) فلا تعالجونها، فيكون سببًا لفضيحتهم بينهم (فبهذا السبب عمَّ علىٰ الخلق الداءُ وعظُم الوباءُ) وفشا (وانقطع

---

(١) هذه الزيادة ليست في الجميع.

الدواء) وأيس منه (وهلك الخلقُ لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء) وأنواع الإضلال (فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشُّوا، وإذ لم يُصلِحوا لم يُفسِدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا، فإنهم إذا تكلموا لم يهمَّهم في مواعظهم إلا ما يرغِّب العوامَّ) من الناس (ويستميل قلوبهم) إليهم (ولا يتوصَّلون إلىٰ ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء) علىٰ الخوف (وذِكر دلائل الرحمة) وأخبارها (لأن ذلك ألذ في الأسماع وأخف علىٰ الطباع، فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ) والتذكير (وقد استفادوا مزيدَ جراءة علىٰ المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله) تعالىٰ وأمنٍ من عذابه (ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائنًا أهلكَ بالدواء) الذي يعالج خلقًا كثيرًا (حيث يضعه في غير موضعه، فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادَّي العلة، أما الذي غلب عليه الخوف حتىٰ هجر الدنيا بالكلِّية وكلَّف نفسه ما لا تطيق) من الأمور الثِّقال (وضيَّق العيشَ علىٰ نفسه بالكلِّية فيكسر سَوْرة إسرافه) وجَوَران إفراطه (في الخوف بذكر أسباب الرجاء؛ ليعود) بذلك (إلىٰ الاعتدال) المحبوب (وكذلك المصرُّ علىٰ الذنوب) الملازم عليها (المشتهي للتوبة، الممتنع عنها بحكم القنوط) من رحمة الله (واليأس) من رَوْح الله (استعظامًا لذنوبه التي سبقت) كالذي قتل تسعة وتسعين نفسًا واشتهىٰ أن يتوب (يعالَج أيضًا بأسباب) موصلة إلىٰ (الرجاء حتىٰ يطمع في قبول التوبة فيتوب، فأما معالجة المغرور) في أحواله (المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجةَ المحرور بالعسل) مع حرارة طبعه (طلبًا للشفاء) وأنَّىٰ له ذلك؟ (وذلك من دأب الجهَّال والأغبياء. فإذًا فساد الأطباء هو الداء المعضل الذي لا يقبل الدواءَ أصلاً.

فإن قلتَ: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق؟ فاعلمْ أن ذلك يطول) بيانه (ولا يمكن استقصاؤه. نعم، نشير إلىٰ الأنواع النافعة في حلِّ عقدة الإصرار وحمل الناس علىٰ ترك الذنوب، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوِّفة للمذنبين والعاصين) وهي

كثيرة (**وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار**) المرفوعة والموقوفة (**مثل قوله ﷺ: ما من يوم طلع فجرُه ولا ليلة غاب شَفَقُها إلا ومَلَكان يتجاوبان بأربعة أصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق**) وفي نسخة: الخلائق (**لم يُخلَقوا. ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا. ويقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خُلقوا عملوا بما علموا. وفي بعض الروايات: ليتهم تَجالسوا فتذاكروا ما علموا. ويقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا ممَّا عملوا**) هكذا نقله صاحب القوت وقال: جمعناها من أخبار متفرقة.

وقال العراقي[١]: غريب، لم أجده هكذا. وروى الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر [بسند ضعيف]: «إن لله ملَكًا ينادي في كل يوم وليلة: أبناء الأربعين، زرعٌ قد دنا حصاده ...» الحديث، وفيه: «ليت الخلائق لم يُخلَقوا، وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ...» الحديث.

قلت: وبيان تلك الأخبار المتفرقة أن نقول: أما قوله «ما من يوم» فهو أول حديث لفظه: «ما من يوم طلعت شمسه إلا يقول ...» الحديث، وفيه: «وما من يوم إلا ينادي مناديان من السماء، يقول أحدهما: يا طالب الخير أبشِرْ، يا طالب الشر أقصِرْ. ويقول الآخر: اللهم أعطِ لمنفق مالاً خلفًا، اللهم أعطِ ممسكًا مالاً تلفًا». رواه البيهقي[٢] عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن أخنس مرسلاً. ورواه الديلمي عنه عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس، وزاد: «وكذلك يقول في الليل».

وروى الديلمي[٣] من حديث أبي هريرة: «إن لله ملَكًا بباب من أبواب السماء يقول: مَن يقرض اليوم يجازَىٰ غدًا، وملَكًا بباب آخر ينادي: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٥.

(٢) شعب الإيمان ٥/ ٣٦٦.

(٣) وكذلك أحمد في مسنده ١٣/ ٤١٩، وابن حبان في صحيحه ٨/ ١٢٤، والطبراني في المعجم الأوسط ٨/ ٣٨٠.

وعجِّلْ لممسك تلفًا».

وأما حديث ابن عمر فلفظه بعد قوله «قد دنا حصادُه»: «أبناء [الخمسين أبناء] الستين هلمُّوا إلىٰ الحساب، ماذا قدَّمتم؟ وماذا عملتم؟ أبناء السبعين هلمُّوا إلىٰ الحساب، ليت الخلائق لم يُخلَقوا ...»، الحديث، وفيه بعد قوله «فتذاكروا»: «وإلا أتتكم الساعة، فخذوا حِذْركم»(١).

وقال صاحب الحلية(٢): حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن البغدادي، حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن المخزومي، حدثنا عبد الرزاق، حدثني بكَّار بن عبد الله، عن وهب قال: قرأت في بعض الكتب أن مناديًا ينادي من السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين [أنتم] زرع قد دنا حصاده. أبناء الخمسين، ماذا قدَّمتم؟ وماذا أخَّرتم؟ أبناء الستين، لا عذر لكم. ليت الخلق لم يُخلَقوا ... فساقه كسياق الديلمي.

(وقال بعض السلف: إذا أذنب العبد أمر صاحبُ اليمين صاحبَ الشِّمال - وهو أمير عليه - أن يرفع القلم عنه ست ساعات، فإن تاب) إلىٰ الله تعالىٰ **(واستغفر)** من ذنبه **(لم يكتبها عليه، وإن لم يستغفر كتبها)** نقله صاحب القوت(٣).

(وقال بعض السلف: ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفه من السماء أن يُسقِط عليه كِسَفًا) أي قِطعًا **(فيقول الله تعالىٰ للأرض والسماء: كُفَّا عن عبدي)** أي امتنِعا عنه **(وأمهِلاه، فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له، ولعله يستبدل صالحًا فأبدله له حسنات. فذلك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن**

---

(١) كنز العمال ١٦/ ٧٨.

(٢) حلية الأولياء ٤/ ٣٣.

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٢٥، ٢٩٥ والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٢٧١ مرفوعا من حديث أبي أمامة، وقال العراقي في المغني ٢/ ١٠٥٣: في سنده لين.

زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾) عن معاصيهم ﴿غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١] لمساوئهم. نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: وفي خبر: ما من عبد يعصي ... فساقه. قال: وقيل في تفسير ذلك: إن الله تعالىٰ إذا نظر إلىٰ معاصي العباد غضب، فترجف الأرضُ وتضطرب السماء، فتنزل ملائكة السماء فتمسك أطراف الأرض، وتصعد ملائكة الأرض فتمسك أطراف السماء، ولا يزالون يقرأون «قل هو الله أحد» حتىٰ يسكن غضبه، فذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾. وقال بعض السلف: إذا ضُرب الناقوس في الأرض ودُعي بدعاء الجاهلية اشتد غضب الرب، فإذا نظر إلىٰ صبيان المكاتب ورأىٰ عُمَّار المساجد وسمع أصوات المؤذِّنين - وقيل: إذا نظر إلىٰ المتحابِّين في الله والمتزاورين فيه - حلُمَ وغفر، فذلك قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

(**وفي حديث عمر بن الخطاب** رضي الله عنه) كذا في نسخ الكتاب، والصواب: وفي حديث ابن عمر. وهكذا هو في القوت: عن النبي ﷺ أنه قال: (**الطابع**) بالكسر: ما يُطبع به (**معلَّق بقائمة من قوائم العرش**) ولفظ القوت: بساق العرش (**فإذا انتُهِكت الحرمات واستُحِلَّت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع علىٰ القلوب بما فيها**) قيل[1]: هو علىٰ سبيل المجاز والاستعارة؛ ذكره الزمخشري[2]. وقال البغوي في شرح السنة: والأقوىٰ إجراؤه علىٰ الحقيقة لفقدِ المانع، والتأويل لا يُصار إليه إلا لمانع.

قال العراقي[3]: رواه ابن عدي[4] وابن حبان في الضعفاء[5] من حديث ابن عمر، وهو منكر.

---

(١) فيض القدير ٤/ ٢٨٥.

(٢) أساس البلاغة ١/ ٥٩٣، وعبارته: «من المجاز: طبع الله علىٰ قلب الكافر».

(٣) المغني ٢/ ١٠٠٥.

(٤) الكامل في الضعفاء ٣/ ١١٣٤.

(٥) المجروحون من المحدثين ١/ ٤١٧.

قلت: ورواه أيضًا البزار في مسنده[١] والبيهقي في الشعب[٢] والديلمي[٣]، ولفظهم جميعًا: «الطابع معلَّق بقائمة العرش، فإذا انتُهكت الحُرمة وعُمل بالمعاصي واجتُرئ علىٰ الله بعث الله الطابع فيطبع علىٰ قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئًا». وقول العراقي «هو منكر»؛ لأن فيه سليمان بن مسلم الخَشَّاب، قال الذهبي في الميزان[٤]: لا تحل الروايةُ عنه إلا للاعتبار. وساق من مناكيره هذا الخبر، وأعاده في محل آخر وقال: هو موضوع في نقدي. ووافقه الحافظ ابن حجر في اللسان[٥]. ولكن اقتصر المنذري[٦] علىٰ تضعيف هذا الخبر. وزاد الهيثمي[٧] فقال: فيه سليمان الخَشَّاب، ضعيف جدًّا.

(وفي حديث مجاهد: القلب مثل الكف المفتوحة، كلما أذنب العبد ذنبًا انقبضت أصبع، حتىٰ تنقبض الأصابع كلها، فيُسَد علىٰ القلب، فذلك هو الطبع) هكذا هو، وفي القوت: فتشبك علىٰ القلب. وفي نسخة منه كما عند المصنِّف.

قال العراقي[٨]: كأنَّه أراد به قول مجاهد، وكذا ذكره المفسرون[٩] من قوله وليس بمرفوع، وقد رويناه في شعب الإيمان للبيهقي[١٠] من

---

(١) مسند البزار ١٢/ ٢٤٠.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٣٧٩.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤٦٣.

(٤) ميزان الاعتدال ٢/ ٢٢٣ نقلا عن ابن حبان.

(٥) لسان الميزان ٤/ ١٧٧.

(٦) أورده المنذري في الترغيب والترهيب ص ٨٩٩، ٩٥٨ ولم يضعفه.

(٧) مجمع الزوائد ٧/ ٥٣٠.

(٨) المغني ٢/ ١٠٠٥.

(٩) رواه عنه الطبري في جامع البيان ١/ ٢٦٦، ١٥/ ٢٠١ - ٢٠٢ بألفاظ مختلفة.

(١٠) شعب الإيمان ٩/ ٣٧٤، ولفظه: «القلب بمنزلة الكف، فإذا أذنب ينقبض، ثم يذنب فينقبض، حتىٰ يجتمع، فإذا اجتمع طبع عليه، فإذا سمع خيرا دخل في أذنيه حتىٰ يأتي القلب فلا يجد منه مدخلا فيخرج، فذلك قوله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾».

حديث[1] حذيفة.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: **(إن بين العبد وبين الله حدًّا من المعاصي معلومًا إذا بلغه العبدُ طبع الله علىٰ قلبه فلم يوفِّقه بعدها لخير)** نقله صاحب القوت.

(والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تُحصَىٰ، فينبغىٰ أن يستكثر الواعظ منها) في سياق وعظه **(إن كان وارث رسول الله ﷺ، فإنه)** ﷺ **(ما خلَّف دينارًا ولا درهمًا)** قال العراقي[2]: رواه البخاري[3] من حديث عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارًا ولا درهمًا [ولا عبدًا] ولا أمة. ولمسلم[4] من حديث عائشة: ما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا شاة ولا بعيرًا **(إنما خلَّف العلمَ والحكمة)** هذا في حديث أبي الدرداء: «إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم ...» الحديث، وقد تقدم في كتاب العلم **(وورثة كل عالِم بقدْر ما أصابه)** وقُدِّر له من الأزل.

(النوع الثاني: حكايات الأنبياء) عليهم السلام **(والسلف الصالحين وما جرىٰ عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب)** عامة **(الخلق، مثل أحوال آدم** عليه السلام **في عصيانه)** عند مخالفة الأمر **(وما لقيه من الإخراج من الجنة)** والإهباط إلىٰ الأرض، وهل هي جنة الخلد أو جنة كانت في الدنيا؟ فيه خلاف كثير بين العلماء أورده ابن القيم في أوائل كتاب مفتاح عنوان دار السعادة[5] **(حتىٰ رُوي)** في بعض الأخبار **(أنه لما أكل من الشجرة)** التي نُهي عن

---

(١) في المغني: من قول.

(٢) المغني ٢/ ١٠٠٦.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٢٨٦، ٣/ ١٨٦. وتمامه: «إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة».

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٧٧١. وتمامه: ولا أوصىٰ بشيء.

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ص ٢٧ - ٨٧ (ط - دار عالم الفوائد).

أكلها (**تطايرت الحُلَل عن جسده وبدت عورته**) وكان قبل ذلك لا يراها. رواه ابن جرير عن قتادة[١] (**فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه، فجاءه جبريل** عليه السلام **فأخذ التاج عن رأسه، وحلَّ** ميكائيل (**الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش: اهبطا**) الضمير له ولحواء عليهما السلام (**من جواري، فإنه لا يجاورني مَن عصاني. قال: فالتفت آدم إلىٰ حواء باكيًا وقال: هذا أول شؤم المعصية، أُخرِجنا من جوار الحبيب**) نقله صاحب القوت.

وأخرج أبو نعيم[٢] وابن عساكر[٣] عن مجاهد قال: أوحىٰ الله إلىٰ الملَكين: أخرِجا آدم وحواء من جواري، فإنهما عصياني. فالتفت آدم إلىٰ حواء باكيًا وقال: استعدِّي للخروج من جوار الله، هذا أول شؤم المعصية. فنزع جبريل التاج [عن رأسه] وحلَّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلَّق به غصن، فظن آدم أنه قد عوجِل بالعقوبة، فنكَّس رأسه يقول: العفو العفو. فقال الله تعالىٰ: فرارًا مني؟ فقال: بل حياءً منك يا سيدي.

وقد اختُلف في الحُلَل التي كانت علىٰ آدم وحواء عليهما السلام، فقيل: هي من حُلَل الجنة. وقيل: من الظُّفْر [كما[٤] أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أسكن الله آدم الجنة كساه سِربالاً من الظفر] فلما أصاب الخطيئة سُلب السِّربال فبقي في أطراف أصابعه. ويُروَىٰ عنه: كان لباس آدم الظُّفر بمنزلة الريش علىٰ الطير، فلما عصىٰ سقط عنه لباسه وبقيت الأظفار زينة ومنافع. رواه عبد بن حميد وابن

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١٠/ ١١٣ عن قتادة عن الحسن البصري عن أبي بن كعب أن آدم عليه السلام كان رجلا طوالا، كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع بما وقع به من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك، وكان لا يراها، فانطلق هاربا في الجنة، فعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني، قالت: إني غير مرسلتك. فناداه ربه: يا آدم، أمني تفر؟ قال: رب، إني استحييتك.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ١١٣.

(٣) تاريخ دمشق ٧/ ٤٠٩.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٤٧.

جرير[١] وابن المنذر وابن أبي حاتم [وروىٰ ابن أبي حاتم] عن أنس بن مالك قال: كان لباس آدم في الجنة الياقوت، فلما عصىٰ قُلِّص فصار الظُّفُر.

(ورُوي أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقِب على خطيئته لأجل التمثال الذي عُبد في داره أربعين يومًا) قيل: إنه غزا صيدون من الجزائر، فقتل ملكها، وأصاب ابنته [جرادة] فأحبها، وكان لا يرقأ دمعها جزعًا علىٰ أبيها، فأمر الشياطين فمثَّلوا لها صورته، فكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها فيسجدون لها كعادتهن في مُلكه، فأخبره آصف، فكسر الصورة، وضرب المرأة، وخرج باكيًا إلىٰ الفَلاة متضرِّعًا. فالخطيئة تغافُلُه عن حال أهله؛ لأن اتخاذ التماثيل كان جائزًا حينئذٍ، والسجود للصورة بغير علمه لا يضرُّه. كذا ذكره البيضاوي[٢].

(وقيل: لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها، فقال: نعم، ولم يفعل. وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها علىٰ خصمه لمكانها منه) هكذا ذكره في القوت.

وروىٰ[٣] الفريابي والحكيم[٤] والحاكم[٥] وصحَّحه عن ابن عباس عند قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية [ص: ٣٤] قال: كان لسليمان امرأة يقال لها جرادة، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة، فقضىٰ بينهم بالحق، إلا أنه ودَّ أن الحق كان لأهلها، فأوحىٰ الله إليه: أن سيصيبك بلاء. فكان لا يدري يأتيه من السماء أم من الأرض.

وروىٰ ابن جرير[٦] عن السُّدِّي قال: كان لسليمان مائتا امرأة، وكانت امرأة

---

(١) جامع البيان ١٠/ ١٣٣.

(٢) أنوار التنزيل ٥/ ٢٩ - ٣٠.

(٣) الدر المنثور ١٢/ ٥٧٠ - ٥٨٣.

(٤) نوادر الأصول ص ٥٩١.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥١٠.

(٦) جامع البيان ٢٠/ ٩١.

منهن يقال لها جرادة، وهي أحظىٰ نسائه عنده وأحبهن، فجاءته يومًا من الأيام وقالت: إن أخي بينه وبين فلان خصومة، وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك. فقال: نعم. ولم يفعل (**فسُلب مُلكه أربعين يومًا، فهرب تائهًا علىٰ وجهه**).

روىٰ النسائي[1] وابن جرير[2] وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس قال: أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء، فأعطىٰ جرادة خاتمه، وكانت جرادة امرأته ومن أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. فقالت: قد أعطيته سليمانَ. قال: أنا سليمان. قالت: كذبتَ، لستَ سليمان. فجعل لا يأتي أحدًا يقول أنا سليمان إلا كذَّبه، حتىٰ جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأىٰ ذلك عرف أنه من [أمر] الله تعالىٰ.

وروىٰ عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: دخل سليمان الحمَّام، فوضع خاتمه عند امرأة من أوثق نسائه في نفسه، فأتاها الشيطان فتمثَّل لها علىٰ صورة سليمان، فأخذ الخاتم منها، فلما خرج سليمان أتاها فقال لها: هاتي الخاتم. فقالت: قد دفعته لك. فقال: ما فعلتِ. فانطلق سليمان هاربًا في الأرض يتتبَّع ورق الشجر خمسين ليلة.

وروىٰ عبد بن حميد عن ابن عباس قال: كان سليمان عليه السلام إذا دخل الخلاء أعطىٰ خاتمه أحب نسائه إليه، فإذا هو خرج وقد وُضع له وضوؤه فإذا توضأ أُخرِج إليه فأخذه فلبسه، فدخل يومًا الخلاء، فدفع خاتمه إلىٰ امرأته، فلبث ما شاء الله، وخرج عليها شيطان في صورة سليمان، فدفعت إليه الخاتم، فنهض به وألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، فخرج سليمان علىٰ امرأته فسألها الخاتم، فقالت: قد دفعته إليك. فعلم سليمان أنه قد ابتُلي، فخرج، وترك مُلكه، ولزم البحرَ، فجعل يجوع.

---

(١) السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٢.

(٢) جامع البيان ٢/ ٣٢٤.

وروىٰ ابن جرير عن السدي قال: ولما خرج سليمان من المخرج سألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه [قبلُ]؟ قال: لا. وخرج من مكانه هاربًا **(فكان يسأل بكفِّه فلا يُطعَم، فإذا قال: أطعِموني فإني سليمان بن داود، شُجَّ وضُرب وطُرد)** كذا في القوت.

وروىٰ عبد بن حميد وابن جرير[1] وابن المنذر عن مجاهد قال: كان سليمان عليه السلام يَستطعم فيقول: أتعرفوني؟ أنا سليمان. فيكذِّبونه.

وروىٰ الحكيم[2] من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام، فلم ينظر في أمورهم، ولم ينصف مظلومًا من ظالم، وكان مُلكه في خاتمه، وكان إذا دخل الحمَّام وضع خاتمه تحت فراشه [فدخل ذات يوم الخلاءَ فوضع خاتمه تحت فراشه] فجاء الشيطان فأخذه، فأقبل الناس علىٰ الشيطان، فقال سليمان: يا أيها الناس، أنا سليمان، أنا نبي الله، فدفعوه، فسأل بكفَّيه أربعين يومًا.

(وحُكي أنه استطعم من بيت لامرأته) وفي نسخة: لامرأة **(فطردته وبصقت في وجهه)** ولفظ القوت: ولقد بلغني أنه استطعم من بيت فطُرد وبزقت امرأة في وجهه **(وفي رواية)** قال: **(أخرجت)** ولفظ القوت: فأخرجت **(عجوز جَرَّة فيها بول فصبَّته علىٰ رأسه، إلىٰ أن أخرج الله له الخاتم من بطن الحوت، فلبسه بعد انقضاء الأربعين يومًا أيام العقوبة. قال: فجاءت الطيور فعكفت علىٰ رأسه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فاعتذر إليه بعض مَن كان جنىٰ عليه، فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل، ولا أحمدكم في عذركم، ألا وإن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه)** ولفظ القوت: فلما عرفه الصيَّادون عفَّروا بين يديه

(١) السابق ٢٠/ ٨٩.

(٢) وكذلك الثعلبي في الكشف والبيان ٨/ ٢٠٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩، والخرائطي في مساوئ الأخلاق ص ٢٧٩.

واعتذروا إليه ممَّا كانوا طردوه وشجُّوه، فقال: لا ألومكم قبلُ فيما صنعتم، ولا أحمدكم الآن فيما تصنعون، هذا أمر من السماء ولا بد منه. ا.هـ.

وروىٰ النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: وكان سليمان عليه السلام يحمل علىٰ شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترىٰ سمكًا فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمانَ فقال: تحمل لي هذا السمك؟ قال: نعم. قال: بكم؟ قال: بسمكة من هذا السمك. فحمل سليمان السمك ثم انطلق به إلىٰ منزله، فلما انتهىٰ الرجل إلىٰ بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشقَّ بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانَ له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلىٰ حاله.

وروىٰ عبد الرزاق(١) وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: أربع آيات في كتاب الله لم أدرِ ما هي حتىٰ سألت [عنهن] كعب الأحبار ... فذكرها، وفيه: قال ابن عباس: وسألته عن قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ قال: شيطان أخذ خاتم سليمان الذي فيه مُلكه فقذف به في البحر، فوقع في بطن سمكة، فانطلق سليمان يطوف إذ تُصُدِّق عليه بتلك السمكة، فاشتواها فأكلها فإذا هي فيها خاتمه، فرجع إليه مُلكُه.

وقال مجاهد: وكان سليمان عليه السلام يستطعم فيقول: أتعرفوني؟ أنا سليمان. فيكذِّبونه، حتىٰ أعطته امرأة يومًا حوتًا، فشق بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إلىٰ مُلكه. أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير.

وقال قتادة: ولما لبس سليمان خاتمه أقبل فجعل لا يستقبله جن ولا طير إلا سجد له حتىٰ انتهىٰ إليهم. أخرجه عبد الرزاق(٢) والمذكورون قبلُ.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٤٢٨.

وروىٰ عبد بن حميد وابن المنذر[1] عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما سليمان بن داود عليهما السلام جالس علىٰ شاطئ البحر وهو يعبث بخاتمه إذ سقط منه في البحر، وكان مُلكه في خاتمه، فانطلق وخلف شيطانًا في أهله، فأتىٰ عجوزًا فأوىٰ إليها، فقالت له العجوز: إن شئتَ أن تنطلق فتطلب وأنا أكفيك عمل البيت، وإن شئت أن تكفيني عمل البيت وأنطلق فألتمس. قال: فانطلق سليمان، فأتىٰ قومًا يصيدون السمك، فجلس إليهم، فنبذوا إليه سمكات، فانطلق [بهن] حتىٰ أتىٰ العجوزَ، فأخذت تصلحه، فشقَّت بطن سمكة فإذا فيها الخاتم، فأخذته وقالت لسليمان: ما هذا؟ فأخذه سليمان فلبسه، فأقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحوش، وهرب الشيطان الذي خلف في أهله ... الحديث.

وقال سعيد بن جبير: لمَّا انقضتْ [مدته] أتىٰ سليمان ساحل البحر، فوجد صيادين يصيدون السمك، فصادوا سمكًا كثيرًا، فأنتنَ عليهم بعضه فألقوه، فأتاهم سليمان يستطعمهم، فألقوا إليه أنتن تلك الحيتان، قال: لا، بل أطعِموني من هذا. قالوا: لا. فقال: أطعِموني فأنا سليمان. فوثب إليه بعضهم بالعصا فضربه، فأتىٰ إلىٰ تلك الحيتان التي ألقوا فأخذ منها حوتين، فانطلق بهما إلىٰ البحر فغسلهما، فشق بطن أحدهما فإذا فيه الخاتم، فأخذه فجعله في يده، فعاد إلىٰ مُلكه، فجاءه الصيادون يسعون إليه، فقال لهم: لكني قبلُ استطعمتكم فلم تطعموني وضربتموني، فلم أَلُمْكم إذ أهنتموني، ولم أحمدكم إذ أكرمتموني. أخرجه عبد بن حميد.

ويُروَىٰ عن ابن عباس قال: لما ترك سليمان مُلكه ولزم البحرَ فجعل يجوع، فأتىٰ يومًا علىٰ صيادين قد صادوا سمكًا بالأمس فنبذوه، وصادوا يومهم سمكًا فهو بين أيديهم، فقام عليهم سليمان فقال: أطعِموني بارك الله فيكم فإني ابن سبيل غرثان. فلم يلتفتوا إليه، ثم عاد فقال لهم مثله، فرفع رجل منهم رأسه [إليه] فقال:

---

(١) وكذلك ابن الأعرابي في معجمه ص ٧٢ - ٧٣، وابن أبي الدنيا في العقوبات ص ١٣٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٥٩.

ائتِ ذلك السمكَ فخذ منه سمكة. فأتاه سليمان فأخذ منه أدنىٰ سمكة، فلما أخذها إذا فيها ريح، فأتىٰ بها البحرَ فغسلها وشق بطنها فإذا هو بخاتمه، فحمد الله وأخذه وتختَّم به، ونطق كل شيء حوله من جنوده، وفزع الصيادون لذلك فقاموا إليه، وحيلَ بينهم وبينه ولم يصلوا إليه، وردَّ الله إليه مُلكه. أخرجه عبد بن حميد.

وقال الضحَّاك: دخل سليمان ﷺ علىٰ امرأة تبيع السمك، فاشترىٰ منها سمكة، فشق بطنها، فوجد خاتمه، فجعل لا يمر علىٰ شجر ولا علىٰ حجر ولا علىٰ شيء إلا سجد له، حتىٰ أتىٰ مُلكه [وأهله]. أخرجه ابن جرير[1].

وذكر ابن كثير في تفسيره[2] بعد أن أورد حديث ابن عباس الذي رواه ابن أبي حاتم وقال «إسناده قوي»: وكأنَّه تلقّاه ابن عباس عن أهل الكتاب إن صح عنه، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوَّة سليمان ﷺ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، وفيه منكرات من أشدِّها ذِكر النساء، والمشهور عن مجاهد وغيره من أئمَّة السلف أن ذلك الجني لم يسلَّط علىٰ نساء سليمان، بل عصمهن الله منه تشريفًا لنبيِّه ﷺ، وقد رُويت هذه القصة عن سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة من السلف، وكلها متلقَّاة من قصص أهل الكتاب. والله أعلم.

(ورُوي في الإسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرىٰ، فأرسل عبده ليحملها إليه، فراودته نفسه[3] وطالبته بها، فجاهدها واستعصم. قال: فنبَّأه الله ببركة تقواه فكان نبيًّا في بني إسرائيل) ولفظ القوت: وروينا في الإسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلد ولم تنلْ يدُه حملها إليه، فأمر عبدًا له فحملها إليه، فراودته نفسه وطالبته بها، فجاهدها واستعصم. قال: فنبَّأه اللهُ فكان نبيًّا من بني إسرائيل. وفي نسخة: فكان نبيًّا في بني إسرائيل.

---

(١) جامع البيان ٢٠/ ٩٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٦٩.

(٣) في المطبوعة: فراودته عن نفسه. وهو خطأ، والمثبت من الجميع، وهو الصواب لا غير.

(وفي قصص موسىٰ عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام: بِمَ أطلعك الله علىٰ علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالىٰ) نقله صاحب القوت، وزاد: فالجزاء إليه سبحانه أيضًا يجعله غاية العطاء، لا علىٰ قدْر العمل، لكن إذا عملَ له عبدٌ شيئًا لأجله أعطاه أجره بغير حساب.

(ورُوي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام، فنظر إلىٰ قميصه نظرة، وكان جديدًا، فكأنه أعجبه. قال: فوضعته الريح، فقال: لِمَ فعلتِ هذا ولم آمركِ؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعتَ الله) ولفظ القوت: ولقد بلغني أنه كان في مسيره والريح تحمله في جنوده إذ نظر إلىٰ قميصه نظرة، وكان عليه قميص جديد، فكأنه أعجبه، فوضعته الريح في الأرض، فقال لها: لِمَ فعلتِ ولم آمرك؟ فقالت: إنما أطيعك إذا أطعتَ الله.

(ورُوي أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يعقوب عليه السلام) ولفظ القوت: ولقد روينا في خبر غريب أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يعقوب عليه السلام **(أتدري لِمَ فرَّقتُ بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا. قال: لقولك لإخوته: إني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. لِمَ خفتَ عليه الذئب ولم ترجُني له؟ ولِمَ نظرتَ إلىٰ غفلة إخوته ولم تنظر إلىٰ حفظي له)**؟ كذا في القوت. زاد عليه المصنف فقال: **(وتدري لِمَ رددتُه عليك؟ قال: لا. قال: لأنك رجوتني وقلت: عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعًا. وبما قلتَ)**: يا بَنيَّ **(اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من رَوْح الله)** قال السُّدِّي: لما ذُكر يعقوب بين يدي يوسف عليهما السلام قال: ومَن يعقوب؟ فغضب روبيل وقال: أيها الملك، لا تذكرنَّ يعقوب، فإنه سَرِيُّ الله ابن ذبيح الله ابن خليل الله. فقال يوسف: إنك إذًا إن كنت صادقًا فإذا أتيتم أباكم فاقرءوا عليه مني السلام وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك أن لا تموت حتىٰ ترىٰ ولدك يوسف حتىٰ يعلم أبوكم أن في الأرض صدِّيقين مثله. ثم إنه أقام روبيل بمصر، وأقبل التسعة إلىٰ يعقوب، فأخبروه الخبر، فبكىٰ وقال: يا بَنيَّ، ما تذهبون من مرة إلا نقصتم

واحدًا، ذهبتم فنقصتم يوسف، ثم ذهبتم الثانية فنقصتم شمعون، ثم ذهبتم الثالثة فنقصتم بنيامين وروبيل، فصبر جميل، عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعًا، إنه هو العليم الحكيم. وقال: ما يكون في الأرض صدِّيق إلا ابني. فطمع وقال: لعله يوسف. ثم قال: يا بَنيَّ، اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه بمصر، ولا تيأسوا من رَوْح الله، فإنَّ من فرج الله أن يردَ يوسف[1].

وروىٰ إسحاق بن راهويه في تفسيره وابن أبي الدنيا في كتاب الفرج بعد الشدة[2] وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني في الأوسط[3] وابن مردويه والحاكم[4] والبيهقي في الشعب[5] من حديث أنس: «أتىٰ جبريل إلىٰ يعقوب عليه السلام فقال: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أتدري لِمَ أذهبتُ بصرك وقوَّست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم، فلم تعطوه منها شيئًا. فكان يعقوب إذا أراد الغداء أمر مناديًا فنادىٰ: ألا مَن أراد الغداء من المساكين فليتغَدَّ مع يعقوب. وإذا كان صائمًا أمر مناديًا فنادىٰ: ألا مَن كان صائمًا من المساكين فليفطر مع يعقوب.

(**وكذلك لمَّا قال يوسف لصاحب الملك: اذكرني عند ربِّك، قال الله تعالىٰ:** ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾) [يوسف: ٤٢] ولفظ القوت بعد قوله «ولم تنظر إلىٰ حفظي له»: فهذا علىٰ معنىٰ قول يوسف [للساقي]: اذكرني عند ربك. قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ الآية، فهذا مما يُعتَب علىٰ الخصوص من خفيِّ سكونهم ولمح نظرهم إلىٰ ما سوىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١٣/ ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٤، ٣٠٧، ٣١٤.

(٢) الفرج بعد الشدة ص ٣٦.

(٣) المعجم الأوسط ٦/ ١٧١.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٤١٢.

(٥) شعب الإيمان ٥/ ٨٦.

(وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر) لكثرتها (ولم يَرِدْ بها القرآن والأخبار ورود الأسمار) أي الحكايات التي يُسمَر بها في المجالس (بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار؛ لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام) مع جلالة قدرهم عند الله تعالىٰ (لم يُتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يُتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار) فليعتبر بذلك العبدُ ويكون علىٰ غاية الوَجَل (نعم، كانت سعادتهم في أن عوجِلوا بالعقوبة) بما ابتُلوا به في الدنيا (ولم يؤخَّروا إلىٰ الآخرة) فهؤلاء هم السعداء (و) أما (الأشقياء) المحرومون فإنهم (يُمهَلون) إلىٰ الآخرة (ليزدادوا إثمًا) علىٰ إثم (ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر) من عذاب الدنيا (فهذا أيضًا مما ينبغي أن يكثُر جنسُه علىٰ أسماع المصرِّين) علىٰ ذنوبهم (فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة) إن شاء الله تعالىٰ.

(النوع الثالث: أن يقرَّر عندهم) ويودَع في أذهانهم (أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقَّع علىٰ الذنوب) في الدنيا (وأن كل ما يصيب العبد من المصائب) والبلايا (فهو بسبب جنايته) التي صدرت منه (فرُب عبد يتساهل في أمر الآخرة) ويستخفُّه (ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوَّف به، فإن الذنوب كلها يتعجَّل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حُكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام) ممَّا تقدَّم ذِكر بعضها (حتىٰ إنه قد يضيَّق علىٰ العبد رزقه بسبب ذنوبه، وقد تسقُط منزلتُه من القلوب ويستولي عليه أعداؤه. قال ﷺ: إن العبد ليُحرَمُ الرزق بالذنب يصيبه) كذا في القوت. [قال العراقي[١]]: رواه ابن ماجه[٢] والحاكم[٣] واللفظ له وصحَّح إسناده، إلا أنه قال: الرجل، بدل: العبد، من حديث ثوبان. انتهىٰ.

قلت: وفيه زيادة: «ولا يردُّ القدَرَ إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». وقد

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٦.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ١١١، ٥/ ٤٩٢.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٦٧٥، ٣/ ٥٩٠.

رواه بهذه الزيادة أيضًا أحمد[١] والنسائي[٢] وأبو يعلىٰ[٣] وابن منيع والروياني[٤] وابن حبان[٥] والطبراني[٦] والضياء. وأقرَّ الذهبي تصحيح الحاكم. وقال المنذري[٧]: رجال النسائي رجال الصحيح.

قال[٨] المظهر: اللام في «الرجل» للعهد، والمعهود بعض الجنس من المسلمين، فلا يقدح فيه ما يُرَىٰ من أن الكفرة والفسقة أعظم مالاً وصحة من العلماء؛ لأن الكلام في مسلم يريد الله رفع درجته في الآخرة فيصفِّيه من ذنوبه في الدنيا. وبه عُرِف أنه لا تناقُض بينه وبين خبر: «إن الرزق لا تنقصه المعصيةُ». ولهذا وجَّه بعضهم الخبر بأن لله لطائف يُحدِثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتِّباع شهوته والانهماك في نهمته، فإذا اشتغل بذلك عن ربه حُرِم رزقه، فيكون زجرًا له إليه عمَّا أقبل عليه، وتأديبًا له لأنْ لا يعود لمثله.

(وقال ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(إني لأحسب أن العبد ينسىٰ العلم بذنب يصيبه)**[٩] ولفظ القوت: وكان ابن مسعود يقول ... فساقه، إلا أنه قال: بالذنب يصيبه.

---

(١) مسند أحمد ٣٧/ ٦٨، ٩٥، ١١١.

(٢) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٨٠.

(٣) معجم شيوخ أبي يعلىٰ ص ٣١٠.

(٤) مسند الروياني ١/ ٤٠٨، ٤٢٠.

(٥) صحيح ابن حبان ٣/ ١٥٣.

(٦) المعجم الكبير ٢/ ١٠٠.

(٧) الترغيب والترهيب ص ٩٣٩، وفيه: «رواه النسائي بإسناد صحيح».

(٨) فيض القدير للمناوي ٢/ ٣٣٢. شرح مشكاة المصابيح للطيبي ١٠/ ٣١٦٥. بحر الفوائد للكلاباذي ص ١٨١.

(٩) رواه ابن المبارك في الزهد ص ٦٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٣١، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ ٢١٢، والدارمي في سننه ١/ ١١٧، وأحمد في الزهد ص ١٢٩، كلهم بلفظ: «إني لأحسب الرجل ينسىٰ العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها».

(وهو معنىٰ قوله ﷺ: مَن قارف ذنبًا فارقه عقلٌ لا يعود إليه أبدًا) تقدم الكلام عليه[١].

(وقال بعض السلف[٢]: ليست اللعنة سوادًا في الوجه ونقصًا في المال، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعتَ في مثله أو شر منه. وهو كما قال؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد، فإذا لم يوفَّق للخير ويُسِّر له الشر فقد أبعدَ) نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: وذلك لأن اللعنة هي الطرد والبعد، فإذا طُرد من الطاعات فلم تتيسَّر له وبُعِّدَ عن القُربات فلم يوفَّق لها فقد لُعن **(والحرمان من رزق التوفيق أعظم حرمان)** ولفظ القوت: وقيل: حرمان الرزق من الآخرة[٣] من قلة التوفيق للأعمال الصالحات **(وكل ذنب فإنه يدعو إلىٰ ذنب آخر)** ويجرُّه إليه **(ويتضاعف، فيُحرَم العبد به من رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين، بل يمقته الله فيمقته الصالحون)** وقال صاحب القوت: وفي [معنىٰ] الخبر الذي رويناه «إن العبد لَيُحرَم الرزق بالذنب يصيبه» قيل: يُحرَم الحلال ولا يوفَّق له بوقوعه في المعصية. وقيل: يُحرَم مجالسة العلماء، ولا ينشرح قلبه لمحبة الخير وأهله[٤]. وقيل: يمقته الصالحون وأهل العلم بالله تعالىٰ فيُعرِضون عنه. وقيل: يُحرَم العلم الذي لا صلاح للعمل إلا به لأجل إقامته علىٰ الجهل، ولا تنكشف له الشبهات بإقامته علىٰ الشهوات بل تلتبس عليه فيحار فيها بغير عصمة من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يوفَّق للأصوب والأفضل.

(وحُكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في وسط الوحل، جامعًا ثيابه،

---

(١) في كتاب عجائب القلب.

(٢) هو حماد بن سلمة بن دينار البصري، كما رواه عنه ابن أبي الدنيا في العقوبات ص ٦٧، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ١٣٧. ولفظهما: «ليست اللعنة بسواد يرىٰ في الوجه، ولكن إنما هي أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في ذنب».

(٣) في القوت: الرزق من الحرام.

(٤) في القوت: لصحبة أهل الخير.

محترزًا عن زلقة رجله، حتىٰ زلقت رجله وسقط، فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول) ولفظ القوت: وحُدِّثتُ عن بعض أهل الاعتبار أنه كان يمشي في الوحل، وكان يتَّقي ويشمر ثيابه عن ساقيه ويمشي في جوانب الطريق، إلىٰ أن زلقت رجلُه في الوحل، فأدخل رجليه في وسط الوحل وجعل يمشي في المحجَّة. قال: فبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: **(هذا مثل العبد، لا يزال يتَّقي الذنوبَ ويجانبها حتىٰ يقع في ذنب)** منها **(وذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوضًا)** إلىٰ هنا لفظ القوت.

(وهو إشارة إلىٰ أن الذنب تتعجَّل عقوبته بالانجرار إلىٰ ذنب آخر، ولذلك قال الفضيل بن) عياض رحمه الله تعالىٰ: **(ما أنكرتَ من تغيُّر الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك)** نقله صاحب القوت، وهو في الحلية لأبي نعيم.

(وقال بعضهم: إني لأعرفُ عقوبة ذنبي في سوء خُلق حماري) نقله صاحب القوت. وفي معنىٰ الحمار الفرس والبغلة.

(وقال آخر: أعرف العقوبة حتىٰ في فأر بيتي) نقله صاحب القوت، قال: ويقال: نسيان القرآن بعد حفظه من أشد العقوبات، والمنع من تلاوته وضِيق الصدر بقراءته والاشتغال عنه بضدِّه عقوبة الإصرار.

(وقال بعض الصوفية بالشام: نظرت) ذات يوم **(إلىٰ غلام نصراني حسن الوجه، فوقفت أنظر إليه، فمر بي ابن الجلاء الدمشقي)** هو أبو عبد الله أحمد بن يحيىٰ الجلاء، بغدادي الأصل، أقام بالشام، صحب أبا تراب النخشبي وذا النون المصري وأبا عبيد البُسْري وأباه يحيىٰ الجلاء. ترجم له القشيري في الرسالة[١] **(فأخذ بيدي، فاستحييب منه، فقلت: يا أبا عبد الله، سبحان الله! تعجَّبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خُلقت للنار. فغمز يدي وقال:**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨٤ - ٨٥.

لتجدنَّ عقوبتها) أي النظرة **(بعد حين)** أي بعد مدة من الزمان **(قال: فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة)** هكذا هو في القوت. قيل: هذه العقوبة أنه نسي القرآن بعد حفظه. وأورد القشيري في الرسالة هذه القصة لابن الجلاء في ترجمته من الرسالة ما لفظه: وقال ابن الجلاء: كنت أمشي مع أستاذي، فرأيت حَدَثًا جميلاً، فقلت: يا أستاذي، ترىٰ يعذِّب الله هذه الصورة؟ فقال: [أوَ نظرتَ إليه]؟ سترىٰ غِبَّه. فنسيت القرآن بعده بعشرين سنة[1]. انتهىٰ.

ويحتمل تعدُّد الواقعة.

(وقال أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالىٰ: **(الاحتلام عقوبة)** نقله صاحب القوت، وقد تقدم للمصنف في كتاب النكاح[2].

(وقال) أبو سليمان أيضًا: **(لا تفوت أحدًا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه)** نقله صاحب القوت، ولفظه: لا تفوت أحدًا صلاة في جماعة إلا بذنب [يحدثه]. فدقائق العقوبات علىٰ قدر جلائل الدرجات.

قال: وحدثني بعض الأشياخ عن منصور الفقيه قال: رأيت أبا عبد الله السكري في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني [بين يديه] في العرق حتىٰ سقط لحم خدِّي. قلت: ولِمَ ذلك؟ قال: نظرت إلىٰ غلام مقبلاً ومدبرًا. والعقوبة موضوعها الشدة والمشقة، فعقوبة كل أحد من حيث تشتد عليه، فأهل الدنيا يعاقَبون بحرمان رزق الدنيا من تعذُّر الاكتساب وإتلاف الأموال، وأهل الآخرة يعاقَبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق للأعمال الصالحة وتعذُّر فتوح العلوم الصادقة، ذلك تقدير العزيز العليم.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٨٤. وفي رواية أخرىٰ له أن أستاذه الذي قال له ذلك هو أبو عبد الله البلخي.

(٢) بل في كتاب كسر الشهوتين.

(وفي الخبر: ما أنكرتم من زمانكم فبما غيَّرتم من أعمالكم) قال العراقي[١]: رواه البيهقي في الرقاق[٢] من حديث أبي الدرداء وقال: غريب، تفرَّد به هكذا العقيلي، وهو عبد الله بن هانئ. قلت: هو متَّهم بالكذب، قال ابن أبي حاتم: روىٰ عن أبيه أحاديث بواطيل[٣]. انتهىٰ.

قلت: وكذلك رواه الطبراني في الكبير[٤] وابن عساكر[٥]، وتمامه: «فإن يك خيرًا فواهًا واهًا، وإن يك شرًّا فآهًا آهًا». وقال ابن عساكر: حديث غريب. قال الذهبي في الديوان[٦]: عبد الله بن هانئ بن أبي عبلة عن أبيه، اتُّهِم بالكذب، أدركه أبو حاتم ولم يسمع منه. وأما أبو الزَّعْراء عبد الله بن هانئ الراوي عن ابن مسعود فهو من رجال الترمذي والنسائي، قال البخاري[٧]: لا يتابَع عليه. ووثَّقه العجلي[٨].

(و) قال: جاء **(في الخبر: يقول الله تعالىٰ: إن أدنىٰ ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوتَه علىٰ طاعتىٰ أن أحرمه لذيذ مُناجاتي)** وفي نسخة: لذَّة مناجاتي. ولفظ القوت: حلاوة مناجاتي. وقال العراقي[٩]: غريب، لم أجده.

(وحُكي عن أبي عمرو ابن علوان في قصة يطول ذِكرُها قال فيها: كنت) ولفظ القوت: وقد حدثني بعض هذه الطائفة عن أبي عمرو بن علوان في قصة

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٦.

(٢) الزهد الكبير ص ٢٧٦.

(٣) الذي في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ١٩٤: «روىٰ عن أبيه وعن ضمرة. روىٰ عنه محمد بن عبد الله بن محمد بن مخلد الهروي عن أبيه عن إبراهيم بن أبي عبلة أحاديث بواطيل».

(٤) ورواه أيضا في مسند الشاميين ١/ ٣٩.

(٥) وضعه محقق تاريخ دمشق ١٠/ ٥٢٤ في حاشية الكتاب، وأشار إلىٰ أنه سقط من بعض النسخ.

(٦) بل في ميزان الاعتدال ٢/ ٥١٦ - ٥١٧، والمغني ١/ ٥١٥.

(٧) التاريخ الكبير ٥/ ٢٢١.

(٨) معرفة الثقات ٢/ ٦٥.

(٩) المغني ٢/ ١٠٠٦.

تطول قال فيها: وكنت (**قائمًا ذات يوم أصلي، فخامر قلبي**) أي خالطه (**هوًى**) أي ميل نفسانيٌّ (**طاولتُه بفكرتي حتىٰ تولَّدت منه شهوة الرجل**) وفي نسخة: الرجال. قال: (**فوقعت إلىٰ الأرض واسودَّ جسدي كله، فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت**) في أثناء هذه الأيام (**أعالج غسله في الحمَّام بالصابون**) والألوان الغاسلة (**فلا يزداد إلا سوادًا حتىٰ انكشف بعد ثلاث**) لفظ القوت: ثم انكشف عني بعد ثلاث، فرجعت إلىٰ لون البياض. قال: (**فلقيت**) أبا القاسم (**الجنيد**) رضي الله عنه (**وكان قد وجَّه إليَّ، فأشخصني من الرقة**) أي طلب شخوصي منها. والرقة: بلد بالعراق (**فلما أتيته قال لي**) في أول مواجهتي له: (**أما استحييتَ من الله تعالىٰ؟ كنت قائمًا بين يديه فساررتَ نفسك بشهوة حتىٰ استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالىٰ، فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيتَ الله بذلك اللون. قال: فعجبتُ كيف علمَ بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة**) وبينهما مسافة، ولم يطَّلع علىٰ ذلك إلا الله تعالىٰ.

(**واعلمْ أنه لا يذنب العبد ذنبًا إلا ويسودُّ وجه قلبه، فإن كان سعيدًا ظهر السواد علىٰ ظاهره لينزجر، وإن كان شقيًّا أُخفِي عنه حتىٰ ينهمك ويستوجب النارَ**) ولفظ القوت بعد سياق قصة ابن علوان: فذُكر ذلك لبعض الأولياء، فقال: هذا رفق من الله به وخِيرة له؛ إذ لم يسودَّ قلبه، وظهر السواد علىٰ جسده، ولو بطَنَ في قلبه لأهلكه. ثم قال: ما من ذنب يرتكبه [العبد] يصرُّ عليه إلا اسودَّ القلب منه مثل سواد الجسم الذي ذُكر، ولا يجلوه إلا التوبة، ولكن ليس كل عبد يُصنع به صنع ابن علوان ولا يجد من يتيقَّظ له مثل أبي القاسم الجنيد رحمه الله تعالىٰ (**والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيرهما**) كسقوط الجاه والمنزلة من عيون المسلمين (**بل من شؤم الذنب في الدنيا علىٰ الجملة أن يكسب**[1] **ما بعده صفته، فإن ابتُلي بشيء كان عقوبة له، ويُحرَم جميل الرزق حتىٰ**

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ١٨٤: يكتسب.

يتضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجًا له، ويُحرَم جميل الشكر حتىٰ يعاقَب علىٰ كفرانه) هذا حال العاصي (وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاءً علىٰ طاعته ويوفَّق لشكرها، و) تكون (كل بليَّة كفَّارة لذنوبه وزيادة في درجاته.

النوع الرابع: ذِكرُ ما ورد من العقوبات علىٰ آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغِيبة والكبر والحسد، وكل ذلك ممَّا لا يمكن حصرُه) لكثرته (وذِكره مع غير أهله مثل وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالِم كالطبيب الحاذق) أي العارف البصير بفن الطب (فيستدل أولاً بالنبض والسِّحنة) أي ظاهر اللون، والنبض: جسُّ الطبيب عروق يده من الأوردة والشرايين (ووجوه الحركات علىٰ العلل الباطنة) وهي التي في باطن البدن، ولكلٍّ منها أحكام وقواعد معروفة في كتب الفن (ويشتغل بعلاجها) بعد الاستدلال عليها بما ذُكر (فليستدل) العالِم (بقرائن الأحوال علىٰ خفايا الصفات، وليتعرَّض لِما وقف عليه اقتداءً برسول الله ﷺ، حيث قال له واحد: يا رسول الله، أوصني ولا تُكثِر عليَّ. قال: لا تغضب) رواه أحمد والبخاري والترمذي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم الكلام عليه في كتاب ذم الغضب.

(وقال له آخر: أوصني يا رسول الله. فقال: عليك باليأس ممَّا في أيدي الناس فإنَّ ذلك هو الغِنىٰ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصلِّ صلاة مودِّع، وإياك وما يُعتذَر منه) رواه العسكري في الأمثال من طريق القعنبي، حدثنا محمد بن أبي حميد، حدثني إسماعيل الأنصاري هو ابن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده أن رجلاً قال: يا رسول الله، أوصني وأوجِزْ. فقال: «عليك باليأس ...» فساقه، وفيه: «وصلِّ صلاتك وأنت مودِّع». ورواه الحاكم من طريق أبي عامر العقدي، حدثنا محمد بن أبي حميد به مثله، وصحَّحه. ورواه ابن ماجه من طريق عثمان بن جُبَير عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ

فقال: يا رسول الله، علِّمْني وأوجِزْ. قال: «إذا قمتَ إلىٰ صلاتك فصلِّ صلاة مودِّع، ولا تَكلَّمْ بكلام تعتذر منه، واجمع اليأس عمَّا في أيدي الناس». ورواه ابن منيع والقضاعي من حديث ابن عمر قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، حدِّثْني حديثًا واجعله موجزًا لعلِّي أعيه. فقال ﷺ: «صلِّ صلاة مودِّع كأنَّك لا تصلي بعدها، وآيسْ ممَّا في أيدي الناس تعشْ غنيًّا، وإياك وما يُعتذَر منه».

وقد تقدم هذا الحديث في كتاب الصلاة[١].

ومن هذا الباب ما[٢] أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند[٣] من طريق محمد بن عبد الرحمن الطفاوي، سمعت العاص بن عمرو قال: خرج أبو الغادية وحبيب بن الحارث وأم الغادية مهاجرينَ إلىٰ رسول الله ﷺ فأسلموا، فقالت المرأة: أوصني يا رسول الله. قال: «إياكِ وما يسوء الأذنَ». وكذا أخرجه أبو نعيم[٤] وابن منده كلاهما في المعرفة، وهو مرسَل، فالعاص لا صحبة له، بل قال الحافظ ابن حجر في بعض تصانيفه[٥]: إنه مجهول. لكن ذكره ابن حبان [في الثقات[٦] وقال: يُعتبر حديثه من غير رواية تمام بن بزيع عنه. وذكره ابن أبي حاتم[٧]] ولم يذكر فيه جرحًا، وقال: سمع من عمَّته أم الغادية، روىٰ عنه تمام. ورواية تمام عنه في هذا الحديث عند ابن منده في المعرفة والخطيب في جامعه من طريقه عن العاص عن عمَّته أم الغادية قالت: خرجت مع رهط من قومي إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما أردت

---

(١) تقدم حديث سعد وحديث أبي أيوب وحديث ابن عمر في الباب الأول من كتاب الصلاة، وفي كتاب ذم البخل.

(٢) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٣) مسند أحمد ٢٧/ ٢٥٣.

(٤) معرفة الصحابة ٢/ ٨٢٩، ٦/ ٢٩٨٣، ٣٥٤٣.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٢٠١.

(٦) الثقات ٧/ ٣٠٥.

(٧) الجرح والتعديل ٧/ ٤٢.

الانصراف قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إياكِ وما يسوء الأذنَ». وكذا أخرجه ابن سعد في الطبقات[١] بزيادة «ثلاثًا». وكذا رواه العسكري في الأمثال.

(**وقال رجل لمحمد بن واسع**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**أوصني. فقال: أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة. قال: وكيف لي بذلك؟ قال: الزم الزهدَ في الدنيا**) أخرجه أبو نعيم في الحلية[٢] قال: حدثني أبي، حدثنا أبو الحسن ابن أبان، حدثنا أبو بكر بن عبيد، حدثنا الحسن بن يحيىٰ بن كثير العنبري، حدثنا خزيمة أبو محمد قال: قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني ... فساقه.

(**فكأنَّه ﷺ توسَّم في السائل الأول مخايل الغضب**) أي مَشابِهه (**فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل**) وعدم حضور القلب في الصلاة وكثرة الاعتذار لإخوانه فنهاه عنها (**وتخيَّل محمد بن واسع في السائل مخايلَ الحرص علىٰ الدنيا**) فأمره بالزهد عنها.

(**وقال رجل لمعاذ**) بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (**أوصني. فقال: كن رحيمًا**) أي رقيق القلب (**أكن لك بالجنة زعيمًا**) أي ضامنًا وكفيلاً. نقله صاحب القوت.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[٣] من طريق الأعمش عن عمرو بن مُرَّة عن عبد الله بن سلمة قال: قال رجل لمعاذ علِّمْني. قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: إني علىٰ طاعتك لَحريصٌ. قال: صمْ وأفطِرْ، وصلِّ ونَمْ، واكتسبْ ولا تأثم، ولا تموتنَّ

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ١٠/ ٢٩٥.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٠ - ٣٥١، ٦/ ٣٠٢. وقد خلط الشارح هنا بين إسنادين للأثر، فقد قال أبو نعيم في الموضع الأول: «حدثنا أبي، حدثنا أبو الحسن ابن أبان، حدثنا أبو بكر بن عبيد، حدثنا الحسن بن [يحيىٰ بن] كثير العنبري، حدثنا خزيمة أبو محمد». وقال في الموضع الثاني: «حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا الحسن ابن يحيىٰ بن كثير، حدثنا أبو محمد خزيمة».

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٣٣.

إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم.

(فكأنَّه تفرَّس فيه آثارَ الفظاظة والغلظة) فقال له ما قال.

(وقال رجل لإبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ: **(أوصني. قال: إيَّاك والناس، وعليك بالناس، ولا بد)** لك **(من الناس)** أي من مخالطتهم **(فإن الناس هم الناس)** أي الكُمَّل منهم هم الذين يخالَطون **(وليس كل الناس بالناس)** أي ليس كلهم يوصَفون بكمال الإنسانية **(ذهب الناس وبقي النَّسْناس)** بفتح أوله، قيل: نوع من حيوانات البحر، وقيل: نوع من جنس الخَلق يَثِبُ علىٰ رِجل واحدة، وقيل: يأجوج ومأجوج. كذا في المصباح[1]. وكأنه أراد: ذهب الكرام وبقي الأراذل **(وما أراهم بالناس، بل غُمسوا في ماء الناس)**[2] أي أويسَ من خيرهم فلا فائدة في خلطتهم.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية[3] في ترجمة مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير من طريق مهدي بن ميمون عن غيلان بن جرير أن مطرفًا كان يقول: هم الناس، وهم النسناس، وأرىٰ ناسًا غُمسوا في ماء الناس.

(فكأنَّه) رحمه الله **(تفرَّس فيه)** أي في السائل **(آفة المخالطة)** بهم **(وأخبر عمَّا كان هو الغالب علىٰ حاله في وقته، وكان الغالب)** عليه **(أذاه بالناس)** فنهاه عن

(١) المصباح المنير ص ٦٠٢، وليس فيه (وقيل يأجوج ومأجوج).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٣١٤، ثم قال: «قال إبراهيم: أما قولي عليك بالناس: بمجالسة العلماء. وأما قولي وإياك والناس: إياك ومجالسة السفهاء. وأما قولي لا بد من الناس: لا بد من الصلوات الخمس والجمعة والحج والجهاد واتباع الجنائز والشراء والبيع ونحوه. وأما قولي الناس هم الناس: الفقهاء والحكماء. وأما قولي ليس الناس بالناس: أهل الأهواء والبدع. وأما قولي ذهب الناس: ذهب النبي ﷺ وأصحابه. وأما قولي وبقي النسناس: يعني من يُروىٰ عنهم عن النبي ﷺ وأصحابه. وأما قولي وما أراهم بالناس: إنما ما هم. وأما قولي غمسوا في ماء الناس: نحن وأمثالنا».

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٠٣.

خلطتهم ليَسلم من شرِّهم أو يَسلموا منه (والكلام علىٰ قدر حال السائل أَولىٰ من أن يكون بحسب حال القائل.

و) من ذلك: (كتب معاوية رحمه الله تعالىٰ إلىٰ) أم المؤمنين (عائشة ﵂: أن اكتبي لي كتابًا توصيني فيه، ولا تُكثِري) وذلك حين تولَّىٰ الإمارة (فكتبت إليه) أي أمرت بكتابته: (من عائشة إلىٰ معاوية، سلام عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومَن التمس سخط الله برضا الناس وكله اللهُ إلىٰ الناس. والسلام عليك) وقد اقتصرت علىٰ هذا الحديث الجامع المانع (فانظر إلىٰ فقهها كيف تعرَّضت للآفة التي يكون الولاة) للأمور (بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم) والحديث قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] والحاكم، وفي سند الترمذي مَن لم يُسَمَّ.

قلت: وكذلك رواه ابن المبارك في الزهد[٣]. وفي بعض نسخ الكتاب بتقديم الجملة الثانية، ومثله عند الترمذي وابن المبارك. ورواه ابن حبان[٤] وابن عساكر بلفظ: «مَن التمس رضا الله بسخط الناس ﵁ وأرضىٰ عنه الناس، ومَن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس». ورواه أبو بكر ابن لال والخرائطي في مساوئ الأخلاق[٥] بلفظ: «مَن التمس مَحامد الناس بمعاصي الله عاد حامدُه من الناس له ذامًّا».

(وكتبت) ﵂ (إليه مرة أخرىٰ: أما بعد، فاتقِ الله، فإنك إذا اتَّقيتَ الله كفاك الله

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٧.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٢١٣.

(٣) الزهد والرقائق ص ٩٥.

(٤) صحيح ابن حبان ١/ ٥١٠ - ٥١١.

(٥) مساوئ الأخلاق ص ١١١.

الناس، وإذا اتَّقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئًا، والسلام)[١] وقد رُوي معناه من حديث واثلة وابن عباس وعلي. فحديث واثلة: «مَن اتَّقىٰ الله أهابَ الله منه كلَّ شيء، ومَن لم يتَّقِ الله أهابه اللهُ من كل شيء». رواه الحكيم في النوادر[٢].

وحديث ابن عباس: «مَن اتَّقىٰ الله وقاه كلَّ شيء». رواه ابن النجار[٣].

وحديث علي: «مَن اتَّقىٰ الله عاش قويًّا، وسار في بلاده آمنًا»[٤].

وعند أبي الشيخ[٥] من حديث واثلة: «مَن خاف الله أخافَ منه كلَّ شيء، ومَن لم يَخَف اللهَ أخافَه من كل شيء».

وقد رواه كذلك الرافعي في تاريخه[٦] وعبد الرحمن بن محمد الكرخي في أماليه من حديث ابن عمر.

(فإذًا علىٰ كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلىٰ تفرُّس الصفات) الباطنة **(الخفيَّة وتوسُّم الأحوال اللائقة)** بالمقام والأشخاص **(ليكون اشتغاله بالمهمِّ)** المقصود **(فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد)** من الحاضرين **(غير ممكنة، والاشتغال بوعظه بما هو مستغنٍ عن الوعظ فيه تضييع زمان)** ووضع للشيء في غير موضعه.

(فإن قلتَ: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع) من الناس **(أو سأله مَن لا يدري**

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٩٤، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٨٥، والنسائي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٤٠٥، وأبو داود في الزهد ص ٢٨١، والبيهقي في الزهد الكبير ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢) نوادر الأصول ص ٥٠٨.

(٣) ورواه أيضا الخطيب في تاريخ بغداد ١٦/ ٦١٦.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٧٥.

(٥) وكذللك القضاعي في مسند الشهاب ١/ ٢٦٥.

(٦) التدوين في أخبار قزوين ٢/ ١٨٧.

باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل؟ فاعلمْ أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافَّة) وفي نسخة: عامة **(الخلق في الحاجة إليه إما علىٰ العموم وإما علىٰ الأكثر، فإنَّ في علوم الشرع أغذية وأدوية، فالأغذية للكافة)** أي العامة منهم **(والأدوية لأرباب العلل)** الباطنة **(ومثاله ما رُوي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري)** رضي الله عنه: **(أوصني. قال: عليك بتقوىٰ الله عز وجل فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذِكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان)** وقد رُوي ذلك مرفوعًا من حديث أبي سعيد بلفظ: «عليك بتقوىٰ الله فإنها جُمَّاع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين، وعليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فإنه نور لك في الأرض وذِكر لك في السماء، واخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان». هكذا رواه ابن الضريس[1] وأبو يعلىٰ[2] والخطيب[3]. وعند أبي الشيخ من حديثه بلفظ: «عليك بتلاوة القرآن وذِكر الله عز وجل فإنه ذِكر لك في السماء ونور لك في الأرض، وعليك بطول الصمت فإنه مَطردة للشياطين وعون لك علىٰ أمر دينك، وقل الحق وإن كان مرًّا». ورواه كذلك أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق[4] من حديث أبي ذر.

(وقال رجل للحسن) البصري رحمه الله: **(أوصني. فقال: أعِزَّ أمرَ الله يعزُّك الله)**[5] وهذا قد رُوي مرفوعًا من حديث أبي أمامة، رواه الديلمي في مسند الفردوس[6].

---

(١) فضائل القرآن ص ٤٩.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٢٨٤.

(٣) تاريخ بغداد ٨/ ٣٩٧.

(٤) وكذلك ابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٨ - ٧٩ ضمن حديث أبي ذر الطويل المشهور.

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٦٨.

(٦) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٣٥٤.

(وقال لقمان لابنه: يا بنيَّ، زاحِم العلماءَ بركبتيك، ولا تجادلهم فيمقتوك) أي يبغضوك فتسقط من أعينهم **(وخذ من الدنيا بلاغك)** أي قدر ما يبلِّغك الآخرةَ **(وأنفِقْ فضول كسبك)** أي ما فضلَ من مالك الذي اكتسبتَه **(لآخرتك)** أي في سبيل الخيرات **(ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً)** أي عولة على الناس، محتاجًا إليهم **(وعلى أعناق الرجال كَلاًّ)** أي ثقيلاً **(وصمْ صومًا يكسر شهوتك، ولا تصُمْ صومًا يضرُّ بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه، ولا تخالط ذا الوجهين)**[١] أي الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. وقد رُوي هذا الكلام عنه مفرَّقًا، فأخرج عبد الله بن أحمد في الزوائد[٢] عن عبيد الله بن [عمر بن] عبد الوهاب المكي [قال]: قال لقمان لابنه: يا بني، جالِس العلماء وزاحِمْهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض [الميتة] بوابل السماء. وقد تقدم في كتاب العلم.

وروى الطبراني[٣] والرامهرمزي في الأمثال[٤] بسند ضعيف عن أبي أمامة [مرفوعًا] قال: «قال لقمان لابنه: عليك بمجالسة العلماء، واستمعْ للحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر».

ورُوي أيضًا مرفوعًا من حديث أبي أمامة بلفظ: «جالِسوا العلماء وزاحِموهم برُكَبكم، فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض [الميتة]

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير ص ٨٤ عن الربيع الخولاني بلفظ: «يا بني، زاحم العلماء بركبتيك، ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغا، ولا تدخل فيها دخولا يضر بآخرتك، ولا ترفضها فتصير عيالا على الناس، وصم صوما يقطع شهوتك، ولا تصم صوما يمنعك عن الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام». وأورده بلفظ المصنف: الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ١٤٩، وزاد: «وكن كالأب لليتيم، وكالزوج للأرملة، ولا تحابِ القريب».

(٢) الزهد ص ٨٩.

(٣) المعجم الكبير ٨/ ٢٣٦.

(٤) أمثال الحديث ص ١٣٨.

بوابل السماء».

وروىٰ ابن أبي شيبة[١] وأحمد في الزهد[٢] وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص[٣] عن أبي جعفر الخَطْمي أن جده عُمَير ابن حبيب – وكانت له صحبة – أوصىٰ بنيه فقال: يا بَنِيَّ، إياكم ومجالسة السفهاء فإنَّ مجالستهم داء، إنه مَن يحلُم علىٰ السفيه يُسَرُّ بحِلمه ... الحديث.

(**وقال**) لقمان (**أيضًا لابنه: يا بني، لا تضحك من غير عَجَب، ولا تمشِ في غير أرب، ولا تسأل عمَّا لا يعنيك**) أي لا يهمُّك (**ولا تضيِّع مالك وتُصلِح مال غيرك، فإنَّ مالك ما قدمتَ، ومال غيرك ما تركتَ**) روىٰ أحمد في الزهد عن شُرَحبيل بن مسلم أن لقمان قال: أُقصِرُ عن اللَّجاجة، ولا أنطق فيما لا يعنيني، ولا أكون مِضْحاكًا من غير عَجَب، ولا مَشَّاء إلىٰ غير أرب (**يا بني، إن مَن يَرحم يُرحم**) أي مَن يرحم الناس يرحمه الله. وروىٰ الشيخان[٤] من حديث جرير: «مَن لا يَرحم لا يُرحم». وفي رواية: «مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله» (**ومَن يصمت يَسلم**) أي من الشر. رواه الترمذي[٥] من حديث عبد الله بن عمرو: «مَن صمت نجا» (**ومَن يقُل الخير يغنم، ومن يقل الشرَّ يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم**)[٦] وقد تقدم هذا في كتاب الصمت.

(**وقال رجل لأبي حازم**) سلمة بن دينار المدني التابعي الشهير بالأعرج: (**أوصني. فقال: كلُّ ما لو جاءك الموت عليه فرأيتَه غنيمة فالزمْه، وكل ما لو**

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٤٢٤.

(٢) الزهد ص ١٥٢.

(٣) تالي تلخيص المتشابه ١/ ٢٢٨ (ط - دار الصميعي).

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٩٤، ٣٧٩. صحيح مسلم ٢/ ١٠٩٥.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٢٧٤.

(٦) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٩٦.

جاءك الموت عليه فرأيتَه مصيبة فاجتنبْه)[١] وروىٰ أبو نعيم في الحلية[٢] في ترجمة عمر بن عبد العزيز من طريق عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: قال عمر بن عبد العزيز: عِظْني يا أبا حازم. قال: قلت: اضطجِعْ، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن تكون فيه تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن تكون فيه تلك الساعة فدَعْه الآن. وروىٰ[٣] في ترجمة أبي حازم من طريق يعقوب ابن عبد الرحمن عن أبي حازم قال: انظر الذي تحب أن يكون معك في الآخرة فقدِّمْه اليوم، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثَم فاتركه اليوم. وقال أيضًا: كل عمل تكره الموت لأجله فاتركه، ثم لا يضرُّك متىٰ متَّ.

(وقال موسىٰ للخضر عليهما السلام: أوصني. فقال: كنْ بَسَّامًا ولا تكن غضابًا، وكن نَفَّاعًا ولا تكن ضَرَّارًا، وانزِعْ عن اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تضحك من غير عَجَب، ولا تعيِّر الخَطَّائين بخطاياهم، وابْكِ علىٰ خطيئتك يا ابن عمران) رواه أحمد في الزهد[٤] عن وهب بن منبه قال: قال الخضر لموسىٰ حين لقيه: انزِعْ عن اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تضحك من غير عَجَب، والزمْ بيتك، وابْكِ علىٰ خطيئتك.

ورواه ابن أبي الدنيا[٥] والبيهقي في الشعب[٦] وابن عساكر[٧] عن أبي عبد الله - أظنه الملطي - قال: أراد موسىٰ أن يفارق الخضر، فقال له موسىٰ: أوصني. قال: كنْ نفَّاعًا ولا تكن ضَرَّارًا، وكن بَشَّاشًا ولا تكن غضابًا، وارجع عن

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٤٥.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٧.

(٣) السابق ٣/ ٢٣٨، ٢٣٩.

(٤) الزهد ص ٥٣.

(٥) التوبة ص ٦٩.

(٦) شعب الإيمان ٩/ ٦٥.

(٧) تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٦.

اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تعيِّر امرءًا بخطيئته، وابْكِ علىٰ خطيئتك يا ابن عمران.

وروىٰ ابن أبي حاتم وابن عساكر[1] عن يوسف بن أسباط قال: بلغني أن موسىٰ لما أراد أن يفارق الخضر قال له: ادْعُ لي. فقال له: يسَّر الله عليك طاعتَه.

(وقال رجل لمحمد بن كرَّام) أبي[2] عبد الله السجستاني الزاهد، جاور بمكة خمس سنين، وورد نيسابور، وأحدث مذهبًا منه أن الله جسم في مكان [مخصوص] مماس لعرشه [من] فوقه، وتبعه علىٰ ذلك خلق كثير بنيسابور وهراة، فحبسه طاهر بن عبد الله أمير خراسان، ثم انصرف إلىٰ الشام، ثم عاد إلىٰ نيسابور، فحُبس ثانيًا، ثم خرج منها إلىٰ القدس، فمات بها سنة ٢٥٥، وكان يُظهِر التقشُّف والزهد، وسمع الحديث من علي بن حُجْر والطبقة، وصحب أحمدَ بن حرب الزاهد، وأكثرَ عن أحمد بن عبد الله الجويباري أحد الوضَّاعين، وممَّن روىٰ عنه محمد بن إسماعيل بن إسحاق، ومن مشهوري أصحابه أبو يعقوب إسحاق بن محمشاذ الزاهد الواعظ إمامهم في عصره. أسلم علىٰ يده من أهل الكتابين والمجوس نحو خمسة آلاف رجل وامرأة، ومات سنة ٣٨٣. واختُلف في ضبط والده، فالمشهور بالفتح والتشديد، وهو لقب له، كان [أبوه] يحفظ الكرم بسجستان. وقيل: بالتخفيف، وهو الذي كان يذهب إليه الحافظ ابن حجر[3]، ويدل له قولُ الشاعر:

---

(١) السابق ١٦/ ٤١٦.

(٢) لباب الأنساب لابن الأثير ٣/ ٨٩.

(٣) في كتاب تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر ص ١١٩١: «اختلف في راء: كرام، فالشائع بالتثقيل، ووقع في شعر أبي الفتح البستي بالتخفيف، ووقعت في ذلك قصة للصدر ابن الوكيل ذكرها الشيخ تقي الدين السبكي».

* والدين دين محمد بن كرام[١] *

وفيه تحقيق أودعناه في شرح القاموس[٢] **(أوصني. فقال: اجتهِدْ في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك.**

وقال رجل لحامد اللَّفَّاف) له ذِكر في الحلية لأبي نعيم **(أوصني. فقال: اجعل لدينك غلافًا كغلاف المصحف كيلا تدنِّسه الآفات. قال: وما غلاف الدين؟ قال: تركُ طلب الدنيا إلا ما لا بد منه، وتركُ كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه، وتركُ مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه.**

وكتب الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ **(إلىٰ عمر بن عبد العزيز)** الأموي **(رحمه الله تعالىٰ: أما بعد، فخَفْ ممَّا خوفَّك اللهُ، واحذرْ ممَّا حذَّرك الله، وخذ ممَّا في يديك لِما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين، والسلام**[٣]**.**

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ **(يسأله أن يعظه، فكتب إليه: أما بعد، فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات)** أي الشديدات **(أمامك، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب)** أي الهلاك **(واعلمْ أن مَن حاسَب نفسه)** في الدنيا **(ربح، ومَن غفل عنها خسر، ومَن نظر في العواقب نجا، ومَن أطاع هواه ضلَّ، ومَن حلُم غنمَ، ومَن خاف أمنَ، ومَن أمنَ اعتبر، ومَن**

---

(١) عجز بيت، صدره:

الفقه فقه أبي حنيفة وحده

وهو لأبي الفتح البستي في ديوانه ص ٢٩٥.

(٢) تاج العروس ٣٣/ ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٣) لم أقف علىٰ هذا الأثر بهذا السياق، بل جاء مفرقا، فقوله (خف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله) رواه ابن أبي الدنيا في القناعة والتعفف ص ٥٠ بلفظ: «يا ابن آدم، خف مما خوفك الله تعالىٰ يكفيك ما خوفك الناس». وأما قوله (وخذ مما في يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين) فرواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٤٥ - ١٤٦، والطبري في تهذيب الآثار - مسند عمر ص ١٢٩.

اعتبر أبصر، ومَن أبصر فهمَ، ومَن فهمَ علمَ، فإذا زللتَ فارجعْ) عن الزَّلَّة **(وإذا ندمت فأقلِعْ)** عن المعصية **(وإذا جهلت)** في أمر **(فسَل)** العلماءَ **(وإذا غضبتَ فأمسكْ)** والسلام[1].

وروىٰ صاحب نهج البلاغة[2] عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: مَن حاسب نفسه ربح، ومَن غفل عنها خسر، ومَن خاف أمنَ، ومَن اعتبر أبصر، ومَن أبصر فهم، ومَن فهمَ علمَ.

(وكتب مطرِّف بن عبد الله) بن الشِّخِّير، من أقران الحسن البصري **(إلىٰ عمر ابن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد، فإن الدنيا دار عقوبة، ولها يجمع مَن لا عقل له، وبها يغترُّ مَن لا علم عنده، فكنْ فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر علىٰ شدة الدواء لِما يخاف من عاقبة الداء)**[3] روىٰ أحمد[4] والبيهقي[5] من طريق دُوَيد عن أبي إسحاق عن زُرعة عن عائشة مرفوعًا: «الدنيا دار مَن لا دار له، ومال مَن لا مال له، ولها يجمع مَن لاعقل له». ورجال أحمد رجال الصحيح غير

---

(١) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٩٥ - ٩٦، قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ الحسن: اجمع لي أمر الدنيا وصف لي أمر الآخرة. فكتب إليه: إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام، من حاسب ...» الخ. وفي آخره: «واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس».

(٢) شرح نهج البلاغة ١٩/ ١٦.

(٣) هكذا أورده المسعودي في مروج الذهب ٣/ ١٥٤. ولكن رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا ص ١٣٢ عن الفضيل بن عياض أن الحسن كتب إلىٰ عمر بن عبد العزيز: اعلم أن الدنيا ليست بدار إقامة، وإنما أهبط آدم إليها عقوبة. وفيه: «فكن فيها يا أمير كالمداوي جرحه يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا، ويصبر علىٰ شدة الدواء مخافة البلاء». ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٤٨ عن موهب بن عبد الله بنحوه.

(٤) مسند أحمد ٤٠/ ٤٨٠.

(٥) شعب الإيمان ١٣/ ١٨٥.

دويد وهو ثقة[(١)]. ورواه أحمد[(٢)] أيضًا والشيرازي في الألقاب والبيهقي[(٣)] عن ابن مسعود موقوفًا.

(وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ إلىٰ عدي بن أرطأة) الفزاري[(٤)]، كان عاملاً لعمر بن عبد العزيز علىٰ البصرة، وقُتل سنة اثنتين ومائة، روىٰ له البخاري في كتاب الأدب المفرد **(أما بعد، فإن الدنيا عدوَّة أولياء الله وعدوَّة أعداء الله، أما أولياؤه فغمَّتهم، وأما أعداؤه فغرَّتهم)** أخرجه أبو نعيم في الحلية، وفيه: فإن الدنيا عدوَّة [أعداء] الله وعدوَّة أولياء الله ... الخ. وقد تقدمت الإشارة إليه في شرح خطبة كتاب ذم الدنيا.

(وكتب) عمر بن عبد العزبز **(أيضًا إلىٰ بعض عمَّاله: أما بعد، فقد أمكنتك القدرةُ من ظلم العباد، فإذا هممتَ بظلم أحد فاذكرْ قدرة الله عليك، واعلمْ أنك لا تأتي إلىٰ الناس شيئًا إلا كان زائلاً عنهم، باقيًا عليك، واعلمْ أن الله عَزَّوَجَلَّ آخذ للمظلومين من الظالمين، والسلام)**[(٥)] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

ومن كتابه إلىٰ بعض عماله: أما بعد، فاتقِ الله فيمن وليتَ أمره، ولا تأمن مكره في تأخير عقوبته، فإنه إنما يعجِّل بالعقوبة من يخاف الفوت، والسلام[(٦)].

ومن كتابه إلىٰ رجل: أما بعد، فإني أوصيك بتقوىٰ الله والانشمار بما استطعتَ من مالك وما رزقك الله إلىٰ دار قرارك، فإنك واللهِ لكأنَّك ذقتَ الموت وعاينتَ ما

---

(١) قاله الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٥١٥.

(٢) الزهد ص ١٣٢.

(٣) شعب الإيمان ١٣/ ١٨٤.

(٤) تقريب التهذيب ص ٦٧١.

(٥) أورده المسعودي في مروج الذهب ٣/ ١٦٣، وزاد في آخره: «ومهما ظلمت من أحد فلا تظلمن من لا ينتصر عليك إلا بالله تعالىٰ».

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٥٤٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٠٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٤ عن ابن شهاب الزهري.

بعده بتصريف الليل والنهار، فإنهما سريعان في طيِّ الأجل ونقص العمر، مستعدَّان لمَن بقي بمثل الذي أصابه مَن قد مضىٰ، فنستغفر الله لسيِّئ أعمالنا، ونعوذ به من مقته إيَّانا علىٰ ما نلفظ به ممَّا تقصُر عنه قُوانا[1].

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أوصني. قال: أوصيك بتقوىٰ الله وإيثاره تخف عليك المؤنةُ وتحسُن لك من الله المعونةُ[2].

وكتب أيضًا إلىٰ رجل: أوصيك بتقوىٰ الله الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل[3].

وكتب إلىٰ بعض عماله: أما بعد، فكأنَّ العباد قد عادوا إلىٰ الله ثم ينبِّئهم بما عملوا؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنىٰ، فإنه لا معقِّب لحكمه، ولا منازع في أمره، ولا تقاطُع في حقه الذي استحفظه عبادَه وأوصاهم به، وإني أوصيك بتقوىٰ الله، وأحثُّك علىٰ الشكر فيما اصطنع عندك من نِعَمه وآتاك من كرامته، فإنَّ نِعَمه يمدُّها شكرُه ويقطعها كفرُه، وأكثِرْ ذِكر الموت الذي لا تدري متىٰ يغشاك، فلا مَناص ولا فوت، وأكثِرْ ذِكر يوم القيامة وشدته، فإن ذلك يدعوك إلىٰ الزهادة فيما زهدتَ فيه والرغبة فيما رغبتَ فيه، وكنْ ممَّا أوتيتَ من الدنيا علىٰ وَجَل، فإنَّ مَن لا يَحذر ذلك ولا يتخوَّفه توشك الصَّرعة أن تدركه في الغفلة، وأكثِر النظرَ في عملك في دنياك بالذي أُمِرتَ به ثم اقتصِرْ عليه، فإن فيه لعَمري شغلاً عن دنياك، ولن تدرك العلم حتىٰ تؤثره علىٰ الجهل، ولا الحق حتىٰ تَذَر الباطل، فنسأل الله لنا ولك حسن معونته[4].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد ص ١٨٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٦٧.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٦٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٣.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد ص ١٠٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٦٨. ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٧/ ٣٩ - ٤٠ بلفظ آخر.

وكتب إلىٰ بعض عماله: أما بعد، فالزم الحق يُنزِلك الحقُّ منازل أهل الحق يوم لا يُقضَىٰ بين الناس إلا بالحق وهم لا يُظلَمون[١].

وقال لرجل: أوصيك بتقوىٰ الله فإنها ذخيرة الفائزين وحِرز المؤمنين، وإياك والدنيا أن تفتنك فإنها قد فعلت ذلك بمَن كان قبلك، فإنها تغرُّ المطمئنِّين إليها، وتفجع الواثق بها، وتثلم الحريص عليها، ولا تبقىٰ لمَن استبقاها، ولا يدفع التلف عنها مَن حواها، لها مناظر بهجة، ما قدَّمت منها أمامك لم يسبقك، وما أخَّرت منها خلفك لم يلحقك[٢].

(فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ مَن لا يدري خصوص واقعته، فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافَّة في الانتفاع بها، ولأجل فقدِ مثل هؤلاء الوعَّاظ انحسم بابُ الاتِّعاظ) أي انسدَّ **(وغلبت المعاصي، واستسرىٰ الفساد، وبُلِيَ الخلق بوعَّاظ يزخرفون أسجاعًا)** أي يزيِّنون كلمات موزونة يتكلَّفون فيها **(وينشدون أبياتًا)** بمناسبة ما يوردونه **(ويتكلَّفون ذِكر ما ليس في سعة علمهم، ويتشبَّهون بحال غيرهم، فسقط من قلوب العامة وقارُهم)** وهيبتهم **(ولم يكن كلامهم صادرًا من القلب ليصل إلىٰ القلب)** فقد رُوي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ أنه قال: الكلام الذي يصدر عن القلب يقع علىٰ القلب **(بل القائل متصلِّف)** أي متكبِّر **(والمستمع متكلِّف، وكل واحد منهما مدبر ومتخلِّف)** عن حَلَبة السباق **(فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضىٰ وطلب العلماء[٣] أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله)**.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٠٧. وهو في كنز العمال للمتقي الهندي ١٦/ ١٥٧ من كتاب عمر بن الخطاب إلىٰ معاوية بن أبي سفيان، وعزاه إلىٰ أبي الحسن ابن زرقويه في جزئه، بلفظ: «الزم الحق يبين لك الحق منازل أهل الحق، ولا تقضِ إلا بالحق».

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٤١ - ٣٤٢.

(٣) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ١٩١: فطلب. وهو الأسد.

(الأصل الثاني: الصبر، ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضرُّه) من الأطعمة (وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مَضرَّته وإما لشدة غلبة شهوته، فله سببان) أي المانع من التوبة سببان، أحدهما: الجهل بآفات الذنوب وما رُتِّب عليها من العقوبات العاجلة والآجلة (فما ذكرناه هو علاج الغفلة) وهو العلم؛ لأن العلَّة تعالَج بضدِّها (فيبقىٰ علاج الشهوة، وطريق علاجها) بالصبر؛ لأن الصبر حبسُ النفس عن المشتهَىٰ، وهذا يأتي في الكتاب الذي بعده (قد ذكرناه) أيضًا (في كتاب رياضة النفس) وتهذيب الأخلاق (وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته بمأكول مضرٍّ فطريقه أن يستشعر عِظَم ضرره، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره) لئلاَّ يتعلق القلب به (ثم يتسلَّىٰ عنه بما يقرُب منه في صورته) أو خاصِّيته (ولا يكثُر ضررُه، ثم يصبر بقوة الخوف علىٰ الألم الذي يناله في تركه، فلا بد علىٰ كل حال من مرارة الصبر، فكذلك تعالَج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر علىٰ حفظ عينه ولا حفظ قلبه ولا حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته، فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرئ المخوِّفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالىٰ وسنَّة رسوله ﷺ، فإذا اشتد خوفه تباعَدَ عن الأسباب المهيِّجة) أي الباعثة (لشهوته، ومهيِّج الشهوة من خارج هو حضور المشتهَىٰ) بين يديه (والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة) عن الخلق (و) مهيِّجها (من داخل [تناول](١) لذائذ الأطعمة، وعلاجه الجوع) في أكثر الأوقات (والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع) من أفواه الشيوخ (وتقليد) لهم (فأول الأمر حضور مجالس الذكر، ثم الاستماع من قلب مجرَّد عن سائر الشواغل، مصروف إلىٰ السماع، ثم التفكُّر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفٌ، وإذا قويَ الخوف) وتمكَّن منه (تيسَّر بمعونته الصبرُ، وانبعثت الدواعي

(١) سقط من الزبيدي، وهي في الجميع.

لطلب العلاج) للداخل والخارج **(وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك)** فلا يقدَّر له قدْرٌ، فالمساعي[1] أشتات مختلفة **(فمَن أعطىٰ من قلبه حُسن الإصغاء)** لأمور الطاعات **(واستشعر الخوف فاتَّقىٰ)** المعاصي **(وانتظر الثواب وصدَّق بالحسنىٰ)** أي بالكلمات الحسنىٰ، وهي ما دلَّ علىٰ حق ككلمة التوحيد **(فسييسِّره الله تعالىٰ)** أي سيهديه **(لليسرىٰ)** أي للخلَّة المؤدِّية إلىٰ اليسر والزلف[2] كدخول الجنة **(وأما مَن بخل)** بما أُمِر به **(واستغنىٰ)** بشهوات الدنيا عن نعيم العقبَىٰ **(وكذَّب بالحسنىٰ)** بإنكار مدلولها **(فسييسِّره الله للعسرىٰ)** أي للخلَّة المؤدِّية إلىٰ العسر والشدة كدخولِ النار **(فلا يغني عنه ما اشتغل به من مَلاذِّ الدنيا مهما هلك)** أي مات **(وتردَّىٰ)** في حفرة القبر أو قعر جهنم **(وما علىٰ الأنبياء إلا شرح طرق الهدىٰ)** أي الإرشاد إلىٰ الحق بشرح صفاته أو بمقتضَىٰ حكمته **(وإنما لله الآخرة والأولىٰ)** فيعطي في الدارين الذي يشاء [لمن يشاء] أو ثواب الهداية للمهتدين. وفي السياق تلميح لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [سورة الليل: ٤ - ١٣].

(فإن قلتَ: فقد رجع الأمر كله إلىٰ الإيمان؛ لأن تركَ الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه) علىٰ مرارته **(والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يحصل إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعِظَم ضرر الذنوب، والتصديق بعِظَم ضرر الذنوب هو تصديق لله ورسوله، وهو الإيمان، فكان مَن أصرَّ علىٰ الذنب لم يصرَّ عليه إلا لأنه غير مؤمن. فاعلمْ أن هذا لا يكون لفقدِ الإيمان)** من أصله **(بل يكون لضعف الإيمان؛ إذ كل مؤمن مصدِّق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالىٰ وسبب العقاب في الآخرة، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور:**

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٣١٧.

(٢) في أنوار التنزيل: والراحة.

أحدها: أن العقاب الموعود) علىٰ الذنب (**غيب ليس بحاضر**) في الحال (**والنفس جُبلت متأثِّرة بالحاضر**) في الحال. وفي نسخة: بحب الحاضر (**فتأثُّرها بالموعود**) الغائب (**ضعيف بالإضافة إلىٰ تأثُّرها بالحاضر**) وهذا ظاهر.

(**الثاني: أن الشهوات الباعثة علىٰ الذنوب لذَّاتها ناجزة**) أي مقضيَّة (**وهي في الحال**) أي الحاضر (**آخذة بالمَخْنَق**) كمقعد: العنق؛ لأنه موضع الخنق (**وقد قويَ ذلك واستولىٰ**) أي غلب (**عليها بسبب الاعتياد والإلف، و**) قد قالوا: (**العادة طبيعة خامسة**) زيادة علىٰ الطبائع الأربع (**والنزوع عن العاجل**) في الحال (**لخوف الآجِل**) في المآل (**شديد علىٰ النفس**) ثقيل عليها (**ولذلك قال الله تعالىٰ**: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾) أي الدنيا الحاضرة (﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾) [القيامة: ٢٠ - ٢١] وهي الآجلة، أي يتركونها بمقتضىٰ الفهم للعاجلة (**وقال عزَّ من قائل**: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلىٰ: ١٦ - ١٧] **وقد عبَّر عن شدة الأمر قولُ رسول الله ﷺ: حُفَّت الجنة بالمَكاره**) جمع[1] مَكرهة، وهي ما يكرهه الإنسان ويشقُّ عليه من القيام بحقوق العباد علىٰ وجهها، وأصل الحَفِّ: الدائر بالشيء، المحيط به، والمعنىٰ: أحاطت المكارهُ بنواحي الجنة، فهي لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها (**وحُفَّت النار بالشهوات**) أي أحاطت، والشهوات: كل ما يلائم النفس وتدعو إليه، وهو تمثيل حسن معناه: يوصَل إلىٰ الجنة بارتكاب المكاره من الجهد في الطاعة والصبر عن الشهوة كما يوصَل المحجوب عن الشيء إليه بهتك حجابه، ويوصل إلىٰ النار بارتكاب الشهوات، ومن المكاره: الصبر علىٰ المصائب بأنواعها، فكلَّما صبر علىٰ واحدة قطع حجابًا من حُجُب الجنة، ولا يزال يقطع حُجُبها حتىٰ لا يبقىٰ بينه وبينها إلا مفارقة روحه بدنه. وهذا من جوامع الكلم في ذمِّ الشهوات.

---

(١) فيض القدير ٣/ ٣٨٨ - ٣٨٩.

أخرجه أحمد[١] ومسلم[٢] وعبد بن حميد والدارمي والترمذي وأبو يعلىٰ[٣] وابن حبان[٤] من طريق ورقاء عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعًا. ورواه أحمد[٥] ومسلم[٦] والترمذي[٧] أيضًا من طريق ابن سلمة عن ثابت وحُمَيد كلاهما عن أنس مرفوعًا. ورواه القضاعي[٨] من طريق إسحاق بن محمد الفَرَوي، عن مالك، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة كذلك. ورواه البخاري[٩] من طريق مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة لكن بلفظ: «حُجِبت النار بالشهوات، وحُجِبت الجنة بالمكاره». ورواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفًا.

(وقوله ﷺ: **إن الله**) عَزَّوَجَلَّ (**خلق النار، فقال لجبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **اذهب فانظر إليها**) فذهب (**فنظر إليها، فقال: وعزَّتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فحفَّها بالشهوات**) أي جعلها كالسور المحيط بها (**ثم قال**) له: (**اذهب فانظر إليها**) فذهب (**فنظر**) إليها (**فقال: وعزَّتك لقد خشيتُ أن لا يبقىٰ أحد إلا دخلها. وخلق الجنة، فقال لجبريل**) عَلَيْهِ السَّلَامُ: (**اذهب فانظر إليها**) فذهب (**فنظر إليها، فقال: وعزَّتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فحفَّها بالمَكاره**) أي بالشدائد والمكروهات (**ثم قال: اذهب فانظر إليها**) فذهب (**فنظر إليها فقال: وعزَّتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد**) قال

---

(١) مسند أحمد ١٢/ ٤٩٧، ١٤/ ٥٠٧.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٨، ولم يسق لفظه.

(٣) هؤلاء الأربعة بعد مسلم رووه من حديث أنس، ولم يرووه من حديث أبي هريرة. المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٨٧. مسند أبي يعلىٰ ٦/ ٣٣. سنن الدارمي ٢/ ٤٣٧.

(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ٤٩٤.

(٥) مسند أحمد ٢٠/ ٢٨، ٢١/ ٢٤٨، ٤٢٧.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٨.

(٧) سنن الترمذي ٤/ ٣١٩.

(٨) مسند الشهاب ١/ ٣٣٢.

(٩) صحيح البخاري ٤/ ١٨٩.

العراقي[١]: رواه أبو داود[٢] والترمذي[٣] والحاكم[٤] وصحَّحاه من حديث أبي هريرة، وقدَّم فيه ذِكر الجنة.

(فإذًا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرًا إلىٰ المآل سببان ظاهران في الاسترسال) في المعاصي **(مع حصول أصل الإيمان)** وبقائه **(فليس كل مَن يشرب في مرضه ماء الثلج)** أي المبرَّد به **(لشدة عطشه)** وكثرة لهبه **(مكذِّبًا بأصل الطب، ولا مكذِّبًا بأن ذلك مضرٌّ في حقه، ولكن الشهوة تغلبه، وألم الصبر عنه ناجز)** في الحال **(فيهون عليه الألمُ المنتظَر)** في الحال.

(الثالث: أنه ما من) عبد **(مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم علىٰ التوبة وتكفير السيئات بالحسنات، وقد وُعد بأن ذلك يجبره، إلا أن طول الأمل غالب علىٰ الطباع)** مستولٍ عليها **(فلا يزال يسوِّف بالتوبة والتكفير)** مرة بعد أخرىٰ **(فمن حيث رجائه توفيقه للتوبة)** وفي نسخة: التوفيق للتوبة **(ربما يُقدِم عليه مع)** بقاء أصل **(الإيمان.**

الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبةَ إيجابًا لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتِّكالًا علىٰ فضل الله تعالىٰ.

فهذه أسباب أربعة موجِبة للإصرار علىٰ الذنب مع بقاء أصل الإيمان) في كلٍّ منها **(نعم، قد يُقدِم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل الإيمان)** ويخالفه **(وهو كونه شاكًّا في صدق الرسل، وهذا هو الكفر)** وهو **(كالذي يحذِّره الطبيب من تناوُل ما يضرُّه في المرض، فإن كان المحذِّر ممَّن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب)** أو حاذق فيه **(فيكذِّبه أو يشك فيه فلا يبالي به، وهذا هو الكفر.**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٠٧.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٢٤٥.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٣١٩.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٧١.

فإن قلتَ: فما علاج الأسباب الخمسة) المذكورة؟ (**فأقول**): علاجها الكلِّي (**هو الفكر**) أي استعماله (**وذلك بأن يقرِّر علىٰ نفسه في السبب الأول - وهو تأخُّر العقاب - أن كل ما هو آتٍ آتٍ، وأن غدًا للناظرين**) وفي نسخة: لناظره (**قريب، وأن الموت أقرب إلىٰ كل أحد من شِراك نعله**) كما في الصحيح من حديث عائشة: أن بلالاً لمَّا وعكَ بالمدينة كان يرفع عقيرته ويقول:

كل امـرئ مصبَّـح في أهلـه والمـوت أدنىٰ من شِـراك نعلـه[1]

وهو تحقيق لكمال تقريبه (**فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزًا. ويذكِّر نفسَه أنه أبدًا في دنياه يُتعِب [نفسَه]**[2] **في الحال لخوف أمر في الاستقبال؛ إذ يركب البحار**) والأوعار (**ويقاسي الأسفارَ لأجل**) تحصيل (**الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال. بل لو مرضَ وأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد**) مثلاً (**يضرُّه**) في مرضه (**ويسوقه إلىٰ الموت، وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه**) ولم يشربه (**مع أن الموت ألمه لحظة**) واحدة (**إذا لم يخَفْ ما بعده، ومفارقته للدنيا لا بد منها، فكم نسبة مدة وجوده في الدنيا**) وبقائه فيها (**إلىٰ عدمه أزلاً وأبدًا، فلينظر كيف يبادر إلىٰ ترك مَلاذِّه بقول ذِمِّي لم تقُم معجزةٌ علىٰ طبِّه، فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء**) عليهم السلام (**المؤيَّدين بالمعجزات**) الباهرة (**عندي دون قول نصراني**) طبيب (**يدَّعي الطبَّ لنفسه بلا معجزة علىٰ طبِّه ولا يشهد له إلا عوامُّ الخلق**) الذين لا عِبرة بهم (**وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا**) كما أخبر به الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [الحج: ٤٧] (**وبهذا التفكُّر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلِّف نفسه تركها ويقول: إذا كنتُ لا أقدر علىٰ ترك لذَّاتي أيام العمر وهي أيام قلائل**)

---

(١) الصحيح أن قائل ذلك هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقد تقدم ذلك في كتاب آداب السماع.

(٢) ليست في الجميع.

بالنسبة إلىٰ العدم (فكيف أقدر علىٰ ذلك أبد الآباد؟ وإذا كنت لا أطيق ألمَ الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع) كثرة همومها و(كدوراتها وتنغُّصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة) مع سلامته من المنغِّصات؟

(وأما تسويف التوبة) أي تأخيرها من وقت إلىٰ وقت (فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف) كما ورد ذلك في بعض الأخبار، وتقدم ذِكره (لأن المسوِّف يبني الأمر علىٰ ما ليس إليه وهو البقاء) بلا فناء (فلعله لا يبقىٰ، وإن بقي فلا يقدر علىٰ الترك غدًا كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شِعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة، والشهوة ليست تفارقه غدًا، بل تتضاعف) وتزداد (إذ تتأكَّد بالاعتياد، فليست الشهوة التي أكَّدها الإنسان بالاعتياد) عليها. وفي نسخة: بالعادة (كالتي لم يؤكِّدها، ومن هذا هلك المسوِّفون؛ لأنهم يظنُّون الفرق بين المتماثلين، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدًا شاقٌّ) أي شديد (وما مثال المسوِّف إلا مثال مَن احتاج إلىٰ قلع شجرة) من أصلها (فرآها قوية) راسخة في الأرض (لا تنقلع إلا بمشقَّة شديدة، فقال: أؤخِّرها سنةً ثم أعود إليها. وهو يعلم أن الشجرة كلَّما بقيت ازداد رسوخُها) في الأرض (وهو كلَّما طال عمرُه) بعد الأربعين (ازداد ضعفُه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته؛ إذ عجز مع قوَّته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعُفَ هو في نفسه وقويَ الضعيفُ.

وأما المعنىٰ الرابع - وهو انتظار عفو الله تعالىٰ - فعلاجه ما سبق) قريبًا (وهو كمَن ينفق جميع أمواله) علىٰ الفقراء والمساكين (ويترك نفسه وعياله فقراء) عالة (منتظرًا من فضل الله تعالىٰ أن يرزقه العثور) أي الاطِّلاع (علىٰ كنز في أرض خربة، فإنَّ إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان، وهو مثل مَن يتوقَّع النهب من الظَّلَمة في بلده وترك ذخائرَ أمواله في صحن داره وقدر علىٰ دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال: أنتظرُ من فضل الله تعالىٰ أن يسلِّط غفلة أو عقوبة علىٰ الظالم الناهب

حتىٰ لا يتفرَّغ إلىٰ داري) بل يشتغل عنها (أو إذا انتهىٰ إلىٰ داري مات علىٰ باب الدار) ولم يتمكَّن من أخذ الأموال (فإن الموت ممكن، والغفلة ممكنة، وقد حُكي في الأسمار) أي الحكايات عن الماضينَ ممَّن سمرَ بها (أن مثل ذلك) قد (وقع، فأنا أنتظر من فضل الله تعالىٰ مثله. فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن، ولكنه في غاية الحماقة) وقلة العقل (والجهل؛ إذ قد لا يمكن ولا يكون.

وأما الخامس - وهو الشك - فهذا كفر، وعلاجه الأسباب التي تعرِّفه صِدق الرسل، وذلك يطول) بيانه (ولكن يمكن أن يعالَج بعلم قريب يليق بحدِّ عقله فيقال له) وفي نسخة: فيقول (ما قاله الأنبياء المؤيَّدون بالمعجزات: هل صدقه ممكن؟ أو تقول: أعلمُ أنه مُحال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين) مختلفين (في حالة واحدة، فإن قال: أعلمُ استحالته كذلك، فهو أخرق معتوه) ذاهب العقل (وكأنَّه لا وجود لمثل هذا في العقلاء. وإن قال: أنا شاكٌّ فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظةً أنه ولغت فيه حيةٌ وألقت سمَّها فيه وجوَّزتَ صِدقه فهل تأكله أمْ تتركه وإن كان ألذ الأطعمة؟ فيقول: أتركه لا محالة؛ لأني أقول: إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام) اللذيذ (والصبر عنه وإن كان شديدًا فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياةُ) في الدنيا (والموت بالإضافة إلىٰ ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد) مهول (فيقال له: يا سبحان الله! كيف تؤخِّر صِدق الأنبياء) عليهم السلام (كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات) والآيات الدالَّة علىٰ ما قالوا (وصِدق كافَّة الأولياء والعلماء والحكماء، بل جميع أصناف العقلاء) من الإنس (ولست أعني بهم جهَّال العوامِّ، بل ذوي الألباب عن صِدق رجل واحد مجهول) لا يُعلَم كيفًا (لعل له غرضًا فيما يقول، فليس في العقلاء إلا مَن صدَّق باليوم الآخِر وأثبت ثوابًا وعقابًا) علىٰ الطاعة والعصيان (وإن اختلفوا في كيفيَّته، فإن صدقوا فقد أشرفتَ علىٰ عذاب يبقىٰ أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدَّرة، فلا يبقىٰ له توقُّف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر؛ إذ لا

نسبة لمدة العمر إلىٰ أبد الآباد، بل لو قدَّرنا الدنيا مملوءة ذُرة) وفي نسخة: بالذرة (وقدَّرنا طائرًا يلتقط في كل ألف ألف سنة حبةً واحدة منها لفنيت الذرةُ ولم ينقص من أبد الآباد شيءٌ، فكيف يفتر رأيُ العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقىٰ أبد الآباد) وذلك لا منتهىٰ له (ولذلك قال) أديب مَعَرَّة النعمان[1] (أبو العلاء أحمد بن سليمان التنُّوخي المعرِّي) تقدمت ترجمته:

(قال المنجِّم والطبيب كلاهما ... لا تُبعَث الأموات قلتُ إليكما

إن صح قولُكما فلستُ بخاسر ... أو صح قولي فالخَسار عليكما)[2]

فهذا كلامه مع منكِر الحشر (وكذلك قال عليٌّ رضي الله عنه لبعض مَن قصر عقلُه عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكًّا) في أمر الآخرة: (إن صح ما قلتَ فقد تخلَّصنا جميعًا، وإلا فقد تخلَّصت) أنا (وهلكتَ) أنت. وقد تقدم ذلك في كتاب ذم الغرور (أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

فإن قلتَ: هذه أمور جليَّة، ولكنها ليست تُنال إلا بالفكر، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلتها؟ وما علاج القلوب لردِّها إلىٰ الفكر لا سيَّما مَن آمن بأصل الشرع وتفصيله؟ فاعلمْ أن المانع من الفكر) في هذه الأمور (أمران:

أحدهما: أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان من النعيم المقيم، وهذا فكر لدَّاغ مؤلم للقلب) كأنَّه يلدغه (فينفر القلب عنه ويتلذَّذ بالفكر في أمور الدنيا علىٰ سبيل التفرُّج) والانبساط (والاستراحة.

---

(١) معرة النعمان: مدينة قديمة تقع ضمن محافظة إدلب شمال غرب سوريا، وتبعد عن مدينة حلب ٨٥ كم، وعن مدينة حماة ٦٠ كم.

(٢) البيتان في ديوان اللزوميات ٢/ ٣٠٠ (ط - مكتبة الخانجي). وفيه: لا تحشر الأجساد، بدل: لا تبعث الأموات.

والثاني: أن الفكر شغلٌ في الحال، مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفَس من أنفاسه شهوة قد تسلَّطت عليه واسترقَّته) أي أَسَرَتْه (فصار عقله مسخَّرًا لشهوته) أي منقادًا لها (فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذَّته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة، والفكر يمنعه من ذلك) فهذا سبب استثقال القلوب الفكرَ.

(وأما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألُّمًا بذكره مع استحقار ألم مواقعته! فكيف تصبر علىٰ مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر عن تقدير الموت وما بعده ومتألِّم به.

وأما الثاني - وهو كون الفكر مفوِّتًا للذَّات الدنيا - فهو أن يتحقَّق أن لذة[1] الآخرة أشد وأعظم، فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذَّات الدنيا سريعة الدثور) أي الذهاب والانطماس (وهي) مع ذلك (مشوبة بالمكدِّرات، فما فيها لذة صافية عن كدر، وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال علىٰ الطاعة تلذُّذ بمُناجاة الله تعالىٰ واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به، ولو لم يكن للمطيع جزاء علىٰ عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالىٰ لكان ذلك كافيًا) ولم يحتَجْ فيه إلىٰ ضميمة (فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟ نعم، هذه اللذَّة لا تكون في ابتداء التوبة، ولكنها بعدما تصير[2] عليها مدة مديدة فقد صار الخير ديدنًا) أي عادة وطبعًا (كما كان الشر) قبل ذلك (ديدنًا) وطبعًا (فالنفس قابلة لِما عوَّدتَها) راغبة ما رغَّبتَها (فتعوُّد الخير عادة، والشر لَجاجة) والعادة[3] من العَوْد إلىٰ الشيء مرةً بعد أخرىٰ. وأكثر ما تُستعمَل [اللجاجة] في المراجعة في الشيء المضرِّ بشؤم الطبع من غير تدبُّر عاقبته، ويسمَّىٰ فاعله لَجُوجًا.

---

(١) في الجميع: لذات.

(٢) في الجميع: يصبر.

(٣) فيض القدير ٣/ ٥١٠.

وروىٰ الطبراني في الكبير[١] عن ابن مسعود موقوفًا: «الخير عادة».

وروىٰ ابن ماجه[٢] والطبراني في الكبير[٣] وأبو نعيم في الحلية[٤] والبيهقي[٥] والقضاعي[٦] وابن عساكر[٧] من طريق يونس بن ميسرة بن حلبس عن معاوية بن أبي سفيان رفعه: «الخير عادة، والشر لَجاجة». زاد بعضهم فيه: «ومَن يُرِد الله به خيرًا يفقهّه في الدين».

(**فإذًا هذه الأفكار هي المهيِّجة**) أي الباعثة (**للخوف المهيِّج لقوة الصبر عن اللذَّات**) والشهوات (**ويهيِّج هذه الأفكارَ وعظُ الوعَّاظ وتنبيهات تقع للقلب**) علىٰ سبيل ورود الواردات (**بأسباب تتفق**) في بعض الأحوال والأحيان (**لا تدخل في الحصر**) ولا في الضبط (**فيصير الفكر موافقًا للطبع فيميل القلب إليه**) ومعنىٰ موافقته للطبع: الرجوع إلىٰ الخير والامتناع عن الشر، فيكون الفكر بمنزلة الحاكم، والطبع محكومًا عليه (**ويعبَّر عن السبب الذي أوقعَ الموافقةَ بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق؛ إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنىٰ الذي هو طاعة نافعة في الآخرة**) ويقرُب منه قولُ بعضهم[٨]: هو جعلُ الله فِعل عبده موافقًا لِما يحبه ويرضاه. وقول بعضهم[٩]: هو الهداية إلىٰ وفق الشيء وقدْره وما يوافقه. ويعبَّر عنه أيضًا بالتسديد (**وقد رُوي في حديث طويل**) يُروَىٰ من

---

(١) المعجم الكبير ٩/ ١٦٤، ٢٧٠. وفيه: «تعودوا الخير، فإن الخير بالعادة».

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٢١٠.

(٣) المعجم الكبير ١٩/ ٣٨٦.

(٤) حلية الأولياء ٥/ ٢٥٢.

(٥) شعب الإيمان ١١/ ١٣٥.

(٦) مسند الشهاب ١/ ٤٨.

(٧) تاريخ دمشق ٢٦/ ٣٨٢.

(٨) هو الجرجاني في التعريفات ص ٧٢.

(٩) هو أبو البقاء العكبري، كما في التوقيف للمناوي ص ١١٣.

طريق أهل البيت (**أنه قام عمار بن ياسر**) رضي الله عنه (**فقال لعلي** رضي الله عنه: **يا أمير المؤمنين، أخبِرْنا عن الكفر علىٰ ماذا بُني. فقال علي** رضي الله عنه: **بُني علىٰ أربع دعائم: علىٰ الجفاء والعمىٰ والغفلة والشك، فمَن جفا احتقر الحقَّ وجهر بالباطل ومقت العلماءَ**) أي أبغضهم (**ومَن عميَ نسي الذِّكر، ومَن غفل حادَ عن الرشد، ومَن شك غرَّته الأمانيُّ**[١] **فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب**) ولفظ القوت بعد قوله «عن الرشد»: وغرَّته الأماني فأخذته المساءة والندامة، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ومَن شك تاهَ في الضلالة، ورواه صاحب نهج البلاغة[٢] في حديث طويل عن علي رضي الله عنه قال فيه: والكفر علىٰ أربع دعائم: علىٰ التعمُّق والتنازع والزيغ والشِّقاق، فمَن تعمَّق لم يُنِب إلىٰ الحق، ومَن كثُر نزاعُه بالجهل دام عَماه عن الحق، ومَن زاغ ساءت عنده الحسنةُ وحسُنت عنده السيئةُ وسَكِرَ سُكْرَ الضلالة، ومَن شاقَّ وعُرت عليه طرقُه وأعضل عليه أمرُه وضاق [عليه] مَخرجه. والشك علىٰ أربع شُعَب: علىٰ التَّماري والهول والتردُّد والاستسلام، فمَن جعل المِراء ديدنًا لم يصبح ليلُه، ومَن هالَه ما بين يديه نكص علىٰ عقبيه، ومَن تردَّد في الرِّيَب وطئته سنابكُ الشياطين، ومَن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما.

قلت: هكذا رواه قبيصة بن جابر والعلاء بن عبد الرحمن وغيرهما قالوا: كنا جلوسًا عند علي بن أبي طالب إذ أتاه رجل من خُزاعة فقال: يا أمير المؤمنين، أخبِرْنا عن الإسلام والكفر علىٰ ماذا بُنيا ... فساقوه بطوله[٣]. ورواه الحارث عن علي مختصرًا.

(**فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكُّر**) إذ جعل الغفلة أحد مقامات الكفر وقرنها بالعمىٰ والشك وأحال صاحبَها عن الرشد ووصفه بالحسرة (**وهذا**

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج: حاد عن الرشد، وغرته الأماني...إلخ. بدون قوله: من شك.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨/ ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧٤ - ٧٥ مرفوعا، ولكن ليس فيه ما ذكره صاحب نهج البلاغة.

القدر في التوبة كافٍ) لذوي البصائر **(وإذا كان الصبر ركنًا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر، فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالىٰ)** وبهذا ينكشف لك سر الترتيب الذي رتَّبه المصنِّف رحمه الله تعالىٰ في هذا الكتاب، فما أغزر علمه وأدق نظره! فنسأل الله تعالىٰ أن يزيدنا علمًا ويرحمنا فيما نعلم بمَنِّه وسعة جوده.

وبه تم شرح كتاب التوبة.

خاتمة في ذِكر ما يتعلق من التنبيهات والإشارات في التوبة: قال أبو القاسم القشيري في الرسالة: إن للتوبة أسبابًا وترتيبًا وأقسامًا، فأول ذلك انتباه القلب عن رقدة الغفلة ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، ويصل إلىٰ هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلىٰ ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه بسمع قلبه، فإذا فكَّر بقلبه في سوء ما يصنعه وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال رسخت في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة، فيمدُّه الحق سبحانه بتصحيح العزيمة، والأخذ في جميع الرجوع[1]، والتأهُّب لأسباب التوبة، فأول ذلك هجران إخوان السوء، فإنهم هم الذين يحملونه علىٰ ردِّ هذا القصد، ويشوِّشون عليه صحةَ هذا العزم، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة علىٰ المشاهدة التي تزيد رغبتَه في التوبة، وتوفِّر دواعيه علىٰ إتمام ما عزم عليه ممَّا يقوِّي خوفَه ورجاءه، فعند ذلك تنحلُّ من قلبه عقدةُ الإصرار علىٰ ما هو عليه من قبيح الفِعال فيقف عن تعاطي المحظورات، ويكبح لِجام نفسه عن متابعة الشهوات، فيفارق الزَّلَّة في الحال، ويبرم العزيمة علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثلها في الاستقبال، فإن مضىٰ علىٰ موجِب قصده ونفذ بمقتضَىٰ عزمه فهذا الموفَّق صدقًا وإن نقض التوبة مرة أو مرات، وتحمله إرادته علىٰ تجديدها، وقد يكون مثل هذا كثيرًا، فلا ينبغي قطعُ الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء، فإنَّ لكل أجل كتابًا. حُكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: اختلفت إلىٰ مجلس قاصٍّ، فأثَّر كلامُه في قلبي، فلما قمت لم يبقَ في قلبي منه شيء، فعدت ثانيًا فسمعت كلامه،

(١) في ط الأزهر: جميل الرجعىٰ. وفي ط عبد الحليم محمود: جميل الرجوع.

فبقي في قلبي كلامُه في الطريق، ثم زال عن قلبي، فعدت ثالثًا، فبقي أثر كلامه في قلبي، حتىٰ رجعت إلىٰ منزلي فكسرت آلات المخالفات ولازمت الطريق. فحكىٰ هذه الحكاية ليحيىٰ بن معاذ، فقال: عصفور اصطاد كركيًّا. أراد بالعصفور ذلك القاصَّ، وبالكركي أبا سليمان الداراني[١]. ويُحكَىٰ عن أبي حفص الحدَّاد أنه قال: تركت العمل كذا وكذا مرة، فعدت إليه، ثم تركني العمل، فلم أعُدْ بعدُ إليه[٢]. وقيل: إن أبا عمرو ابن نُجَيد في ابتداء أمره اختلف إلىٰ مجلس أبي عثمان، فأثَّر في قلبه كلامُه فتاب، ثم إنه وقعت له فترة، فكان يهرب من أبي عثمان إذا رآه ويتأخر عن مجلسه، فاستقبله أبو عثمان يومًا فحادَ أبو عمرو عن طريقه وسلك طريقًا آخر، فتبعه أبو عثمان، فما زال به يقفو أثَرَه حتىٰ لحقه، ثم قال له: يا بني، لا تصحب مَن لا يحبك إلا معصومًا، إنما ينفعك أبو عثمان في مثل هذه الحالة. قال: فتاب أبو عمرو وعاد إلىٰ الإرادة وتعبَّد[٣]. سمعت الشيخ أبا علي الدَّقَّاق يقول: تاب بعض المريدين، ثم وقعت له فترة، فكان يفكِّر وقتًا لو عاد إلىٰ التوبة كيف كان حكمه، فهتف به هاتف: يا فلان، أطعتنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك، فإن عدتَ إلينا قبلناك. فعاد الفتي إلىٰ الإرادة وتعبَّد. فإذا ترك المعاصي وحلَّ عن قلبه عقدةَ الإصرار وعزم علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثله فعند ذلك يخلُص إلىٰ قلبه صادقُ الندم، فيتأسَّف علىٰ ما عمله، ويأخذ في التحسُّر علىٰ ما ضيَّعه من أحواله وارتكبه من قبيح أعماله، فتتم توبتُه وتصدُق مجاهدته، واستبدل بمخالطته العزلةَ، وبصحبته مع إخوان السوء التوحُّشَ عنهم والخلوة [دونهم] ويصل ليله بنهاره في التلهُّف، ويعتنق في عموم أحواله صِدق التأسُّف، ويمحو بصبوب[٤] عَبرته آثارَ عثرته،

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٢٥.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٠ بلفظ: «تركت العمل فرجعت إليه، وتركني العمل فلم أرجع إليه».

(٣) وهذه الحكاية رواها الخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ١٤٥ عن أبي عمرو ابن نجيد.

(٤) في ط الأزهر: بصوب.

ويأسو بحسن توبته كلومَ حوبته، يُعرَف من بين أمثاله بذبوله، ويُستدَلُّ علىٰ صحة حاله بنحوله، ولن يتم له شيء من هذا إلا بأربعة: فراغه[١] من إرضاء خصومه، والخروج عمَّا لزمه من مظالمه، فإن أول منزلة في التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه، فإن اتَّسعت ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم أو سمحت نفوسهم بإحلاله والبراءة عنه[٢]، وإلا فالعزم بقلبه علىٰ أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان، والرجوع إلىٰ الله بصدق الابتهال والدعاء لهم. وللتائبين صفات وأحوال هي من خصالهم، يُعَدُّ ذلك من جملة التوبة؛ لكونها من صفاتهم، لا لأنها من شروط صحتها، وإلىٰ ذلك تشير أقاويل الشيوخ في معنىٰ التوبة. ثم ساقها، فمن ذلك قول أبي علي الدَّقَّاق: التوبة بداية، والأوبة نهاية، والإنابة واسطتهما[٣]، فكل مَن تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعًا في الثواب فهو صاحب إنابة، ومَن تاب مراعاةً للأمر لا لرغبة في الثواب ولا لرهبة من العقاب فهو صاحب أوبة. ويقال أيضًا: التوبة صفة المؤمنين، والإنابة صفة [الأولياء و] المقرَّبين، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين. وقال الجنيد: سمعت الحارث يقول: ما قلتُ قط: اللهم إني أسألك التوبةَ، ولكن أقول: أسألك شهوة التوبة. وسُئل ذو النون المصري عن التوبة، فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وقال أبو الحسين النوري: التوبة أن تتوب من كل شيء سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ. وقال عبد الله بن علي التميمي: شَتَّان ما بين تائب يتوب من الزَّلاَّت وتائب يتوب من الغفلات وتائب يتوب من رؤية الحسنات. وكان يحيىٰ بن معاذ يقول: إلهي، لا أقول: تبتُ ولا أعود؛ لِما أعرف من خُلْقي، ولا أضمن ترك الذنوب؛ لِما أعرف من ضعفي، ثم إني أقول: لا أعود، لعلِّي أموت

(١) في طبعتي الرسالة: لن يتم له شيء من هذا إلا بعد فراغه ...إلخ. فليس فيهما ذكر للأربعة.

(٢) قال شيخ الإسلام زكريا في إحكام الدلالة ٢/ ١١٥: الأولىٰ عنها. أي بأن يحللوه أو يبرئوه منها.

(٣) الذي في الرسالة: «سمعت أبا علي الدقاق يقول: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة». ثم قال القشيري: فجعل التوبة بداية ... الخ.

قبل أن أعود[١]. وسُئل ابن يزدانيار عن العبد إذا خرج إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ أي أصل يخرج؟ فقال: علىٰ أن لا يعود إلىٰ ما منه خرج، ولا يراعي غيرَ مَن إليه خرج، ويحفظ سره عن ملاحظة ما تبرَّأ منه. فقيل له: هذا حكم مَن خرج عن وجود، فكيف حكم مَن خرج من عدم؟ فقال: وجود الحلاوة في المستأنَف عوضًا عن المرارة في السالف. وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، ثم لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك[٢]. وقيل لأبي حفص: لِمَ يبغض التائب الدنيا؟ فقال: لأنها دار باشَرَ فيها الذنوبَ. فقيل له: فهي أيضًا دار قد أكرمه الله فيها بالتوبة. فقال: إنه من الذنب علىٰ يقين، ومن قبول التوبة علىٰ خطر. وقال رجل لرابعة: إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو تبتُ هل يتوب عليَّ؟ فقالت: لا، بل لو تاب عليك لتبتَ. وقال يحيىٰ بن معاذ: زلَّة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. وقال أبو عمر الأنماطي: ركب علي بن عيسىٰ الوزير في موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: مَن هذا؟ من هذا؟ فقالت امرأة قائمة علىٰ الطريق: إلىٰ متىٰ تقولون من هذا من هذا؟ هو عبدٌ سقط من عين الله تعالىٰ فابتلاه بما ترون. فسمع علي بن عيسىٰ ذلك فرجع إلىٰ منزله واستعفىٰ من الوزارة وذهب إلىٰ مكة وجاور بها[٣].

إلىٰ هنا كلام القشيري، وقد اختصرت في سياقه.

وقال صاحب العوارف: توبة الاستجابة لمثلثي هي أن تستحي من الله لقربه منك. وإذا تحقق [العبد] بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلمُّ به سوىٰ الله،

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٦/ ٣٠٧ بلفظ: «إلهي، لا أقول لا أعود لا أعود؛ لأني أعرف من نفسي نقض العهود، لكني أقول: لا أعود، لعلي أموت قبل أن أعود».

(٢) في الكشف والبيان للثعلبي ٩/ ٣٥٠ وتفسير القرطبي ٢١/ ٩٧ والمحرر الوجيز لابن عطية ص ١٨٧٥ نسبة هذا القول لأبي بكر الوراق، لكن بلفظ: «التوبة هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت وتضيق عليك نفسك كتوبة الثلاثة الذين خلفوا».

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٣/ ١٢٤.

ويستغفر الله منه، وهي لازمة لبواطن أهل القُرب، كما قيل:

* وجودك ذنب لا يُقاس به ذنب[1] *

قال: وسُئل أبو يعقوب السوسي عن التوبة، فقال: التوبة من كل شيء ذمَّه العلمُ إلىٰ ما مدحه العلم[2]. قال: وهذا وصفٌ يعمُّ الظاهرَ والباطن لمَن كوشِف بصريح العلم؛ لأنه لا بقاء للجهل مع العلم، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس، وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام، وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخصِّ أوصاف التوبة وأعم أوصافها.

وقال صاحب القوت: قال أبو محمد سهل: ليس من الأشياء أوجب علىٰ الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد عليهم من فقدِ علم التوبة، وقد جهل الناسُ علم التوبة. وقال: مَن يقول إن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومَن رضي بقوله فهو كافر. وقال بعض علماء الشام: لا يكون المريد تائبًا حتىٰ لا يكتب عليه صاحب الشِّمال معصيةً عشرين سنة. وكان إبراهيم بن أدهم يقول: منذ أربعين سنة أشتهي أن أشتهي لأترك ما أشتهي فلا أجد ما أشتهي. وإذا أتبع العبدُ الذنبَ بالذنب ولم يجعل بين الذنبين توبة خِيفَ عليه الهَلَكة؛ لأن هذا حال المصرِّ، ولأنه قد شرد عن مولاه بترك رجوعه إليه ودوام مقامه مع النفس علىٰ هواه، وهذا مقام المقت والبعد، فأفضل ما يعمله العبد قطعُ شهوات النفس أحلىٰ ما يكون عنده الهوىٰ؛ إذ

---

(١) ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/ ٣٧٤ وابن كثير في البداية والنهاية ١٤/ ٧٦٩ والصفدي في الوافي بالوفيات ١١/ ١٥٦ عن أبي القاسم الجنيد أنه قال: ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها، مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار، فأنصت لها، فسمعتها تقول:

إذا قلت أهدىٰ الهجر لي حلل البلىٰ ... تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الهوىٰ ... تقولي بنيران الهوىٰ شرف القلب
وإن قلت ما أذنبت قلتِ مجيبة ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

(٢) روىٰ الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ١٦٦ مثله عن أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي.

ليس لشهواتها آخِر يُنتظَر، كما ليس لبدايتها أول يُرتَسم، فإن لم يقطع ذلك لم تكن له نهاية، فإن شُغل بما يستأنف من مزيد الطاعة ووجد حلاوة العبادة وإلا أخذ نفسه بالتصبر والمجاهدة، وهذه طريق الصادقين من المريدين، ثم لا يتَّخذ التائب عادة من ذنب تتعذَّر عليه توبته، فإنَّ العادة جند من جنود الله تعالىٰ لولاها لكان الناس كلهم تائبين، ولولا الابتلاء لكان التائبون كلهم مستقيمين، وأضرُّ شيء علىٰ التائب تمكينه خاطر السوء من قلبه بالإصغاء إليه، فإنه سبب هلكته، وكل سبب يدعو إلىٰ معصية أو يذكِّر بمعصية فهو معصية، وكل سبب يؤول إلىٰ ذنب ويؤدي إليه فهو ذنب وإن كان مباحًا وقطعُه طاعة، وهذا من دقائق الأعمال، وقد كان يقال: مَن أتىٰ عليه أربعون وهو العمر وكان مقيمًا علىٰ ذنب لم يكدْ يتوب منه إلا القليل من المتداركين، وقد اشترط تعالىٰ علىٰ التائبين من المؤمنين شرطين(١)، وشرطَ علىٰ التائبين من المنافقين أربعة شروط؛ لأنهم اعتلُّوا بالخلق في الأعمال فأشركوهم بالخالق في الإخلاص، فضعَّفَ عليهم الشرط تشديدًا لشدة دخولهم في المقت، واعتلَّ غيرُهم بوصفه فخفَّف عنهم شرطين فقال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠] فقوله «تابوا» أي رجعوا إلىٰ الحق من أهوائهم، و«أصلحوا» يعني ما أفسدوا بنفوسهم، و«بيِّنوا» فيه وجهان، أحدهما: بيَّنوا ما كانوا يكتمون من الحق ويخفون من حقيقة العلم، وهذا لمَن عصىٰ بكتم العلم وستر الحق بالباطل. وقيل: بيَّنوا توبتهم حتىٰ تبيَّن ذلك فيهم وظهرت أحكام التوبة عليهم. وقال تعالىٰ في الشرطين الآخرين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٤٥ - ١٤٦] لأنهم كانوا يعتصمون بالناس وبالأموال، وكانوا يراؤون بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصامَ بالله والإخلاص لله. وقال بعض العارفين: العامة يتوبون من سيئاتهم، والصوفية يتوبون من حسناتهم. يعني من تقصيرهم في أدائها؛ لعِظم

(١) في القوت: ثلاث شرائط.

ما يشهدون من حق الملك العزيز المقابَل بها ومن نظرهم إليها وإلىٰ نفوسهم بها، وهي منَّة إليهم واصلة. قال: وإنما حُرم بعض التائبين المزيد ولم يجدوا حلاوة التوبة لتهاونهم بحال الرعاية وتسامحهم بترك حُسن القيام بشاهد المراقبة، وذلك من قلة إحكام أمر التوبة، ولو قاموا بحكم التوبة من الذنب الواحد وأحكموا حال توَّاب من الصادقين في التوبة لم يعدموا من الله المزيد؛ لأنهم محسنون، فهم في تجديد، قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [البقرة: ٥٨] فإذا رأيتك مستقيمًا علىٰ التوبة عاملاً بالصالحات ولم تجدك علىٰ مزيد من ميراث بوجد حلاوة أو حُسن خليقة أو عزوف زهد أو خاصِّية معرفة فارجع إلىٰ باب المراقبة أو موقف الرعاية فتفقَّدْهما وأحكِمْ حالَهما فمن قِبَلهما أُتيتَ. وقال بعض العلماء: مَن تاب من تسعة وتسعين ذنبًا ولم يتُب من ذنب واحد لم يكن عندنا من التائبين. واعلمْ أن حقيقة التوبة من كل ذنب عشرة أعمال، ولا يكون العبد توابًا يحبه الله ولا تكون توبته نصوحًا التي شرطها اللهُ تعالىٰ وفسَّرتها النبوَّة إلا أن يُحكِم العبدُ عشر توبات من كل ذنب، أولها: تركُ العَوْد إلىٰ فعل الذنب، ثم يتوب من القول به، ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب، ثم التوبة من السعي في مثله، ثم التوبة من النظر إليه، ثم التوبة من الاستماع إلىٰ القائلين به، ثم التوبة من الهمَّة به، ثم التوبة من التقصير في حق التوبة، ثم التوبة من أن لا يكون أراد وجه الله خالصًا بجميع ما تركه لوجهه، ثم التوبة من النظر إلىٰ التوبة والسكون إليها والإدلال بها، وهذا مطالعة التوحيد وعلو الإشراف بالمريد، ثم يشهد بعد ذلك كله تقصيرَه عن القيام بحق الربوبية لعِظَم ما يشهد من جلاله، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته، ويكون استغفاره من توبته لمَّا ضعُف قلبُه ونقص همُّه عن معاينة مشاهدةٍ لعلوِّ مقامه ودوام مزيده واعلامه، ولكل مقام توبة، ولكل حال من مقامات التوبة توبة، ولكل مشاهدة ومكاشَفة توبة، فهذا حال التائب المنيب الذي هو من الله مقرَّب وعنده حبيب، وهذا مقام مُفتَّن تواب، أي مختبَر بالأشياء،

مبتلًىٰ بها، تواب إلىٰ الله تعالىٰ منها، راجع إليه عنها، ناظر إليه بها لينظر مولاه أينظر بقلبه إليه أو إليها، أو يعتكف [بهمَّته] عليه أو عليها، أو يطمئن بوجودها إليها أو اليه، أو يطلب إياه هربًا منها أو إياها، فعليه من كل مشاهدة لسواه ذنب، وعليه من كل سكون إلىٰ سواه عَتْبٌ، كما له من كل شهادة علمٌ، ومن كل إظهار في الكون حكمٌ، فذنوبه وتوباته إلىٰ الله تعالىٰ لا تُحصَىٰ. انتهىٰ.

وروىٰ صاحب نهج البلاغة(١) أن عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لرجل قال بحضرته أستغفر الله: ثكلتك أمُّك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العِلِّيين، وهو اسم واقع علىٰ ستة معانٍ، أولها: الندم علىٰ ما مضىٰ، والثاني: العزم علىٰ ترك العَود إليه أبدًا، والثالث: أن تؤدي إلىٰ المخلوقين حقوقَهم حتىٰ تلقىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ [أملس] ليس عليك تَبِعة، والرابع: أن تعمد إلىٰ كل فريضة ضيَّعتَها فتؤدي حقها، والخامس: أن تعمد إلىٰ اللحم الذي نبت علىٰ السُّحت فتذيبه بالأحزان حتىٰ يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسمَ ألمَ الطاعة كما أذقتَه حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله.

وقال صاحب القاموس في كتاب البصائر(٢): قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١] قسَّم العباد إلىٰ تائب وظالم، وما ثَم قسم ثالث البتَّة، وأوقع الظلم(٣) علىٰ مَن لم يتُب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربِّه وبحقه وبعيب نفسه وبآفات أعماله. واعلمْ أن صاحب [البصيرة إذا صدرت منه الخطيئةُ فله في توبته نظرٌ إلىٰ أمور:

أحدها]: النظر إلىٰ الوعد والوعيد فيُحدِث له ذلك خوفًا وخشية يحمله

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٢٧٨. وهذا الأثر أورده أيضا ابن حمدون في تذكرته ١/ ٨٩ - ٩٠. وروىٰ البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٣٦٥ نحوه عن ذي النون المصري.

(٢) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٠٤ - ٣١٢.

(٣) كذا في البصائر، وفي المدارج الذي هو أصل كلام صاحب البصائر: وأوقع اسم الظالم ...إلخ.

علىٰ التوبة.

الثاني: أن ينظر إلىٰ أمره ونهيه فيُحدِث له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئة والإقرار علىٰ نفسه بالذنب.

الثالث: أن ينظر إلىٰ تمكين الله تعالىٰ إياه منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه منها فيُحدِث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ومغفرته [وعفوه] وحِلمه وكرمه، وتوجب له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها، ويعلم ارتباط الخلق والأمر والجزاء بالوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجَب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود، وأن كل اسم مفيض لأثره، وهذا المشهد يُطلِعه علىٰ رياض مونقة المعارف، والإيمان وأسرار القدَر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاقُ الكلم والنظر.

الرابع: نظرُه إلىٰ الآمر له بالمعصية وهو شيطانه الموكَّل به، فيفيده النظرُ إليه اتخاذَه عدوًّا وكمال الاحتراز منه والتحفُّظ والتيقُّظ لِما يريده منه عدوُّه وهو لا يشعر به، فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات بعضها أصعب من بعض: عقبة الكفر بالله ودينه ولقائه. ثم عقبة البدعة إما باعتقاده خلاف الحق وإما بالتعبُّد بما لم يأذن به الله من الرسوم المحدَثة، قال بعض مشايخنا(١): تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة فوُلد بينهما خسران الدنيا والآخرة. ثم عقبة الكبائر وتزيينها له وإن كان الإيمان فيه الكفاية. ثم عقبة الصغائر بأنها مغفورة ما اجتُنِبت الكبائر، فما يزال يحبِّبها إليه حتىٰ يصرَّ عليها. ثم عقبة المباحات، فيشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وأقل ما يناله منه تفويت الأرباح العظيمة. ثم عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة، يزيِّنها له، ويشغله بها عمَّا هو أفضل وأعظم ربحًا، ولكن أين أصحاب

(١) في المدارج: قال شيخنا. يعني أبا العباس ابن تيمية، رَحِمَهُ اللهُ.

هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم. والأكثرون قد ظفر بهم في العقبة الأولىٰ، فإن عجز عنه في هذه العقبات جاءه في عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذىٰ علىٰ حسب مرتبته في الخير.

قال: ووردت التوبة في القرآن علىٰ ثلاثة أوجُه، الأول: بمعنىٰ التجاوُز والعفو، وهذا مقيَّد بـ «علىٰ»: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤، ١٨٧، المزمل: ٢٠] ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨، الأحزاب: ٢٤] ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥] الثاني: بمعنىٰ الرجوع والإنابة، وهذا مقيَّد بـ «إلىٰ»: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣، الأحقاف: ١٥] ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣١] الثالث: بمعنىٰ الندم علىٰ الزَّلَّة، وهذا غير مقيَّد لا بـ«إلىٰ» ولا بـ«علىٰ»: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠، النساء: ١٤٦] ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٣] ويقال: إن التوبة من طريق المعنىٰ علىٰ ثلاثة أنواع، فالأول: التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين ربه، وهذه تكون بندامة الجَنان واستغفار اللسان. والثاني: التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين طاعة الرب، وهذه تكون بجبر النقصان الواقع فيها. والثالث: [التوبة] من ذنب يكون بين العبد وبين الخلق، وهذه تكون بإرضاء الخصوم بأيِّ وجه من الإمكان. ومن طريق اللفظ وسبيل اللطف علىٰ ثلاثة وثلاثين درجة [الثانية] منها: لا تكون [التوبة] مثمرة حتىٰ يتم أمرُها، ولا تظن أنك فريد فيها، فإن أباك آدم كان مقدَّم التائبين. وإذا أردتَ التوبة فهو المريد لتوبتك، فإذا تاب فتوبته عليك جزاؤه بمحبَّته، ولا تُقبَل توبة مَن يؤخِّرها إلىٰ آخر الوقت، ومَن توقَّف عن سلوك طريق الناس وُسِمَ جبين حاله بميسم الخائبين، والرجال لا يُقعِدهم علىٰ سُرُر السرور إلا التوبة، ولا يُنال مقام التوبة إلا بتوفيق الله، وإذا تاب المؤمن أقبل الله عليه بالقبول وكفل له نيل المأمول، ومَن تاب كان في أمان الإيمان، مصاحب لسلاح الصلاح، ومَن تاب وقصد الباب حصل له الفرج بأفضل الأسباب، وإذا أقبل العبد علىٰ باب التوبة استحكم عقدُ أخوَّته مع أهل الإيمان، ومَن أثار غبارَ المعاصي وأتبعه

برشاش الندم غلَّبت الحكمةُ الإلهية طاعتَه علىٰ معصيته، ومَن لاذ وتحرَّم بالتوبة قبل القدرة عليه فلا سبيل للإيذاء إليه.

وعلىٰ هذا القدْر وقع الاقتصار في ذِكر ما يليق بالتوبة من الإشارات والتنبيهات. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد، سيد المخلوقات، الشافع المشفَّع للمذنبين في العرصات، وعلىٰ آله وصحبه الثقات الأنجُم الهُداة.

كان الفراغ منه في الثاني عشر من رجب الفرد الحرام سنة ١٢٠٢. والحمد لله الموفِّق للصواب، وإليه المرجع والمآب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

فهرس موضوعات كتاب التوبــة

٣١ - كتاب التوبــة